خفاجي، محمد عبد المنعم
قصة الادب في الاندلس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032754

اسم بلسرويه وحفظ الاغاني
ص ٩٤ ع

SAFETY LIB.
- 4 JAN 2017
Circulation Dept. 4

DATE DUE		

محمد عبد المنعم خفاجي

892.709
KH63KA
V.1-5

قصة

الأدب في الأندلس

١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة المنيرية

تمهيد

ذكرى خالدة

ذكرى خالدة حقاً ، فهى ليست ذكرى رجل وإن عظم ، أو فرد وإن جلّ ، إنما هى ذكرى أمة مجيدة ، وشعب عريق ، ودولة لم تكن تثنى هامتها أمام الأعاصير ، ذكرى شعب عربى عزيز ، عاش فى الأندلس[1] العربية الشهيدة ، الأندلس التى فتحها العرب بدمائهم وأرواحهم ، وازدهرت فيها الحضارة العربية طيلة ثمانية قرون (٩٢ — ٨٩٧ هـ) ، والتى أثل المدنية والعمران والمجد فيها هؤلاء العرب ، الغر الميامين ، الذين دانت لحكمهم الدنيا ، وأنصت لسلطانهم التاريخ . الأندلس التى انبثق منها النور والعرفان فى العصر القديم يضىء ظلمات أوربا ، ويدعو إلى تحرير العقول والأفكار والأرواح ، وإلى حياة جديدة تقضى على الجهل والرجعية والإقطاع والجمود . الأندلس

---

(١) كلمة « أندلس » مأخوذة من « أندلوشيا » ، وأصلها « فاندلوشيا » نسبة إلى « الفندال » وهو اسم للأمة المتبربرة ، التى نزلت هذه البلاد فى القرن الخامس الميلادى ، وقد أطلق العرب كلمة الأندلس على جميع البلاد المعروفة الآن باسم : أسبانيا والبرتغال ، فهى شبه الجزيرة الشامل لهاتين المملكتين ، الواقع بين خطى عرض ٣٦ و ٤٣ شمالا ، وكثيراً ما يطلقون عليها « جزيرة الأندلس » تساهلا ، كما سموا جزيرة العرب ، وسميت « اسبانيا » أخذا من « إشبان » ملك الروم الذى أسس مدينة إشبيلية . فشبه الجزيرة كلها يسميه العرب « الأندلس » ، ويسميه اليونان إيبيريا ، ويسميه الرومان اسباتيا ، وشبه جزيرة إيبريا واقعة فى الجنوب الغربى من قارة أوربا ، وهو وإن أطلق العرب عليه اسم الجزيرة مع أن الماء لا يحيط به من جميع جهاته ، بيد أنهم شاهدوا الماء يحيط بما رأوا منها فأطلقوا عليه جزيرة تجوزا ، كما أطلقوا على شبه الجزيرة كلها اسم الأندلس ، وإن كان اسم الأندلس إنما يطلق على الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة فحسب ، هذا الجزء الجنوبى الذى يرويه نهر الوادى الكبير ، وتمتد مقاطعة الأندلس إلى الشمال من هذا الوادى =

ذات التاريخ العريق ، والمجد التليد ، بساستها وأمرائها ومفكريها وعلمائها ،

= وإلى الجنوب والشرق منه حتى بحر الروم تجاه بلاد المغرب الأقصى ، حيث يفصلها عن قارة إفريقية بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق .

وتشمل بلاد الأندلس وغيرها مما وقع تحت حكم العرب وأطلقوا عليه اسم الأندلس قسما من الهضبة العظيمة التي يتكون منها الجزء الأكبر من بلاد أسبانيا. وأجزاء هذه الهضبة ينفصل بعضها عن بعض بحيث يعتبر كل واد مستقلا عن الآخر ، وتجرى فيها أنهار كثيرة ، يصب بعضها غربا فى المحيط الأطلنطى ، كنهر الوادى الكبير . تمتد به الجبال شمالا وجنوبا ووديانه كثيرة البساتين الأنيقة والرياض النضرة ، وعليه تقع مدينة قرطبة التى كانت من أشهر مدن الأندلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن ، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم واشتهرت بمبانيها العظيمة وبمساجدها التى من أشهرها مسجد قرطبة الكبير ، وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلاسفة ، وتقع عليه كذلك مدينة إشبيلية وغرناطة ، وكنهر باجه التى تقع عليه مدينة طليطلة التى كانت من أشهر بلاد الأندلس .. وبعض هذه الأنهار يصب شرقا فى بحر الروم مثل نهر ابره الواقعة عليه مدينة سرقسطة ، وكانت من البلاد الصناعية زمن العرب ، وكان بها المتنزهات الجميلة والقصور العظيمة وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهوريهم .

ومن البدهى أن شبه الجزيرة كله يقع شماليه جبال البرانس وخليج بسكاى ، وحده الجنوبى هو الخليج الرومى وبحر الزقاق ويعرف الآن ببوغاز جبل طارق الذى يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسى ، وتقع بالقرب منه الجزيرة الخضراء ذات الموقع الجميل ، وعرض هذا الخليج اثنا عشر ميلا تقريبا ، وشرقى الجزيرة البحر الأبيض المتوسط ، وغربيها المحيط الأطلسى أو البحر الأعظم أو بحر الظلمات . وجو هذه البلاد فى جملته معتدل الحرارة صيفا وشتاء ، فبينما تصد جبال البرانس عنها الرياح الباردة تمر عليها تيارات دفيئة تكسبه دفئا وحرارة ، وتسقط الأمطار على شرقها شتاء وعلى شمالها وغربها طول العام ، فتفيض الأنهار بماء هذه الأمطار الهاطلة الغزيرة ، وتخصب بها تربة البلاد فتنبت الغابات والحبوب والفواكه والكروم ، وتكثر فيها المراعى التى تربى عليها الأغنام .

ومن الهضبة الأندلسية يستخرج النحاس والزئبق والقصدير ، وعلى العموم فهذه البلاد تمتاز بجمال الطبيعة ، وخصب التربة ، وكثرة الأمطار ، مما كان له أثر فى توجيه حضارتها وجهة خاصة مستقلة .

وبمدنها الرائعة الجميلة : من أمثال قرطبة (١) ، وإشبيلية (٢) ، وطليطلة (٣) ،

---

(١) كانت فى الدولة الأموية قبة الإسلام ، وملاذ أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة فى الرواية ، إذا كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، قالوا : وجرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب ، وبين أبى الوليد ابن رشد ، والرئيس أبى بكر بن زُهر ، فى المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية ، فأريد بيع كتبه ، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلاته ، حملت إلى إشبيلية ، وكانت قرطبة أكثر بلاد الله كتباً . . وكان بها مسجد الداخل الذى أصبح كتدرائية طولها ٢٠٧ مترا ، وعرضها ١٤٧ مترا ، وبها ٨٥٠ اسطوانة من المرمر ، ولها عشرون بابا ، وست عشرة قبة . وبها الجسر الأكبر ، على النهر الأعظم ، الذى قيل إنه بنى بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . ويقال إنه لم تبلغ مدينة من مدن الإسلام من العز والحضارة ما بلغته قرطبة ، عدا بغداد . وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادى ، وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شىء ، وهو رابعها

ولم تزل عاصمة البلاد خلال حكم الأمويين (١٣٨ — ٤٢٧ هـ) .

(٢) من محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المبانى ، ونهرها الأعظم الذى يبلغ المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سفر المرينى :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءاً ، فضم من الحياء إزاره

وقيل لمن رأى مصر والشام : أيهما أحسن ، أهذان أم اشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرقيها غابة بلاأسد ، ونهرها نيل بلاتمساح . وكانت عاصمة ملك المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف .

(٣) طليطلة تطل على نهر باجه ، وكانت قاعدة القوط ، وفيها وجد طارق ابن زياد مائدة سليمان بن داود ، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم ، أخذها من

وغرناطة[1] وجيان ، وشلب ، وتقع فى حوض نهر الوادى الكبير ، ماعدا

بيت المقدس ، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ؟ وقيل إنها كانت من زمرد أخضر ، وإنها الآن برومة . وكذلك أصاب فيها طارق من الذخائر العظيمة مالا يكاد يصدقه العقل . وقد صارت فى الإسلام قاعدة بنى ذى النون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة .

(١) غرناطة هى مولد لسان الدين بن الخطيب ، وفيها يقول الشاعر :

غرناطة ما لها نظير مامصرُ، ما الشام ، ما العراق؟
ما هى إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة إلبيرة ، التى منها غرناطة دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق فى غزارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ، وكانت غرناطة قاعدة بنى الأحمر (٦٢٩ — ٨٩٧ هـ) ، وبها قصر الحمراء المشهور ، وعنها رحل الإسلام من بلاد الأندلس .

وقد نشأت غرناطة فى أواخر القرن الثامن ، وبناها ملوك الإسلام فى الغرب ؛ فبنى غرناطة أحد ملوك الأندلس ، كما بنى فاس أحد الملوك الأدارسة ، وكلتاهما تقوم فى بقعة من بقاع الأرض متشابهة برياضها وتلالها وجداولها . وقد ازدهرتا معاً ، وقامت بينهما صلات وثيقة تجارية وغير تجارية ، وخاصة فى عهد المرابطين. وقد لاحظ المؤرخون والكتاب الأسبانيون هذا الشبه منذ القرن السادس عشر ، ونوهوا بتلك القربى التى ظلت قائمة على وجه الزمان من حيث موقع المدينتين الطبيعى ؛ ولكنهما اختلفتا بعد ذلك ، لأن مدينة فاس ظلت محتفظة بطابعها الإسلامى الذى نشأت عليه ، فى حين أن غرناطة تبدل وجهها وتغير منذ استولى عليها فرديناند وإيزابيل ملكا قشتالة ، وبنيا فيها الكاتدرائية الجميلة . وأشهر ما اشتهرت به غرناطة قصر الحمراء الذى طالما تغنى بجماله الشعراء ، ووصف محاسنه الأدباء ، وألهم أكثر من قاص حكايات بارعة جميلة . وكان من هؤلاء وأولئك « واشنجطن إيرفنج » و « شاتو بريان » و « تيوفيل جوتيه » و « مانويل أفايا » و « فريدريك أوسيفايا » ، فوصفوا روعته وبهاءه ، وأحاطوا بألوان الحياة التى كان يحياها أمراؤه فى أوائل القرن الرابع عشر . وتختلف غرناطة عن بقية مدن أسبانيا الكبيرة بأن المسلمين بنوها لا الأسبانيين ، وقد أقاموها بالقرب من

. . . . . .

خرائب مدينة أسبانية قديمة اسمها «إلفيرا» ، ويلاحظ أن الناس كثيراً ما استعاروا أسماء المدن ليطلقوها على أبنائهم . فإلفيرا كان اسم مدينة فنقلوه إلى اسم سيدة . وأطلقه « لا مرتين » على بطلة قصته المشهورة . وأسمى العرب مدينتهم غرناطة ، وهو اسم مأخوذ من اسم الرمان باللغة الرومانية ، لأن المدينة كانت فى شكلها بين التلال المحيطة بها تشبه نصف رمانة . وقد تم بناء المدينة فى سنة ١٢٣٥ م واستمرت بأيدى العرب إلى سنة ١٤٩٢ فكانت آخر معقل سقط بأيدى الأسبان ، وأبرز خطوط تاريخها أن محمد بن الأحمر استولى عليها فيما استولى عليه من مدن الشاطئ الأسبانى ، وهو الذى شرع فيها فى بناء قصر الحمراء ، وقد أتمه خلفاؤه من بعده ، وخاصة محمد الثالث الذى شيد أبواب القصر وبنى المدرسة . وكانت العلاقات بين ملوك بنى الأحمر وملوك أسبانيا تختلف بين حروب ومهادنات استمرت قرناً كاملا ، وانتهت فى عهد أبى عبد الله محمد بن عبد الله الذى سلم إلى فرديناند وإيزابيل مفاتيح أبواب المدينة فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، أى فى نفس العام الذى اكتشفت فيه أميركا واخترعت المطبعة ، ودخل الملكان المدينة فى يوم الغطاس (٦ يناير) من تلك السنة . وكان أبو عبد الله قد غادر غرناطة إثر مقابلته للملكين وتسليمه لهما مفاتيح المدينة ، ورحل إلى مراكش . ويروى أن أمه ، وكان اسمها ثريا ، سمعته وقتئذ يزفر ويبكى فقالت له : « لا تبك كامرأة على ملك لم تعرف كيف تدافع عنه كرجل ! » . وبعد سقوط غرناطة لم يلبث الشعراء أن نظموا شعراً كثيراً وصفوا فيه عهد العرب ، ورثوا عزهم البائد . وكانت غرناطة قد عرفت فى خلال تاريخها العربى باليسر والرخاء ، واتسع ملك أمرائها إلى المرية ومالقة وغيرهما ، وكان أهلها يتكلمون بلغة يخالطها ألفاظ رومانية . وكان بالقرب منها ضاحية جميلة تسمى ربض البازيين تسكنها طبقة الأعيان والوجهاء . ويلاحظ أن هذه الطبقة الأرستقراطية كانت تأنف سكنى المدن الكبيرة وتختار لها مكاناً خارج المدينة تبنى فيه منازلها الأنيقة ، وقديماً قالوا : « إن الأطراف مساكن الأشراف » ، وكان كذلك بالقرب من المدينة دير صغير يقال له دير سيدة كرمن ، إشارة إلى العذراء مريم ، وهو تشويه لاسم جبل الكرمل بفلسطين . وقد نحتوا منه اسم « كرمن » الذى صاروا يسمونه به . وكان الدير قائماً على أحد التلول

... ...

المحيطة بالمدينة ، وموقعه ذو مناظر تعد قرة للعيون وبهجة للنفوس . وأما قصر الحمراء فكان مقر الملوك ؛ كان كأنه حصن قائم على مرتفع يشرف على المدينة فى مهابة وجلال ، بل إنه كان مدينة صغيرة تشبه « فرسايل » و « سان دينى » مقرى ملوك فرنسا ؛ وهذا كان من عادة ملوك ذلك العصر أن يبنوا قصورهم خارج المدينة وفى ضاحية منها . وكانت الحمراء ذات أسوار مزدوجة ، وفيها مسجد هو الجامع الكبير ، وسوق ، وبعض المنازل بين كبير وصغير ، وفيها مدافن الملوك وكانت تسمى الروضة ، وكانت ذات فخامة وأبهة . ويحكى أنه لما ماتت الملكة إيزابل أوصت بأن تدفن فى قبر بسيط بكنيسة المدينة لتظهر الفرق بين الفخامة التى كانت من مظاهر ملوك العرب والبساطة التى كانت تتوخاها . ويعد قصر الحمراء أبرع مظهر للفن الإسلامى بالأندلس ، وأوفى دليل على حياة العز التى كانوا يتمتعون بها . وكان يحوى كل أسباب الطمأنينة واللهو . وهو سلسلة أبنية جميلة وردهات واسعة ، وكان له عدة أبواب منها باب العدل الذى كتب فوقه « لاغالب إلا الله » وكانت هذه الأبواب وتلك الغرف مزينة بأجمل الزينات ، مرصعة بالعاج والصدف والفضة ، مزخرفة على أحسن منوال ، فيها الفسيفساء والنقوش . وفى سنة ١٥٢٦ أمر الملك شارلكان الذى كان يتردد كثيراً على قصر الحمراء أن تهدم بعض أجزائه ليبنى موضعها قصراً لإقامته . وقد تم له ما أراد ، ولكن بناء القصر لم ينته فظل بلا سقف يظله ... وما أحسن قول ابن خفاجة فى الأندلس ومدنها :

إن للجنة بالأندلس ... بمتلى حسن ، وربا نفس
فسنا صبحتها من شنب ... ودجا ليلتها من لعس
وإذا ماهبت الريح صبا ... صحت : واشوقى إلى الأندلس

وقول ابن سفر المرينى :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ... ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأين يعدل عن أرض يحض بها ... على المدامة أمواه وأفياء ؟

طليطلة . والمرية ومرسية وبلنسية ومالقة ودانية وشاطبة وبرشونة وطرطوشة ، وتقع على الساحل المشرف على البحر الرومى ، والجزيرة الخضراء

= وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها فى الوشى صنعاء ؟
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق ، وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحراً ... ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وإنما أرج النـــد استثار بها ... فى ماء ورد ، فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منهـــا ما أصنفه ... وكيف يحوى الذى حازته إحصاء
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت ... فريدة ، وتولى ميزها الماء
دارت عليهـــا نطاقا أبحر خفقت ... وجداً بها إذ تبددت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو ، وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذارى ، ما بها عوض ... فهى الرياض ، وكل الأرض صحراء

ويقول لسان الدين بن الخطيب فى خصائص الأندلس :

« خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياة ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك وإحكام التمدن والاعتبار - بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها » ؛ ونقل المقرى عن الرازى : « بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ، وهو عند الحكماء : بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجنان ، منبجس الأنهار الغزار ، والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجو والنسيم . ربيعه ، وخريفه ، ومشتاه ، ومصيفه ، على قدر من الاعتدال ، وسطة من الحال . . . . تتصل فواكهه أكثر الأزمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة . أما الساحل منه ونواحيه ، فيبادر بباكوره ، وأما الثغر وجهاته ، والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ؛ فمادة الخيرات متمادية فى كل الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان ، وله خواص فى كرم النبات توافق فى بعضها أرض الهند ، المخصوصة بكرم النبات وجواهره ، منها : أن المحلب ، وهو المقدم فى الأفاويه والمفضل فى أنواع الأشنان ، لا ينبت بشىء من الأرض ، إلا بالأندلس والهند . وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة ، والمصانع الجليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوعر .

وتقع بالقرب من ساحل بحر الزقاق ؛ أما طليطلة فتقع هى ومدريد (أو مجريط) داخل الهضبة الأسبانية ؛ هذه المدن ذات الذكريات المجيدة ، والتى خرج منها أئمة الفكر والعلم والأدب والفلسفة ؛ خلال العصور السالفة الزاهية التى حكم العرب فيها الأندلس ؛ الأندلس الشهيدة التى تآمر عليها وعلى حضارتها أعداء الإسلام من متعصبى المسيحيين ، فأحرقوا مدنها ، وهدموا جامعاتها ، وبددوا مكتباتها ، وشردوا أهلها ، وقضوا على آثار الحضارة فيها ظلما وجهلا واستبدادا ، مما لا نسميه حركة تحرير ، لأن الشعب الأسبانى كان قد اختلط حينئذ بالشعب العربى ، وصار أهل البلاد شعبا واحدا له خصائصه الفكرية والثقافية ، ولأن حركة التحرير لا ترادف الجهل والرجعية والوحشية ولا يعنى بها سفك الدماء ، وتمزيق الأشلاء ، وهدم الجامعات ، وحرق المكتبات ، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وما أصدق ما يقول الشاعر الأندلسى :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أينا

إن الأندلس وفلسطين لنشيدان رائعان من أناشيد المجد والعظمة والجلال ، ولن ينسى العرب والمسلمون قصة مصرع الأندلس فى القديم ، ولا قصة مصرع فلسطين فى الحديث ، لأنهما قصتان يجب أن يلتفت إليهما الضمير الإنسانى ، وأن يرددهما شباب العرب فى كل جيل وزمان ومكان .

وكيف ننسى أجيالا من الكفاح والبطولة والتضحية والبناء والعمل الشاق لخير الإنسانية جمعاء ، وقرونا ثمانية قضاها العرب فى الأندلس يرفعون لواء الحضارة ، ويبنون روائع العمران ، ويشجعون الفنون ، وينهضون بالعلوم ، ويتفانون فى بعث النهضة فى قلب أوربا الجاهلة الشقية المحرومة المخذولة ، التى سرقت أمجاد العرب ومدنيتهم ، ثم جحدت فضلهم ، وأنكرت أياديهم البيض على أوربا المسكينة المحرومة يومذاك .

ونحن نعلم أنه لولا معركة تور لما تأخرت النهضة فى أوربا نحو تسعة قرون طوال ، هذه المعركة التى أدت إلى انتكاس الإنسانية والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى فى خريف سنة ٧٣٢ م ، وهى التى قال فيها مسيو كلود فارير الأديب الفرنسى الأشهر : « فى سنة ٧٣٢ م (١١٤هـ) حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربى — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة (رونسانس) ... هذه الفاجعة هى التى أريد أن أمقت حتى ذكراها ، وأعنى بها الانتصار البغيض ، الذى ظفر به على مقربة من پواتيه[1] ـ أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارولنجى شارل مارتل ـ على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقى جمعهم على ما ينبغى من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم ، فى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء . ويكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التى لاتزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال (إشبيلية وغرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة) ، ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه — ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى السلمى المتسامح — لأن الإسلام بمجموعه، كل هذا — فخلصها من الأهاويل التى لا أسماء لها . وكان من ذلك أن نتج خراب (غاليا) القديمة ، التى استعبدها أولا لصوص أوسترازيا ، ثم اقتطع جزء آمنها قرصان النورمانديين ، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت فى دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث فى أرجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انتفخت بالأشلاء والجثث بما دهمتها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة العدد . حدث ذلك فى حين كان العالم الإسلامى — من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب

---

(١) بقعة من الأرض الفرنسية قريبة من بلدة (تور) فى مقاطعة شمپانيا .

آسيا — يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام .... ليس ما كتبته فصلا من التاريخ الرسمى ، بل هو التاريخ الحقيق الذى يتعلمه المرء بنفسه ، مما يجتازه من بحار ، ويقطعه من فياف وآفاق ، ويقلبه من خزائن الكتب الأجنبية ، وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح — عقب رحلة له — ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التى أراد معلمونا — ولا يزالون يريدون — وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة بل هى حقيقة » .

ويقول أديب فرنسى كبير آخر ، هو المسيو هنرى دى شامبوت مدير مجلة (ريفو پار لمنتير) هذه الشهادة الصريحة : « لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى . ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت اسبانيا من رحمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . إننا مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : فى العلم ، والفن ، والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة فى الفضائل ، وحسبها أنها مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية . وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » .

ونعلم كذلك أنه لولا التعصب المسيحى فى أسبانيا ، ومأساة طرد العرب منها ، وما صنعته محاكم التفتيش فى أهلها العرب المسلمين وغيرهم ، لولا ذلك كله لكانت أسبانيا اليوم أعز دولة فى العالم ، ولما تأخر بدء النهضة فى أوروبا ، وما أجل ما يقول نيتشة فيلسوف ألمانيا الأشهر : « لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الأندلس المغربية ، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، نعم من غرائز رجال . إن تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة ، بل أجابتها بالإيجاب ، وفتحت لها صدرها .

وفى تصوير مدى الجرم الإنسانى العظيم الذى ارتكبه الأسبانيون فى حق العرب يقول محمد عبد الله عنان فى كتابه « ديوان التحقيق »[١] :

« فى سنة ١٤٩٩ ذهب الكردينال كنيس إلى غرناطة ، وحث مطرانها والدوق تالافيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين ، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم إلى اعتناقها ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، إما اتقاء الاضطهاد ، أو اغتناما للحظوة ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة . ولما حاول بعض أعيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافى روح العهود المقطوعة ونصوصها ، أجاب كنيس بالوعيد ، وهدد باتباع الشدة والعنف ، وعمد إلى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية ، إذ أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكداسا فى أكبر ساحات المدينة ، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام ، ومنها أيضاً كثير من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت فيها النار جميعا ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب » . ويختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة . فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن (كوندى) يقدرها بثمانين ألفا ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة فى قرطبة لم تزد على ستمائة ألف مجلد ، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة ، ولم يجتمع فى غرناطة فى مجموعة واحدة مثل هذا القدر ، ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة مابين خاصة وعامة ، وكان طبعيا أنها وهى مركز العلوم الإسلامية ، بعد قرطبة ، تحتوى على أنفس الآثار الإسلامية من حيث التفكير والفنون ، ويؤيد كوندى تقديره بقرائن وشواهد لا بأس بها

وهاهو ذا احد الشعراء الأندلسيين يبكى ماضاع من ثمرات العقول والأفكار الإسلامية فى الأندلس ، فيقول من قصيدة وجهها إلى بايزيد العثمانى

---

(١) ديوان التحقيق — محمد عبدالله عنان — صـ ٣٥ .

مستغيثا من ملك الروم وتنكيله بالمسلمين ، وقضائه على تراثهم الفكرى :

وخان عهودا كان قد غرنا بها
ونصرنا كرها بعنف وقسوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان من أمر ديننا
فنى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم
ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

الحضارة العربية فى الأندلس

إن قصة الحضارة العربية فى الأندلس لا يمكن أن يستوعبها باحث ، فقد ضاع الكثير من وثائقها فى مأساة مصرع الأندلس وطرد العرب عنها ،حين هب الأسبانيون يحرقون الكتب العربية ، ويهدمون المكتبات والجامعات ويذبحون العلماء والمفكرين والأدباء ، ويقضون على آثار العرب فى الأندلس القضاء الأخير ، ولسوء الحظ أتلفت مكتبة العرب فى أسبانيا. وكانت تحوى كثيراً من آثار مفكرى وشعراء الأندلس وأدبائها الذين صقلوا أدبهم بالبيئة الأندلسية الجديدة ، التى أضافت إلى بلاغتهم فى التعبير مقدرة فائقة فى الخيال والتصور مما جعل الأدب العربى فى الأندلس — كما يستدل من البقية التى تخلفت لنا — من أجود آداب اللغة العربية منذ قدمها . وبعد طرد العرب من الأندلس ، احتفظ بعض القساوسة بشىء من الآثار الأدبية العربية التى كانت فى مكتبات العرب هناك ، ولا يزال هذا البعض موجوداً لهذا الوقت فى مكتبة الاسكوريال بمدريد ، وهى المكتبة الوحيدة التى تعد من أهم مكتبات العالم التى تحوى كمية من المخطوطات العربية فى عصر العرب بالأندلس . كذلك احتفظت مكتبة روما وكذا مكتبة برلين بشىء من تلك الآثار الأدبية ، هى للآن المرجع الوحيد الذى يعتمد عليه جماعة المستشرقين والباحثين فى دراساتهم وبحوثهم عن قصة الأدب والحضارة فى الأندلس .

وبرغم أن كتب العرب فى الأندلس ، لم تفقد كلها ، فان مما لا شك فيه أنه يحتمل أن يكون ضمن الجزء المفقود منها شىء غير قليل من الآثار الفكرية والأدبية التى ربما كان يحق للغة العربية أن تفخر بها . ومع ذلك فإن كثيراً من شعر شعراء الأندلس المعروفين غير كامل ، وكثيراً من القصائد ناقصة ومبتورة ، بل إن ثمة شعراء يعرفون بالإسم وأشعارهم بالوصف ، وأما أين

أشعارهم وآثارهم ، فهذا مما لم نطلع عليه ، لأنها من الآثار الأدبية المفقودة .

ومكتبة « الاسكوريال » بمدريد لا تحتوى اليوم على الكثير من التراث الأندلسى الفكرى والعلمى والأدبى ، ولما أنشئت أودع فيها عدة آلاف من المخطوطات العربية الأندلسية ، وذلك منذ أواسط القرن السابع عشر ، ومع ذلك فقد كانت هذه المخطوطات القليلة أنفس مجموعة من نوعها ؛ ولكن حدث بها عام ١٦٧١ حريق التهم ثلاثة أرباع هذا الكنز الفريد ، وبقى منها نحو ١٨٥٠ مخطوطاً عربياً . وإن الكردينال كنيس مطران طليطلة الذى أمر بإحراق الكتب والآثار العربية فى ساحات غرناطة عام ١٤٩٩ قد ارتكب عملا يخالف الإنسانية ، إذا لم يستثن من الكتب العربيه سوى ثلاثمائة من كتب الطب العربية وهبت لجامعة « الكالا » .

ويضاف إلى هذا السبب — قلة المصادر العربية التى نجت من معركة الإفناء المسيحى لآثار العرب فى الأندلس — سبب آخر هو تعصب المسيحيين فى اسبانيا من قديم ومحاولتهم طمس الحقائق الساطعة عن تاريخ العرب الحضارى والفكرى فى الأندلس .

ومع ذلك فقد بقيت لنا وسط هذه الحيرة والضلال مجموعة من الوثائق التاريخية تثبت لنا الكثير من روائع العرب فى الأندلس وحضارتهم ، وأصول مدنيتهم فى الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم والآداب والفنون ، مما يعد شهادة ناطقة بذكاء الشعب العربى وموهبته الخارقة ، والمعجزات الكثيرة التى قام بها .

إن قصة الحضارة فى الأندلس تنطق بها شهادات المستشرقين المنصفين ، وقد جاء فى صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية : « إنا لمدينون للعرب كثيراً ، ولو قال غيرنا بخلاف ذلك ، فإنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً ، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى العصور المظلمة ، ونحن مدينون لهم أيضاً

بترقية العلوم والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا علماً ومدنية .

ويقول المسيو لاجيردو مستيم : « أما العرب فقد تركوا فى البلاد التى احتلوها أثراً لايزالون يذكرون به للآن ، لأنهم لم يقتصروا على إدارة شئون البلاد بل قاموا بعمارتها على أساس من الحضارة والمدنية ، ولقد كان شانسوا يذهب إلى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات ، كما أن الراهب (جربيرا) تعلم فى مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسى البابوية ، وإلى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين إلا من طريق ترجمة كتبهم فى إسبانيا الإسلامية ، وأخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة[1] . ويقول استانلى بول فى نكبة العرب بإسبانيا وتنكيل الأسبان بهم فى نهاية عهدهم : « ولكن الإسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الأوزة التى تبيض بيضة من ذهب فى كل يوم ، فقد بقيت إسبانيا قروناً فى حكم العرب وهى مركز المدنية ، ومنبع العلوم والفنون ، ومثابة العلماء والطلاب ، ومصباح الهداية والنور ، ولم تصل أى مملكة فى أوربا إلى ما يقرب منها فى ثقافتها وحضارتهـــا ، ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابيلا القصير المتلألىء ، ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذى بلغه المسلمون فى الأندلس ، وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من إسبانيا وضاءة لامعة[2] ... » . ونحن نعلم أن حضارة العرب الزاهية فى الأندلس كانت مثار إعجاب كل أوربى ، سواء فى أثناء حياة العرب هناك أو بعد ذلك ، بل لقد ترجمت بعض الآثار العربية إلى اللغات الأوربية من قديم ، ويروى أن أحد القساوسة أنشأ عام ١١٣٠ م معهداً فى طليطلة لترجمة الكتب العربية فى شتى فروع الثقافة إلى اللاتينية .

---

(١) « رحلة الأندلس » لمحمد البتنونى .

(٢) قصة العرب فى أسبانيا لاستانلى بول ص ٢٢٢ .

وقد ذاع فى الأندلس فن البنـــاء والهندسة والموسيقى والنحت والتصوير والغناء .

ومن مثل فن العمارة : مدينة الزهراء التى أنشأها الناصر ، ومدينة الحمراء التى شادها بنو الأحمر ، ومسجد قرطبة الذى شاده الداخل وأتمه ابنه هشام.

وكثرت القصور والمساجد وسواها من الأبنية العامة ، وكان فى قصر قرطبة نحو خمسمائة دار ، وعدد دور العامة بها ثلاثة آلاف ومائة ألف دار ، وعدد دور الخاصة نحو خمسمائة وستة آلاف ، وعدد المساجد فيها ٣٨٣٧ مسجداً ، وعدد الحمامات ٧٠٠[١] .

واتخذ عبد الرحمن الثانى القصور والمتنزهات ، وجاب إليها الماء من الجبال ، وأقام الجسور ، وبنيت فى أيامه المساجد الكثيرة والدور .

وذاعت الموسيقى ذيوعا كبيراً ، وكان لزرياب تلميذ إسحاق الموصلى أثر فى ذلك كبير .. ويقول مؤرخ : إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوربا على الوصول إلى الدرجة التى وصل إليها هذا الفن الجميل الآن ، فإن بمكتبة طليطلة آثاراً عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم فى ذلك الفن ، وهناك جزء من المخطوطات فى الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر الذى كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من الثقافة العربية[٢] .

وقد انتشر الغناء فى الأندلس انتشارا لا مثيل له حتى لقد كان الطرب يغشى كل دار ، وكان لقدوم زرياب تلميذ إسحق الموصلى يد مشكورة فى رقى الغناء وتنسيق ضروبه وسرعة ذيوعه ، فقد غنى الخلفاء والأمراء فهز أعطافهم وحرك أوتارهم ، وأصاخ لمعازفه الخاصة والعامة على السواء .

---

(١) ١ : ٣٥٥ نفح الطيب طبع أوربا .
(٢) كتاب فياردو ج ٢

وكان المغنون يروون الكثير من الأشياء الرائقة ويتغنون بها ، ويقال إن زرياب كان يستظهر زهاء عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها ، وكثر المغنون والمغنيات فى ربوع الأندلس كثرة تستلفت النظر ، وفى طليعتهم : حمدونة بنت زرياب ، وهندية ، وغزالان ، وعبد الوهاب الحاجب فريد عصره ، ونسيج وحده فى براعة الغناء وعذوبة الألحان ورواية الأشعار ، ثم ابن الصائغ السرقسطى الأديب المطرب ، ثم فضل وعلم من مطربات القصور ، ثم قمر جارية ابن حجاج اللخمى صاحب إشبيلية ، وكانت تقول الشعر وتلحنه وتتغنى به ، فمن ذلك قولها فى مولاها :

ما فى المغارب من كريم يرتجى ... إلا حليف الجـــود ابراهيم
إنى حللت لديه منزل نعمة ... كل المنازل ما عداه ذميم

وكان الأمير أو السرى إذا سمع بمغن أو مغنية بعث فى طلبها ، كتب أبو عامر ابن ينق إلى هند جارية محمد بن عبد الله الشاطبى يدعوها إلى مجلسه لتونق الاسماع ، وكانت أديبة شاعرة :

يا هند هل لك فى زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نغمات عودك فى الثقيل الأول

فأجابته :

يا سيداً حاز العلا من سادة ... شم الأنوف من الطراز الأول
حسبى من الإسراع نحوك أننى ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

وكان الأندلسيون جميعا يهيمون بالغناء الرقيق ، لا يتورع عن سماعه عالم أو فقيه . ذكر المقرى فى نفح الطيب أن محمد بن سعيد القاضى خرج إلى جنازة فعرج على منزل صديق له ، وبعد أن طعم ، غنت جارية رب المنزل :

طابت بطيب لثاتك الأقداح ... وزها بحمرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه ... نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها ... فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فطرب القاضى طربا عظيما ، وبلغ من إعجابه بتلك الأبيات أن كتبها على ظهر يده .

ودخل ابن حوقل عام ٣٧١هـ الاندلس ، ووصفها بأنها «تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر ، والثمر ، والرخص ، والسعة فى الأحوال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ؛ ولما هى به من أسباب رغد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهينهم ، وأرباب صناعتهم ؛ لقلة مؤونتهم وصلاح معاشهم» .

وذكر ابن بشكوال ، أن جباية الأندلس بلغت ، فى مدة عبد الرحمن الناصر ، خمسة آلاف ألف دينار ، وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً .

أما عوامل تأسيس الحضارة فقد كانت كلها ممكنة للعرب فى الأندلس ، فمن امتزاج العناصر وتوحد الأجناس واختلاط الدماء ، نما نشأ عنه جيل عربى جديد يجمع خصائص العرب والآريين الفكرية والاجتماعية والنفسية[1]

---

(١) وقد سكن هذه البلاد أمم مختلفة قبل دخول العرب : فنزلها أول فجر التاريخ قبائل من جبال البرانس ، ونزلها من الشمال الشرقى من بلاد الغال قبائل السلت والبسك والجلالقة ؛ سكن بعضهم الشواطىء واستقر بعضهم وسط البلاد ونزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية . ثم نزلها الفينيقيون وأهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون . ثم استولى الرومان عليها أوائل القرن الثالث الميلادى (٢٠١ م) وسموها هسبانيا أو إسبانيا . ثم أغار على الرومان قبائل الفندال ، فأخرجوهم من هناك ، وأسسوا على نهر الوادى الكبير مملكة سموها باسمهم «الفندال» ، ومنها جاءت كلمة « فندلس » التى نطق بها العرب « أندلس » ، وأطلقوها على هذه البلاد . وبعد هؤلاء ملكها القوط ، ثم دخلها العرب وملكوها فى أواخر القرن الأول الهجرى . فسكان هذه البلاد خليط من أمم مختلفة وقبائل متعددة . وقد نشأ من هذا كله جيل عربى جديد ، له شتى الخصائص الحضارية .

إلى جمال البيئة[1] وخصبها واعتدال الجو فيها ، ورونق الطبيعة وتبرجها وسحرها ، وهذا مما بعث على أن لانت من أجله طباعهم ، ورقت عواطفهم ، فنشأ جيل جديد يجرى فى عروقه الدم العربى ، ويتصف بصفات العرب : من غيرة وكرامة ، وصفاء فى القريحة ، واكتسب صفات الجنس الآرى ، من دقة الإدراك ، وسعة الخيال ، وقوة الفكر والتمحيص ، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقيا صرفا ولا غربيا بحتا ، وامتاز فى كثير من صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين . ويضاف الى ذلك أن الإسلام دين الثقافة والمعرفة ، ومع ماحمله العرب من روح دينهم ، فقد أتيحت لهم ثقافات أخرى ، هى ثقافات السكان الأصليين التى هضموها وتأثروا بها ، وزادت من معارفهم واستعدادهم .

---

(١) الأندلس كانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها ، مما يأخذ بالألباب ، ويسبح فى روعته الخيال ، ويبعث على تذوق الجمال . ومجاراة الطبيعة فى بهائها ونضرتها ، وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التى فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة ، وثمار يانعة ، وأنهار جارية ، وجبال خضر ، وطيور مغردة ، وأبنية شاهقة ، وقصور جميلة ، ووجوه نضرة ، ونسيم عليل . فلك كل ذلك من نفس العربى ، ورقق من شعوره ، وهذب من خياله ، وصقل من ذوقه ، وزاد فى جمال شعره وفنون الكتابة لديه . وميزه بذلك عن أهل المشرق ، وجعل للأندلسيين صبغة خاصة فى الأدب العربى ، وفتح أمامهم بابا واسعا من الخيال .

ولما استقرت قدم المسلمين هناك ، نزح إليها العرب من كل قبيلة ، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التى فتحها العرب ، واتصل كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين : من قوط وغيرهم وتصادقوا وتحابوا وتزاوجوا ، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود ، واندمج بعضهم فى بعض بالمصاهرة وغيرها ، وكونوا شعبا واحدا ، وتشاركوا فى إدارة البلاد ، فقد وكل العرب إلى هؤلاء السكان كثيرا من الأعمال .

لذلك لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم فى الأندلس أن بنوا القصور(١)

---

(١) بنى عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الأعظم ، فأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وقد ذكروا أنه قد كان فذا فى نوعه ، وأن من بدائعه احتواءه نحو ٣٦٠ طاقا على عدد أيام السنة ، يدخل الشمس كل يوم من طاق ، وكان به ثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية ، وفيه المحراب ومايليه قد أجرى فيه الذهب المطعم ، وكان باب المقصورة من الفضة وكان بها تفاحات من الذهب والفضة محيط كل تفاحة ثلاث أشبار ونصف ، واثنان منها من الذهب الإبريز . وكان عدد بواكيه تسع عشرة من الشرق إلى الغرب ، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب ، وبه واحد وعشرون بابا طليت بالنحاس الأصفر اللماع ؛ أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب ، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة رصع أكثرها بالأحجار الكريمة ، وسمر بمسامير من الذهب ، وقد بقى من جمال هذا المسجد ماهو ماثل إلى الآن ، فإن السائحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغابة من السوارى ، يروعهم فيها منظر لايكاد ينتهى من كل جانب ، ولا يزال الزجاج الفاخر يلمع لمعان الجواهر ، ولايزال المحراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب ، ولاتزال أشجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تساير امتداد السوارى ، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها أيام الخليفة العظيم الناصر لدين الله التى لن تعود ، ويروى المؤرخون كثيرا من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن وما كان بها من الأبواب الفاخرة التى تفتح على الحدائق حولها أو على النهر ، وكان بعض هذه القصور يسمى بالزاهر وبعضها بالمعشوق وبعضها بالمؤنس ، ثم الكامل والمجدد والتاج وغيرها مما خلدته ألسنة الشعراء ، وبعض هذه القصور يحتفظ باسم حاضرة الأمويين بالشرق « دمشق » وكان يقوم على أعمدة من الرخام ، وقد رصفت أرضه أحسن رصف ، وبلغ غاية الروعة والجمال . وكان حوله مائة ألف بيت للعامة ، ونحو سبعمائة مسجد ، وتسعمائة حمام ، هذا عدا لمتنزهات والبساتين ، وقد بنى الناصر كذلك مدينة الزهراء التى كانت من عجائب الدنيا وقد بناها الناصر فى سفح جبل العروس على بضعة أميال من قرطبة ، استجابة لرغبة جاريته (الزهراء) التى كان يهيم بها حباً ، وقد أنفق فى بنائها ٤٦٠ قنطاراً من الفضة ، وطولها من الشرق ٢٧٠٠ ذراعا ،

وأنشأوا الجامعات ، وأقاموا المكتبات ، وبنوا المدن والمبانى الجليلة [١] ، وشجعوا العلوم والثقافات والفنون والآداب ، ونبغ فى هذه البيئة العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين ، وحسبك ابن رشد وابن باجة وابن طفيل وابن زهر ، وسواهم من أعلام الفكر الأندلسى الذين أثروا فى « تطور » الفكر الإنسانى ، وفى تعجيل بدء النهضة فى أوربا .

وقد بدأ سير الحضارة فى الأندلس حينما استقر الأمر لبنى أمية فى الأندلس أواسط القرن الثانى الهجرى سنة ١٤١هـ ، وكان العباسيون قد اتصلوا بالسريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علوم الإغريق فى بلاد الجزيرة فيما بين النهرين ، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادى ، فاستعان بهم الخلفاء فى نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية ، كما استعانوا بالفرس أيضا . وكانت مدينتا البصرة والكوفة مقراً لعلماء اللغة والأدب ، ومكة

وعدد السوارى بها أربعة آلاف وثلثمائة ، وكان بها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه ، وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الرخام والذهب وفى وسط البهو حوض ملىء بالزئبق الرجراج ، إلى جانب كل منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس وقد رصعت بالجواهر ، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق ، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق ، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدته ، وقد أجمع كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله فى الإسلام ألبتة ، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة إلا وقطع أنه لم ير له شبيهاً ، بل لم يسمع ، بل لم يكن يتوهم كون مثله ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد ، والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة ، ونفاسة الهمة ، وبراعة الأثاث والفرش والسجف ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصون ، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، لكفاه بعض ذلك شرفا ونبلا .

(١) فى أيام عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كثرت الأموال ، فاتخذت القصور والمتنزهات ، وجلب إليها الماء من الجبال وأقيمت الجسور ، وبنيت فى أيامه الجوامع ، وزاد فى جامع قرطبة رواقين .

والمدينة مهبط علماء الدين ومأوى علوم الشريعة الإسلامية ، وصارت بغداد مركزا للعلوم الكونية . فكان الشرق منذ أوائل القرن الثانى الهجرى مورد العلوم ومنبع الثقافة ، ومن ثم لم ير الأمويون بدآ من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عند ماأرادوا نشر العلم فى الأندلس ؛ فاقتفوا آثار المشرقيين وأخذوا عن أئمتهم كل شيء ؛ فساد مذهب الإمام مالك هناك ، وكان من زعمائه يحيى الليثى الذى رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك ، وتوفى بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

وكان أبو على القالى البغدادى إمام الأدب هناك ؛ وفد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ ، وأخذ عنه جلة العلماء .. ومنهم أبو بكر محمد الزبيدى صاحب « مختصر العين » .

ورحل كثير من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق ، وأعجبوا بما كان هناك من علم وأدب . وقد ولع الخلفاء والأمراء بمجاراة أهل المشرق فى علومهم ومدنيتهم ، فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسيين ، وأفسح صدره للعلماء والأدباء ، فكانوا يفدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم ، وكان الحكم مشغوفا بالعلوم ، وهو الذى بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه « الأغانى » قبل أن يخرجه ببغداد . وقد ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس ، وانتشرت لغتهم وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين والكتاب البلغاء ، الذين يحسبون فى مقدمة شعراء العرب وكتابهم . وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصة من السكان ، أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هى لغة البلاد وثقافة الخاصة من السكان ، حتى تسربت إلى الكنائس . وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوعا من الحياة الفلسفية إذ لم يعن أحد بالاشتغال بالفلسفة إلا قليلا .

ثم تطور سير الحضارة وازدهارها فى الأندلس العربية ، حينما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الشهيرة تنافس بغداد فى العلوم والفنون ، واقتناء

الكتب واستهواء العلماء للمكث بها ، جاء إليها كثير من العلماء ، ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية فى مجاراة خلفاء بنى العباس فى الإفاضة على العلماء والأدباء بالعطايا ، وقلدهم فى ذلك ملوك الطوائف بعدهم ، وكان يفد إليها جلة علماء المشرق ، وكان لزرياب المغنى الذى قدم من بغداد أثر عظيم فى إصلاح صناعة الغناء وبث بعض العادات التى كانت ذائعة فى مجتمعات بغداد . وغير هؤلاء كثير يعدون بالمئات من الوافدين إلى بلاد والأندلس . فكانت الصلة العلمية لاتنقطع بين البلدين ، وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة آهلا بالراحلين من العلماء والأدباء ؛ فقد كانت قرطبة مركز العلوم فى بلاد المغرب يفد إليها الطلاب من كل مكان ، ويرحل إليها الأدباء والشعراء .

كما رحل إليها من جزيرة صقلية عبد الجبار بن حمديس الشاعر المعروف ، والتحق بحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف . وكذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك ، كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيى بن يحيى الليثى والتقى بالإمام مالك بن أنس ، وأخذ عنه مذهبه ونشره فى بلاد الأندلس ، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعى .

وكانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التى وطدت الصلات العلمية ، ونشرت هناوهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم مايعد مفخرة لجيل هذه الأيام . وقد نقل العرب إلى بلاد الأندلس كثيرا من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية ، وأنشئوا معاهد العلم فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية ، وغيرها من البلدان ، فانبعث من هذه العواصم ضوء العلوم فى سماء أوربا ، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة ، ودخل كثير من ألفاظها فى اللغة الإسبانية ، وهجر الإسبانيون اللغة اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها ، وصار شبانها لايعرفون غير لغة العرب ، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه ، كما ترجم غيره من القسيسين كتب

الكنيسة إلى لغة العرب . وقد قال بعض المؤرخين الإسبانيين : « إن من أدب أهل إسبانيا ماهو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . وإنه لاشك فى أن الإسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفة اليونانية » . وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربى فى لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا ، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا ، وأثرت فى الشعر الغنائى وفى المقطوعات الشعرية المقفاة ، التى هى أشبه بالشعر العربى ومعانيه . ومن العرب اقتبس أهل أوربا بعض أنواع الشعر ونقلوا عنهم حكم الفرس وأمثالهم . وظهرت حضارة العرب فى العلوم والآداب حين كانت أوربا أواخر القرن الحادى عشر فى جهالة ، فلم تتنسم ريح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين ، الذين بثوا بذور الحضارة هناك . ففى نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ احد القساوسة فى طليطلة معهدا لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى اللغة اللاتينية . فكان لهذه الكتب التى ترجمت أثر عظيم فى إيجاد حياة علمية جديدة ، وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة ، كمؤلفات الرازى وابن رشد وابن سينا ، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية . فترجمت كتب آرشميدس وأفلاطون وأرسطاطاليس وغيرهم ممن نقل العرب كتبهم إلى لغتهم . وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين فى تاريخ الطب أكثر من ثلثمائة كتاب عربى ترجم إلى اللغة اللاتينية ، وقال : « ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوربا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب . فبفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التى ضاع أصلها اليونانى ، فأوربا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر » . وقد بقى أهل أوربا لايعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثانى عشر ، فكان العلماء هناك تلاميذ العرب أو ناقلين كتبهم . وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا ، كما شهد بذلك الفيلسوف رينان . وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوربا . واتخذتها أساسا

للدراسة والتعليم مدة ستة قرون . بل بقيت بعض كتب العرب الطبية تدرس إلى زمن قريب فى بعض جامعات أوربا . وكانت كتب ابن سينا تدرس فى جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر . وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس فى جامعات فرنسا ، لاسيما كتب ابن رشد إلى أوائل القرن الثالث عشر . كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة فى بلاد إيطاليا . فوجود العرب فى أوربا نشر فيها كثيرا من العلوم والآداب التى كانت مهملة فى كل بلد آخر من هذه القارة حتى فى القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهد علمى إلا فى بلدان الشرق الإسلامية وفى إسبانيا العربية من بلاد المغرب . ففى هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والآداب ، وإليها كان يفد طلاب العلوم من كل مكان . وفى هذه المعاهد تعلم « جوبرت » الذى كان بابا للديانة المسيحية سنة ٩٩٩ ميلادية وعرف باسم سلفستر الثانى وأعجب بعلوم العرب حتى اتهم بالمروق من الدين عندما أراد أن ينشر فى أوربا ما أخذه عن العرب . وبمجهود العرب قامت أوربا من سباتها وبدأت نهضتها العلمية . فإنه حينما اتسعت الفتوح العربية حتى شملت بلاد الأندلس ، أصبح للثقافة العربية وطن جديد فى القارة الأوربية ، أزهرت فيه وأينعت ، وأصبح ميسوراً لطلاب العلم والفلسفة من أبناء الشعوب الأوربية أن يردوا هذا المنهل القريب من ديارهم وأوطانهم ، فى أثناء ذلك العهد الطويل ، الذى يسمى أحياناً العصور الوسطى ، وأحياناً العصور المظلمة ، أى الزمن الذى لم يكن للعلم والفلسفة فيه شأن خطير فى القارة الأوربية . وأثر الحضارة العربية واضح فى مختلف نواحى الثقافة التى اقتبستها شعوب أوربا ، سواء فى ذلك الطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات ، والموسيقى وفن العمارة ، وكثير من الصناعات . ولا يتسع المجال هنا لشرح هذه النواحى جميعاً ، ولكن حسبنا أن نذكر أن الفلسفة اليونانية نفسها قد وصلت إلى أوربا فى ذلك العصر بواسطة التراجم والمؤلفات العربية ، وأن كثيراً من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت إلى اللاتينية ، حتى إن بعضها فقد أصله

العربى ، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية ، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الإفرنج قد اتخذت صورة إفرنجية ، مثال هذا ابن سينا وابن رشد والرازى . وكان طلاب العلم والمعرفة يفدون إلى الأندلس من أقطار أوربا المختلفة لا من الجهات المجاورة لأسبانيا وحدها ، فكثير منهم جاء من انجلترا مثل آديلارد الباتى وكثير جاء من إيطاليا . وكانت صقلية تشارك الأندلس ، وذلك لقربها منها ، فلم تكن الأندلس هى السبيل الوحيد الذى نفذت منه الحضارة العربية إلى أوربا ، بل لقد استطاع العرب فى أثناء المائة والثلاثين عاما التى حكموا فيها صقلية أن يغرسوا فيها دوحة العلم قوية وارفة الظلال ، حتى لقد بقى أثرهم وعلمهم فيها بعد أن استولى عليها النورمانديون فى سنة ١٠٩١ م ، وقد قام ملوكها أمثال روجر الأول ومن جاء بعده بتشجيع العلماء من العرب ، وبمساعدة المترجمين الذين تولوا نقل الآثار العربية إلى اللاتينية . وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجغرافى العربى الشهير أباعبد الله بن محمد الإدريسى ، كان يضع مؤلفاته العربية ويعضده فى عمله روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) ، فإن هذا الملك قد كلف الإدريسى أن يضع بالعربية مؤلفاً يشتمل على الوصف الجغرافى لجميع أقطار المعمورة ، وفى هذا اعتراف صريح بما للعلماء العرب من المنزلة الرفيعة والمكانة الملحوظة .

ومع هذه النهضة الثقافية التى وصلت إلى أوربا من طريق الاندلس وصقلية ، فقد تأثر الأوربيون من غير شك فى أثناء الحروب الصليبية بالحضارة العربية فى سوريا وفلسطين ومصر . وليس من السهل اليوم أن نقدر تقديراً صحيحاً ذلك الأثر العظيم الذى تركته الحضارة العربية فى بلاد أوربا المختلفة ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا : أن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى تخيم عليه سحب كثيرة من الغموض والإبهام ، تجعل من المتعذر تتبع هذه المؤثرات — فى دقة — من منابعها إلى الجهات التى انتشرت فيها .

وثانيا : أن الحروب الطويلة التى دارت بين المسلمين والنصارى فى الأندلس وانتهت بزوال الحكم الإسلامى عن هذا القطر ، وما أعقبها من انتشار روح التعصب والجهل ، قد أضاعت كثيراً من الآثار العربية .

وثالثاً : أن العلماء الأوربيين — حتى الأسبان منهم — قد انتشرت بينهم فى الأزمنة الحديثة نعرة شعبية خاطئة دفعتهم إلى إنكار المؤثرات العربية فى الحضارة الأوربية الحديثة أو التقليل من شأنها ، كما شهد بذلك الكتاب الذين اشتركوا فى تأليف كتاب « تراث الإسلام » وهذه النزعة ستزول فى الغالب على مدى الزمن ، ويتخذ البحث العلمى سبيلا قوامها الإنصاف والبعد عن الهوى . وقد شهدنا هذا الاتجاه الجديد فى مؤلفات الكاتب الأسبانى الكبير دون جوليان ريبرا . وإذا كان من العسير اليوم رسم صورة كاملة لأثر الحضارة العربية فى الثقافة الأوربية الحديثة فى العلم والفلسفة والفنون ، فإن إيضاح أثر الأدب العربى الأندلسى منظومه ومنثوره فى الآداب الإفرنجية أشق واعسر . ويرجع هذا إلى أن العلوم والمعارف كانت تنتقل بالتأليف والترجمة ، وكثير من المؤلفات العربية قد وصلت إلينا ترجمتها اللاتينية ، وكذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية التى تظهر بوضوح فى الموازنة مثلا بين آثار العمارة العربية ، ونظائرها فى الأقطار الغربية ، ولئن جاز لإنسان أن ينكر أثر العرب فى الموسيقى الأوربية ، فلابد من الاعتراف بأن بعض الآلات الموسيقية التى شاع استعمالها فى أوربا قد أخذت عن العرب ، وبعضها مثل العود لا يزال يسمى باسمه العربى فى جميع اللغات الأوربية . أما فى الأدب فتعوزنا هذه الآثار إذا أردنا أن نبحث عن آثار الأدب العربى فى الآداب الأوربية ، لأن ترجمة الآثار العلمية فى العلم والفلسفة قد لقيت إقبالا شديدا ، وتعضيداً كبيرا ، هيهات أن تظفر بمثله الآثار الأدبية ، فإن عامل المنفعة ، والفائدة العملية ، كان قوياً فى الأولى ، ضعيفا فى الثانية . وبعض الباحثين قد اضطر لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية لابد أن يكون قد ترجم أيضاً إلى اللاتينية ،

أو إلى بعض اللغات الشعبية ، ولكن ليس فى أيدينا اليوم دليل مادى على هذا . ولذلك فإن الباحث عن أثر الأدب العربى فى الأدب الإفرنجى يتبع فى بحثه طريقة أخرى، وهى طريقة المقابلة والمضاهاة بين الأدبين ، وملاحظة وجوه التشابه التى لا يجوز أن تجىء عفواً . فالباحث الذى يرى تشابهاً دقيقاً بين أشعار « دانتى » وبعض مؤلفات المعرى مضطر لأن يفترض أن بعض آثار المعرى قد ترجم إلى اللاتينية أو الإيطالية ، وإن لم نعثر على مثل هذه الترجمة بعد . وكذلك الباحث الذى يرى أن استخدام القافية فى الشعر قد انتقل إلى أوربا بواسطة العرب ، قد تعوزه الأدلة المادية على تأييد هذه النظرية . ولكنه مضطر لأن يرجح أن للأدب العربى شأناً كبيراً فى مثل هذا التطور ، لأن الآداب الأوربية القديمة ، وعلى الأخص الأدب اليونانى والأدب اللاتينى الواسع الانتشار كانا خاليين من القافية . ونحن نلحظ أن القافية تأتى سهلة طيعة فى الشعر العربى . ولا تأتى بمثل هذه السهولة فى اللغات الإفرنجية . فمن المعقول أن يكون ظهورها فى العصور الوسطى الأوربية ، نتيجة المؤثرات الأدبية العربية . ومما يجعل المؤثرات العربية فى الأشعار الغربية غامضة صعبة التحقيق، أن أكثرها قد انتقل بواسطة الأغانى والأناشيد والقصص الشعبية التى يتداولها الناس ويتناقلونها شفاها ، ولا يكاد أحد يعنى بتدوينها ، ولكن من البدهى أن انتقال الآلات الموسيقية نفسها من الأندلس إلى أوربا ، مع ما يصحب هذا من وسائل الإرشاد إلى كيفية استخدامها والعزف عليها ، يستدعى من غير شك أن تنتقل معها الأغانى والأشعار ، وكثير من محترفى الغناء الأندلسيين كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد ، ويزورون بلادا غير إسلامية ، فينشدون ويوقعون ، وكان الإقبال على غنائهم وعزفهم عظيما فى بلاط الأمراء المسيحيين فى أسبانيا وفى بروفانس وإيطاليا . ومن البدهى أن كثيراً من سكان الأندلس الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والأسبانية ، وكان الأدباء منهم قد اطلعوا على الأدب العربى

وتذوقوه ، وكانوا واسطة لنقله إلى الأطراف الشمالية فى أسبانيا ، ومن ثم إلى جنوب فرنسا .

وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى ظهرت فى أوربا طائفة جديدة من الشعراء المنشدين ، الذين يجمعون بين التغنى بشعرهم والتوقيع على العود ، يبدو فى أشعارهم الطابع العربى الذى لا يحتمل الشك ، وقد أطلق على هؤلاء الشـــعراء اسم الطروبادور ، وهى كلمة يرى ريبرا أنها مشتقة من لفظ الطرب . وقد امتاز هؤلاء الشعراء بنظم أناشيد تدور كلها حول النسيب ، وتبدو فيها الصفات المألوفة فى النسيب العربى : من هوى عذرى مبرّح . ومن حنين وشوق إلى محبوبة ممنعة ، عزيزة المنال ، ومن وفاء ونبل عاطفة . وقد ظهرت فى هذا العصر قصص كثيرة لا يشك الباحثون فى أنها مقتبسة من القصص العربية . وخاصة أخبار العشاق ، أمثال عروة ابن حزام وعفراء ، أوقيس بن ذريح ولبنى . وكذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندلسية فى نظام وزنها وقوافيها ، وقد انتشرت فى أول الأمر فى بلاد أسبانيا ، ثم فى جنوب فرنسا وإيطاليا ، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوربا الغربية والوسطى. وهذه الأشعار قد أثرت تأثيراً كبيراً فى أشعار الأمم الأوربية ، فهى أساس من أسس الشعر فى الآداب الأوروبية الحديثة .

وليست الأناشيد والأشعار العربية وحدها التى أثرت فى آداب العصور الوسطى الأوربية ، بل لقد كان للقصص والخرافات والأمثال والنوادر العربية المنثورة أثر كبير أيضاً ، بل لعل أثر النثر فى ذلك العصر أوضح ، فقد ظهرت قصص فى الأدب الفرنسى مثلا تحمل طابعاً عربياً لا شك فيه ، وحسبك أن قصة من أشهرها ، وهى قصة «أوقاسين ونيقوليت» ذات صبغة عربية واضحة ، واسم البطل فيها ما هو إلا تحريف للاسم العربى : القاسم . وقد ترجمت فى هذا العهد مجموعات من القصص منقولة عن اللغة العربية ، أهمها من غير شك كتاب كليلة ودمنة الذى ترجم إلى الأسبانية واللاتينية فى القرن الثالث عشر ، وانتقل إلى البلاد الأوربية المختلفة ، وكان النواة التى نشأ من حولها أدب

قصصى عن الحيوان والطير ، وكان له أثره حتى فى أشعار لافونتين ناظم الخرافات الشهير . وإذا كانت القصص التى ترجمت واضحة الأثر فى الآداب الغربية الناشئة فإن هناك قصصاً شعبياً كبيراً كان ينقل بالرواية ، وليس من السهل ان ندرك مدى تأثيره . ومع هـذا فإن من الواضح أن قصص « ديكاميرون » للكاتب الإيطالى بوكاكسيو تشتمل على قصص عربى مما كان متداولا فى عصره . وأما تأثر الشاعر الإيطالى الأكبر دانتى بالأدب العربى ، فله أنصار غير قليلين . والذى يبعث على رجحان هذا الرأى أن الأدب العربى والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة فى إيطاليا فى عصره . وليس بمعقول أن يكون هذا الشاعر بمعزل عن هذه التيارات الثقافية القوية التى كانت منتشرة فى زمنه . ولم تكن رسالة الغفران وحدها هى المورد العربى الوحيد الذى استقى منه الشاعر ، بل هنالك مثلا أحاديث المعراج ، التى وصلت من غير شك مع الفتح الإسلامى إلى صقلية ، على أننا لو نظرنا إلى رسالة الغفران وحدها لرأينا أن وجوه الشبه بينها وبين الكوميديا المقدسة ليس تشابهاً سطحياً ، بل إن هنالك اتفاقاً فى التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عفواً . مثال ذلك أن الشاعر الإيطالى يلتقى فى أثناء طوافه فى الجحيم بالشعراء اللاتينيين الذين ماتوا قبل المسيحية ، كما قابل صاحب المعرى امرأ القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم فى النار . وهنالك غير هذا صور للنار وسكانها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيرا فى الأدب المسيحى ، ولها مشابه فى المؤلفات الإسلامية . وليس فى هذا الاقتباس ما يقلل من شأن الشاعر الإيطالى ، فإن كبار الأدباء كثيراً ما التمسوا موضوعاتهم فى المؤلفات المتداولة فى عصرهم . وبعد ، فإن الأدب العربى كان ذا أثر كبير فى الآداب الأوربية فى القسم الأخير من العصور الوسطى ، أى فى الزمن الذى كانت فيه اللغات الأوربية فى دور النشوء والتكوّن .

ويبدو تأثر أدباء الأسبان بالعرب الذين غزوا بلادهم واضحاً جليا أمام العقل ، هؤلاء قد اتخذوا الأندلس موطنا لهم وظلوا ثمانية قرون يتنقلون

فى أنحاء البلاد . وكانت لهم حضارة هى التى وصلت الحضارات القديمة بالحضارة الحديثة .

ولقد أثبت مؤرخو الأدب أن قصة « المعتمد بن عباد » آخر الحكام المستقلين فى اشبيلية (١٠٧٨ - ١٠٩١ م) كانت من بين القصص التى تناولها شعراء الإسبان فى القرون التالية . بل الثابت أن « دون جوان مانول » وهو أحد قصاصى القرن الرابع عشر الميلادى، كتب هذه القصة وأضفى عليها خيالا حببها إلى القراء فى إسبانيا . بل لقد أثبت مؤرخو الأدب كذلك أن كثيراً من القصص قد نقلها العرب من الهند وفارس فلقيت جوا صالحا فى إسبانيا . وانتشرت بعد ذلك حتى بلغت جنوب فرنسا ، ومازالت تتقلب فى غرب أوربا حتى اتشحت بثياب مسيحية أوربية لا يستطيع القارىء العربى أن يتعرفها إلا بجهد . ومن تلك القصص خرافات وحكايات غناها شعراء متنقلون سماهم التاريخ الأدبى « تروبور » ، بل لقد ذهب كثير من دارسى الأدب إلى أن أوزان الشعر العربى نفسها قد أثرت فى هذا الضرب من الأدب المتنقل ، لأنهم استطاعوا أن يوازنوا بين أساليب الوزن والتقفية فى الشعر العربى وبين الأوزان والقوافى فى شعر هؤلاء .

ولكن هل نستطيع أن نكتشف قصة واحدة فى الأدب العربى هى التى نسجت على منوالها « دون كيشوت » ؟ وهل فى الأدب العربى جاهليا كان أو إسلاميا قصة تشبه هذه فى موضوعها أو أسلوبها ؟

فهل تأثر سرفنتيز مؤلف « دون كيشوت » بالأدب العربى وبخاصة حين أقام بالجزائر ؟ وهل كان للتصعلك كما يعرفه العرب أثر فى صوغ القصة ؟ . وهل تأثرت القصة بجنون الحب الذى ورثته القصة العربية ، من مثل حديث مجنون ليلى . أسئلة قد تجيب عنها حياة سرفنتيز نفسه .

ولد ميجل سرفنتيز فى سنة ١٥٤٧ ونشأ محبا للكتابة . وأتيح له أن يزور إيطاليا ولما يبلغ العشرين . ولبث فيها أربع سنين حتى سنة ١٥٧٠ حينما دعته

الحاجة إلى أن يلتحق بالجيش الإسبانى ويحارب الأتراك فى موقعة ليبنتو ، وفى ليبنتو فقد ذراعه وانتصرت الحليفات الثلاث : إسبانيا والنمسا والبندقية على القوة البحرية التركية لأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية التركية . فكان ذلك إيذانا بعهد جديد لأوربا ، وكان ذلك أيضا مبدأ لشقاء الكاتب الجندى صاحب الذراع المفقودة ، وحاول سرفنتيز الجندى أن يتبع « دون جون » قائد الأساطيل المتحالفة ضد الأتراك . وقضى خمس سنين بعد ليبنتو يتقلب من جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة أخرى . فقد اشترك فى حملة « دون جون » على تونس ، وتنقل بين سردينيا ولمباردى ، وبين مسينا ونابلى ، ثم استأذن القائد أن يزور إسبانيا فسمح له ، لكنه أسر فى طريقه إلى وطنه . أسره « الجزائريون » ! ، ولبث فى الأسر خمس سنين مثقلة بالأشجان .

نعم قضى فى الأسر خمس سنين أحس فيها ثقل القيود والأغلال ، لكنه خرج وقد سلمت نفسه ، لأن روحه فوق أنها كانت روح فارس ، فقد كانت روح أديب .

ولا نظن أن رجلا يقضى هذه السنوات السود فى سرداب من السراديب ، وقد تقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجى ، وعاش عبداً يرسف فى السلاسل والأغلال ، لا نظن أن رجلا هذا شأنه كان يستطيع أن يتأثر بالأدب العربى ، لا فى قليل ولا فى كثير . فلم يثبت أنه اضطرب فى بيئة العرب فى الجزائر ، بل لم يثبت أنه خرج من الأسر إلا فى اليوم الذى أشفق عليه فيه بعض التجار المسيحيين فى الجزائر ، فافتدوه بألف من الدوقات ، ولبث وقتاً قصيراً فى الجزائر ، وسافر بعد ذلك إلى إسبانيا .

تلك السنين الخمس التى عاشها فى الأسر قد انقضت من غير أن تخلف آثارا عميقة فى نفس سرفنتيز . لكنها لم تكن آثار الأدب العربى ، ولم تكن آثار البيئة العربية . وإنما كانت آثار الأسر الذى عاناه خلال سنوات السجن ،

لقد رأى الموت يطل بقرنيه من خلال القيود والأصفاد ، لكنه كان صبوراً جلداً ، علمته الحوادث كيف يغالب البؤس ويصارع الألم ، ثم خرج من جحيم السجن وقد تطهرت روحه . فخرجت قصة « دون كيشوت » من هذه المحنة النفسية الطويلة ، فهى قصة الفشل الذى لقيه سرفنتيز ، وهى قصة عصر الانتقال من حياة الفروسية كما عرفها أهل الشمال والجنوب ، إلى عصر الحروب القومية كما عرفتها انجلترا وإسبانيا وفرنسا .

لم يتأثر سرفنتيز بشىء من الأدب العربى فى مقامه بالجزائر ، بل لعله قد تأثر بمقامه فى إيطاليا أكثر ما تأثر . وقد ذكرنا أنه استقر فيها خمس سنين ، وأنه تردد بين بلدانها خمس سنين أخرى . أى أنه قضى شبابه الأول بين العشرين والثلاثين فى جو إيطالى . وكانت إيطاليا أسبق بلاد أوربا إلى النهضة . كانت صاحبة اللسان اللاتينى ومقر الكثلكة ، ومهبط الفن والأدب ، وقد تأثر سرفنتيز بالآثار الإيطالية التى شهدها . وحينما عاد إلى إسبانيا بعد أسره ألف مسرحيات كتلك التى رآها فى إيطاليا .

كان الكاتب المسرحى الأول فى إسبانيا خلال تلك السنين لوب دى فيجا ، وكان يستأثر بحسن السمعة وذيوع الصيت . فخرج سرفنتيز إلى هذا الميدان ينافس بطله الأول ، لكنه لم يبلغ من النجاح ما توقعه ، وكانت حياته المسرحية هى الأخرى قصة من قصص الإخفاق . ومهما كان فلابد أنه تأثر بحضارة العرب وثقافتهم .

ولقد بقيت الآثار العربية فى الأندلس شاهدة على هذه الحضارة الخالدة التى أظلت تلك البلاد ثمانية قرون (٩٢ - ٨٩٧ هـ) ، وعلى فضل العرب على أوربا ، ويصف لنا محمد عبد الله عنان الآثار العربية الباقية فى الأندلس اليوم ، فيقول : سقطت الأندلس فى يد الإسبان منذ سنة ١٤٩٢ بعد صراع طويل الأمد بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية ، وبذهابها ذهبت دولة الإسلام فى الأندلس إلى الأبد ، واختتم تاريخ ثمانية قرون ، تعاقبت خلالها فى شبه الجزيرة الإسبانية دول إسلامية عدة ، وازدهرت حضارة من أعظم

حضارات التاريخ . وما زال اسم الأندلس يطلق فى إسبانيا على الولاية الأندلسية القديمة ، الواقعة فى جنوبى إسبانيا ، بما تحتويه من قواعد أندلسية ذاهبة ، أهمها إشبيلية وقرطبة وغرناطة . بيد أنه بينما أصبحت إشبيلية وقرطبة مدينتين أوربيتين بكل معانى الكلمة ، إذا بغرناطة ما زالت تحتفظ بكثير من طابعها الأندلسى القديم . ولم يبق فى إشبيلية اليوم ما يذكرنا بعهدها الإسلامى العظيم ، سوى « القصر » والمرصد (الجيرالد) وهما من أيام الموحدين ، كما أنه ليس فى قرطبة عاصمة الخلفاء القديمة من الآثار الإسلامية سوى المسجد الجامع وقد حول اليوم إلى كنيسة ، وسوى بعض أطلال من مدينة الزهراء ، ضاحية قرطبة الملكية كشفت عنها الحفائر الحديثة ، ولكن غرناطة فضلا عن احتفاظها بمعظم خططها ومواقعها القديمة ، واحتفاظها بأعظم الآثار الأندلسية الباقية ، ونعنى قصور الحمراء العظيمة ؛ فإنها مازالت من النواحى الاجتماعية والأدبية أكثر القواعد الأندلسية احتفاظا بطابعها وروحها الأندلسى القديم . ويبدو هذا الطابع وهذه الروح فى كثير من خواص الشعب الغرناطى وعاداته وتقاليده .. وتنقسم غرناطة اليوم إلى قسمين ، هما غرناطة القديمة وغرناطة الحديثة . وتكاد تشغل المدينة القديمة نفس المواقع والخطط التى كانت تشغلها المدينة الإسلامية ، بل تكاد بدروبها الضيقة ومنازلها التى ما زالت تحتفظ بطرازها الأندلسى ، تشعرك بأنك تخترق مدينة شرقية لا مدينة أوربية وما زال ثمة حى من أحيائها الأندلسية القديمة هو حى البيارين قائماً فى مواقعه القديمة ، وما يزال كما كان فى الماضى حى غرناطة الشعبى ، وإلى جانبه توجد مواقع « القصبة القديمة » . ويصل بين القسمين القديم والحديث شارع « الملكين الكاثوليكيين » وهو شارع غرناطة الرئيسى ويحتل مكان شارع القصبة القديم . وقد سمى كذلك باسم فاتحى غرناطة ، الملك فرديناند الخامس وزوجه الملكة إيزابيلا .. وقد حرص الإسبان على تخليد كل ما يذكر بحوادث هذا الفتح التاريخى الحاسم ، ففى أعلى مكان فى برج المراقبة أحد أبراج الحمراء يوجد النصب الذى رفع عليه الصليب عند

دخول الإسبان المدينة فى سنة ١٤٩٢ . وتحتل كنيسة سانت مارى التى بنيت فوق موقع مسجد الحمراء ، أرفع بقعة فى الحمراء كلها ، وتبدو بناقوسها العالى مشرفة على سائر مبانيها ، ويقع قصر شارلكان فى قلب الحمراء بجوار القصر الإسلامى القديم ، وما زالت مدينة « سانتافى » الصغيرة قائمة قبالة غرناطة فى نفس المكان الذى عسكر فيه الإسبان وقت حصار غرناطة ، وأنشأ فيه الملك فرديناند مبانيها الأولى ، وأقسم ألا يبرحها حتى يفوز بافتتاح المدينة الإسلامية .. وما زال قيام « الحمراء » أعظم الآثار الأندلسية الباقية فى غرناطة يسبغ على العاصمة الأندلسية القديمة شهرة خالدة ، وتكاد الحمراء تغدو كعبة ثانية للأندلس يقصدها آلاف الرواد من سائر أنحاء الأرض . والحقيقة أن هذا الأثر الإسلامى العظيم يكاد يفوق فى جماله وروعته أى أثر إسلامى آخر . ثم هو فوق ذلك يكاد ينبل طلعته ، ووحشة أبهائه ، يلقى فى روع زائره أنه يعرب عن نوع من الحزن الصامت ، والأسى المؤثر ، بل إنه ليبث فى الواقع فى نفس المشاهد شعورا غامضاً بالحزن والأسى . وقد ترجع هذه الظاهرة النفسية إلى ما اقترن بقصر الحمراء ، وسـادتها السابقين من المآسى التاريخية المشجية . وهذا الإسم « الحمراء » اختلف فى تعليله ، فيرى البعض أنه يرجع إلى لون جدرانها الذى يضرب إلى الحمرة الفاتحة . ويرى البعض الآخر أنه يرجع إلى لقب الأسرة الملكية التى أنشأت الحمراء ، وهم بنو الأحمر ملوك غرناطة ، ولكن الرواية المرجحة فى ذلك هى أن الاسم يرجع إلى عصور قبل ذلك ، وأنه أطلق على قصور بنى الأحمر ، لأنها انشئت فوق أنقاض قلعة قديمة تسمى القلعة الحمراء ، وعلى خصر غرناطة (المرج) ومن تحتها يجرى نهر شنيل ، وتشرف من الجنوب والشرق على آكام جبال سيير انقادا (جبل شلير) ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء القديمة سوى بضعة أبراج متفرقة . وأما القصر الملكى فقد بقيت معظم أجزائه ، ومدخله الرئيسى من باب « الشريعة » ، وهو من إنشاء السلطان يوسف ابى الحجاج ، وما زال يحمل تاريخ إنشائه فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) . ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التى أبقت عليها حوادث الزمن ،

وليس له مثيل فى الحسن والروعة من حيث موقعه ، وتناسق أبهائه وجمال أعمدته الرخامية ، وحناياه ، وسقوفه ذات الزخرف الملون البديع ، ويغمره الضوء والهواء بكثرة ، ويبدو فى مجموعه فى منتهى الظرف والأناقة .

ويتكون اليوم من عدة أبهاء متصلة تقع على الترتيب الآتى : بهو قمارش أو قاعة السفراء ، وبهو البركة أو بهو الريحان ، ثم فناء السباع ، وعلى أحد جانبيه قاعة الأختين ، وفى الجانب الآخر بهو بنى سراج . ويعتبر بهو قمارش أعظم أبهاء الحمراء ، وكان به مجلس العرش وعليه قبة عظيمة زينت بنقوش بديعة ، ومن فوقها برج قمارش الشهير ، بيد أن أجمل ما فى الحمراء جميعا ، هو بلا ريب فناء السباع ، وهو من أحدث أبنية الحمراء إذ يرجع بناؤه إلى أواخر القرن الرابع عشر ، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة طولها ٣٥ متراً وعرضها عشرون ، وفى وسطها نافورة السباع المشهورة ، وهى عبارة عن حوض كبير من المرمر القاتم ، يحمله اثنا عشر أسداً ، تنفث الماء من أفواهها وتحيط به من سائر جوانبه مشرفيات متصلة ، وقباب صغيرة ، تحملها عمد نحيلة من الرخام الأبيض تمتاز بدقتها وجمالها . . ويقع بهو بنى سراج فى الجانب الجنوبى من فناء السباع ، وهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية زينت بزخارف بديعة ملونة ، وقد سمى هذا البهو باسم إحدى الأسر الغرناطية الشهيرة . وتقع الحمراء فوق هضبة عالية فى شمال شرقى غرناطة ، وتصل إليها بطريق منحدر معبد وتجوز إلى حدائقها الشاسعة من باب يسمى « باب الرمان » ، وهو باب أنشأه الاسبان ، وجعلوا فوقه ثلاث رمانات كبيرة من الحجر ، وهو شعار غرناطة التى يعنى اسمها الرومانى القديم « جراناتا » ، أى الرمانة . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعى نادرا ، فهى تشرف من الشمال والغرب على المدينة القديمة .. وقد زينت جميع جدران الحمراء بالنقوش العربية البديعة ، وسطرت عليها آيات قرآنية وأشعار وحكم مختلفة تتخللها جميعاً فى كل مكان وفى كل ركن عبارة « لاغالب إلا الله » ، وهى شعار ملوك غرناطة المفضل ، وربما كان فى ترديده والإكثار منه على هذا النحو مايدل بما كان يستشعره سادة الحمراء

من قدر محتوم لا سبيل إلى اتقائه أو مغالبته . وقد بقيت بعض أبواب الحمراء القديمة ، منها باب الشريعة التى سبقت الإشارة إليه ، وهو مدخل القصر الرئيسى ، وباب « الغدور » أو الطباق السبع ، وهو الباب الذى قيل إن أبا عبد الله محمداً ، آخر ملوك غرناطة ، قد خرج منه بعد أن سلم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرديناند الخامس ، ورجاه أن يأمر ببناء مكان هذا الباب حتى لا يجوز منه إنسان من بعده ، ويقال إن ملك الاسبان حقق رجاء الملك المغلوب ، وأمر ببناء الباب ، ومكان الباب اليوم مغلق بالبناء ، وتقع على مسافة قليلة من قصر الحمراء ، على ربوة عالية ، قصر جنة العريف ، وهو قصر صغير مستقل ، أنيق الطراز ، أنشىء فى أواخر القرن الثالث عشر ، وكان مصيفا لملوك غرناطة .. وتبدو الحمراء على العموم ، فى حالة جيدة من الحفظ والصيانة ، ولكن كثيرا من زخارفها ونقوشها الأولى قد محيت بفعل الزمن . وقد أصلحت الزخارف وجددت فى بعض المواضع على يد الإخصائيين الاسبان . ولكن التجديد لا يخلو من العيوب ، وتوجد به أحياناً أخطاء مادية فى النقوش والكلمات المجددة ، وهذا يرجع بلا ريب إلى عدم تمكن هؤلاء الاخصائيين من فن الزخارف الإسلامية ، ومن معرفة اللغة العربية .

ويقول كوندى المستشرق الاسبانى المعروف ، منوهاً بفضل الحضارة الأندلسية : إن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ م ، وهم الذين نقلوه إلى الأندلس ، ومنها أخذه الافرنج ، وقد استعمله العرب فى محاصرتهم صقلية سنة ٦٧٢ هـ ، وفى محاربة الاسبان سنة ١٢٤٩ م ، واستخدمه صاحب غرناطة فى حصار باجة ، ثم نقله عن العرب فى القرن الثالث عشر « روجر باكون » الإنجليزى وغيره ، وأول ما استخدمه الافرنج فى واقعة كريسى سنة ١٣٤٦ م ، وإنه منحة عظيمة منحها العرب للأوربيين .

وبعد ، فآثار الحضارة العربية فى الأندلس أجل من أن تحصى ، هذه الحضارة التى عافت ركوب الجمل ، فحاولت تذليل الهواء ، وأنفت من هذا النبراس الضئيل ، فاتخذت الثريات المشرقة فى القصور والمساجد وعلى حفافى

الشوارع والميادين . وأبت أن تعيش فى نصب البداوة ، فأدخلت الماء العذب فى أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض ، وفجرته من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة والنحاس المموه ، « وأجرته إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، فى أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة . والفن الاسلامى ماثل فى آثار غرناطة وقرطبة وأشبيلية وسواها ، وفى قصور الزهراء والحمراء الشامخة التى تسخر بالزمن ، وتبسم فى وجوه الأيام ، وهذا هو التراث العلمى المجيد الذى خلفه رجال الفكر الإسلامى الأندلسى ، ما أروع ما كتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة فى الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفى الإدارة والسياسة والطب والعلاج ، وفى جميع ميادين النشاط الإنسانى ، لاتزال تشير إلى مدى ماوصل إليه العرب فى الأندلس من عبقرية وقوة ومدنية .

ومن مثل الطموح العلمى حياة أبى القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الأندلس ، والمفكر العظيم الذى رددت ذكره الأجيال ، فقد نشأ « عباس » فى بلاد الأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموى الكبير ، وكان لابد له - ككل شاب طامح - أن يرد مناهل العلم ، ويغذى فكره وعقله بالثقافة الإسلامية فى مساجد قرطبة ودور العلم فيها ، فتتلمذ على رجال العلم ، ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون فى خفية بعيدا عن عيون الناس والجمهور ، ممن لايسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه . ثم خرج « عباس » إلى الحياة العامة ، شابا ثائر الفكر ، متأجج العزيمة ، مشتعل الذكاء ، لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يعنى بما يعنون به ، بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهرا لعقلية

مبدعة ، وتفكير سليم ؛ وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوى من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة التى نسير على أثرها فى شىء من التجديد والدقة والسرعة . ثم أخذت نفسه تحدثه : كيف نعيش دون التفكير فى اختراع شىء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون ، وفعلا تم له ما أراد ، فاخترع آلته البديعة « المنقالة » التى صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات . وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور . . . أيظل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرحب ، ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان ؟ هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ، ليطير كما تطير النسور فى الهواء ؟ وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التى هى أول محاولة بشرية للطيران ، فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء فارتفع فى الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس فى أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون . ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويداً رويداً حتى قرب منها ، فلم يستطيع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض فى جسده ؛ لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحى الطائر وريشه ، فآمن بأنهما وسيلته فى الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له فى طيرانه وحفظ توازنه وحين هبوطه إلى الأرض . فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشاً وجناحين ، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه ، وقد عجب الناس ، وسخروا من « عباس » وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر فى السخرية به والتندر عليه . وهكذا شأن العبقريين فى كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، بل يعادونهم عداء شديداً . وقد

يكون نقد الناس وسخريتهم سببا لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه فى محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ماأصيب به من جروح دامية أثرت فى صحته . وعلى أى فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته ، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس ، ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » . ولم يسكن هذا الفكر الثائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويبتكر ، حتى تمكن من وضع صورة فى بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق ، فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسى :

سماء عباس الأديب أبى ال قاسم ناهيك حسن رائقها

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته فى تجديد وابتكار ، فى سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية فى عصره . وكان مع هذا موسيقيا بارعا يعد أول من فك كتاب بطليموس فى الموسيقى والألحان ؟ وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل بن أحمد . وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب ، اتصل بالأمير الأموى حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذى اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ إلى ٢٧٣ هـ ، فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة ، وقد أنشد الأمير محمداً من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمداً وفى وجهه بذر المحبة يثمر

وخرج أهل طليطلة حوالى عام ٢٤٠هـ على الأمير محمد واستعانوا بالأفرنج فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم ، وفى ذلك يقول ابن فرناس:

أضحت طليطلة معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر
ماكان يبنى الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه :

ولو لم يشقنى الظاعنون لشاقنى حمام تداعت فى الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح ماتجرى لهن دموع

فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمود يدى حين خانها زمان لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعى الجود والمجد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع

ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات . وله القليل منها مما بقى من أدبه محفوظا فى كتب الأدب الأندلسى ومصادره . . هذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لقب بحق حكيم الأندلس ، والذى شغل الفكر الأندلسى حياً وميتاً ، وكان أول من فكر فى الطيران ، والذى مضى على وفاته أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان . وتوفى عباس نحو عام ٢٤٥ هـ

وبعد عباس بن فرناس بطويل جاء لناردو دافنسى الإيطالى الذى عاش فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، والذى سيطرت عليه فكرة إمكان الطيران متى نجح الإنسان فى تقليد الطيور ، فدرس الهواء وخواصه ، وتشريح الطيور ، غير أنه لم يوفق إلى تحقيق غرضه واختراع المهبطة وكشف فكرة البالون ؛ وبعده ظهر جورج كيلى الانجليزى فى أواخر القرن الثامن عشر وقد صنع طائرة ، وظل ينتظر الآلة المحركة التى قال بضرورتها للطيران ، وصنع هنسن فى سنة ١٨٤٢ نموذجا لطائرة ولكن لم يقو على الطيران ، ثم تلاه « ستر نجفيلو » الذى حسن هذا النموذج ، وبنى سنة ١٨٤٨ نموذجا آخر صغيرا وضع فيه آلة بخارية تمتاز بخفة مدهشة ساعدت على طيران هذا النموذج لأول مرة فى التاريخ ؛ ثم أسس بعد ذلك المستر ولهام الجمعية الملوكية للطيران بانجلترا ، فكانت إيذانا بقرب الكشف عن هذه المعجزة البشرية الرائعة ، وفى ١٨٩٠ بنى آدر المهندس الكهربائى الفرنسى طيارة ، وركب لها محركا بخاريا ، وانتقل بها إلى مسافات طويلة ، وفى ١٨٩٧

بنى طائرة أخرى وطار بها ٣٠٠ متر فى خط مستقيم ثم نزلت إلى الأرض ؛ ثم جاء للبنثال الألمانى الذى طار بعد أن حسن نموذج الطائرة ، وتوفى ١٨٩٦م ، ثم جاء لانجلى الأمريكى ، وتلاه الأخوان رايت اللذان طارا لأول مرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٠٣

ففى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر ١٩٠٣م حدث حدث تاريخى فى بلدة كيتى هوك بولاية نورث كارولينا الأمريكية . ذلك أن الأخوين ويلبور وأورفيل رايت طارا بطائرة أثقل من الهواء ، فكانا أول من نجح فى ذلك فى تاريخ البشر . ويوم عادا من نورث كارولينا إلى مسقط رأسهما فى مدينة ديتون بولاية أوهيو لم يحتف بهما الناس ، بل إن جيرانهما ظنوا أنه إذا كان الشابان قد طارا حقاً ، فما هى إلا مصادفة اصطلحت عليها الرياح القوية ، وأن ما تمّ لهما لن يتم مرة أخرى ، وكان أصدقاؤهما إذا التقوا بهما فى شارع المدينة يتجنبان الإشارة إلى ما روى عن طيرانهما ، فلن تجد رجلا به مسكة من العقل يرضى أن يتحدث فى رواية سخيفة كهذه الرواية .

وصدرت صحيفة « ديتون جرنال » فى صباح اليوم التالى ، وليس فيها كلمة ما عن الحادث الذى تمّ فى ١٧ ديسمبر . ونشرت ست صحف أمريكية رواية غريبة عما تم . ولكن جميع القراء تقريباً أنكروا ما قرأوا عن الطيران بآلة أثقل من الهواء . ألم يقل كبار العلماء ، وفى طليعتهم سيمون نيوكم العالم الفلكى الرياضى ، إن ذلك مستحيل ؟ ثم ألا تراهم قد أيدوا رأيهم بمنطق لا ينقض ؟ فلم يكن غريباً أن تجد رؤساء تحرير الصحف يأبون ، بعد أن قرأوا رأى العلماء ، أن ينشروا أن الطيران قد تمّ ، وأنه تم على أيدى رجلين مجهولين ، كان شغلهما أن يصلحا الدراجات ، وليس لهما من العلم ما يصيبه طالب فى جامعة ، لأنهما لم يطلبا العلم فى جامعة .

وفى شهر إبريل من سنة ١٩٠٤ جعل الأخوان يتدربان على الطيران فى مرعى للبقر قريب من بيتهما فى مدينة ديتون . وعلى أن خبر هذه التجارب

كان أعظم أخبار العلم وأخطرها فى مستهل هذا القرن ، فإنك لن تجد ذكراً له فى الصحف ، حتى ولا فى صحف المدينة التى أنجبت هذين الشابين . وما كان ذلك لأن الأخوين كانا يكتمان ما يصنعان . فكيف يستطيعان ، لو أرادا ، أن يكتما شيئاً يصنعانه فى مرج على مرأى من عيون الناس ، فعلى احد جانبى المرج طريق عام ، وخط الترام الذى يصل المدينة بالضواحى ، وعلى الجانب الآخر سكة حديدية .

وقد ذكر دان كملر الصحفى الأمريكى ، الذى كان محرراً لقسم أخبار المدينة فى صحيفة « ديتون ديلى نيوز » فى ذكرياته العجيبة القديمة تلك الأيام ، فتذكر كملر ما كان ، وقال : « كان الناس الذين يمرون بذلك الحقل فى مركبات الترام يجيئون إلى مكتب الصحيفة ويسألون : أفى الصحيفة ذكر لطيران الأخوين ، وقد تكاثر عدد الزوار حتى صرنا نعدهم بلية علينا » . فسألته : « ولم لم تنشروا شيئاً فى الصحيفة ؟ » فقال : « لم نصدق ما قيل ، ليس إلا » : ومن الأشياء التى جعلت طيران الأخوين شيئاً لا يسترعى الأنظار أنهما كانا يطيران المرة بعد المرة على ارتفاع ١٠ أقدام أو ١٥ قدماً فوق سطح الأرض . وكانا يطيران فى أول الأمر مسافات قصيرة فى خط مستقيم ، كما فعلا فى كيتى هوك سنة ١٩٠٣ ، وأنفقا معظم أيام ستى ١٩٠٤ و ١٩٠٥ فى التدرب على إتقان توجيه الطائرة والطيران فى دائرة ، وزيادة المسافة التى يقطعانها ، فلما كان شهر أكتوبر من سنة ١٩٠٥ طار أورفيل ٢٠ ميلا ، وبعد يومين طار أخوه ويلبور ٢٤ ميلا ونصف ميل .

ومع ذلك لم تظفر معجزة الطيران باهتمام يذكر . وذات يوم ذكر تلاميذ مدرسة ريفية لمحرر صحيفة « ديتون جورنال » الشيخ أنهم رأوا بعيونهم الأخوين يطيران حول المرعى مدة خمس دقائق . واتفق للمحرر أن لقى أورفيل رايت فى مركبة الترام فى أصيل ذلك اليوم فسأله : أحق ما قاله التلاميذ ؟ فقال أورفيل إنهما كثيراً ما يطيران . فوقع فى روع المحرر أن الرواية ليست بذات شأن ما دام اورفيل نفسه لا يعد ما يفعله هو وأخوه شيئاً غير مألوف ،

أو شيئا ذا خطر . فطيرانهما حول المرج شيء يسلى تلاميذ المدرسة ، ولكنه لا يكاد يكون شيئاً يستحق بضعة أسطر فى صحيفة ، وختم المحرر حديثه مع أورفيل فقال : « إذا صنعتما شيئاً خارقاً فلا تتوان فى نقل خبره إلينا » .

وعلى أن مئات من الناس شاهدوا الأخوين يطيران ، فإن أكثر الناس فى طول البلاد وعرضها ، ومنهم العلماء والمحررون ، أبوا ان يصدقوا أن طائرة أثقل من الهواء استطاعت حقا أن ترتفع بقوتها عن سطح الأرض .

وكانت هناك جماعة أخرى من الناس ، خليقة أن تعنى بالموضوع ، ولكن ماروى عنه أزعجها أكثر مما أثار فضولها ، وكانت تلك الجماعة جماعة وزارة الحربية . فقد غلب الشعور الوطنى على الأخوين ، فأرادا أن يعرضا على حكومة أمتهما احتكاراً لاختراعهما ، وكانا يظنان أن الطائرة تصلح الاستكشاف زمن الحرب ، وقد تعزز ظنهما هذا يوم أخذت حكومات الدول الأجنبية تخطب ودهما ، ولا سيما الحكومة الفرنسية . فكتبا إلى وزير الحربية الأمريكية وعرضا عليه أن يكون للحكومة الحق الأول فى الهيمنة على اختراعهما .

وأغلب الرأى أن رجال وزارة الحربية عدوا هذه الرسالة شيئاً ينبغى أن يحفظ فى « درج المهملات » ، وتلقى الأخوان رسالة عليها توقيع جنرال فى هيئة أركان الحرب ورد فيها : « أن مجلس المهمات يرى أن يرفض تخصيص مال لتجربة أجهزة الطيران الميكانيكى » . والحق يقال ان الأخوين لم يطلبا ولا لمحا إلى ضرورة تخصيص مال لتجاربهما . ثم تلقيا رسالة ثانية فى أواخر سنه ١٩٠٥ من مجلس المهمات جاء فيها : « أن المجلس يأبى أن يصنع شيئاً حتى تصنع آلة يثبت فعلا أنها قادرة ان تطير طيراناً أفقيا وهى تحمل رجلا » .

مع أنه كان الأخوان لا يزالان يطيران فى طائرة هذه صفتها منذ شهر ديسمبر ١٩٠١ .

وقرأ رجل من أسرة كابوت كلمة مؤداها أن الأخوين يفاوضان فرنسا

فى استعمال « السفينة الهوائية » الغريبة ، التى صنعاها ، فكتب إليهما يسألهما لم لا يعرضان مخترعهما على حكومة أمتهم ، فردا بأنهما فعلا ذلك غير مرة . واطلع السناتور هنرى كابوت لودج على هذه الرسائل ، فأرسلها إلى وزير الحربية ، فأحالها على مجلس المهمات — فلم يفعل شيئاً ، وفى سنه ١٩٠٧ أرسل احدهم إلى الرئيس ثيودور روزفلت مقالة عن الأخوين ، فكتب عليها الرئيس بخطه « يبحث » ، وأحالها على وزير الحربية المستر تافت ، فكتب تافت عليها « يبحث » وأحالها على مجلس المهمات . وكان بعض اعضاء المجلس قد تغيروا منذ سنة ١٩٠٥ ، ولكن المجلس ظل يساوره الريب فى هذا الأمر وبعد بحث فاتر كتب المجلس إلى الأخوين يقول : إن الحكومة يقظة ولا تأخذ بهذه الألاعيب .

وبعد أن انقضت أربع سنوات أو نحوها على الطيران الأول فى كيتى هوك ، أخذت وزارة الحربية تغير موقفها ، ولا سيما بعد أن توالت الأنباء من ملحقيها العسكريين بأن الحكومات الأوربية مهتمة بالطائرة ، فعقد اتفاق على أن تشترى الحكومة طائرة من طائرات رايت بمبلغ ٢٥ ألف ريال إذا ثبت أنها تستطيع أن تحمل رجلا عدا قائدها وأن تطير بهما مدة ساعة ، وأن تكون سرعتها ٤٠ ميلا فى الساعة ، وأن تحمل من الوقود مايكفى للطيران مسافة ١٢٥ ميلا . وتم الاتفاق على إجراء التجربة فى سبتمبر سنة ١٩٠٨ . كان الأخوان فى تجاربهما الأولى يركبان طائراتهما منبطحين على بطنهما . وكان الانبطاح على هذا النحو ، مع رفع الرأس حتى يستطيع المنبطح أن يرى ما أمامه ، ومع الميل بالجسم من جانب إلى جانب حتى تظل الطائرة محتفظة بتوازنها ، وكان ذلك كفيلا بأن يؤود اقوى الناس . فأراد الأخوان أن يجربا جهازاً جديداً لتوجيه الطائرة . فعادا إلى مسرح تجربتهما الأولى فى كيتى هوك ، وذات يوم فى مايو ١٩٠٨ رؤيت طائرة رايت ماضية فى الجو ، وقد رآها مراسل صحفى اتفق وجوده هناك ، وكان اسمه سالى . فأبرق إلى طائفة من كبريات الصحف يسأل من: منها يريد قصة مارأى ؟ فأرسل إليه محرر الأنباء

فى صحيفة « كليفلاند ليدر » برقية غريبة ، فإنه لم يكتف بقوله : إن الموضوع لا يهمه ، بل أضاف كلمة أعرب فيها عن غضبه أن يعرض عليه أحد من الناس عرضاً سخيفاً كهذا . وعد محرر صحيفة « نيويورك هيرالد » برقية المراسل شيئاً أدنى إلى الجنون ، ولكن صاحب الصحيفة ، جيمس جوردن بنيت ، كان مهتماً بشئون الطيران ، فأمر باستقصاء هذه الرواية الغريبة ، فبعثوا بأبرع مراسلى الصحيفة ، بيرون نيوتن ، إلى كيتى هوك . فإذا كان الأخوان من المخادعين ، فليس ثمة قلم ألذع من قلم نيوتن فى فضح خداعهما ، وغامرت الهيرالد فنشرت رسالة سالى الأولى ، فلم يكد محررو الصحف الأخرى يرون ما فعلته الهيرالد ، حتى قضوا بأن الأوان قد آن للوقوف على حقيقة قصة الأخوين . وسرعان ما انضم إلى بيرون نيوتن فى كيتى هوك ، جماعة من المراسلين والمصورين . فلما رأى الصحفيون صحراء كيتى هوك المقفرة ، ظنوا أن الأخوين يؤثران البعد عن عيون الناس . فعزموا أن يلوذوا هم أيضاً بالكتمان . فكانوا يمضون بطعامهم وشرابهم كل يوم ، ويختبئون فى غابات الصنوبر على مقربة من قاعدة الأخوين ، ثم يستطلعون بالمناظر المقربة ما يصنعان . فذهلوا عن أنفسهم ساعة رأوا رجلين من البشر يطيران . بل رأوا فى يوم ١٤ مايو ما لم تقع عليه عين بشر : طيران طائرة فيها رجلان . وينبغى أن نتذكر أن جمهور الناس كان لا يزال منكراً أن الطيران مستطاع ، مع أن الأخوين أقاما الدليل على إمكانه منذ أربع سنوات فى هذه البقعة نفسها — كيتى هوك — وأخيراً ظفر خبر الطيران بالعناوين الضخمة فى صدور الصحف معلنة ما صنعه الأخوان . وكتب بيرون نيوتن فى صحيفة الهيرالد : « ليس ثمة أدنى ريب فى ما صنعه هذان الرجلان فى آلتهما العجيبة » . ومع ذلك فلم تكن هذه المقالات كافية لإقناع كل إنسان ، وظلت صحف كثيرة ممتنعة عن نشر الخبر . فلما أرسل نيوتن مقالا إلى إحدى المجلات يصف فيه ما رآه بعينيه فى كيتى هوك ، أعيد إليه المقال وقد كتب المحرر عليه : « قرأنا مقالكم باهتمام ولكننا لا نستطيع أن نسلكه فى صف القصص المتخيل

ولا الحقيقة الواقعة ، ولم يكف الناس عن الاستراية فيما صنعه الإخوان حتى كانت التجربة العامة التى تمت فى سبتمبر ١٩٠٨ ، فيومئذ اتفق محررو الصحف ورجال العلم ، على أن الطيران بآلة أصبح حقيقة واقعة ، ولكن الريب ظل يساور النفوس إلى اللحظة التى بدأفيها الطيران . وقد قال أورفيل : إنه أحس كأن الناس المحتشدين هناك ، وفيهم ضباط الجيش الذين تولوا الإشراف على التجربة ، لم يتوقعوا أن يروا الطائرة تطير . ويصح أن تعلم أن هذه التجربة كانت التجربة العامة الأولى لإحدى معجزات القرن العشرين ، وكان الذين احتشدوا ليروها جمهوراً صغيراً . ويقول ابن الرئيس تيودور روزفلت: إن أباه طلب منه أن يقدر عدد الناس فكان تقديره أنهم ألف أو أقل . ويقول الفتى روزفلت : « لما ارتفعت الطائرة عن الأرض ندت عن القوم زفرة استغراب ، لم يكن مردها إلى أن الطيران كان عجباً من العجب وحسب ، بل لأن الناس رأوا شيئاً لم يتوقعوه أيضاً . ولن أنسى ما كان لزفرة الجمهور من أثر فى نفسى ، فقد كانت زفرة دهشة تامة » . فلما حط اورفيل على الأرض بعد طيرانه ، دهش هو أيضاً ، فقد عدا اليه ثلاثة من الصحفيين أو أربعة ، والدمع يترقرق فى عيونهم وينسكب على خدودهم ، فقد غلبتهم روعة رؤية شىء كان يعد مستحيلا . وهكذا تحققت معجزة بدأ بها عباس بن فرناس .

ويتحدث شوقى فى شعره حين كان فى المنفى عن آثار الأندلس وحضارتها الخالدة فيقول من بائية له :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا ... وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقل لحقه العبرات تجرى ... وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقن مقبلات الترب عنى ... وأدين التحيـة والخطابا
نثرت الدمع فى الدمن البوالى ... كنظمى فى كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاءوا ... وقوفا علم الصـبر الذهابا
لهـا حق وللأحباب حق ... رشفت وصالهم فيها حبابا

ومن شكر المناجم محسنات إذا التبر انجلى شكر الترابا
وبين جوانحى واف ألوف إذا لمح الديار مضى وثابا
رأى ميل الزمان به فكانت على الأيام صحبته عتابا
وداعاً أرض أندلس وهذا ثنائى إن رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا
تخذتك موئلا فخللت أندى ذرا من وائل وأعز غابا

ويصف شوقى فى أندلسيته الخالدة الأخرى روائع المجد العربى الكبير فى الأندلس فيقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا (١)
ماذا تقص علينا غير أن يداً قصت جناحيك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا سهماً وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع من الجناحين عىٍّ لا يلبينا
فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولاظمأ ولا ادكاراً ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ساقاً إلى فنن وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟
آهاً لنا نازحى أيك بأندلس وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لاتنال الأرض أدمعهم ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم كالخمر من « بابل » سارت « لدارينا »
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته تماثل الورد « خيريا » و « نسرينا »

(١) واد بظاهر اشبيلية كان ابن عباد مولعاً به

نسق ثراهم ثناء كلما نثرت دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه
وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ثم يتحدث عن وطنه مصر فى هذه الأندلسية الرائعة فيقول :

لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفله وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا
ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة
لحاضرين وأكواب لبادينا

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ، ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دماً هاج البكا فضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليل حائرة مما نردد فيه حين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب على نجائب النور محدوا ، بجبرينا ،
ترد عنك يداه كل عادية إنسا يعثن فسادا أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على وشى الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مؤرجة ربت خمائل واهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف فى خمائله وانزل كما نزل الطل الرياحنيا
وآس مابات يذوى من منازلنا بالحادثات ويضوى من مغانينا
ويامعطرة الوادى سرت سحراً فطاب كل طروح من مراميا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها قميص يوسف لم نحسب مغالينا

جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
بالورد كتبا وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

هل من ذيولك مسكى نحمله ... غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غيرهم ... دنيا وودهم الصافى هو الدينا
يامن نغار عليهم من ضمائرنا ... ومن مصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم فى خواطرنا ... عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ... فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكم ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا ... حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ... حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأسوه تأسينا
سقياً لعهد كأكناف الربى رقة ... أنى ذهبنا ، وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية ... والسعد حاشية والدهر ماشينا
والشمس تختال فى العقيان تحسبها ... «بلقيس» ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ... وكان فيها وفاء للصافينا
والسعد لو دام ، والنعمى لو اطردت
والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا
الق على الأرض حتى ردها ذهباً ... ماء لمسنا به الإكسير أو طينا
أعداه من يمنه (التابوت) وارتسمت
على جوانبه الأنوار من سينا

له مبالغ ما فى الخلق من كرم ... عهد الكرام ومثاق الوفيينا
لم يجر للدهر إعذار ولا عرس ... إلا بأيامنا أو فى لياليا
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته ... منا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق ... إذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت ... فى ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤوله على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغر الميامينا
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا
وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظ القز بالخيطان ترمينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل «القياصر» دناها «فراعينا»
ولم يضع حجراً بان على حجر ... فى الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره ... يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا
كأنها ورمالا حولها التطمت ... سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً ... كنوز «فرعون» غطين الموازينا
ارض الأبوة والميلاد طيبها ... مر الصبا فى ذيول من تصابينا
كانت محجلة فيها مواقفنا ... غرا مسلسلة المجرى قوافينا
فآب من كرة الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ولم ندع لليالى صافيا فدعت ... بأن نغص فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعياً إلى مصر تقضى حق ذاكرنا ... فيها إذا نسى الوافى وباكينا
كنز «بحلوان» عند الله نطلبه ... خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أو له شجناً ... لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

تاريخ العرب فى الاندلس

الفتح العربى للأندلس :

دخلت بلاد الأندلس فى عصور التاريخ الأولى قبائل من الجلالقة والسلت والبسك ، واستقر البعض فى الشواطىء الساحلية ، ثم هاجرت اليها سلالات حامية من البربر سكان إفريقيا ، وقبل الميلاد بعشرة قرون دلف اليها سلالات سامية من الفنيقيين الذين استوطنوا قرطاجنة ، وأثرت البيئة الأندلسية فى هذه الأمم المختلفة إلى حد كبير . وفى عصور الحضارة الإغريقية الأولى دخل إلى البلاد كثير من اليونانيين ، ثم استولى الرومان عليها فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، وكانت حاضرة البلاد فى عهدهم مدينة «طالقة» القريبة من اشبيلية ، وقد أطلق الرومان على البلاد إسم هسبانيا ، واستمر حكمهم لها زمناً طويلا ، حتى أترفوا وامحت من نفوسهم أخلاق أجدادهم الفاضلة فغلبتهم على حكم البلاد قبائل الفندال الجرمانية التى أسست لها على نهر الوادى الكبير مملكة سميت باسمهم « فندلس » ، ومن هذا الإسم أخذت كلمة أندلس ، ثم أغار القوط على الفندال فنسخوا الحكم الفندلسى من البلاد ، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لملكهم ، وقد دام حكم القوط ثلاثة قرون بلغ فيها منتهى الفخامة والترف ، وانتشر فى ظلاله الدين المسيحى ، بعد أن تغلب على الوثنية الأولى ، وكان آخر ملوكهم « رودريك » الذى اغتصب العرش لنفسه ، وأقام ملكه على العسف والاستبداد ، وروع الشعب ، فهاجر الكثير إلى بلاد الإمبراطورية الإسلامية الناشئة ، ينعمون فى ظلالها بالعدل والأمن والحرية ، وينشدون لوطنهم السلام والرفاهية ولو فى ظلال الحكم الإسلامى النبيل .

وكان المسلمون قد فتحوا مصر عام ٢٠ هـ ، وتوغلوا فى شمال إفريقية بعد

ذلك ، وأسسوا مدينة القيروان عام ٥٠ هـ ، واستمروا فى فتوحاتهم ، حتى بلغ عقبة بن نافع إلى شاطىء بحر الظلمات ونزل بفرسه فيه وهو يقول : « اللهم فاشهد لو كان وراء هذا البحر قوم لخضته اليهم » .

وخلف موسى بن نصير عقبة بن نافع عام ٨٨ هـ فى ولايته ، وفى عزيمته وهمته ، وكانت ولايته من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، فتطلع موسى إلى فتح جديد يجدد به معجزات البطولة العربية ، فلم يجد أمامه إلا بلاد الأندلس .

وفى هذه الفترة كان « رودريك » على عرش اسبانيا يتربص به شعبه ريب الحوادث ، وأنصار الملك المخلوع ملك القوط الذى اغتصب رودريك عرشه يدبرون له المكايد ، والكونت يليان حاكم سبته يؤازرهم مؤازرة الذائد عن شرفه وكرامته ، فأخذ يرشد موسى بن نصير إلى مواطن الضعف من القوط ، ويحبب اليه فتح البلاد ، ويضع أسطوله تحت تصرفه ، ورأى موسى أن الفرصة سانحة ، فأرسل طريف بن مالك فى حملة إلى بلاد الأندلس طليعة للجيش ، ثم أتبعه بحملة أخرى يقودها طارق بن زياد عامل طنجة .

يروى أن الأمراء كانوا يرسلون بناتهم إلى بلاط الملك وصائف ، وأن جوليان (يوليان) حاكم مدينة « سبته » أرسل ابنته حفيدة الملك وتيزا (غيطشه) إلى القصر الملكى ، فأغواها ردريك عن عفافها ، ثم استفاقت فأبلغت أباها أمرها ، فعزم على أن يكيد لردريك انتقاماً منه ، ولم يبد مما فى نفسه شيئا إلا أنه عرض بما أراد ، إذ كان رودريك يطلب منه أن يهدى اليه صقورا للصيد فأجاب جوليان : لأرسلن اليك صقورا ما رأيتها من قبل . وربما كان جوليان أراد أن ينتقم للملك المخلوع الذى كان صهره .

وربما كان جوليان أراد أن يأمن غارة العرب الذين يحيطون به وتقض قوتهم مضجعه ، فجعل يغرى موسى بن نصير والى إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك بملك رودريك وجمال بلاده ووفرة الخيرات وقلة الخطر ، فلعل ذلك مانعه

من العرب أو مفيئه إلى ظلهم الظليل، ولعله يظفر بتاج رودريك أو يستطيع رده إلى أحمائه أولاد وتيزا . ومن البدهى أن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد يبلغه ويأتمر بأمره ، فكتب اليه الخليفة يحذره أن يجازف بدماء المسلمين وأرواحهم ويأذن له فى خفيف الغزوات ومأمون السرايا .

وأرسل موسى مولاه طريفا عام ٩١ هـ — ٧١٠ م ، ومعه خمسمائة مسلم اجتازوا الطريق المسمى الآن بوغاز جبل طارق ، وكان العرب يسمونه بحر الزقاق على أربع سفن قدمها اليهم جوليان تنفيذاً لما كان قد تعهد به لموسى ابن نصير من حمل المسلمين فى البحر ودلالتهم فى البر وتعريفهم بعورات البلاد ومسالكها ، وقد كانت سرية طريف موفقة ، فتحبها المدينة الخضراء ، واستيقن إخلاص جوليان وسهولة البلاد .

وأغرى هذا التوفيق الميسر موسى بن نصير فأرسل فى عام (٩٢ هـ : ٧١١ م) طارق بن زياد فى سبعة آلاف نزل بهم على صخرة صارت تسمى من ذلك الحين جبل طارق ودخل بهم كأنما هو يسعى فى البلاد دون مقاومة ، إلى أن وصل نهر جواديليت « نهر بقه » وإذا جيش كثيف زاحف إلى المسلمين يقوده رودريك فى خمسة أمثال جيشهم أو يزيد ، وأعد طارق جيشه وخطب فيهم خطبته المشهورة ، ثم اجتمعوا على عدوهم وحاربوا جيوشه سبعة أيام حتى انتصروا نصراً خالدا ، ورئى حذاء ردريك وجواده على شاطىء النهر فقيل إنه مات غريقاً ، وهكذا تم النصر ، فقد كانت الحالة النفسية بين الجيشين مختلفة ، فالمسلمون يجاهدون فى الله حق جهاده ، والجوت توزعت اهواءهم المظالم التى كان يصبها الملوك عليهم صبا .

وكان جيش المسلمين على قلب رجل واحد ، وجيش الجوت خليطاً من الرعاع والعبيد المرتزقين الذين ليس لهم فى الحرب فائدة ولا غناء ، وكان قائد المسلمين كالمسلمين أو هو أشد منهم ، يفيض حماسة وقوة إيمان وتلتهب كلماته فى خطابته فتذكيهم حمية وتضىء لهم الطريق ، حين كان رودريك فى أبهة الملك على وسادة حريرية فى محفة تجرها بغال بيض .

وكان اليهود مستضعفين يسومهم رودريك وجنوده سوء العذاب ، وقد تنفسوا الصعداء لما رأوا جيش المسلمين فأمدوهم بالعونين الأدبى والمادى ، وظاهروا المسلمين على الإسبان وكان أبناء الملك (ويتزا) قوادا فى جيش رودريك وكانوا تواطئوا مع جوليان أن ينهزموا بجنودهم إبان المعركة ففعلوا ؛ وكان المسلمون فى موقف لا خيرة فيه ، ولا احتمال : فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم ، والله تعالى وعدهم إحدى الحسنيين أنها لهم ، هذا كله عجل للعرب بالنصر المبين .

ويروى أن طارقا لما بلغه قرب جيش رودريك منه قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه ، فكان مما قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم وليس لكم ، والله ، إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً — ذهب ريحكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة عن أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما حوت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً واختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان — ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين . والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه . وأنى — عند ملتقى الجمعين — حامل بنفسى على طاغية القوم « لذريق » فقاتله إن شاء الله تعالى .

فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عامل تسندون أموركم إليه . وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله .

وبعد أن تم النصر وجد طارق من سهولة الفتح ما أغراه بالإمعان فى أن يثخن فى الأرض ، فوالى حركاته الحربية ، وتوالت انتصاراته حتى لم يلبث أن أرسل سبعمائة من رجاله فتحوا كرودبا (قرطبة) ، ورأى طارق أن يعجلهم ويسرع إلى طليطلة قبل أن يولوا عليهم ملكا يجمع كلمتهم ويلم شعثهم ، فتقدم قاصداً طليطلة ، بعد أن فرق جيشه فرقا . فأرسل فرقة الى قرطبة . وأخرى إلى مالقة . وثالثة إلى غرناطة . فاستولت كل فرقة على البلد الذى قصدته . وسار هو إلى طليطلة ، عاصمة البلاد ، فوجدها مغلقة الأبواب ، حصينة الأسوار ، فحاصرها زمنا ، حتى اضطر أهلها إلى الصلح ، فصالحهم على أن لهم الحرية فى الخروج إن شاءوا . وهم أحرار فى دينهم إن بقوا . وترك لهم كنائسهم .

وبلغت هذه الأنباء والانتصارات الباهرة موسى بن نصير ، فكتب يخبر الخليفة الوليد بما أفاء الله على جيش المسلمين ، وبادر فشخص فى حملة عسكرية وجند كثيف يتمم الفتح ويساعد طارقا على التمهيد للاسلام وللعرب فى هذه البلاد ، وذلك بعد أن استخلف على القيروان ابنه عبد العزيز عام ٩٣ هـ . ولما بلغ موسى بن نصير ميدان القتال وجد طارقا قد كاد يبلغ الشمال فاستدعاه اليه والتقيا عند مدينة (تلافيرا) فساط موسى طارقاً على وجهه ، واستكان المولى إلى مولاه فلم يبد امتعاضا ، وحمل إليه طارق الغنائم فلذلك نسب الفتح إلى موسى لأن طارقا من قبله ، ولأنه أتم فتح ما بقى ، ويقول بعض المؤرخين إنه إنما ضرب طارقا بالسوط لأنه حسده أن يستأثر بهذا المجد العظيم دون سيده ، وان ابن نصير كان يحب أن يكون هو الفاتح وليس طارقا ، والحقيقة أن موسى كان يخاف على المسلمين ، وكانت سياسته أن يتم فتح البلاد على التدريج ، فقد روى أن ابن نصير قال لمولاه طارق عند اللقاء : كيف غررت بنفسك وبالمسلمين ولم تخف ألا أستطيع أن أمدك بمال ولا رجال ؟ !

وروى أن موسى بن نصير لم يخلع طارقا عن القيادة ، ولم يستبد هو بهذه القيادة ، بل اقتسما البلاد بجيشهما فجعلا يشرقان ويغربان ويصعدان وينحدران ويتلاقيان ويفترقان أربع سنين عددا ، حتى ملكوا وسط البلاد وشرقها وبلاد جليقيا (البرتغال) فى غربها ، ولم يتركا فى الشمال إلا نفرا يسيرا من المسيحيين استهانا بهم ، وإن كانوا فيما بعد من أسباب البلاء على المسلمين والإسلام فى الأندلس .

وأقام موسى بالأندلس مجاهدا ، وجامعا للأموال والغنائم ، ومرتبا للأمور ، إلى عام ٩٥ هـ . وقبض على طارق ، ثم استخلف ابنه عبد العزيز ، وذهب إلى القيروان فدمشق ومعه طارق ، ومات الوليد عام ٩٦ هـ . وموسى بطبرية ، ويقال إن موسى وصل وأدرك الوليد حيا ، وكان موسى من صنائع الوليد ، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد عليه ، ولذلك لم يلبث أن تولى سليمان الخلافة ، فاتهم موسى بالخيانة والغلول فى الغنائم ، واستخصم طارقا لديه بأن موسى نفس عليه جهاده وبلاءه ، ويروى أن سليمان قال لموسى : من فتح الأندلس (١) فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، فقال طارق : سله يا أمير المؤمنين عن الرجل المفقودة من مائدة سليمان أين هى ؟ فلم يعلم موسى عنها شيئا ، فقال طارق : هى عنـــدى يا أمير المؤمنين وأحضرها فأقروا له أنه فاتح الأندلس لا مولاه (١) ونفى سليمان موسى إلى المدينة فمات بها سنة ٩٨ هـ .

الشعب العربى فى الأندلس :

دخل العرب الأندلس فاتحين ، وتبع الجيش الإسلامى الفاتح القبائل العربية من كل مكان ، فنزل بها من قبائل العرب وساداتهم جماعة ورثوها أحفادهم : نزل بها من العدنانية خندف وقريش ، ومن قريش جماعة من بنى هاشم من ولد إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب ، ومنهم بنو حمود

(١) تاريخ الأندلس — لعبد الفتاح بدوى ط ١٩٤٠ .

ملوك الأندلس بعد الدولة الأموية فى الأندلس ؛ ونزلها كذلك بنو أمية ، ومنهم خلفاء الأندلس ، ومن بنى مخزوم الشاعر أبو بكر المخزومى الأعمى ، والوزير أبو بكر بن زيدون ، ومن عقيل القيسيين جماعة من خفاجة وغيرهم . ومن خفاجة ابن خفاجة الأندلسى شاعر الطبيعة . ونزل بها من كنانة كثيرون أقاموا فى طليطلة ، والعدنانيون بقبائلهم وأفخاذهم كانوا ممثلين فى الأندلس تمثيلا كاملا . أما اليمانية فكانوا أكثر انتشاراً من المضرية ، ومنهم محمد بن هانىء الأزدى ، ومنهم بنو مازن وينتسبون إلى غسان الأزديين ، ومنهم من الأنصار جمع غفير نزلوا الأندلس وأقاموا فيها ، ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب الرسول ، وقد توفى عام ٤٣٣ هـ وشهر بالموشحات ، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر ملوك غرناطة ، وكان من وزرائهم لسان الدين بن الخطيب ، وفى آخر أيامهم انقرض ملك العرب بالأندلس .

اتصل العرب بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم ، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود ، واندمج بعضهم فى بعض بالمصاهرة وغيرها ، وكونوا شعباً واحداً وتشاركوا فى إدارة البلاد ، واقتبس الإسبانيون كثيراً من عادات العرب وأخلاقهم ، واخذ العرب كذلك بعض مظاهر حياتهم ، وجاروهم فى كثير من أحوالهم الاجتماعية ، وورثت الناشئة الجديدة صفات العرب من غيرة وكرامة . وصفات الأوربيين من دقة الإدراك وسعة الخيال وقوة الفكر .

وهكذا دخل الأندلس العرب فصادفوا البلاد ، وقد انطبعت فيها مزايا هذه الأمم . فما لبثوا أن أحدثوا أثرهم ، وأنت أعلم الناس بطباع العربى فى باديته ، وما أفاده بالإسلام من خلق فاضل ، ودين قويم يدعو إلى الفضيلة ، ويأمر بالإنصاف فى المخالطة ، ويحض على العلم ، ويبعث الهمم للسعى فى الرزق والضرب فى الأرض ، واستثارة ما فيها من خير .

يروى لسان الدين ابن الخطيب عن ابن غالب مؤلف كتاب « فرحة الأنفس » فى وصف الشعب العربى الأندلسى :

« أهل الأندلس عرب » فى الأنساب والعزة . وعلو الهمة ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ، « هنديون » فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إياها ، وضبطهم لها ورواياتهم « بغداديون » فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهة ذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم ، « يونانيون » فى استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الفراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال ومقاساة النصب فى تحسين الصناعات ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

وقد ظل هذا شأن الأندلس مدة استيطانهم لهذه البلاد ، وهى زهاء ثمانية قرون ، فلما نفذ قضاء الله تعالى عليهم بخروج أكثرهم — وهم المسلمون — وحرمانهم من هذا الوطن الذى كان أعز عليهم من نفوسهم ، تفرقوا فى بلاد المغرب الأقصى بين العدوة ، فأما أهل البادية فقد نزلوا البوادى وخالطوا أهلها وأفادوهم ما كانوا كانوا درجوا عليه فى موطنهم الأول ، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحى[1] الطاحنة بالماء ، فصلحت بذلك حال مضيفيهم ، وكثرت غلاتهم ، وعمت الخيرات فيهم .

وأما أهل الحواضر ، فمالوا إليها فى وطنهم الجديد ، فأهل الأدب كان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال ، حتى كان لا يستخدم بلدى

---

(١) جمع رحى كما ذكره القاموس .

ما وجد أندلسى ، وقد فاق أهل الصناعات أهل البلاد ، وتولوا إدارة الأعمال .

الحكم فى الأندلس :

١ — حكم الأندلس الولاة العرب للدولة الأموية بدمشق ، وعددهم عشرون ، وقد حكموا البلاد ستا وأربعين عاما (٩٢ — ١٣٨ هـ)[١].

---

(١) هم : طارق بن زياد (٩٢ هـ) ، وموسى بن نصير (٩٣ - ٩٥ هـ) ، وعبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥ - ٩٨ هـ) وقد مات مقتولا ، وأبو أيوب ابن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير (٩٨ - ١٠٠ هـ) ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى (١٠٠ - ١٠٣ هـ) ، والسمح بن مالك من قبل عمر بن عبد العزيز (١٠٣ - ١٠٤ هـ) ، وقد بنى قنطرة قرطبة وأوغل فى فتح شمال اسبانيا مما يتاخم جنوب فرنسا حتى استشهد بالقرب من مدينة «ليون» ، ونجا قائد جيشه عبد الرحمن الغافقى ، ثم عنبسة بن سحيم الكلبى (١٠٤ - ١٠٨ هـ) ، ثم عزرة بن عبد الله الفهرى (١٠٨ هـ) ، ثم يحيى بن سلمة (١٠٨ - ١٠٩ هـ) ، ثم عثمان بن أبى نسعة (١٠٩ - ١١٠ هـ) ، ثم حذيفة بن الأحوص (١١٠ - ١١١ هـ) ، ثم الهيثم بن عدى (١١١ - ١١٢ هـ) ، ثم عبد الرحمن الغافقى (١١٢ - ١١٤ هـ) وهو بطل معركة تورعام ١١٤ هـ على أرض فرنسا ، وقد قتل فيها وهزم جيشه ، ثم عبد الملك بن قطن الفهرى (١١٤ - ١١٦ هـ) وقد عزل ، ثم عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦ - ١٢١ هـ) ، ثم تلا ذلك عهد الثورات : ثورة ابن قطن فى الأندلس وثورة كلثوم ابن عياض القشيرى فى المغرب ، ثم ثار الجنود البرابرة فى الأندلس على ابن قطن وعرب الأندلس ، ثم ثورة جنود الشام على ابن قطن حيث قتل ، وتولى حسام بن ضرار الكلبى (١٢٥ - ١٢٨ هـ) ، ثم ثوابة بن سلامة الجذامى (١٢٩ - ١٣٢هـ) ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٣٢ - ١٣٨ هـ) . ودخل عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس ، واستولى على مقاليد الأمور فيها ، حيث انتزعها بالقوة من يوسف الفهرى .

ولم تكن الأندلس فى عهد الولاة ذات صبغة خاصة مستقلة ، بل كانت تابعة لسياسة الدولة ، وكان ولاتها يتلقون التعليمات من الحاكم العربى الأكبر فى القيروان . ويأخذون الولاية من هذا الحاكم ، ومن الخليفة نفسه ، وفى هذا العهد كثرت الفتوحات :

فقد حمل عبد الرحمن الغافقى لواء الجهاد فى سبيل الإسلام فاتحاً مظفراً فى جنوب فرنسا حتى استولى على مدينة (بردو) وكان بينه وبين باريس نفسها أربعون كيلو متراً . وكان المسلمون رضى الله عنهم يأملون — لما لم يهيأ لهم فتح القسطنطينية من الشرق — أن يفتحوا بلاد أوربا إلى أن يصلوا إليها من من الغرب ، ويصبح الأوربيون بالإسلام إخوانا .

ولما اجتاز عبد الرحمن « بواتييه » فى طريقه إلى باريس لقيه جيش من الفرنسيين عام ١١٤ هـ ، ويقود هذا الجيش أمير اسمه « شارل » وكان كبير وزراء فرنسا ، والتقى الجمعان فصبروا وصابروا سبعة أيام كاد المسلمون يجنون من ورائها النصر ، لولا ما كانوا قد حملوا معهم من أسباب الفشل والخذلان ، فقد كان المسلمون اصطحبوا معهم الأسلاب والسبايا والأموال التى غنموها فى المعارك التى كانت قبل هذه المعركة ، فكثرت بها أثقالهم وثقلت بها مئونتهم ، واحتاجوا لرعايتها إلى عنت غير يسير . وبدا للفرنسيين وقد آذنت الشمس بالمغيب أن يهجم فريق منهم ، يستنقذون هـــذه الأسلاب يشاغلون المسلمين بذلك ، فنجحت الخطة وانقسم الجيش الإسلامى : فريق إلى الظعائن يحميها وفريق يحارب المقاتلين . وعاجل القتل الأمير عبد الرحمن الغافقى ففت قتله فى الأعضاد ومزق وحدة الجيش فتوزعته الأهواء . فلما جن الليل وتحاجز الفريقان تحمل المسلمون فى جنح الظلام وعجلوا حتى عن جنودهم الجرحى فلم يحملوهم معهم ، فأصبح شارل مارتل وقد تبدل خوفه أمنا وغير فى رأيه النهار ما كان الليل قد أنذره به من موقعة حامية الوطيس يخشى مغبتها ، ووجد الميدان

بلقعا إلا من أنين الجرحى فأجهز عليهم ، ولكنه لم يجرؤ أن يتبع جيش المسلمين .

عرفت هذه الموقعة بواقعة بلاط الشهداء ، أولئك الذين سقوا أرض فرنسا بدمائهم الذكية لتهتز فتربو بالإيمان وبالإسلام ، ولكن كان غير ما كانوا يريدون ، ويعتبرها التاريخ من مواقفه الحاسمة ، فقد حيل بها بين المسلمين وبين ما كانوا يشتهون ، وانتصبت حدا فاصلا بين المسيحية وبين تقدم الإسلام(١)

٢ — ثم دخل الأندلس اموى طموح هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى واستولى على مقاليد الحكم فيها بالسياسة والدهاء ، وكان عبد الرحمن احد الذين تمكنوا من النجاة من ايدى العباسيين وطلبهم .

ولد عبد الرحمن عام ١١٣ هـ فى دمشق ، وجده هشـــام خليفة للمسلمين (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وتوفى والده فى حياة أبيه ، وكان الناس يتنبأون لعبد الرحمن بمستقبل كبير حتى قال مسلمة بن عبد الملك فيه : « سيكون لهذا الفتى بالمغرب الأمر العظيم » ، وانتهت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية . وكان السفاح أول خلفائها أشد الناس قسوة على الأمويين وقتلا لزعمائهم وسفكا لدمائهم ، دهم بيت عبدالرحمن ، وقتل يحيى أخوه ، وتمكن عبدالرحمن من الفرار ، ويحدثنا هو عن فراره فيقول : (٢)

إننى لجالس يوما فى تلك القرية فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى وابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدامى إذ دخل الصبى فزعاً باكياً ، فأهوى إلى حجرى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر فاذا الروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا الرايات السود عليها منحطة وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ويقول : النجاة يا أخى فهـــذه رايات المسودة ، فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ونجوت بنفسى والصبى معى ، وأعلمت أخواتى متوجهى وأمرتهن أن يلحقنى

---

(١) ١٢ تاريخ العرب فى الأندلس ـ عبد الفتاح بدوى .

(٢) راجع ٢٢ تاريخ الأندلس ـ عبدالفتاح بدوى ، وكتاب «صقر قريش» لعلى أدهم

ومولاى بدر معهن وخرجت ، فكمنت فى موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى اقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى فدل على عبد سوء له فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحت حاثاً لنفسى وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخى فالتفت لأقوى من قلبه وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه وناديته : تقتل ياأخى ، إلى إلى ، وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات ثم قدموا الصبى أخى الذى صار اليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومصوا برأسه وأنا أنظر إليه فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر فلجأت إلى غيضة فتواريت فيهـــا حتى انقطع عنى الطلب ، ثم خرجت هاربا حتى وصلت إلى افريقيـا .

وظل عبد الرحمن يتقلب فى البلاد بالمغرب خمس سنين ، وأراد الذهاب إلى الأندلس : لأن فيها أملاك جده هشام وقد وهبها لحفيده عبد الرحمن ، ولطموحه فى إمارتها ، وفى ربيع الآخر ١٣٨ هـ — ٧٥٥ م دخل عبدالرحمن البلاد ونودى به أميرا على الأندلس بتدبير اليمانية وجنود الشام فى الأندلس فى أليبره ، وسار عبدالرحمن إلى أشبيليـة وانتصر فيها فى يوم عيـد الاضحى (١٣٨ هـ — ٧٥٦ م) على جيـوش أمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وبعد مناوشات كثيرة عقد صلح بين يوسف وعبدالرحمن، تنازل فيه يوسف عن الإمارة لعبد الرحمن ، على أن يأمن يوسف على نفسه وأتباعه ، ودخل عبد الرحمن بعـــد ذلك عاصمة قرطبـة ظافرا منصورا فى صفر ١٣٩ هـ — يوليو ٧٥٦ م ، ثم نكث يوسف فقتل ، وقتل الصميل ، وانتصر على العلاء بن مغيث الذى دخل الاندلس واليا من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ هـ ، كما انتصر على أتباع يوسف الفهرى فى طليطلة ، وعلى اليمنيين، وعلى ابن أبى الصباح حاكم اشبيلية لعبد الرحمن ، وعلى البربر الثائرين ، وعلى كثير

من الثورات الداخلية ، وعلى جيوش شارلمان الذى تحرك للقضاء على ملك الداخل تنفيذا لأغراض هارون الرشيد فى بغداد . وأسس عبد الرحمن لنفسه ولأحفاده دولة عظيمة واسعة الأرجاء امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (١٣٨ – ٤٢٨ هـ) ... هذا هو صقر قريش الذى انقض على الأندلس فاختطفها واستأثر بها لنفسه وبنيه من بعده حتى حين ، قال أبو جعفر المنصور يوما لجلسائه : تعلمون من صقر قريش ؟ قالوا : أمير المؤمنين أيده الله ، قال ليس ذاك ، قالوا . فعبد الملك بن مروان ، قال : لا ، قالوا : ماهو ، وضربوا فى عرض الحديث فقال أبو جعفر : فتى قريش الأحوذى الفذ الذى قذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ؛ فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جنودها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل أبيهم ، وإن ذلك لهو الفتى كل الفتى ، لايكذب مادحه ، وقد سكن قرطبة وبنى بها القصر والمسجد الجامع ، ولقب نفسه بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بنى مروان ، ولقب هو وذريته بالأمراء أبناء الخلفاء ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) فلقب نفسه « أمير المؤمنين » .. وما أصدق أبا جعفر المنصور إذ نوه بعصامية الداخل وعبقريته ، ويروى عن المنصور فى رواية أخرى :

« لاتعجبوا لامتداد أمرنا ، مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه فى لج المهالك لابتناء مجده . فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته . واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى ، لايكذب مادحه

وقد ظل الأمر لبنى أمية إلى سنة ٤٢٨ هـ ، وتولى الحكم منهم ستة عشر اميرا(١) ، وكان المستعين بالله الأموى قد استعان بالقاسم وعلى ابنى حمود وهما من أعقاب الأدارسة الذين حكموا المغرب من عام ١٧٢ حتى عام ٣١٢ هـ وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة بفاس ، وجعلهما قائدين على البربر والعبيد فى بعض حروبه ، ثم عقد للقاسم على الجزيرة الخضراء ، ولعلى على طنجة . فطمع على فى الخلافة ، وادعى أن هشام الثانى كتب له بالعهد ، ودخل قرطبة ولقب نفسه بالناصر ، وبقى حكم الأندلس بين بنى حمود وبنى أمية ست سنين (٤٢٢ — ٤٢٨ هـ) ، وهو عام انتهاء الحكم الأموى فى الأندلس وملك بنى حمود لها واستمر حكمهم لها حتى عام ٤٥٠ هـ .

وقد بلغت الدولة فى عهد الأمويين ذروة المجد ، وخطب ودها ملوك الغرب ، وأصبحت قرطبة قبلة الملوك ، وكعبة العلماء ، وملاذ الحضارة والثقافة ، ولقب الناصر نفسه بالخليفة ، ولما ضعفت الدولة فى آخر عهدها كان الحجاب هم كل شىء فى الدولة ، فالمنصور بن ابى عامر حاجب هشام الثانى كان بيده كل الأمور ، فلما مات عام ٣٩٤ هـ خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك

---

(١) هم : عبد الرحمن الداخل ١٣٨-١٧٢ هـ، هشام الأول ابن الداخل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام (١٧٢-١٨٠ هـ) ، والحكم الأول ابن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الثانى ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٢٨ هـ) وفى عهده قدم زرياب المغنى إلى الأندلس فاكرم وفادته ، ومحمد الأول بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ ، ولعباس ابن فرناس شعر فيه (ج ٣ العقد الفريد) ، والمنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) وعبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، وعبد الرحمن الثالث ابن محمد (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحكم الثانى (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وهشام الثانى المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وقد استبد بالأمر فى دولته حاجبه المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٤ هـ ومحمد المهدى (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ) ، وسليمان المستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ، وعبد الرحمن الرابع (٤٠٧ - ٤١٢ هـ) ، وعبد الرحمن الخامس (٤١٢ - ٤١٦ هـ) ، وهشام الثالث المعتمد (٤١٦ - ٤٢٨ هـ)

ابن أبي عامر على الوزارة والحجابة لهشام ولقب نفسه بالمظفر ، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب واللغة والتاريخ ، وانتخب مما جمع له كتاباً كبيراً سماه «المظفرى» ، واستمر أبناؤه يحكمون بطليوس إلى عام ٤٨٥ هـ ، وكانت أيامهم مواسم للأدب ، وملاذاً للعلم والعلماء ، وفيهم نظم الوزير ابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠ هـ قصيدته الرائية المشهورة .

وأشهر ملوك الأندلس هو الناصر ، الذى شجع العلوم والآداب والثقافة تشجيعاً كبيراً .

ولما استفحل ملك الناصر (١) ، صرف نظره إلى تشييد المبانى والقصور وكان جده الأمير محمد ، وأبوه عبد الرحمن الأوسط ، وجده الحكم ، قد اختلفوا فى ذلك وبنوا قصورهم على أكبر الأنفاق والضخامة ، وكان منها المجلس الزاهر والبهو الكامل والقصر المنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور ، وساق لها الماء من أعلى الجبل — على بعد المسافة .

ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها منزله ، وكرسيا لملكه ، فأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياح ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن .

وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة ، وقاية للناس من حر الشمس (٢) .

---

(١) عن ابن خلدون .

(٢) عن ابن خلدون .

وقد عنى الناصر عناية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر الجميل فى جوامع قرطبة واشبيلية ، يكتنفها بوح يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرهما .

وأصلح قنطرة النهر الكبير ، وضرب نقوداً جديدة وضع عليها اسمه وألقابه(١) .

ومما استدل به بعض المؤرخين على رقى عصره ، ماحكوه من أنه أراد الفصد ذات يوم ، فقعد بالبهو فى المجلس الكبير ، المشرف على مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة ، وحبس يد الناصر ، وإنه لكذلك ، وإذا بزرزور قد أطل ، فصعد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرفه الناصر وسربه ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولى عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لهذا الأمر . قالوا : « فوهب لها ماينيف على ٣٠ ألف دينار ! » .

وقد أصاب المؤرخون فى تسميتهم هذا العصر الأندلسى بالعصر الذهبى فقد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيه الفنون ، فكنت ترى أنى ذهبت مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء ، وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء ورجال الأدب والفن .

---

(١) وكان ذلك فى السنة التى تلقب فيها بالخلافة أى فى سنة (٣١٦ هـ) . فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة ، لضرب الدنانير والدراهم ، وكانت مثاقيله ودراهمه محضا من خالص الذهب والفضة .

ولما عظم أمر الناصر ، وارتفع شأنه ، رغب فى محالفته حتى أشد الملوك صلفا — كما يقول دوزى — وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذى بعث إليه بهديته المشهورة وأرسل معها كتاباً يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التى كانت بين أسلافهما عوضا مما كان منها مع خلفاء بغداد . قالوا : « وكتب هذا الكتاب بحروف مزدهب فى رق سماوى اللون ، وفيه طرس سماوى أيضاً كتب بحروف من الفضة يصف الهدية وأصنافها بالخط الاغريق .

وكان الناصر يرسل إلى القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية من يشترى له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة(١) وأربى خلفه المستنصر على الغاية ، فجمع من الكتب مالم يجمعه أحد قبله من الملوك ، حتى بلغ عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين فى كل واحدة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين ، وبعث فى كتاب (الأغانى) بألف دينار ذهباً ، ويتجلى حبه للعلم والعلماء فى استقباله العظيم لأبى على القالى ، واحتفائه به ، وقد اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة كانت تحفل بأربعمائة ألف مجلد(٢) ، وكان هو نفسه واسع الاطلاع ، قلما يوجد كتاب فى خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ، فى أى فن .

٣ — ثم حكم الأندلس ملوك الطوائف نحو ست وخمسين سنة ، حين انقرض ملك الأمويين ، وانفرط عقد الدولة ، وانتثر سلك الخلافة ، وقام فى كل جهة أمير ؛ وكان من أشهر الأمراء : بنو جهور بقرطبة (٤٢٥ — ٤٦١هـ) (٣)

---

(١) نفح الطيب ١ : ١٧٠

(٢) المرجع ١ : ١٨٤

(٣) منهم أبو الحزم بن جهور المتوفى عام ٤٣٥ هـ وتولى ابن زيدون له الوزارة ولما غضب عليه استعطفه بالرسالة الجدية ، وينتهى نسبهم إلى أبى عبدة الكلبى جدهم الذى قدم الأندلس ، وكانو ذوى شرف فى قرطبة . وتولوا الوزارة أيام المستنصر

وبنو عباد باشبيلية (٤١٤ - ٤٨٤)[1] وبنو حماد فى مالقة (٤٠٧ - ٤٤٩هـ)

وبنى عامر ، ولما خلت قرطبة من الأمويين وبنى حمود اجتمع الناس على جهور بن محمد بن جهور سنة ٤٢٢ هـ ، إذ كان حازما عاقلا ، لم يخض غمار الفتن التى تداولت قرطبة ، بل ترك الأمور للعصبية تشبع نهمها وتشفى غلتها . وقد علم أن هذه الفتن الهوج لا يبنى عليها ملك ، ولا يستقر سلطان ، فترك الفتن حتى فنى فيها ذووها ، فلما خلا له الجو ، وصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء ، وأمكنته الفرصة وثب عليها ، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة ، وكان على سنن أهل الفضل ، يعود المرضى ويشهد الجنائز ، ولا يحتجب عن الناس ، وقد نشر الأمن والطمأنينة ، وضبط الأمور بحكمة وسداد ، ورفع لواء الحضارة ، حتى عادت به قرطبة إلى أكمل حالاتها من الحضارة والرخاء والأمن ، إذ منع عنها من كان يطلبها من البرابرة ، بخفض الجناح ، والرفق فى المعاملة حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم

وقد تضاعف ثراؤه حتى صار لا تقع العين على أغنى منه . إلا أنه حاط ذلك بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا ، وكان مع هذا من أشد الناس تواضعا ، وأشبههم ظاهرا بباطن ، وكان أديبا يتذوق الأدب ، وشاعرا يشدو بالشعر ، من ذلك قوله فى تفضيل الورد :

الورد أحسن ما رأت عين وأذ ... كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه ... فتذللت تنقاد وهى شـــوارد
وإذا تبدى الورد فى أغصانه ... يزهو فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً ... بطلوع صفحته فنعم الوفـــد
وإذا تعرى الورد من أوراقه ... بقيت عوارفه فهن خوالد

ولم تزل قرطبة به مشرقة ، وغصون الأمل فيها مورقة ، حتى مات سنة ٤٣٥هـ فتولى بعده ابنه أبو الوليد فأقر الأمور على ما كانت عليه أيام والده ، حتى جاء بعده ابنه عبد الملك ، فغلبه ابن ذى النون على قرطبة ، ثم استولى عليها المعتمد بن عباد سنة ٤٦١ هـ .

(١) تولى أبو القاسم بن عباد القضاء على إشبيلية ، والفتن عاصفة ، والثورات جامحة ، ثارت قرطبة على القاسم بن حمود حتى خرج عنها ، وقصد إشبيلية ، ولكنها حذت حذو قرطبة بزعامة هذا القاضى ، ونجحت فى صد اللاجىء . واجتمع أهل

... ...

إشبيلية على القاضى ابن عباد ، فقام بالأمر حتى مات سنة ٤٣٣ هـ ، فخلفه ابنه المعتضد وكان شديداً حازما قاسيا داهية ، أوتى من جمال الصورة ، وتمام الخلقة . وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان . وحضور الخاطر ، وصدق الحسن مافاق به نظراءه ، وكان إلى هذا شاعراً يحسن الصنعة ، ويعرف للشعراء قدرهم . وتولى بعده ابنه المعتمد سنة ٤٦١ هـ ، وكان يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس : ذكاء نفس ، وغزارة أدب . وكان شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من الملوك . ، وكان أندى ملوك الأندلس راحة . وأرحبهم ساحة ، وكانت حضرته ملتقى الرجال ، وموسم الشعراء وأفاضل الأدباء ، وكانت قرطبة أشهى عمله ، وكان روم أمرها منتهى أمله ، فما زال يعمل الحيلة حتى استولى عليها ، فاعطى زمامها لابنه الظافر حتى قتل بها سنة ٤٦٦ هـ فى حالة مؤثرة وصفها صاحب القلائد . ثم ابنه المأمون حتى قتل كذلك أيضا ، وكانت دولة بنى عباد من أبهج الدول كرما وفضلا وأدبا ، حتى قال أبو بكر الدانى : إنها أشبه شىء بالدولة العباسية ببغداد : سعة مكارم وجمع فضائل ، ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا أسماه « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » . أما نهاية المعتمد فقد كانت من أفجع النهايات ، وحسبك أن تقرأ شعره الذى يصور فيه نكبته ، كان المعتمد أكبر ملوك الطوائف ، وأكثرهم بلادا ، وكان يؤدى الضريبة للأذفونش ، فلما ملك هذا طليطلة لم يعد يقبل ضريبة المعتمد طمعا فى أخذ بلاده ، فأرسل اليه يتهدده . فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه ، فأستعد الأذفونش لقتاله ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف بن تاشفين ، فتم له النصر ، وهرب الأذفونش ، وفى العام التالى غدر يوسف هذا بالمعتمد بتأثير الدس والوشاية ، فأغار على بلاد المعتمد ، وانتزعها من أبنائه ، ثم حاصر المعتمد باشبيلية وقبض عليه واعتقله بمدينة « أغمات » ، وأودعه ذل قيدها وظلام سجنها ، وشرد أبناؤه ، وذلت بناته ، وتحطم ملكه الشامخ ، وانطوى بساط عزه ومجده ، ودخلت عليه بناته فى سجنه يوم عيد ، وكن يغزلن للناس بالأجرة فى « أغمات » ، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذى كان فى خدمة أبيها وهو فى سلطانه ، فرآهن المعتمد فى أطمار بالية وحالة رثة ، فصدعن قلبه فقال :

وبنو الأفطس ببطليوس ، ومنهم المظفر صاحب التاريخ المظفرى واستمر حكم أبنائه فيها إلى عام ٤٨٥ هـ ، وبنو هود بسرقسطة (٤١٢ — ٥٣٦ هـ) ، وبنو ذى النون بطليطلة (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) ، وبنو زيرى بن مياد بغرناطة (٤١٢ — ٤٨٣ هـ) ، وبنو صمادح فى المرية الذى انتهى عام ٤٨٤ هـ ، والعامريون بشاطبة ، وهكذا انقسمت البلاد فرقا ودولا ، وأصبح كل أمير فى جهة من الجهات ملكا .

وعلى الرغم من الضعف السياسى الذى كانت عليه الأندلس فى عهد ملوك الطوائف حيث احتدمت الخصومات والحروب بين الحاكمين ، واستعان كل أمير على خصومه بأية قوة تنصره ، ولوكانت هذه القوة هى قوة المسيحيين أعداء البلاد والإسلام ؛ فإن العلوم والفنون والآداب ازدهرت فى هذا العهد ازدهارا كبيرا ، وتنافس الملوك فى تشجيع العلماء والأدباء ، وحاول كل أمير أن يتشبه بالخلفاء فى بسطة اليد وتقريب الشعراء ، يقول أبو على الحسن بن رشيق المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، الذى عاش فى عهد ملوك الطوائف :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنما لم تطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وما زال يرسل من زفراته ، ويسكب من دموعه ، حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨ هـ ، فلما مات زار قبره جماعة من الشعراء منهم ابن اللبانة الذى وقف فى يوم عيد والناس عند قبور أهليهم ، فأنشد بصوت عال :

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وجعلت قبرك موضع الإنشاد

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

٤ — وبعد عهد ملوك الطوائف صارت الأندلس خاضعة لحكم دولتى البربر الملثمين أو المرابطين ، والموحدين — وذلك نحو خمس وأربعين ومائة سنة (٤٨٤ — ٦٢٩ هـ) ، وفى عهد هاتين الدولتين صارت الأندلس بعد عصرها الذهبى ولاية تابعة للمغرب ، حكمها الملثمون(١) ثمانيا وخمسين سنة (٤٨٤ — ٥٤١ هـ) ، وهم من قبائل صنهاجة ، كانوا قبل الفتح الإسلامى متوطنين فى القفار ، وكانوا على دين المجوسية ، قد اتخذوا اللثام شعاراً لهم ، وكانت الرياسة فيهم فى لمتونة ، وأول من حكم الأندلس منهم يوسف بن تاشفين ، استصرخ به أهل البلاد ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، لما طمع ملك الجلالقة فيها ، فلبى يوسف الدعوة ، وقصد إشبيلية ، فخرج ملكها للقائه وكذلك فعل غيره من الملوك ، وساروا معه بجيوشهم لمحاربة الطاغية ، فأزاح كابوسه عن بعض بلاد المسلمين ، وانتصر على الفونس فى موقعة الزلاقة يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ هـ ، ثم عاد إلى المغرب فاستشرى الطاغية ثانية فعاد إليه يوسف فرد اعتداءه ، ودانت له ملوك الطوائف حين رأوا أنهم من الضعف إما أن يخضعوا له أو للطاغية . وأسر ابن تاشفين المعتمد بن عباد ، وسجنه بأغمات من بر العدوة حتى مات سنة ٤٨٧ هـ ، وقيل إن الذى أوقع به عند ابن تاشفين هو المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وكان يحقد على المعتمد بن عباد(٢)

---

(١) كانت دولة الملثمين أو المرابطين قائمة بالمغرب الأقصى ، وقد أسسها يوسف ابن تاشفين الصنهاجى ، واتخذ لمتونة عاصمة له .

(٢) نظم المعتمد قبل وفاته قصيدة مؤثرة أمر أن تكتب على قبره ومطلعها :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

وكان للمعتمد ولد يلقب بفخر الدولة وكان ولى عهده ، فما برحت به الحوادث حتى تعلم صنعة الصياغة فمر به ابن اللبانة فتأثر مما رأى وأنشد قصيدته :

أذكى القلوب أسى ، أبكى العيون دما خطب وجدناك فيه يشبه العدما

وقد اتخذ يوسف قرطبة عاصمة لملكه ، وكان يدعو على منابر قرطبة للخليفة العباسى ، ودانت بلاد الأندلس لحكمه واستمر يجاهد ويغزو الإفرنج حتى مات سنة ٤٩٣ هـ . فقام من بعده ابنه على ولقب نفسه بلقب أبيه : أمير المسلمين وأخذ يصد الإفرنج عن البلاد ، وكان لا يبت فى صغير ولا فى كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، كما كان يبغض مباحث الفلسفة والجدل والكلام ، فأمر أن لا يخوض فيها أحد ، وتوعد من وجد عنده كتاب فيها ، ولما وصلت إلى بلاد المغرب كتب الغزالى أمر بإحراقها ، وانقطع للعبادة فذهبت ريح دولة المرابطين ، وكثرت الفتن والثورات حتى مات عام ٥٣٧ هـ ؛ وخلفه ابنه تاشفين بن على الذى مات مقتولا عام ٥٤٠ هـ .

وفى وسط الاضطراب والضعف قام ابن تومرت المهدى بسوس ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فآزره فى دعوته عبد المؤمن بن على ، وبايع الناس محمد بن تومرت[1] بالإمارة فأنشأ فى المغرب دولة جديدة سميت دولة الموحدين ، وصارت بلاد المغرب ومراكش كلها تحت حكمهم ، ومات ابن تومرت عام ٥٢٤ هـ ، فخلفه عبد المؤمن بن على الذى فتح البلاد وطوى الممالك ، ولما مات على بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ فتح عبد المؤمن الأندلس عام ٥٣٨ هـ فانتزعها من أيدى الملثمين ، واقتص أثر تاشفين بن على حتى قتله عام ٥٤٠ هـ ، وبذلك انتهت دولة المرابطين .

ولما استتب الأمر لعبد المؤمن بن على ولى ابنه يوسف على اشبيلية ، وولى ابنه عثمان على غرناطة ، ثم عاد هو إلى مراكش ظافراً منصورا فأقام بها حتى

---

(١) ألف ابن تومرت كتاباً فى أصول الدين على مذهب الأشاعرة ، وكان أشعريا فى أكثر مسائل علم الكلام ، وقد تأثر بآراء أستاذه الغزالى ، وحاول نشرها فى المغرب ووافق المعتزلة فى نفى الصفات وفى مسائل أخرى قليلة ، وقد توفى ابن تومرت عام ٥٢٤ هـ ، وقد سموا الموحدين تسجيلا لتوحيدهم الله وتعريضاً بمن جنح عن التأويل ووقف عند الظاهر .

توفى عام ٥٥٨ هـ ، وكانت دولة الموحدين تشمل شمال بلاد المغرب من طرابلس إلى مراكش ، كما كانت تشمل الأندلس ، وترك عبد المؤمن لأسرته عرشا وطيدا وملكا كبيرا ، خلفه عليه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على الملك والولاية (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، ثم خلفه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) ، ثم ابنه الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب (٥٩٥ — ٦١٠ هـ) ، ثم ابنه يوسف (٦١٠ — ٦٢١ هـ) ، وحكم الموحدون البلاد نحو سبع وثمانين سنة (٥٤١ — ٦٢٩ هـ) إلى أن تغلب ابن هود عليهم فى بعض البلاد عام ٦٢٢ هـ ؛ وزالت دولتهم ودولة ابن هود عام ٦٢٩ هـ حيث حكم البلاد بنو الأحمر عام ٦٢٩ هـ .

٥ — ولما ضعفت دولة الموحدين ، ودخلها الوهن قام ابن الأحمر وقضى على دولة الموحدين بالأندلس عام ٦٢٩ هـ ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة واستمر الملك فى بيته أمدا طويلا (٦٢٩ — ٨٩٧ هـ[1])

---

(١) ألف لسان الدين ابن الخيب كتابا فى ملوك هذه الدولة حتى عصره سماه « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » ، وقد نشر بالقاهرة عام ١٣٤٧ هـ ؛ وعاصمة هذه الدولة وهى غرناطة بينها وبين قرطبة تسعون ميلا وفحصها الأفيح — المشبه بالغوطة — حديث الركاب وسمر الليالى . قد دحاه الله فى بسيط تخترقه الجداول والأنهار ، وتتزاحم به القرى والجنات : فى أحسن الوضع وأجمل البناء . ذرع أربعين ميلا ، تحدق الهضاب والجبال المتطامنة منه بشكل ثلثى دائرة ، فعدوات المدينة منه فيما يلى المركز مستندة إلى أطواد سامية ، وهضاب عالية ، ومناظر مشرفة .

ويشمل شكل هذه المدينة العظيمة — وما يرجع اليها من أرباضها — على جبال خمسة ، وسهل فسيح الساحة ، بعيد الأقطار ، متراكب العمارة ، لا يتخلله خراب ولا بياض على حد ما . عليه كور النخل قد ضم من النسم ما لا يحيط به إلا من كتب الحركات وأحصى الأنفاس . إلى الجسور المحكمة ، والمساجد العتيقة ، والأسواق المنتظمة . يشق البلد النهر الشهير المسمى بهدارة ، آتيا من جهة الشرق ، ويجتمع بخارجها بوادى شنجل الآتى من قبليها ، فيشق الفحص الأفيح ، ولا يزال مدة بما ينضاف إليه من فضول السقى ومواقع الانهار بأحوازها ، إلى أن يمر

... ...

باشبيلية وقد صار نيلا عظيما ، وفى ضواحى غرناطة مدينة الحمراء ، وهى دار الملك مطلة على معمورها فى سمت القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعاقل المنيعة والقصور الرفيعة ؛ تعشى العيون ، وتبهر العقول . وتنحدر من فضول مياهها وأفياض حوائرها وبركها فى سفحه جداول تسمع على البعد أهزاجها ؛ ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرائه ، فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين . وأما ماحازه السهل من جوفيه فمنى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جدة من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يغل فى السنة شطر الألف من الذهب على حمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منية . ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذى لا يعرف الجام ولا يفارق الربع ما ينتهى المرجع العملى منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً ، ويرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحمائم والدواجن ماثلة ، منها فى حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين ، بها الجمل الضخمة من الرجال ، والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفى كثير منها الحصون والأرحاء والمساجد . ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذى هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التى بأيدى الرعية ، مجاورة لحدود ماذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منها ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة ، وتنصب فى نحو خمسين منها منابر الجمعات وتمد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله . ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحى .

وقد حكم من ملوك هذه الدولة كثير[1]، وكانوا يلقبون أنفسهم أمراء المسلمين .

وقد استردوا معظم بلاد الأندلس من الاسبانيين ، ومنعوا الإتاوة التى كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا ، واستكثروا من الجيوش والأساطيل ، وحكموا البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، انتعش فيها الأدب ، وتقدمت العلوم والفنون ، ثم ضعف السلاطين ، لكثرة الخلافات والثورات والخصومات ، ورضوا بأن يقدموا الجزية لفردناند ملك أرغونة وزوجته ملكة قشتالة ، ثم أخذ الاسبانيون يحيطون بغرناطة ويحاصرونها من كل جهة ، حتى أتم فردناند محاصرتها عام ٨٩٦ هـ ، فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين الأسبانيين الذين لم يلتزموا شروطها ، فجلا الكثير من العرب إلى بر العدوة ، وأكره من بقى منهم على

---

(١) ينتسب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة ، وأول ملوكهم هو أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى الأنصارى من أبناء الأنصار ، وقد ملك غرناطة فى رمضان ٦٣٥ هـ إلى أن توفى عام ٦٧١ هـ ، وخلفه ابنه أبو عبدالله (٦٧١-٧٠١ هـ) ، ثم ابنه أبو عبدالله محمد (٧٠١-٧٠٨هـ) وقد خلع من الإمارة فى يوم الفطر عام ٧٠٨هـ وتوفى فى شوال عام ٧١١ هـ ، وخلفه أخوه نصر الذى خلع أخاه (٧١١ - ٧١٣ هـ) وخلفه ابن ابن عم أبيه ، وهو السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل (٧١٣ - ٧٢٥ هـ) ، أما نصر المخلوع فقد مات فى مدينة وادى آش عام ٧٢٢ هـ ؛ وخلف اسماعيل ابنه محمد (٧٢٥ - ٧٣٤ هـ) وقتل بظاهر جبل الفتح بأيدى جنده من المغاربة ، فتولى الحكم بعده أخوه أبو الحجاج - يوسف (٧٣٤ - ٧٥٥ هـ) ، حيث اغتاله أحد الرعية فخلفه ابنه محمد (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) ، ثم ثار عليه أخوه اسماعيل وتولى الحكم بعده (٧٦٠ - ٧٦١ هـ) ، ولكن ابن عم له قتله واستولى على الملك . . ومن ملوك بنى الأحمر أبو الحجاج يوسف (٧٣٤ - ٧٥٥ هـ) ، وابنه محمد (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) وقد تولى لهما الوزارة لسان الدين بن الخطيب المتوفى فى عام ٧٧٦ هـ . وآخر ملوك بنى الأحمر هو أبو عبد الله .

النصر ، وأخذهم الاسبانيون قتلا ونهباً وتشريدا وسجنا وتعذيبا ، وبذلك انتهت دولة المسلمين فى الأندلس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وكان نهاية مصرع الأندلس عام ٨٩٧هـ — ١٤٩٢ م ، ولم يكف الاسبانيون عن نفى المسلمين عن البلاد ، وإحراق كتبهم ، وتبديد تراثهم . وبخروج العرب من هذه البلاد انطفأ مصباح مضىء من مصابيح الإسلام التى بعثت للحياة والنهضة فى أوربا نحو ثمانية قرون .

ولا يمكن وصف معاملة مسيحيي اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من من البلاد ولا الفظائع التى ذكر صالح الرندى القليل منها دون الكثير ، فى قصيدته النونية التى يقول فيها :

يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم ... عليهم فى ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

ويقول منها فى موضع آخر :

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان

ومنها :

ياغافلا وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يارا كبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر فى دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ عن آل أندلس ؟	فقد سرى بحديث القوم ركبان
ألا نفوس أبيات لها همم	أما على المجد أنصار وأعوان ؟

والقصيدة طويلة وقد اخترنا بعضها وهى تدل على شعور صادق ونفس متألمة .. ثم هى أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة ، ليس من شك فى وقوعها .

ولم تسقط غرناطة إلا بعد أن حاصر الأسبان والبرتغال سواحل الأندلس الجنوبية ، واستولوا عليها قبل ذلك بمدة كبيرة ، فاستولوا على سبتة عام ٨١٨ هـ وعلى جبل طارق عام ٨٦٩ هـ ، وعلى طنجة عام ٨٦٩ أيضاً ؛ واستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ماعدا غرناطة وإقليمها وكان يحتوى نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتى حصن وقلعة .

وقد سقطت غرناطة بعد أربعين عاما من سقوط الأستانة فى أيدى الأتراك عام ٨٥٧ هـ ؛ وكان سقوط غرناطة بعد حصار دام سبعة أشهر ، أنهك العرب ، حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضاً .

وكان سقوطها نتيجة كذلك لضعف بنى الأحمر السياسى ؛ وكان حكام المغرب عاجزين عن نجدة المسلمين فى الأندلس إذ كانوا فى ضعف وتخاذل وانقسام شديد ، وكان ملك المغرب من بنى مرين هو السلطان عبد الحق بن سعيد المتوفى عام ٩٦٠ هـ ، وقد وفد عليه فى فاس سلطان غرناطة بعد تسليمه المدينة لفرديناند وزوجته إيزابيلا ، وقد أكرم سلطان المغرب وفادته هو وأسرته .

وقد اشتملت شروط الصلح التى وضعها أبو عبد الله بن على آخر ملوك

بنى الأحمر على سبعة وستين شرطا تنصب كلها على تأمين المسلمين فى الأندلس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية ، وعدم الحيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاء واحد منهم ذلك ، ولم يف الأسبان المغتصبون بشىء من هذه الشروط .

وكان تسليم أبى عبد الله محمد بن الأحمر فى ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات عام ٩٤٠ هـ .

وقد عامل الاسبان المسلمين بقسوة لا مثيل لها ، ولما ثار جماعة من البيازين وهم من عرب الأندلس فى مدينة غرناطة أخمدت ثورتهم ، وقامت محاكم التفتيش تنكل بالمسلمين . وفى عام ١٥٦٣ م ثار أحد سلالة بنى سراج ، واسمه فرج بن فرج ، ولجأ إلى جبال البشرات ، وتبعه كثيرون من غرناطة ، ونادوا بأحد حفدة خلفاء قرطبة ملكا عليهم باسم محمد بن أمية ، واستمرت هذه الثورة عامين ، وقد خلع المسلمون فى أثنائها ابن أمية ، وولوا أمرهم عبدالله ابن أبيه ، وهو أحد الزعماء المشهورين بالبطولة ، وما زالوا يجاهدون حتى غلبوا على أمرهم وعلق الأسبان رأس عبدالله على أحد أبواب قرطبة ثلاثين سنة ، وأخذوا يطردون العرب من بلادهم جملة ، حتى وصل عدد الذين طردوا من الأندلس أكثر من ثلاثة ملايين .

وكانت نكبة الأندلس فى عهد بايزيد الثانى سلطان تركيا وقايتباى سلطان مصر ، وقد اتفق الملكان على أن يغزوا اسبانيا بأسطول كبير يسيره ملك تركيا وجيش برى يسيره قايتباى من مصر ، ولكن بايزيد شغل بثورة سياسية فى مملكته ، وقايتباى أرسل إليه الإسبان رسولا أدلى له بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس ، ولم تجد رسائل بايزيد الثانى وقايتباى إلى البابا وملكى أسبانيا والبرتغال شيئا فى تخفيف معاملة الأسبان للمسلمين المغلوبين فى فى بلادهم ، وهكذا أراد الله ولا راد لمشيئته ، قل اللهم مالك الملك تعطى

الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء(١)

ويتحدث الأستاذ محمد عبدالله عنان عن أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس من بنى الأحمر فى بحث له فيقول فيما يقول :

كانت ظروف مملكة غرناطة تدعو إلى الألم والأسى ، فقد مزقتها الحرب الأهلية شيعا ، ونشب النضال من أجل الملك والرياسة بين السلطان أبى الحسن وأخيه محمد بن سعد المعروف بالزغل ، ثم بين السلطان الشيخ وابنه الأمير الفتى أبى عبد الله محمد ، وانتهى الأمر بأن ظفر الأمير الفتى بالعرش . وفى أثناء ذلك كانت المعارك تضطرم باستمرار بين المسلمين والاسبان حول قواعد الأندلس القليلة الباقية . وفى شهر مارس سنة ١٤٨٣ هزم الإسبان فى معركة الشرقية الشهيرة بجوار مالقة ، على يد بطل الأندلس يومئذ مولاى الزغل . فانتعشت آمال المسلمين وسرت الحماسة فى كل مكان . وأراد السلطان أبو عبد الله أن ينتهز هذه الفرصة لمحاربة النصارى ؛ فخرج على رأس قواته من غرناطة ربيع سنة ١٤٨٣ متجهاً نحو قرطبة . واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى فى عدة معارك محلية . ولكنه حين عودته أدركه النصارى فى ظاهر قلعة « اللسانة » ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شينل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم . وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه ، عرفه الجند النصارى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى الكونت دى كابرا (قبره) ، فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت حراسة قوية . وأخطر فى الحال مليكه (فرديناند الكاثوليكى) بالنبأ

---

(١) راجع ص ٦١٥ ج ٢ نفح الطيب فى سقوط « غرناطة »

الأليم . فطلب فرديناند أن يؤتى بالأسير الملكى إلى قرطبة ، وقرر أن يستقبل كما كان يستقبل الأمراء ، وأن يحتشد لاستقباله جميع الأشراف والكبراء .

وهكذا أتى بالسلطان أبى عبد الله من حصن اللسانة فى حرس قوى. واحتشد أهل قرطبة أمام الأبواب لرؤية موكب الملك المسلم وكان أبو عبدالله يرتدى ثوبا من القطيفة السوداء ، ويركب حصاناً أسود عليه سرج ثمين . وكان وجهه يشع كآبة . وكان الشعب القرطبى يحتشد جموعاً غفيرة أمام الأبواب وفى الطرقات ويتدافع بالمناكب لرؤية السلطان المنكود ، وأخذ أبو عبد الله أولا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع ، ثم أخذ بعد ذلك إلى قلعة « أو مينا خى » الحصينة . وعومل هناك بكل ما يقتضيه مقامه الملكى من الإكرام ، وألحق بخدمته عدة من الحشم المسلمين وأقام فى أسره تغلب عليه الكآبة ، وهو ينتظر يوم الخلاص .

وكان الاضطراب قد ساد غرناطة على أثر هزيمة مليكها وأسره . وبادرت أمه السلطانة عائشة الحرة بإرسال سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ليفاوض الملك الاسبانى فى الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التى يرضاها . وحاول السلطان أبو الحسن والد الأمير الأسير ، وكان قد استولى عندئذ على غرناطة ، أن يسعى كذلك لدى الملك الكاثوليكى لكى يطيل أسر ولده ويكفيه مؤونة منافسته ، أو أن يسلمه إليه مقابل الإفراج عن بعض أكابر الأسرى النصارى الذين يحتفظ بهم ، فأبى فرديناند هذا العرض واستنكر صدوره من الوالد الحقود .

وعقدت الملكة إيزابيلا الكاثوليكية مجلساً من أكابر رجال البلاط والقادة للبحث فيما إذا كان من الأفضل أن يفرج عن الأسير لقاء شروط حسنة أو أن يبقى فى أسره ، وبعد مناقشات طويلة رؤى أن يفرج عنه نظير أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها لان هذا الافراج من شأنه أن يزيد

فى اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك فى إضعاف قوائم والتمهيد لسحقهم .

وانتهت المفاوضات بين رسل أبى عبدالله وبين الملكين الكاثوليكيين على ما يأتى :

ان يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر دوبلا من الذهب ، وأن يسلم إليهما فى الحال أربعمائة أسير من النصارى الموجودين فى سجون غرناطة . ثم يسلم إليهما بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم ولده الأكبر واثنى عشر عضواً آخرين من أكابر أسرته ، وذلك ضمانا بحسن وفائه لشروط المعاهدة .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عنه فوراً ، وألا يكلف فى حكمه بأى أمر يخالف الشريعة الاسلامية ، وأن يعاونه فى افتتاح المدن الثائرة عليه فى مملكة غرناطة ، وهذه متى تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الافراج عن السلطان الأسير .

وفى يوم ٢ سبتمبر سنة ١٤٨٣ بعد أن قضى أبو عبد الله فى الأسر بضعة اشهر قدم إلى قرطبة وفد من أكابر الغرطانيين لاستقبال أبى عبدالله واستصحابه . وأقبل أبو عبد الله فى ثياب زاهية ، وسار الجميع إلى حضرة ملك قشتالة . فاستقبل الملك النصرانى أسيره المسلم بحفاوة ورقة ، وأعرب أبو عبد الله بواسطة ترجمانه المسلم عما ينتظره من عون ملك قشتالة ورعايته ، واقتيد الرهائن المشروط تسليمهم إلى أحد الحصون لحفظهم ، وأمر فرديناند أن تقدم إلى أبى عبد الله هدية نفيسة من السهام والثياب والخيل ، وسار أبو عبد الله ومعه سرية قوية من الجند القشتاليين حتى وصل إلى أول قلعة أمينة من قلاع المسلمين .

وللملك أبى عبد الله صورة أخذت له خلال أسره وكانت فى حوزة

أسرة معروفة من الأشراف هى أسرة دى كوردبا (قرطبة) الإسبانية التى ترجع أصولها إلى أيام الفروسية والحروب بين المسلمين والنصارى . وكان من أعلام هذه الأسرة القائد دون ديجو دى كوردبا ، كونت كابرا (قبرة) بطل واقعة اللسانة التى أسر فيها السلطان أبو عبد الله .

والمرجح أن صنع هذه الصورة لأبى عبدالله يرجع إلى فترة أسره . وفى بواعث صنعها رأيان أو نظريتان :

١ — أنها صنعت للملك الأسير تحقيقاً لرغبة الكونت دى كابرا ، وذلك أنه كان من تقاليد الأشراف الظافرين فى المعارك الحربية أن تزين قبورهم بعد الموت بما غنموا من خصومهم من السلاح والثياب . وقد رأى الكونت وبعض زملائه أن يعهدوا إلى بعض المصورين برسم صورة للملك الأسير تكون تذكاراً للمعركة ، ورمزاً للظفر ، ثم يزين بها قبو مدفنه بعد وفاته مع باقى متعلقات الملك المسلم . ثم تناقل ورثة الكونت ملكية هذه الصورة بالتعاقب .

٢ — أن يكون الملك فرديناند الكاثوليكى نفسه أو زوجه الملكة إيزابيلا قد رغب أو رغبت فى رسم صورة للملك الأسير لتكون عنواناً للنصر ، ولتضم إلى الذخائر الملكية . وقد عهد برسمها إلى أحد مصورى البلاط . ومن المعروف أنه لما توفيت الملكة إيزابيلا ، بيعت مجموعة الصور التى كانت فى حوزتها بالمزاد ، وكان منها صور للملكين الكاثوليكيين وأعضاء الأسرة المالكة ، وصور أخرى لبعض الملوك والأمراء الأجانب ، ومن المحتمل جدا أن تكون صورة الملك المسلم قد آلت بالشراء إلى أسرة القائد الذى ظفر بأسره أو إلى أحد من المعاصرين الذين اشتركوا فى المعركة ، أو غيرهم ممن يهمهم أن يبقى هذا التذكار لديهم ، ثم آلت بعد ذلك إلى أسرة كابرا .

وعلى أى حال ، فنى أوائل القرن التاسع عشر ، كانت صورة السلطان أبى عبد الله ضمن مجموعة « الدون كرستوبال رافاييل فرناندث دى كردوبا

كونت دى لوكى ، ، وهو من أكابر أشراف غرناطة ، وكان يعيش فى قصره عيشة هادئة رغدة .

ودخل فى خدمة الكونت فى سنة ١٨١٨ محام فتى يدعى خوسيه فرناندث جيرا وعمل سكرتيراً له ، وأبدى فى خدمته غيرة ووفاء ، وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين . ووهب الكونت سكرتيره أرضاً من أملاكه . هذا فضلا عما كان يغدقه عليه من الهدايا والتحف ، وكان مما أهداه إليه قبل وفاته فى سنة ١٨٣٣ صورة السلطان أبى عبد الله ، وبذلك آلت هذه التحفة الفريدة إلى أسرة فرناندث جيرا .

واللوحة التى رسمت عليها الصورة ، صغيرة الحجم ، طولها ٣٧ سنتيمتراً وعرضها ٢٦ ، وفيها يبدو أبو عبدالله فتى فى نحو الرابعة والعشرين ، وهى سنه وقت الأسر ، بوجـــه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ، ونظرات حادة تغشاها الكآبة ، وتظلل فمه من الأسفل ثغرة خفيفة تجعل الشفتين أكثر وضوحا . وله شعر كستنى غزير ، ولحية صغيرة مدببة . وتزين تاجه الذهبى أحجار من الزمرد والياقوت ، وهو موضوع فوق قلنسوة خضراء . أما هذه السلسلة التى تتصل بعنقه فهى طابع الهزيمة وشعار الأسر ، مما يعزز الرأى القائل بأن الصورة قد رسمت حقاً خلال أسره فى قرطبة .

ويرتدى الملك الأسير فى الصورة سترة ذات لونين ، الأخضر وهو موشى بأسلاك الذهب ، والآخر قرمزى وهو موشى بالورود الذهبية . والجزء الأسفل من الثياب مصنوع من قطيفة زاهية تزينها من الجانب الأيمن أزرار سوداء ، ويرى من زاوية السترة المفتوحة ، وشى قميصه العربى .

ويبدو السلطان هادىء المحيا ، رصيناً ، يحفه الجلال ، وتشع نظراته بالكآبة والعذوبة .

وكانت الصورة حينما أهداها الكونت دى لوكى إلى صديقه الدون خوسيه فرناندث بلا إطار ، فصنع لها الدون إطاراً بيضاوياً مذهباً على

الطراز العربى ، ونقش عليها بالعربية اسم أبى عبد الله وشعار بنى نصر ملوك غرناطة .

ويرى البحث الحديث أن هذه الصورة التى حفظت عصوراً برواق آل لوكى ، ثم آلت إلى أسرة فرناندث جيرا الغرناطية ، هـذه الصورة الوحيدة الحقيقية للسلطان المسلم ، وأنه لا توجد ثمة صورة أخرى محققة النسبة إليه .

الحياة الاجتماعية فى الأندلس

اختلط العرب(١) بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم وامتزجوا

---

(١) يقول لسان الدين بن الخطيب فى كتابه اللمحة البدرية : « ولما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من التخوم سكنت العرب الأقطار وتبوأت الديار . ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن بشر القشيرى فى عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام ، وتسمى « الطالعة البلجية » : فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالأندلس فى الرسوم والحظوظ والاقطاعات بالبلديين ، والداخلون مع بلج بن بشر يسمون بالشاميين ، واختص بكورة إلبيرة وهى التى أوقعوا عليها اسم دمشق جند دمشق ، وبكورة جيان جند قنسرين ، وبأشبيلية جند حمص ، وسواها من الكور بهذه النسبة . ونزلت بهذه الكورة الإلبيرية من أعلام العرب الذين بها إلى هذا العهد بيوتهم جملة من القبائل : منهم بيوتات من قيس عيلان ، ومن عبس ابن بغيض ، ومن أشجع بن ريث ، ومن باهلة ، ومن سليم بن منصور ، ومن جديلة ، ومن كلاب بن ربيعة ، ومن عقيل بن كعب ، ومن هلال بن عامر ، ونمير بن عامر ، ومن سلول ، ومن ثقيف ، ومن غافق بن الشاهد ، ومن عك ، ومن الأنصار وهم بنو الأوس والخزرج ، ومن غسان ، ومن الأزد ومن الغوث ، ومن بجيلة ، ومن خثعم ، ومن كندة ، ومن السكاسك ، ومن تجيب ، ومن جذام بن عدى ، ومن خولان بن عمرو ، ومن المعافر بن يعفر ، ومن مذحج ، ومن حكم ، ومن حضرموت ،

بهم ، وقد عاشوا معهم فى ظلال وحدة واحدة(١) وإخاء تام ، وأخذ السكان

ومن جعفى ، ومن سعد العشيرة ، ومن همدان ، ومن حمير ، ومن شرعب ، ومن ذى رعين ، ومن ذى أصبح ، ومن يحصب بن مالك ، ومن كلب بن وبرة ، ومن جهينة ، إلى كثيرين .

(١) لم يحدث بين المسلمين وسكان البلاد الأصليين خلاف دينى ماعدا حوادث قليلة ، كان الباعث عليها تعصب بعض المسيحيين تعصبا دينيا أعمى ؛ ففى القرن الثالث قامت حركة باسم الدعوة الدينية ، هى حركة الاستشهاد ، وقاد هذه الحركة القسيس يولوجيوس معتمدا على زعيم من أغنياء الطائفة اسمه الفارو ، وكانت تعيش فى قرطبة فتاة اسمها فلورا « الزهرة » كان أبوها مسلما مات فى حداثة سنها فكفلتها أمها المسيحية ولقنتها مبادىء النصرانية وشبت عليها ، فلما كبرت جعلت تتردد على الكنائس فتدخل فى الأمر أخوها المسلم لأبيها ووثق يولوجيوس بها صلته حتى ألقى فى روعها أن المسيح لا يرضى عنها إلا إذا جهرت باعتقاد بالنصرانية وجاهدت فى سبيل المسيح . فرفع أخوها أمرها إلى القاضى فادعت أمامه أنها لم تكن يوما مسلمة وأنها لا تعرف إلا المسيحية دينا وأمر القاضى بجلدها شفقة عليها ، ولعلها تعود إلى دينها الأصلى وكفلها أخاها ، ولكنها هربت إلى بيت صديق لها مسيحى فآواها ثم غابت فى قرطبة وتوارت عن الأنظار ؛ وفى غيبتها جهر قسيس اسمه برفكتوس بالطعن فى الدين الإسلامى ، فحكم القاضى باعدامه ونفذ الخصى نصر الاعدام عند غروب الشمس يوم عيد الفطر فتلقاه القس برباطة الجأش والثبات ، وزهقت روحه بعد أن سب الإسلام والمسلمين والنبى الكريم ، فأكثر السباب واتخذ المسيحيون القسيس من القديسين . وجعل تاجر مسيحى اسمه حنا يكثر من التعريض فى بيعه وشرائه بالنبى صلى الله عليه وسلم ويحلف به كاذبا ، فكلم فى ذلك فأجاب : لعنة الله على من يذكر اسم محمد ، وكانت هذه الإجابة كافية فى رفع أمره إلى القاضى ، وحكم عليه بالجلد أربعمائة جلدة ، وحفز هذا العمل المتعصبين إلى التقدم لإرضاء المسيح بتقديم أنفسهم إلى السياف وقدمهم فى ذلك قسيس اسمه اسحق كان قبلا ناموسا لعبد الرحمن ثم اعتزله ودخل فى خدمة الكنيسة ، ذهب إلى القاضى يوما وقال له : أريد الدخول فى دين الاسلام ، فسر به القاضى

الأصليون يتعلمون اللغة العربية ، ودخل كثير منهم فى الاسلام طوعا ورغبة ،

وجعل يحادثه فى سماحة الإسلام وعدالته وحقيقة شرعته فقاطعه القس قائلا : لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه وافترائه ثم سبه ولعنه ، فلطمه القاضى وقال له : لعلك ثمل من شراب أو بك مس جنون فتثبت فأجاب : إننى أملك قواى كاملة ولم أذق شرابا فى يومى ، وإنما دفعنى إلى ما كان منى إخلاصى لدينى ، فسجنه القاضى معتقدا أنه مجنون حتى يتبين أمره ، ولكن عبد الرحمن لما بلغه ما فعل القسيس هاله الأمر ، فأمر بقتله ثم صلبه وإحراقه ، ونفذ الحكم واعتبر اسحاق من القديسين . . وتعاقبت حوادث مثل حادثة اسحاق حتى بلغ عدد الذين قطعت رقابهم فى هذا السبيل أحد عشر فى أقل من شهرين ، فوجدت الحكومة الاسلامية نفسها تلقاء حالة اجتماعية يجب علاجها ، فصدر أمر عبد الرحمن بعقد مؤتمر يبحث هذا الأمر ويسوسه بما ينبغى أن يساس به ، وأخذت الحكومة الاسلامية فى الأندلس بباعث من التسامح الدينى تفكر فى حل لهذا ، ورأت أن تدعو الحكومة ذوى المكانة والنفوذ من المسيحيين للنظر فى الوصول الى حالة تحقن دماء الناس ، وتمنع من التطاول على الاسلام أو الطعن فيه ، وللدلالة على أن هذه الحركة التى تقدم بها المستهدفون للسيف ليست من الدين فى شىء وأنها لا تؤدى إلا إلى تعرض المسيحيين للابادة والفناء ، ومثل الحكومة فى هذا المؤتمر شخص اسمه جوميز بن أنطونيان ، صار له شأن فى عهد خلف عبد الرحمن ، وصدر قرار المؤتمر بأمرين :

الأول — أن حركة الاستشهاد هكذا خاطئة لا صحة لها .

الثانى — أنه يجوز للقساومة أن يأمروا بسجن من تظهر عليه أعراض مثل هذه الفتن .

ولم يؤد المؤتمر إلى النتيجة التى كانت منتظرة ، فان يولوجيوس وأشياعه لجوا فى عملهم فتوردوا من مكان إلى مكان وسجنوا كلما وجد مبرر لسجنهم . وسجن يولوجيوس فالتقى فى سجنه وفلورا مرة أخرى . وفى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تسمى مارى .

وتبادلوا العادات والتقاليد . وأصبح المجتمع الأندلسى عربى الملامح والسمات ، وأقامت القبائل العربية الوافدة فى كل مكان من هذه البلاد الجميلة(١) ، وتركت كل

---

(١) لما استقرت قدم المسلمين بالأندلس وتم فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها . فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم . إلى أن كان من أمرهم ما كان . فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بنى أمية ، ومن بنى مخزوم أبو بكر المخزومى الأعمى الشاعر المشهور من حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل فى النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ، ووالده الذى هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بنى عباد . ومن الكنانيين ابن جبير صاحب الرحلة .

ومن نزل الأندلس من قحطان ، الأزد ، ومنهم محمد بن هانىء الشاعر المشهور الألبيرى ، وهو من بنى المهلب ، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم وهم الجم الغفير بالأندلس ، قال ابن سعيد : والعجب ما يشذ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلا شيخا من الخزرج وعجوزاً من الأوس ، قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس فى شرقها ومغربها .

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد ابن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المشهور بالموشحات ، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة ، الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعلى عهدهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين .

وعلى الجملة فقل أن تجد قبيلة من القبائل العربية ليس من بينها من اتخذ الأندلس موطنه لكثرة خيراتها وطيب هوائها . وكان أكثر الوافدين عليها من أهل الشام حتى اضطر أحد أمرائها إلى أن يفرقهم فى البلاد ، فأنزل أهل دمشق البيرة وسماها دمشق . وأنزل أهل حمص أشبيلية ، وسماها حمصا ، وأهل قنسرين : جيان

العوامل ويضاف إليها عامل آخر هو بيئة الأندلس الغنية الجميلة الشاعرة ،

وسماها قنسرين . وأهل الأردن ناحية رية ومالقة وسماها الأردن ،وأهل فلسطين ناحية شذونة وشريش وسماها فلسطين .

ورحل إلى الأندلس أيضا كثير من أهل مصر والعراق ، كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر ، واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الإسلام، فكان صلة أخرى غير صلة الاجتماع فى بقعة واحـــدة ، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم . ونمت مواهبهم الفطرية وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادا واسعة غنية جميلة مختلفة المناظر متعددة المناحى . فكان أثر ذلك كله أن تقوم فيها حالة اجتماع خاصة ، وأن تصبح لهم ميزات وصفات فى الاجتماع والعلم والفن لم تكن لغيرهم من العرب الخلص ، بل اشتقت من خير ما حملت عناصر هذا المجتمع الجديد من ميزات وما ركب فى طبائعها من صفات ، فكانوا أخف الناس أرواحا وأصفاهم نفوساً وألطفهم أذواقا وأحدهم أذهانا ، حتى صح فيهم ما نقل عن ابن غالب فى (فرحة الأنفس) : « أهل الأندلس عرب فى الأنساب والعزة والأنفة ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وإباء الضم ، وقلة احتمال الذل والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية . هنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إياها ،وضبطهم وروايتهم لها . بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم ،وحدة أفكارهم يونانيون فى استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الصناعات واختبارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحليتهم البساتين بأنواع الخضر ،وأصناف الزهر ، فهم أحكم الناس لأعمال الفلاحة ، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الذى شهدت التجربة له ، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال،وتحسين الصنائع . وأحذقهم بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

تركت آثارها فى العقول والأفكار والنفوس والأرواح ، وقد اشتهر المجتمع الأندلسى بعلو الثقافة وانتشارها ، فالفلاح فى حقله والتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه ، كل هؤلاء فضلا عن سواهم من الطبقات الراقية ، كانوا يجيدون المشاركة فى أمور الثقافة والأدب والشعر ، ويمتاز المجتمع الأندلسى كذلك بعلو الذوق ولطفه وانتشار الآداب الاجتماعية الرفيعة فيه . وكانت الفنون والآداب والغناء والموسيقى ذائعة فى كل وسط . . وسنتحدث عن كثير من مظاهر هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة فى الفصول التالية . . وكانت اللغة العربية التى يتحدث بها هذا المجتمع لغة راقية مهذبة رقيقة يتحدث بها الناس على أنها لغة راقية ، لغة الثقافة والآداب(١) وإن كانت الآداب الشعبية كالزجل قد ذاعت ذيوعا كبيرا .

---

(١) يقول الأستاذ حسن جاد « ص ٤٠ ابن زيدون » :

كانت حال اللغة فى الأندلس تختلف عنها فى الشرق ، فقد كانت قواعد التعليم هناك تقوم على علوم الدين وشواهد العرب وأمثالهم ومنثورهم ومنظومهم ، وكانوا كذلك عربا بيدهم النفوذ والسلطان وللغتهم القهر والغلبة ، ولا مزاحم لها من اللغات الأخرى ، لأن العرب فى الأندلس انتصروا انتصارا عاما ، فلكت لغتهم ألسنة أهلها بما لهم من النفوذ . حتى إن هشام بن الداخل حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية . فبقيت لهذا نقية من العجمة ، غضة الأهاب ، ناضرة الشباب ، زمنا طويلا . على حين كانت تموت فى المشرق بمزاحمة أضدادها ولا سيما الفارسية ، التى انهزم الشرقيون أمام حضارة أهلها ، ثم إن الدولة العباسية ورثت حضارات وثقافات عريقة ظهر أثرها فى اللغة فجنى على مادتها باللحن والعجمة ، ولكنها لم تصب فى الأندلس لخلوها من هذه الثقافات . وكانت مع هذا لغة الخاصة والعامة فى معظم عهد العرب بالأندلس ، فى الوقت الذى كانت فيه لغة الخاصة فقط بالمشرق ، ولئن امتازت فيه بشدة الأسر ورصانة الأسلوب ، فحسبها فى الأندلس أنها كانت تذهب مذهب النسيم : رقة لفظ ، وأناقة أسلوب .

ويقول استانلى بول : « . . . أخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ، ويصدفون عن آدابها ، فتعلموا العربية ، واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها ، كما يكتب العرب انفسهم ، وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول : إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه ، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين . ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشىء لا يعرف غير العربية ، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف ، وينشىء لها الخزائن ، ويراها جديرة بالإعجاب ، فى حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحى . ثم يقول : لقد نسى النصارى لغتهم ، ومن العسير أن نجد واحداً منهم فى كل ألف يكتب حرفا لاتينيا كتابة سائغة ، وهم مع ذلك يستطيعون أن ينظموا شعراً عربيا رائعاً(١) » .

ويقول أحمد ضيف فى بلاغة العرب فى الأندلس نقلا عن مؤرخى الفرنجة : « هجر أهل إسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها حتى إن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية،

ولهذا فتن بها الإسبان . وشغفوا بها كل الشغف ، حتى أنساهم ذلك لغتهم . اللاتينية ، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال « الفارو » كاهن قرطبة إذ يقول : « إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة فى اللغة العربية ، فنتعلم لغة عذبة الألفاظ ، بليغة الأداء ، جميلة الإنشاء ، ولا نكاد نجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشباننا الأذكياء جميعا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم ، وكلما قرأوا كتبها ، ودرسوا أدبها أعجبوا بها ، فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا : إن الفائدة منه لا تساوى التعب فى قراءته ، وهكذا نسى المسيحيون لغتهم وجهلوا كتابتها وبلاغتها ، وحذقوا اللسان العربى حتى ليكتبونه نثرا ونظما فى أسلوب أنيق ، وتصوير دقيق ، يفوقون فيه العرب أحيانا » .

(١) نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ـ كامل كيلانى

باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وكل شبابنا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الأعجاب بآداب العرب ، فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لا تستحق عناية قارىء أو مستفيد ، من أجل ذلك نسى الميحيون لغتهم فلا تكاد تجد فى الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب بعبارات بليغة وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك حتى فى الشعر وكتابة القوافى » .

ويقول نقلا عن مؤرخ آخر : « فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه ، فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه واتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية . والعمل على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمناً طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى إن القسس لجهلهم اللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية وبقى ذلك إلى أواخر القرن الحادى عشر إلى أن استولى الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م » .

صور من الحياة الأندلسية

— ١ —

قدم الأندلس على بن نافع زرياب المغنى ـ الزرياب طائر أسود اللون حسن الصوت وسمى به لسمرة كانت فيه مع جمال الصوت ـ وقد تخرج زرياب على يدى إسحق الموصلى فنبغ حتى نال من أستاذه كل تقدير ، وقال الرشيد يوما لإسحق : أحب يا إسحق أن تبغينى شابا ظريفاً تؤدبه أدبك حتى ندخره لوقت قد لا نجدك فيه ، فقال إسحق : لدى يا أمير المؤمنين بغيتك التى تريد ، شاب لم تقع عيناى على أحسن منه صوتاً وأدباً وألحاناً ، وهو بالباب إذا شاء مولانا أمير المؤمنين : قال الرشيد : على به ، فدخل زرياب . واستجوبه الرشيد فأبان عن ظرف ولباقة ، فأعجبه وطلب منه الغناء فقال : أريد العود . فجىء له بعود أستاذه إسحق ، فأبى وقال : أريد عودى وهو بالباب ، فقيل له : أليس عود أستاذك عوداً ؟ فأجاب : إن كان مولانا يريد أن أغنى غناء أستاذى فإنى أغنى على عوده ، وإن كان مولانا يريد غنائى فإنى أغنى على عودى ، فأعجبت هذه لفطنة الرشيد وارتاح لها ، ولما جىء بعود قال له الرشيد : أراه كعود إسحق ، فأجاب نعم يا مولاى هو مثله فى الشكل ، وأمير المؤمنين صادق ، ولكن أوتار العيدان يتخذونها من الحرير ، وأنا أتخذ أوتار عودى من مصارين الأشبال ، فأكبر هذا الجواب زريابا فى عينى هرون ، ثم انطلق فغنى الصوت الذى فيه :

يا أيها الملك الميمون طائره هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد طرباً ما رئى مثله عليه من قبل وأبدع فيه زرياب وأغرب فأطرب وأعجب وشاءت المقادير أن تنقل زريابا من بغداد إلى قرطبة ، فقد

أوجس الموصلى فى نفسه خيفة على صيته وجاهه فى بلاط الرشيد أن يسقطه هذا الغلام الناشىء المبدع ، فخلا الأستاذ بتلميذه وقال : يازرياب إنك تلميذى وإننى أحبك كابنى ولكننى أيضاً أحب نفسى ، وليس إلا اثنتان فواحدة بنعماها وأخرى أظنك تأباها ولا ترضاها ، فإما أن نقيم هنا وأنا والله دائب وراء قتلك حتى يكون ولو بذلت فى ذلك نفسى لأنك قاتلى ولامحالة ، وإما أن تختار لك بلداً ترحل إليه بعيداً لاتعود ما أنا حى ولك حين ذاك كل ما يعينك على الوصول إلى ما تريد من جاه ومن مال . وكان لا جرم أن يختار زرياب الرحيل وهو يرى هذا الوعيد والتهديد ويعلم جاه إسحق عند الرشيد فرحل يضرب آباط الأسفار إلى الأندلس وقد كانت شهرتها وقتئذ بلغت بغداد فيما بلغت من بلاد الشرق فلم تعد ولاية من ولايات الأمويين ولا إيالة يطمع فيها العباسيون ولكن ملك دولة وفخامة يغدق فيها الحكم بن هشام حتى يستقدم اليه من المشرق كثيراً من جله العلماء كأبى على القالى .

ولما أشرف زرياب على الأندلس كان الحكم قد أشرف على الموت فلم يجد زرياب من الحكمة أن يجتاز إلى الأندلس ، ولبث فى إفريقية ينتظر ، فلما تولى عبد الرحمن بن الحكم أرسل الألطاف والهدايا ورسلا يبشرون زرياباً بعيش ومجد وبخير كثير فى بلاط عبد الرحمن ، فانتقل زرياب إلى الأندلس فى أبهة وإعزاز ، حتى إن عبد الرحمن خرج إليه من عاصمة ملكه يتلقاه زيادة فى التجلة والإكبار .

وتعلل نفوذ زرياب الأدبى فى علية القوم وسراتهم فقلدوه فى أشياء كثيرة ، غيرت من عادات الناس فى طعامهم وشرابهم ولبوسهم وأزيائهم على وجه العموم فحبب إليهم كئوس الزجاج عن أدوات الذهب والفضة والمعادن ، وكان هو وأولاده يقصون شعورهم ولا يتركون منها إلا جمة تزين النواصى فقلدهم الأندلسيون فى ذلك ، وغير ملابسه وألوانها على حسب الفصول فغير الناس كما يغير ، ونشأ من هذا كله لون من الحضارة لم يكن معروفا ، وكان لهذا اللون أثره فى انتقال الأندلس حالا على حال .

وكذلك كان إبداع زرياب فى الغناء مؤثراً فى الأدب العربى إذ ادخل فى آلات الموسيقى ما لم يكن فيها قبل من الأوتار ، فاخترع بذلك أداة جديدة تسرى عن الناس همومهم وأحزانهم ، وترقق طباعهم وعواطفهم ، وتدعو الشعراء إلى الابتكار والإجادة فى أنواع الشعر الغنائى وتجويدها ، لقد كان لزرياب والذين من بعده أثر كبير فى الأدب الغربى نفسه لأنه لقح الأدب الفرنسى بكثير من الظواهر العربية فى الأساليب وفى المعانى ويظهر هذا التلقيح فى أمرين :

الأول : ان أدوات الغناء قد نقل كثير منها إلى الفرنسيين ، حتى إن كلمة عود نقلت بنفسها لهذا المسمى العربى ، والأداة الموسيقية نفسها .

والثانى : أن الشعر الفرنسى لم يكن مقفى فى بادىء نشأته لأن أصله وهو الشعر اللاتينى لم يكن مقفى ، ثم ظهرت التقفية فى هذا الشعر بعد عصر الاختلاط الذى كان بين الأندلسيين والفرنسيين فى عهدى الحرب والسلام ، فدل على تأثر الأدب الفرنسى بالأدب العربى ، والفضل فى ذلك لزرياب وأمثاله .

وبما مكن عبد الرحمن لزرياب فى المنزلة ، تمكن سلطان زرياب فى الحاشية والبلاط والأمراء والأشراف ، ولكن لباقة الرجل وحسن تفكيره جعلته يكتفى بهـــذا النفوذ الأدبى ، ولا يحاول أن يتورط به فى مجال التعصب السياسى والمنازعات .

وإذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أنضر صفحة فى ذلك التاريخ المجيد وأعجبها تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع المغنى الملقب بزرياب . فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة ، وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى اليها وتنظيم حياتها اليومية .

ولقد فتح المسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت القبائل العربية والبربرية فى بسائطها وحزونها ، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بداة جفاة ، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية ، فكأنهم لايزالون ضاربين فى هضاب نجـــد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية . ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتنسق بفضل مجهود المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبدالرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فساداً واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامى فى ذلك الزمان ، فقـــد استبحر فيه العمران ، وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شئون الحياة بعد أن استكملوا الضرورى والخارجى منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد أسعفهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً ، فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامى دين يسر ، يحب من المؤمن أن يكون هيناً لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة ، غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا . وأما المتطرفون فوجـــدوا فى تقاليد الفرس والروم الإجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها ، وأيا كانت الطرق الموصلة اليها .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة ارستقراطية ، مرهفة الأذواق ، رقيقة الطباع . ترى فى الموسيقى ، ومجالس الأنس والطرب ، وحفلات السمر خير مايرفهون به عن تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة . هذا هو السبب المباشر فى تقدم صناعة الغناء فى ذلك الزمان ، وبلوغها الغاية على أيدى : إبراهيم المهدى ، وإبراهيم الموصلى ، وابنه اسحاق . وهذا هو السبب كذلك فى استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد فى مدن الشرق

الإسلامى وبغداد خاصة ، وفى بلوغ هـــذه المجالس درجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسمار . من ذلك أن يكون الغناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً ، خفيف الروح ، حاضر البديهة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلا عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

وإلى هذا المشرق اتجه أمراء بنى أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها ، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين ، وينظمونها جميعاً فى نسق واحد . وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال : علون ، وزرقون ، ولكن زرياباً كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً .

وقد نهض زرياب بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة فى إلقاء الغناء وتعليمه ، فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم ، وصنع أوتاره من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أرقة ورخاوة ، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف مالغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ماليس لغيرها ، فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وتراً خامساً يقوم مقام النفس من الجسد ، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى المقرى . واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهف الخشب ، وذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه . وأما من حيث إلقاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ فى الإلقاء بالنشيد بأى نقركان ، ثم يؤتى فى أثره بالبسيط ويختم بالمحركات والإهزاج . أما مذهبه فى تعليم الغناء فيقول فيه المقرى :

« وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوى الصوت . فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج على الفم فان كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه خشب عرضها ثلاث أصابع . يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته ياحجام ! أو يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بها صافيا نديا قويا مؤديا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير فى صراحة إلى أن زريابا أنشأ بالأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى مايصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهدا لتعليم الموسيقى الشرقية .

وقد ابتكر زرياب لأهل الأندلس ألوانا من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن . وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون ، وكانوا لا يعرفونها من قبل . وعلمهم أن يبسطوا فوق ملاحف الكتان أنطاع الأديم اللين ، وأن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية ، فذلك أنظف لها وآنق لمنظرها . وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة فيتدرجوا من من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء ، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم تصفيفاً وتدويراً وإرسالا .

وقد توفى زرياب فى إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس فى حياته ، فقد رزقها ذكراه عندهم بعد مماته . ذلك بأن مذهبه فى الغناء وما رسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس

وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل اليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زرياباً : « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » ، ويقول المقرى « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة طيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مالم يجده أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوما به » .

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظروف وسلامة الذوق ، لأنه كان عندهم مضرب المثل فى ذلك ، أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياباً بأنه « معلم الناس المروءة » .

— ٢ —

يقول[1] محدث : قصدت منزل ابن بكار المروانى فى أشبونة[2] ونقرت الباب ، فنادى من هذا ؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤياك بقرابة ، فقال : لاقرابة إلا بالتقى ، فإن كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنح عنى . فقلت : أرجو فى الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى ، فقال : أدخل ، فدخلت عليه ، فاذا به فى مصلاه ، وسبحة أمامه ، وهو يعد حبوبها ويسبح ، فقال لى : أمهلنى حتى أتمم وظيفتى من هذا التسبيح ، ثم أقضى حقك ، فقعدت الى أن فرغ . فلما قضى شغله عطف على ، وقال : ما القرابة التى بينى وبينك ؟ فانتسبت له فعرف أبى ، وترحم عليه ، وقال لى : لقد كان نعم الرجل وكان لديه أدب ومعرفة . فهل لديك أنت مما كان لديه شىء ؟ فقلت له :

(١) نفح الطيب ١١٢ : ٢ (٢) اشبونة : بلد بالأندلس .

إنه كان يأخذنى بالقراءة وتعلم الأدب ، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به ؛ فقال لى : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ! وقد ألجأنى الدهر إلى أن أرتزق به . فقال . يا ولدى إنه بئسما يرتزق به ، ونعم ما يتحلى به إذا كان على غير هذا الوجه ! ولكن تحل الميتة عند الضرورة ! فأنشدنى — أصلحك الله — مما على ذكرك من شعرك .

فطلبت بخاطرى شيئاً أقابله به مما يوافق حاله ، فما وقع لى إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبه ذلك . فأطرقت قليلا ؛ فقال : لعلك تنظم ! فقلت لا ! ولكنى أفكر فيما أقابلك به ؛ فقولى أكثره فيما حملنى عليه الصبا والسخف ، وهو غير لائق بمجلسك .

فقال : أنشدنى ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدنى خاطرى إلا بشعر أمجن[1] فيه ، فقال : أما كان فى نظمك أطهر من هذا ؟ فقلت له : ما وفقت لغيره . فقال : لا بأس عليك ، فأنشدنى غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولى :

ولما وقفت على ربعهم ... تجرعت وجدى بالأجرع[2]
وأرسل دمعى شرار الدموع ... لنار تأجج فى الأضلع
فقام عذولى لما رأى ... بكائى وقفاً على الأدمع
فقلت له : هذه سنة ... لمن حفظ العهد فى الأربع[3]

فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يجىء ويذهب ، ثم أفاق ، وقال : أعد بحق آبائك الكرام . فأعدت فأعاد ما كان فيه ، وجعل يردد ، فقلت له : لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه . فقال : وهل حرك منى إلا خيراً وعظة . يا بنى إن هذه القلوب المخلاة لله كالأوراق التى جفت ، وهى مستعدة

---

(١) راجع هذا الشعر فى ص ١١٢ : ٢ من نفح الطيب .
(٢) الأجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل .
(٣) الأربع : جمع ربع ، الدار بعينها .

لهبوب الرياح ، فإن هب عليها أقل ريح لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طوعه .

فأعجبنى منزعه ، وتأنست به ، ولم أر عنده مايعتاد من هؤلاء المتدينين من الانكماش ؛ بل مازال يحدثنى بأخبار فيها هزل ، ويذكر لى من تاريخ بنى أمية وملوكها ما أرتاح له ، ولا أعلم أكثره . فلما كثر تأنسى به أهويت إلى يده كى أقبلها ، فضمها بسرعة ، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : أرغب فى أن تنشدنى شيئاً من نظمك ! فقال : أما نظمى زمان الصبا فكان له وقت ذهب ، ويجب للنظم أن يذهب معه ، وأما نظمى فى هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ؛ وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصف سيدى أنشدنى من نظم صباه ، ومن نظم شيخوخته فيأخذ كلانا بحظه ، فضحك ، وقال : ما أعصيك وأنت ضيف ، ولك حرمة أدب ، ووسيلة قصد ، ثم أنشدنى وقد بدا عليه الخشوع وخنقته العبرة :

ثق بالذى سواك من عدم فإنك من عدم
وانظر لنفسك قبل قر ع السن من فرط الندم
واحذر ـ وقيت ـ من الورى واصحبهم أعمى أصم
قد كنت فى تيه إلى أن لاح لى أهدى علم
فاقتدت نحو ضيائه حتى خرجت من الظلم
لكن قناديل الهوى فى نور رشدى كالحمم[1]

فوالله لقد أدركنى ما أدركه ، وغلب على خاطرى بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلت بى من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك ، والله مرشدك ومنقذك ، ثم

(١) الحمم : الرماد والفحم ، وكل ما احترق من النار .

قال لى : يابنى ، هذا مانحن بسبيله الآن ، فاسمع فيما مضى ، والله ولى المغفرة وأنشد :

أطل عـذار على خده ... فظنوا سلوى عن مذهبى
وقالوا : غراب لوشك النوى ... فقلت : اكتسى البدر بالغيهب[1]
وناديت قلبى : أين المسير ... وبدر الدجى حل بالعقرب[2]
فقال : ولو رمت عن حبه ... رحيلا عصيت ولم أذهب

فسمعت منه مايقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له : لم أر أحسن من نظمك فى جد ولا هزل . ثم قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ! ما أرى فيه بأساً بعد اطلاع من يعلم السرائر على مافى الضمائر ، فقلت له : فإن أسبغت على النعمة بزيادة شىء من هذا الفن فعلت ماتملك به قلبى آخر الدهر . فقال : يابنى ، لاملك قلبك غير حب الله تعالى ، ثم قال : ولا أجمع عليك رد قول ومنعا ، ثم أنشد :

أيها الشادن الذى ... حسنه فى الورى غريب
لحظ ذاك الجمال يط ... فىء مابى من اللهيب
وعليه أحوم دهـ ... رى ولكننى أخيب
كلما رمت زورة ... قيض الله لى رقيب

فمازج قلبى من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه ، فقلت له : زدنى زادك الله خيراً ، فأنشدنى :

ما كان قلبى يدرى قدر حبكم ... حتى بعدتم فلم يقدر على الجلد
وكنت أحسب أنى لا أضيق به ... ذرعاً فما حان حتى فت فى عضدى

---

(١) الغيهب : الظلمة .
(٢) العقرب : برج فى السماء .

ثم استمرت على كره مريرته[1] فكاد يفرق بين الروح والجسد
عساكم أن تلافوا باللقا رمقى فليس لى مهجة تقوى على الكمد

ثم قال : حسبك ، وإن كلفتنى زيادة ، فالله حسبك ، فقلت له : قد وكلتنى إلى كريم غفور ، فبالله إلا مازدتنى ؛ وأكببت لأقبل رجليه ، فضمهما وأنشدنى شعراً رقيقاً ؛ ملأ سمعى عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبت كل ما أنشدنى ، ثم قلت له : لولا خوفى من التثقيل عليك لم أزل أستدعى منك الإنشاد حتى لاتجد ماتنشده . فقال : إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك ، فما عندى مما أضيفك به غير ماسمعته وما تراه .

ثم قام وجاء من بيت آخر فى داره بصحفة فيها حساً[2] من دقيق وكسور باردة ، فجعل يفت فيها ، ثم أشار إلى أن أشرب ، فشربت ، ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها ، ثم قال . هذا غداء عمك نهاره ، وإنه لنعمة من الله تعالى ، أستديم بشكرها اتصالها . فقلت له . يا عم ؛ ومن أين عيشك ؟ فقال : يابنى عيشتى بتلك الشبكة أصطاد بها فى سواحل البحر ما أقتات به ، ولى زوجة وبنت يعود من غزلها مع ذلك ما نجدبه معونة ؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خير كثير . فتركته ، وفى نيتى أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوف التثقيل ، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتنى المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت : إن الشيخ قد خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ، فقلت له : ماشأنك ؟ فقال : إنى أريد أن أموت شهيداً ، وهؤلاء جيران لى قد عزموا على الغزو ، وأنا ماض معهم ثم احتال فى سيف ورمح ، وتوجه معهم ، وقال : نفسى هى التى قتلتنى بهواها ، أفلا أقتص منها فأقتلها ؟ فقلت لها : من خلف للنظر فى شأنكم ؟ فقالت : ليس

---

(١) المريرة : القوة .
(٢) الحسا : المرق .

ذلك لك ! فالذى خلفه لنا لانحتاج معه إلى غيره ، فأدركنى من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً .

فقلت : إنى قريبه ، ويجب على أن أنظر فى حالكم بعده ! فقالت : يا هذا إنك لست بذى محرم ، ولنا من العجائز من ينظر لنا ، ويبيع غزلنا ، ويتفقد أحوالنا ؛ فجزاك الله عنا خيراً . انصرف عنا مشكوراً ! فقلت لها : هذه دراهم خذوها ؛ لتستعينوا بها . فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله ، وما كان لنا أن نخل بالعادة . فانصرفت نادماً على ما فاتنى من الاستكثار من شعر الشيخ . ثم عدت بعد ذلك لداره سائلا عنه ، فقالت لى المرأة : إنه قد قبله الله تعالى : فعلمت انه قتل . فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت : « ولا تحسبن الذين الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

فانصرفت معتبراً من حاله !

— ٣ —

قصد (١) المنصور بن أبى عامر رجل جوهرى من تجار المشرق من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ، ودفع إلى التاجر الجوهرى صرته — وكانت قطعة يمانية — فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليوم قائظ ، وعرقه منصب ، دعته نفسه إلى التبرد فى النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط ، فمرت حدأة فاختطفت الصرة ، تحسبها لحماً ، وطارت فى الأفق ذاهبة بها .

فقامت قيامة التاجر ، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسر الحزن فى نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، واستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة

---

(١) نفح الطيب ١٩٢ : ١

فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته ، فقال له : هلا أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهر على ذلك بالحيلة ! فهل هديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها ! قال : مر شرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك — يعنى الرملة .

فدعا المنصور شرطيه الخاص به ، فقال : جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا فى ذلك ، ثم قالوا : يا مولانا ، ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم ، عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليـــوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة .

فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بين يدى المنصور فاستدناه ، والتاجر حاضر ، وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هاهو ذا يا مولاى ، وضرب بيده إلى حجزة (١) سراويله ، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحا .

فقال له المنصور : صف لى حديثها . فقال : بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامى فأخذتها ، وراقنى منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة ، وقلت : أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها .

فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صرتك ، وانظرها ، واصدقنى عن عددها ، ففعل وقال : وحقك يا مولاى ، ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له . فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولا تنغص عليك فرحك ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره ، وللرجل بعشرة دنانير ثواباً له ، وقال لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث

---

(١) الحجزة من السراويل : موضع التكة .

لأوسعناه جزاء . فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه . وقال : لأبثن فى الأقطار عظم ملكك ، ولأبين أنك تملك الطير ، فلا تعتصم منك ، ولا تؤذى جارك .

فضحك المنصور ، وقال : اقصد فى قولك يغفر الله لك ! فعجب الناس من تلطف المنصور فى امره ، وحيلته فى تفريج كربته !

— ٤ —

كان أبو بكر بن المنخل وأبو بكر الملاح متآخيين متصافيين ، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا فى الطلب ، وحازا قصب السبق فى حلبة الأدب ، فتهاجى الإبنان بأقذع الهجاء ، فركب ابن المنخل فى سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتب عليه على هجاء بنى الملاح ، ويقول له : قد قطعت مابينى وبين صديقى وصفيى أبى بكر فى إقذاعك بابنه ! فقال له ابنه : إنه بدأنى والبادى اظلم ، وإنما يجب أن يلحى[1] من بالشر تقدم ، فعذره أبوه ! فبينما هما على ذلك إذ أقبلا على واد تنق فيه الضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

تنق ضفادع الوادى

فقال ابنه : بصوت غير معتاد

فقال الشيخ :

كأن نقيق مقولها

فقال ابنه : بنو الملاح فى الوادى

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم

---

(١) نفح الطيب ص ٣٠١ ج ٢

(٢) يلحى : يلام ويعنف .

فقال ابنه : إذا اجتمعوا على زاد
فقال الشيخ : فلا غوث للهوف
فقال الابن : ولا غيث لمرتاد !

— ٥ —

ورد[1] ابن جاخ الشاعر على المعتضد بن عباد ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه ، فقال : إنى شاعر ! فقالوا : أنشدنا من شعرك فأنشدهم شعرا أضحكوا منه وازدروه . فقال بعض عقلائهم : دعوه ، فإن هذا شاعر ، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ، ويندرج فى سلكهم ، فلم يبالوا كلام الرجل ، فبقى معهم ، وكان لهم فى تلك الدولة يوم مخصوص ، لا يدخل فيه على الملك غيرهم ، فقال بعضهم لبعض : هذه شناعة[2] بنا أن يكون مثل هـــذا البادى يقدم علينا ، ويجترئ على الدخول معنا . فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم فى اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان ، وقدروا أن يقول مثل هذا الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسما لعلة إقدام مثله عليهم .

فلما كان اليوم المذكور ، وقعد السلطان فى مجلسه ، ونصب الكرسى لهم ، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم فى ذلك اليوم ، فأمر بذلك ، فصعد الكرسى ، وانتظروا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك ، فقال :

قطعت يا يوم النوى أكبادى ... وحرمت عن عينى لذيذ رقادى
وتركتنى أرعى النجوم مسهدا ... والنار تضرم فى صميم فؤادى
فكأنما آلى الظـــلام ألية ... لا ينجلى إلا إلى ميعاد

---

(١) نفح الطيب ص ٤٥٨ ج ٢
(٢) الشناعة : الفظاعة ، والاسم الشنعة .

ولرب خرق[١] قد قطعت نياطه ... والليل يرفل فى ثياب حداد
بشملة[٢] حرف[٣] كأن زميلها ... سرح[٤] الرياح وكل برق غادى
والنجم يحدوها وقد ناديتها ... يا ناقتى عوجى على عباد
ملك إذا ما أضرمت نار الوغى ... وتلاقت الأجناد بالأجناد
فترى الجسوم بلا رءوس تنثنى ... وترى الرءوس لقى[٥] بلا أجساد
يأيها الملك المؤمل والذى ... قدما سما شرفا على الأنداد
إن القريض لكاسد فى ارضنا ... وله هنا سوق بغير كساد
فجلبت من شعرى إليك قوافياً ... يفنى الزمان وذكرها متمادى
من شاعر لم يضطلع أدباً ولا ... خطت يداه صحيفة بمداد

فقال له الملك : أنت ابن جاخ ؟ فقال : نعم ! فقال : اجلس ، فقد وليتك رياسة الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن فى الكلام فى ذلك اليوم لأحد بعده ! .

— ٦ —

قال[٦] المنصور بن أبى عامر يوماً لأبى عمر يوسف الرمادى : كيف ترى حالك معى ؟ فقال : فوق قدرى ودون قدرك ؛ فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادى ، وخرج وقد ندم على مابدر منه ، وجعل يقول : أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ! ما كان ضرنى لو قلت له : إنى بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ! وأنشد :

---

(١) الخرق : القفر والأرض الواسعة .
(٢) الشملة : السريعة .
(٣) الحرف : الناقة الضامرة .
(٤) سرح الرياح : إرسالها
(٥) اللقى : ماطرح .
(٦) نفح الطيب ص ٢٢٦ ج ٢ .

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

ولما خرج كان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ! إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا[1] ولا ذمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب ، وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم: « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون» ، والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم .

فرفع المنصور رأسه — وكان محامى أهل الأدب والشعر — وقد اسود وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال : مابال أقوام يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما يدرون ، أيرضى أم يسخط ؟ وأنت — أيها المتبعث للشر دون أن يبعث — قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ؛ لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك فى هذا الرجل خاصة ، ولسنا — إن شاء الله — نبلغ أحداً غرضه فى أحد ؛ وإنك ضربت فى حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإنى ما أطرقت من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل رأيت كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديه له بسرعة ، والله لو حكمته فى بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قدر ذرة ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام فى شخص قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا فى أوليائنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم ؛ فإننا لا نتغير عليهم ؛ بغضا لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكارا ، فإنا من نريد إبعاده

---

(١) الإل : العهد . (٢) التأنيس خلاف الإيحاش .

لم نظهر له التغير ، بل نبذه مرة واحـــدة ، والتغيير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه . ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم فى صاحبه لتفرقتم أيدى سبا ، وجونيت أنا مجانبة الأجرب ، وإنى قد اطلعتم على مافى ضميرى ، فلا تعدلوا عن مرضاتى .

ثم أمر أن يرد الرمادى . وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر على خلاف ماقدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر ، افعلوا به ذلك .

— ٧ —

ومن الجوارى فى الأندلس فضل المغنية ، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال وأصلها لاحدى بنات هرون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فانصقلت ورقت طبقتها فى الغناء ، واشتريت من هناك لعبد الرحمن أمير الأندلس مع جارية أخرى مدنية اسمها علم ، وصواحب غيرهن .

ومنهن جارية اسمها قلم ، وكانت أندلسية الأصل من سبى البشكنس حملت صبية إلى المشرق فوقعت بالمدينة حتى اشتريت لعبد الرحمن ، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية الشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب .

ومنهن جارية تسمى العجفاء ، قال فى نفح الطيب : قال الأرقمى : قال لى أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك فى أحسن الناس غناء ؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بنى زهرة فأذن لنا ، فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعا ، وفى البيت نمرقتان قد ذهب عنهما اللحمة وبقى السدى وقد حشيتا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء عليها هروى أصفر غسيل وكأن وركيها فى خيط

من وسخها فقلت لأبى السائب : بأبى أنت ما هـــذه ؟ فقال : اسكت ، فتناولت عوداً فغنت :

بيد الذى شغف الفؤاد بكم ... تفريج ما ألقى من الهم
فاستبقنى أن قد كلفت بكم ... ثم افعلى ما شئت عن علم
قد كان صرم فى الممات لنا ... فعجلت قبل الموت بالصرم

قال : فحسنت فى عينى وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب وزحفت معه ، ثم تغنت :

برح الخفاء فأى ما بك تكتم ... ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
كم ما تضمن من عزيز نيله ... يا قلب إنك بالحسان لمغرم
ياليت أنك ياحبيب بأرضنا ... تلقى المراسى طائعـــاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه ... ونكون إخواناً فماذا نتقم ؟

قال : فزحفت مع أبى السائب حتى فارقنا النمرقتين وربت العجفاء فى عينى كما يربو السويق بما. مزنة ، ثم غنت :

ياطول ليلى أعالج السقما ... إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبدا ... فاليوم أمسى فراقكم ضرما

فألقيت طيلسانى وأخذت (شادكونة) فوضعتها على رأسى وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول ربعة فى البيت فيها قوارير ودهن فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ : قوانينى ، يعنى قواريرى ، فاصطكت القوارير وتكسرت وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره وقال للعجفاء : لقد هجت لى داء قديما ثم وضع الربعة ، وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية فابتيعت له العجفاء ، وحملت إليه .

ومن الجوارى فى الأندلس طروب وهى جارية من ناغارا (نبره) ولع بها

عبد الرحمن حتى لقبت السلطانة طروب، وتدخلت فى شئون الإمارة بما هيأ لها عبد الرحمن على نفسه من الهيمنة، حتى لقد كان لا يطيق الصبر على فراقها ولا على هجرها. غاضبته مرة فصدت عنه ولزمت مقصورتها فضاق ذرعا بهجرها، فجهد يترضاها وهى تجهده عناء وترهقه عنتاً، فأرسل بعض خصيانه الخواص يستكرهونها على المجىء إليه، فأغلقت عليها الباب وأقسمت ألا تذهب ولو اقتضى الأمر قتلها، فأوحى عبد الرحمن إليهم أن يحملوا بدر المال فيجعلوها من وراء الباب سدا، ثم أقبل يستعطفها ويهب لها هذه البدر، فرقت له وعطفت عليه.

— ٨ —

قال أبو الطاهر(١) إسماعيل بن أحمد التجيبى: كنت بمدينة مالقة(٢) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتللت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف، ولزمت المنزل، وكان يمرضنى(٣) حينئذ رفيقان كانا معى، يلمان من شعثى ويرفقان بى.

وكنت إذا جنى الليل اشتد سهرى، وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً على، وزائداً فى قلقى وتألمى، فكانت نفسى تعاف تلك الضروب طبعاً، وتكره تلك الأصوات جبلة، وأود لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئا من ذلك، ويتعذر على وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

---

(١) شرح المختار من شعر بشار ص ١٤

(٢) مدينة بالأندلس كانت ثغرا حصينا على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف

(٣) مرضه: قام عليه فى مرضه.

وإنى لساهر ليلة بعد إغفاءة فى أول ليلتى ، وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة ، وهدأت تلك الضروب المضطربة ، وإذا ضرب خفى معتدل حسن لا أسمع غيره ، فكأن نفسى أنست به ، وسكنت إليه ، ولم تنفر منه نفارها من غيره ، ولم أسمع معه صوتا ، وجعل الضرب يرتفع شيئا فشيئا ونفسى تتبعه ، وسمعى يصغى إليه ، إلى أن بلغ فى الارتفاع إلى مالا غاية وراءه ، فارتحت له ، ونسيت الألم ، وتداخلنى سرور وطرب ، وخيل إلى أن أرض المنزل ارتفعت بى ، وأن حيطانه تمور[1] حولى ، وأنا فى كل ذلك لا أسمع صوتاً .

فقلت فى نفسى : أما هذا الضرب فلا زيادة عليه ، فليت شعرى كيف صوت الضارب ! وأين يقع من ضربه ؟ ولم ألبث أن اندفعت جارية تغنى فى هذا الشعر بصوت أندى من النوار ، غب القطار[2] ، وأحلى من البارد العذب ، على كبد الهائم الصب ، فلم أملك نفسى أن قمت ورفيقاى نائمان ، ففتحت الباب ، وتبعت الصوت ، وكان قريباً منى ، فاطلعت من وسط منزلى على دار فسيحة ، وفى وسط الدار بستان كبير ، وفى وسط البستان شرب[3] نحو من عشرين رجلا ، قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة ، وجوار قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو ، ومزامير لا يحركنها ، وجارية جالسة ناحية ، وعودها فى حجرها ، وكل يرمقها ببصره ، ويوعيها سمعه وهى تغنى وتضرب ، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونى ، وكلما غنت بيتاً حفظته إلى أن غنت عدة ابيات وقطعت ، فعدت إلى موضعى ، يشهد الله وكأنما انشطت[4] من عقال ، وكأن لم يكن بى ألم ، وقد وعيت الأبيات وهى :

---

(١) تمور : تتحرك وتذهب وتجىء .
(٢) القطار : جمع قطر
(٣) جمع شارب .
(٤) أنشط من عقال : حل .

ما بال أنجم هذا الليل حائرة ... أضلت القصد؟ أم ليست على فلك
عادت سواريه[1] وقفاً لاحراك بها ... كأنما جثت صرعى بمعترك
هل من بشير بنور الصبح، تنقذنى ... بشراه من طول وجد غير متترك
فقد أجد التواء الليل لى شجناً ... وأضجعتنى تباريحى[2] على الحسك[3]
خذ ياشمول[4] كئوس الراح مترعة ... فسقنيها ولا تسأل عن الدرك
وهيج بألحانك الطنبور إن له ... على شجون المعنى سطوة الملك

ثم انصرفت فى صباح تلك الليلة، فلقيت صديقاً لى من اهل العلم قرطبيا سكن مالقة، فأخبرته الخبر، وأنشدته الشعر، ووصفت له الدار، فاغرورقت عيناه وقال: الدار للوزير فلان، والجارية فلانة البغدادية إحدى المحسنات من جوارى المنصور بن أبى عامر، وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور وتمزق ملكه!.

---

(١) جمع سار.

(٢) تباريح الشوق: توهجه؛ والتباريح الشدائد.

(٣) الحسك: نبات ورقه كورق الرجلة وأدق وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب.

(٣) شمول: اسم غلام صقلبى من صقالبة المنصور.

الطبيعة الأندلسية

— ١ —

بلغت فتنة الطبيعة فى الأندلس وجمالها حداً لا يوصف ، هذه الطبيعة الساحرة التى انتظمت الجبال والأنهار والوديان والحقول الواسعة وشواطىء البحار ، والمدن الجميلة ، مثل: قرطبة ، وغرناطة وطليطلة وأشبيلية ، وغيرها . وكانت مناظر الطبيعة فى الأندلس أجل من أن توصف ، فهذا وادى الأشات (١) ، وقد أحدقت به البساتين والأنهار ، وفيه يقول أبو الحسن ابن نزار :

لله ظلك والهجير مسلط ... قد بردت لفحاته الأنداءُ (٢)
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتطرف طرفها الأفياء (٣)
والنهر يبسم والحباب كأنه ... سلخ نضته حية رقشاء (٤)
فلذاك تحذره العيون فميلها ... أبدا على جنباته إيماء

وهذا وادى عذراء ، بمدينة برجة التى سميت « بهجة » لبهجة مناظرها ، وفيه يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى المتوفى عام ٤٦٠ هـ :

رياض تعشقها سندس ... توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا ... لها نظرة فتنت من نظر

(١) قرية صغيرة من أعمال غرناطة .
(٢) الهجير : شدة الحر ، ولفحة النار : الهبة من حرها .
(٣) الأفياء : جمع فىء . وهو ما كان شمسا فنسخه الظل ، والمعنى فى « تطرف طرفها الأفياء » أن الظل يرد عين الشمس عن التفتح فى موضعه ، فكأنها طرفت فأغمضت .
(٤) الحباب : معظم الماء ، والمراد هنا ظهره . السلخ : بالفتح اسم ما نزع عن الشاة من جلدها ، والفعل من باب نصر وقطع ، نضا الثوب (كنصر) خلعه . الرقشاء : الحية المنقطة بسواد .

وكل مكان بها جنة وكل طريق إليها سقر

وفيها أيضا قوله :

حط الرحال ببرجه وارتد لنفسك بهجه
فى قلعة كسلاح ودوحة مثل لجه (١)
فحصنها لك أمن وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها كعمرة وهى حجه

وقد ذكروا عن إشبيلية أنها من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، يعينهم على ذلك واديها الفرج ، ونادیها البهج ، ولها جبل الشرف ، وهو تراب أحمر مترامى النواحى ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، وذكروا عن نهرها أن المد يصعد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم ينحسر ، وفيه يقول ابن سفر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءاً فضم من الحياء إزاره

إلى غير ذلك من شتى مناظر الطبيعة الفاتنة الساحرة .

— ٢ —

وقد كان الأندلسيون أكثر الناس حباً للأندلس ، وافتتانا بمفاتنه وهياما بجماله وحسنه .

وقد بلغ من حبهم لبلادهم ، وغرامهم بمحاسنها ، ان أديباً من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد ، كتب إليه أحد الوزراء يرغبه فى النقلة إلى مراكش

(١) السلاح معروف ، والمعنى : أن القلعة — وهى فى الأصل موضع الخوف — صارت كأنها السلاح ، ويروى « كسلام » ولا معنى له .

فأبى وكتب إليه : « كيف أفارق الأندلس ! ! وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا بما حباها الله من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس : أفق صقيل، وبساط مدبج، وماء سائح، وطائر مترنم، فكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ ! فياسموءل الوفاء، ويا حاتم السماح، ويا جذيمة الصفاء (١)، كمل لمن أملك النعمة، بتركه فى موطنه، غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه . . الخ » .

ولما رقت حال أبى القاسم عامر بن هشام بقرطبة، وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين بمراكش قال، وذكر المتنزهات بقرطبة . وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس كنز الأدب :

يا هبة باكرت من نحو دارين ... وافت إلى على بعد تحيينى
سرت على صفحات النهر ناشرة ... جناحها بين خيرى ونسرين
ردت إلى جسدى روح الحياة وما ... خلت النسيم إذا ما مت يحيينى
لولا تبسمها عن نشر أرضكم ... ما أصبحت من أليم الوجد تبرينى

ومنهـــا :

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة ... من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر ... حفت بشطيه ألفاف البساتين (٢)

---

(١) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى، أول من قاد العرب وملك على قضاعة، وكانت منازله الحيرة والأنبار، وولايته من قبل أردشير بن بابك، وكان أبرص فعدل عن هذا الإسم فقيل الأبرش، وهو الذى يقال له نديم الفرقدين، وكان إذا شرب قدحا صب لها قدحين، وهو الذى تزوج الزباء، وكان لها وترعنده، لأنه قتل أباها عمرو بن الظرب العاملى فملكت بعده ابنته « الزباء » فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى، إلا قصير بن سعد، فلما كان عندها قطعت رواهشه واستزفته حتى مات، فخلفه على الملك ابن أخته عمرو بن عدى ثم احتال قصير على الزباء ودبر لها مكيدة أهلكتها .

(٢) الألفاف : الأشجار الملتفة، جمع « لف » مثلثا، وهو جمع لفاء، فيكون ألفاف جمع الجمع .

يا ليت لى عمر نوح فى إقامتها ... وأن مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا ... ت الراح نهباً ووصل الحور والعين
وإنما أسفى أنى أهيم بها ... وأن حظى منها حظ مغبون
يا آمرى أن أحث العيس عن وطنى ... لما رأى الرزق فيه ليس يرضينى
نصحت لكن لى قلباً ينازعنى ... فلو ترحلت عنه حله دونى
لألزمن وطنى طورا تطاوعنى ... قود الأمانى وطوراً فيه تعصينى

— ٣ —

وما أكثر ما لهج أهل هذه البلاد بالثناء عليها نثراً ونظما ، حتى يكاد قولهم يكون مقصوراً على وصف نعيمهم بها ، والتلهف على ما فاتهم منه حين اقصوا عنها ، ومن تمدحهم بمحاسنها قول ابن سفر المرينى[1] :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ... ولا يقوم بحق الأنس صهباء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها فى الوشى صنعاء[2]
أنهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحراً ... ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وإنما أرج الند استثير بها ... فى ماء ورد فطابت منه أرجاء[3]
وأين يبلغ منها ما أصفه ... وكيف يحوى الذى حازته إحصاء؟

---

(١) نسبة إلى بنى مرين . قال فى شرح القاموس : بنو مرين كأمير من ملوك الغرب ، منهم : أبو يعقوب عبد الحق وأولاده وطائفة من آل مرين .

(٢) بهج ككرم وفرح : سر . وكمنع : أفرح كأبهج .

(٣) الأرج : توهج ريح الطيب . روى هذا البيت فى نفح الطيب « استثار » ولا يكون هذا الفعل إلا متعديا فلا يناسب فى هذا الأسلوب إلا بناؤه للمجهول. الأرجاء : جمع رجا وهو الناحية .

قد ميزت من جهات الأرض حين بدت ... فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت ... وجداً بها إذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو والأغصان إصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض ... فهى الرياض وكل الأرض صحراء(١)

وقول ابن خفاجة (٤٥٠ — ٥٣٣ هـ):

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى مرأى وريا نفس(٢)
فسنا صبحتها من شنب ... ودجى ظلمتها من لعس(٣)
فإذا ما هبت الريح صبا ... صحت وأشواقى إلى الأندلس!

ويقول ابن الزقاق البلنسى فى بلنسية :

بلنسية إذا فكرت فيها ... وفى آياتها أسنى البلاد
وأعظم شاهدى منها عليها ... وأن جمالها للعين بادى
كساها ربها ديباج حسن ... لها علمان : من بحر وواد(٤)

ويقول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية :

كأن بلنسية كاعب ... وملبسها سندس أخضر
إذا جئتها سترت نفسها ... بأكمامها فهى لا تظهر

وفى قرطبة أو غرناطة يقول بعضهم :

---

(١) العذار : ما سال من اللجام على خد الفرس ، ولا يخلع اللجام من فرس فى الركوب إلا إذا أريد أن ينطلق مسرعا فرسه . ويقال : خلع فلان عذاره فى هذا الأمر : أى أطلق لنفسه حرية لا يردها راد .

(٢) الريا : الريح الطيبة .

(٣) الشنب : نقط بيض فى الأسنان .

(٤) علم الثوب : نقشه . يريد أن البحر والوادى كأنهما نقش وزينة لبلنسية ، التى شبهها بالثوب .

أغرناطة الغراء هل لى أوبة ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد(١)
سبتى الجانب الغربى منك غمامة ... وقعقع فى ساحات روضتك الرعد(٢)
ليالىك أسحار وأرضك جنة ... وتربك فى استنشاقها عنبر ورد(٣)

وقال ابن مالك الرعينى يصف الحمراء:

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ... ذهبت به للأنس والليل قد ذهب(٤)
ترى الأرض منها فضة فاذا اكتست ... بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب(٥)

ولابن خفاجة فى وصف منظر راقه:

لله نهـــر سال فى بطحاء ... أشهى ورود من لمى الحسناء(٦)
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب تحف بمقـــلة زرقاء(٧)

---

(١) غرناطة : بفتح أوله . قال فى معجم البلدان : والصحيح أغرناطة بالهمز فى أوله ، أسقطها العامة كما أسقطوها فى ألبيرة . فقالوا : لبيرة . قال ومعنى غرناطة رمانة بلسان أهل الأندلس ، وهذه البلدة هى ثالثة عواصم الأندلس بعد قرطبة وإشبيلية ، وقد ازدهرت فيها مملكة بنى الأحمر ؛ وهى على نهر شنيل فى الجنوب والشرق من قرطبة . ويروى : « أقرطبة » .

(٢) القعقعة : صوت الرعد .

(٣) العنبر هنا : الزعفران . والورد : الذى يشوب بياضه حمرة .

(٤) قوله ذهبت به للأنس أى صرفته نحو الأنس .

(٥) اللغة الفصحى فى الوقف على المنون المنصوب ان يكون بالألف ، ولكن ربيعة تقف عليه كما يوقف على المرفوع والمجرور .

(٦) اللمى : سمرة الشفة والمراد بها هنا موضعها .

(٧) الهدب : بالضم وبضمتين : شعر أشفار العينين ، واحدتها هدبة ، ومن هنا يبين وجه تأنيث الفعل فى قوله تحف .

ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب ايدى الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وهكذا رضى الأندلسيون عن بلادهم كل الرضا ، حتى عادت معايبها ـ فى نظرهم ـ محاسن ، ونقصها كمالا ، فاعتذروا عن ذلك أحسن اعتذار ، والتمسوا له العلل ، كما فى قول ابن الحسن بن حريق :

بلنسية قرارة كل حسن حديث صح فى شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر ومسقط ديمتى : طعن وضرب
فقل هى جنة حفة رباها بمكروهين : من جوع وحرب

وفى غرناطة ، يقول أبو بكر محمد بن شيرين السبتى ، معتذراً عن جمود الماء بها :

رعى الله من غرناطة متبوأ يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبى عند مارأى مسارحها بالثلج عدن جليدا
هى الثغر صان الله من أهلت به وماخير ثغر لا يكون برودا

وهذه الطبيعة السمحة ، والجو المعتدل ، إلى ما قدمنا من العناصر التى تمازجت على أديم هذه البلاد ، كان لها أثر ظاهر فيما عرف به أهل الأندلس من توقد الذهن ، ونفاذ الخيال . وجمـــوم النشاط ، والإقبال على الحياة ، وتوثب الرغبة ، وطفوح البشر . ومن أجل هذه الطبيعة أحب القوم بلادهم ، وجنوا بجمالها ، فشغلوا بمحاسنها ، وأطالوا فى وصف محامدها ، وتعصبوا لمزاياها ، وكثر ذلك منهم . حتى كان أكثر ماترى من نثرهم وشعرهم فى وصف هذا الجمال ، واستجلاء تلك المحاسن (١) .

---

(١) الأدب العربى الجزء الثالث لمحمود مصطفى .

الحياة الفكرية فى الأندلس

تمهيد :

١ — قوام الحياة الفكرية فى أى مجتمع أو شعب ، هو انتشار الثقافة إلى حد بعيد انتشاراً يجعل فى استطاعة كثير من الناس أن يفكروا بعقولهم ، لا عن تقليد أو متابعة للحياة فى سيرها الوئيد ، ويضاف إلى ذلك الفكر الحر واشتغال رجال من أفذاذ العلماء بعلوم الفلسفة التى تكون العقل المستنير الواعى المدرك لكل ماحوله من مظاهر الحياة والوجود ، الدائب على تسخير الحياة للإنسان ، لا تسخير الإنسان للحياة ؛ والحياة الفكرية مع ذلك لابد لها من ذيوع الحرية فى المجتمع ليستطيع كل إنسان أن يفكر بعقله كما يحب أن يفكر ، وأن يبحث كما يريد البحث ، وأن يستنتج ما شاء له التفكير ، ونستطيع أن نقول : إن ذيوع الثقافة فى الأندلس أمر مسلم ، وسنتحدث بتفصيل عن ألوان العلوم والفنون والآداب التى عرفت وذاعت فى الأندلس بعد ذلك بقليل ، أما حرية التفكير ومدى انتشار مباحث الفلسفة فى الأندلس فيهمنا أن نتحدث عنهما بشىء من التفصيل .

لقد كانت الثقافة العامة ذائعة فى الأندلس ، ومع ذلك فقد كان للأندلسيين نصيب كبير فى العلوم والآداب والفنون ، وتعلق ظاهر بالعلوم الشرعية كالتفسير وخدمة الحديث والفقه والأصول ، وكذلك العلوم العربية كالأدب والنحو واللغة ، فظهر فيهم ابن عبد ربه الأندلسى صاحب كتاب «العقد الفريد» الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى ، وابن سيده صاحب المخصص ؛ وقد عنوا عناية فائقة بالتاريخ ، ظهرت فى أدبهم من نثر وشعر ، وبرز فيه ابن الأفطس وابن حيان وابن بسام وابن بشكوال ، هذا كله عدا معرفتهم بفنون الطب والنبات والكيمياء والعمارة والموسيقى ، وهذا عدا ما كانوا يمتازون به من ذوق لطيف ، وأذن ناقدة ، وبصر بمحاسن الكلام وحسن تميزه .

ويقول صاحب نفح الطيب : إن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لها حظاً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن (١) . ويذكر المقرى فى مواضع من كتابه : أسماء بعض من اشتهروا بالتنجيم كأبى عبيدة مسلم بن أحمد المتوفى فى أواخر القرن الثالث وغيره .

وإذا نحن أردنا أن نبحث الحركة الفكرية والفلسفية فى الأندلس ، فعلينا أن نخرج إلى نطاق أوسع فى البحث والاستقصاء .

٢ — لم تكن فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى آراء وبحوث فى الفلسفة ، ولم يعرف سكان البلاد القدماء ولا علماؤها شيئا عن فلسفة الإغريق ، وكانت تقيم بها سلالات آرية ، لم تحصف عقولها ، ولم تخرج عن بداوتها الأولى ، ولم يرتفع فكرها إلى أفق الفلسفة ، وكانت تقيم معها سلالات حامية أبعد ما تكون عن الفلسفة وعن التفكير العقلى ، وسلالات سامية اختلطت بالبربر ، وشغلت بالتجارة والملاحة ، فأنى تطبع عقولها على الفلسفة ؟ ثم هذه القبائل الآرية المتبربرة كالسلت والفندال والقوط كانت تهاجم البلاد كرة بعد أخرى ، فلم يكن يستتب فيها أمن ، ولا يفرغ فيها عقل إلى التفكير ، وكانت البلاد مع هذا وهذا تدين بالوثنية فلم تشع فيها هداية السماء وشعاع الوحى المسيحى إلا بعد الميلاد بقرون ، أى نحو عام ٥٨٩ م ؛ والإغريق الذين أقاموا فيها هاجروا إليها قبل الميلاد بخمسة قرون أو نحو ذلك ، أى

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ .

أنهم هاجروا إليها قبل أن تنمو الفلسفة الإغريقية وتزدهر .

وامتزاج هذه الأمم فى اسبانيا — وهى على مارأيت من بعد عن الفلسفة وعن البحث المطلق — يحتاج إلى زمن بعيد ؛ حتى تخرج منها أمة واحدة مبتكرة مفكرة .

كانت إذن بلاد الأندلس خالية من العلوم فلم ينبغ منها فى القديم عالم ، وكانت عاطلة من الفلسفة فلم يخرج منها فيلسوف . بيد انه كان فيها طلاسم قديمة ، وكان بها سحرة وكهان على عهد حكم الرومان ، وكانت آية السحر عندهم أن يبنوا قنطرة ، أو يضعوا طلسما أو يحركوا آلة بالهواء .

وعندما فتح العرب الأندلس واستقروا فيها ، وذاعت العلوم عندهم ، وكثرت هجرتهم إلى المشرق ، وهجرة أهل المشرق إليهم ، كانت الفلسفة وترجمة علومها ذائعة فى المشرق وخاصة فى بغداد وشمال الجزيرة الفراتية ، ومن ذلك الحين بدأ الأندلسيون يتصلون بالفلسفة ومباحثها وعلومها ؛ وإن كانت العلوم السائدة فى الأندلس هى العلوم اللغوية والدينية والأدبية ، فضلا عن أن اختلاط الأمم والعناصر بعد الفتح لم يكن قد أتيح له الوقت الكافى بعد ليثمر فلسفة وفكراً حراً ، بيد أنه كان هناك أفراد يذهبون إلى بلاد المشرق ، فيطلعون على ما هنالك من علم وفلسفة ، ثم إذا جاء إلى بلاد المغرب أظهر ذلك أو كتبه ، وكان الذين يظهرون ذلك يجدون مقاومة وتشهيراً من الأدباء والفقهاء ؛ رحل من المغرب إلى المشرق أبو عبيدة مسلم بن أحمد ابن أبى عبيدة البلنسى المعروف بصاحب القبلة ، فسمع بمكة من على بن عبد العزيز ، وبمصر من المزنى والربيع بن سليمان المرادى ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وجماعة سواهم — وكان عالما بالنجوم وحركات الكواكب وأحكامها وحسابها ، وقد لقى عنتا من نظرائه من الأدباء والفقهاء ، فقد عابوا مذهبه ، وأنكروا عليه ، وشنعوا به ، وممن شنع عليه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأديب الأندلسى صاحب «العقد الفريد» المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فقد قال فيه :

أبا عبيدة والمسؤول عن خبر ... يحكى ويخبر أسرارا للذى سألا
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا ... ولم يصب رأى من أرجى ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة ... وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت يرزقنا ... لا بل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق فى فلك ... بهم محيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كرية خف السماء بها ... فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
فإن كانون فى صنعا وقرطبة ... برد وأيلول يذكى فيهما الشعلا
هذا الدليل ولا قول حزرت به ... من القوانين يجلى القول والعملا
كما استمر ابن موسى فى غوايته ... توعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما ... إنى كفرت بما قالا وما فعلا

فترى ابن عبد ربه فى هذه القصيدة الساخرة يهزأ بأبى عبيدة ويفند رأيه ويبطل مذهبه ، وينعى عليه غروره وشذوذه ، فهو يلومه على ان عرض نفسه للسخرية والتهمة ، وهو يعتب عليه أن شذ عن جماعة الفقهاء والأدباء وعن إجماعهم على تحريم النظر فى ضلالات الحكمة ومريبات الفلسفة والكلام ، ثم هو ينبهه على خطأ رأى المرجئة ومذهب المعتزلة ، وينعى عليه أن ولى وجهه شطر بيت المقدس راصدا للنجوم ناظرا فى الأفلاك ، وكيف ؟ ولم يتوجه إليها؟ وقد بدلت القبلة الأولى منذ فجر الإسلام ، ثم هو يذكر آراءه ويعود عليها بالنقض .

وقد كان بدء ظهور الفلسفة فى الأندلس فى منتصف القرن الثالث الهجرى.

علوم الفلسفة فى الأندلس :

وجدت الفلسفة هناك أولا مقاومة شديدة ، ومع ذلك فقد استمرت تخطو وئيدة وئيدة ، وكان أول ماظهر من فروع الفلسفة : علم الفلك والنجوم ، ثم تلاهما علم الطب فعلم الكلام . . ولما بزغت الحضارة الأندلسية فى عهد

عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) شجع العلوم والفنون والآداب واشترى الكتب الثمينة وأكرم وفادة العلماء الذين رحلوا إليه من الشرق ، وكان ابنه الحكم رئيساً لمعاهد قرطبة ومكتباتها ونواديها العلمية والأدبية ، أى أنه كان بمثابة وزير للمعارف فى حكومة الناصر ؛ وقد كان لنشأته بين أمهر الأساتذة وعلماء العربية وأدبائها أثر فى ميله إلى الثقافة والآداب ، واتصل الحكم برجال التفكير الأندلسى ، وغرس ذلك فى نفسه حب الإطلاع والإقبال على الكتب والسخاء فى أمور العلم والثقافة وعلى العلماء والأدباء ، وحاكاه فى ذلك الأمراء والولاة .

وتولى الحكم الخلافة (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ : ٩٦١ - ٩٧٦م) ، فطلب من القاهرة وبغداد وشتى العواصم المخطوطات فى الفلسفة والرياضة وعلوم العربية والدين ، وكان له فى جميع بلاد الشرق عمال يجلبون له المؤلفات العربية والقديمة ، وقد بعث بألف دينار لأبى الفرج الأصفهانى ليبعث له بنسخة من كتابه « الأغانى » ، وكان للحكم مكتبة عظيمة قيل إنها كانت تحتوى على أربعمائة الف مجلد ، وقيل ستمائة الف ، وكانت فهارسها تبلغ اربعة واربعين فهرسا ليس فيها إلا ذكر أسماء المؤلفات ، وكان الحكم يطالع الكتب ويعلق عليها بخطه ويذكر شيئا من حياة المؤلفين ، وقل ان كان يوجد كتاب فى مكتبته ليس له فيه تعليق ، وقد قلده الشعب عامتهم وخاصتهم فى حب الثقافة . وذاعت كتب الفلسفة ومذاهبها ، وكان للطب فى الأندلس اربع جامعات كبيرة ، وكان فى قرطبة وحدها اكثر من ثمانين مدرسة ، منها مدرسة جامع قرطبة الكبير ، التى كان يلقى فيها « القالى » مجالسه الأدبية ودروسه اللغوية ، وكان الحكم يعقد الندوات العلمية والأدبية فى قصره ، ويجتمع بأفذاذ العلماء يجادلهم ويناظرهم ، كما كان يشجع الشعراء ويثيبهم : وطار من اجل ذلك صيت العرب فى الأندلس .

وقد أعجب أهل أوربا بعلوم العرب وحضارتهم ، وأقبلوا على الأندلس يتعلمون فى جامعاتها ، ويتتلمذون على العلماء العرب ، ويقرأون فى مؤلفاتهم ، ويترجمونها إلى لغاتهم ، ويتولون المناصب الرفيعة فى بلادهم ، حتى إن بابا روما

جوبرت سلفستر الثانى الذى ولى البابوية عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٦ م كان ممن تعلموا فى الأندلس على أيدى الأساتذة المسلمين .

وفى عهد الناصر والحكم نبغ بعض الفلاسفة ، ومنهم : ابن التيمية من أهل قرطبة وكان بارعا فى النجوم والطب وشتى الثقافات . وكان ممن رحل إلى المشرق وتوفى عام ٣١٥ هـ[١] ، ومنهم : السرى عبد الله بن محمد ، وكان عالما بالعدد والهندسة وتوفى نحو عام ٣٧٠ هـ ، ومنهم : محمد بن إسماعيل المتوفى عام ٣٣١ هـ ، وقد رحل إلى المشرق وبرع فى الطب والنجوم ؛ وفى الأدب والشعر والموسيقى ، وكذلك أبو بكر بن أبى عيسى ، وكان إماما فى الهندسة والنجوم وكان يعلمها[٢] .

ولما توفى الحكم خلفه ابنه هشام المؤيد وكان صغيراً يبلغ العاشرة من عمره ، وكان لحاجبه المنصور بن أبى عامر سلطان عليه وعلى الدولة ، فعمد المنصور إلى مكتبة الحكم وفتشها وأخرج منها كتب الفلسفة وأحرقها بمشهد الفقهاء ، وبهذا أخذت الفلسفة فى الانكماش ، وسكن الفلاسفة بعد أن تحركوا فى عهد الناصر والحكم ، وظلت الفلسفة إلى آخر عصر الدولة الأموية عام ٤٢٨ هـ تلقى مقاومة واضطهادا شديدين .

ومن ثم نرى كيف أن الفلسفة نشأت فى الأندلس متأخرة مستعارة من الشرق ، وكيف قضت نصف قرن مكروهة مضطهدة ، ثم نصفاً آخر حرة آمنة ، ثم نصفاً ثالثاً تلقى فيها المقاومة والعسف .

وفى عهد ملوك الطوائف شغلت الفتن ملوك قرطبة عن تعقب الفلاسفة ومحاكمتهم ؛ فاستعادت حريتها ونشاطها ، ومع ذلك فقد بيعت المكتبات العامة

---

(١) ١٠١ طبقات الأمم لصاعد

(٢) ١٠٢ المرجع

والخاصة التى كانت تزين قصور قرطبة - بأبخس الأثمان ، وتنا ولها الناس وقرأوا فيها الكثير من بحوث الفلسفة التى نجت بعض مؤلفاتها من عسف ابن أبى عامر وأصحابه ، فأمن الناس وأظهروا ما لديهم فى الفلسفة من كتب ، وأخذوا يهتمون بالعلم الرياضى وصناعة المنطق ، دون العلم الطبيعى والعلم الإلهى ، وصاروا يجادلون ويناظرون فى مسائلها ، ونبغ فيها فى هذا العهد وفى أهم عصر الدولة الأموية الكثير من الفلاسفة ، من أشهرهم :

١ — الإقليدى عبدالرحمن بن إسماعيل ، وكان متقدما فى الهندسة والمنطق ، وكان أبوه احد وجوه قرطبة وولى الحسبة للحكم ، وقد اختصر الإقليدى كتب أرسطو المنطقية الثمانية فى كتاب لم يصلنا[١] .

٢ — أبو عثمان[١] سعيد بن فتحون السرقسطى ، وقد أصيب بمحن شديدة فى عصر ابن ابى عامر ، ولما اطلق سراحه هاجر إلى صقلية وتوفى بها عام ٤١٠ هـ ، وله رسالة فى الموسيقى ورسالة شجرة الحكمة فى المدخل إلى علوم الفلسفة .

٣ — المجريطى[٢] مسلمة بن احمد المتوفى عام ٣٩٨ هـ ، وكان إمام الرياضيين فى الأندلس فى وقته ، مع مهارة فى الفلك ، وكان يدمن المطالعة فى كتاب « المجسطى » لبطليموس ، وقد اختصر تعديل الكواكب من زيج البتانى[٣] وزاد فى زيج الخوارزمى[٤] جداول فلكية كثيرة ، وحول تاريخه الفارسى إلى التاريخ العربى ، وتتلمذ عليه الكثيرون .

---

(١) ١٠٦ طبقات الأمم

(٢) ١٠٧ طبقات الأمم لصاعد .

(٣) هو محمد بن جابر المتوفى عام ٣٠٧ هـ وينسب إلى بتان من أعمال حران ، وقد نبغ فى الهندسة والنجوم .

(٤) هو محمد بن موسى الخوارزمى من علماء الهيئة وكان خازن دار الحكمة للمأمون ، وله زيجان فلكيان

٤ — محمد بن الحسن وكان بصيرا بالطب والمنطق وسواهما، وتوفى عام ٤٢٠ هـ.

٥ — الكرمانى[١] عمر بن عبد الرحمن القرطبى (٣٦٨ — ٤٥٨ هـ)، رحل إلى المشرق وتعلم فى مدارس حران الهندسة والطب، ثم عاد إلى الأندلس واقام بسرقسطة، ويعد من الفحول فى الطب والهندسة والحساب، وهو أول من أدخل «رسائل إخوان الصفاء» فى الأندلس ولم يعرف احد ادخلها قبله فى هذه البلاد، فقرأها الكثيرون[٢]

٦ — هشام ابن احمد الطليطلى الكنانى وقد برع فى المنطق والهندسة والكلام، وتوفى نحو ٤٥٤ هـ.

٧ — الإمام الوزير ابن حزم على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٣٨٤ — ٤٥٦ هـ[٣]) ولد فى بيت عريق فى قرطبة وكان والده وزيرا للمنصور بن أبى عامر ولابنه المظفر بعده، وكان أخوه أبو محمد وزيرا للمستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وقد تعلم ابن حزم على مشاهير العلماء والفلاسفة، ونبغ فى علوم الشريعة واصول الدين واللغة والأدب والتاريخ، وعنى بالمنطق عناية خاصة وألف فيه كتاب «التقريب» وله «الفصل فى الملل والنحل» وكتاب «مراتب العلوم» وكثير من المؤلفات التى تبلغ أربعمائة مؤلف.

وكان ابن حزم شافعى المذهب، ثم اتبع مذهب داود الظاهرى وأفرط فى الدعوة له، وله حظ كبير فى علوم اللغة والأدب، وكان شاعراً، ويروى له:

---

(١) ١٠٩ طبقات الأمم.

(٢) هذه الرسائل إحدى وخمسون مقالة فى الفلسفة ألفها فى البصرة جماعة من الفلاسفة فى منتصف القرن الرابع وحببوا فيها الفلسفة إلى الناشىء، وذكروا فيها أن الكمال لايتم إلا بتآخى الدين والفلسفة، ومن زعمائهم: زيد بن رفاعة والمقدسى

(٣) راجع ص ١١٧ طبقات الأمم لصاعد

انا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيبى ان مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى الشهب
ولى نحو العراق صبابة ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب

ويقول فيه المراكشى : « هو أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله احد ، ، وقد كثر اهل مذهبه واتباعه اليوم عندنا بالأندلس » .

وقد عاش ثريا مبجلا ، حتى مات عن إحدى وسبعين سنة ، وهو أحد الأفراد الذين وقفوا أنفسهم على تحصيل العلم ونشره ، وقيل فيه : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام . ويصفه بعض معاصريه فيقول : وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ والتدين ، وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وله مؤلفات كثيرة فى الحديث والأصول ، والأخلاق والسير ، والأنساب . ومن أشهر كتبه غير كتاب الفصل : شرح الموطأ للامام مالك ، والجامع فى صحيح الحديث ومداواة النفوس ، والمعروف بالأخلاق والسير . وغير ذلك كثير ، ولابن حزم تراجم فى كتاب الصلة لابن بشكوال وفى كتاب بغية الملتمس للضبى ، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفى طبقات الأمم لصاعد ، وغير ذلك من المراجع .

ومن فصوله فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل (١) » فصل كتبه فى الكلام على من انكر الشرائع من المنتمين (٢) إلى الفلسفة (٣) :

---

(١) الفصل : الفروق أو الأقضية والأحكام ، جمع فصلة ، والملل : الأديان والشرائع جمع ملة . والنحل المذاهب وأصلها الدعاوى جمع نحلة ، والكل كقطعة وقطع وفرقة وفرق ، وهذا المركب بجملته أصبح علما على هذا الكتاب .

(٢) من الانتماء وهو الانتساب والاعتزاء .

(٣) أصلها كلمة يونانية مركبة من كلمتين . هما (فيلوس) أى محبة و(سوفيا)

الفلسفة ـ على الحقيقة ـ إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه(١) بتعليمها، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس، بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية (٢) وهذا نفسه لاغيره هو الغرض فى الشريعة (٣) (الإسلامية). هذا مالاخلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة. فيقال لمن انتمى إلى الفلسفة بزعمه، وهو ينكر الشريعة بجهله — على الحقيقة — بمعانى الفلسفة (٤) وبعده عن الوقوف على غرضها ومعناها: أليست الفلسفة(٥) بإجماع من الفلاسفة، مبينة (٦) للفضائل من الرذائل. موقفة على البراهين المفرقة بين الحق والباطل؟ فلابد من نعم ضرورة (٧). فيقال له: أليس الفلاسفة كلهم قد قالوا: إصلاح العالم بشيئين: أحدهما باطن والآخر ظاهر

أى الحكمة، فيكون معناها: محبة الحكمة، والفيلسوف هو محب الحكمة، وقد آثر الحكماء وصف أنفسهم بمحبة الحكمة دون الحكمة نفسها التى هى العلم بحقائق الأشياء، لأن الحكيم الحق هو الله سبحانه وتعالى: وهى نوعان: نظرية وهى إما إلهية وإما طبيعية وإما رياضية، وعملية وهى الأخلاق والتدبير المنزلى والتدبير السياسى. ويرى طائفة من القدماء أن هذا النوع هو ثمرة النوع الآخر والغرض منه: وسيجرى على ذلك ابن حزم فى هذا الفصل.

(١) جهته وناحيته

(٢) فعيلة بمعنى مفعولة أى المرعية من الرعاية وهى السياسة والتدبير والحفظ

(٣) فى بمعنى من أى الغرض من الشريعة.

(٤) أى بسبب جهله بمعانى الفلسفة على الحقيقة، أى حالة كون جهله كائنا على الحقيقة، فى الكلام تقديم وتأخير كما رأيت.

(٥) مقول القول، والاستفهام هنا التقرير بما بعد النفى لأنه إنكار للنفى.

(٦) أى مميزة ومفرقة، من بان الشىء بمعنى افترق وانفصل.

(٧) أى إذا قيل له ذلك فلا مفر ولا مناص من أن يقول نعم، وضرورة منصوبة على التمييز لأن المعنى: أن حتمية ذلك الجواب حاصلة من جهة الضرورة.

فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة (١) عن تظالم (٢) الناس وعن القبائح ، والظاهر هو التحصين بالأسوار ، واتخاذ السلاح لدفع العدو الذى يريد ظلم الناس والإفساد ، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا : إصلاح الأجساد بالطب ؟ فلابد من نعم ضرورة .

فيقال لهم : فهل صلاح العالم ، وانكفاف الناس (٣) عن القتل الذى فيه فناء الخلق وعن الزنا الذى فيه فساد النسل ، وخراب المواريث ، وعن الظلم الذى فيه الضرر على الأنفس والأموال ، وخراب الأرض ، وعن الرذائل من البغى والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والفسق والخيانة ، وسائر الرذائل ، إلا لشرائع زاجرة (٤) الناس عن كل ذلك ؟ فلابد من نعم ضرورة ، وإلا وجب (٥) الإهمال الذى فيه فساد كل ما ذكرنا . فإذا (٦) لابد من ذلك ، ولولا ذلك (٧) لفسد العالم كله ، ولفسدت العلوم (٨) كلها ، ولكان

---

(١) المانعة والناهية ، وإسناد الزجر إلى الشرائع التى يزجر بها مجاز عقلى .

(٢) أن يظلم الناس بعضهم بعضا ، وهذه الصيغة تدل على المشاركة كالتقاتل والتضارب .

(٣) امتناعهم ، من كفه إذا منعه .

(٤) يعنى : إلا تقتضى ومعلول هذا الصلاح لشرائع .

(٥) أى وإن لايكن انكفاف الناس عن الرذائل مقتضى لشرائع ، ثبت ولزم إهمال الشرائع لما به إصلاح العالم وتضييعها له .

(٦) أى فإذا لزم الإهمال المؤدى الى الفساد وترتب على نفى أن يكون إصلاح العالم مقتضى للشرائع وهو باطل ، فلا بد ولا مفر من جعله مقتضاها ولازما لها لتنزههما عن ذلك .

(٧) اى ولولا اقتضاء الشرائع لما به صلاح العالم ،

(٨) أى من حيث فقدانها ثمرتها التى عرفتها قبل .

الإنسان قد بطلت فضيلة الفهم (١) والنطق والعقل الذى فيه ، وصار كالبهائم فلا تخلو (٢) تلك الشرائع من أحد وجهين : إما أن تكون صحاحا من عند الله عز وجل الذى هو خالق العالم ومدبره (٣) كما يقول أصحاب الشرائع ، وإما أن تكون موضوعة (٤) من أفاضل الحكماء لسياسة الناس بها (٥) ، وكفهم عن التظالم والرذائل . فإن كانت موضوعة كما يقول هؤلاء المخاذيل (٦) فقد تيقنا أن ما ألزموا الناس من ذلك كذب لا أصل له ، وزور مختلق ، وإيجاب لما لا يجاب ، وباطل لا حقيقة له ، ووعيد ووعد (٧) ، وكلاهما كذب . فإن كان ذلك كذلك (٨) فقد صار الكذب (٩) الذى هو أرذل الرذائل ، وأعظم الشرور ، لا يتم صلاح العالم الذى هو الغرض من طلب

---

(١) اى انتفت الفضيلة التى هى الفهم فالإضافة بيانية ، والفهم وماعطف عليه بمعنى واحد . وذلك أن فائدة العقل هى النظر وتحصيل العلم . وقد بطلت العلوم التى هى مطلوب العقول وثمراتها ببطلان الغاية والغرض منها الذى هو الفضائل على تقديره إهمال الشرائع للفضائل . فثبت بطلان ذلك وثبت أن الفضائل هى مقتضى ولازم للشرائع .

(٢) أى فإذا سلم ذلك فلا تخلو الشرائع .

(٣) التدبير : التصريف على مقتضى الحكمة .

(٤) أى مبتدأة مخترعة باصطلاح الحكماء .

(٥) السياسة : التدبير .

(٦) جمع مخذول من الخذلان ضد التوفيق .

(٧) الوعيد : الإنذار والتهديد والمشهور اختصاص الوعد بالخير كاختصاص الوعيد بالشر . وهو متعين فى مثل هذا التعبير

(٨) اى فإن كان ما ألزموا الناس به على تقدير أن الشرائع من وضع الحكماء كما قلنا من أنه كذب وزور الخ .

(٩) المراد به كذبهم على الله فى نسبة الشرائع إليه على هذا التقدير ، وكذب ماتضمنته من الوعيد بالعقاب والوعد بالثواب الأخرويين .

الفضائل إلا به . وإذا كان ذلك كذلك فقد صار الحق باطلا ، والصدق رذيلة ، وصار الباطل حقا وصدقا ، والكذب فضيلة ، وصار لا قوام للعالم أصلا إلا بالباطل ، وصار الكذب نتيجة الحق (١) وصار الباطل ثمرة الصدق (٢) وصار الغرور والفسق والخديعة فضائل ونصيحة ، وهذا أعظم ما يكون من المحال والممتنع والخلف (٣) الذى لامدخل له فى العقل (٤) .

وفى هذا النص نجد ابن حزم يذهب فى الاستدلال على قيام شرائع من عندالله سبحانه وتعالى ، والرد على من ينتسبون كذبا إلى الفلسفة ويزعمون أن الشرائع من وضع الحكماء ، خلافا لما توجبه أصول الفلاسفة جميعاً من صحة الشرائع ، إلى أن الفلسفة تتفق مع الشريعة فى أن المقصود من كل منهما هو استعمال الفضائل فى الدنيا لتصل بالناس إلى إصلاح النفوس وسلامة الناس فى المعاش والمعاد . فيقال لمن أنكر الشريعة ممن ينتسبون إلى الفلسفة بزعمهم وهم أجهل الناس بمعانيها : إن ما به هذا الصلاح وتلك السلامة إما أن يكون مقتضى الشرائع تفرق بين الحق والباطل وتبين الفضيلة من الرذيلة ، وتأمر بأسباب السلامة ، وتزجر وتنهى عن أسباب الهلاك ، وإما أن يكون فتكون الشرائع قد أهملت ذلك وأضاعته . ولزوم ذلك للشرائع محال لأنها منزهة عن التصنيع والإهمال . وذلك أن الإهمال فساد . والشرائع لاتقتضى الفساد وإنما تقضى الصلاح . فلابد إذن أن يكون مابه صلاح النفوس وسلامة الناس فى المعاش والمعاد مقتضى ولازما للشرائع لا لغيرها ، وإلا فسد العالم وفسدت المعارف كلها ؛ لأن ثمرة المعارف والغرض منها هى ذاك ، ولا انتفت كذلك

---

(١) هكذا فى الأصل

(٢) الظاهر ثمرته

(٣) الخلف بالضم الاختلاف ، والتناقض ان تكون النتيجة على خلاف المفروض وبالفتح الردىء من الكلام ، والظاهر هنا الأول .

(٤) كناية عن عدم قبول العقل له .

فضيلة العقل الذى به المعرفة والعلم لبطلان ثمرة العلم والمعرفة إذن ، فإذا سلم ذلك فلا تخلو هذه الشرائع من أن تكون من عند الله خالق العالم ومدبره ومصرفه على مقتضى الحكمة والعالم بما يصلحه وما به سلامة الناس فى المعاش والمعاد . وإما أن تكون هذه الشرائع من صنع الحكماء ووضعهم ، إلا أنهم نسبوها كذباً وزوراً إلى الله سبحانه وتعالى ، فوعدوا الناس بثواب لا أصل له ، وتوعدوهم بعقاب لا حقيقة له ، كما هو مقتضى قول أهل الخذلان والبطلان ممن ينتسبون بزعمهم إلى الفلسفة ، وهم أجهل الناس بأغراضها ومعانيها ، وذلك يؤدى إلى محالات هى :

ا — أن يكون ما أوجبته الشرائع على الناس غير واجب عليهم لأنه كذب لا أصل له وباطل لا حقيقة له .

ب — أن يكون الكذب كهذه الشرائع الموضوعة لا يتم صلاح العالم الذى هو الغرض من الفضائل إلا به ، وبذلك يصير العالم الذى أقامه الله على الحق قائما على الباطل وعلى الكذب الذى هو أرذل الرذائل وأعظم الشرور .

جـ — وأن يصير الحق باطلا بواسطة أنه أمر به وحمل عليه الباطل ، والصدق رذيلة لأنه إنما أمرت به شرائع كاذبة .

د — وأن يصير كذلك الباطل كالشرائع الموضوعة حقاً وصدقاً بواسطة أن الحق ثمرته ومقتضاه ، ويصير الكذب فضيلة لأدائه إليها .

هـ — وأن يصير نتيجة الكذب الحق وثمرة الباطل الصدق .

و — وأن يصير خصال الغرور والغش والخديعة إلى أضدادها فتصير من باب الفضائل والنصيحة . وهذا كله أعظم ما يكون من المحال الذى يمتنع قبوله فى العقل ، فما استلزم ذلك من كون الشرائع من وضع الحكماء هو كذلك فى الإحالة والبطلان ؛ لأن ما استلزم المحال فهو محال .

٧ — عبدالرحمن بن أحمد اللخمى ، وقد درس كتب جالينوس وأرسطو

ومهر فى الطب والأدوية ، وألف فيها كتاباً جليلا لانظير له ، وتوفى حوالى عام ٤٧٠ هـ .

٨ — ابن خلدون أبو مسلم عمرو بن أحمد الحضرمى ، من أشراف أهل إشبيلية فى علوم الفلسفة ، مشهوراً بعلم الهندسة والطب والنجوم ، وتوفى عام ٤٤٩ هـ .

٩ — ابن السمح (١) أبو القاسم أصبغ بن محمد ؛ وكان بارعا فى العدد والهندسة والفلك وحركات النجوم والطب ، ومن كتبه : المدخل إلى الهندسة فى تفسير كتاب إقليدس ، وكتاب ثمار العدد ، وكتاب طبيعة العدد ، وكتابه الكبير فى الهندسة ، وكتاباً فى الآلة المسماة بالاسطرلاب ، ومن كتبه : زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند ، وكان من تلامذة المجريطى ، وتوفى فى غرناطة سنة ٤٢٦ هـ عن ست وخمسين سنة ، وميلاده عام ٣٧٠ هـ .

١٠ — ابن الصفار (٢) أحمد بن عبدالله بن عمر ، وكان مشهوراً فى العدد والهندسة والنجوم ، وقعد فى قرطبة لتعليم هذه العلوم ، وأدركته الفتنة فى قرطبة أيام ابن أبى عامر ، ثم خرج منها إلى دانية عاصمة الأمير مجاهد العامرى على الساحل الأندلسى الشرقى وتوفى بها ، وكان له أخ اسمه محمد ، شهر بعمل الاسطرلاب (٣) .

---

(١) ١٠٧ و ١٠٨ طبقات صاعد .

(٢) ١٠٨ المرجع .

(٣) لفظة يونانية مركبة من « استرون » بمعنى كوكب ، و « لافى » بمعنى أخذ ، فمعناها أخذ الكواكب ، ويفسرها العرب بميزان الشمس أو ميزان الكواكب ، وهى آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من أحوال الكواكب على أسهل طريق وأقرب مأخذ ، كارتفاع الشمس وسمت القبلة وعرض البلاد وسوى ذلك ، وأول من صنع الاسطرلاب بطليموس ، وأول من علمه فى الإسلام

١١ — ابن برغوث المتوفى عام ٤٤٩ هـ وكان بارعا فى العلوم الرياضية(١) .

١٢ — أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى عام ٥٠٠ هـ، وهو من الأطباء ، وله فى الطب كتب .

١٣ — ابن شهر(١) مختار بن عبد الرحمن ، كان بصيراً بالهندسة والنجوم بليغاً شاعراً متكلما ، ولى قضاء المرية فى آخر دولة زهير العامرى سنة ٤٢٧ هـ وتوفى بمدينة قرطبة عام ٤٣٥ هـ .

ومنهم ابن العطار (١) ، وابن الليث (٢) المتوفى فى بلنسية عام ٤٠٥ هـ ، وكان يتقلد فيها القضاء .. وابن حى (٢) الذى خرج من الأندلس عام ٤٢٢ هـ إلى مصر فاليمن ، وتوفى باليمن عام ٤٥٦ هـ .. وابن الجلاب (٣) ، وأبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده الأعمى ، وهو أعلم أهل قرطبة بالنحو واللغة والشعر ، وله كتاب المخصص ، وقد عنى بعلوم المنطق عناية كبيرة وألف فيها مؤلفا كبيراً وتوفى سنة ٤٥٨ هـ عن ستين سنة وميلاده نحو عام ٣٩٨ هـ ، والقاضى صاعد الأندلسى المتوفى عام ٤٦٢ هـ ، صاحب كتاب « طبقات الأمم » .

ومن الأطباء فى الأندلس : أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلى(٤) وابن الذهبى المتوفى ببلنسية عام ٤٥٦ هـ ، وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد(٥)

إبراهيم بن حبيب الفزارى ، وقيل إن الأوائل كانوا يتخذون كرة على مثال الفلك ويرسمون عليها الدوائر ويفسرون بها الليل والنهار ويصححون بها الطالع إلى زمن إدريس ، وأن ابنا لإدريس اسمه « لاب » هو الذى صنعها — وقد حلت فى عصرنا الآلات الحديثة محل الاسطرلاب .

أما الزيج الذى سبق ذكره فهو جدول يستدل به على حركة الأفلاك لأجل تقويم مواقعها ، وأقدم الزيجات : زيج بطليموس ، والزيج ينفع فى الأسفار البحرية وفى علم الهيئة .

(١) ١١١ صاعد الأندلسى (٢) ١١٣ المرجع .
(٣) ١١٤ المرجع . (٤) ١٢٩ صاعد .
(٥) ١٢٨ صاعد .

وكان ميلاده عام ٣٩٨ م ، وأقام فى طليطلة ، وسعيد بن محمد بن البغونش (١) (٣٦٩ - ٤٤٤هـ) وهو من أهل طليطلة ، ويوسف بن محمد (٣٤٥ - ٤٣٥هـ)(٢) والكتانى أبو عبد الله محمد بن الحسين(٣) (٣٤٠ - ٤٢٠) ومحمد بن عبدون ، وقد رحل إلى المشرق وعاد عام ٣٦٠ هـ وخدم المستنصر(٤) ويحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر وله فى الطب كتاش كبير فى خمسة أسفار ذهب فيه مذهب البونانيين فى الطب(٥) وسعيد بن عبد الرحمن بن عبد ربه ابن أخى محمد صاحب «العقد الفريد» ، وكان طبيبا نبيلا وشاعرا محسنا ، وله رجز طويل فى الطب ، وكان له أيضا بصر بالكواكب(٥) ، وأحمد وعن ابنا يونس(٦) ، وقد رحلا إلى المشرق عام ٣٤١ هـ ، وعاد منه عام ٣٥١ هـ ، فألحقهما الحكم بخدمته فى الطب ، واستخلصهما لنفسه من سائر الأطباء وعاش أحمد بعد أخيه طويلا ، وكان بارعا فى أمراض العين .

مقاومة الفلسفة فى الأندلس :

وفى عهد المرابطين لقيت علوم الفلسفة مقاومة شديدة ، فاحتفى الفلاسفة وسكتت مباحث الفلسفة ، ولما وصلت كتب الغزالى أمر على بن يوسف بن تاشفين بإحراقها ، وانقطع الناس عن الأبحاث الفلسفية والمجادلة فيها ، إلى أن ضعفت دولة المرابطين ، وفى عهد الموحدين استمرت مقاومة الفلسفة إلا فى عهد يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) الذى أطلق حرية الفلاسفة والمفكرين ، وكان عصره غرة فى جبين الحياة الفكرية فى الأندلس .

وكان يوسف هذا ملما بجميع فروع الثقافة ، مؤثرا للعلم ، محبا للأدب

---

(١) ١٢٧ صاعد .
(٢) ١٢٦ المرجع
(٣) ١٢٥ المرجع
(٤) ١٢٤ المرجع
(٥) ١٢١ المرجع
(٦) ١٢٤ المراجع .

واللغة ، مطلعا على التاريخ ، درس الطب ، وتعلم الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، وكانت له مكتبة فلسفية كبيرة ، وقرب إليه العلماء والفلاسفة ، فصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف المتوفى عام ٥٨١ تلميذ ابن باجة وأستاذ ابن رشد وصاحب القصة الفلسفية المشهورة : « حى بن يقظان » .. وقد قرب هذا الخليفة إليه ابن رشد ، فعينه عام ٥٦٥ هـ قاضيا فى إشبيلية ، وبعد ذلك بعامين عينه قاضيا فى قرطبة ، وفى سنة ٥٧٨ هـ عينه قاضيا للقضاء فى هذه المدينة ، وقد لخص ابن رشد له كتب أرسطو المنطقية الثمانية . وكان يجادل ابن طفيل وابن رشد فى مباحث الفلسفة حتى عظم شأنها فى عهـــده . وخلفه ابنه يعقوب (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) فقرب إليه الصالحين والزهاد وعلماء الحديث ، وأظهر الزهد والتقشف ، وأراد أن يجمع الناس على مذهب واحد يستمده من ظاهر الكتاب والسنة ، فأمر بإحراق كتب مذهب مالك ، وأمر العلماء بجمع الأحاديث الصحيحة فى كتاب واحد ، حمل الناس على حفظه وخافه الفقهاء ، ثم أمر بترك الاشتغال بالعلوم العقلية وعـــدم الخوض فى شىء منها ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة .

واشتد فى مقاومة الفلسفة وأصحابها ومال إلى التصوف ، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذين أحنقوه على الفلاسفة عامة وعلى ابن رشد خاصة ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد اندسوا بين هؤلاء المتصوفين ، وأخذوا يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحكم العداء فى نفس الأمير ، أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المخلصين له ، فجىء بهم وحوكموا أمام مجلس علنى ، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم ، وأسفرت المحاكمة عن نفيهم ، فنفوا إلى « أليسانا » .

وعلى أثر أمر الخليفة بنفى ابن رشد إلى « أليسانا » وبإحراق كتبه ، أذاع منشوراً شديداً من إنشاء عبد الله بن عياش ، شهر فيه بالفلاسفة ، وحذر الشعب من كتب الفلسفة ، وحرم على الناس الاشتغال بها . وهذا نصه :

« قد كان فى سالف الدهر قوم خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقر لهم

عوامهم بشفوف عليهم فى الأفهام ، حيث لا داعى يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا فى العالم صحفا مالها من خلاق ، مسودة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقا ، ويسيرون فيها شواكل وطرقا ، ذلكم بأن الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء مايزرون . ونشأ منهم فى هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب ، لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم التمويه والتخييل ، دبت عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قدمنا لهم على شدة حروبهم ، وعفى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثماً ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما . وما زلنا — وصل الله كرامتكم — نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة إلى مايقربهم إلى الله سبحانه ويدنيهم ، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة فى الضلال ، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ، لبس الإيمان منها بالظلم ، وجىء منها بالحرب الزبون فى صورة السلم ، مزلة للأقدام ، وهم يدب فى باطن الإسلام ، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم . فلما وقفنا منهم على ما هو قذى فى جفن الدين ، ونكتة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة ، وأبغضناهم

فى الله ، كما أنا نحب المؤمنين فى الله ، وقلنا : اللهم دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك . فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليـــل وبين الإلجام بالسيف ، فى مجال ألسنتهم ، والإيقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم . ولكنهم وقفوا بموقف الخزى والهون ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية فى الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التى بها يعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، متى عثر منهم على مجد فى غلوائه ، عم عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . أولئك الذين حبطت أعمالهم . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب فى صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم . . . إنه منعم كريم » .

ذلك هو المنشور الذى أمر الخليفة بإذاعته فى بلاد الأندلس والمغرب ، فكان له أسوأ الأثر فى الحياة الفكرية العربية والأندلس .

وظل ابن رشد وتلاميذه عاما فى المنفى حتى أذن الخليفة بإعادتهم فعادوا إلى الأندلس من جديد . وقد أمر الخليفة بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا الطب والحساب والقليل من علوم النجوم ، مما يتوصل به إلى معرفة أوقات الليل والنهار ؛ ولكنه لم يلبث بعد قليل أن نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، واستدعى ابن رشد إليه فى مراكش ، حيث توفى فيها فى آخر عام ٥٩٤ هـ ، وتوفى بعده بقليل الخليفة نفسه عام ٥٩٥ هـ .

وقد ظهر من الفلاسفة فى عهد المرابطين والموحدين ـ على الرغم من هذه المقاومة التى عرفنا أمرها من قبل ـ الكثير من الفلاسفة العبقريين ومن أشهرهم :

١ ــ ابن باجة السرقسطى ، ولقبه ابن الصائغ ، وكان طبيباً فيلسوفا مولعاً بالموسيقى ، وتوفى بفاس فى المغرب الأقصى عام ٥٣٣ هـ .

وابن الصائغ اسمه أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة ، وكان ميلاده فى سرقسطة وهى مدينة كبيرة تقع على نهر إبرو . وكانت من المدن الصناعية فى عهد الحكم العربى للأندلس ، وقد نشأ فيها العلماء والأدباء والفلاسفة . ومن فلاسفتها ابن فتحون ، المتوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى بصقلية ، وعبد الله بن أحمد المنجم ، المتوفى سنة ٤٤٨ هـ ، وأحمد بن سليمان بن الحاجب ، المتوفى عام ٤٧٠ هـ ، والكرمانى المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

وقد ولد ونشأ ابن باجة فى آخر عهد ملوك الطوائف وأوائل دولة المرابطين ، وبرع فى الطب والفلك والفلسفة ، وكان أبو بكر بن إبراهيم صهر على بن يوسف بن تاشفين واليا على المدينة ، فاتخذ ابن باجة جليسا له ووزيراً وفى عام ٥١٢ هـ انتقل ابن باجة إلى إشبيلية على أثر سقوط سرقسطة فى يد الفونس الأول ، وعكف فى إشبيلية على الاطلاع والبحث والتأليف ، ثم خرج منها إلى غرناطة ، فأقام بها حيناً ينشر الفلسفة ويعلمها ، ثم انتقل إلى فاس عاصمة بلاد المغرب الأقصى ، واتصل بالأمير يحيى بن تاشفين ، وظل مقيما بفاس حتى توفى عام ٥٣٣ هـ . وقد عاش ابن باجة يدافع عن آراء الفلاسفة ، ويناضل آراء الغزالى القائمة على نقد تعاليم فلسفة أرسطو وأتباعه كالفارابى وابن سينا ، ويدعو إلى معرفة الإنسان ذاته ، ومعرفة الطبيعة التى حوله . وله كتب كثيرة منها : رسالة الوداع ــ رسالة تدبير المتوحد ــ شرح كتاب السماع الطبيعى لأرسطو ــ كتاب اختصار الحاوى للرازى فى الطب ، وقد توفى الرازى عام ٣٢٠ هـ ، وسوى ذلك من مؤلفاته ، ورسالة الوداع التى ألفها ابن باجة ترجمت فى القرن الرابع عشر الميلادى إلى العبرية ، وفيها الكثير من آراء ابن باجة وفلسفته ، وقد كتبها قبل سفر طويل عزم عليه ، وبعث بها إلى تلميذ له ليكون على علم بفلسفته إذا قدر له أن لا يعود ، أما رسالة ابن باجة الأخرى « تدبير المتوحد » فهى أهم كتبه وأجلها ، ويقول

عنها ابن رشد : « أراد ابو بكر أن يختط خطة التدبير المتوحد فى هذه الأمة ولكنه لم ينجزها ، وكثير منها غامض لأنه أول من سار فى هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد » ؛ وفى المكتبة التيمورية جزء من هذا الكتاب ، وقد لخص هذه الرسالة موسى النربونى الإسرائيلى فى شرحه العبرى لرسالة « حى بن يقظان » ، وعلى هذا الملخص عول الباحثون ؛ وقد تحدث فيها عن التدبير السياسى وشئون الحكومة الكاملة ، وعن أفعال الإنسان، وعن الغاية من الأعمال الإنسانية ، ويعرف الفيلسوف بأنه إنسان إلهى سام ، وهو لا يقصد إلا أرفع الأعمال وأعلاها ذكراً ، وهو ممتاز بهذا عن جميع الناس ، إلى غير ذلك من مباحث هذه الرسالة التى تعطينا صورة صادقة عن فلسفة ابن باجة التى قامت على مناهضة آراء الغزالى الصوفية .

وقد وصف ابن طفيل ابن باجة بتوقد الذكاء وصحة النظر وصدق الروية وبأنه شغلته الحياة عن إخراج مكنونات علمه ، وبادره الموت قبل نضوج فلسفته ، وكان الفيلسوفان متعاصرين وكانت بينهما عداوة شديدة .

وقال فيه تلميذه أبو الحسن على بن عبد العزيز الغرناطى : « كان فى ثقابة الذهن ، ولطف الغوص على تلك المعانى الجليلة الشريفة الدقيقة ، أعجوبة دهره ، ونادرة الفلك فى زمانه ، فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة من عهد الحكم المستنصر ، فما انتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبيلا ، وما تقيد عند الناظرين فى تلك الكتب قبل ابن باجة إلا ضلالات كما تبدو عند ابن حزم ، وكان من أجل نظار زمانه ، وإنما انتهجت سبل النظر فى هذه العلوم بهذا الحبر وبما لك بن وهيب الأشبيلى » . . وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم ابن رشد (٥٢٠ — ٥٩٤) كما يقولون ، ومنهم على بن عبد العزيز الغرناطى الذى نزح عن الأندلس بعد وفاة أستاذه ، ومات بصعيد مصر فى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى . ولابن باجة شعر روى بعضه المقرى وابن خاقان وابن خلكان ، ومنه :

قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا فظل فى الليل مثل النجم حيرانا

راودته يستعير الصبر بعدهم
فقال : إنى استعرت اليوم نيرنا

ومنه :

لا والذى جعل الغصون معاطفاً
لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مر بى ريح الصبا من بعدهم
إلا شهقت له فعاد سعيراً

وقد كان نبوغ ابن باجة فى الفلسفة الطبيعية والهندسة وعلم الهيئة لا حد له ، ومن آرائه الفلسفية : أن العقل يمد الجسم بالحركة ، وأنه يسير فى مدارج حتى يتصل بالعقل الفعال ، وأن على الإنسان إدراك الصور المعقولة جميعاً وأن العقول الإنسانية خالدة ، وأن الناس لا يسمون إلى إدراك الحقيقة إلا فى القليل النادر ، وعلى الإنسان تصريف وجوه الحيل فى اكتساب المال ، إلى غير ذلك من آرائه . ويوازن الغرناطى بينه وبين مالك بن وهيب الاشبيلى (١) فيقول : « كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه إلا قليل نزر فى أول الصناعة الذهنية ـ المعقولات ـ ثم أضرب عن النظر ظاهراً فى هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات فى دمه لسببها » . وقد قلد ابن باجه فلاسفة الشرق كالفارابى وابن سينا ، وإن كان لم يترك لنا فلسفة كاملة تضارع ما للفارابى أولا بن سينا أو للغزالى .

٢ ـ ابن طفيل : أبو بكر أو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن طفيل ، الحكيم الأندلسى المشهور ، ولد فى « وادى آش » وهى قرية صغيرة من اعمال غرناطة تحيط بها الأنهار والبساتين ، وبجمال الطبيعة وسحرها فيها وصفت شعراً ونثراً فى الأدب الأندلسى .

---

(١) يصفه المراكشى بالمشاركة فى جميع العلوم ، والتحقق بكثير من أجزاء الفلسفة .

نشأ ابن طفيل فى ظلال دولة الموحدين ، وأكب على الدراسة والنظر فى علوم الأدب والدين ، ونبغ فيها ، ثم عشق كتب الفلسفة ومباحثها ، فتفرغ لدراستها والنظر فيها حتى أصبح من الواقفين على مذاهبها ، المطلعين على أسرارها ، المفتنين فى جميع فروعها من الطبيعيات والإلهيات ، واتخذ الطب مهنة ، وقربته مهنته من أمير قرطبة زمناً ، وسرعان ما اتصل بأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ملك الموحدين (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، وكان يوسف يشجع الفلاسفة ، ويجمع كتب الفلسفة ، ويدرس فروعها ، واختار الملك ابن طفيل طبيبه ووزيره ونديمه ، وفى مكتبة الملك الكبيرة طالع ابن طفيل من كتب الفلسفة الكثير ، وكان يقرب الفلاسفة والمفكرين من الملك ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نوه عنده بابن رشد ، ودعا ابن رشد إلى تلخيص كتب أرسطو ليوسف لما آنس فيه من جودة الذهن وصفاء القريحة ، ولما سمعه من شكوى الملك من غموض تراجم مؤلفات أرسطو ورغبته فى تلخيصها وتسهيل عباراتها وأغراضها وتقريب مآخذها ، وكان ابن طفيل شيخا وابن رشد فى عهد الشباب ..

وفى هذا الوسط كتب ابن طفيل رسالته « حى بن يقظان » ، التى أحدثت فى عالم الفكر ضجيجا عظيما ، ففى البيئات العربية كانت مصدراً هاماً لنظرية التوحيد التى بدأها ابن باجة ونماها ابن طفيل ، وفى البيئات الأوربية قد فازت أيضاً بحظ عظيم من الاهتمام ، فترجمها إلى العبرية موسى الناربونى فى منتصف القرن الرابع عشر وترجمها إلى اللاتينية « بوك » الإنجليزى ، ونشرها فى « أوكسفورد » مع النص العربى فى سنة ١٦٧١ ثم فى سنة ١٧٠٠ . ثم ترجمت هذه الترجمة اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية مرتين ، ثم ترجم النص العربى إلى الإنجليزية أيضاً ونشر فى سنة ١٧١١ . ولا ريب أن إحدى هذه الترجمات هى التى يسرت للكاتب الانجليزى « دانييل دى فويه » التأثر بخيال ابن طفيل حتى جعلته يحاكى رسالة « حى بن يقظان » فينشىء فى سنة ١٧١٩ على غرارها روايته الفخمة « روبينسون كروزوويه » التى يشاهد فيها الباحث لوحة أمينة

للرقى المنهجى والعواطف الأخلاقية الملموسة فى رواية ابن طفيل ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة الهولاندية فى سنة ١٦٧٢ . وقد ترجمه إلى الألمانية (بريتيوس) فى سنة ١٧٢٦ ، ثم ترجمه إلى نفس اللغة (إيشورن) فى سنة ١٧٨٣ .

وكان ابن طفيل فى آخر حياته قد وجه عنايته إلى العلم الإلهى ، نابذاً ما سواه من فروع الفلسفة ، كما كان حريصاً على التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، معظماً للنبوات ، ولم يترك مؤلفات فى الفلسفة سوى «حى بن يقظان» وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة عام ١٢٩٩هـ ، وكذلك له رسالة فى الطبيعيات ورسالة فى النفس ، لم يصلنا عنهما شىء ، ويروى عن ابن رشد أن له كتابا فى (البقع المسكونة وغير المسكونة) ، ويذكر ابن رشد أن له آراء فى الفلك ، كما يذكر (البتروجى) تلميذ ابن طفيل أن أستاذه ذكر له أنه وفق لنظام فلكى لحركات الأفلاك غير النظام الذى اتبعه بطليموس ؛ وابن طفيل من غير شك اول من أخرج الفلسفة فى ثوب قصصى جميل ، وكان مع هذا شاعراً كاتباً ، وفى (المغرب[1]) و(وفيات الأعيان[2]) أن ابن باجة كان أستاذاً له ولكن ابن طفيل يقول فى رسالته «حى بن يقظان» إنه لم يلقه ، فضلا عن أن يكون قد تتلمذ عليه .

والمرجع الوحيد لدراسة ابن طفيل هو رسالته «حى بن يقظان» أو «أسرار الحكمة المشرقية» التى يشرح فيها ابن طفيل كيف يهتدى الإنسان إلى الاتصال بالعالم العلوى ويعرف الله ويربط روحه به ، ويصل إلى مرتبة الإدراك عن طريق الاتصال بالطبيعة والكائنات من إنسان ونبات وحيوان . وقد هدف ابن طفيل إلى أن تكون رداً على آراء ابن باجة فى رسالة الاتصال ، واسترشد برأى ابن سينا فى الاتصال .

---

(١) ص ١٥٦ .
(٢) ٢ : ٣٧٤ .

وفلسفة ابن طفيل إشراقية تحل معضلة كبيرة من مشكلات الحياة ، هى علاقة النفس البشرية بواجب الوجـــود العظيم ، ولكن لم يكتف برأى الغزالى الذى وقف فى الاتصال إلى حد التصوف ، بل أمعن فى فلسفة ابن باجة والفلسفة القديمة ووضح كيف ينمو الفكر الإنسانى وكيف يحل مشكلات الوجود .

هذا ولا ننسى أن نقول : إن ابن طفيل روى له كثير من القصائد ، ومن شعره الفلسفى قوله :

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ... أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضا الله اجتماعهما ... فيالها صفقة تمت على غبن

٣ — ابن رشد :

هو ابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، ولد فى قرطبة فى سنة ٥٢٠ هـ — سنة ١١٢٦ م من أسرة ماجدة عالية الشأن ، توارث أفرادها منذ زمن بعيد بعض المناصب الراقية فى الدولة ، فكان أبوه قاضياً فى قرطبة ، ورث القضاء عن جده ، وقد مكنه ثراء والده من أن يتلقى دراسة عالية فى كثير من العلوم والفنون مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والطب والموسيقى والفلك وبقية علوم الرياضة وما وراء الطبيعة ، حتى صار أعلم أهل عصره قاطبة بكل هذه العلوم . وروى أنه لم يدع القراءة طول حياته إلا ليلتين : ليلة زواجه وليلة وفاة والده . وفى سنة ٥٤٨ — ١١٥٣ م قدمه ابن طفيل إلى الأمير أبى يعقوب بن عبد المؤمن الموحدى ، وقد روى لنا أحد تلاميذ ابن رشد قصة هذه التقدمة فقال على لسان أستاذه ما يأتى : حين مثل ابن رشد بين يدى أمير المؤمنين(١) ألفاه مع ابن طفيل ، فلما استقر بهم المجلس ، أخذ هذا

(١) لم يكن هذا الأمير فى ذلك العهد أميراً للمؤمنين ، لأنه لم يصعد على العرش

الأخير يثنى عليه وعلى أسرته ثناء ، يقول ابن رشد : إنه لا يستحقه . وعلى أثر ذلك وجه الأمير إليه هذا السؤال : هل للسماء مبدأ ، أو هى أزلية . . ؟ فارتاع ابن رشد من هذا السؤال ، وأحس بحروجة موقفه ، وخشى أن تجلب الإجابة عليه سخط الأمير . فاستعمل أسلوب الحكيم وأخذ يتصيد المبررات للفرار من الجواب . فلما شعر الأمير بارتباكه التفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث عن هذه المشكلة ، فذكر فيها آراء أفلاطون وأرسطو وبعض الفلاسفة الآخرين ، وسرد الاعتراضات التى وجهها المتكلمون إلى هذه الآراء ، وقد دل حديثه على عمق وسعة اطلاع وقوة ذاكرة أدهشت ابن رشد وملأته إعجاباً بهذا الأمير العالم ، كما أعجب الأمير بابن رشد إعجاباً كبيراً (١) .

وفى عام ٥٥٨ ، تولى يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد والده ، وقرب إليه ابن رشد ؛ وفى عام ٥٦٥ ، ولاه قضاء إشبيلية ، ثم ولاه بعد ذلك قضاء قرطبة ، ثم أضاف إليه غرناطة ، واختاره قاضى القضاة ؛ وبعد وفاة الملك عام ٥٨٠ هـ ، خلفه ابنه يعقوب بن يوسف على الملك ، وكان شديد التعصب على الفلاسفة ، ثم وشى بابن رشد عنده ، واتهمه خصومه لديه ، بأنه يشرك بالله ويشتغل بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وينكر الدين ؛ وقدموا إليه جملة فى كتاب لابن رشد نصها : « فقد ظهر أن الزهرة ، أحد الآلهة ، يحكى بهذه الجملة مذهب قدماء الفلاسفة ؛ وسيق ابن رشد إلى المحاكمة . فسأله الملك : هل هذه الأوراق بخطك ، فأنكر ذلك ، فلعن الملك كاتبها وأمر الناس بلعنه ، ثم أخرج ابن رشد مهانا ، وحكم عليه بالنفى هو وتلاميذه ، وصدر منشور

إلا بعد وفاة والده فى سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م . وقد تسبب هذا التعبير « أمير المؤمنين » فى خطأ كثير من العلماء الذين كتبوا عن ابن رشد .

(٢) كان من أساتذته أحمد بن رزق ؛ ومن أساتذته فى الطب عبد الملك بن زهر الأندلسى م ٥٩٠ هـ ، وأبو جعفر هارون ، وفى الفلسفة ابن طفيل وابن باجة .

يتوعد فيه الخليفة من يخوض فى شىء من الفلسفة ، وأمر بإحراق كتبها إلا الطب والحساب ، وقليلا من علم الفلك ؛ وكان منفى ابن رشد وتلاميذه فى « اليسانة » .

وبهذا تعرضت الفلسفة والفلاسفة لمحنة جديدة ؛ وبعد عام عفا الخليفة عنه وعن تلامذته ، وألغى الحظر الذى أصدره على الفلاسفة وكتب الفلسفة ، وأكرم ابن رشد ورضى عليه .. وأخيراً توفى ابن رشد فى آخر عام ٥٩٤ هـ . وقيل فى صفر عام ٥٩٥ هـ فى المغرب ، ونقلت رفاته إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر ودفن فيها .

وقد تتلمذ على ابن رشد كثيرون منهم ابن سابق وابن حوط الله وغيرهما

وفلسفة ابن رشد فى المغرب تماثل فلسفة ابن سينا فى المشرق ، وابن رشد يأخذ عن أرسطو محاولا التوفيق بين الفلسفة والدين . وقد تتلمذ على آراء ابن رشد الكثيرون من شباب الغرب . بل إن فلسفته كان لها أثر كبير فى النهضة الأوربية ، وفى بعث اليقظة فى بيئات الغرب ، وقد كانت بعض مؤلفات ارسطو قد صارت منذ سنة ١٢٥٥ ضمن منهج كلية الفنون بجامعة باريس رغم الحروب الشعواء التى أعلنها عليها الباباوات ، ولكن هذه المؤلفات كانت تدرس فى ذلك العهد دراسة محايدة ، لا يشتغل القائمون بها بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة .

ولما كان من الضرورى أن يستعين الأساتذة المكلفون درس مؤلفات أرسطو بما كتبه الشراح عليها ، فقد قام الأستاذ « سيجيه البرابانى » بدراسة واسعة لشروح ابن رشد على كتب أرسطو استغرقت أكثر من أحد عشر عاما منذ سنة ١٢٦٦ إلى سنة ١٢٧٧ ، فكانت هذه الدراسة مبدأ الحركة التى عرفت فيما بعد باسم « الرشدية اللاتينية » والتى كانت ترمى إلى كشف كل لبس يحوط آراء أرسطو فى النقط الأساسية من مذهبه ، وهى : أزلية العالم ، وجحود علم الإله بالجزئيات ، وإنكار انشغال العناية الإلهية بعالم مابعد فلك

القمر ، ووجوب صدور المعلومات عن عللها دون أى استثناء ، ووحدة العقل المفيض بالنسبة لجميع بنى الإنسان ، وزوال شخصية النفس بتفكك الجسم . ولكن رجال الدين اضطهدوه ، ففى سنة ١٢٧٠ أدان أسقف باريس ثلاث عشرة فقرة من فقرات ابن رشد تتعلق بنظريات أزلية العالم والقضاء والقدر ، وإنكار علم الإله بالجزئيات ، ووحدة العقل المفيض . وفى سنة ١٢٧٧ أمر البابا جان الحادى والعشرون ذلك الأسقف بإجراء تحقيق كانت نتيجته إدانة مائتين وتسع عشرة فقرة . ومن الغريب أن القديس توماس كان قد أقر كثيراً من هذه الفقرات ، فكانت إدانة سيجيه لها إدانة غير مباشرة للقديس توماس فتحت باب معركة حامية الوطيس بين أنصار توماس وخصومه

وعلى أثر هذا الحكم طرد سيجيه من الجامعة ، ثم دعى إلى المحاكمة فحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولكن سكرتيره قتله فى سنه ١٢٧٢ . وعلى الرغم من هذا الاضطهاد استمرت الحركة الرشدية فى طريقها ، وكان لها من النتائج ما ينتظر من مثيلاتها من الحركات العنيفة ، تضعف حيناً فيقل أنصارها ، وتقوى حيناً آخر فيظهر لها أنصار جدد . ومن مظاهر قوتها بعد حادث سيجيه أن قام جان الجندولى بتدريس هذه الآراء من جديد فى تلك الجامعة ، فأصدر البابا جان الثانى والعشرون قراراً بطرده من حظيرة الدين ، رغم أنه قال فى دفاعه عن نفسه : إنه يؤمن بما جاء به الدين ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليه ، فهنيئاً للذين يستطيعون التدليل ، أما أنا فليس فى وسعى بإزائه إلا الإيمان بالقلب .

ثم كان الطب هو السبب الأول الذى اقتاد الفلسفة الرشدية إلى جامعة بادوا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وكان « بيير الألبانوى » أول من عمل على وضع ابن رشد فى صف أرسطو ، وقد أحنق عليه انتصاره لحكيم قرطبة السلطة الدينية ، فأمرت بالقبض عليه لتعدمه كما كان مألوفا فى ذلك العصر ، ولكنه توفى أثناء التحقيق وفاة طبيعية ، فدفع الحنق أولئك

المتعصبين إلى إحراق جثته . ومن الأساتذة الذين عملوا على تثبيت الفلسفة الرشدية فى جامعة بادوا « جريجوار الريمينى » و« جيروم فيرارى » و« جان الجندولى » الذى كان أستاذاً فى باريس وطرده البابا من حظيرة الدين فى سنة ١٣٢٦ ، وكان قد كتب شروحاً طويلة لكتب أرسطو وابن رشد . ومنهم أيضاً « أوربانو البولونى » الذى كتب فى سنة ١٣٣٥ شرحاً لشرح ابن رشد على كتاب الطبيعة لأرسطو ، فأحدث بذلك سنة اعتبار ابن رشد من كبار الفلاسفة الجديرين بالشرح ، وكان أول العاملين على حلوله فى تلك الأوساط محل أرسطو . ومنهم أيضا بول البندقى المتوفى فى سنة ١٤٢٩ ، والذى كان من أكبر علماء عصره المتضلعين . وكان بول أوجوستانيا شديد التدين ، ولكنه وافق على كثير من نظريات ابن رشد وتحمل مسئولياتها أمام دينه ، وكان يعلن أن ابن رشد هو أجل من فهموا فلسفة أرسطو ، ثم قامت مدرسة فى ذلك العهـــد لإحياء المعارف الإغريقية ، وكان على رأسها « نيقولا فافا » فأعلنت بلسان زعيمها أن ابن رشد أساء شرح كثير من نظريات حكيم استاجيرا ، فاتفق أشياع النظام الدينى الذى كان « بول » و « فافا » ينتسبان إليه على أن تعقد مناظرة بين هذين العالمين يؤيد فيها كل منهما رأيه بالحجة والبرهان ، فعقدت هذه المناظرة وحضرها ثمانمائة من رجال الدين ، فكان النصر فيها حليف « فافا » على « بول » وابن رشد ، ولكن هذه الهزيمة التى أصابت « بول » لم تتعد البيئات الدينية لأنها — فيما يظهر — كانت مدبرة . أما فى البيئات الجامعية فقد بقى سلطانه العلمى عزيزاً سامياً لم يمسه أدنى ضعف . ومن زعماء هـــذه المدرسة أيضا « جايتا نودى تيين » (١٣٨٧ - ١٤٦٥) وكان من أسرة عريقة فى إيتاليا ، وقد ساهم بموهبته ومعارفه ومجهوده وثروته فى إعلاء المذهب الرشدى وتثبيت أهميته فى جامعة بادوا .

ولقد كان حظ هذا العالم أسعد من حظوظ كثير من أسلافه ، فسطع نجمه فى أوروبا كلها ، وطبعت مؤلفاته عدة طبعات ، مع أن الباحثين المحدثين يرون أن مذهبه كان أقل وضوحاً من مذهب (بول البندقى) ، بل إن من

يتعمق فى قراءة كتبه يظهر له أنه لايتفق مع ابن رشد فى كل نظرياته على الرغم من أنه يزعم هذا . ولكن لعل السبب فى شهرته هو أنه قام بمجهود كبير فى الدعاية لابن رشد من جهة ، وفى التوفيق بين الشارح (ابن رشد) وبين الدين لاسيما فيما يتعلق بخلود النفس من جهة أخرى . ولقد نجح (جايتانو دى تين) فى التنويه بابن رشد حتى صار بفضله الحكيم الأول الذى لاينازع فى (بادوا) و(بولونى) وأصبح أهم مايشغل أساتذة الفلسفة فى جامعتى هاتين المدينتين هو شرح الشرح الكبير لابن رشد . وفى عام ١٤٨ ألفت كاساندرا فيديليه — وهى إحدى شهيرات عالمات مدينة البندقية — رسالة أيدت فيها تأييداً علمياً بعض النظريات الرشدية ، فنالت بها جائزة الفلسفة الكبرى . غير أن هذا التعلق الفائق بمذهب ابن رشد من المفكرين لم يمنع من أن يكون له خصوم بها جمونه فى عنف وقوة . ومن أشهرهم وأبرزهم بومبنازى الذى ظل يناضله تارة بطريقة مباشرة وأخرى على لسان أنصاره المتحمسين حتى توفى ، فكانت وفاته بمثابة هدنة وضعت أوزار الحرب بين الرشدية والبومبنازية .

وعلى أثر ذلك خلا الجو للفلسفة الرشدية ، فانفردت بالسلطان فى جامعة بادوا ، ولكن بعد أن أزال منها مهرة الأساتذة أكثر مايصطدم مع التعاليم المسيحية ، فعادت حركة الترجمة فى كتب ابن رشد إلى النشاط من جديد ، ولكنها لم تكن أقل رداءة من الترجمة القديمة ، لأن أصلها العبرى كان سيئاً .

غير أن هذه السيادة الرشدية المغالية كانت قد أحدثت من قبل رد فعل بين المجددين ، فنهض أنصار الثقافة الهيلينية الذين كانوا يتعالون على معاصريهم بأنهم هم وحدهم العلماء الحقيقيون بالهيلينية الصحيحة ، وأعلنوا احتقارهم لتلك الهيلينية الزائفة المشوهة الآتية عن طريق العرب ، وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ، فصرحوا بأن آراء ابن رشد غير قابلة للمعقولية وغير جديرة بالعقل المثقف . وبالإيجاز كانت غايتهم أن يضعوا كل تراجمة القرون الوسيطة وشراحها فى الدرك الأسفل من الإهانة والازدراء . وفى ٤ من

إبريل سنة ١٤٩٧ صعد نيقولا توماس للمرة الأولى على المنصة ليدرس أرسطو باللغة الإغريقية . وعلى أثر ذلك احتدمت معركة حامية الوطيس بين الأرسطوطاليسية العربية من خلال ابن رشد ، والأرسطوطاليسية الإغريقية من خلال مؤلفات أرسطو نفسه وتلاميذه وشراحه من الإغريق . وقد ساعد على تفاقم هذه المعركة اتجاه العقول فى ذلك الحين إلى أفلاطون ، إذ أن دراسة هذا الأخير فى كتبه أبانت للمثقفين أن العرب كثيراً ما كانوا يخلطون بين آراء هذين الحكيمين مخدوعين بالتلفيق الإسكندرى . وقد بدأت هذه النهضة الأفلاطونية فى مدينة فلورانسا التى هامت بآراء أفلاطون فى كل نواحى حياتها هياما جعل العلماء يطلقون عليها اسم المدينة الروحية .

وقد كان (بيك دى لاميراندول) صورة أمينة لتلك المعارك والمناضلات ؛ ففى كتبه يعثر الباحث على الأفلاطونية والأرسطوطاليسية والرشدية وبقية النزعات المختلفة والمذاهب المتباينة المعروفة إذا ذاك ، مفصلة تفصيلا يختلف باختلاف قيمتها وحظوظها فى ذلك الحين . وأكثر من ذلك أنه كان يتباهى بأنه يستطيع أن ينصر أية فكرة كانت فى جميع المشكلات التى يمكن الإنسانية أن تعرفها . وقد أضاف فولتير إلى هذه الجملة سخرية من صاحبها قوله : بل ومشكلات عديدة أخرى . وقد صارت هذه الجملة الساخرة المضافة إلى جملة بيك دى لاميراندول مثلا يضرب للسخرية من التباهى ، ولكن هذه السخرية لم تكن عادلة من جانب ذلك الساخر ، فقد كان بيك دى لاميراندول دائرة معارف كاملة ، وقد أحصى جميع المشكلات التى دارت أو يمكن أن تدور حولها المجادلات الإنسانية فى تسعمائة مشكلة ، وأعلن مقدرته على حلها بالحجج المنطقية . وقد انتهت هذه المناضلات بانتصار الهيلينية الصحيحة فى جميع جامعات أوروبا ومدارسها وانهزام الرشدية فيها ماعدا جامعة بادوا ، فقد بقى ابن رشد فيها مستمتعاً بشىء من الاحترام وإن كانت سيادته الأولى قد انمحت . فمثلا : « زارا بيلا » وهو أستاذ الفلسفة فى جامعة بادوا من سنة ١٥٦٤ إلى سنة ١٥٨٩ ـ كان يعتمد فى فهم الفصول الغامضة من كتب أرسطو

على شروح ابن رشد إلا فيما يتعلق بنظرية خلود النفس ، فقد كان يتبع فيها بومبنازى . وقد كان البيرتى ، وكريمونينى ينسجان على منوال زارا بيلا ، فيدعوان إلى نظريات ابن رشد ماخلا نظرية خلود النفس . وفى سنة ١٦١٩ أمرت السلطات الدينية أساتذة جامعة پادوا بنقض كل ما يدرسونه فيها من ضلالات ارسطو ، فلما وصل هذا الأمر إلى مسمع كريمونينى احتج عليه وأجاب بلهجة حادة ملؤها الكرامة والعظمة قائلا : إنه جاء إلى هذه الجامعة ليبسط آراء أرسطو ويشرحها . فإذا اتهم باللادينية استطاع أن يدافع عن نفسه ، وهذا هو كل ما يمكنه عمله . ولهذا يعتبر كريمونينى آخر ممثلى الفلسفة الرشدية فى جامعة پادوا . وكانت وفاته فى سنة ١٦٣١ بمثابة وضع الحد الأخير لدراسة الفلسفة العربية فى الغرب .

إجمال لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد :

ونستعير هنا من ابن طفيل وصفا لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد ذكره فى قصته الخالدة « حى بن يقظان[1] » ، قال : « من ينشأ بالأندلس من أهل الفطرة اللائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم ، وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً ، ولم يقدروا فيها على أكثر من ذلك ، ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشىء من علوم المنطق ، فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقيقة الكمال ، فكان فيهم من قال :

برح بى أن علوم الورى اثنان ما إن فيهما من خريده
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لن يفيده

ثم خلف من بعدهم خلف أحذق منهم نظراً ، وأقرب إلى الحقيقة ، ولم يكن فيهم أثقب ذهناً ، ولا أصح نظراً ، ولا أصدق روية ، من ابى بكر بن الصائغ ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه ،

(١) ص ١١ حى بن يقظان .

وبث خفايا حكمته ، وأكثر ما يوجد له من التآليف إنما هى غير كاملة ومخرومة من أو اخرها ، ككتابه فى النفس ، وتدبير المتوحد ، فهى كتب وجيزة ، وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة ، وأما كتبه الكاملة فهى كتب وجيزة ورسائل مختلة ، وقد صرح هو نفسه بذلك ، فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه ؛ وأما من كان معاصرا له ممن لم يوصف بأنه فى مثل علمه فلم يترك تأليفاً ، وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد فى حد التزايد أو الوقوف على غير كمال ، أو ممن لم يصل إلينا حدس أمره .

هذا هو ما قاله ابن طفيل عن الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد ، وطبعاً كان ابن طفيل أستاذاً لابن رشد ، فلم يدرك حين تأليف رسالته « حى بن يقظان » عصر نبوغه . ولا ننسى أن نذكر من الفلاسفة الأطباء فى عصر ابن رشد أبو بكر بن زهر المتوفى عام ٥٩٠ هـ .

الفلسفة الأندلسية بعد ابن رشد :

علمنا الكثير من حال الفلسفة الأندلسية فى عصر الموحدين ، وهو العصر الذى عاش فيه ابن رشد ، أما حالها فى عهد بنى الأحمر ملوك غرناطة ، فإننا نلاحظ أولا أنه لم يكن لفلسفة ابن رشد ولا لمؤلفاته سوى أثر قليل فى الأندلس بعد وفاته ، وكذلك كان أثرها فى العالم الإسلامى قليلا جداً ، وقد ضاعت أصول الكثير من مؤلفاته ، ولم يكن لابن رشد تلاميذ ولا أتباع يواصلون فلسفته ، وذلك بسبب مقاومة الفلسفة فى الأندلس .

وليس من شك فى أنه كان يوجد الكثيرون من أهل الفكر الحر ، كل واحد فى معزل عن الآخر ، وكانوا يرون من العبث أن يكلف الإنسان نفسه الاشتغال بالفلسفة ، إذ لم تكن الفلسفة قد استطاعت وحدها أن تؤثر فى الثقافة العامة أو فى الفكر الإسلامى أو فى مجرى الحياة تأثيراً كثيراً ، وقد قاوم بنو الأحمر علوم الفلسفة واضطهدوا أصحابها ، فهاجر بعضهم إلى

أوربا واقام بعضهم فى الأندلس منقطعاً عن النظر فيها ، وساعد على ضعف شأن الفلسفة الصراع الشديد بين الأسبانيين والأندلسيين ، وكذلك نكبة ابن رشد وتشريد تلاميذه ، هذا إلى اضطهاد ملوك غرناطة للفلسفة ، فخمدت روحها ، وانطفأ شعاعها ؛ وعادت الحياة الفكرية فى الأندلس إلى الانحطاط ، وكثر الصوفيون الذين كان من بينهم قليل نحوا نحو الفلسفة ، ولما وجه الامبراطور فردريك الثانى حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى عـــدة مسائل فلسفية للمسلمين فى سبتة ندب الملك عبد الواحد فيلسوفا صوفيا هو ابن سبعين المتوفى عام ٦٦٨ هـ للإجابة عنها ، وقد فعل ذلك فأخذ يتلو فى زهو آراء الفلاسفة القدماء والمحدثين .

ويصف ابن خلدون فى مقدمته حال الفلسفة فى هذا العهد فيقول بعد أن ذكر ابن الصائغ وابن رشد[1] : « إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بها ، وتناقصت العلوم بتناقصه ، اضمحل ذلك — يشير إلى العلوم العقلية والحكمة — منها إلا قليلا من رسومه تجدها فى تفاريق من الناس وتحت رقبة « من علماء السنة[2] » ، ثم يقول : « ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هـذه العلوم لم تزل عندهم موفورة ، وخصوصاً فى عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر ، وأنهم على ثيج من العلوم الفلسفية ، كذلك بلغنا لهذا العصر أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض « رومة » وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هنالك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة ، وطلبتها متكثرة[2] » .

ويقول كذلك ابن خلدون : « وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج لابن إسحاق من متجر تونس فى أول : المائة السابعة ، ويزعمون

---

(١) ذكر ابن خلدون المجريطى إمام الأندلس فى القرن الثالث فى التعاليم والسحر وأنه لخص جميع تلك الكتب وهذبها فى كتابه « غاية الحكيم » ولم يكتب فى هذا العلم بعده ، وكتب المجريطى كتابا فى الكيمياء سماه زينة الحكيم (٤ ، ٥ ، ١٢ ، ٥١ المقدمة)

(٢) ص ٤٥٥ مقدمته ابن خلدون

أنه عول فيه على الرصد ، وأن يهوديا كان بصقلية ماهرا فى الهيئة والتعليم، وكان قد عنى بالرصد(١) ، وهكذا نجد ابن خلدون يؤكد اضطهاد الفلسفة فى الأندلس والمغرب بعد عصر ابن رشد(٢) اضطهاداً شديداً .

ومن فلاسفة هذا العهد موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد(٣) المتوفى عام ٦٥٠ هـ ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦ هـ وقد درس الطب والفلسفة وعلوم الأدب والدين واللغة وبرع فى الكثير فيها ، وتولى الوزارة لأبى الحجاج يوسف ثم لابنه محمد بعده ، ثم اتهم بالكفر والإلحاد فهرب إلى المغرب الأقصى وقبض عليه فى مدينة فاس .

انتهى الجـــزء الأول

ويليه الجزء الثانى

---

(١) ٤٦٣ — ٤٦٤ المرجع نفسه

(٢) وقد تحدث ابن خلدون عن ابن رشد . فذكر أنه لخص كتب أرسطو وشرحها ، متبعا لها ، غير مخالف (٤٦٦ المقدمة) .

(٣) ولد بقرطبة ـ ودرس الطب والفلسفة وعلوم الدين ثم هاجر إلى مصر لاضطهاد الموحدين له ، وأقام بالفسطاط يعلم الفلسفة ويتاجر فى الجواهر ، حتى اتخذه صلاح الدين طبيبا خاصا ، وترك مؤلفات كثيرة فى الطب والفلسفة وتوفى عام ٦٥٠ هـ

فهرس

الصحفة	الموضوع
٣	ذكرى خالدة
١٥	الحضارة العربية فى الأندلس
٥٤	تاريخ العرب فى الأندلس
٥٤	الفتح العربى للأندلس
٥٩	الشعب العربى فى الأندلس
٦٢	الحكم فى الأندلس
٦٢	عصر الولاة العرب
٦٤	الدولة الأموية فى الأندلس
٧٠	ملوك الطوائف فى الأندلس
٧٤	حكم المرابطين
٧٥	دولة الموحدين
٧٦	دولة بنى الأحمر
٧٨	مصرع الأندلس
٨٧	الحياة الاجتماعية فى الأندلس
٩٥	صور من الحياة الأندلسية
١١٧	الطبيعة الأندلسية
١٢٤	الحياة الفكرية فى الأندلس
١٤٠	مقاومة الفلسفة فى الأندلس
١٤٤	ابن باجة
١٤٦	ابن طفيل
١٤٩	ابن رشد
١٥٦	الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد
١٥٧	الفلسفة الأندلسية بعد ابن رشد

محمد عبد المنعم خفاجي

قصة الأدب في الأندلس

١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة المنيرية بالازهر

العلوم والثقافة فى الأندلس

تمهيـــد :

نشطت العلوم والثقافات والفنون فى الأندلس نشاطاً كبيراً لاحد له ، وزاد من ذلك : عناية ملوكهم وأمرائهم بالعلوم ، وذكاء العلماء وشدة تحصيلهم وكثرة رواياتهم وهجرتهم المستمرة إلى المشرق ، وكثرة المدارس والجامعات والمكتبات ، وإقبال العامة والخاصة على العلم على حد سواء .

ويدلك على مكانة العلم والعلماء فى الأندلس ماجاء فى نفح الطيب للمقرى(١) قال : أما حال أهل الأندلس فى فنون العلوم ، فتحقيق الإنصاف فى شأنهم فى هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز ، فالجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس ، لأن هذا عندهم فى نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار وابتياع حاجة وما أشبه ذلك . وهم يقرؤن جميع العلوم فى المساجد ؛ فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث فى نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ؛ فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ؛ فإن زل فى شبه رجموه بالحجارة أو حرقوه قبـــل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيرا مايأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على

---

(١) ١٠٢ : ١ نفح الطيب .

ما ذكرة الحجارى والله أعلم . وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولامذهب لهم إلامذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقية عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه : بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى : فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات . . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثير ، والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبينى أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات فى الرسائل . وعلم الأدب المنثور فى حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل . . والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فأنه يعظم فى نفسه لامحالة ويسخف ويظهر العجب ، عادة قد جبلوا عليها ، .. ويقول باحث فى تصوير

عناية الأندلسيين بالعلوم والثقافات(١) .

وعنوا بجمع الكتب فى كل علم وفن . فقد كان فى أسبانيا ستون مكتبة عامة أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التى ترجمها وألفها العرب فى الزراعة والفلك والرياضة وفى الطب والكيمياء والموسيقى . وفى أصول الدين كالتوحيد والفقه والحديث والتفسير ، وفى فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعر المختلفة ومعاجم اللغة ، كان كل ذلك مجموعاً منظما فى مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦) التى كانت فهارسها أربعة وأربعين — كما سبق — وبلغت الكتب فيها مائتى ألف مجلد ، قالوا إنه قلما يوجد كتاب فى مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، وكان يجمع فى داره الحذاق فى صناعة النسخ والضبط ويجود عليهم بالمال ، ويبعث بالكتب إلى الأقطار رجالا من التجار يزودهم بالمال ، وبعث فى كتاب الأغانى إلى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين ، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك كان الخلفاء فى إكرام العلماء والأخذ بناصرهم ، فكان المنصور بن أبى عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها ، ويزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويمدح المدرسين ويكافىء التلاميذ على جدهم ، وكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بانشاء مسجد ومدرسة يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معا لازم لتهذيب الأمم ، وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف ، وعنهم أخذ أهل أوربة المدارس الجامعة ونظام الكليات التى يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون فى العلوم المختلفة ، وكان فى كل مدينة من مدن إسبانيا مدرسة كبيرة ، وكان للطب اربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل .

وقد(٢) كانت علوم العرب بالأندلس هى الشعاع الذى أضاء لأهل أوربا

---

(١) بلاغة العرب فى الأندلس ص ١١ .

(٢) الأدب العربى وتاريخه ج ٣ — محمود مصطفى .

ما كان مظلماً من عقلهم ، فإنهم لم يعرفوا حكمة اليونان إلا بعد أن قرأوها مترجمة فى كتب العرب ، وعن العرب أيضا أخذوا نظام المدارس الجامعة ، وقد كان فى كل مدينة من مدن الأندلس مدرسة جامعة ، وكان للطب بتلك البلاد أربع مدارس آهلة بالطلاب من جميع الملل ، فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية . وكان فى قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأنواع العلوم ، وذلك فى مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) .

وورد فى صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية فى بيان فضل عرب الأندلس على أوربا الحديثة : «إنا لمدينون للعرب كثيراً ، ولو قال غيرنا خلاف ذلك فإنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً ، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى الأعصار المظلمة ، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم الطبعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا علماً ومدنية» .

وقد بنى فيليب الثانى ملك اسبانيا فى النصف الأخير من القرن السادس عشر الأسكوريال على قمة مرتفعة ، بعيدة عن مدريد بأكثر من خمسين كيلومترا ، والأسكوريال يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير ومدرسة ، وفى الأسكوريال مكتبة ضخمة ، والقسم العربى فيها غنى بالتراث الأندلسى القديم الذى لا يزال مخطوطاً حتى اليوم .

عناية الملوك بالعلم والعلماء :

كان للملوك فى الأندلس عناية شديدة بالعلم والعلماء ، فعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ، كان مثلا فى تكريم العلماء ، ورعاية الثقافة ، وهو الذى قدم زرياب إلى الأندلس فى عهده ، ويروى أن عبد الرحمن كتب إلى عماله على البلاد بأن يحسنوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، فلما وصلها أنزله فى قصر مشيد ، وجعل له مائتى دينار فى العام ، ولكل واحد من بنيه الأربعة عشرين دينارا ، وأجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار

واقطعه دوراً وضياعا كثيرة . ولعبد الرحمن قصص تدل على كرم وسخاء فى رعاية العلم والعلماء .

وفى عهد الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أنشئت المدارس والمكتبات العامة ، وكان دائب الحدب على العلماء والسؤال عنهم ، ومجالستهم .

حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبى ابراهيم — من كبار علماء المالكية فى عهد الناصر لدين الله — رحمه الله تعالى — فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية فإنى لعنده فى بعض الأيام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لأبى عثمان الذى كان يصلى به قرب داره . ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين — إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له : « يافقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فان الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت ياعجالك فالله الله ! فقال سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة ، فارجع إليه وعرفه — وفقه الله — عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى معى طلاب العلم اسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ؛ فذلك أوكد من مسيرى اليه الساعة ، فاذا انقضى أمر من اجتمع إلى من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت إليه إن شاء الله تعالى — ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصى يهينم متضاجرا من توقفه ، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وانصرف سريعاً ساكن الطيش فقال : يافقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتعهم بك ! وإذا أنت أوعيت فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى . فقال : حسن جميل ، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السدة ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعصابى ، وباب الصناعة الذى يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط لى وأقرب وأرفق بى ، فان رأى أمير المؤمنين أيده

الله ان يأمر بفتحه لأدخل اليه منه ، هون على المشى ، وودع جسمى . وأحب أن تعود وتنهى اليه ذلك عنى حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إلى ، فانى أراك فتى شديداً ، فكن على الخير معينا . ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يافقيه : قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت إليك وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك . وقال : افعل راشداً وجلس الخصى جانباً حتى أكل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق ، فلما انقضضناعنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب وقضى حاجته من لقائه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على اثر خروجه . قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا فى تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ ابى ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدير القصر الذى تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحاً كما وصف الخصى وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين مابين كناس وفراش ، متأهبين لانتظار أبى ابراهيم ، فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه . . فهكذا تكون العلماء مع الملوك ، والملوك مع العلماء قدس الله تلك الأرواح[1] .

وقد كان اهتمام الحكم (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) بالعلم والعلماء لا مثيل له ، وهو الذى استقبل أبا على القالى فى وفادته على الأندلس عام ٣٢٨ بدعوة من أبيه ، وكتب إلى بعض العمال ان يتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ففعل وسار به فى موكب جليل إلى قرطبة ، وقد بعث الحكم وهو ولى العهد كذلك إلى أبى الفرج الأصبهانى ، فى طلب نسخة من كتابه « الأغانى » ، وبعث اليه بألف دينار ، فجاءته منه نسخة قبل ان يظهر بالمشرق ، وشفعها أبو الفرج بقصيدة يمدحه فيها ، ويمؤلف فى نسب الأمويين . . . وكان اهتمام الحكم بالكتب والمكتبات كبيراً ، وكان فى قرطبة فى عهده عشرات المكتبات العامة ، وفى غرناطة سبعون مكتبة عامة .

---

(١) ١/١٧٦ نفح الطيب .

أما ملوك الطوائف فقد جـــدوا فى إعزاز العلم ، وإكرام العلماء ، متنافسين[١] فى الفضل ، قاصدين إلى إرضاء العامة ، مقدرين ما للعلم من أثر فى حفظ ممالكهم . ولقد كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء ، فى كل فن يؤلفون وكثيرا مايدعون العلماء إلى التأليف برسمهم ، كما فعل ذلك سابقاً فى دولة بنى مروان أبو على القالى ، فانه طرز كتابه « الأمالى » باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر وقد تبلغ الدالة بالعالم والاعتزاز منه بشرف العلم ، أن يأبى إجابة الأمير إلى جعل كتابه برسمه ، فقد ذكروا أن أباغالب اللغوى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٦هـ لما ألف كتابه فى اللغة ، بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامرى ملك دانية بألفى دينار ، ومركوبا وكساء ، على أن يجعل الكتاب باسمه فيزيد فيه : « هذا الكتاب مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال : « ألفته لينتفع به الناس ، وأخلد فيه همتى ، ثم أقبل فى صدره اسم غيرى ، وأصرف الفخر له ! فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته .

ولقد بلغ من حرص هؤلاء الأمراء على ظهور الكتب مؤلفة برسمهم أن عادى الأخ أخاه فى سبيل ذلك ، وقتل المؤلف الذى آثر أخاه بالذكر فى مقدمة كتاب ، فقد ذكروا فى سبب قتل الفتح[٢] بن خاقان (٤٨٠ - ٥٢٩هـ) صاحب كتابى « قلائد العقائد » و « مطمح الأنفس » وقد وجد مقتولا بفندق بمدينة مراكش — أن الذى أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، أخو أبى اسحق إبراهيم ، الذى ألف له الفتح بن خاقان كتاب « قلائد العقيان » ، وذكره فى خطبة الكتاب ، فحسده أخوه على هذه الميزة وأشار بقتله . وهذه عبارة المقدمة التى ورد فيها اسم أبى اسحق « ولم يزل شخص الأدب وهو متوار ، وزنده غير وار . وجده عاثر ، ومنهجه داثر . إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه ، وإحياء رسمه ، وإنارة أفقه ، وإعادة رونقه ، فبعث

---

(١) ٣/٣٢ الأدب العربى — محمود مصطفى .

(٢) ولد باشبيلية ونشأ بالأندلس ، وكتب لابن تاشفين ، وله : مطمح الأنفس وقلائد العقيان .

من الأمير الأجل أبى إسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكا علياً ، وغدا للبة المجد حليا ، وهمى على الأمة وسمياً ووليا » .

ومن مؤلفى هؤلاء الملوك المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، كان كثير الأدب ، جم المعرفة ، محباً لأهل العلم ، جماعا للكتب ، ذا خزانة عظيمة قال فى حقه ابن بسام : كان المظفر المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة ، والمشتهر أيضاً باسم الكتاب المظفرى فى خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر ، وجميع مايختص به علم الأدب ، وذكر « المعجب » أنه كان ولوعا بالاطلاع على جميع فروع الثقافة فجمعت له كتب ومؤلفات فى شتى أنواع العلوم ، وقد جمع ما ألفته له العلماء فى كتاب سماه باسمه .

وقد اشتهر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بحبه للعلم وجمع الكتب ، وكان يناقش العلماء ، حتى قال الفيلسوف ابن رشد ، أشهر حكماء الأندلس على الإطلاق ، والمعتبر فى المغرب كابن سينا فى المشرق : إنه هو الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو .

أشهر العلماء فى الأندلس :

١ — نبغ فى علوم اللغة كثيرون ، من أشهرهم أبو بكر الزبيدى صاحب مختصر العين المتوفى عام ٣٧٩ هـ ، وهو محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى . قال ابن الفرضى : كان واحد عصره فى علم النحو وحفظ اللغة ، أخذ العربية عن أبى على القالى وأبى عبد الله الرياحى . وأدب ولد المستنصر بالله ، وولى عهده هشام ، وولى قضاء قرطبة ، وصنف : مختصر العين ، وأبنية سيبويه ، والواضح فى العربية ، وما يلحن فيه عوام الأندلس ، وطبقات النحويين . توفى سنة ٣٧٩ وقيل ٣٩٩ ، والزبيدى بضم الزاى وفتح الباء نسبة إلى زبيد وهى قبيلة كبيرة باليمن كما فى وفيات الأعيان ، وقد ألف مختصر العين الزبيدى لهشام المؤيد مختصرا له من كتاب العين .

٢ ـ ابن سيده : وهو الحافظ أبو الحسن على بن إسماعيل ، كان إماما فى اللغة والعربية حافظاً لها . وقد جمع فى ذلك جموعا منها « كتاب المحكم فى اللغة » ، وهو كتاب جامع ، رتبه ترتيب كتاب العين ، ويمتاز بالضبط والدقة ، وصحة الشواهد ؛ وهو برمته فى المتحف البريطانى ، ومنه بدار الكتب أجزاء لا تتم نسخة ، ومنها « المخصص » ، وهو معجم فى سبعة عشر جزءاً مطبوع بمصر . ومنها « شرح مشكل المتنبى » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، وكان ابن سيده ضريراً وأبوه كذلك . وكان أبوه قبله قيما باللغة ، وعليه اشتغل ابنه فى أول أمره ، وتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

٣ ـ وأبو الحسن على بن محمد المعروف بابن خروف النحوى الأندلسى الإشبيلى ، كان فاضلا فى علم العربية ، وله فيها مصنفات ، شهدت بفضله وسعة علمه . شرح كتاب سيبويه شرحا جيداً ، وشرح كتاب الجمل للزجاجى . قالوا : كان فى خلقه زعارة (شراسة) ولم يتزوج قط ، وكان يسكن الحانات ، واختل فى آخر عمره ، ومشى فى الأســـواق عريان بادى العورة . توفى باشبيلية سنة ٦٠٩ أو ٦١٠ على ما ذكره ابن خلكان أو سنة ٦٠٣ كما يقول المزهر .

٤ ـ وعلى بن مؤمن بن محمد المكنى أبا الحسن بن عصفور النحوى الحضرمى الإشبيلى حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس ، أخذ عن الدباج والشلوبينى ولازمه مدة ، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة ، وتصدر للاشتغال بالتدريس مدة فى عدة بلاد ، وجال فى الأندلس وأقبل عليه الطلبة ، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل ذلك ، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه ، غير النحو ولا تأهل لغير ذلك ، وكان رقيق الدين ، جلس فى مجلس شراب فلم يزل يرجم بالنارنج حتى مات سنة ٦٦٣ وقيل ٦٦٩ هـ . وصنف كتباً كثيرة .

٥ ـ وعمر بن محمد أبو على الإشبيلى الأزدى المعروف بالشلوبين ، إمام عصره فى العربية بلا مدافع ، وآخر أئمة العربية بالمشرق والمغرب ، وكان العارفون بقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة ، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة بله ، حتى قالوا إنه كان يوما على جانب النهر وبيده كراريس

فوقع منها كراسة فى الماء وبعدت عنه فلم تصل اليها يده فأخذ كراسة أخرى وجذبها بها فتلفت بالماء !! وله فى هذه الحال حكايات كثيرة . توفى باشبيلية سنة ٦٤٥ هـ .

والشلوبينى والشلوبين بلغة الأندلس الأبيض الأشقر كما قال ابن خلكان ، وقال ياقوت فى معجم البلدان : شلوبين أو شلوبينة أو شلوبينية بالياء المخففة : حصن بالأندلس ، من أعمال كورة ألبيرة على شاطىء البحر ، كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط ، ومنه أبو على الشلوبينى . وقال صاحب القاموس المحيط شلوبين أو شلوبينية : بلد بالمغرب ، منه أبو على الشلوبينى النحوى : وقال السيوطى فى بغية الوعاة : أبو على الإشبيلى الأزدى المعروف بالشلوبين .

٦ ـ وعبدالله بن السيد البطليوسى ، وكان عالما بالأدب واللغات ، متبحرا فيهما ، سكن مدينة بلنسية ، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون عليه ؛ وكان حسن التعليم جيد التفهيم ، وله كتاب : « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وهو مطبوع ، توفى سنة ٥٢١ هـ .

٧ ـ ومحمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى النفزى (نسبة إلى نفزة ـ بالفتح ـ وهى قبيلة من البربر) وهو نحوى عصره ، ولغويه ، ومفسره ، ومحدثه ، ومقرئه ، ومؤرخه وأديبه ، سمع بالأندلس وإفريقية ، ومصر والحجاز وغيرها ، وتولى التدريس بمصر بالمنصورية . وكان يقرىء بجامع الأقمر ، وكان فصيح العبارة ، وقد أخذ العربية بمصر عن البهاء بن النحاس وأخذ عنه أكابر عصره ، وتقدموا فى حياته : كالشيخ تقى الدين السبكى والجمال الأسنوى ، وابن قاسم ؛ وابن عقيل وغيرهم ؛ وكان له إقبال شديد على أذكياء الطلبة ، وكان ثبتا صدوقا حجة ، سالم العقيدة من البدع الفلسفية ، كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن ، وهو الذى جرأ الناس على مصنفات ابن مالك ، وشرح لهم غامضها وألف كثيرا ، ومات بمصر سنة ٧٤٥ هـ

٨ ـ ومن الأندلسيين أصلا كذلك ابن مالك جمال الدين محمد بن عبدالله بن

مالك الامام العلامة الأوحد الطائى الجيانى الأندلسى ، المالكى حين كان بالمغرب ، الشافعى حين انتقل إلى المشرق ، النحوى نزيل دمشق .

ولد — رحمه الله — بجيان الأندلس سنة ٦٠٠ هـ أو فى التى بعدها ، وسمع بدمشق من مكرم ، وأبى صادق الحسن بن صباح وأبى الحسن السخاوى وغيرهم ، وأخذ العربية عن غير واحد ، فمن أخذ عنه بجيان أبو المظفر ثابت ابن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعى من أهل لبلة ، وأخذ القراءات عن أبى العباس أحمد بن نوار ، وقرأ كتاب سيبويه على أبى عبدالله بن مالك المرشانى ، وجالس ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب ، وتصدر بها لاقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية ، وأربى على المتقدمين . وكان إماما فى القراءات وعالما بها ، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبية .

وأما اللغة فكان اليه المنتهى فيها ، قال الصفدى أخبرنى أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى فى اللغة ، قال الصفدى : وهذا أمر يعجز ، لأنه يحتاج إلى جميع معرفة مافى الكتابين ، وأخبرنى عنه : أنه كان إذا صلى فى العادلية — لأنه كان إمام المدرسة — يشيعه قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيما له . ومع هذا لم ندر لأى سبب أغفل ابن خلكان ترجمته .

وقد روى عنه الألفية شهاب الدين محمود المذكور ، ورواها الصفدى خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ، ورواها إجازة عن ناصر الدين شافع ابن عبد الظاهر ، وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه . وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لا يجارى ، وإماما لا يبارى . أما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً وكان الأئمة الأعلام يتحيرون فى أمره . وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية ، وكان اكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب ، هذا مع ما هو عليه من الدين المتين والعبارة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن

السمت وكمال العقل ، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وتخرج عليه جماعة ، وكان نظم الشعر عليه سهلا رجزه وطويله وبسيطه .

ومن تصانيف ابن مالك « الموصل فى نظم المفصل » وقد حل هذا النظم فسماه : سبك المنظوم ، وفك المختوم ، ومن قال : إن اسمه فك المنظوم ، وسبك المختوم ، فقد خالف النقل والعقل ، ومن كتب ابن مالك « الكافية الشافية » ثلاثة آلاف بيت وشرحها ، و « الخلاصة » وهى مختصر الشافية ، و « إكمال الأعلام بمثلث الكلام » وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم و « لامية الأفعال وشرحها » و « فعل وأفعل » و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد و « عدة اللافظ وعمدة الحافظ » و « النظم الأوجز فيما يهمز » و « الاعتضاد فى الظاء والضاد » مجلد و « إعراب مشكل البخارى » و « تحفة المودود فى المقصور والممدود » وغير ذلك كشرح التسهيل .

وروى عنه ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين ابن أبى الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المزى ، والشيخ أبو الحسين اليونينى (شيخ المؤرخ الذهبى) ، وشهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين بن شافع ، وخلق سواهم . ومن رسوخ قدمه فى علم النحو أنه كان يقول عن ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل ، وصاحب المفصل نحوى صغير ، وناهيك بمن يقول هذا فى حق الزمخشرى . وكان الشيخ ركن الدين بن القوبع يقول : إن ابن مالك ما خلى للنحو حرمة . وقدم رحمه الله القاهرة ثم رحل إلى دمشق وبها مات ثانى عشر شعبان سنة ٦٧٢ هـ .

وكان ذا عقل راجح حسن الأخلاق مهذبا ذا رزانة وحياء ووقار وانتصاب للإفادة ، وصبر على المطالعة الكثيرة ، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره ، وسارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لها العلماء والأعيان ، وكان حريصاً على العلم حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد .

وذكر الصفدى عن الذهبى ، أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقى الدين

محمد الملقب بالأسد ، واعترضه العلامة العجيسى بأن الذى صنف له عن تحقيق المقدمة الأسدية ، قال : وأما هذه يعنى الألفية فذكر لى من أثق بقوله ، أنه صنفها برسم القاضى شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس ابن ابراهيم بن عفيف الدين ابن هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهنى الحموى الشافعى الشهير بابن البارزى .

وقال بعض المغاربة يمدح ابن مالك وألفيته :

لقد مزقت قلبى سهام جفونها ... كما مزق اللخمى مذهب مالك
وصال على الأوصال بالقد قدها ... فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها ... كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتها رق لرقة لفظها ... وإن كنت لا أرضاه ملكا لمالك
وناديتها يا منيتى بذل مهجتى ... ومالى قليل فى بديع جمالك

٩ - ومن المؤلفين فى التفسير أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد القرطبى (٢٣١ - ٢٧٦ هـ) ، وله تفسير ضخم ، قيل إنه لم يؤلف مثله فى الإسلام ، وفضل على تفسير ابن جرير الطبرى ، وكان من أكبر أئمة الحديث فى الأندلس ، روى عن ألف وثلاثمائة راو .

١٠ - ومن الأئمة رجال الدين فى اندلس يحيى بن يحيى بن كثير الليثى ، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراويها ومحدثها ، ارتحل إلى المشرق ، وسمع من الإمام مالك الموطأ ورواه عنه . حتى كان المشارقة يرجعون إلى روايته ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ . وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك فى الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمى ، وكان أمينا فى دينه معظما لدى الأمراء لترفعه عن القضاء . توفى بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

١١ - ومن فقهاء الأندلس المعروفين كذلك عبد الملك بن حبيب السلمى القرطبى ولد سنة ١٧٤ وتوفى سنة ٢٣٨ هـ . وكان فقيه عصره ، سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس وتوفى بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك ، عالما

بالتاريخ والأدب . ألف كتبا كثيرة منها «طبقات الفقهاء ، وطبقات المحدثين ، وتفسير موطأ مالك ، والواضحة ، وغيرها .

١٢ ـ ومن علماء التفسير والحديث المعروفين فى الأندلس : القاضى أبو محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطى ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، ومن أشهر كتبه « الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها .

١٣ ـ ومن العلماء الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وله : التمهيد والاستيعياب .

١٤ ـ ومن أشهر علماء الشريعة : القاضى عياض ، كان إمام الحديث فى وقته ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ هـ وولى القضاء بها ، وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ ، ومن كتبه الشهيرة : « كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى » و « طبقات الحاكمين » و « مشارق الأنوار فى غريب الحديث » وغيرها .

١٥ ـ ومن أئمة الدين المعروفين أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، سبق ذكره فى الفلاسفة ، وأصل جده الأعلى من بلاد فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلس . ولد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحديث والفقه ، حتى صار من كبار العلماء فى ذلك . وألف فى علم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم ، وكتب مباحث فى أصول الأديان وما كان من التبديل والتغيير فى بعضها . وألف رسائل فى الطب والأدب ، فكان عالما وأديبا وفقيها وشاعرا متفننا فى العلوم جميعها ، عاملا بعلمه حتى قالوا : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . وكانت بينه وبين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداء على التشنيع به ، حتى نفرت منه القلوب ، وأجمع فقهاء زمانه على تضليله ، فأقصته الحكام عن بلاده حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ . ومن أشهر كتبه : كتاب « الفصل

فى الملل والنحل ، تكلم فيه على مذاهب الفلاسفة ومعتقداتهم ، وفصل الكلام على الفرق الإسلامية . وهذا الكتاب من أفضل ما كتب فى هذه الموضوعات .

١٦ - والشاطبي صاحب الشاطبية فى القرآن ، وقد توفى عام ٥٩٠ هـ .

١٧ - وأبو العباس المرسى ، وكان مفسرا جليلا ، أخذ عنه ابن عطاء الله الاسكندرى ، وقد توفى بالاسكندرية عام ٦٨٦ .

١٨ - ومن أشهر مؤلفيهم فى التاريخ ابن حيان ، المتوفى عام ٤٧٦ هـ . صاحب « المبين » فى ستين مجلداً [١] والمظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وله كتاب « المظفرى » فى خمسين مجلداً ، وتوفى عام ٤٦٠ هـ . ومن كتبهم فى الطبقات كتاب « طبقات الأمم » للقاضى أبى القاسم صاعد ابن أحمد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ ، ذكر فيه تاريخ العلوم عند جميع الأمم ، وعد علماء كل أمة . ولابن بسام الشنتمرى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وهو تاريخ الأندلس وآدابها فى القرن الخامس الهجرى [٢] ، ومنه جزءان مخطوطان فى دار الكتب المصرية ، والثالث فى برلين ، وقد طبع الكتاب فى مصر .

ولابن بشكوال أبى القاسم خلف الخزرجى الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ : كتاب « الصلة » جعله ذيلا لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، الواقع فى عدة مجلدات ، وقد طبع كتاب « الصلة » فى مدريد

---

(١) وله : « المقتبس فى تاريخ الأندلس » فى عشر مجلدات وهو مفقود .

(٢) وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة أقسام : الأول فى أدباء أهل قرطبة وما يضاف إليها من بلاد أواسط الجزيرة ، والثانى فى أدباء الجانب الغربى من الأندلس من إشبيلية إلى ساحل البحر المحيط ، والثالث فى أدباء الجانب الشرقى ، والرابع فيمن طرأ على الأندلس من الأدباء ، وذكر المستشرق (جمس هيورث دن) أن الكتاب منه نسخة خطية كاملة فى مكتبة باريس .

فى مجلدين ، وبه ١٤٤٠ ترجمة ، وقد ذيله ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨ هـ ، فى كتاب سماه « تكملة الصلة » وقد طبع فى مدريد فى مجلدين فيهما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها ، وشعرائها . وللفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ كتابا : « قلائد العقيان » ، و « مطمح الأنفس » فى أخبار الوزراء ، والكتاب ، والعلماء والشعراء . ولقد بلغ من عنايتهم بالتاريخ ، أن أرخوا المدينة الواحدة فى كتاب ، كما فعل لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ ، فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » . ومن المؤرخين : على بن موسى بن سعيد المغربى الشاعر الرحالة الغرناطى ، رحل إلى مصر والشام وبلاد العراق والحجاز ، ودون مشاهداته فى مؤلفات بقى منها : « المغرب فى حلى المغرب » فى خمسة عشر مجلدا ، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه ، فى ١١٠ سنة ، وكتاب « المشرق فى حلى المشرق » فى ستين جزءا ، وهذا مفقود ، وتوفى ابن سعيد فى دمشق سنة ٦٧٣ . ولابن بطوطة المتوفى عام ٧٧٨ هـ كتابه : تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار . وكتاب لسان الدين بن الخطيب صاحب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » فى مجلدين وهو مرتب على حروف المعجم ، ابتدأه المؤلف بمقدمة عن ولاية غرناطة وعادات أهلها وشرح كثير من أحوالهم على أيامه ، وعبارته مسجوعة ، وتراجمه طويلة ، وآخرها ترجمة المؤلف لنفسه ، وهو خاص بمشهورى غرناطة ، عاصمة ملك بنى الأحمر .

ومن عنايتهم بالتاريخ ، أن نظموه شعراً ، كما فعل أحمد بن عبد ربه ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ صاحب العقد الفريد ، فإنه نظم حروب عبد الرحمن الناصر ونظم كذلك تاريخ المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ) . وسبقه إلى نظم التاريخ يحيى بن حكم الجيانى المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، فقد ذكروا أن له تاريخا منظوما .

١٩ — ومن الرحالة الأندلسيين المؤرخين : ابن جبير الأندلسى محمد بن أحمد بن جبير الكنانى (٥٤٠ — ٦١٤ هـ) . وكان ميلاده ببلنسية أو بشاطبة ، وتوفى

فى الاسكندرية . وكان مقيما بغرناطة ، وهو أديب شاعر مجيد ، وقد قام بعدة رحلات إلى المشرق :

الأولى : قام بها من غرناطة عام ٥٧٨ هـ ، وعاد إلى غرناطة فى محرم سنة ٥٨١ هـ ، وقد زار فيها مصر والحجاز والشام وبغداد .

والثانية : قام بها من غرناطة عام ٥٨٥ ، وعاد إليها عام ٥٨٧ هـ .

والثالثة : قام بها من سبتة ودخل فيها مكة ، ثم عاد إلى بيت المقدس ، ورحل إلى مصر ، فأقام بالاسكندرية حتى توفى .

ويحدثنا ابن جبير (٥٤٠ — ٦١٤ هـ) فى رحلته الكثير من المعلومات عن صقلية ، وانتشار المسلمين فيها ، ويصف ملك الجزيرة المسيحى وحسن سيرته واستخدامه للمسلمين وأنه كثير الثقة بالمسلمين يسكن إليهم فى أحواله ، ويذكر تشبه الملك بملوك المسلمين ، ويقول ابن جبير : ومن عجيب شأن هذا الملك أنه يقرأ ويكتب بالعربية (١) .

ثم يتكلم على الجزائر المجاورة لصقلية واضطهاد المسلمين بها وإلجاءهم إلى التنصر وتعذيبهم ، وما تبع ذلك من أحوال تسوء كل مسلم (٢) .

ويذكر كذلك استرقاق المسلمين رجالا ونساء فى سردانيا (٣) .

هذا كله بعد أن كانت كريت فى القرن الرابع : جميع سكانها مسلمون ، وكان أميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبى حفص البلوطى الأندلسى وذلك عام ٣٤٥ هـ ، وقد غزا المسلمون كذلك جزيرة صقلية زمان بنى الأغلب عام ٢١٢ هـ ، ثم قرعوا أبواب روما وضربوا الجزية على البابا (٤)

---

(١) ٣٠٨ و ٣٠٩ رحلة ابن جبير .

(٢) ٣٠٩ - ٣٢٤ » »

(٣) ص ٤ المرجع .

(٤) ٢٤ حضارة العرب فى الأندلس للبرقوقى

٢٠ ـ ومن مؤرخى الأندلس المقرى صاحب نفح الطيب شهاب الدين أحمد بن محمد أبو العباس المقرى التلمسانى (٩٨٨ — ١٠٤١ هـ) : من أفذاذ الأدباء والمفكرين العرب فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وقد نشأ فى مدينة مقرة ، فى إقليم الزاب بالمغرب الأوسط ، ورحل إلى جهات كثيرة فى المغرب ، وإلى البلاد الإسلامية : مصر والحجاز والشام ، ومات فى القاهرة ، حيث دفن فى مقبرة المجاورين ، بعد أن ترك وراءه آثارا أدبية خالدة ، ومؤلفات ممتازة مشهورة ، وذكراً مدويا فى كل مكان .

وترجع أهمية تآليف المقرى إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب العربى فى الأندلس والمغرب ، وموسوعة تاريخية كبرى عن الحياة السياسية والفكرية والأدبية فى هذه البلاد ؛ وقد طارت شهرة كتابه « نفح الطيب » فى العالم كله ، وعد مرجعاً أصيلا فى الآداب العربية فى الأندلس خلال حكم العرب لها ، وقد استقى المقرى مواد هذا الكتاب من مئات المراجع التى ضاعت بعد عصره ، وبقى ذكرها وآثار منها فى نفح الطيب .

وظل تاريخ المقرى مجهولا أو شبه مجهول ، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسى معاصر ، هو البحاثة « الحبيب الجنحانى » الذى تحدث فى مفتتح كتاب ألفه عن المقرى بعنوان « المقرى صاحب نفح الطيب » عن الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى فى عصر المقرى ، وتكلم عن حياة المقرى وآثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية فى عصره فى شىء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد .

وفى آخر هذا الكتاب القيم يتكلم المؤلف عن المقرى المؤرخ والشاعر والكاتب ، ويأتى بنماذج مختارة من أدبه . ثم يحصى شتى المصادر التى رجع إليها فى كتابة بحثه .

٢١ ـ ومن علماء الأدب فى الأندلس :

الأعلم الشنتمرى المتوفى عام ٤٧٦ هـ ، وله كتب عديدة منها : شرح كتاب سيبويه ، وشرح ديوان زهير ، وشرح الشعراء الستة الجاهليين .

ومنهم : أبو على القالى صاحب الأمالى (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) .

وقد ولد ونشأ فى ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم فى بغداد . ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ فحفل به عبد الرحمن الناصر وجعله مؤدب ابنه الحكم ومعلمه . واشتهر أمر القالى فى الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدباء زمانه . واشتغل بالتدريس فى مسجد قرطبة وهناك أملى على تلاميذه كتاب الأمالى المشهور .

والقالى اسمه إسماعيل ، ولقبه أبو على ، واسم أبيه القاسم ، وكان من موالى عبد الملك بن مروان . وأكثر أبو على من حفظ اللغة والشعر ، وعنى عناية شديدة بدرس نحو البصريين ، وتتلمذ لابن دريد ، ونفطويه ، وابن درستويه ، وغيرهم . وقد أقام ببغداد خمسا وعشرين سنة ، ثم أقام بالموصل زمناً ، ثم وفد على الأندلس فى زمن الناصر ، وكان ابنه الحكم يتصرف حينئذ من أمر أبيه كالوزير ، فأمر عاملهم ابن رماحس ؛ أن يجىء مع أبى على إلى قرطبة فى وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ، ويتناشدون الأشعار ، إلى أن تجاوزوا يوماً ، وهم سائرون ، أدب عبد الملك بن مروان ، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل ، وإنشاده البيت :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت : « أعرافها

لأيدينا مناديل » . فأنكرها ابن رفاعة الألبيرى . وكان من أهـــل الأدب والمعرفة ، وفى خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا على البيت مستثبتا مرتين ، وفى كلتيهما أنشده « أعرافها » ، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لايقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لايغلط الصبيان فيه ، والله لاتبعته خطوة » ، وانصرف عن الجماعة ، وندبه أميره ابن رماحس ألا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب إلى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق إلينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه .

ومن علماء الأدب كذلك ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)

وكتابه « العقد الفريد » يحسب من أمتع كتب الأدب وأجلها فائدة وأوسعها مادة . جرى مؤلفه فى تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه ، فقسمه إلى عقود وجواهر ، تكلم فى كل باب منها على موضوع خاص . فجاء وافيا فى الأدب العربى وتاريخ العرب وأحوالهم ، جامعا لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة ، وكثير من المسائل الأدبية محتويا على جملة من الحكايات والنوادر والملح ، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر . وأكثر الكتاب مختار من كلام الكتاب والمؤلفين من أهل المشرق ، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب .

ومن علماء الأدب فى الأندلس كذلك :

جمـــال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطى المعروف بابن الاشتركونى المتوفى سنة ٥٣٨ ، وله خمسون مقامة أنشأها بقرطبة على منوال مقامات الحريرى والتزم فيها مالا يلزم ، ولذا تعرف بالمقامات اللزومية ، وحدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام ، وأبو الحسن على بن موسى الأندلسى المتوفى عام ٦٧٣ هـ ، وله كتاب « ريحانة الأدب » جمع فيه بين عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار .

ومن علماء الأدب كذلك : الشريشى ، ومدينة « شريش » المنسوب إليها أديبنا الشريشى شارح مقامات الحريرى هى إحدى القرى الجميلة القديمة فى الأندلس ، ويصف ابن ليال الشاعر متنزها فيها يسمى « إجانة » فيقول :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدت زمان ربيع أو زمان عصير
مذانب ماء كاللجين على حصى كدر بلا ثقب أغر نثير
ورمل إذا ما ابتل بالماء عطفه غنينا به عن عنبر وذرور
وتين كما قامت على حلماتها نهود عذارى الزنج فوق صدور
كأن القباب الخز فيها عرائس على سرر مفروشة بحرير

ويذكر الشريشى فى هذا الكتاب عرضا أسماء بعض شيوخه ، ومنهم : ابن جبير(١) الرحالة الأندلسى المشهور الذائع الصيت . . . وهذه قصة أدبية يشير فيها إلى أستاذه أبى عبد الله بن زرقون ، وفيها شىء من تاريخ صباه وبداهته الحاضرة ، قال الشريشى(٢) : حدثنى الفقيه أبو عبدالله بن زرقون فى بستانه بطريانة أيام قراءتى عليه النودار والكامل ، وكان رحمه الله مذاكرا بالطريقة الأدبية مع تميزه بالطريقة الفقهية ، فدارت بينى وبينه فى إحدى العشيات ، أنواع من المذاكرات ، فى فنون أدبيات ، فاهتز رحمه الله وهش وأظهر السرور بى وأنا يومئذ غلام مابقل عذارى ، فقال لقد علمت أن بينى وبينك أخوة ، قلت : وكيف ذاك ياسيدى ؟ فقال إنى ولدت ببلدك شريش فزدت بالحديث غبطة واستزدت منه فقال لى ومع ذلك فثم قصة مستظرفة : اعلم أنى كنت اجتزت بشريش قافلا من العدوة مع الفقيه أبى بكر عبد الله بن العربى رحمه الله ، فلما صرنا فى بطاحها وبين كرماتها وجنانها ، أخذ الفقيه أبو بكر يثنى عليها بكل لسان ، على كثرة مارأى من البلدان ، ويقول : إن الأشياء التى جمعت فيها لاتكاد تجتمع فى بلدة من كثر الزرع والضرع والزيت والعصير والملح

---

(١) راجع ١٢٦ ج ٣ من هذا الكتاب ومواضع أخرى - نشر خفاجى .
(٢) شرح المقامات ج ٢ .

وغير ذلك ، فقلت له : أعلمت أنى ولدت بها فقال لى أبو بكر : أتقول أنت الآن مسقط الرأس شريش ؟ فقلت له مجيزاً : وبها كنت أعيش ، فقال أبو بكر : وردها من سلسبيل ، فقلت : وصحاريها عريش . ثم سرنا فى طريقنا على قوافى السروجية ، فرددناها شريشية ، وقدمنا بها الطريق ونحن لانشعر فكانت أسر عشية بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنه قد نيف على الثمانين بسنتين ، يحدثنى عن ابن العربى وابن عبدون الكاتب ونظرائهم فى رياض كلها نزهة على نهر أشبيلية وهى أمامنا على بهجتها وجمالها ، مادحاً ولبلدى ليدخل على بذلك مسرة ، نسأل الله تعالى أن يبلغه غاية السرور فى دار البقاء .

« وشرح المقامات للشريشى » مجموعة علم وأدب ، ودائرة معارف ثقافية واسعة ، ومصدر من مصادر الأدب العربى القديمة ، وهو بحق ثروة علمية ثمينة ، وهو جدير بعناية الأدباء والعلماء به واهتمامهم بدراسته والاطلاع عليه ، فوق أنه عظيم الأهمية فى دراسة الأدب العربى القديم فى الأندلس وبلاد المغرب ؛ لما تضمنه من طرائف وفصول قيمة وإشارات لطيفة ، عن الأدب الأندلسى وأعلامه .

ويقول السيوطى عنه فى بغية الوعاة (ص ١٤٣) : أحمد بن عبد المؤمن ابن موسى بن عيسى ابن عبد المؤمن القيسى الشريشى ، أبو العباس النحوى ، شارح المقامات . قال ابن عبد الملك : كان مبرزا فى المعرفة بالنحو ، حافظا للغات ، ذاكراً للآداب ، كاتباً بليغاً فاضلا ثقة ، عنى بالرحلة فى طلب العلم ، وروى عن أبى الحسن ومصعب بن أبى ركب وابن خروف ، وخلق ، وعنه : ابن الأبار وابن فرتون وأبو الحسن الرعينى ، وتصدر لإقراء اللغة والأدب والعربية والعروض . . . وله ثلاثة شروح على المقامات ، وشرح الإيضاح ، وشرح عروض الشعر ، وعلل القوافى ، وشرح الجمل ، ومختصر نوادر القالى ، وغير ذلك ، مات بشريش فى ذى الحجة سنة ٦١٩ هـ .

وترجم له المقرى فى الجزء الأول من كتاب نفح الطيب ص ٣٧٦ فقال : الكمال أبو العباس أحمد الشريشى ، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى

ابن عبد المؤمن القيسى من أهل شريش . روى عن أبى الحسن بن ليال ، وأبى بكر بن أزهر ، وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبى الحسين بن جبير ، وغيرهم . وأقرأ العربية ، وله تآليف أفاد بما حشد فيها ، منها : شرح الإيضاح للفارسى ، والجمل للزجاج ، وله فى العروض تآليف ، وجمع مشاهير قصائد العرب ، واختصر نوادر أبى على القالى . قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبى الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهى إلى أشبيلية فى سنة ٦١٦ ، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه وأجاز لى سائره مع رواياته وتآليفه ، وأخذ عنه أصحابنا ، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية : ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر ... فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم ... ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت ... بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بين النيرين ضحى ... والغيم يبكى ، ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والأغصان راقصة ... والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتى التى سلفت ... لى منه؟ فهى لعمرى عندى العمر
سقاك ياسفح سفح الدمع منهملا ... وقل ذاك له إن أعوز المطر

وله شروح لمقامات الحريرى : كبير ووسط وصغير ، وفى الكبير من الآداب مالا كفاء له . وكان رحمه الله معجبا بالشام . وقال ابن الأبار عندما ذكره إنه شرح مقامات الحريرى فى ثلاث نسخ ، كبراها الأدبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة .

ومن الأدباء المؤلفين : أبو الوليد الباجى ، ولد عام ٤٠٣ ، وتوفى فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وذلك عام ٤٧٤ هـ [1] . وكان يعاصره

---

(١) ١٧٣ — ٢٠٢ : ٦ نفح الطيب

محمد بن حزم الظاهرى [١] (٣٨٤ — ٤٥٦ هـ) .

ومنهم محمد بن الوليد الفهرى (٤٥١ — ٥٢٠ هـ) [٢] ، والكاتب محمد ابن عبد ربه المالقى من أدباء القرن السادس الهجرى [٣] ؛ وأبى الصلت أمية ابن عبدالعزيز بن أبى الصلت الإشبيلى (٤٦٠ — ٥٢٩ هـ) ، وكان شاعراً مجيداً [٤] ، وبرع فى الفلسفة والطب ؛ وأبو العباس الشريشى . وقد سبقت ترجمته بتفصيل [٥] ، وتوفى عام ٦١٩ هـ ، والوزير أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن بن عبد ربه حفيد صاحب « العقد الفريد » من أدباء الأندلس فى القرن السادس وأوائل السابع الهجرى [٦] .

ومن العلماء الأجلاء بقى بن مخلد (٢٠١ — ٢٧٦ هـ) ، وقاسم بن ثابت السرقسطى المحدث أول من أدخل كتاب العين الأندلس ، وتوفى عام ٣٠٢ هـ

ويقال إن تآليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمى الفقيه الإمام بلغت ألفا (٧) ، وكان الأديب الشاعر محمد بن سعيد الذى عاصر عهد عبدالرحمن ابن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) يلقب بالأصمعى لقوة ذكائه .

اما يحيى بن يحيى الليثى (٨) المتوفى عام ٢٢٤ هـ بقرطبة ، فهو الذى انتهت إليه الرياسة بالأندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك (٩) فيها ؛ ومنذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة (١٠) فى عهد الناصر ، مكانته أجل من أن تجحد .

---

(١) ٢٠٢ — ٢٢٢ : ٦ المرجع

(٢) ٢٢٢ — ٢٣٢ : ٦ المرجع

(٣) ٢٥١ — ٢٥٦ : ٦ المرجع

(٤) ٢٨٠ — ٢٩٢ : ٦ المرجع

(٥) راجع ٣٠٦ — ٣١٠ : ٦ المرجع ، وص ٢٣ من هذا الجزء

(٦) ٣١٥ — ٣١٩ : ٦ المرجع

(٧) ٨ ج ٦ نفح الطيب ـ نشر فريد رفاعى

(٨) ١٦ ج ٦ نفح الطيب

(٩) ١٩ : ٦ المرجع (١٠) ٣٤ — ٤٧ : ٦ المرجع

وقد سافر إلى الشرق وسنه وقتئذ ثمان وعشرون سنة ، وتلقى العلم على أستاذه مالك بن أنس الذى أملى عليه كتابه المعروف بالموطأ ، وحدث أن كان يحيي ذات يوم فى إحدى دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقائه ، فقال قائل : « حضر الفيل » ، فجروا جميعاً لرؤيته ، ولم يتحرك يحيي من مكانه ، فسأله مالك : « لم لم تذهب لتراه ، وليس فى بلادك مثل هذا الحيوان ؟ » فأجابه يحيي : « لقد تركت بلادى لأراك وأتلقى عنك الدروس ، ولم آت هنا لرؤية الفيل » ، فسر مالكا هذا الجواب وقال عنه إنه عاقل الأندلس ، ولما عاد يحيي إلى إسبانيا ، بذل كل ما فى وسعه لنشر تعاليم مذهب مالك — ولئن كان يحيي هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أى منصب من المناصب العامة ، فقد عظم تأثيره لذلك وذاع صيته إلى حد أن وصلا — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لا يولى قاض فى الأندلس إلا بعد أن يؤخذ رأى يحيي فيه ، وإلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس (١) .

ومن علماء الأندلس : أبو محمد القاسم الشاطبى (٥٣٨ — ٥٩٠ هـ) وقد دخل مصر عام ٥٧٢ هـ ، ودفن بالقاهرة بالتربة الفاضلية بسفح جبل المقطم ، والإمام القاضى أبو بكر ابن العربى (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ) ، ودفن بفاس .

ومن المحدثين : عمر بن الحسين الظاهرى الأندلسى المحدث (٥٤٨ — ٦٠٣ هـ) توفى بالقاهرة ودفن بسفح المقطم .

---

(١) ابن خلكان ج ٤ ص ٢٩ ، ويقول المقرى فى ذلك « ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدث ، يحيي بن يحيي الليثى راوى الموطأ عن مالك رضى الله تعالى عنه ، ويقال أن أصله من برابرة مصمودة — وحكى أنه لما ارتحل إلى مالك ولازمه ، فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه ، إذ قال قائل « حضر الفيل » فخرج أصحاب =

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلى الحديث مباشرة فى اتخاذه شرعا للبلاد ، قال عالم من كتاب القرن العاشر : « لقد كان الإسبانيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ ، فكانوا إذا وجدوا تابعا من أتباع مذهب أبى حنيفة أو الشافعى طردوه من إسبانيا ـ والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمى لمذهب ما ، فإنهم كثيراً ما كانوا يخمدون أنفاسه (١) .

ومن أئمة الصوفيين بالأندلس أبو عبد الله القرشى الهاشمى (٥٤٤ — ٥٩٩ هـ) (٢) ، ومحمد بن سراقة الشاطبى (٥٩٢ — ٦٦٣ هـ) وأقام بمصر نحو العشرين عاما وبها توفى .

= مالك كلهم ، فقال مالك : « مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك ؟ » فقال « إنما جئت من الأندلس لأنظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لأنظر إلى الفيل » فاعجب به مالك وقال : « هذا عاقل الأندلس » ولذلك قيل : « إن يحيى هذا عاقل الأندلس ، وعيسى بن دينار فقيهها ، وعبد الملك بن حبيب عالمها ، ويقال إن يحيى راويها ومحدثها ، وتوفى يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ هـ فى رجب وقبره كان يستسقى به بقرطبة » .

« وكان مع أمانته ودينه معظما عند الأمراء يكنى عندهم . عفيفا من الولايات منزها ، جلت رتبته عن القضاء ، وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الأمر بالأندلس ، لزهده فى القضاء وامتناعه ـ قال الحافظ بن حزم ـ « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبى حنيفة ، فانه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله ، من أقصى المشرق إلى أقصى عمل أفريقيا ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول فى القضاء وكان لا يلى قاض فى أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع إلى الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ـ على أن يحيى لم يقبل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ـ وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم .

(١) المقدسى ص ١٤٤ (٢) ١٣٧ — ١٤٤ : ٦ نفح الطيب

ومن علماء الأندلس كذلك : عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي الأندلسي المالقي المتوفى عام ٥٨١ ، العالم بالعربية واللغة ، ومن تصانيفه : الروض الأنف [١]

ومنهم : محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي الضرير (المتوفى عام ٦٩٨ هـ) قدم دمشق وسمع بها على شيوخ عصره ، وتوجه منها إلى حلب عام ٧٤٣ هـ [٢] .

ويوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي الأعلم النحوي ، مات باشبيلية عام ٤٧٦ هـ ، وميلاده عام ٤١٦ هـ ، ومن مؤلفاته : شرح على الحماسة .

وألف القرطبي : محمد بن عبد الرؤوف بن محمد الأزدي الكاتب العالم بالأخبار واللغة ، المتوفى عام ٣٤٣ هـ ، كتابا في أخبار شعراء الأندلس .

ولابن آبان محمد القرطبي الأندلسي ، شرح لديوان المتنبي ، وكان عالما باللغة والأخبار والأنساب ، وتوفى سنة ٣٥٤ هـ [٣] .

ولابن السراج محمد بن سعيد الشنتمري النحوي الأندلسي المالكي المتوفى عام ٥٤٩ هـ ، كتاب « جوهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب » ، ومختصر العمدة لابن رشيق .

وألف الاشبيلي محمد بن خلف المتوفى سنة ٥٨٦ هـ شرح الأشعار الستة ، وشرح الفصيح في اللغة .

وألف الأندلسي محمد بن يحيى الشاطبي المتوفى عام ٥٤٧ هـ تاريخا لملوك الأندلس .

وألف محمد بن صالح القحطاني الأندلسي المتوفى عام ٣٨٣ هـ تاريخا للأندلس .

وألف الباجي محمد بن أحمد اللخمي الاشبيلي الأندلسي المالكي المحدث (٣٥٦ — ٤٢٣ هـ) كتبا كثيرة .

وألف ابن الحذاء القرطبي محمد بن يحيى (٣٤٨ — ٤١٦ هـ) كتاب : « الخطب والخطباء » .

---

(١) ١٨٧ نكت الهميان (٢) ٢٤٤ نكت الهميان

(٣) ٤٣ : ٢ هدية العارفين تأليف اسماعيل البغدادي باشا ، طبعة استامبول ١٩٥٥ .

وألف الحميدى محمد بن أبى نصر الأندلسى م ٤٨٨ هـ « جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس » .

وللطرطوشى محمد بن الوليد الأندلسى (٤٥١ — ٥٢٠ هـ) كتاب سراج الملوك ، وللسرقسطى محمد بن حكم الأندلسى م سنة ٥٣٨ هـ كتاب شرح الإيضاح لأبى على الفارسى ، ولابن الاشتركونى محمد بن يوسف السرقسطى الأندلسى م ٥٣٨ هـ شرح للكامل للمبرد ، والمقامات السرقسطية فى خمسين مقامة .

وممن نشأوا فى الأندلس الشيخ الأكبر محمد بن على بن العربى الطائى الحاتمى الأندلسى المولود بالأندلس عام ٥٦٠ هـ والمتوفى بدمشق عام ٦٣٨ هـ وهو من أئمة الصوفية .

وللأستجى أبى عبدالله محمد بن أحمد الأندلسى المتوفى عام ٦٤٠ هـ كتاب : الحلل فى نظم الدول ، وللوادى آشى المتوفى سنة ٦٥٧ هـ مختصر إحياء علوم الدين للغزالى ، وللرسى محمد بن عبد الله الأندلسى (٥٧٠ — ٦٥٥ هـ) كتاب البديع والبلاغة ؛ ولابن هشام محمد بن يحيى الأنصارى النحوى الأندلسى (المتوفى عام ٦٤٦ هـ) شروح على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ؛ ولابن سراقة محمد بن محمد الأندلسى (٥٧٢ — ٦٦٢ هـ) كتاب إعجاز القرآن ؛ ولابن منظور الافريقى (٦٣٠ — ٧١١ هـ) كتاب لطائف الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . ولأبى حيان الأندلسى محمد بن يوسف (٦٥٤ — ٧٤٥ هـ) مؤلفات كثيرة فى النحو والتفسير ؛ وللشريشى محمود بن أحمد الأندلسى م ٧٦٩ هـ شرح على مفتاح العلوم للسكاكى .

ومن الأدباء كذلك : الفتح محمد بن عبد الله بن خاقان الإشبيلى . ولد سنة ٤٨٠ ، وتوفى سنة ٥٢٩ هـ . ونشأ ببلاد الأندلس ، ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها . وكتب لبنى تاشفين ، وألف كتابيه « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » ، وهما من أشهر ما كتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم .

مؤرخون أندلسيون :

وهم كثيرون أشهرهم :

١ — أبو بكر بن القوطية : ومن مصنفاته تاريخ الأندلس من فتحها إلى عبد الرحمن الناصر .

٢ — ابن حزم ، وله عدة مؤلفات فى الأحكام والفقه والملل وغيرها ، وله كتاب صغير سماه نقط العروس ، ذكر فيه وقائع تاريخية فى الأندلس ، وأخلاق وعادات بنى أمية فيها ، وهو كتاب مفيد لم يصل لنا منه سوى بعض أبواب حفظها المؤرخون الذين بعده [١] .

٣ — أبو مروان بن حيان القرطبي ، المعروف بابن حزم ، المتوفى سنة ١٠٧٦ م . كان رئيس الشرطة فى قرطبة ، وله كتاب « المقتبس فى تاريخ الأندلس » فى عشر مجلدات ، ثم كتاب « المتين أو المبين » ، كما جاء فى كشف الظنون ، فى تاريخ الاندلس أيضاً فى ستين مجلداً ، ولم يصل إليه من مؤلفه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين ، ويتضح منها حسب رأى دوزى أن وصف الحوادث التاريخية ونقدها كان فى مؤلفات بن حزم مستوفياً لا يقبل الزيادة .

٤ — أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٩٥ م ، أصله من قرطبة روى عن أبى محمد على بن حزم الظاهرى واكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته ، وحج إلى مكة سنة ١٠٥٦ م ، وطاف بافريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد . وله عدة مؤلفات منها : تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » فى مجلد واحد ، يقول فى مقدمته إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه [٢] .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٤٠

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٥

٥ — لسان الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب ، المتوفى سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م ، كان وزيراً لأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة ، وصنف له كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » الذى أخذ عنه المقرى .

٦ — أبو العباس المقرى ، المتوفى سنة ١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م ، أصله من الغرب واستوطن القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة .

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب ، اشتهر منهم : ابن عذارى المراكشى ، وله كتاب « البيان المغرب فى أخبار المغرب » .

وممن نبغ فى الأندلس : ابن البيطار المالقى ، المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ وقد درس النباتات فى الشام وبلاد الروم واليونان ، وله كتاب « مفردات الأدوية » ، وكان من خدم الملك الكامل الأيوبى ، وكان يعتمد عليه فى معرفة الأدوية ، ولا يزال مرجعا أصيلا فى بابه .

مدرسة النحو بين مصر والأندلس :

من هؤلاء : أبو عمرو عثمان المعروف بابن الحاجب ، تخرج بها وبرع فى علوم العربية وغيرها ، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها ، قال ابن خلكان : وقد سألته عن مواضع فى العربية مشكلة ، فأجاب أبلغ إجابة ، ومن جملة ذلك أنى سألته فى بيت المتنبى :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

عن السبب فى خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر فأطال الكلام ، وأحسن الجواب ، ولم يذكر ابن خلكان صورة إجابة ابن الحاجب على ذلك خوف الإطالة ، وأقول : يجوز فى هذا أن يكون الجر بحتى ولات كلا ليست حاجزاً كما جروا بالباء فى قولهم « جئت بلازاد » على رأى ؛ ونصبوا المضارع بأن فى نحو (لئلا يعلم) ، وفى شرح المتنبى للعكبرى فى هذا

الموضع التاء فى لات زائدة ، وقد تزاد فى الحروف كثم وثمت ورب وربت والجر به شاذ ، وقد جر به العرب ، وأنشدوا :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

ثم عاد ابن الحاجب إلى القاهرة ، وأخذ عنه خلق كثير ، ومن مصنفاته الكافية فى النحو والشافية فى الصرف وتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

وعلى الكافية شروح كثيرة من أشهرها شرح رضى الدين محمد ابن الحسن الاستربادى المتوفى حوالى سنة ٦٩٠ هـ .

وهذا الشرح جليل الاعتبار ، كثير الفوائد ، فيه أشياء لا توجد فى غيره وشواهد هذا الشرح أخذها عبد القادر البغدادى ، المتوفى بالقاهرة ١٠٩٣هـ ، وبنى عليها خزانته المشهورة المسماة : خزانة الأدب ، ولب لباب لسان العرب ، وهى واسعة الأرجاء ، مملوءة بجواهر الأدب ، قل أن يوجد كتاب فى بابها يحاكيها ؛ فهى ضالة الأديب ، وقد طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ فى أربعة أسفار ضخمة .

ومن أشهر علماء النحو محمد بن عبد الله بن مالك ، نشأ بمدينة جيان من الأندلس ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها ، وكان بحراً لا يشق عبابه فى العلوم خصوصاً فى النحو ، وتصدر بحلب لإقراء العربية ، وكان يجتمع به قاضى القضاة ابن خلكان ويحترمه لعلمه ، ومن تصانيفه منظومة الكافية الشافية فى النحو ، وهى ثلاثة آلاف بيت ، وشرحها ثم لخصها فى أرجوزة سماها : الخلاصة ، وهى ألف بيت ولذا تعرف بالألفية ، ونثر هذه فى كتاب سماه : الفوائد النحوية والمقاصد المحوية ، ولتسهيل هذا الكتاب وتكميله صنف كتاباً سماه : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، واشتهر كتاب التسهيل دون كتاب الفوائد ، ومن تصانيفه أيضا : الأعلام بمثلث الكلام ، وعدة اللافظ وعمدة الحافظ ، وتوفى بدمشق ٦٧٢ ، وقد سبقت ترجمته .

هذا وقد أقبل الناس إقبالا زائداً على الألفية يحفظونها ويتعرفون أحكامها؛ ولذا أكثر العلماء من شرحها ، فممن شرحها : محمد بن ناظمها المتوفى سنة ٦٨٦ بدمشق ، وعبد الله بن عبد الرحمن المشهور بابن عقيل المتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٨ ، وحسن بن قاسم المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وقد شرح التسهيل أيضاً. وأبو زيد عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠١ ، وأبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ، وبدر الدين على الأشمونى المتوفى فى حدود سنة ٩٠٠هـ ، وهذا الشرح يسمى: منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، ويدرس بالأزهر بعد شرح ابن عقيل لأنه أوسع منه وأصعب.. وقد دونوا على هذه الشروح حواشى، فمن ذلك: حاشية أحمد بن قاسم العبادى المتوفى سنة ٩٩٢ على شرح ابن الناظم، وحاشية الشيخ أحمد السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧ بمصر على شرح ابن عقيل ، وحاشية الشيخ محمد الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٨٨ على هذا الشرح، وهى أوسع وأنفع من حاشية السجاعى وكلاهما يقرأ بالأزهر ، وحاشية الشيخ محمد الحفنى المصرى المتوفى سنة ١١٠١ بمصر على شرح الأشمونى ، وحاشية الشيخ محمد الصبان المصرى المتوفى سنة ١٢١٦ على هذا الشرح أيضاً ويقرأها المنتهون بالأزهر .

ومن إشبيلية : على بن محمد الكتامى أبو الحسن المعروف بابن الضائع ، كان إماماً فى العربية لا يجارى، لازم الشلوبين وفاق أصحابه بأسرهم ، أملى على إيضاح الفارسى ، ورد اعتراضات ابن الطراوه على الفارسى، واعتراضات على سيبويه ، واعتراضات البطليوسى على الزجاجى ، ورد على ابن عصفور معظم اختياراته، وله شرح الجمل وشرح كتاب سيبويه، جمع فيه بين شرحى السيرافى وابن خروف ، وله فى مشكلاته ، عجائب توفى سنة ٦٨٠ .

وكان من أهل فاس : أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود المعروف بابن آجروم الصنهاجى ، نسبة إلى صنهاجة وهى قبيلة بالمغرب المتوفى سنة ٧٢٣ ، ولا يؤثر عنه إلا متن الأجرومية ، وعليها شروح كثيرة . منها : شرح الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ ، وعليه حاشية للسيد محمد أبى النجا من نحاة

القرن الثالث عشر، ومنها : شرح الشيخ حسن الكفراوى الأزهرى المتوفى سنة ١٢٠٢ بالقاهرة . وعلى الأزهرية حاشية للشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢ ، وحاشية للشيخ حسن العطار المصرى المتوفى سنة ١٢٥٠ .

واشتهر من الأندلس : أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ، نزيل مصر ، كان إمام عصره فى فنون الأدب أخذ عن ابن الضائع وغيره ، وأخذ عنه كثير من الأئمة : كتقى الدين السبكى وابن قاسم وابن عقيل والسمين ، وكان يقرئ الناس كتاب سيبويه ومصنفات ابن مالك ويرغبهم فيها ويشرح لهم غامضها ، ومصنفاته فى العربية كثيرة . منها : التذييل والتكميل فى شرح التسهيل ، وهو مطول ، واختصره فى كتاب سماه : ارتشاف الضرب من لسان العرب . قال الصفدى : لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر فى كتاب . وكان ثبتاً قيما عارفاً باللغة ، وأما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما ، وخدم العلم أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد فى أقطار الأرض ، وله اليد الطولى فى التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً المغاربة ، ومن شعره :

عداى لهم فضل على ومنة ... فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ... وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

ومنه :

سبق الدمع بالمسير المطايا ... إذ نوى من أحب عنى نقله
أجاد السطور فى صفحة الخد ... ولم لا يجيد وهو ابن مقله

ومات بالقاهرة سنة ٧٤٥ .

واشتهر من مصر : عبد الله بن هشام الأنصارى ، خاتمة النحاة ذوى الآراء والمذاهب ، كان إماماً لا يبارى ، ومصنفاته فى النحو تشهد له برفعة المكانة ورسوخ القدم ، وللناس إقبال عليها . فمنها : قطر الندى وبل الصدى وشرحه ، وشذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، وشرحه ، ويقرأ القطر

والشذور بالأزهر قبل شرح ابن عقيل على الألفية وبعد الأزهرية . ومنها : مغنى اللبيب ورتبه على ثمانية أبواب . الأول : فى تفسير المفردات وفيه يذكر حروف المعانى وما أشبهها . والثانى : فى تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها والثالث : فى ذكر أحكام مايشبه الجملة وهو الظرف والجار والمجرور وذكر حكمهما فى التعلق . والرابع : فى ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها . والخامس : فى ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على المعرب من وجهتها . السادس : فى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها والسابع : فى كيفية الإعراب . والثامن فى ذكر أمور كلية يتخرج عليها مالا ينحصر من الصور الجزئية ، وهى إحدى عشر قاعدة ، ويندرج تحت كل باب مواد كثيرة تعرف من الاطلاع على الكتاب ؛ وله أيضاً كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وقد نثرها فيه ويعرف بالتوضيح . قال الأمير فى حاشيته على المغنى هذا : ولد ابن هشام بالقاهرة سنة ٧٠٨ ولم يأخذ عن أبى حيان غير أنه سمع منه ديوان زهير بن أبى سلمى ، ومن شعره :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ... ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس فى طلب العلا ... يسيراً يعش دهراً طويلا أخا ذل

وتوفى سنة ٧٦١ ، ورثاه ابن نباتة المصرى شاعر الملك المؤيد صاحب مصر وحماه بقوله :

سقى ابن هشام فى الثرى نوء رحمة ... يجر على مثـــواه ذيل غمام
سأروى له من سائر المدح سيرة ... فما زلت أروى سيرة ابن هشام

تورية بعبد الملك بن هشام صاحب السيرة .

وقد اعتنى العلماء بمصنفات ابن هشام فشرحوها وكتبوا عليها الحواشى ؛ فمن ذلك : تحفة القريب فى الكلام على مغنى اللبيب ، لمحمد بن أبى بكر المخزومى الاسكندرى المعروف بالدمامينى ، ولد بالاسكندرية وتوفى بالهند سنة ٨٢٧ ، وألف هذا الشرح بأمر السلطان أبى الفتح ناصر الدين محمد شاه الهندى ؛

والتصريح بمضمون التوضيح وهو شرح للشيخ خالد الأزهرى المتوفى بالقاهرة سنة ٩٠٥ ، وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لأبى يحيى زكريا الأنصارى المتوفى بمصر سنة ٩٢٦ ؛ وحاشية السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧ على شرح القطر ؛ وحاشية محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢ ؛ وحاشية محمد الدسوقى المتوفى سنة ١٢٣٩ ، وكلاهما على المغنى .

واشتهر من مصر أيضاً : أبو الفضل عبد الرحمن المعروف بجلال الدين السيوطى ، كان إماماً مجتهداً فى العلوم كما تشهد بذلك مصنفاته التى تبلغ ثلثمائة كتاب أخذ عن تقى الدين الشمنى ومحيى الدين الكافيجى وغيرهما ، وقال إنه تبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبديع وأصل الفلسفة . وقد وصل فى هـــذه العلوم سوى الفقه إلى درجة لم يصل إليها ولا وقف عليها أحد من أشياخه ، ومن مصنفاته فى فن العربية : كتاب الأشباه والنظائر النحوية ، وهو كتاب جامع للمهمات مرتب على سبعة فنون كل فن مستقل بخطبة ولقب ، وكتاب الاقتراح فى علم أصول النحو . قال فى أوله : هذا كتاب غريب الوضع عجيب الصنع فى علم لم أسبق إلى ترتيبه وهو علم أصول النحو الذى هو بالنسبة إلى النحو كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه . رتبه على مقدمة وسبعة كتب ، وشرح الألفية والتوضيح والمغنى ، وشواهده ، وحشى الشذور ، وغير ذلك ، وإن أردت الاطلاع على أسماء مصنفاته فعليك بترجمته فى كتابه : حسن المحاضرة ، وتوفى سنة ٩١١ .

صور من التاريخ الأندلسى

— ١ —

أبو جعفر الحميرى :

قال المراكشى فى كتابه « المعجب[1] » :

أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى رحمه الله أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦هـ ، وذلك أنا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زيابة التيمى التى أولها :

يالهف زيابة للحرث الـ ـصائح فالغانم فالآئب

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقيته خالياً لا آب سيفانا مع الغالب

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لى فى هذا البيت ، وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجها إلى لقاء الأدفنش لعنه الله ، قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين فقلت يا بنى : لئن صدقت رؤياك هذه ليهرن الأدفنش لعنه الله ، وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيته خالياً لا آب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير ؛ وكان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة

---

(١) ص ١٧١ .

منه ، أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ، قال لى ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قرئت على أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها ، فقال لى : مايمكن أن يكون فى الدنيا أصل أصح من الأصل الذى كتبت منه، فقلت له أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ، وكنا فى المسجد فى زاوية فقلت له أين هو؟ فقال لى عن يمينك ، فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ماعلى يمينى إلا الأستاذ فقال لى هو أصلى وباملائه كتبت ، كان يملى على من حفظه، فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبى قال : بعيد ، أن تفلحوا ، يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبى والله لقد أدركت أقواما لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ولا يرونه مجتهداً ، وتوفى أبو جعفر هذا فى شهر صفر من سنة ٦١٠ عن ست وتسعين سنة ، ولم يكن فى الأندلس أعلى رواية منه فى كل مايروى ؛ ولم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل هـــذه الصناعة أكثر إنصافا منه ولا أسرع رجوعا إلى الحق ، قال المراكشى : كنت أنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتا لا أعدها شيئا يحملنى على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك منى فيلهج بها ويشتد استحسانه لها وربما درسها لحفظها، أنشدته يوما وقد استدعى منى ذلك على عادته بيتين ارتجلتهما فى شاب كان يقرأ معنا ، كان شديد العفة مع حسن رائع وظرف ناصع كان اسمه فتحا ، هما :

يا من له عن كناس من المتيم قلبـــه
ما أنت كاسمك فتح وإنما أنت قلبـــه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر لا ما تصدعنى به طول نهارك إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت، فلما كان من الغد قال لى أعلمت ماصنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا فى المثل : سكت ألفا ، لم يزل أمس يعمل

فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملة فقال :

سبى فؤادى خشف فقوتى اليوم ضعف
سموه فتحا مجازاً وفى الحقيقة حتف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة فقلت أنا : هذا والله أحسن من شعرى، فتغير لى وقال يابنى دع عنك هذه العادة فإن أسوأ مايخلق به الإنسان الملق وتزيين الباطل سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب ، والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشىء وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك، وما أظن هذا هكذا ، وسمعته من شدة إنصافه يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله ، وذلك أن الأستاذ كان يلقب بالوزغى وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب بالغرنوق وهو اسم عندهم للكركى والفصيح فيه غرنيق ، فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ، فقال ابن خروف فى ذلك :

أحقا سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء
وكيف وأنت فى الحيطان تمشى وذاك يطير فى جو السماء

فأبعده الأستاذ وأنهى خبره إلى القاضى أبى الوليد بن رشد فأوجعه ضربا وامتنع الأستاذ من قراءته عليه فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه وأبعده عن مربع جنابه وولاه الأستاذ خطته وألقى حبله على غاربه ، فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شىء من العلم ، وإنما كان يعتمد فيما يأتى به على طبعه خاصة .

— ٢ —

المعتصم بن صمادح :

لم يقتصر يوسف بن تاشفين ملك المرابطين على الاستيلاء على الأندلس

عام ٤٨٤ هـ ، وعلى نفى المعتمد بن عباد من إشبيلية فى العام نفسه إلى المغرب الأقصى حيث مات منفياً مشرداً فى أغمات عام ٤٨٧ هـ ؛ بل أخرج كذلك المتوكل بن المظفر ملك بطليوس من ملكه وقتله عام ٤٨٥ ، وكان أبوه المظفر ـ المتوفى عام ٤٦٠ هـ ـ قد ملك بطليوس قبل ابنه المتوكل مدة طويلة ثم أخرج المرابطون كذلك المعتصم بن صمادح ملك المرية من ملكه عام ٤٨٤ هـ ، وحينما كانت الأندلس فى أمر مريج ، زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت . وفقدت رواسيها من بنى أمية فمادت . وأصبحت كرقعة الشطرنج ، يتغالب الملوك على كل بيت فيها ، كل قوى يحوز ما وسع حوله وهمته ، والعيش غلاب «والبر أوسع . والدنيا لمن غلبا» . ملك محمد بن أحمد ابن صمادح التجيبى مدينة « وشقة » بالأندلس . ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المرية(١)) . وخلفه ابنه ابو يحيى المعتصم بالله وهو فى سن الرابعة عشرة حيث نشأ فى ملك ضيق الرقعة ، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة وحلية العلم والأدب والسخاء الشامل ، والجود العميم ، حتى طاول المعتمد ابن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه . وقال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس «هذان رجلا هذه الجزيرة» . قال ابن خلكان :

«وكان رحب الفناء ، جزيل العطاء ، حليما عن الدماء . طافت به الآمال واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمه جماعة من فحول الشعراء» . وقال الفتح بن خاقان :

«ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع فى انتظام مجالسها واتساقها ، وأوضح رسمها ، وأثبت فى جبين أيامه وسمها ، لم تخل أيامه من مناظرة ، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة . وكانت دولته مشرعاً للكرم ، ومطلعاً

---

(١) مدينة بالأندلس على ساحل البحر الرومى كانت قاعدة الأسطول الإسلامى .

للهمم ؛ فلاحت بهـا شموس ، وارتاحت فيها نفوس ، ونفقت فيها أعلام الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام ، كإجادة ابن عمار وإبداعه ، فى قوله معتذراً من وداعه :

أمعتصما بالله والحرب ترتمى ... بأبطالها والخيل بالخيل تلتقى
دعتنى المطايا للرحيل وإننى ... لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإنى إذا غربت عنك فإنما ... جبينك شمس والمرية مشرق

وكان المعتصم — كالمعتمد بن عباد — شاعراً مجيداً ، كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم ... وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خـلا تسرنى ... مباديه إلا ساءنى فى العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمـة ... من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وقد طوى الأمير أربعين عاماً فى إمارته ، شاع فيها ذكره ، ونبه اسمه ، وحلب الدهر أشطره ، ورأى أحداثه وعبره . . ثم حم القضاء ، وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تئل عروشهم ، وتعفى آثارهم ، ولقى « رجلا الجزيرة » الصدمات الأولى ، فدارت على المعتمد الدائرات ، فإذا هو أسير أغمات[1] ، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات .

وعلم ابن صمادح بما أصاب صاحبه فلكه الغم ، وناء به الحزن . وكان أسعد من صاحبه جدا ، نجاه الموت من الإسار ، وأنقذه الحمام من المذلة . « رب عيش أخف منه الحمام . » ولله ابن بسام حين يقول :

« وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة ، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة ، فى سلطانه وبلده ، وبين أهله وولده » .

---

(١) بلدة كانت وراء مراكش .

دع ما نمق الكتاب وأنشد الشعراء ، ودع أربعين عاماً طواها الزمان كأنها أحلام ، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة — الليلة التى طلع عليه بالردى فجرها . فهاهو ذا على فراش الموت فى قصره بالمرية ، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة، ترى خيامه ، وتسمع ضوضاءه ، ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب ، والجند المصطخب ، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً :

« لا إله إلا الله ، نغص علينا كل شيء حتى الموت » . قالت « أروى » إحدى جواريه : « فدمعت عيناى ، فلا أنسى طرفا إلى يرفعه ، وإنشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه » :

ترفق بدمعك لا تفنـــه فبين يديك بكاء طويل

— ٣ —

ما أشبه الليلة البارحة :

سقطت الأندلس فى أيدى الإسبانين ، وخرت صريعة مضرجة بالدماء والأشلاء ، أليست الأندلس مثل بغداد ، وألم تسقط بغداد من قبل فى أيدى التتار المخربين ، كما سقطت الأندلس من بعد فى أيدى الإسبان المدمرين .

ورثى الشعراء الأندلس حتى قبل النكبة ، بمراث تفتت الأكباد ، وتستجلب الزفرات ، كما رثى الشعراء بغداد ، عاصمة الإسلام ودار السلام ، فهذا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى الكبير ـ الذى يعده قومه أحد أنبياء الشعر الثلاثة ، والآخران الفردوسى والأنورى . وهو طائر الصيت بكتابيه كلستان وبستان ، وبديوانه وأشعاره الأخرى ـ يرثى بغداد وحضارتها.

روى أنه لما أغار التتار على بغداد فى حياته رثى حاضرة الإسلام بقصيدتين: فارسية وعربية . وقصيدته العربية ليست على نسق شعره الفارسى بلاغـــة

وإحكاما، ولكنها قصيدة نادرة فى موضوعها ومنها :

حبست بعينى المدامع لا تجرى ... فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولى النهى ... أحب لهم من عيش منقبض الصدر
لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقاً ... وهذا فراق لا يعالج بالصبر
ولا تسألن عما جرى يوم حصرهم ... فذلك مما ليس يدخل فى الحصر
بكت جدر المستنصرية ندبة ... على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نوائب دهر ليتنى مت قبلها ... ولم أر عدوان السفيه على الحبر
محابر تبكى بعدهم بسوادها ... وبعض قلوب الناس أحلك من حبر
أيا ناصحى بالصبر دعنى وزفرتى ... أموضع صبر والكبود على الجمر ؟
فجرت مياه العين فازددت حرقة ... كما احترقت جوف الدماميل بالفجر
فأين بنو العباس مفتخر الورى ... ذوو الخلق المرضى، والغرر الزهر ؟
غدا سمراً بين الأنام حديثهم ... وذا سمر يدمى المسامع كالسمر
وفى الخبر المروى دين محمد ... يعود غريباً مثل مبتدإ الأمر
أأغرب من هذا يعود كما بدا ... وسبى ديار السلم فى بلد الكفر ؟
فلا انحدرت بعد الخلائف دجلة ... وحافاتها لا أعشبت ورق الخضر
أتذكر فى أعلى المنابر خطبة ... ومستعصم بالله لم يك فى الذكر
محبة مشتاق وألف ترحم ... على الشهداء الطاهرين من الوزر
هنيئاً لهم كأس المنية مترعاً ... وما فيه عند الله من أعظم الأجر
فلا تحسبن الله مخلف وعده ... بأن لهم دار الكرامة والبشر
إلام تصاريف الزمان وجوره ... يكلفنا مالا نطيق من الأمر ؟
وسائر ملك يقتضيه زواله ... سوى الملكوت القائم الصمد الوتر

— ٤ —

معركة تور فى فرنسا .

امتدت فتوحات عرب الأندلس شمالا إلى فرنسا ، ووطىء عبد الرحمن الغافقى أرضها عام ١١٤ هـ — ٧٣٢ م ؛ وتقدم إلى وادى اللوار حتى مدينة تور ، وبين بواتيه وتور دارت المعركة بين الغافقى وشارل مارتل ؛ وكان جيش الغافقى نحو ٨٠ ألفا ، وجيش شارل مارتل كان فيه الجرمانيون ، ولا سيما التيوتون ، وبدأت المعركة يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٤ هـ — ٣ اكتوبر سنة ٧٣٢ م ، وبعدها بيوم قتل الغافقى فى الميدان ، وقتل كثير من الجيش الإسلامى أو أكثر من نصفه ، وانسحب الباقون من فرنسا إلى ماوراء جبال بيرنه ، فانفرد شارل مارتل ثم ابنه ثم حفيده شارلمان بالحكم فى فرنسا ، وهم ملوك الدولة المارفنجية الشهيرة ، وتأسست على أنقاض معركة تور الامبراطورية الرومانية الغربية ، وتوج البابا شارلمان امبراطورا على فرنسا وألمانيا وإيطاليا سنة ٨٠٠ م - ١٨٤ هـ فى عهد الرشيد ، وبهذا بدأ التمدن المسيحى .

يقول جبون المؤرخ الإنجليزى فى نتائج هذه المعركة : « لو لم يصد هذا الهجوم لكانت العربية تدرس فى جامعات انجلترا وألمانيا » .

ويقول مسيو كلود فارير[1] : « فى سنة ٧٣٢ م — ١١٤ هـ ، حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربى — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ؛ هذه الفاجعة هى التى أريد أن أكره حتى ذكراها ، هى الانتصار البغيض الذى ناله على مقربة من بلدة بواتييه — قريبا من بلدة تور فى مقاطعة شمبانيا —

(١) مدرس بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس .

أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجى شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقى . . فى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية فى إشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه — ماعساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى السلمى المتسامح — لأن الإسلام بمجموعة كل هذا — فخلصها من الأهاويل التى لا أسماء لها ، وكان من ذلك أن نتج خراب غاليا القديمة ، فى حين كان العالم الإسلامى ، من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب آسيا ، يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام » . . وفى هذه المعركة يقول شبلى ملاط الشاعر اللبنانى :

من للزمان بمثل فضل محمد ... وعـدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب ... وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها ... فى الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغت فى الغرب طائرة على ... أكتاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلد شارل مارتل ، خيمت ... فى قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به ... شوقى يقول سواحرا وسوابى

— ٥ —

رسالة قصيرة :

أرسل العزيز الفاطمى ابن المعز حاكم مصر (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) فى أول ولايته رسالة إلى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر رسالة يسبه فيها ويهجوه ؛ فاكتفى الحكم بأن كتب إلى العزيز هذه الكلمات « عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك » .

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٨ هـ إلى يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن حاكم المغرب والأندلس وملك الموحدين بالمغرب يستنجد به ويستعين به على الصليبيين فرفض أن يعينه ، لأنه لم يلقبه بأمير المسلمين .

— ٦ —

الماضى الخالد :

لما فتح العرب الأندلس ساسوا أهلها سياسة رشيدة ، بنيت على التسامح والعدل ، وقامت على المساواة والإذعان للحق ، وترفعت نفوسهم عن الدنايا ، وعفت أيديهم عن أموال المغلوبين . ولم يمض إلا زمن يسير حتى تبين أثر العدل فى حضارة البلاد ورقيها ، وأخذ العرب فى تخطيط المدن ، وتشييد القصور ، وحفر الترع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وشق الخلج ، وتهيئة الأرض للزراعة ، وتعبيد الطرق ، واستيراد كثير من الأشجار والنبات من مصر والشام والعراق ، وجلبوا إليها من الشرق كل ما فيه من صناعات ، وأقبل الأندلسيون عليها فأجادوها أيما إجادة . وأصبحت مدنهم الكبيرة غاصة بالعدد العظيم من الصناع ، وجمعت قرطبة الشيء الكثير من مختلف المصنوعات ، وأخذت ينابيع الثروة تتفجر فى كل ناحية من نواحى البلاد .

واهتموا بنشر العلوم والفنون حتى نبغ كثير من العلماء فى العلوم المختلفة : من دينية ، ولسانية ، وطبية ، وزراعية ، وطبيعية وفلسفية . وشملت العمارة جميع نواحيها ، حتى كان المسافر فى أوديتها وأنهارها لا يكاد ينقطع نظره عن القصور الضخمة ، والبساتين المتصلة التى أملت على ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، قوله فى وصفها :

يأهل أندلس ، لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وكانت قرطبة — عاصمة الأندلس — زهرة البلاد فى الغرب ، كما كانت بغداد زهرتها فى الشرق ، وكانت الحواضر العظيمة — كالقاهرة ودمشق وبغداد — تحمل إليها ما اكتمل من صناعاتها ، ونادر كتبها ، ومختلف تحفها ، لبيعها فى أسواقها التى تكتظ بالأموال فى أيدى النساء والرجال .

لذا كانت حضارة القوم تأخذ بطرف من حضارات هذه البلاد .

وكان بالأندلس أيام العرب أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسية وطليطلة ، ومئات من المدارس والمعاهد قد اكتظت بالطلبة من جهات مختلفة . وقد تخرج فى هذه المعاهد كثير من فحول العلماء فى كل فن ، أمثال ابن رشد فى الفلسفة ، وابن زهر فى الطب ، وابن فرناس فى الرياضة ، وابن زيدون وابن خفاجة فى الأدب ، وغير هؤلاء ممن يضيق المقام عن ذكرهم ، ولا زلنا نقرأ أسماء من انتسب منهم إلى مدينته ، كالقرطبى ، والإشبيلى ، والمالقى ، والبطليوسى ، والشاطبى ؛ وكانت جامعة قرطبة فى الغرب كمدرسة الإسكندرية فى الشرق إبان عظمتها ، يؤمها الطلاب من كل فج ، حتى من بلاد الرومان واليونان (١) . ويعترف المصنفون من مؤرخى الإفرنج بما كان لحضارة العرب من أثر فى مدنية اوربا الحديثة .

— ٧ —

شاعر يرثى الأندلس :

هذه القصيدة طبعها لأول مرة الأستاذ صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤ ، وذكر أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثمانى بقصد الاستغاثة ، ونشرت صحيفة الزهرة التونسية من قبل نتفاً منها ، ومؤلف القصيدة مجهول ، ويذكر المؤرخ المغربى السيد محمد بن على الدكالى السلوى

---

(١) راجع الذخيرة لابن بسام الأندلسى المتوفى عام ٥٤٢ هـ ، ونفح الطيب للمقرى م ١٠٤١ هـ .

أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة فى كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال :

أحقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازهها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلى أن رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقاباً لا ينال مطارها ... ومعقل عز زاحم النسر صورها
هوت رندة الغراء ثم حصونها ... وأنظارها شنعاء عز نظيرها
وقد كن عقداً زين القطر نظمها ... فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها ... وقطع من أرحامهم زمهريرها
تسلمها حزب الصليب وقادها ... وكانت شروداً لايقاد نفورها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها ... وقد دثرت تحت السباء دثورها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت ... مناسبها واستأصل الحق زورها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها ... تماثيلها دون الإله وصورها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها ... كرائه أصوات يروع صريرها
فيا ساكنى تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائى القضاء أداركم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم ... سوى حرق سحم تلظى سعيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ... ولا تنقضى اشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة ... يذوب كما ذاب الرصاص صبورها

وقلب صديع ماج فيه بلاؤه ... سويداؤه سوداء جم ثبورها
سأبكى وما يجدى على الفائت البكى ... بعبرة حزن ليس يرقى عبورها
شآيب دمع بالدماء مشوبة ... يساجل قطر الغاديات درورها
عويلا يوافى المشرقين بريحه ... وثكلا بأقمار قد اطفىء نورها
فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت؟! ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتل ... وحفل بختم الذكر تمضى شهورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب ... يود المنايا وهو كان يديرها
يصول على الأبطال صولة ضيغم ... فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له فى سبيل الله خير نقيبة ... تزان لها عين الجنان وحورها
له فى جناب الكفر أجدى نكاية ... وشعواء غارات يثاب مغيرها
يراع لها دين الصليب وحزبه ... ويخرى بها غنصارها ورميرها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة ... فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
تحكم فيه الشرك وهو موحد ... كما قد قضى جبارها ونذيرها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا سفرت يسبى العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت واحر قلبى خدودها ... وقد أسبلت وادمع عينى شعورها
وإن تستغث بالله والدين لا تغث ... وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل ما بين الشفيق وبينها ... وأسلمها آباؤها وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها ... على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وشيخ على الإسلام شابت شيوبه ... يمزق من بعد الوقار قتيرها

وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
وكم من شقى يسرت هذه له ... سبيلا إلى العسرى يحيف كفورها
كروب وأحزان يلين لها الصفا ... عواقبها محـذورة وشرورها
فيا فرحة القلب الذى عاش بعدها ... ويالعمى عـين رآها بصيرها
ويا غربة الإسلام بين خلالها ... ويا عثرة أنى يقال عثورهـا
ويا ليت أمى لم تـلدنى وليتنى ... بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
وما خير عيش يعذب الموت دونه ... ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
فيا ليت شعرى بعد ماصح موتها ... أيرجى على رغم العداة نشورها
ويا ملة الإسلام هل لك عودة ... لأرجائها يشفى الصدور صدورها
وهل تسمع الآذان صوت الأذان فى ... معالمها تعـلو بذاك عقيرها
ويا لعزاء المـؤمنين لفاقة ... على الرغم أغنى من لديها فقيرها
لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محـوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعـة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
لو أن ذا إلف من البين هالك ... لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدين الذى جاءها به ... بشير الأنام المصطفى ونذيرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل بالويل المبـين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التى ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها ... ومن سريان الداء بان قطورها

وضحت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
وسكرها قد بدل اليوم علقما ... لها رجة ، نار الهيام تثيرها
وعرج على الإقليم فابك ربوعها ... بسحب يضاهى المعصرات خريرها
وودع بها وفد النعيم فإنها ... لها أدمع نهر الدموع يميرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
فما فى العراقين العتيقين مثلها ... ولا فى بلاد الله طراً نظيرها
ترى الأسى أعلامها وهى خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها ... وبتت لها اليمنى وحم ثبورها
فأنفسها فى الصعق دون إفاقة ... كنفس كليم الله إذ دك طورها
وقد ذعرت تلك البنيات حولها ... فهن بواكى الأعين الرمد مورها
وقد رجفت وادى الأشى فبقاعها ... سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
لقد أظلمت حتى لفرط حدادها ... سواء بها نجل العيون وعورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها ... وما كابدت من ذا المصاب نحورها
وما أنس لا أنس المرية إنها ... قتيلة أوجال أزيل عذارها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت ... تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا أصدقائى ودعوها كريمة ... أو استودعوها من إليه أمورها
منازل آبائى الكرام ومنشئى ... وأول أوطان غذانى خيرها
وأقروا عليها من سلامى تحية ... تجددها آصالها وبكورها
أماناتها ضاعت فضاعت رقابها ... لقد عميت عين تبدد نورها
أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا ... وقضت عرى الإسلام إلا يسيرها

وملتنا لم نعرف الدهر عرفها ... من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا ... كذى السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا ... وبؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا ... وأموالنا فيئا أبيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق ... علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمتحى إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
أدارت على غربية الدهر أكؤساً ... فظاعا بسكر الدهر تقضى خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن ... وعض بأكباد التقاة عقورها
أنادى لها عجم الرجال وعربها ... نداء سراة القفر إذ ضل عيرها
وأستنفر الأدنى فالادنى فريضة ... على زمر الإسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها ... فليس يؤدى الفرض إلا نفيرها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد ... إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... وردوا ظلامات يبيد نقيرها
ومن كل ما يردى النفوس تطهروا ... فليس يزكى النفس إلا طهورها
ألا واستعدوا للجهاد عزائما ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق ... يدع الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها

وضرب كان الهام تحت ظلالها حثالة نور الورد ذر ذرورها
وطعن يرى الخطى فى مهج العدا كاقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا وتحظوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة تدين بدين الحق وهو نصيرها
وان أنتم لم تفعلوا فترقبوا بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة يطاول آناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة خبتها على طول الليالى خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمة وأعلاق أموال خطير خطيرها
وحق العظيم الشأن لاعيش بعدها بلايا يمر الطيبات مرورها
فترفع شكواها لعالم سرها فليس لها فى الخبر إلا خبيرها
نمد أكف الذل فى باب عزه بافئدة خوف الفراق يطيرها
فإن لم يقل رب العباد عثارنا فهذا العدو الضخم حتما يبيرها
إله الورى ندعوك ياخير مرتجى لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ إذا لم يكن منك التلافى ظهيرها
أغث دعوات المستغيثين إنهم ببابك موقوفو الحشاشات ، بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلة شفيع الورى يوم التنادى بشيرها
إمام الهدى بحر الندى قامع العدا وأول رسل الله فضلا أخيرها
محمد المختار من آل هاشم سراج السموات العلى ومنيرها
دعوناك ، أملناك ، جئناك خشعا بأنفس استولى عليها قصورها
بجاه العظيم الجاه أدرك ذماءنا برحمى يحلى المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مؤزر وعزة سلطان يروق طريرها
ولطف وتسديد وجبر لما مضى يدال به من كل عاد كسيرها
وارسل على هذا العدو رزية يروح ويغدو بالبوار مبيرها

يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة ... وينظم شمل المؤمنين حصيرها
وصلّ على خير البرية أحمد ... وأكرم من قد أنجبته ظهورها
وأصحابه الشهب الهداة وآله ... صلاة مع الآناء يزكو عبيرها

ويبدو من هذه القصيدة أن صاحبها من المرية [1] ، وأنها نظمت بعد سقوط غرناطة ... ولما اشتدت حركة محاكم التفتيش فى إسبانيا ، أرسل بعض المسلمين فى الأندلس إلى السلطان بايزيد الثانى نحو عام ١٥٠٥ م رسالة سجلها المقرى فى مؤلفه أزهار الرياض ، ويبدو على القصيدة أنها نظمت بعد سقوط الأندلس نحو سنة ١٥٠٠ م — ٩٠٥ هـ ، حينما قام الإسبان بأول محاولة لتنصير المسلمين ؛ وقرر مجلس الدولة أن يفرض التنصر على المسلمين عام ٩٠٤ هـ — ١٤٩٩ م .

— ٨ —

شاعر يصف آثار الأندلس :

وقد زار إسبانيا عام ١٩٥٢ الأديب الشاعر جورج صيدح ، ووصف معالم الآثار الأندلسية ، فقال فيما قال :

فى قرطبة : عاصمة الدولة العربية الأولى ، يقوم الجامع الأكبر على انقاض كنيسة عظيمة استولى العرب على نصفها يوم فتحوا المدينة وتركوا النصف الثانى للمسيحيين حتى يتيسر للفريقين القيام بشعائر الدين . روى لنا

---

(١) سقطت مدينة « رندة » فى أيدى الإسبان عام ٨٩٠ هـ — ١٤٨٥ م ، وسقطت بعدها مالقة فى شعبان ٨٩٢ هـ — ١٤٨٧ م ، ووادى آش والمرية والمنكب فى آخر ٨٩٤ هـ — ١٤٨٩ م ، وبسطة فى المحرم ٨٩٥ هـ — ديسمبر ١٤٨٩ ، ثم سقطت غرناطة بعدها فى صفر ٨٩٧ هـ — ديسمبر ١٤٩١ م ، ودخلها فرديناند فى الثانى من ربيع الأول ٨٩٧ هـ — ٢ يناير ١٤٩٢ م .

الدليل أن عبد الرحمن الداخل عندما أسس الخلافة الأموية فى قرطبة حاول ضم القسم المسيحى إلى القسم الإسلامى وتشييد جامع جديد يليق بمقام الخلافة ، فعارضه المسيحيون واشترطوا عليه وهو الفاتح الحاكم بأمره ، أن يعوضهم مالا يكفى لبناء كنيسة جديدة ، وأن يجدد بناء جميع الكنائس التى تهدمت أثناء الحرب ، فقبل عبد الرحمن شروطهم ووفى بها . ثم شرع فى بناء الجامع الذى نراه اليوم بروعته الفذة وهندسته العجيبة . يقوم على ألف ومائة عمود ، وفى خلالها يسجد ستة عشر ألف مصل فلا تحجب عن نظرهم المحراب . أما بعد جلاء العرب عن المدينة فقد عمد الملكان فرديناند وشارلكنت إلى بث المذابح والتماثيل فى بهو الجامع وجدرانه ، وإلى اقتلاع الأعمدة المواجهة للمحراب ليحل هيكل عال محلها . وأرانا الدليل ونحن على ضفة وادى الكبير ثلاث طواحين قائمة فى عرض النهر تعرقل سير المراكب فيه ، وقال لنا إن الخليفة الحكم فاوض أصحابها على شرائها منهم لهدمها فلم يقبلوا ، وبقيت الطواحين فى مكانها إلى اليوم . ثم ذكر لنا أن سبعين مكتبة عمومية كانت فى قرطبة فى عهد العرب أقفلت وأغفلت بعد ذهابهم . هذه المكاتب مضافة إلى الجامعة الشهيرة التى أسسها عبد الرحمن فى القرن الثامن ، جعلت من قرطبة مركز الإشعاع العلمى ، ونقطة دائرة المعارف العالمية .

وفى إشبيلية : أكبر مدينة أندلسية ، خيل لنا فيها أن الجو يتنفس عن ورود الشام ، وأن النسيم يترنح على نغمات العود والكمان ، رنات الطقاطيق (الكاستانويلا) لم تفارق أسماعنا فى الأسواق والحدائق نهاراً ، وفى الحارات والمقاهى ليلا ، الغناء ذو لهجة شجية مأخوذة عن الموال العربى وحلقات الرقص لا تختلف كثيراً عن حلقات الدربكة . يقول المؤرخون فى كتبهم : من لم ير إشبيلية لم ير شيئاً ، ويقول الدليل : إن مات عالم فى إشبيلية لا يوجد مشتر لكتبه إلا فى قرطبة ، وان مات مغن فى قرطبة لا يوجد من يشترى آلات الطرب من ورثته إلا فى إشبيلية .

وفى طليطلة : وهى إحدى مفاخر العرب ، لم نجد من آثارهم إلا كنيساً

لليهود ، أبينا دخوله ، وأطلال القصر الحصين (الكاسار) الذى خربته قنابل الجمهوريين فى حربهم مع الجنرال فرانكو ؛ ولم يزل يتداعى وينذر الزائرين بالخطر ، ثم الكنيسة الكبرى أو الجامع الفخم سابقاً ، فزرناها فاسترعى انتباهنا طائفة من التماثيل تحدق بالمذبح فى صدر الكنيسة ، وتمثل الباباوات الأولين ما عدا واحداً منها يمثل شيخاً لابساً عمامة وجبة عربية ، قال لنا الدليل إنه تمثال الفقيه أبى الوليد ، وقصته تتلخص فى أن جمهوراً من المسيحيين طرقوا الجامع ذات ليلة وعبثوا بزينته ما استطاعوا ، فجاءهم الحاكم العربى بخيله ورجله ليؤدبهم بحد السيف ويبيدهم عن بكرة أبيهم ، فوقف ، الفقيه أبو الوليد فى وجهه ، ينصحه ويسترضيه مقدماً رأسه كفارة ، عن المذنبين ، حتى رق الحاكم وعدل عن الانتقام ، فحقنت الدماء ، وأصبح الفقيه قديساً فى نظر المسيحيين يحق له المثول فى الهيكل ، بين الباباوات .

وفى مدريد : التى تسلمها العرب قرية حقيرة وسلموها مدينة عظيمة الشأن كاتدرائية تدعى « سيدة المد » ، وأصل التسمية هو أن ملك « كاستيا » عندما أجلى العرب عن المدينة وجد فى قصر ملكهم مداً نقش عليه رسم العذراء ، فبنى الكنيسة تخليداً لذلك الرسم ، وجعل من عذراء المد شفيعة عاصمته .

وفى غرناطة : عاصمة العرب الأخيرة ، قال لنا الدليل ونحن نخبط الطريق صعداً إلى جبال الثلج (سيرانيفادا) المشرفة على قصر الحمراء : كان العرب أول من تسلقوا هذه الشاهقات ، وافتتحوا خزانات الثلوج الأبدية فيها ، هم الذين أجروا المياه فى قنوات تهبط منها إلى السهول ، ولولاهم لما عرفت الأندلس الخصب فى مزارعها ، والأزهار فى حدائقها ، والنوافير فى قصر الحمراء . أمامكم عروس المدائن الأندلسية تحرسها من أعلى الروابى قصور الملوك والقواد وقلاعهم ، صمدت لهجمات الإسبان مائتين وستين عاما بعد سقوط قرطبة ، ثم دانت لهم فنكلوا بآثارها الفخمة حسداً وانتقاماً ، وجردوا الحمراء من الكثير من زخرفها . وعمد شارلكنت إلى تشييد قصر إلى جانبها

يزيدها ارتفاعاً ، ولكنه فارق الحياة قبل استكمال البناء . ثم أشار الدليل إلى معالم الحمامات العربية (أسماها تركية) التى انتشرت منذ ألف عام ؛ فتذكرت كلمة الدكتور فيليب حتى : « كان الاستحمام أمراً مألوفاً فى غرناطة يوم كان محظوراً على طلاب جامعة اكسفورد ، لاعتباره خطراً على صحة أجسامهم » .

وفى القرى : فى طريقنا إلى الجزيرة ، وهى أول مدينة وطأتها اقدام العرب بعد جبل طارق ، أومأ الدليل إلى قرية « التعريفة » وإلى مناعة أسوارها ، التى قاومت الفاتحين فحاصروها ، وفى أثناء الحصار وقع ابن حاكمها الإسبانى أسيراً فى يد العرب ، فحمله القائد العربى إلى مدخل السور ونادى بأبيه ان يستسلم أو يشهد ذبح ولده بعينه ، فكان جواب الأب أن ألقى بخنجره إلى القائد العربى قائلا : « اذبحه بهذا إن أعوزك السلاح » فعفا القائد عن الولد ، وافتتح القرية عنوة بعد أيام . وعلى ذكر البطولة ، روى لنا الدليل أن هناك قرية أسماها العرب « الحاقة » امتنعت عليهم رغم قربها من قلاعهم الحصينة فى بلد الوسقة حاصرها العرب حتى أفنوا رجالها فلم تستسلم ، بل هرع النساء والأولاد إلى الأسوار يحمونها بأجسادهم ، فرفق بهم الفاتحون وتركوا القرية وشأنها . وما أكثر الحكايات التى يتناقلها الشعب من هذا الطراز تمجيداً لذكرى العرب . إن السائح العربى ليشعر أنه فى بيته القديم عندما يمر بقرى ودساكر هذه أسماؤها : الباسطة (فيها صناعة المدى والخناجر العربية) ، قلعة النهر (حيث ولد سرفنتس) ، الكوة (حيث الكروم وأحراج الزيتون) ، الميرة (عكاظ الأدب والشعر) ، الإبر (حيث مغازل الأنسجة الدمشقية) ، القنطرة ، القانص ، الخانن ، السيرة ، الهامة ، الغوطة ، المنكر ، قلعة أيوب ، الروضة طيف الله ، وادى الحجارة ، وادى اللب ، وادى الرامة ، وادى الكبير ، وهلم جرا . وبمناسبة الأسماء العربية لى ملاحظة على قصر الحمراء : إن اسمه بالإسبانية وفى جميع اللغات اللاتينية « الامبرا » بإضافة حرف الباء على الكلمة العربية ، وليس « الأمرا » كما يلفظ الأجانب كلمة الحمراء . ألا يكون هذا الإسم

الحقيق «العنبرة»؟ يؤيد هذا الظن أن لاوجود للون الأحمر فى داخل القصر، بل كل جدرانه وسقوفه وزخارفه بلون العنبر.

— ٩ —

ويصف «واشنجتن ارفنج» روائع الفن العربى فى قصر الحمراء فيقول:

كان أجمل مافى غرناطة، فى عهد الامبراطورية العربية الإسبانية — كما لا يزال إلى اليوم — القصر الملكى أوحصن «الحمراء»، وقصرها الذى انشأه محمد أبو الأحمر بن نصر، ويلقب بالغالب بالله، ثانى ملوك غرناطة الذى وفى نفقات إنشائها من ضريبة فرضها على الرعايا المغلوبين. وكان يشرف على البناء بنفسه. وعندما أتمه جعله مقاما ملكيا. وقد حصن هذا الملك السعيد الجد الجبل الذى تقوم عليه. وخلال مدة حكمه كلها وقف جزءا وفيرا من ثرواته على تحسينها والبلوغ بها مبلغ الكمال.

وأغرم خلفاء أبى عبد الله كل الغرام بزخرفة «الحمراء» أو إضافة أشياء إليها، ولاسيما محمد الثانى، وحفيده محمد الثالث. وقد أنشأ هذا الملك مسجدا على فن معمارى جميل، أنفق عليه نفقات واسعة، وجمله تجميلا بالفسيفساء، وجعل سقفه تعتمد على أعمدة كثيرة بديعة الصنع، تيجانها وقواعدها من الفضة. والأمير الذى أتم هذا القصر هو يوسف بن اسماعيل بن فرج، ويلقب بأبى الحجاج. وقد حكم من سنة ٧٣٢ هـ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣١ - ١٣٥٤م). وكان آخر ما عمله فى الحمراء البرج المربع. وهو الآن المدخل الأكبر الحالى للقلعة، وتدل النقوش التى عليه على أنه أنشىء سنة ١٣٤٨م.

ويقوم قصر «الحمراء» فوق الحافة الشمالية لتل يطل على منظر ممتد فوق ريف جميل، ويسمو بطلعته الجليلة فوق مدينة غرناطة. وقد تقوضت جوانبه التى تواجه القلعة تقويضا، أو أتخمت بمبان حديثة حتى لم يعد ظاهرا إلا قلة قليلة من آثار الجدران الخارجية، ولكن البقايا الداخلية من القصر على حال لا بأس بها، تعطى صورة واضحة عن عظمة رائعة لملوكها السابقين. وقد خطت قاعاته على أن تكون سلسلة متصلة من الأجنحة، كلها فى مستوى

واحد . ومن المحقق أنها كانت فى حالها الأولى ساحرة فاتنة . فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيفساء والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان ... كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورات . ومع أن العرب لم يكونوا على علم بالمنظور إلا أن مشاهدهم المعمارية كانت بحق ساحرة تفتن الأنظار ، وأحكم إعدادها حتى ليبدو البناء الصغير أكبر مما هو عليه . واستعاضوا عن تلك الأعمال الفنية القديمة الغالية بأن جملوا قاعاتهم وحريمهم بمظاهر الطبيعة البسيطة .

والماء موفور فى كل ناحية بالقصر ، زمام أمره فى أيديهم ، يصعدون به أو يهبطون . وحينا يجلونه للعيون ، وحينا يخفونه حسبما يريدون . وأحيانا يفجرونه فى الهواء يبدد وخيم الابخرة السابحة فى الفضاء ، ويحيل جفاف الطقس رخاء . وأحيانا أخرى ينشرونه فى وسط قاعة ، صفحة مستطيلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال ، ثم السماء بزرقتها الصافية . وقد جملت الحافة بأعلام من المرمر الأبيض ، تضم أحواضا طويلة من الأزهار نسقت على الجانبين . وينساب فيها جدول جار لاينقطع حتى ينتهى إلى طرف من أطرافها ثم يخرج من طرف آخر ، تاركا السطح المستوى استواء البلاط ناعما ، وكأنه تلك الأرض الزجاجية من ردهة الاستقبال التى تلقى فيها سليمان ملكة سبأ .

وفى كل جناح يجرى تياران من الهواء فى غير انقطاع ، فهناك كوات قريبة السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد ، الذى يطرده الهواء النقى أسفل منه إلى أعلى . وبتلك الأنابيب المبثوثة فى الجدران ، التى هى أشبه بالأقبية تحت الأرض ، ينتشر الدفء لا فى هذه الحمامات المصطفة وحدها بل فى كل الأجنحة العليا المجاورة ، التى تعوزها الحرارة . والأبواب فى العادة كبيرة بنيت إلى الداخل قليلا ، اللهم إلا فى جانب البناء تجاه الوهدة حيث

المنظر جـــد عظيم ، فقد وضعت النوافذ لتجعل نظر الناظر لا يعدو ما فى داخل القصر .

وإن الزخارف العربية ، والطلاء والفسيفساء ، التى تم صنعها فى حرص ودقة ، تدلنا على عنايتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة ، فبدلا من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشوها بالزخرفة العربية التى صبت فى قوالب على هيئة فريدة ، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر أثر الانفصال . وهذه الزينات المنعطفة ملونة فى تدرج سليم بالذهبى الناصل ثم الازرق الصافى ثم الارجوانى القاتم . وأول الألوان أقربها وآخرها أبعدها من العين . ولكن السطح فى عامته أبيض .

والكثرة من أعمال النحت التى تبدو غير مستوية فى بروزها تثير البلبلة، لذا تنزهوا عن ذلك الخطأ فى ذلك المكان حيث الحليات قد صنعت حفرا كما أن عددها الذى لا يحصى يثير فى النفس شعوراً بلا نهائية . أما فى الخارج حيث يضطرون إلى الأشياء البارزة ، فيلاحظ أن خط التسلسل يكون متسقا فى كل مجموعة ذات نسق بين . وكذلك القباب والمقنطرات صنعت من حليات مصبوبة ، تكاد تكون فى خفة الخشب وفى صلابة المرمر . والجزء الأدنى من الجدران على ارتفاع يقرب من أربعة أقدام ، مغطى بالفسيفساء الخزفية ذات الأشكال والألوان المختلفة . ويتبين لنا من قليل القطع التى بقيت فيه أن أرض بعض الأجنحة وأعمدتها كانت هى الأخرى مغطاة بفسيفساء من هذا الطراز .

ومن أعجب ما فى « الحمراء » قاعة البركة ، وهى قاعة فسيحة ، رصفت أرضها بالمرمر الأبيض ، وزين كل ركن منها برواق ذى أعمدة ، وفى وسطها حوض للسمك زخرف بالاسماك الذهبية ، طوله ١٣٠ قدما وعرضه ٣٠ قدما ، وقامت على حوافه وشائع الورود . وفى الطرف الأعلى يطل برج قمارش الكبير وهو أحد الأبراج العظيمة المجاورة للقصر . وقد سمى باسم مهندسه

العربى الذى أبدع هندسته ، وجعله يزهى على سائر الابراج على الرغم من جمالها الفتان .

وهناك قاعة الأسود وبها الاثنا عشر أسدا لاتزال ناهضة ترسل من أفواهها المياه البللورية . وقد زودت بأحواض الزهر ، وأحيطت بالأروقة ذات الأعمدة . ويواجه هذه القاعة قاعة بنى سراج التى سميت بأسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال الذين قتلوا فيها غيلة بأيدى الافرنج .

— ١٠ —

ويصف باحث[1] مدينة قرطبة بأنها كانت تعد من المدن العالمية المهمة ، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً ، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة ، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة ، أم بحدائقها وبساتينها البديعة . وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له ، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد ، ولاسيما الجامع المعروف « بجامع قرطبة » ، وظلت عاصمة للأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر ، ثامن ملوك بنى أمية هناك ، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة ، وجعلها عاصمة له بدلا منها ، وفى عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيما ، وكثرت دور الكتب والمدارس وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة ، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته ، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لإحدى مكتبات (دور كتب) تلك المدينة العظيمة ، ثم جاء هشام الثانى ، فعجز عن إدارة المملكة ، وتدخل أرباب المصالح ، والمطامع فى أمورها ، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها ، ومن جملتها « قرطبة » إذ استقلت سنة ٤٢١ هـ ١٠٢٩ م ، واستولى عليها « أبو الحزم بن محمد بن جهور » ، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢ هـ — ١٠٣٠ م) ، ولما مات (٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م)

---

(١) هو الأستاذ الناصرى من مقالة نشرت فى مجلة الرسالة .

تولى الأمر بعده ابنـــه « أبو الوليد محمد بن جهور » ، ثم توفى وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد ، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم ، ثم خلعوه وأخرجوه من قرطبة (٤٦١ هـ) ، متحدين مع جيش محمد بن عباد ، وبسقوطه انقرضت دولة بنى جهور ، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة فى التأخر ، وفى سنة ١٢٣٦ م استولى عليها الأفرنج ، وطردوا أهلها ، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم وهى الآن من المدن الصغيرة ، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسمة ..

أما فى تلك العصـور الزاهرة ، فكان عدد نفوسها يربو على المليون ، وكلهم يعيشون فى خفض من العيش ورفاهية وسعادة ، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة ، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم كما كان الحال فى باقى المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة ، فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها ، وطليطلة بتفننها فى صنع الأسلحة ، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق ، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ .. وكان فى قرطبة مصانع كثيرة مختلفة ، تصدر أنواع السلع الأخرى إلى المدن الأندلسية ، وإلى خارج البلاد أيضاً ..

ونقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد مؤلف الحلة المذهبة فى مملكة قرطبة : « أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث : بأصالة البيت ، وبالجندية وبالعلم . قال : وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك من آلات التعين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذى لا تكون له معرفة ، يحتفل أن تكون فى بيته خزانة كتب ، ويحتفظ بها ، ليس إلا أن يقول : عندى خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند غيرى والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصته وظفرت به .. »

وكان فيها مكتبات كثيرة كبيرة ، تحوى أثمن الكتب وأجلها وأفضلها ، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار الأخرى ، بكثرة علمائهم وأدبائهم ، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف ، وعلى حبهم للعلماء واحترامهم لهم ، ولصناعة العلم والأدب .

وكان للحكم الثانى فى قرطبة مكتبة ، فيها ستمائة ألف كتاب لها أربعة وأربعون فهرساً ، فى كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط !! . ويقول جستاف لوبون — بهذه المناسبة : إن شارل الحكيم الذى تولى أمر فرنسا بعد خلافة الحكم بأربعمائة سنة (١٣٦٤ م) بذل جهده فى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين أسسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية ! ..

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة ، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة ، يقصدها طلاب العلم الراقى والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة ، ومنهم البابا سلفستر الثانى ، وكان قد ذهب إلى اشبيلية ، فدرس فيها زمناً ، ثم إلى قرطبة ، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩ م) ، وكان يسمى قبلا الراهب جربرت ، وممن تخرجوا فى جامعات قرطبة ، بطرس فنرابل ، وقسيس كولونى ، وكذلك « شانجه » ملك ليون ، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب اليوم إلى جامعاتهم التى حلت محل الجامعات العربية .

وكان فى قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون ، نذكر منهم ، أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدى القرطبى ، الملقب « بصائن الدين » ، وهو أحد الأئمة المتأخرين فى القراءات ، وعلوم القرآن ، والحديث ، والنحو ، واللغة الخ . ولد بقرطبة (٤٨٦) ومات بالموصل (٥٦٧ هـ) . وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف المعروف « بابن الفرضى » . وكان فقيهاً عالماً ، من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (المختلف والمؤتلف) و (أخبار شعراء الأندلس) ، وقد ولد سنة ٣٥١ هـ . وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٢٢ هـ . وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤ هـ . ومات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . وأحمد بن محمد بن عبد البر ، من موالى بنى أمية ، وله كتاب فى الفقهاء بقرطبة ومات مسجونا . ومنهم : أحمد بن محمد بن موسى ،

له مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس ، توفى فى ١٢ رجب سنة ٣٤٤ هـ ، وولد فى ١٠ من ذى الحجة سنة ٢٧٤ .

وخالد بن سعيد القرطبى : أحد أئمة الأندلس ، مات فجأة فى سنة ٣٥٢ هـ فى الستين من عمره ، وحسن بن الوليد بن نصر ، وابن الدباغ الأزدى ، وغيرهم .. وغيرهم ..

وتقع قرطبة على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير ، وبينها وبين البحر خمسة أيام ، وذكر ياقوت الحموى فى معجمه أنها كانت « أعظم مدينة فى الأندلس ، وليس لها فى المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة ، ويقال إنها كأحد جانبى بغداد ، وإن لم تكن كذلك فهى قريبة منها ، وهى حصينة بسور من حجارة ، ولها بابان مشرعان فى نفس السور إلى طريق الوادى من الرصافة — والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها ، مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربيها وجنوبيها ، فهو إلى واديها وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها .. »

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلا ، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً ، فى كل ربض من المساجد والأسواق مايقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره ، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية ، فى كل واحدة منها منبر وفقيه » .

وكان فيها (٢٠٠,٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوقى ، فضلا عن الثمانين مدرسة التى ذكرنا ، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراعا وعرضها ٢٠ ذراعاً ، وفيها ثمانى عشرة حنية وتسعة عشر برجا .

وقد تنافس الخلفاء والأمويون فى تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها ، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له ، وشيد المنصور

ابن أبى عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادى الكبير ، وانتقل إليه سنة (٣٧٠هـ) ، وبنى باقى الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكر منها : الحائر ، الروضة ، المعشوق ، المبارك ، التاج ، السرور الخ ..

ولكن أعظم بنايات قرطبة ، بل الأندلس كلها : المسجد الجامع ، الذى شيده عبد الرحمن الداخل ، وكان فى الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة .

وكان جامع قرطبة آية من آيات الفن العربى ، ودليل قاطع على علو كعب العرب فى النقش والبناء ، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربى ، والمقدرة الفنية العربية . ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور فى ذلك العصر سوى الجامع الأمـــوى بدمشق ، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارىء وصفاً وتصويراً صادقين ، بل ليس من السهل على القارىء أن يدرك عظمته إذا ما نظر إلى عدة صور فوتوغرافية عنه ، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا فى أن نعطيك فكرة عامة عنه :

طول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدما وارتفاعه ٢٠ متراً ، وفى عرضه الأيمن ٣٨ صحناً ، والأيسر ٢٩ صحناً ، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة . « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع) ، وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من العسجد » .

أما الباب العمومى — وهو باب المنارة — فهو من النحاس أيضاً ، عرضه ٨ أمتار ، وارتفاعه ٢٠ متراً ، وفى الزاوية القبلية من المساجد تقوم منارته العظيمة ، وهى مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ١٣ متراً ، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية ، محيط كل منها نصف متر أو أكثر بقليل . ويقول صاحب « رحلة فى الأندلس » : إنها خمس طبقات فى كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر ، والمحراب والمقصورة من اجمل ما فى المسجد ، فى تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون ، وهى بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جداً وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية . وأما المحراب ففسيح واسع ، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية ، وكان فيه المصحف العثمانى الشريف ، وقد نقله عبد المؤمن بن على إلى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢ هـ .

وكان فى المسجد (٤٧٠٠) قنديلا من الذهب الابريز ، واحد منها فى المحراب ، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيت ، و(١٢٠) رطلا من العنبر والعود القاقلى ...

ويقول سديو : « كانت هذه المدينة تصبح مضيئة ، وحاراتها مطيبة ، بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة فى المتنزهات والميادين العامة ..

— ١١ —

البطل المجاهد :

يحدثنا التاريخ أنه لم يبق للمسلمين فى الأندلس إلا مملكة غرناطة — هذه البقعة الصغيرة القريبة من البحر . وقد ألح العدو عليها ، وصمم على محوها واستمات المسلمون فى الدفاع عنها ، إذ كانت الملجأ الأخير ، والوزر الذى ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد .

وكان بنو مرين — ملوك المغرب — يرسلون جيوشهم مدداً لبنى الأحمر ملوك غرناطة ، وربما ساروا بأنفسهم ليجاهدوا فى جانب إخوانهم وجيرانهم . وكان أولو النجدة والقوة يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضباً لدينهم ، وحمية لإخوانهم .

جاء إلى الأندلس : عثمان بن أبي العلاء ، أحد أمراء بني مرين ، فتولى مشيخة الغزاة ، وحسن بلاؤه ، وعظمت مكانته فكان شجا في حلوق الإسبان . ولم يكن عثمان ملكا ، ولكنه كان من نفسه الكبيرة في جيش ، ومن كبريائه في سلطان .

تولى زعامة الغزاة ثلاثاً وعشرين سنة ، فما وهن عزمه ، ولا فل حده ، ولا أغمد سيفه ، ولا حط سرجه :

وما كان إلا النار في كل موضع
تثير غبارا في مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب ، وتطرق على المنايا الأبواب . وما الجيوش الجرارة ، والحروب المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صمم ؟

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

وحسبنا من الإفاضة في وصف عثمان ، والإشادة بذكره ، أن نذكر هنا بعض ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :

« هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال والكماة ؛ واحد الجلالة ، ليث الإقدام والبسالة ؛ علم الأعلام ، حامي ذمار الإسلام ؛ صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازي المسطورة ؛ وإمام الصفوف ، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف ؛ سيف الجهاد . وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ؛ العالي الهمم ، الثابت القدم ، الهمام الماجد الأرضى ، البطل الباسل الأمضى ، المقدس المرحوم ، أبي سعيد ، عثمان بن الشيخ الجليل الهمام ، الكبير الأصيل الشهير ، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن

عبد الحق . وكان عمره ثمانيا وثمانين سنة ، أنفقه ما بين روحة فى سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى — فى المشهور — سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة .

« توفى ، رحمه الله ، يوم الأحد الثانى لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة . رحمه الله ! » .

— ١٢ —

من صور التاريخ الأندلسى شخصية سيدة اسمها صبح أو صبيحة ، وهى نصرانية نافارية ، كانت زوجة الحكم المستنصر بالله خليفة الأندلس (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ : ٩٦١ — ٩٧٦) وأم ولده هشـــام المؤيد بالله ، وكانت من الأسبانيات الأسيرات(١) ، وكانت على قسط كبير من الجمال ، وقد ولدت للحكم ابنه عبد الرحمن عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٢ م ، وولدت له كذلك ابنه هشاما عام ٣٥٤ هـ ، ولما توفى ابنه عبد الرحمن صار هشام ولى العهد عام ٣٦٥ هـ . وكان من الموظفين فى ديوان الحكم شاب اسمه محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، وكان له نفوذ كبير لدى الحكم وزوجته صبيحة . ولما مات الحكم كان النفوذ لثلاثة : صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، ورفع بعد قليل ابن أبى عامر إلى رتبة الوزارة .

---

(١) من هؤلاء الأسيرات : ايلونا القوطية ، أرملة رودريك ملك القوط عند الفتح ، ويسميها العرب أم عاصم ، وقد تزوجها عبدالعزيز بن موسى بن نصير . وكانت أم عبد الرحمن الناصر اسمها «ماريا» وهى إسبانية نصرانية تزوجها الأمير محمد بن محمد .

— ١٣ —

من مآسى النكبة :

ليقل لنا أهل إسبانيا : أين الثمانون ألف كتاب التى أمر « كردينالهم » شيمتر بحرقها فى ساحات غرناطة بعيد استظهارهم عليها ، فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون ، حتى أفنوا ـ على ما قال مؤرخهم « ربلس » ـ ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها أقلام العرب ، وليتهم يخبرون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك ، وماذا يقولون عن السفن الثلاث التى ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها ، وألقوا كتبها فى قصر الأسكوريال سنة ١٦٧١ م — ١٠٨٢ هـ ، حتى لعبت بها النيران فأكلت أغلبها ... وتولى ميخائيل القصيرى تكوين مكتبة الأسكوريال بما بقى منها ، وكان نحو ١٨٥١ كتابا (١) .

(١) مجلة المقتطف — السنة الثالثة ـ ص ٧

اللغة العربية فى الأندلس

— ١ —

لغة الكتابة والثقافة والتأليف :

بعد أن تغلب العرب على شبه الجزيرة دخل فى حكمهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها . فعاش أولئك المسيحيون فى كنف المسلمين . وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية ، وكثيرا مارفعتهم إلى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الإسلام وافتتن بحضارته وثقافته ، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة فى أواسط القرن التاسع للميلاد يولول فى أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم ، وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيى المسلمين وفلاسفتهم — لا بقصد تفنيدها — بل رغبة فى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربى رشيق وصحيح[1] .

---

(١) يقول دوزى : « بعد الفتح الإسلامى اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين — حفزتهم لهذا المنافع من جهة ، واقتناعهم بأن الدين الإسلامى هو الدين الحق من جهة أخرى . فقد جددوا فلسفتهم فى نظرية الصراع — يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق ، ويقولون للكهنة : « لو كانت المسيحية حقا فلماذا أسلم الله بلادنا وهى مسيحية لشيعة دين غير صحيح ، وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته ، وقصصتم لمحة من تلك المعجزات التى وقعت غيرة على هذا الدين من المظالم الآرية — فلم لاتبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟ » ، وكانت هذه الاعتراضات فى العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك كيف خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين !! — فلما تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط بل كهنتهم وأشرافهم كانوا أثمة مجرمين وأن القوارع التى قرعتهم لم تكن إلا عقابا عادلا من الله — وقد كان =

. . . . . .

= اعتبار النكبات قصاصا عادلا ، من فلسفة الأقدمين على العموم واليهودية على الخصوص ـ وقد تتجلى فى أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار فى صور مختلفة ـ ولما توالت النكبات على يوسف لم يكن أصحابه لينزعوا عن اعتباره مذنبا لولا أن برهن على طهارته وفضيلته ـ وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية ، فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الإلهى كما كانت انتصارات المسيحيين فى رأى المسلمين ـ وكانت تردد هذه الجملة فى إيطاليا كذلك وهى : «إذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله يريد عقابنا على خطايانا» ، وكذلك كان يقال فى أسبانيا وفى سنة ٨١٢ م أذاع الفونس الثانى منشوراً باملاء الكهنة قال فيه : « أيها الإله — إن القوط أهانوك بكبريائهم فكانوا أهلا لأن تمزقهم السيوف العربية » . وفى سنة ٩٢٤ م قال سنكودى نفار فى منشوره بمناسبة إنشاء معبد البلد : « لقد كانت إسبانيا تحت سلطان المسيحيين ، فكانت حصونها وقراها مكتظة بالكنائس . وبذلك كان الدين المسيحى سائدا فى كل مكان . ولكن أسلافنا تتابعت خطاياهم وخرجوا على وصايا الإله ، فلاجل أن يعاقبهم على ما قدمت أيديهم ويرجعهم إلى الصراط السوى رماهم بهذا الشعب البربرى » . وقال سبستيان بدوره : « وإنما هلك الجيش القوطى لأن الملوك والكهنة تركوا شريعة الله » ، وقال كاهن : « عاقب الله أسلافنا فى هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة إلى عقابهم فى الحياة الأخرى » ، وفى رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه : أن برمود كان عاقلا رحيما عادلا وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر ، ولكنه كان سيء الحظ فقد حدث فى عهده ـ وقت أن كان يشغل عرش ليون ـ أن وجه المنصور ابن أبى عامر إلى المسيحية أشد الضربات التى أصابتها منذ الهجوم العربى ، فلم ينج شيء من سيوف المسلمين ، ولم تكن لترى حينذاك إلا مدائن مخربة وأديرة خاوية وكنائس مهدمة ـ بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان رأساً على عقب ـ وهنا رجع السؤال ، لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عادتهم ذاك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الإلهى ، وهكذا كانوا يسمونه ، ولهم الحق فى ذلك ، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو ، أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد ، فحدثته نية فى ذلك =

وكان الفارو يتساءل قائلا : « أنى يتاح لإنسان فى هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين !! واحسرتاه؟ إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب ، لايعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه - كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها فى مكاتبهم . وتراهم - أنى وجدوا - يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالإعجاب ، فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم ، وأجابوك باحتقار : « إنها أسفار لا تستحق

= فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولا فأولا ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم ، إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر ، غزا فى أيام مملكته نيفا وخمسين غزوة ، وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل امتنعت على من كان قبله ، وملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس فى الأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى ، وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، حتى نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً ؛ وكان فى أكثر زمانه لايخل بأن يغزو غزوتين فى السنة... راجع فى ذلك كتاب المعجب - على أنهم كانوا جديرين أن يبينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التى استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟؟ وكيف تم ذلك رغم أن الإيمان بالخلود كان فى ذلك الزمن أكثر منه فى أى زمن آخر ؟؟ ولكن لا غرابة فى ذلك فقد آلى كتاب القرن الثانى عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب ، فمؤلف التاريخ الكشتالى على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة « رمبو ستيل » فى القرن العاشر وأظهرهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب ، وعنى فيلاخ أفيديو بشخص برمود - ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ومخازيه ، فإذا انتهى منها وصل إلى هذه النتيجة فقال : « وإنما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه ان المنصور .. الخ » وهكذا بررروا عمل الألوهية التى سمحت للاسلام أن يكتسح المسيحية .

الذكر ! » واحسرتا عليهم ! لقد نسى المسيحيون لغتهم ، حتى ليندر العثور — بين آلاف منا — على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به — على حين ترى العدد الجم قادراً على الإبانة عما فى نفسه بأسلوب عربى خلاب ، وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم[1] » .

أما المولدون والصابئون من الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة ، ومنهم نبغ أدباء وشعراء ازدان بهم الأدب العربى فى الأندلس .

وقد حظر هشام بن الداخل (١٧٢ — ١٨٠) على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، وفى هذا دلالة واضحة على حب هؤلاء الملوك للغتهم ، وعملهم على سيطرتها ، لتحكم الألسنة ، بأن تجعل العربية لغة الأسواق ، وحديث التعامل ، وحوار الباعة .

ولاريب أن الدين الإسلامى وعروبة القابضين على أزمة البلاد هما العامل الأول فى انتشار تلك اللغة الكريمة ، زادها الله شرفا ورفعة .

والعامل الثانى الذى له اثره من بعد : هو الحاجة إلى الاتصال بالحاكم واستدرار خيره فى مقتضيات الملك : من كتابة وعملة وزلفى وشفاعة وما إلى ذلك .

---

(١) ومن كلام هذا الكاهن كما فى كتاب تاريخ العرب فى أسبانيا لدوزى ٢/١٠٣ : إنا نحب أن تقرأ الشعر والقصص ، وندرس الدين والفلسفة فى اللغة العربية ، فنتعلم لغة عذبة الألفاظ ، بليغة الأداء ، جميلة الإنشاء ، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشبابنا الأذكياء جميعاً لايعرفون غير لغة العرب وآدابهم ، وكلما قرءوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها ، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه ، وقالو إن الفائدة منه لاتساوى التعب فى قراءته ، وهكذا نسى المسيحيون لغتهم ، وجهلوا كتابتها وبلاغتها ، وحذقوا اللسان العربى حتى ليكتبونه نثراً ونظما بأسلوب أنيق وتصوير دقيق .

كذلك أغرى بها وزاد الرغبة فى تعلمها ، سهولتها وعذوبتها وسرعة تعلمها ، ولاسيما كان فى البيئات المنزلية ، وكذلك المصاهرة التى مزجت العناصر ولقنت ألفاظ اللغة وأساليبها ، ولم يكن العرب يتحرجون من مصاهرة من دخل فى دينهم ، وأوى إلى كنف الإسلام ، مهما انحدر نسبه أو رتبته .

كذلك لا ننسى ما كان من الحكام الأولين الأمويين من بِرّ بلغتهم ، فإنهم كانوا فى المغرب مثلهم فى المشرق ، يعنون بمفاخر آبائهم ويلتمسون ذلك فى لغتهم وتراثها الأدبى الخالد ، فيعقدون للأدب مجالس هم مديرو حوارها ، ورواة أخبارها ، فى فصاحة ولسن ، وطبع لا تكلف معه ، والناس يتبعون ملوكهم ، وكذلك هم عاشقون لهذه اللغة فى ذاتها ، يحنون إليها حنين الطيور إلى الوكور ، فلطالما عملوا على ترقية شئونها . وإعلاء كلمتها ، والحض على التفانى فى خدمتها ببذل الأموال ، وتقريب المجاهدين فى سبيلها والمرابطين على حفظ ثغورها . فشجع ذلك على نقل الأدب الشرقى إلى الغرب بالأخذ عن الكتب تارة . والرحلة للحج وطلب العلم أخرى . بل لقد كانوا يحببون المقام فى بلاد الأندلس بشتى المغريات . ولقد جهد كثير منهم أن تظهر مؤلفات النابهين من الشرقيين فى بلادهم قبل ظهورها بالمشرق ، كما فى كتاب شرح مختصر ابن عبد الحكم للأبهرى ، وكما فى الأغانى ، وكان ذلك طمعا فى استرداد الملك الضائع . وتقويض عرش الغالبين من بنى العباس .

— ٢ —

وتجد اللغة فى عهد الولاة الفاتحين ، وهو ما يقرب من نصف قرن ، كانت حالها فى المغرب أشبه شىء بحالها فى المشرق ، فإن القوم هم القوم ، ولم يجد فى أمرهم ما هو جدير بأن يؤثر فى حال اللغة ، ولا استحدث جديد لها ، فاللغة قوية فطرية ، أسلوبها مرسل وألفاظها جزلة بريئة من تكلف البديع ، ومعانيها بعيدة من تعمق الفلاسفة ، وترتيب الحكماء ، وأغراضها دائرة حول أحوال المعيشة والحث على إعلاء كلمة الله ، وبذل النفوس لحماية البلاد والحفاظ عليها .

وفى زمن بنى أمية وملوك الطوائف انتشرت اللغة بين أهل البلاد على

اختلاف أجناسهم ومللهم . حتى ترجم بها القسوس التوراة وغيرها من الكتب الدينية . وذلك دليل على أنها أخضعت كل شيء لسلطانها هنالك ، وقد دخل على اللغة كثير من التجديد فى شتى نواحيها :

فأما أسلوبها : فقد صقل بجمال البلاد ورقتها ، وجد فيه كثير من الصنع المقبول . ولا سيما السجع والسلاسة المستعذبة .

وأما المعانى فقد كانت واضحة بعيدة عن التعمق ، متعددة الصور ، لطيفة المنزع ، كثيرة الطرف ، جذابة النكات ، لا يمل المتأمل فيها ؛ لخفة روح القوم وميلهم نحو كل جميل خلاب من الأفكار والتصويرات ؛ وحسبك خيالهم البديع الذى كانت الطبيعة الأندلسية من بعض مصادره .

وأما الأغراض : فقد اتسعت رقعتها وتعددت منازعها فجالت فى شئون الملك ودواوين الحكم ومرافق الإمارة ثم صنوف الصناعة والتجارة ، وقطعت شوطاً كبيراً فى تصوير العلوم والمعارف وتجلت فى معارضها الجميلة ، وصافة لكل مظاهر الطبيعة وصنعة الحضارة ومشاهد النهضة ، ونبغ الشعر الأندلسى فى الوصف ، مع دقة الخيال ، ورقة العبارة .

وقد كان حظهم من الترجمة نخساً ضئيلا لتفانيهم فى حب لغتهم وبغضهم للأجانب وبعدهم عن مؤثرات عملت فى الشرق عملها ، من سلطان الفرس وسيطرة الدخيل . ولكن الوهن دب إلى اللغة فى زمن المرابطين والموحدين لكثرة الفتن ، ولأن السلطان إذ ذاك فى أيدى البربر وهم بعيدون كل البعد عن فهم اللغة العربية وجمالها ، وسحرها ، فانحطت بانحطاطهم ، وعادت متقهقرة إلى الوراء .

ولكن القدر تداركها ببنى هود ثم بنى الأحمر . وهم عرب خلص ، فأعادوا لها شيئا من مجدها التالد ، وعزها الغابر ، واستطاعت اللغة أن تقوم من كبوتها وكادت تصمد لعادية الزمان ، لولا أن الفتن والقلاقل كانت متغلغلة فى داخل البلاد ، والعدو رابض لهم ، متربص لخطاهم ، يشعل الفوضى بين صفوفهم ،

حتى هزمهم واستولى عليهم ، فمحيت اللغة العربية من الأندلس بعد خروجهم ، وعادت البلاد إلى لغتها الأصلية ، ودينها القديم .

— ٣ —

وقد كان سريان الفساد فى عربية الأندلس بطيئاً ، ويعلل ذلك ابن خلدون بكثرة معاناتهم لعلوم اللسان ، وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثراً وتداول ذلك فيهم مائتين من السنين ، مما جعلهم أقرب إلى تحصيل ملكة اللغة المضرية من غيرهم من أمثال البربر ، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف ، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها . ولذلك سبب آخر ، وهو أن أهل اللسان العجمى ، الذين تفسد ملكتهم ، ليست عجمتهم أصلا للغة أهل الأندلس ، وإنما هم طارئون عليهم ، أما البربر فى هذه العدوة فهم أهلها ، ولسانهم لسانها ، إلا فى الأمصار فقط ، وهم فيها منغمسون فى بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم ، بخلاف أهل الأندلس .

ويقول باحث (١) : وهناك شىء شغل ملوك هذه البلاد بلغتهم ، ووجه منهم عناية زائدة إليها ، هو منافستهم للمشارقة ، وتساميهم إلى أن يعدوا معهم ، بل طمعهم فى أن يفوقوهم ، وهذه المنافسة قد تناولت كل شىء حتى أسماء البلاد ، فإنهم سموا : حمص ، ودمشق ، وقنسرين ، وفلسطين (٢) ، كما أسموا فى الشعراء ابن هانىء وابن زيدون ، بمتنبي الغرب وبحتريه . وكما شبهوا المخزومى الشاعر الأعمى بأبى العلاء ، حتى قال بعضهم فى الترحيب به حين قدم غرناطة :

يا ثانيا للمعرى فى حسن نثر ونظم
وفرط ظرف ونبل وغوص فكر وفهم

---

(١) ٤٤ : ٣ الأدب العربى وتاريخه ـ المرحوم محمود مصطفى .

(٢) يقول المقرى : « لما تولى أبو الخطار ولاية الأندلس عام ١٢٨ هـ أنزل أهل دمشق « إلبيرة » وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية ، وسماها حمص ، وأنزل أهل قنسرين حيان ، وسماها « قنسرين » ؛ وهذا مبعثه الحنين إلى الوطن .

وقد دعتهم هذه المنافسة ، إلى أن يستدرجوا علماء الشرق وأدباءه ، وأصحاب الفنون فيه ، إلى بلادهم ويرغبوهم بإغداق المال والجاه عليهم، حتى يظهر للغرب فضل على الشرق ، وما يبعيد عنك حديث أبى على القالى وزرياب المغنى وغيرهما ، وقد استنفد صاحب نفح الطيب أغلب الجزء الثانى ، فى ذكر هؤلاء الراحلين إلى الأندلس ، وبيان ما نالوا من إكرام .

ويروى أن أبا على القالى فى وفوده على أمير المؤمنين الناصر ، قال : « لما وصلت إلى القيروان كنت اعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى العبارات وقلة الفهم ؛ بحسب تفاوتهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق ، هى منازلهم من العلم محاصة ومقايسة ، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت فى أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان ، فى هذه الأوطان » فلما وصل إلى الأندلس وجد أحلى الناس لساناً ، وأفصحهم بياناً ، وأنفذهم أذهاناً ، وكان كثيراً ما يعجب من ذلك . ولا غرو[1] .

لغة التخاطب :

يقول باحث محدث[2] : كانت عناصر الشعب الأندلسى مكونة من ثلاثة عناصر :

---

(١) ومن صور عامية أهل الأندلس فى القرن السادس الهجرى ما رواه السيوطى فى « بغية الوعاة » ، إذ ذكر فى ترجمة الحافظ أبى محمد بن حوط الله المتوفى سنة ٦١٢ بغرناطة ، وتفسير هذا اللقب (حوط الله) . . « قال ابن عبد الملك : كأنه مصدر حاط يحوط مضافا إلى الله تعالى ، وذكر شيخنا أبو الحكم أن أصله . حوطله مصغر حوت ، مؤنثا ، على لغة شرق الأندلس ، فإنهم يفتحون أول الكلمة من نحو الحوت والسعور ، وينطقون بالتاء طاء ، فيقولون فى حوت : حوط ، ويلحقون آخر المصغر لاما مشددة مفتوحة فى المؤنث ، مضمومة فى المذكر ، وهاء ساكنة فيقولون فى تصغير حوت : حوطله وحوطله . فمن الذى يسمع حوطله فى هذه الأيام ، ويفهم أن المراد بها تصغير حوت .

(٢) ٤٦ ج ٣ الأدب العربى وتاريخه .

١ — العرب ، الذين دخلوها فاتحين ، ونزحوا إليها من الشام وغيره ، من قبائل المضرية واليمانية .

٢ — البربر ، الذين ظل العرب يعانون أمرهم ، ويختلطون بهم منذ اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ ، وقد أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا ، وكان ذلك منهم اثنتى عشرة مرة ، كما يذكر المؤرخون ، ثم ثبتوا على الإسلام ، وتلوا قرآنه متعبدين ومتفقهين فى دين الله .

٣ — سكان البلاد ، الذين قبلوا الإقامة بين ظهرانى العرب ، راضين بحكمهم ، مغتبطين بعدالتهم ، من نصارى ويهود . وقد أقبل عليهم العرب الفاتحون ، ينتفعون بمواهبهم ، فى إدارة البلاد ، خصوصاً اليهود منهم الذين أظهروا للفاتحين إخلاصاً أدى إلى الثقة بهم والاستنامة إليهم ، فكان من نتائج ذلك أن تولى الوزارة فى غرناطة اليهودى المعروف بابن نغذالة ، استوزره ابن باديس [1] صاحب غرناطة ، وقد قتل هذا الوزير اليهودى سنة ٤٥٩ هـ

وأظهر هذه العناصر العرب ، وهم حكام البلاد وساستها وقوادها ، وقد كثر عددهم فى الأندلس ، حتى كانت بعض الأنساب بالمشرق مفقودة ، وفى الأندلس متصلة ، كما فى نسب الأنصار الذين كان منهم فى الأندلس عدد كبير ، وكان الأثر لذلك ذيوع اللغة العربية على الألسنة ، وخفتهـــا فى الأفواه ، واتخاذ الجميع لها لغة تخاطب ينطقون بها معربة سليمة فصيحة ، أو يحرفونها تحريفاً قليلا .

وقد كانت العامة تشارك فى الأدب وتحتفى به ، وكانت لغة تخاطبها تكاد تكون أدبا ، وكان منهم شعراء ، وكتاب ، وأدباء ؛ وقد روى لنا القزوينى عن مدينة « شلب » بالبرتغال ، أن من إحدى عجائبها أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ، ولا يعانى الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ،

---

(١) من ملوك الطوائف

وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه [1].

وهذا كله ناشىء عن رقى الثقافة والميل إلى الأدب ، وكانت هناك فنون أدبية شعبية ذائعة بين الناس ، وأغان عامية متداولة فى هذه البيئة .

وكان من بين تلك الأغانى الدارجة : فنا الزجل والموشحات ، وهما ضربان محبوبان ، وكلاهما مبتدع فى إسبانيا ، ووضعهما معروف وإنشاؤهما متجانس ، ويتركب أغلب هذه الأغانى والأوضاع الدارجة ، من العامية الرقيقة غير المقيدة بقواعد اللغة . وأول من رفع الزجل إلى مرتبة الأدب هو ابن قزمان فى سنة ١١٦٠ ميلادية . ومما نقل إلينا من مخلفات الأمويين بالأندلس ، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية ، قد زاد حتى كان قريباً عن حبهم الحديث .

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعانى التى تدور على ألسنة العامة ، فينظمها ليتغنى الناس بها ، حتى قربت لهجاتهم من اللهجات العامية ، وأصبحت خليطا من اللغة الفصحى وكلام العامة ، وصار الناس ينظمونها غير متبعين قواعد اللغة وأصولها . فتعددت لهجاتها ، وتولد من ذلك فن الزجل : وهو نوع من الشعر العامى المترغل كثيراً فى لهجات العامة وأغانيهم . وقد ذاع أمر الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التى نشأ بها ، واشتمل على أنواع من الشعر ، أكثرها الغزل والوصف ، وكثيراً ما يكون الزجل أصدق فى التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح ، لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة ، وعدم احتياجه إلى التكلف فى الصناعة ، واختيار الألفاظ ، وأول من ابتكر الزجل أبو بكر محمد بن قزمان القرطبى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ . ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامى سميت بأسماء مختلفة .

ويقول باحث : وكان كلما مضى الزمن على الفتح ، ونزع العرب فى الأندلس إلى الترف ، وألفوا سكنى المدن ، لانت جلودهم وألسنتهم ، وبعد عهدهم

---

(١) ص ٢٤٥ عجائب المخلوقات

بالفطرة العربية ، فانمازت لغة حديثهم عن لغة كتابتهم ، وصار إلى العربية كل مايصير إلى اللغات حين يفقد أهلها ملكاتهم : من تحريف ، وتصحيف ، وإهمال للإعراب ، واشتقاق على غير القياس العربى ، واستعمال لكلمات من الدخيل ، واختلاف فى نبر الحروف ولهجة النطق . وكذلك الشأن فى خلطاء العرب ، من البربر وأهل البلاد ، اضطربت فى ألسنتهم لغاتهم واللغة العربية ، فنشأت ألفاظ ليست من هذه ولا من تلك ، وحدثت منهم أساليب فى العربية يحاكون بها أساليب لغتهم التى درجوا عليها ، وهكذا حتى تألفت لغة جديدة تحمل سمات اللغات الأولى لهؤلاء المتخاطبين ، وتلك هى التى تسمى «اللغة العامية» .

وهذه العامية تحتاج إلى زمن فى تكوينها ، وتمام بنائها ، وتأصل ملكتها ، لذلك نراها فى بلاد الأندلس قد صارت كذلك بعد حين ، فغلبت على الألسنة حتى لا يستطيع العالم النحوى ، الذى وعى علم العربية ، وحفظ شواهدها ، وفصل مسائلها أن يقيم لسانه لحناً ، ذكروا ذلك عن الشلوبينى ، قال صاحب نفح الطيب فى معرض الكلام على علم النحو : « والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، وإن كان كلامهم الشائع فى الخواص والعوام ، كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى إن شخصاً من العرب لو سمع كلام الشلوبينى أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصره ، الذى غربت تصانيفه وشرقت ، وهو يقرأ درسه ، لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب ، وأخذ يجرى فيه على قواعد النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات والمراسلات » .

ولكن هذه العامية التى صارت لسان الخاص والعام فى محادثاتهم ، كانت عامية مقبولة ، يغلب فى كلماتها العنصر العربى ، ويقل الدخيل ، ولا يشتد

التحريف ، ترى كل ذلك ماثلا فى موشحاتهم ، وأزجالهم ، التى هى أدب عامتهم ، فأنت لا تكاد تعثر فيها بدخيل ، ولا بمحرف بعد من أصله كل البعد ، وإن كان إهمال الإعراب شائعاً فيها ، لأنه أول ظاهرة تبدو فى عامية اللغة العربية فى أى بلد نشأت .

على أن هذه الموشحات والأزجال ، لا ينبغى أن تعد مقياساً مضبوطاً للعامية ، ولا مثالا صادقاً لما كانت عليه ، فإنها عامية الخاصة ، إذ كان أغلب قائليها من الشعراء المعربين ، الذين تبسطوا فى قولهم ، وتوسعوا فى أدبهم ، فقالوا الموشحات والأزجال ، فتكون لغة هذين الفنين هى عامية الأدباء ، وإن كانت لابد مفهومة للعامة ، لأنهم هم المقصودون بها فى الخطاب ، فهى تدل من قريب على اتجاه العامية فى أهل الأندلس ، فهى عامية غير مستقلة ، ولا مستبشعة » .

الأدب فى الأندلس

— ١ —

كان الملوك فى الأندلس أدباء وشعراء ، يتذوقون الأدب ، ويقرضون الشعر ، والأديب أعرف بقيمة الأديب ، والشاعر آنس بالشاعر ، فكانوا لهذا يتنافسون فى تعهد الأدباء ، وإثابة الشعراء ، ويبالغون فى إكرامهم ، وإجزال العطاء لهم . وكان عبد الرحمن الداخل شاعراً ، وكان ابنه هشام أديبا ، وكان المستنصر عالما وأديباً ، وكذلك كان بقية الخلفاء والوزراء والملوك : كابن أبى عامر ، وملوك بنى الأفطس والمعتضد والمعتمد وابن جهور وغيرهم . ولقد يكون من فرط عناية بعض هؤلاء الملوك بالأدب واعتدادهم بالشعر ألا يستوزروا وزيراً إلا أن يكون شاعراً أديباً كما فعل المعتمد ، ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد ، والمعتمد هذا وكان بحضرته مثل : ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم .

وفى هذا الاهتمام من جانب الخلفاء والملوك ما فيه من بعث الهمم ، واستنهاض القرائح ، والنهوض بالشعر والأدب .

وكان المعتمد يناظر المتوكل بن الأفطس ، وكان فى حضرة بطليوس كالمعتمد بإشبيلية ، يتردد أهل الفضل بينهما كتردد النواسم بين جنتين ، وينظر الأدب منهما عن مقلتين ، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب (١) .

وقد صرف ملوك الطوائف جهدهم إلى العناية بالأدب والشعر ، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالملح لطعام أجسامهم ، وظلت هذه العادة فيهم ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه ، مع أنه دخل فى نجدة لهم على الإفرنج ، وكان

(١) النفح حـ ٢ صـ ٢٥٣ .

على يده النصر المبين[١] . ولو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها ووزرائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب ، لكان خليقاً أن يصدق فى زعمه ، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم . . ولم يعرف فيهم من أهل الركاكة والسخف إلا المستكنى والد ولادة .

— ٢ —

وكانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الأفكار، وأنخم مظاهر الجمال ، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية ، كانت تحفل بأنواع الأدب ، وألوان الطرب ، وأفانين اللهو والسمر ، وكان الشعر فيها نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ولغة الكؤوس ، وأدب النفوس .

وكان للمنصور بن أبى عامر مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم ، للمناظرة بحضرته[٢]، وكان للمعتمد دار مخصوصة بالشعراء ، وديوان تقيد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه ، فلا يدخل عليه غيرهم[٣]:

١ — ومن مجالس الأدب ما يروى من أن المنصور جلس يوما[٤] وعنده اعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدى والعاصمى وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا [٥] يزعم أنه متقدم فى هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجه إليه ، فلما مثل بين يديه ، والمجلس قد احتفل ، خجل ، فرفع المنصور محله ، وأقبل عليه وسأله عن ابن سعيد السيرافى ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . فبادره العاصمى بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته ، فقال له الزبيدى : « فما تحسن أيها الشيخ ؟ » . فقال : « حفظ الغريب » .

---

(١) تاريخ الأدب للرافعى حـ ٣ ص ٢٩٢

(٢) المعجب للمراكشى

(٣) النفح حـ ٢ ص ٤٦٨

(٤) نفح الطيب

(٥) يعنى أبا العلاء صاعدا

قال : « فما وزن أولق ؟ » . فضحك صاعد وقال : « أمثلى يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب ! » قال الزهرى : « قد سألناك ، ولا نشك أنك تجهله » فتغير لونه وقال : « أفعل وزنه » .

فقال الزبيدى : « صاحبكم بمخرق ! »

وقال له صاعد : « إخال الشيخ بضاعته الأبنية ! » فقال له : « أجل » ، فقال صاعد : « وبضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعمى وعلم الموسيقى ! » . قالوا : « فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد وجعل لا يجرى فى المجلس كلمة ، إلا أنشد شعراً شاهداً ، وأتى بحكاية تجانسها » .

٢ — ومن مجالس الأدب مايروى من أن صاعدا الأندلسى [1] كان بين يدى

---

(١) هو صاعد بن الحسن الربعى ، وكنيته أبو العلاء ، وأصله من الموصل ، وقد تعلم فى بغداد ، واستمر بها حتى تبحر فى اللغة والأدب ، ثم ورد على المنصور ابن أبى عامر سنة ٣٨٠ ، فى أيام إمارته ، فأراد المنصور أن يعنى به آثار أبى على القالى ، فلم يجد منه ما يرتقبه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا فى علمه ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً ، لقلة الثقة به .

وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتابه « الفصوص » الذى ألفه للمنصور — ونحا به منحى كتاب النوادر للقالى — وأنهم ألقوه فى النهر ، وذكر المراكشى صاحب كتاب المعجب والمقرى هذه الحكاية بروايات أخرى ، أشهرها أنه دفع الكتاب لغلام بعد تمامه ، فعبر فزلت قدم الغلام به وهو يعبر نهرا ، فسقط هو والكتاب فى النهر .

قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلا بحضرة المنصور :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون ، ولكن ذلك لم يرع صاعدا ، وقال :

إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

وكان السبب فى تأليفه هذا الكتاب ، أن المنصور أراه كتاب النوادر للقالى ، =

المنصور ، فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فدعاه إلى مناقضته ، وقال للمنصور : هذا البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : « أرنيه » فخاف ابن العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن برد ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ماجرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتى صاعد :

عشوت إلى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها — وهى فى خدرها وقد صرع السكر آناسها —
فقالت « أسار على هجعة ؟ » فقلت « بلى ! » فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة يحاكى لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

= فأكد له صاعد أن فى قدرته أن يؤلف كتابا خيرا منه ، وقال له : « إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتابا أرفع منه وأجل ، لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو على ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » وكتب كتابه « الفصوص » حتى أكمله . قالوا : فتتبعه أدباء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ! » .

ولقد أحسن ابن بسام كل الإحسان ، وتوخى شرعة الإنصاف والعدالة ، فى تعليقه على هذا الخبر ، حين قال : « ما أظن أن يجترىء على مثل هذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتى إلا بالقريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه ، بما كان يتنقف به من الكذب .

وقالت خف الله لا تفضحن فى ابنـــة عمك عباسها
فوليت عنهـا على غفلة وما خنت ناسى ، ولا ناسها

فطار ابن العريف بها ، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى ، ومداد أشقر ودخل بها على المنصور .

فلما رآها اشتد غيظه ، وقال للحاضرين :

« غدا أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان ! »

فلما أصبح ، وجه إليه ، فأحضر ، وأحضر معه جميع الندماء ، فدخل بهم إلى مجلس محفل ، قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النوابير ، ووضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء ، قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء ، وفى البركة حية تسبح .

فلما دخل صاعد ورأى الطبق ، قال له المنصور : « إن هذا اليوم ، إما أن تسعد فيه معنا ، وإما أن تشقى بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ، ما توهمت أنه عمل لملك مثله ، فإن وصفته بجميع ما فيه ، علمت صحة ما تذكره »

فقال صاعد بديهة :

أبا عامر ! هل غير جدواك واكف
وهل غير من عاداك فى الأرض خائف؟

يسوق إليك الدهر كل غريبة وأعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نور ، صاغها هامر الحيا على حافتيهـــا عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها ، تقابلت عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنسا تظللهـا بالياسمـــين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر إلى بركة ضمت إليها الطرائف

حصاها اللآلى ، سابح فى عبابها من الرقش مشئوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه الحسن فى جنباتها من الوحش ، حتى بينهن السلاحف

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، فى مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه » .

وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النور تجذب بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : « أحسنت ! إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية ، فقال للوقت :

وأعجب منها غادة فى سفينة مكللة تصبو إليها المهاهف
إذا راعها موج من الماء تتقى بسكانها ، ما إن ذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب تصرف فى يمنى يديها المجاذف
ولم تر عينى فى البلاد حديقة تنقلها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو إن ساقت معاليك روضة وشتها أزاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ ، لو رمت نقل متالع ورضوى ، زوتها من سطاك نواسف
إذا رمت قولا ، او طلبت بديهة فكلنى له ، إنى لمجدك واصف

قالوا : « فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ، ورتب له فى كل شهر ثلاثين ديناراً [1] » .

٣ — ومن مجالس الأدب هذا المجلس فى مناقضة صاعد لابن العريف فى حضرة المنصور : دخل ابن العريف يوما على المنصور ، وعنده صاعد ، فأنشده — وهو بالموضع المعروف بالعامرية — من أبيات :

فالعامرية تزهى على جميع المبانى
وأنت فيها كسيف قد حل فى غمدان

(١) نفح الطيب

فأظهر صاعد للمنصور أن فى استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذى أعده ابن العريف وروى فيه ، فطلب منه المنصور أن يفعل ، ليظهر صدق دعواه ، فقال من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعـ تلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر إلى أن قال فى ختام الأبيات :

فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

فأعجب المنصور ببداهته ، وقال لابن العريف : « مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ »

فأجابه ابن العريف : « إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ! »

فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة إحسانه إليك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ »

فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة أليق بأدبكما ! »

٤ — ومن مجالس الأنس واللهو ما يروى من أن صاعدا اللغوى كان كثيرا ما يمدح بلاه العراق بمجلس المنصور ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير عبد الملك بن شهيد[1] إلى المنصور فى يوم برد ، بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا صيرنا للكمون أفذاذا ؟
قد فطرت صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا ؟

---

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبى عامر أحمد بن شهيد . . وابنه شاعر مشهور .

فادع بنا للشمول مصطليا نغذ سيرا إليك إغذاذا
وادع المسمى بها ، وصاحبه تدع نبيلا ، وتدع أستاذا
ولا نبالى أبا العلاء[1] زها بخمر قطربل وكلواذا
ما دام فى أرملاط مشربنا دع دير عمى ، وطيرناباذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شهيد فى محفة ، لنقرس كان يعتاده وأخذوا فى شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره وطما الطرب ، وسما بهم ، حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس فجعل يرقص ، وهو متوكىء عليه ، ويرتجل ، ويومى إلى المنصور ، وقد غلبه السكر :

هاك شيخا قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا فانثنى يرقصها مستمسكا
عافه عن هزها منفردا نقرس ، أخنى عليه ، فاتكى
من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكا !
أنا لو كنت كما تعرفنى قمت اجلالا على رأسى لكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا ورأى رعشة رجلى فبكى

قالوا : «وكان حاضرهم ذلك اليوم ، رجل بغدادى حسن النادرة سريعها[2] فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً من ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة ، قال : «لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلى بالقاعدة ؟» .

---

(١) يعنى أبا العلا صاعداً .
(٢) كان يعرف بالفكيك ، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور .

فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادى[1] .

٥ — وذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبدالملك الوزير[2]، أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلحه الناصر فقال لابن شهيد : « أنى لك هذا ؟ » فقال (هو من عند الله)، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ؟ فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها مع الغلام وقال : يابنى كن مع جملة ما بعثت به ، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى . وكتب معه هذين البيتين :

أمولاى هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرض
فأرضيكم بالنفس وهى نفيسة ... ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكنت عنده مكانته ، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وبعثها معها ، وكتب له هذه الأبيات :

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا ... تقدم ، كيما يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة ناطق ... فدم منهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث ... وما لك فى تلك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عنده ، ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقى فى نفسه من الغلام حزازة وأنه لايزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول ، فقال للواشى بذلك : لاتحرك لسانك والإطار رأسك ، وأعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : يا مولاى

---

(١) المقرى .
(٢) راجع كتاب نفح الطيب ص ٢٢٩ — ٢٣٣ و ص ٢٤٦ و ٢٤٧ ج ١ .

تعلم أنك كنت لى على انفراد ولم أزل معك فى نعيم ، وإنى وإن كنت عند الخليفة مشاركا فى المنزل له ، محاذر ما يبدو منه من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه .. وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان ، وأن الملك لم يكلمه قط ، إن سأله عن ذلك ، فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم فى سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام ، كتب على ظهر الرقعة ، ولم يزد حرفاً :

أمن بعد إحكام التجارب تبتغى ... لدى سقوط العير فى غابة الأسد؟
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه ... ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد إلى استماع واش به ، ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشرك ؟ فقال : لأن عقلى بالهوى غير مشترك ، فأنعم عليه وازدادت محبته عنده .

— ٣ —

وكان ذكاء الأندلسيين مما يجعلهم نابغين فى الأدب ، ملهمين فى الشعر والنثر ، ومن مثل ذكائهم وجودة قرائحهم وبصرهم ببلاغة الكلام : ما يروى عن القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة ، قال : أتيت وأبو جعفر بن النحاس فى مجلسه بمصر يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون ، حيث يقول :

خليلى هل بالشام عين حزينة ... تبكى على نجد ، لعلى أعينها
قد اسلمها الباكون إلا حمامة ... مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة ... يكاد بدنيها من الأرض لينها

فقلت له : ياأبا جعفر ، ماذا — أعزك الله تعالى — باتا يصنعان ؟ فقال لى : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ . فقلت له : باتت وبان قرينها . فسكت . وما زال يستثقلنى بعد ذلك حتى منعنى كتاب العين .

وقد امتاز الأندلسيون كذلك بحافظة قوية اعتمدوا عليها فى رواية الأدب والشعر ، ومن نوادر حافظة الأندلسيين القوية الواعية : مايروى

عن الوزير أبى بكر ابن وزير أبى مروان عبد الملك ، قال : « بينما أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى . فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : « أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به ؟ » قال : « ما أتيت به معى » ، فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية ، فسلم وقعد . وقال : « يابنى ! استأذن لى على الوزير أبى مروان » فقلت له : هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبى ، ومارأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة وقال: « ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال : « أحب أن أعرف اسمه فإنى كنت أعرف أسماء الكتب فقلت : هو كتاب الأغانى فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه قلت : « بلغ موضع كذا » .

وجعلت اتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه ، قال : وما لكاتبك لايكتب ؟ قلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض هذه الأوراق ، فقال: لم أجىء به معى ، فقال : يابنى خذ كراريسك وعارض . قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ، فتبسمت من قوله . فلما رأى تبسمى قال : يا بنى أمسك على . فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واوا ولافاء . هكذا نحو كراسين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء . فاشتد عجبى ، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته الخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوما حتى ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : « يا مولاى ! اعذرنى ، فوالله ما أعلمنى هذا الخلف إلا الساعة » ، وجعل يسبنى والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفنى . وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الأدب ؟ ثم ادخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به ، فتحدثا طويلا ، ثم

خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبدا . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ فقال لى : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها فى علم الأدب . هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته . وكان ابن عبدون يلقب بأصمعى الأندلس .

ولهذا دلالة قوية على عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجاله ، ووضعهم إياهم فى المكان الأول من الإجلال والرفعة ، وقد أطنبت الحكاية فى وصف ذلك ، ودلالة كذلك على اهتمام الأندلسيين الشديد بنقل كتب الشرق ونسخها لتعم فائدتها ، ولقد يزيدكم اقتناعا بهذا الرأى ما يروى عن الحكم الثانى وعنايته الفائقة الحدود باقتناء الكتب النفيسة وجلبها من أقصى بلاد الشرق ، حتى لقد بادر بشراء كتاب الأغانى قبل أن ينشر فى الشرق نفسه ، ودليل على شغف الأندلسيين بالإكثار من المحفوظات إلى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس حياة العرب دراسة جيدة ، فإن من لا يعرف المنزلة العالية التى وصلت إليها ملكات العرب فى الشرق لا يستطيع تصديق هذه الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الأندلس ، ولقد كان يكفى لاعتبار الإنسان أديبا أن يكون حفاظة ، ولقد أكثر ملوك الأندلس من اقتراح حفظ كتب بعينها ، وخصوا من يفعل ذلك بجوائز مالية ، فاشتد إقبال الناس على تنفيذ رغباتهم طمعاً فى ذلك ، وقد وصل حفاظ الأندلس إلى درجة لا تقل عما وصل إليه حفاظ المشرق .

وحدث المراكشى صاحب كتاب المعجب ، مخبراً عن أستاذه أبى جعفر أحمد بن الحميرى المتوفى سنة ٦١٠ ، وكان قد حضر عليه بقرطبة فى سنة ٦٠٦ هـ ، فقال :

« كان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحواً

من سنتين ، فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه ، أدرك جلة مشايخ الأندلس ، فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك : طول عمره وصدق محبته ، وفرط شغفه بالعلم .

قال لى ولده عصام ، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قرئت على أو أكثرها ، فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها ، فقال : « ما يمكن أن يكون أصل أصح من الأصل الذى كتبت منه » فقلت : « أين هو ؟ » فقال لى : « عن يمينك » فعلت انه يريد الشيخ ، فقلت : « ما على يمينى إلا الأستاذ ! » فقال لى : « هو أصلى ، ومن إملائه كتبت ، كان يملى من حفظه » فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال : فيم انتما ؟ فأخبره ولده بالخبر ، فلما رأى تعجبى ، قال : « بعيد أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبى ! والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ، ولا يرونه مجتهداً » .

النثر الأدبى فى الاندلس

تمهيد :

النثر الفنى من مظاهر الحضارة والرقى العقلى ، وأثر من آثار العناية باللغة ، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب ، حتى يجد القارىء من اللذة مثلما يجده من يستمع إلى الشعر الجيد ، فهو من مظاهر الجمال ، وقد اقتصر فى القرن الأول من دخول العرب الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية ، لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة فى أرواح الجند ؛ لأن ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية لم يكن قد استقر واتسع ، فلم يساعد على نمو ملكة الكتابة الفنية فى الموضوعات الخيالية والاجتماعية ، فكانت الكتابة عربية فى موضوعاتها وعباراتها الجزلة ، خالية من الصنعة والتكلف .

ثم اتسع المجال للنثر الفنى ، فشمل الموضوعات المعروفة لدى المشارقة ؛ وابتكر الأندلسيون ما لم يكن شائعاً هناك ، فشملت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة ، والشوق والعتاب ، والوصف : كوصف المحافل والمجالس والرياض والأزهار ، والأنهار ، والكواكب ، والتعازى ، والحكايات ، والقصص ، والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس ، أو بين السيف والقلم ، وكتبوا فى التوسل إلى الله وإلى الرسول ، والتصوف والزهد والتقوى .

أنواع النثر الأندلسى :

للنثر الفنى الأندلسى أنواع كثيرة أهمها :

١ — نثر الدواوين : وما هو يصدر عن الملوك والأمراء فى تصريف شئون الدولة وأعمالها ، أو يصدر عن الكاتب بإرشادهم وتوجيههم ، وكانوا إذا علت لديهم مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة لقب بالحاجب

وهو أشرف الألقاب فى الدولة ، وكان اسم الوزير يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم ، أما الذى ينوب عن الملك فى سياسة الدولة فكان يلقب (بذى الوزارتين) ويكون غالباً من أهل الأدب .

٢ ـ نثر الرسائل الخلقية والاجتماعية . ويتناول البحث فى شئون الناس وأحوالهم ، وما يجب أن يكونوا عليه من خلق فاضل وعدل ، ومحبة وسلام .

٣ ـ نثر الرسائل الأدبية : وهو ما يصـــدر من الكتاب والأدباء ، متناولا أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها ، ومصوراً عواطف الناس وأهواءهم فى حياتهم الخاصة والعامة .

٤ ـ النثر الخيالى : ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءته من القصص الموضوعة ، وهو ما نسميه الآن النثر الروائى . وهو أنواع : فمنه ما يتناول شرح الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى ، كرسالة ابن شهيد المسماة بالتوابع والزوابع ، تناول فيها جمهرة من الأدباء ، فعرض صوراً من شعرهم ونقدها ، ومنه ما يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم ، والمناظرة بين بلدان الأندلس ، ومنه ما يتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصى .

٥ ـ النثر العلمى : وإن كان الأدباء لا يعدونه من النثر الفنى ، ولكن الأندلسيين لما أبدعوا فى التفنن فى أساليبه ، ونمقوا عباراته ، صح أن يعد عندهم من النثر الفنى ، وكتب : قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، ونفح الطيب تؤيد ذلك .

أسلوب النثر :

كان الأندلسيون يقتفون أثر المشارقة فى أساليب الكتابة ، لأنهم رأوهم أئمتهم فى صناعة الكلام ، وكان النثر أول عهد العرب بالأندلس سهلا جزلا لا تكلف فيه ، ولا أثر للصناعة اللفظية إلا ما يجىء منها عفواً . ولما

ظهر ابن العميد وحلبته فى الشرق ، أخذعنهم الأندلسيون طريقتهم فى الكتابة فغلب على نثرهم الصناعة اللفظية ، والتزم فيه السجع ، حتى أصبح من خواص النثر الأندلسى ، وملأوه بالتشبيهات والاستعارة والكناية وأشياء من المحسنات البديعية .

مميزات النثر الفنى :

امتازت الكتابة الأندلسية بمميزات اقتضتها طبيعة البلاد وأحوال أهلها ، وما حل بدولها أخيراً . منها :

١ — كثرة الوصف لمشاهد الكون مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذى يكتب فيه .

٢ — غلبة الخيال الشعرى على معانيهم .

٣ — كثرة المناظرات والمحاورات الخيالية بين السيف والقلم والربيع والخريف والمدن والأنهار والأزهار[1] .

٤ — التزام الاطناب فى الرسائل السلطانية .

٥ — قلة الغلو والمبالغة فى تعظيم الملوك والأمراء ، كما كان المشارقة يفعلون .

٦ — وقد ظل النثر الأندلسى محافظا على عربيته وفصاحته ، لم تفسده العجمة إلى جلاء المسلمين عنها .

صور من النثر الأندلسى

— ١ —

أ ـ وصف عبدالرحمن الداخل فراره من بطش العباسين فقال : «إننى لجالس يوما فى ظلمة بيت تواريت فيه ، لرمد كان بى ، وابنى سليمان ، بكر ولدى ، يلعب

(١) كما فى رسالة ابن برد الأصغر فى تفضيل الورد (راجع ١٥٠ — ١٦١ من كتاب بلاغة العرب فى الأندلس) .

قدامى ، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبى من باب البيت فازعا باكيا ، فأهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول مايقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ، ويقول لى : « النجاء يا أخى ! فهذه رايات المسودة » فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ، ونجـــوت بنفسى ، والصبى أخى معى ، وأعلمت أخواتى بمتوجهى ومكان مقتصدى ، وأمرتهن أن يلحقنى ومولاى بدر معهن ، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ، ولحقنى بدر ، فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، فأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل على عبـــد سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيـــل تحفزنا ، فاشتددنا فى الهرب ، وسبقناها إلى الفرات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيل تنادينا من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكما » ، فسبحت حاثا لنفسى وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف الفرات ، قصر أخى ودهش ، فالتفت إليه لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم ، وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته « تقتل يا أخى ! إلى إلى ! » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، وبعضهم قدهم بالتجرد للسباحة فى أثرى ، فاستكفه أصحابه عن ذلك ، فتركونى ، ثم قدموا الصبى ، أخى ، الذى صار إليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ، ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر ، وأنا ساع على قدمى ، فلجأت إلى غيضة أشبة ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية .

ب ـ وروى أن الداخل كان فى بعض مجالسه ، فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه ، فقال له : « يا ابن الخلائق الراشدين ، والسادة الأكرمين

إليك فررت ، وبك عذت من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نداك المآل ، وأنت ولى الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقالك ، فلا تعودن ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاح فى الطلبة ، وإذا ألم بك خطب ، أو حزبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما تستر عليك خلتك ، وتكف شمات العدو عنك بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزوجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النيـــة » .

قالوا : « وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يعجبون من منطقه ، وبراعة أدبه . وكف فيما بعد ذو الحاجات عن مقابلته بها شفاها فى مجلسه » .

جـ - وحدث بعض موالى عبد الرحمن الخاصين به ، أنه دخل عليه ، اثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد[1] وهو مطرق شديد الغم ، فرفع رأسه اليه وقال:

« ما عجبى إلا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا ، ويسر الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمام السيوف ، ولما أويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى أمنوا

---

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملكه بالأندلس ، شديد الارتياح إلى وفود أقاربه من بنى مروان ، ليشاهدوا ما أنعم الله عليه فتوافدوا عليه ، وكان منهم اليزيدى ، وعبيد الله ابن ابان بن معاوية وهو ابن أخى الداخل ، وكانا تحت تدبير يرمانه فى طلب الأمر ، فوشى بهما أحد موالى الثانى ، ومما قاله بعد قتلهما : « أعظم ما أنعم الله به على ، بعد تمكنى من هذا الأمر ، القدرة على إيواء من يصل إلى من أقاربى ، والتوسع فى الإحسان اليهم ، وكبرى فى أعينهم وأسمائهم ونفوسهم ، بما منحنى الله من هذا السلطان الذى لامنة على فيه لاحد غيره »

ودرت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ؛ فنازعونا فيما منحنا الله ، فخذلهم بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ، ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ما على فى ذلك أخى ؛ والد هذا المخذول ، كيف تطيب لى نفسى بمجاورته ، بعد قتل ولده ، وقطع رحمه ، أم كيف يجتمع بصرى مع بصره ؛ اخرج إليه الساعة فاعتذر إليه ، وخذ خمسة آلاف دينار وادفعها إليه واعزم عليه فى الخروج عنى من هذه الجزيرة ، إلى حيث شاء من بر العدوة[1] » .

د ـ وللداخل الخليفة حين اشتد الكرب بين يديه ، يوم حربه مع الفهرى :

« هذا اليوم هو أساس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لاتشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

هـ ـ وله خطبة حين عرض عليه إمارة الأندلس وفد من السكان أتى معه ، قائلا :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة ، فيسعك أن تبنى فيها ملكا مشيد الأركان ، موطد الدعائم ، على أساس أقوى من الجبال ،

---

(١) قال « فلما وصلت إلى أخيه ، وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فآنسته وعرفته ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوه وقال : « ان المشؤوم لايكون بليغاً فى الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذى سعى فى حتفه ، قد سرى ماسعى فيه إلى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت فى كنف من يحمل عنه معسرة الزمان وكله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا مرد لما حكم فيه به وقضاه فى الحركة إلى بر العدوة » ؛ قال : « فلما رجعت إلى الأمير ، فأعلمته بقوله قال : « إنه نطق بالحق ، ولكن لا يخدعنى القول عما فى نفسه ، والله لو قدر أن يشرب دمى ماعف عنه لحظة ، فالحمد لله الذى أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم ، وأذلهم بما نووه فينا »

معتمداً على عزائمهم القوية ، وطاعتهم الصادقة ، لاريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ، ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب ، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها ، ونحن جميعاً نهب إلى الوغى ، لنبذل الأرواح فى سبيل ارتقائك إلى عرش الإمارة التى تلقى مقاليدها اليك ، وتحفظ بنيانها من أن يثلم » .

فسكت عبد الرحمن هنيهة يتوقع منه أن يتمم خطابه ، لكنه شعر ان الوفد ينتظر إجابته فخطبهم بقوله : أيها السراة الأمجاد ! إجابة لرغائبكم ، وسعياً وراء أمانيكم فى إصلاح شؤون مسلمى أسبانيا ، أذهب معكم ، باذلا النفس ، فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة ، فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز ، رأيتم منى أخا صدقا يقاسمكم الشقاء والهناء ويعلم الله أنى لاأخشى الشدائد ولا أهوال الحروب ، ولاأرهب الموت الأحمر فقد عركنى الدهر وعركته ، وكثيراً ما ركبت متون الأخطار على حداثة سنى ، وإذا كان مايدعونى اليه هو رغبة مسلمى الأندلس الأشراف ، فأنا ألبى نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم ، وحامى ذمارهم إن شاء الله » .

و ـ وكتب إلى بدر مولاه :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك ، وسوء خطلك ، وما فيها من إساءة أدبك ولئيم معتقدك ، والعجب منى أنك ما أردت أن تبنى لنفسك عندنا مقاما ، بل أتيت بما يهدم كل مقام مشيد . فما تمن به — مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت النفوس إعادته ، استخرنا الله من أجله . على أن أمرنا استئصال مالك ، وزدنا فى هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح أعوانك ، فعل ذلك يقمع منك ويردعك ، حتى يبلغ بك مانريد — إن شاء الله — فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شرك مكتوب فى مثالبنا ؛ وخيرك معدود فى مناقبنا .

ز ـ وبعث إليه بدر برسالة فكتب يجيبه :

« إن لك من الذنوب المترادفة ، مالو سلب معه روحك ، لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل الى رد مالك ، فإن تركك بمعزل ، فى بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد ، والتخلى من شغل السلطان ، أشبه بالنعمة منه بالنقمة ، فايأس من ذلك ، فإن اليأس مريح » .

ح ـ وكتب اليه بدر يستعطفه ، فكان جوابه عليه أن أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر ، وكتب له فى ظهر رقعته :

« لتعلم أنك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلعتك ، وزدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك الى أقصى الثغر ، فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معى الدنيا . ورأيتك تشكو بفلان ، وتتألم من فلان وما تقولوه عليك ، وما لك عدو أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك » .

— ٢ —

ا ـ واعتذر عبدالله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) يوما إلى بعض مواليه فقال له عبد الله :

« إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبىء عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك » .

فقال : « قد اشتمل الذنب على ، وحاق الخطأ بى ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لى عذر ! » .

فأجابه عبدالله : « مهلا عليك ! رويدا بك ! تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعك الغفران » .

ب ـ وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد ، فلو كان نظرك فيما خصصناك به ، واهتبالك به ، على حسب

متواترك بالكتب ، واشتغالك بذلك على مهم أمرك ، لكنت من أحسن رجالنا غناء ، وأتمهم نظراً ، وأفضلهم حزما ، فأقلل من الكتاب فيما لاوجه له ، ولا نفع فيه ، واصرف همتك ، وفكرتك ، وعنايتك ، إلى مايبدو فيه اكتفاؤك ، ويظهر فيه غناؤك - إن شاء الله ! »

— ٣ —

١ - ولما توفى السلطان أبوعبد الله محمد بن يوسف أول ملوك بنى الأحمر فى منتصف جمادى الثانية من عام أحد وسبعين وستمائة دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة ، وكتب على قبره منقوشاً فى الرخام :

« هذا قبر السلطان الأعلى . عز الإســـلام ، جمال الأنام ، فخر الليالى والأيام ، غياث الأمة ، غيث الرحمة . قطب الملة ، نور الشريعة ، حامى السنة سيف الحق . كافل الخلق ، أسد الهيجاء ، حمام الأعداء ، قوام الأمور ، ضابط الثغور ، كاسر الجيوش ، قامع الطغاة ، قاهر الكفرة والبغاة ، أمير المؤمنين ، علم المهتدين ، قدوة المتقين ، عصمة الدين ، شرف الملوك والسلاطين ، الغالب بالله ، المجاهد فى سبيل الله ، أبى عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى ، رفعه الله إلى أعلى عليين ، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، ولد رضى الله عنه وآتاه رحمة من لدنه عام أحد وتسعين وخمسمائة . وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة . فسبحان من لا يفنى سلطانه ، ولا يبيد ملكه ولا ينقضى زمانه ، لاإله إلاهو الرحمن الرحيم :

هذا محل العلى والمجد والكرم ... قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضم هذا اللحد من شرف ... جم ومن شيم علوية الهمم
فالبأس والجود ما تحوى صفائحه ... لا بأس عنترة ولا ندى هرم
مغنى الكرامة والرضوان يعمره ... فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامه فى كلا يومى ندى ووغى ... كالغيث فى المحل أو كالليث فى الأجم

مآثر تليت آثارها سوراً تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر فى جحفل لجب تضيق عنه بلاد العرب والعجم
ولم يغاد العدى منه ببادرة يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلا مضمرة لاتشرب الماء إلا من قليب دم
ولم يقم حكم عدل فى مسايسة تأوى رعيته منه إلى حرم
من كان يجهل ما أولاه من نعم وما حماه لدين الله من حرم

فتلك آثاره فى كل مكرمة أبدى وأوضح من نار على علم
لازال تهمى على قبر تضمنه سحائب الرحمة الوكافة الديم »

ب ـ وكتب على قبر السلطان نصر أحد ملوك بنى الأحمر (٧١١-٧١٣هـ)

هذا قبر السلطان الفاضل ، الإمام العادل ، علم الأتقياء ، أحد الملوك الصلحاء ، المخبت[1] الأواه ، المجاهد فى سبيل الله ، الرضى الأروع ، الأخشى لله الأخشع ، المراقب لله فى السر والإعلان ، المعمور الجنان بذكره واللسان السالك ـ فى سياسة الخلق وإقامة الحق ـ منهج التقوى والرضوان ، كافل الأمة بالكرامة والحنان ، الفاتح لها ـ بفضل سيرته وصدق سريرته ونور بصيرته ، أبواب اليمن والأمان ، المنيب الأواب ، العامل بكل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب ، ذى الآثار السنية ، والأعمال الطاهرة العلية ، القائم فى جهاد الكفار بماضى العزم وخالص النية ، مقيم قسطاس العدل ، منير منهج العلم والفضل ، حامى الذمار ، وناصر دين المصطفى المختار ، المقتدى بأجداده الأنصار ، المتوسل بما أسلفوه من أعمال البر والجهاد ورعاية البلاد والعباد إلى الملك الغفار ، أمير المسلمين وظهير المؤمنين وقامع المعتدين ، المنصور بفضل الله أبى عبدالله ابن أمير المسلمين السلطان الأعلى ، إمام الهدى ، غمام الندى ، محى السنة ، ومعز الملة ، المجاهد فى سبيل الله ، الناصر لدين الله أبى عبدالله ابن أمير المسلمين الغالب بالله أبى عبد الله بن يوسف بن نصر ، كرم الله مثواه ، ونعمه برضاه .

---

(١) المطيع .

ولد رضى الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة وخمسين وستمائة ، وتوفى قدس الله روحه وبرد ضريحه ضحوة يوم الاثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، رفعه الله إلى أعلى منازل أوليائه الأبرار ، وألحقه بأئمة الحق الذين لهم عقبى الدار . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ،

جـ ـ وكتب فى الجانب الآخر هذا الشعر :

رضى الملك الأعلى يروح ويغتدى ... على قبر مولانا الإمام المؤيد
مقر العلى والملك والبأس والندى ... فقدس من مغنى كريم ومشهد
ومثوى الهدى والفضل والعدل والتقى
فبورك فى مثوى زكى وملحد
فيا عجباً طود الوقار جلالة ... ثوى تحت أطباق الصفيح المنضد
وواسطة العقد الكريم الذى له ... مآثر مجد بين مثنى وموحد
محمد الأرضى سليل محمد ... إمام الهدى نجل الإمام محمد
فيا نخبة الأملاك غير منازع ... ويا علم الأعلام غير مفند
بكتك بلاد كنت تحمى ثغورها ... بعزم أصيل أو برأى مسدد
وكم معلم للدين أوضحت رسمه ... بنى لك فى الفردوس أرفع مصعد
كأنك ما سست البلاد وأهلها ... بسيرة ميمون النقيبة مهتد
كأنك ماقدت الجيوش إلى العدى ... فصيرتهم نهب القنا المتقصد(١)
وفتحت من أقطارهم كل مبهم ... فتحت بها باب النعيم المخلد
كأنك ما أنفقت عمرك فى الرضا ... بتجديد غزو أو بتشييد مسجد
وإنصاف مظلوم وتأمين خائف ... وإصراخ مذعور وإسعاف مجتد
كأنك ما أحييت للحق سنة ... تجادل عنها بالحسام المهند

---

(١) فى نسخة الاسكوريال : « رهن القنا المتقصد »

فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها فذاك ثواب الله يلقاك فى غد
تعوضت ذخرا من مقام خلافة مقـــام منيب خاشع متعبد
وكل الورى من كان أو هو كائن صريع الردى إن لم يجز فكأن قد
فلا زال جارا للرسول محمـــد بدار نعيم فى رضا الله سرمد
وهذى القوافى قد وفيت بنظمها فياليت شعرى هل تصيخ لمنشد

— ٤ —

١ ـ ومن الرسالة الجدية لابن زيدون[١] وهى التى كتبها لأبى الحزم بن جهور أمير قرطبة وهو فى سجنه يستعطفه :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، ومن أبقاه الله تعالى ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى ـ أعزك الله ـ لباس إنعامك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود[٢] إسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ؟ وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يغص[٣] بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين[٤] قد يسبق جهد الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

---

(١) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبى ، وزير آل جهور بقرطبة ثم آل عباد بأشبيلية ، وصاحب الرسالتين : الجدية والهزلية ، توفى سنة ٤٦٣ هـ .

(٢) البرود : الماء البارد ، أى إسعافك الذى هو كالماء البارد فى إروائه للغليل

(٣) يغص : يشرق .

(٤) الحين : الهلاك .

وإنى لأتجلد ، وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع ، فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به إكليله ، ومشرفى[١] ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهرى[٢] عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقشا ليزدجروا ؛ ومن يك حازماً فليقس أحيانا على من يرحم؟

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة[٣] غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع[٤] ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه[٥] ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحياة ماصادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله[٦] ولا عتب عليه فى إغفاله :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فافعاله اللائى سررن ألوف

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك[٧] ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا ، فأين العدل ؟ أو مسيئا ، فأين الفضل ؟

---

(١) المشرفى : السيف ينسب إلى مشارف الشام .

(٢) السمهرى : الرمح ينسب إلى سمهر وهو صانع للرماح وزوجه ردينة كانت تعمل معه السلاح وإليهما تنسب الرماح .

(٣) النبوة : الجفوة .

(٤) تقشع : تنكشف وتزول .

(٥) السيب : العطاء .

(٦) الاهتبال : الاغتنام ، أى اغتنام معروفه .

(٧) التطول : التكرم .

إلا يكن ذنب فعدلك واسع او كان لى ذنب ففضلك أوسع

وهل لبس الصباح إلا بردا طرزته بفضائلك(١) ؟ وتقلدت الجوزاء إلاعقداً فصلته بمآثرك؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك؟ وبث المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك ؟ ما يوم حليمة(٢) بسر ! وإن كنت لم اكسك سلبيا ، ولاحليتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا ، بل وجدت آجرا وجصا فبنيت ومكان القول ذاسعة فقلت .

ب — وقال الفتح بن خاقان فى كتابه قلائد العقيان فى ترجمة أبى الفضل ابن حسداى(٣) :

ولما أعرس المستعين بالله ببنت الوزير الأجل أبى بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن بالله فى ذلك احتفالا شهره ، وأبدع فيه إبداعا راق من حضره وبهره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهر الألباب ، وقطع دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس من دان وقاص ، ومطيع وعاص ، فأتوه مسرعين ، ولبوه متبرعين وكان مدير تلك الإراغة(٤) ومدبرها ، ومنشىء مخاطباتها ومحبرها ، الوزير

---

(١) يبالغ فى أن بياض الصبح مستعار من مشهور ثنائه عليه ، وكذلك العبارات الآتية .

(٢) هذا مثل يضرب للأمر المتعالم المشهور ، وحليمة هذه ، هى بنت الحارث ابن أبى شمر الغسانى وجه أبوها جيشا إلى المنذر بن ماء السماء فضمختهم بالطيب جميعا، فقيل : ما يوم . . الخ .

(٣) ابن حسداى : كان وزيراً للؤتمن والمستعين من ملوك الطوائف ، وكان يهوديا وأسلم ، وله كتابة لينة موجزة تظهر عليها مسحة الفلسفة .

(٤) الإراغة : الإرادة والطلب والدعوة .

الكاتب أبو الفضل ، وصدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها ، وبهر اقتضابها وإيجازها . فمن ذلك : ماخاطب به صاحب المظالم أباعبد الرحمن بن طاهر : « محلك أعزك فى طى الجوانح ثابت وإن نزحت الدار ، وعيانك فى أحناء الضلوع باد وإن شط المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من لقائك بظفر اللحظ ، فلا عائدة أسبغ برداً ، ولاموهبة أسوغ وردا ، من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع عن ذلك بأعظم الآمال ، وأنا (أعزك الله) على شرف سؤددك حاكم ، وعلى مشرع سنائك حائم . وحسبى ما تتحققه من نزاعى وتشوقى ، وتتيقنه من تطلعى وتتوقى . وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الاقتراح ، بارتقاب الصلة . وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمتك ، وبارع كرمك ، تنشىء للمؤانسة عهداً ، وتورى بالمكارمة زندا ، وتقتضى بالمشاركة شكراً حافلا وحمداً . لا زلت مهنأ بالسعود المقتبلة ، ومسوغا اجتلاء غرر الأمانى المتهللة بمنه » .

جـ ـ وهذا فصل للأديب أبى عامر بن عقال [1] :

كتب به عن الأمير إبراهيم يصف اجتياز أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة : فى الساعة الثانية من يوم الجمعة ، كان جوازه (أيده الله تعالى) من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه ، وصار حيه ميتاً ، وهدره صمتاً ، وجباله لاترى فيها

---

(١) كان أديبا شاعراً كاتبا من كتاب بنى قاسم من ملوك الطوائف ، ولما ملك المرابطون الأندلس وأزالوا ملك الطوائف اتصل بالأمير ابراهيم بن يوسف ابن تاشفين سلطان المرابطين ، فكان كاتب إنشائه .

عوجا ولا أمتاً ، وضعف تعاطيه ، وعقد السلم بين موجه وشاطيه ، فعبر آمناً من سطواته ، متملكا لصهواته ، على جواد يقطع الجروف لمحا ، ويكاد يسبق الريح سبحا ، لم يحمل لجاما ولا سرجا ، ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجا ؛ عنانه فى رجله[1] ، وهدب العين يحكى بعض شكله ، فلله دره من جواد ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهواء ولا يرهبه ، ويركب الماء ولا يشربه .

— ٥ —

صور من النثر العلمى :

ا ـ باب ما يهمز فيكون له معنى ، فإذا لم يهمز كان له معنى آخر ـ من كتاب « المخصص[2] » :

يقال : قد روأت فى الأمر ، وقد رويت رأسى بالدهن . وقد تملأت من الطعام والشراب ، وقد تمليت العيش : إذا عشت ملياً أى طويلا ، وتقول : قد تخطأت له فى هذه المسألة ، وقد تخطيت القدم ، لأنه من الخطوة ، وقد قرأت القرآن وما قرأت الناقة سلاقط ، أى لم تلق ولدا ، أراد أنها لم تحمل ، وقد قريت الضيف ، وقد سوأت عليه ما صنع ، إذا قلت له : أسأت ، وقد سويت الشىء . والعرب تقول : إن أصبت فصوبنى ، وإن أخطأت فخطئنى ، وإن أسأت فسوىء على . وقد خبأ الشىء يخبؤه خبئاً ، وقد خبت النار خبوا : إذا ذهب لهبها ، وقد برأت من المرض أبرأ برءا ، وقد بريت القلم ، وقد برأت

---

(١) رجل السفينة : سكانها (دفتها) أى لأن له مجاديف متراصة متقاربة من الجانبين كأنها الأهداب .

(٢) صاحبه أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الضرير المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ من ٦٠ سنة .

شريكى — إذا فارقته — وقد بارأ الرجل امرأته ، وباريت فلانا إذا كنت تفعل ما يفعل ، وفلان يبارى الريح سخاء .

ب — افتتاح كتاب :

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم المؤرخ ذو الوزارتين الكاتب البارع الأديب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلطانى رحمه الله (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) فى مقدمة كتابه اللمحة البدرية فى الدولة النصرية :

الحمد لله الذى جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب بها عائرة متغيرة[1] . السابق عجل ، وطبع الوجود مرتجل ، والحى من الموت وجل ، والدهر لا معتذر ولا خجل ؛ بينما ترى الدست عظيم الزحام ، والموكب شديد الالتحام ؛ والوزعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهـــل والعشير ؛ والأطراف يلثمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ؛ والرايات تعقد ، والأعطيات تنقد ؛ إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤملة ولا مزورة ؛ والحركات قد سكنت ، وأيدى الإدالة قد تمكنت . فكأن لم يسمر سامر ، ولا نهى ناه ولا أمر آمر . ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ... فالويل لمن يترك حسنة تنفعه ، أو ذكراً جميلا يرفعه . فلقد عاش عيش البهيمة النهيمة ، وأضاع جواهر عمره الرفيعة القيمة ، فى السمل غير المستقيمة ، وبذر أمانته سبحانه فى المساخط[2] العقيمة .

---

(١) العائرة : المترددة . وفى النسخة المراكشية : غائرة .

(٢) فى نسخة الاسكوريال : المساقط .

وطوبى لمن عرف المصير ، وغافص الزمان القصير[1]، فى اكتساب محمدة تبقى بعده شهابا ، وتخليد منقبة تفيده ثناء وثوابا ، فالذكر الجميل كلما تخلد استدعى الرحمة وطلبها ؛ واستدنى المغفرة واستجلبها ، فلمثله فليعمل العاملون ، وغايته فليأمل الآملون ، « والدار الآخرة خير لو كانوا يعلمون » .. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى شرح حقارة الدنيا على الله وبين ، وحدد[2] البلاغ منها وعين ، وخفض الكلمة ولين ، وحسن الدار الآخرة وزين ، وخفض[3] أمر هذه الدار الغرور وهين . وقال — صلاة الله وسلامه عليه — : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » كيلا تتشبث بها يد ؛ « ولتنظر نفس ما قدمت لغد » .

والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدود ومروا . ولقوا الله وهم لم يغتروا ، فكانوا إذا عهدوا بروا ، وإذا سمعوا اللغو فروا ، وإذا تليت عليهم آيات الله خروا . وكانوا عن حدود تقواه لا يبرحون ؛ وبسوى مواهبه الباقية لا يفرحون . « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

أما بعد فان فى تاريخ الدول عبرة لأولى النهى ، وذكرى لمن غفل عن الله وسها ؛ لتحول الأحوال ، وتصير الرسوم إلى الزوال ، وتلاعب زعازع الأهوال ، بالنفوس والأموال ، إلى امتاع المجالسة ، وإنحاف المؤانسة ، عند الملابسة ، لاسيما التاريخ الذى لم يهتد لضمه لديوان ، لقلة عيان ، أو تأخر

---

(١) غافصه : أخذه على غرة .

(٢) فى نسخة الاسكوريال : « وحد » .

(٣) كذا فى النسختين ؛ وفى هامش المراكشية بخط أحدث : « وحقر » .

زمان ، فالنفوس إليه متطلعة ، وباجتلاء أنبائه[١] متولعة .

لذلك ما جليت فى هذا الكتاب ذكر (ملوك النصرية) على نسق ، وأطلعت منهم فى ليل الخبر بدور غسق . إذ كنت جهينة أخبارهم ، وقطب مدارهم ، وزمام دارهم . فذكرت نبذاً من أخبار وطنهم الذى سكنوه ، وأفقهم الذى حسنوه بسيرهم الحميدة وزينوه . ومن دال به قبلهم من أمير ، أو ذى حسب شهير . ثم تعاقبهم بحسب الزمان ، وسعة الامكان ، ومن اختص بهم من قاض ، وكاتب ووزير ، أو كان على عهدهم من ملك كبير ، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير . . وسميته بـ « اللمحة البدرية ، فى الدولة النصرية » ، فان كانت الإجادة فهو القصد ، أوكانت الأخرى بذل الجهد ، وحصلت البراءة من التقصير ولله الحمد . . وها أنا أبتدى ، وبالله أهتدى ، وعفوه يتغمد ماخطته يدى .

جـ ـ ومن كلام أبى عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبى ، صاحب « العقد الفريد » المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فى مقدمة كتاب الأجوبة ، من كتابه العقد :

هى أصعب الكلام كله مركبا ، وأعزه[٢] مطلبا ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكا ، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة[٣] يروم فى بديهته نقض ما أبرم القائل فى رويته ، فهو كمن أخذت عليه الفجاج ، وسدت عليه المخارج ، وقد اعترض[٤] الألسنة ، واستهدف[٥] للمرامى ،

---

(١) فى المراكشية : اغراضه .

(٢) هى من عز : بمعنى قوى بعد ذلة ، أو بمعنى صار نادراً

(٣) الفريحة : الطبع ، وهى فى الأصل : أول ما يستنبط من ماء البئر ، وأول كل شىء .

(٤) وقف فى طريقها .

(٥) صير نفسه هدفا .

لا يدرى مايقرع به فيتأهب له ، وما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله ، ولاسيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام ، فقاده بزمامه بعد أن روى فيه واحتفل[١] ، وجمع خواطره واجتهد ، وترك الرأى يغب[٢] حتى يختمر ، فقد كرهوا الرأى الفطير[٣] ، كما كرهوا الجواب الدبرى[٤] ، فلا يزال فى نسج الكلام واستئناسه[٥] حتى إذا اطمأن شارده ، وسكن نافره ، صك به خصمه جملة واحدة ، ثم قيل له : أجب ولا تخطىء ، وأسرع ولا تبطىء ! فتراه بجواب من غير أناة ولا استعداد ، يطبق المفاصل ، وينفذ المقاتل[٦] ، كما يرمى الجندل بالجندل ، ويقرع الحديد بالحديد ، فيحل به عراه ، وينقض مرائره[٧] ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابة لبدت عجاجة ، فلا شىء أعضل من الجواب الحاضر ، ولا أعز من الخصم الألد الذى يقرع صاحبه ، ويصرع منازعه ، كمثل النار فى الحطب الجزل .

---

(١) اجتهد وبالغ .

(٢) أى يمكث ، من قولهم غب عندنا أى بات ، ومنه : « رويد الشعر يغب » : أى لا تعجل بالشعر ، ودعه حتى تأتى عليه أيام ، فتنظر كيف عاقبته ، أيحمد أم يذم .

(٣) الذى لم يصدر عن روية .

(٤) الدبرى : رأى يسنح اخيراً عند فوت الحاجة ، ولعله نسبة إلى الدبرة (بالتحريك) ، وهو اسم من الإدبار ، بمعنى الهزيمة فى القتال .

(٥) استأنس : فعل لازم بمعنى ذهب توحشه . والذى يليق بسياق الكلام هنا التأنيس والإيناس وهو إذهاب الوحشة ، فلعل الكلمة محرفة عما ذكرنا .

(٦) أى يجعل السهام تنفذ منها ، مبالغة فى الاصابة ، فهى لم تصب فحسب ؛ بل مرت فيها وجاوزتها

(٧) المرائر : جمع مريرة وهى الحبل الشديد الفتل .

د ـ وكتب الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ فى ترجمة الوزير الكاتب أبى المغيرة بن حزم : «وبنو حزم فتية علم وأدب . وثنية مجد وحسب ، وأبو المغيرة هذا فى الكتابة أوحد ، لاينعت ولا يحد ، وهو فارس المضمار ، حامى ذلك الذمار ، وبطل الرعيل[١] ، وأسد ذلك الغيل . بسق فى المعجزات ، وسبق فى المعضلات الموجزات . إذا كتب وشى المهارق[٢] وديبج ، وركب فى بحر البلاغة الثبج[٣] . وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلى صفاء ، وحليفى وفاء ، لا ينفصلان فى رواح ولا مقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل . فكانا بطريقة رافعى آلوية الصيوة ، وعامرى أندية السلوة . إلى أن أخذ أبو عامر فى حبالة الردى وعلق ، وغدا رهنه فيما قد غلق[٤] . فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان ، واسترد ممن سبقه ما فاته منذ زمان ، فلم يذكر له مع أبى عامر حسنة ولا سرت له فقرة مستحسنة ، لتعذر ذلك وامتناعه ، بشفوف[٥] أبى عامر وامتداد باعه . وأما شعر أبى المغيرة فمرتبط بنثره ، ومختلط بزهره ، وقد أثبت له منها فنونا ، تجن بها الأفهام جنونا . فمن ذلك قوله :

ظعنت ، وفى أحداجها من شكلها يمين فضحن بحسنهن العينا

---

(١) الرعيل : اسم كل قطعة متقدمة من خيل وجراد وطير ورجال ونجوم وإبل وغير ذلك

(٢) وشى الثوب وشيا وشية : حسنه ، ووشاه نمنمه ونقشه وحسنه ـ والمهارق جمع مهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها فارسى معرب ، وديبج : نقش

(٣) ثبج كل شىء : معظمه ووسطه وأعلاه ، وجمعه أثباج وثبوج

(٤) قال سيبويه : غلق الرهن فى يد المرتهن «كفرح» يغلق غلقا وغلوقا فهو غلق : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط .

(٥) الشفوف : الفضل والزيادة ، من شف عليه يشف شفوفا

ما أنصفت فى جنب توضح إذ قرت ضعف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده إذا لم يجد بالرقتين قطينا

هـ ـ ومن كتابة ابن بسام فى الذخيرة : « وأما ولادة التى ذكرها ابن زيدون فى شعره ، فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصرى ، وكانت فى نساء زمانها ، واحدة أوانها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو [١] أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها .. إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب [٢] ، وكرم أنساب وطهارة أثواب . على أنها — سمح الله لها وتغمد زللها — طرحت التحصيل [٣] ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت — زعموا — على أحد [٤] عاتق ثوبها :

أنا — والله — أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

أمكن عاشقى من لثم خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

هكذا وجدت هذا الخبر ، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه .

---

(١) عشا يعشو : إذا أتى نارا للضيافة ، وعشا لى النار عشوا وعشوا واعتشاها واعتشى بها ، كله بمعنى : رآها ليلا على بعد فقصدها مستضيئا قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

أى متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك

(٢) النصاب والمنصب كمجلس ، أى الأصل والمرجع

(٣) التحصيل : تمييز ما يحصل

(٤) العاتق ما بين المنكب

وذكر بعد ذلك : أن أباها بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فتسمى بالمستكفى بالله ، وكان واهناً متخلفاً ضعيفاً ، وكانت دولته تسعة عشر شهراً صعابا نكدات سودا ، مشؤمات مشئومات . ولولادة فى مداعبة ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه على :

مالا بن زيدون على فضله يغتابنى ظلما ، ولا ذنب لى
ينظر لى شزرا إذا جئته كأنما جئت لأخصى على !!!

و ـ ومن رسالة أبى بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، وهى الرسالة المعروفة بالحكمة المشرقية ، أو « حى بن يقظان » ، التى جمع فيها بين الفلسفة والشريعة :

« ثم تأمل فى جميع أصناف الحيوان : كيف أعطى كل شىء خلقه ، ثم هداه لاستعماله ، فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التى خلقت له فى وجوه المنافع المقصودة به لما انتفع بها الحيوان ، وكانت كلا عليه ، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء » .

ز ـ ومن رسالة لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفيلسوف صاحب كتاب « الفصل ! فى الملل والأهواء والنحل » ، وهى رسالة رد بها على رسالة رجل يدعى أحمد بن الربيب القيروانى ، وقد أثبت هذا فى رسالته تقصير أهل الأندلس فى تخليد علمائهم ، ومآثر فضائلهم ، وسير ملوكهم ، فلما وقف ابن حزم على هذه الرسالة كتب رسالة طويلة ، منها : « فأما مآثر بلدنا فقد ألف فى ذلك أحمد بن محمد الرازى التاريخى كتباً جمة منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس : مراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وضواحى كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، وهو كتاب مريح مليح »

ومنها فى وصف أهل قرطبة : « فكان أهلها من التمكن فى علوم القراءات والروايات والاطلاع على كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والجبر والطب والحساب والنجوم ، بما كان رحب الفناء واسع العطن متفانى الأقطار فسيح المجال » . . ومنها فى ذكر مواد العلوم : « واما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحاق مشهورة ، وهى كتب حسان رفيعة ، وكتب محمد بن الحسن المذحجى أستاذنا رحمه الله تعالى وهو المعروف بابن الكنانى ، وهى كتب رفيعة حسان ، وكتب التصريف لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى » .

ومنها : « ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى فى أخبار ملوك الأندلس ، وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم . وذلك كثير جدا ، وكتاب له فى صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها .

ح ـ وترجم لسان الدين بن الخطيب لابن خلدون « الإحاطة فى أخبار غرناطة » فقال : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، من ذرية عثمان أخى كريب المذكور فى نبهاء ثوار الأندلس وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثانى المحمدين : محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جد المترجم به فى القيادة .. وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس ، خاصى الزى عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لفتن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الحظ ، مغرى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعى خلال الإصالة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية .

ط ـ وهذه مقامة بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) وصف بها بلاد الأندلس والعدوة، ومنها :

قلت فمدينة سبتة ؟ قال : تلك عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها وكان جبل بنيوشن شمامة أزهارها، والمنارة منار أنوارها، كيف لاترغب النفوس فى جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؛ إلى المينا الفلكية، والمراقى الفلكية الذكية الزكية، غير المنزورة ولا المبكية، ذات الوقود الجزل المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السحن المضنون بها عن المحن، دار الناشبة والحاميـــة المضرمة للحرب الناشبة، والأسطول المرهوب المحذور الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب .. كرسى الأمراء، والأشراف، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة ؛ فلاحظ لها فى الانحراف . بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير، والحرير، والكتان، وكفاها السكنى ببنيوشن فى فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم . إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أوعقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعى الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندى فى مكة والمدينة .

ى ـ ومن رسالة التوابع والزوابع[١] لأبى أحمد بن أبى مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر . وقد توفى سنة ٤٢٦ هـ :

« كنت أحن إلى الآداب ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فابتعت الدواوين وجلست إلى الأسانيد ، فنبض فى عرق الفهم ، ودر لى شريان العلم . وقليل الالتماح[٢] من النظر يؤيدنى ، ويسير المطالعة فى الكتب يفيدنى ، إذ صادف شن العلم منى طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارا ، ولا كالحمار يحمل أسفارا ، فدعنت ثغرة العلم دراكا ، وأعلقت أرجل طيره أشراكا ، فانثالت لى العجائب ، وانهالت لى الرغائب ؟ وكان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبى الحذور وفاز الردى بالغزال الغرير[٣]

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

فارتجّ على القول فإذا أنا بفارس بباب المسجد على فرس أدهم كأنما بقل[٤] وجهه ، قد اتكأ على رمحه وصاح بى : أعجزا يا فتى الأنس ؟ فقلت : لا وأبيك للكلام أحيان ، وهذا شأن الإنسان . فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه ، وحال السرور

فأثبت إجازته وقلت : بأبى من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن . تصورت لك رغبة فى اصطفائك . قلت : أهلا بك أيها الوجه الوضاح .

---

(١) الزوبعة : الشيطان أو رئيس الجن .

(٢) النظر الخفيف .

(٣) المخـــدوع . (٤) نبت

صادفت قلباً إليك مقلوباً وهوى نحوك مجنوباً وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع الخ .

— ٦ —

ا ـ وكتب ابن برد الأصغر فى الاستزارة . ويقال إن ابن برد هذا أول من وضع المحاورات بين الورد وغيره من الأزهار :

« اليوم ، يوم بكت أمطاره ، وضحكت أزهاره ، وتقنعت شمسه ، وتعطر نسيمه . وعندنا بلبل أزج ، وساق غنج (١) ، وسلافتنا (٢) سلافة أخدان ، وسلافة دنان . قد تشاركنا فى الطباع واشتركنا فى إثارة السرور . فاخرق إلينا سرادق الدجى ، تجد مرأى لا يحسن إلا لك ، ولا يتم إلا بك ، الزيارة بالليل أخفى ، وبالزائر والمزور أحفى (٣) .

ب ـ ومن النثر قول ابن خفاجة من رسالة يصف فيها متنزها :

ولما أكب الغمام إكباباً ، لم أجد منه إغباباً ، واتصل المطر اتصالا ، لم الف منه انفصالا ، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل للكتاب (٤) ، وطفقت السماء تخلع

---

(١) الزجج : دقة فى الحاجبين وطول ، وحاجب أزج ومزجج ، والغنج فى الجارية : تكسر وتدلل : وقيل ملاحة العينين ، وقد غنجت المرأة كفرح ، فهى مغناج وغنجة ، أما الغنج بفتح النون : فهو الرجل ولا معنى له هنا .

(٢) سلاف الخمر وسلافتها : أول ما يعصر منها ، أو هو ما سال من غير عصر ولا مرت ، وهو أخلصها وأفضلها .

(٣) حفى بالرجل حفاوة وحفاوة وحفاية وتحفى به واحتفى : بالغ فى إكرامه .

(٤) السجل : الطومار وهو ما يكتب فيه ، ومعنى طيه للكتاب : أنه يطوى على ما فيه من كتابة ، فاللام للتعليل ، أى يطوى بسبب أنه صار مكتوبا ، أو الكتاب بمعنى المكتوب ، أى أن السجل يطوى ما كتب فيه ويضمره ، فلا يذيعه أحد إلا بالقراءة . والمعنى أن السحاب اختفى كما يختفى المكتوب

جلبابها ، والشمس تميط نقابها ، وطلعة الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت ، ذهبت فى لمة [١] من الإخوان ، نستبق [٢] إلى الراحة ركضا ، ونطوى للتفرج أرضاً ، فلا أندفع إلا إلى غدير نمير ، قد استدارت منه فى كل قرارة ماء [٣] سحابة عماء [٤] ، وانساب فى تلعته حباب [٥] . فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادى أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ، ترسل [٦] مشى ، على بساط وشى ، فإذا مر بغدير نسجه درعاً ، وأحكمه صنعاً ، وإن عثر بجدول شطب [٧] منه نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً ، كأنما انهزمت هناك كتائب ، فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول .

جـ ـ وكتب أبو اسحاق بن خفاجة إلى بعض اخوانه ، وكانت بينهما جفوة :

أطال الله بقاء سيدى ، النبيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يسرى للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم . كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا من الحروف الجازمة .

---

(١) اللمة « بالضم » : الصاحب والأصحاب فى السفر ، والمؤنس للواحد والجمع

(٢) نتسابق

(٣) القرارة : ما اطمأن من الأرض

(٤) يقال جارية ونخلة عماء ، أى طويلة

(٥) الحباب « بالضم والكسر » : الحية ، والمراد أن الماء تلوى فى جريانه ، فكان كالحية

(٦) الترسل : التؤدة والرفق

(٧) الشطب : السيف ، والشطب القطع . والمعنى فى شطب السيف : تصوير الحديدة على مثاله ، والمعنى فى كون النسيم يجعل الجدول سيفاً ، أنه يمر بصفحته ، فيحدث فيه طرائق لامعة ، كأنها صفحات السيوف

الكتابة الفنية الأندلسية

نبغ فى الأندلس كثير من الكتاب البلغاء ، الذين كان من بينهم : أحمد بن عبد ربه القرطبى صاحب « العقد الفريد » المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وأبو عامر أحمد ابن أبى مروان بن شهيد المتوفى عام ٤٢٦ هـ ، صاحب الزوابع والتوابع ، وهو حفيد ذى الوزارتين أحمد بن شهيد ، وزير الناصر . وكذلك : ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب ، وابن بسام ، والفتح بن خاقان ، وأبو المطرف بن عميرة ، وسواهم .

وصف الكتابة الفنية

— ١ —

١ ـ لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين فى الأندلس ، لأن الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد ، فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة فى الموضوعات الاجتماعية أو الخيالية أو الفنية . فاقتصرت فى القرن الأول من دخول العرب فى الأندلس على ما تقتضيه الحال من الرسائل السياسية والإدارية ، لبث الحماسة فى نفوس الجند ، وضبط أمور البلاد ، مما كان يلقيه الولاة ، ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم . وكان كل ذلك تمليه الرغبة فى تأييد الملك ، ويسوده الروح العربى الذى كان يسيطر على العقول فى دمشق مدة الأمويين . فكانت الكتابة إذ ذاك عربية فى موضوعاتها ، وفى أساليبها ، وعباراتها الجزلة الرصينة ، خالية من الصنعة والتكلف .

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وقد هجره :

« أما كان جزائى ـ فى قطع البحر ، وجوب القفر ، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى ـ غير الهجر الذى أهاننى فى عيون أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهى عند من يلوذ بى ، وبتر مطامع من كان

يكرمنى ويخدمنى على الطمع والرجاء ، وأظن أن أعداءنا بنى العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها : « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك ، وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك . مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت فى النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا فى هجرك وإبعادك وهضنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يقمع منك ، ويردعك ، حتى نبلغ منك مانريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب فى مثالبنا ، وخيرك معدود فى مناقبنا » .

ومن نثر عبد الرحمن الداخل قوله من كتاب أملاه على كاتبه إلى رجل اسمه سليمان بن الأعرابى : « أما بعد فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، أولألقين بنانها على رضف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » .

٢ — ولما جاء عهد الخلفاء وملوك الطوائف نهضت الكتابة نهضة فنية فذة ، وسلكت مسلكا جديداً فى أغراضها ومعانيها وأسلوبها :

فأما أغراضها : فقد اتسعت إلى أحد أنها تناولت أغراض المشارقة ، وقد علمنا أنها تعددت هناك بتعدد أعمال الدواوين ، وبما زاد على الرسائل الإخوانية من استعمالها فى الهجاء والمفاخرة وما إلى ذلك ، بل إن الأغراض هنا زادت على تلك فى أكثر ما نجد من مناظرة ومفاخرة ، وجد وهزل وخيال شعرى متسع الأنحاء .

وأما معانيها : فقد ظهر فيها الخيال الفسيح من آثار ذلك الجمال الأقليمى البديع الذى ينبت الخيال ثم يغذيه فينميه ، وإنا نراه متجليا فى كل شىء ،

حتى فى بيان الحقائق العميقة ، يقربونها من العقول ، فى تصوير ممتع رائق ، كما فى رسالة حى بن يقظان لابن الطفيل . وكان لزهدهم فى علوم الفلسفة أثر فى كون كتابتهم فطرية ساذجة بعيدة عن التعمق . ولكنها كانت تظهر فى ثوب مهذب تهذيباً عربياً خالصاً من تلك الشوائب .

وأما الأسلوب : فحدث ولا حرج ، عن ألفاظ كأنها نسمات الأسحار عذوبة ورقة ، فى أساليب لا يشبهها إلا قائلوها فى خفة أرواحهم وصفاء أذهانهم . قد اشتملت على تشبيهات واستعارات حالفها التوفيق . لا تشعر فيها بشىء من النبو مهما فتشت ورددت . لأنها وحى الصفاء المنزل من السماء . وهيهات أن يعيبه إسفاف ، أو يزرى به تقصير ـ ولقد كانوا يؤثرون السجع القصير لجمال وقعه . إلا أنهم تفانوا فيه تفانيا كليا حتى تعدوا الأدب إلى الكتب العلمية والتاريخية . ومع ذلك فهو فى الجملة يحف به القبول لسلامة طبعهم . وصفاء ذهنهم . ولم تكن لهم تكلفات المشارقة فى التهالك على سائر أنواع البديع كالتورية والجناس ، بل يتركون ذلك لعفو الخاطر .

ولكثرة المحفوظ عندهم وعنايتهم بجمع العلوم الإسلامية ظهرت فى كتاباتهم عدة اقتباسات من الكتاب الكريم والسنة النبوية ، إلى عدة تضمينات من الشعر العربى والأمثال ، وقد بالغ بعضهم فى هذا النوع ، ولعل ابن زيدون فارس هذه الحلبة ، ففى رسالتيه الجدية والهزلية العجب العجاب ، مما أطال بعض الألسنة بأنه لم يفعل فى ذلك أكثر من جميع شتات أمثال وحكم . وكذلك كثرت الإشارة إلى الحوادث التاريخية والأيام العربية ، وغلا بعضهم فيه غلوا شديدا . . ومن محاسن كتاب هذين العصرين : عدم الحفل بقيود البدء والختام ، ولا ألقاب التعظيم التى كان يخصصها المشارقة تقليدا للفرس ، فكان لكل من الخليفة والسلطان والعالم والقاضى والخطيب وغير هؤلاء لقب خاص به ، ما أنزل الله به من سلطان ، ولا جاء فى لسان العرب

الأوائل ، كما أنهم لم يحفلوا بأنواع الدعاء وتنويعها ، ولا صيغ التعظيم وتفخيمها ، وإنما كانوا أقرب شيء إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وعنى أدباء الأندلس بمحاكاة أدباء الشرق واتباع طرقهم أولا ، ثم دب الترف في النفوس والعقول كما دب في الاجتماع ، وتمشى هناك نوع جديد من التفكير ، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية ، وتهذبت الأفكار ، ونضجت العقول ، بما نقل من علوم وفنون ، وانتشرت مظاهر الحضارة في المجالس والمجامع . فامتلأت نفوس الكتاب بشتى الموضوعات التي وسعت من أخيلتهم ، وهذبت من إدراكهم ، وأكسبتهم صبغة فنية ، وبما كان من أبهة الملك ، ووصف المباني الضخمة والقصور الفخمة ، ومظاهر الترف ومجالس الخلفاء والأمراء .. فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملكة الكتابة ، فنشأ عن ذلك : النثر الإنشائي الفني ، واشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية ، فكتب الكتاب رسائل في المراسلات والأوصاف والسياسة ، والمناظرات الخيالية ، والمناقشات العلمية ، والقصص الاجتماعية والخيالية ، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحكم والأمثال ، والرسائل الفكاهية ، وكتبوا على ألسنة البلدان والحيوان ، وكتبوا في الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الله ، وفي شعائر الحج ، كما كتبوا في الزهد والتصوف ، وكما كتبوا في المجون ، فبرعوا في النثر ، كما برعوا في أساليب النظم .

وممن كتب في الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون ، وممن كتب في القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد . وممن كتب في المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر ، كما كتب أبو بحر صفوان بن إدريس في المناظرة بين بلدان الأندلس ، وكتب ابن طفيل في القصص الفلسفية ، وممن أطال في الرسائل واشتهر فيها لسان الدين بن الخطيب .. فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر سواء بسواء ، بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها ، التي كان من أشهرها القصص الخيالية .

وكما كتبوا فى الموضوعات الخيالية كتبوا فى الزهد والتقوى والتصوف والتوسل إلى الله وإلى الرسل . كل ذلك بعبارات منمقة ، واحياناً متكلفة يسودها الخيال . لذلك كانت كل كتاباتهم بأنواع المجاز من استعارة وتشبيه ، مما لا تكاد تخلو جملة منه ؛ حتى كانت هـــذه الصناعة اللفظية لديهم أول مايقصدون إليه من أغراض الكتابة الفنية ، ويوجهون إليه هممهم . وكان السجع أظهر ضروب الصناعة النثرية فى كلامهم . وقد كان هذا الأسلوب الفنى فى جملته أرق الأساليب وأجملها فى تلك الأيام ، حين كانت بلاد المشرق تفخر بكتابة ابن العميد والهمذانى ، والخوارزمى والحريرى ومن جاراهم . وبقيت الكتابة الفنية سائرة على هذا المنهج الفنى على ما كان فيها من التفاوت قوة وضعفاً على حسب تداول الدول التى انتابت حكم هذه البلاد . ومن ذلك رسالة ابن زيدون الجدية المعروفة .

ولما ذاع أمر الصناعة فى المشرق زمن ابن العميد والبديع ومن على طريقتهما ، وانتشر السجع والتعمل فى الكتابة ، وكان الأندلسيون يحاكون أهل المشرق فى كل شىء ؛ ذاعت الصناعة فى الكتابة ، وامتلأت بأنواع البديع وطغى السجع على كل أنواعها ، من رسائل وقصص جدية وهزلية ، وكتب علمية وأدبية وتاريخية ، وبالغ فى ذلك أهل الأندلس وأمعنوا فى ضروب الخيال ، وجاءوا بكل غريب فى ذلك . فكان فى نثرهم الكلام المسجوع ، الذى يكون من السهل الممتنع ، مع دقة فى اللفظ وجزالة فى المعنى ؛ ومزج الحقيقة بالخيال ، كما فى أسلوب الذخيرة لابن بسام حيث يقول فى ترجمة ابن شهيد :

« كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها . ينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، ومبنى أسمائها ومسمياتها . نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجع الحمام ، أو جد فزئير الأسد الضرغام ، نظم كما انتسق الدر على النحور ، ونثر كما خلط المسك والكافور » .

وكانوا احيانا يتكلفون فى كتاباتهم وكانها شعر مصنوع ، لاتسيغه النفس ولا يتحمله الذوق ، كما فى بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب . وقد يلتزم بعضهم السجع المتكلف ، وكأنه مفطور على ذلك . فيمزجه بأساليبه العلمية وكتاباته التاريخية ، كما فى كتب الفتح بن خاقان .

٣ — ولقد بقيت الكتابة فى الأندلس فتية ناهضة عربية قوية إلى آخر ملك العرب ، على حين شاخت فى المشرق ، وقد استمسكت فيها بكثير من فضائلها ومع ما أصابها هناك من انحلال وتفكك ، ظلت عربية بريئة نقية ، على حين هاجمتها العجمة فى مقرها الأصلى ، ومنشئها الأول ، ترى تلك الظواهر حين توازن بين كتاب من القرن السابع أو الثامن ـ مثلا ـ من أهل الأندلس ، ونظرائهم من أهل المشرق ، فإنك ترى للأولين قولا سائغاً ، وأدباً رائعاً ، وقوة تعبير ، وقدرة على التصوير ، على حين ترى كتابة الآخرين ـ حتى فحولهم المعدودين ـ متهافتة ، ساقطة لا تكاد تنهض بمعنى ، ولا تقوى على أداء .

والسر فى ذلك أن العرب بالأندلس نزحوا إليها ، ولغتهم تامة السليقة بريئة الملكة ، ثم كانوا بها جمهرة غالبة ، وعنصراً شائعاً ، ولملوكهم الغلبة ، وعز السلطان ، وهم فى الجزيرة فى أمن من الطارئين الذين كان يطغى سيلهم بالمشرق على عربه ، فوقاهم الله شر هذا الاختلاط الذى جنى على غيرهم . ولا ننسى أن نوع ثقافتهم كان عربياً خالصاً . ومع ذلك فلم تكن على ما كانت عليه فى سابق عهدها : لغلبة السجع عليها ، وكثرة الإطناب المبعد عن الجادة فى فهم المقصود ولا سيما فى رسائل الشكوى والاستشفاع التى كانت ترسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم والصالحين للاستنجاد بهم على العدو الجبار ، وظهرت الألقاب والرتب ، واستعملت عبارات الاجلال والتعظيم ، ولا سيما فى عهدى بنى هود وبنى الأحمر ، إلى أن استولى العدو على البلاد .

— ٢ —

وتمتاز الكتابة الأندلسية على العموم بعدة خصائص :

منها غلبة الخيال الشعرى وبروزه فى كتابتهم . وذلك من آثار البيئة وجمال البقعة واستفاضة النعيم ، وإن بقعة يقول فيها ابن خفاجة عفا الله عنه :

لله دركم يا أهل أندلس ماء وظل وأشجار وأنهار
ما جنة الخلد إلا فى دياركمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

لجديرة أن توصف بأنها مباءة الخيال ، ومسرح الجمال .. وكذلك كثرة القصص والحكايات الخيالية والمناظرات بين اصناف الجماد . وأنواع الحيوان . ومن ذلك المناظرة بين بلاد الأندلس ، التى خاطب بها أديب الأندلس أبو بحر صفوان ابن إدريس ، الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على[1] ، ومقامة الديك ، والتوابع والزوابع لابن شهيد . ورسالة حى بن يقظان لابن طفيل ، إلى غير ذلك . كما تمتاز بالإكثار من اقتباس الأمثال والحكم والآيات القرآنية والآثار النبوية ونثر الأبيات الشعرية . كما فى رسالتى ابن زيدون : الجدية والهزلية ، وبالبراعة فى أساليب المجون والدعابة ، فكانت لهم النوادر البديعة ، والنكات المستظرفة ، ومن أشهر الرسائل فى ذلك : الرسالة الهزلية لابن زيدون . وبالتورية بمصطلحات العلوم ، ولا سيما علوم العربية ، لأنها كانت أساس ثقافتهم .

وكثرت الكتابة فى الزهد والإرشاد والتوسل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى شعائر الحج .

وشاع الإطناب فى كتاباتهم . وقد يكون هذا الإطناب مقبولا ، وقد يكون ممجوجا مملولا كما فى أكثر كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان . واتسمت الكتابة كذلك بغلبة السجع حتى فى الكتابة الفنية والعلمية ،

---

(١) ١/٨٠ نفح الطيب .

من تاريخية وغيرها ، ومن تراجم العلماء والأدباء ومن كتب جدية وهزلية ، ومن أشهر ذلك : كتب الفتح بن خاقان ، كقلائد العقيان ، وكتب لسان الدين بن الخطيب ، كالإحاطة فى أخبار غرناطة . كما ظهر عليها كثرة الوصف فى كتاباتهم . فوصفوا المبانى الفخمة من كنائس ومساجد وقصور وآثار وما فيها من صور وتماثيل . ووصفوا الأشياء الجميلة التى غنموها أو عملوها بأيديهم . ووصفوا محافل الملوك والأمراء وابهة الملك . ووصفوا الرياض والغياض ومجالس الشراب إلى غير ذلك . كما وصفوا نفوس الكبراء والقواد والعلماء ومجالس العلم والأدب .

على أن الكتابة فى الأندلس لم تقتصر على كتابة الدواوين والرسائل : قصيرة كانت أو طويلة ، مسجعة أو مرسلة ، فى العشق والغرام أو فى الذم واللوم أو فى المدح والاستعطاف الخ . بل شملت كل شىء فى الاجتماع هناك وكانت مظهراً لتلك المدنية ، والحالة السياسية العقلية والعلمية .

— ٣ —

وكانت الكتابة الأندلسية كما يقول المقرى على ضربين :

أعلاهما كاتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السمة يخصه من يعظمه فى رسالة . وأهل الأندلس كثيروا الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة . فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه . من تسلط الألسن فى المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه .

والكاتب الآخر كاتب الزمام . وهكذا يعرفون كاتب الجهبذة . ولا يكون بالأندلس وبر العدوة نصرانياً ولا يهودياً البتة . إذ هذا الشغل نبيه ، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم . وصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجدى منفعة ، فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار ؛ ومع هذا إن تأثلت حالته ، واغتر بكثرة البناء والاكتساب ، نكب وصودر وهذا راجع إلى تقلب الأحوال ، وتبدل السلطان .

صورتان من الكتابة الأندلسية

— ١ —

بيان إلى الشعب ـ بلقب الخليفة الناصر عام ٣١٦ هـ :

أما بعد ، فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسته ـ للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل لدولتنا مرامه ـ وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعان من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الأنعام ـ بما أنعم به وأهل الفضل ، بما تفضل علينا فيه .

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ، ووروودها علينا بذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه .

وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله ، والله المستعان .

— ٢ —

ومن رسالة للوزير أبى يحيى محمد بن عاصم [1] فى وصف فتنة سياسية

---

(١) هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلق الناثر الموفق أبو يحيى محمد بن عاصم القيسى الأندلسى الغرناطى قاضى الجماعة بها ، كان رحمه الله تعالى من أكابر فقهائها وعلمائها ورؤسائها والمؤلفين فيها ، ومن تآليفه شرح تحفة والده وذكر فيه أنه ولى القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هـ =

قامت ثم أخمدت ؛ وكان الوزير أبو يحيى شاعراً مفلقاً وكاتباً مشرقاً ، وكان يبارى أساطين البلاغة وأرباب البيان ، ويتمثل طريقهم ، وهو فى هذه الرسالة يسلك نهج ابن الخطيب ويترسم خطاه ، ويحاول أن يبلغ مداه .

قال بعد حمد الله :

أما بعد فإن الله على كل شىء قدير ، وإنه على عباده لخبير بصير ، وهو لمن أهل نيته وأخلص طويته ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض والبسط والقبض ، والرشد والغى ، والنشر والطى ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ، والرزق والأجل ، والمسرة والمساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والفوت ، والحياة والموت ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على الحقيقة ، وتعالى عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وإن فى أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى : «إن الله يفعل ما يشاء ، وإن الله يحكم ما يريد» ، بينما الدسوت عامرة والولاة آمرة والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة والإمرة مطاعة ، إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً جعلنا الله تعالى فيمن قضى عمره بخيره . وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة ، والمضرة واصلة ، والحبل فى انبتات ، والوطن فى شتات ، والخلاف يمنع رعى النبات ، والقلوب شتى من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ، ويلحظ لحظ الخائف على هضمه ، والأخذ بكظمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونظمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، إذا بالقلوب

= ومنها : كتاب « جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى » ، وكتاب : الروض الأريض فى تراجم ذوى السيوف والأقلام والقريض ، وقد ولع بمصافاة البلغاء ومعارضة الفصحاء ، وقد وصفه ابن فرج السبتى أحد أدباء الأندلس بأنه الأستاذ المعلم ، الصدر ، المفتى ، رئيس الكتاب ومعدن السماحة ، ومنبع الأدب .

قد ائتلفت ، والنفوس المتنافرة قد اجتمعت بعد ما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، فى إصلاح الحالة التى سلفت ، فألقت الحرب أوزارها ، فأدنت الفرقة النافرة من مزارها ، وجلت الألفة الدينية أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها وأعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ، وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة ، فتقبلت فيئاتهم ، وأخمدت جيئاتهم ، وأسعدت آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتممت مآربهم ، وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم ، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم فى الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة فى الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت ، إلى أن قال : وكفت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان الطاغية وغوائل الداهية ، باعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ، « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » دليل على ما سوغ من الكرم والجود .

انتهى بحمد الله وعونه الجزء الثانى
ويليه الجزء الثالث

ص	س	الكلمة	صحتها
١٥	١٦	الأئمة ـ أندلس	أئمة ـ الأندلس

الفهرست

ص	الموضـــوع
٣	العلوم والثقافة فى الأندلس
٣	تمهيـــد
٦	عناية الملوك بالعلم والعلماء
١٠	اشهر العلماء
٢١	علماء الأدب فى الأندلس
٢١	القالى
٢٢	ابن عبد ربه — الاشتركونى
٢٣	الشريشى
٢٥	البـاجى
٢٦ — ٣٠	بعض الأعلام الأندلسية
٣١	مؤرخون أندلسيون
٣٢	مدرسة النحو بين مصر والأندلس
٣٨	صور من التاريخ الأندلسى
٣٨	أبو جعفر الحميرى
٤٠	المعتصم بن صمادح
٤٣	ما أشبه الليلة بالبارحة
٤٥	معركة تور فى فرنسا
٤٦	رسالة قصيرة
٤٧	المـاضى الخالد
٤٨	شاعر يرثى الأندلس
٥٥	شاعر يصف آثار الأندلس

٥٩	مؤرخ يصف قصر الحمراء
٦٢	مدينة قرطبة
٦٧	البطل المجاهد
٦٩	من صور التاريخ الأندلسى
٧٠	من مآسى النكبة
٧١	اللغة العربية فى الأندلس
٧١	لغة الكتابة والثقافة والتأليف
٧٨	لغة التخاطب
٨٣	الأدب فى الأندلس
٨٤	مجالس الأدب
٩٦	النثر الأدبى فى الأندلس
٩٧	أسلوب النثر
٩٨	مميزات النثر
٩٨	صور من النثر الفنى الأندلسى
١٢٥	الكتابة الفنية الأندلسية
١٢٥	وصف الكتابة الفنية
١٣٢	صورتان من الكتابة الأندلسية
١٣٥	الفهرست

محمد عبد المنعم خفاجي

قصة الأدب في الأندلس

١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث

الطبعة الأولى

١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة المنيرية بالازهر

تعريف ببعض الكتّاب من الأندلس :

احمد بن شهيد

٣٨٢ — ٤٢٦ هـ

كاتب من كبار الكتاب فى آخر عهد الدولة الأموية فى الأندلس ، وهو أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك . . . الشهير بابن شهيد ، شاعر ظريف وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها . ولد سنة ٣٨٢ هجرية ، ومات بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، ولقد عاش ابن شهيد فى ظلال بنى عامر ، وتربى فى نعمهم ، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء ، أفاض ملوكها عليه المال الكثير لمكانته لديهم ومكانة أسرته ؛ فقد كان أبوه متصلا بالمنصور ابن عامر ، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك : كريما ، متلافا ، وكان ظريفاً خفيف الروح ، مرح المجلس ، به ميل إلى النكتة والدعابة ، محباً للهزل والمجون ، خليعاً كأهل عصره من الأدباء ، سريع البديهة ، حاضر الذهن سديد الرأى ، عارفاً بفنون الأدب ، كاتباً بارعاً ، يغلب الظرف على أخلاقه ، فرحاً مسروراً كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء والأمراء ، لذلك كان محباً للحياة ونعيمها ، كما يظهر ذلك من نظمه ونثره .

ولابن شهيد شعر رشيق فى المدح والوصف والتشبيه ، وقصائد طويلة كثيرة المعانى ، تدل على سعة خياله ، وأكثر شعره خال من أثر التفكير ، لايكاد يجد القارئ فيه صبغة جدية ؛ لأنه كان هازلا أكثر منه رجل جد ، وأكثر شعره فى الوصف والغزل .

أما أسلوبه ، فتغلب عليه سلاسة العبارة ، ليس به كثير من الغموض والخفاء ؛ يجذب القارئ بأخيلته ومعانيه المستظرفة ، ولامتزاج هذه المعانى بنفس الشاعر كان يعبر عنها بلا تكلف . هـذا إلى سهولة الموضوعات ، وما تقتضيه من رقة ودعابة ، لأنها موضوعات لهو . وأكثر لهوه ظريف مقبول ، لا تكاد تجد فيه فحشاً أو هجراً .

ونثره ممتاز فى موضوعاته وأساليبه ومعانيه ؛ فلقد كتب موضوعات شائقة طريفة ، نادرة فى النثر العربى ، ككتاباته القصصية الخيالية ، التى يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية ، فقالوا عنه : « إنه فى تنسيق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك » . ويبدو من هذه الموضوعات أنه ولع بقراءة القصص ، واطلع على ما كتبه أهل الشرق فى ذلك ، وجارى بعضهم فى أساليبه ، كما فى رسالته « التوابع والزوابع » ، وكرسالته فى الحلواء وغيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان .

وهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة فى نوعها ، أو فريدة فى أسلوبها ، تدل على ميل خاص للكتابة القصصية ، وبراعة فى التصرف فى المعانى وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء الأدباء . وما كان معروفاً لديهم فى النقد الأدبى ، على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيراً . ورسالته : « التوابع والزوابع[1] » أطول رسائل ابن شهيد وهى أشبه برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى[2] . ويبدو أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبى العلاء وعمل على محاكاتها . أما موضوعها ، فقد تخيل فيه أن له شيطاناً ككل الشعراء ، اتصل به وعرفه وسار به إلى العالم الآخر ، وأركبه فرساً وطاف به على الشعراء الأقدمين وهم فى حياتهم الآخرة ، فصار ينشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم . وقد تخيل لكل شاعر شيطاناً وجهة ينزل بها ، ومنزلا يقيم به . فوصف هذه المنازل وصفاً شعرياً دقيقاً ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى فى أثناء وصفهم ومقابلاتهم على كثير من نقد شعرهم نقداً بيانياً مبنيا على ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة ،

---

(١) الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن . وقد سمى رسالته : التوابع والزوابع ؛ لأن فيها لكل شاعر شيطانا .

(٢) ألفت رسالة الغفران عام ٤٢٤ هـ ، إذ يقول المعرى فيها : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب فى سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان بن فلان (٨٤ ج ٢ رسالة الغفران ـ نشر كامل كيلانى) .

على حسب ما هو معروف فى أساليب النقد الأدبى عند العرب . ووازن بين أشعارهم ، وذكر فى أثناء ذلك كثيراً من شعره الرقيق ، وشيئاً من أشعار هؤلاء الشعراء . فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية .

وأسلوب الرسالة مسجوع ، به كثير من محاكاة ما شاع من أسلوب المقامات ، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة ، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية ، مما يحتاج إلى شرح وبيان . . . ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه اسلوب قصصى من الأساليب النادرة فى الكتابة العربية . وقد برع ابن شهيد فى هذا النوع .

ومن نماذج نثره فى هذه الرسالة قوله : « كان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل . فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحمـــام(١) بظبى الخدور وفاز الردى بالغـــزال الغرير(٢)

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذى كان ، فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى(٣) ولا عن فساد ثوى(٤) فى الضمير

فأرتج(٥) على القول . فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم(٦) كأنما بقل وجهه(٧) ، قد اتكأ على رمحه وصاح بى : أعجزاً يا فتى الإنس ؟ فقلت : لا وأبيك . للكلام أحيان ، وهذا شأن الإنسان . فقال قل بعده :

كمثل ملال الفـــتى للنعيم إذا دام فيـــه وحال السرور

فأثبت إجازته(٨) . وقلت : بأبى من أنت ؟ فقال زهير بن نمير ، من أشجع الجن . تصورت رغبة فى اصطفائك . قلت : أهلا بك أيها الوجه الوضاح ،

---

(١) الموت (٢) المخدوع أو الطائش (٣) القلى البغض
(٤) أقام واستقر (٥) أغلق (٦) أسود (٧) يريد نبت عذاره
(٨) كتبت ماقاله .

صادفت قلباً إليك مقلوبا(١) ، وهوى نحوك محبوبا . وتحادثنا ، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع . وقلت له : هل حيلة فى لقاء من نفق منهم ؟ قال : حتى استأذن شيخنا ، وطار عنى ، ثم انصرف ، وقد أذن له : فقال : جل على متن(٢) الأدهم ، فسرنا عليه ، وسار بنا كالطير يجتاب(٣) الجو فالجو ، ويقطع الدو(٤) فالدو . حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا . وشارفت جوا لا كجونا ، .. إلى أن قابل صاحب امرئ القيس ، وجرت بينهما مطارحة شعرية ، ثم قال لى زهير : من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبى نواس ، قال هو بدير حنا(٥) ... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنا ، فضرب زهير الأدهم . فسار بنا فى قنته(٦) ، ففتح سمعى قرع النواقيس ، فقلت : فصحت(٧) عن منزل أبى نواس ورب الكعبة ... وسرنا نجتاب أديارا وكنائس وحانات ، إلى دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه(٨) . فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنا . فقلت: وصرنا بذات الأكراح(٩) ؟ قال نعم . وأرقلت(١٠) نحونا الرهابين ، مشدودة الزنانير(١١) ، قد قبضت على العكاكيز ، مبيضة الحواجب واللحى. مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير أبى عامر من زائر وصاحب . ما بغيتك ؟ قال حسن الدنان(١٢) قالوا : إنه لفى شرك الخمرة . منذ أيام عشرة ، وما نراكما منتفعين به . فقال : وعلىّ ذلك ؟ ونزلنا

---

(١) يريد منصرفا إليك . (٢) المتن : الظهر . (٣) يقطع .
(٤) الفلاة . (٥) كان بظاهر الكوفة بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبد وللآخر دير حنا وهو موضع كثير البساتين والرياض . (٦) القنة أعلى الجبل . (٧) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبى نواس . (٨) صاك به الزعفران صوكا لصق به . والمراد هنا تفوح وتنتشر . والنوافح من نفح الطيب انتشرت رائحته .
(٩) هى بيوت تسكنها الرهبان بها ديرا عبد وحنا . (١٠) أسرعت .
(١١) الزنانير جمع زنار بضم الزاى وهو ما يشد على الوسط .
(١٢) يريد أبا نواس .

وقاد بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه(١) وعكفت غزلانه ، وفى دير حنا شيخ طويل الوجه والسبلة(٢) قد افترش أضغاث(٣) زهر ، واتكأ على زق(٤) من خمر ... فصاح به زهير : حياك الله أبا الإحسان . فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك ، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك فصحت أنشد :

ولرب حان قد أدرت بديره ... خمر الصبا مزجت بصفو خموره
والى على بطرفه وبكفه ... فأمال من رأسى لعبٍ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عينى لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته ، وقال أأشجعى ؟ قلت : أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحاً ، فشرب منه وغسل وجهه ...

ابن زيدون ونشره الفنى

٣٩٤ — ٤٦٣ هـ

ابن زيدون هو الكاتب الشاعر ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الأندلسى .

ولد عام ٣٩٤ ، ونشأ فى مدينة قرطبة(٥) حيث كان أبوه من أعيان فقهائها ، وتأدب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده ، وحفظ من مشهور

---

(١) جمع دن وهو وعاء الخمر . (٢) الشارب .

(٣) جمع ضغث قبضة حشيش يختلط فيه الرطب باليابس . ومنها أضغاث أحلام ؛ وهى الأحلام المختلطة الملتبسة .

(٤) الزق : وعاء من جلد يستعمل لحمل الماء والخمر .

(٥) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير بالأندلس ، وكانت قاعدة الدولة الأموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم .

شعر القدماء والمحدثين ما جرى مجرى الأمثال ، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحكمها شيئاً كثيراً ، ولما نبه شأنه بين شعراء قرطبة وكتابها وأدبائها ، اتصل بأبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف ، فحظى عنده ، ومدحه بالقصائد الطنانة ، وصدرت عنه فى دولته الرسائل البديعة حتى أصبح لسان دولته الناطق ، وحسامها المسلول . فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين مليكه ، وأحس منه ابن جهور دالة عليه ظنها مما لأة لأعدائه فاعتقله ، ومكث فى محبسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ورسائل استنفد فيها جهده ، فما ألانت له قلباً ، ولا ثنت له عطفاً ، فأعمل الحيلة فى فراره من سجنه وخلص إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية[1] ، إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه ، وتولى الوزارة له ، وظل على حاله كذلك فى عهد المعتمد بن المعتضد ، حتى مات بإشبيلية عام ٤٦٣ هـ .

وقد كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية ، فقد شب على القراءة والدرس ، وحفظ كثيراً من مسائل الأدب ، وكان متقد الذاكرة فامتلأت نفسه بالمعانى التى قرأها ، وأسماء الناس الذين عرفهم فى قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التى جرت مجرى الأمثال . ثم كانت زعامة الأدب فى المشرق ، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته فى الكتابة ، وكان أسلوبهم طريفا ، فتسرب إلى بلاد الأندلس ، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذين بالغوا فى اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المنثور ، ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيراً لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بحب التأنق ، بل دفعته إليها الحوادث . وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد ، فكان من كتاب الدواوين ، واشتهر فى الكتابة الفنية الأدبية برسالتيه الجدية والهزلية : كتب الأولى وهو فى السجن يستعطف فيها ابن جهور . وكتب الثانية عن لسان ولادة بنت المستكفى

---

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير أيضاً بالغرب الجنوبى من الأندلس ولا تزال إلى الآن من أعمر مدنها .

(المتوفاة عام ٤٨٠ هـ) للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صلتها به ؛ فاشتهر في عالم الكتابة بهاتين الرسالتين . وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسالات النادرة ، في الأدب العربي . وأظهر مميزاتهما أمران :

١ — ما تدلان عليه من نفس كاتبها وأخلاقه وشيمه .

٢ — كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال ؛ والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين ، من الحكماء والأدباء والعلماء . كل ذلك جاء مبثوثاً في أثناء كلامه .

وكتابة ابن زيدون كثيرا ما يحليها بأبيات منثورة ، وتلميحات إلى حوادث مشهورة ، وأمثال وحكم في فقار غير مسجوعة غالباً ، سالكا فيها طريق التهويل والمبالغة في فروضه وأقيسته وتشبيهاته . وجرى على ذلك في رسالتيه : الهزلية والجدية .

وقد شرحهما الأدباء ، وعنوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء ، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نباتة للهزلية والصفدي للجدية . ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسخت شهرته بالكتابة عند المتأخرين شهرته بالشعر عند المتقدمين . فقد كان يلقب عندهم ببحتري المغرب ، ولا يقدح ذلك في بلاغته ، وفصاحة عبارته ، فمقام الرجل في سعة اطلاعه وسرعة خاطره أشهر من أن ينوه به ، فقد قيل : إنه دفن بنتاً له ، ووقف ليشكر الناس لتشييع جنازتها ، فما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد السائرة وأسماء الرجال والحوادث ؛ فكما دل في رسالته الجدية على باع طويل في الاستعطاف والمدح ، دل في رسالته الهزلية على أنه عارف بأساليب الهجاء ، سباق في هذا الميدان أيضاً . فقد أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاعاً شديداً ، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من التصرف في أساليب الكلام ، إذ على الرغم مما في هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماء الرجال والأمثال ،

والحوادث والأبيات الشعرية ، والإطناب فى كثير من المعانى ، لا يكاد يشعر القارىء لها بشىء من الملل والابتذال ، على أنها لا تخلو من العيوب ، فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلا ، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثرثرة ولغوا . وجاء بعبارات تدل على غلظة طبعه وشدة حقده للانتقام ، وعلى قدرته على التهكم والافتنان فى أساليبه .

ورسالته الجدية جمع فيها كل ما يمكن أن يقال فى الاستعطاف والمدح ، بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم . وأول شىء يسترعى النظر فى أسلوبها أن ألفاظها وجملها تكاد تكون كلها مقتبسة من كلام غير الكاتب ، من آثار أدبية وأمثال سائرة وأبيات من الشعر . وهذا وإن لم يشهد له بقوة الابتكار دليل على قدرته فى تأليف الكلام ونظمه ، وبراعته فى صناعة الكتابة ، واطلاعه الواسع . وقد جمع فى هذه الرسالة بين التناسق فى المعانى والألفاظ والتأليف والجمع . فبينما تجده يرق فى الاستعطاف إلى أن يستصغر نفسه ، ويجمع من المعانى والألفاظ ماينا سب ذلك ، تجده انسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه . فهى رسالة بديعة فى نظمها وأسلوبها ، كثيرة الفائدة لما اشتملت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال ، جامعة لكثير من المعانى كالمدح والاعتذار ، والاستعطاف والفخر والامتنان وذم الزمان ، ولوم الأعداء والحقد عليهم والصبر والتجلد . كل ذلك بعبارات أكثرها بليغ سائغ ، يدل على طول باع الكاتب فى الأدب واللغة والتاريخ . ولكنها ليست على طريقة واحدة من التزام السجع أو الترسل ؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وبغير مناسبة ربما يهوش على القارىء ويصرفه عن الغرض من كتابتها ، ويحمله على التفكير فى البحث عن معانى الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التى أشار إليها الكاتب .

وأما رسالته الهزلية التى كتبها لابن عبدوس على لسان ولادة يتهكم به ويذمه ، فهى من هذا النوع أيضا ، من حيث الأسلوب ، كذكر الأمثال ،

وفى هـــذه الرسالة شبه من رسالة التربيع والتدوير ، التى كتبها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، وذلك مما يرجح أن ابن زيدون قلده فى لاذع تهكمها ، والإكثار من ذكر أعلام عرفوا فى التاريخ بصفات ، ضرب بهم المثل فيها ، ولكن بين الرسالتين فرقاً ظاهراً ، فإن الجاحظ لم يسف فى الهجاء ولم يمض به ، بل كان قوله كله تهكما ، يضحك من المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة مايحملك على رحمته ، والحنق على الكاتب لشناعة حملته ، وهذا من فضل الجاحظ ، وبعكس ذلك كان ابن زيدون فى هذه الرسالة الهزلية .

ومن الرسالة الجدية لابن زيدون :

هذا العتب محمود عواقبه[١] ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى[٢] ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه[٣] أو تأخر غير ضنين غناؤه[٤] ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدباً ، والذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب[٥] له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله[٦] .

---

(١) من قول المتنبى :

لعل عتبك محمـــود عواقبه ورب ما صحت الأجسام بالعلل

(٢) النبوة : إخطاء الضريبة ، الغمرة : الشدة ، تنجلى : تنكشف ، وفى المثل : غمرات ثم ينجلين .

(٣) تقشع : أصلها تتقشع ، خفف بحذف التاء الأولى ، وتقشعت السحابة : أقلعت ، والجملة مثل نقله الميدانى .

(٤) ضنين : بخيل . غناء : نفع .

(٥) مع اليوم غد ، أصله من المثل العربى : إن مع اليوم غدا ، هو بمعنى المثل : إن غدا لناظره قريب ، ولكل أجل كتاب : اقتباس من القرآن . والأجل : مدة الشىء . والمعنى لكل أجل أجله الله تعالى كتاب أثبته فيـــه ، أو هو من المقلوب ، والمعنى لكل كتاب أجل ينزل فيه

(٦) الضمير فى له الحمد لابن جهور المستعطف ، الاهتبال : انتهاز الفرصة =

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللاتى سررن ألوف (١)

وأعود فأقول ، ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك (٢) ؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

فهبنى مسيئاً كالذى قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ ياعز بالفضل

حنانيك ! قد بلغ السيل الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أرانى إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح أركب معنا فقلت سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، وأمرت ببناء صرح لعلى أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فعقرت وشربت من النهر الذى ابتلى به جيوش طالوت ، وقدت الفيل لأبرهة (٣) وعاهدت قريشاً على ما فى الصحيفة (٤) ، وتأولت فى بيعة

= والتعجيل بالأمر ، الاغتفال : ترك الشىء على تذكر له ، والمعنى أنه يمدح الأمير على ماعجل له من خير ، ولا يعتب عليه فيما أخر .

(١) البيت من قول المتنبى .

(٢) التطاول : التعدى ، والتطول : التفضل ، والتطاول من الطول بالضم ضد العرض ، والتطول : الطول بالفتح أى الفضل .

(٣) هو ابن الصباح ملك اليمن ، من قبل أصحمة النجاشى ، وقد قصد إلى الكعبة بجيش تتقدمه الفيلة ، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل

(٤) لما رأت قريش قوة النبى ، بهجرة المسلمين إلى الحبشة ، وإسلام حمزة وعمر ، وفشو الإسلام فى القبائل : أرادوا قتله ، وقدموا لأبى طالب عمه عمارة بن الوليد أعز فتى فيهم ، ليأخذه بدل ابن أخيه ، فأبى ، وجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب . ودخلوا شعبا احتموا به ، فكتبت قريش صحيفة ، تعاقدت فيها على مقاطعتهم حتى يسلموا رسول الله ، فمكثوا ثلاث سنين ، لا يصل إليهم شىء إلا

العقبة(١)، واستنفرت إلى العير ببدر(٢)، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد(٣) وتخلفت عن صلاة العصر فى بنى قريظة(٤)، وجئت بالإفك على عائشة الصديقية، وأنفت من إمارة أسامة(٥)، وزعمت أن خلافة أبى بكر كانت فلتة(٦)، ورويت رمحى من كتيبة خالد(٧)، ومزقت الأديم الذى باركت يد

= سرا، وسلط الله الأرضة على الصحيفة، فأكلت مافيها من ظلم، ولم تبق فيها إلا اسم الله.

(١) بيعات العقبة ثلاث، ولم يرد أن أحدا من المبايعين فى إحداها تأول، ونقض البيعة، فيؤول كلام ابن زيدون على فرض حصول ذلك

(٢) الذى نفر إلى قريش ليخبرها بأمر العير هو ضمضم بن عمرو الغفارى، بعثه بذلك أبو سفيان

(٣) المنخذل يوم أحد، هو عبدالله بن أبى بن سلول

(٤) أى خالفت النبى فى فعله، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام، لما رجع من غزوة الخندق، ووضع المسلمون السلاح، جاءه جبريل ظهراً، وقال له «وضعت السلاح وما وضعته الملائكة بعد، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة» فأمر رسول الله مؤذنا ينادى فى المسلمين: من كان سامعاً مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة!

(٥) هو أسامة بن زيد، مولى رسول الله وحبه، وقد أمره رسول الله على بعث إلى الشام، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون

(٦) هذه كلمة عمر بن الخطاب، وقد قالها فى معرض الحمد لله على حصولها، بعد تدبير أصحاب السقيفة، وقد عيب ابن زيدون بإيراده هذه العبارة، لأنه ساقها مساق الذم، وهى ليست كذلك أصلا؛ وسنورد عليك فى ترجمة ابن زيدون، جملة ما نقدت به رسالته

(٧) إشارة إلى قول أبى شجرة السلمى:

ورويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبو شجرة هذا من فتاك العرب، فعل ذلك مع جيش خالد فى حرب أهل الردة، ثم أسلم.

الله عليه(١) ، وضحيت بأشمط ، عنوان السجود به(٢) ، وبذلت لقطام(٣) :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم

وكتبت إلى عمرو بن سعد ، أن جعجع بالحسين(٤) ، وتمثلت عند ما بلغنى من وقعة الحرة(٥) :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ورجمت الكعبة ، وصلبت العائذ(٦) على الثنية ، لكان فيما جرى على ما يحتمل أن يكون نكالا ويدعى ولو على المجاز عقاباً .

---

(١) يريد بالأديم الممزق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قتله أبو لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة ، وهذا الاستعمال ، من قول بعض من رثى عمر :

جزى الله خيرا من إمام وبارکت يد الله فى ذاك الأديم الممزق

(٢) يريد قتل عثمان ، والأشمط : الذى فى شعره بياض وسواد ، والاستعمال من قول حسان رضى الله عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

(٣) يشير إلى مقتل على رضى الله عنه ، وقد قتله الشقى عبد الرحمن بن ملجم وقطام هذه خطيبته . التى اشترطت عليه فى زواجها ، أن يمهرها بثلاثة آلاف عبد وقينة وبقتل على ، فأجابها بالبيت المذكور ، وبعده :

فلا مهر أغلى من على وإن علا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(٤) يشير إلى مقتل الحسين ، وكان عبد الله بن زياد كتب إلى عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، أن جعجع بالحسين ، وذلك لما أبطأ عمرو عن قتاله وجعجع به : ضيق عليه

(٥) يشير إلى مافعله يزيد فى وقعة المدينة عند حرة واقم ، بقيادة مسلم بن عقبة الذى سمى مسرفا ، لشدة سرفه فى سفك الدماء ؛ وقد تمثل يزيد بالبيت المذكور وهو من قول عبد الله بن الزبعرى ، فى وقعة بدر .

(٦) رجم الكعبة كان من فعل الحجاج ؛ لما حاصر بها عبد الله بن الزبير ، وقتله وصلبه ، ورمى الكعبة بالمنجنيق ، وسمى عبدالله ، عائذا ، لأنه عاذ بالبيت الحرام ، واستجار به

ومن الرسالة الهزلية التى كتبها على لسان ولادة إلى الوزير ابن عبدوس ، وكان هذا أرسل إليها امرأة تستميلها إليه :

« كلامك تمتمة(١) ، وحديثك غمغمة(٢) ، وبيانك فهفهة(٣) وضحكك قهقهة(٤) ، ومشيك هرولة(٥) ، وغناك مسألة(٦) ، ودينك زندقة (٧) . وعلمك مخرقة(٨) :

مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق (٩)

حتى أن باقلا(١٠) موصف بالبلاغة إذا قرن بك . وهبنقة(١١) مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك . وطويسا(١٢) مأثور عنه يمن الطالع إذا قيس

---

(١) التردد فى التاء

(٢) أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف

(٣) العى فى النطق

(٤) الضحك الشديد يستدلون به على ضعف العقل

(٥) بين المشى والعدو

(٦) كدية (٧) إلحاد

(٨) من الخرق بالضم وهو جهل والحمق يقال خرق الرجل يخرق فهو أخرق والأنثى خرقاء

(٩) البيت لأبى تمام . (١٠) مضرب المثل فى العى

(١١) مضرب المثل فى الخبل وضعف العقل ، رووا أنه وضع عقداً من الودع فى عنقه لئلا يضيع ، وأن أخاه راقبه حتى نام فأخذ العقد ووضعه فى عنقه ، فلما تنبه قال لأخيه « أنت أنا ، فأينا يا ترى من هو أنا ؟! » وكان يلقب ذا الودعات وهو جاهلى .

(١٢) هو المغنى الماجن المعروف وكان يسكن المدينة . وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية ، ويضرب به المثل فى الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وختن يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان وكانت أمه تمشى بالنميمة بين الأنصار ، وله قصص فيها أدب رائع .

عليك . فوجودك عدم(١) . والاغتباط بك ندم . والخيبة منك ظفر والجنة معك سقر . كيف رأيت لؤمك لكرمى وفاء . وضعتك لشرفى كفاء(٢)؟! وأنى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها . والطير إنما تقع على آلافها!! وهلا علمت أن الشرق والغرب لايجتمعان . وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان وقلت : الخبيث والطيب لايستويان(٣) وتمثلت :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله ! كيف يلتقيان ؟(٤)

وذكرت أنى علق لا يباع ممن زاد(٥) وطائر لا يصيده من أراد .

---

(١) إشارة إلى قول المتنبى :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجدا ننا كل شيء بعدكم عدم

(٢) وفاء وكفاء مصدرا وافى وكافأ ، وكأنما أخذا من الأثر الشريف ، اللهم إنى أحمدك حمدا يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك

(٣) إشارة إلى قول على كرم الله وجهه : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب كلما ازددت من إحداهما قرباً ، ازددت من الأخرى بعداً ، ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن أطيب من عمله ، والكافر أخبث من عمله .

(٤) قال فى اللسان : قال الجوهرى : معنى لعمرالله ، وعمرالله : أحلف ببقاء الله ودوامه ، قال : وإذا قلت عمرك الله فكأنك قلت بتعميرك الله . أى بإقرارك له بالبقاء وقول ابن أربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك لله ! كيف يلتقيان ؟

يريد سألت الله أن يطيل عمرك لأنه لم يرد القسم بذلك

(٥) العلق : النفيس ، وهو إشارة إلى قول الحريث بن محطان التميمى — وكانت له فرس اسمها سكاب . أراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها .

أبيت اللعن ! إن سكاب علق نفيس ، لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا تجاع لها العيال ولا تجاع
فلا تطمع ـ أبيت اللعن ـ فيها ومنعكها بشيء يستطاع

وغرض لا يصيبه إلا من أجاد ! ماأحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة .

ولولا أن جرح العجماء جبار [١] للقيت من الكواعب ما لاقى يسار [٢] فما هم إلا ببعض ما به هممت ، ولا تعرض إلا لأيسر ماله تعرضت [٣]، أين ادعاؤك رواية الأشعار ، وتعاطيك حفظ السير والأخبار ؟ أما ثاب إليك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع وتنكح فى أكفائها الحبطات [٤]

---

(١) هدر ، وفى الحديث المعدن جبار والبئر جبار ، والعجماء جبار . ومعناه أن تنفلت البهيمة العجماء فتصيب فى انفلاتها إنسانا أوشيئا فجرحها هدر ، وكذلك البئر العارية يسقط فيها إنسان فيهلك فدمه هدر ، والمعدن إذا انهار على حافره فقتله فدمه هدر .

(٢) اسم عبد أسود دميم كان النساء يولعن به لقبحه ويحسبهن لغفلته معجبات به ، نظرت إليه مولاته يوما فضحكت فظنها تغازله . فقال لصاحب له أسود ، قد والله — عشقتنى مولاتى فلأزورنها الليلة ، فقال له صاحبه : يايسار اشرب لبن العشار — النوق — وكل لحم الحوار ، وإياك وبنات الأحرار ، فقال له : ، والله ما رأتنى حرة إلا عشقتنى ، فلما أمسى قال لصاحبه : ، احفظ على إبلى حتى أنصرف وأعود إليك ، وذهب فدخل على مولاته يراودها عن نفسها فقالت له : مكانك فإن للحرائر طيبا أشمك إياه ، ، فقال لها : هاتيه فأتته بطيب وموسى قاطعة وأجلسته على الطيب وأنحت بالموسى على هنيه فقطعته ، فخرج يعدو حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فذهبت حادثته مثلا .

(٣) أى لأنك أقل منى ويسار خير منك

(٤) البيت للفرزدق ، يقوله لرجل من الحبطات بكسر الباء وفتحها ، وهم بنو الحرث بن عمرو بن تميم ، ويجمعهم البيت مع بنى دارم ، وإنما نقص قدر الحبطات عنهم لقول الشاعر فيهم :

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بنى تميم

وإنما سموا الحبطات لأن أباهم الحرث كان فى سفر فأكل أكلا انتفخ منه ومات ، وآل مسمع بيت بكر بن وائل فى الإسلام .

وهلا عشيت ولم تغتر[١] !؟ وما أشك فى أنك تكون وافد البراجم[٢] أو ترجع بصحيفة المتلمس[٣]. أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة[٤] الجهنى ؛ إذ جاءه خاطباً . فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل . ومتى كثر تلاقينا ، واتصل ترائينا ، فيدعونى إليك ما دعا ابنة الخس إلى عبدها ، من طول السواد وقرب الوساد[٥] ! وهل فقدت الأراقم فأنكح فى جنب[٦] !؟

---

(١) مثل يقال : عش إبلك ولا تغتر ، وعشيت الرجل يساوى أطعمته العشاء ، قال :

بات يعشيها بعضب باتر يقصد فى أسواقها وجائر

وعشاه تعشية وأعشاه كعشاه ، وفى المثل : سقط العشاء به على سرحان ، يضرب للرجل يطلب الأمر التافه فيقع فى الهلكة ، وأصله أن دابة طلبت العشاء فهجمت على أسد

(٢) البراجم خمسة من أولاد حنظلة التميمى ، زعموا أنه كان لعمرو بن هند وتر عند تميم ، فحلف ليحرقن مائة منهم فأحرق تسعة وتسعين ، وبينما هو يلتمس تمام المائة إذ مر به رجل من البراجم يسمى عامرا قادما من سفر ، فاشتم رائحة القتار ، فظن أن الملك اتخذ طعاما ، فعدل اليه . فقيل له من أنت ؟ قال من البراجم فقالوا : إن الشقى وافد البراجم ، ثم ألقى فى النار ، ومن هنا عيرت تميم بحب الطعام

(٣) صحيفة المتلمس وقصته وطرفة مع عمرو بن هند مشهورة

(٤) علفة كسكرة والد عقيل المرى الشاعر ، كانت تصهر اليه ملوك بنى أمية وهو القائل لعبد الملك بن مروان: جنبنى هجناء أبنائك

(٥) امرأة جاهلية ، والوساد : المخدة ، والسواد بكسر السين مشددة ، مصدر ساودها سوادا ومساودة ، أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها : أى شخصه من شخصها

قيل لابنة الخس — وقد زنت بعبدها — لم زنيت وأنت سيدة قومك ؟ فقالت « قرب الوساد ، وطول السواد » . ويضرب مثلا للأمر يلقى صاحبه فيما يكره

(٦) الأراقم حى من تغلب ، وجنب حى من اليمن . وهو إشارة إلى قول المهلهل =

أو عضلى همام بن مرة فأقول : « زوج من عود ، خير من قعود » .

ومن نثر ابن زيدون الذى سار فيه على نهجه فى الرسالتين ما أرسل به إلى أحد أصدقائه ، وهو مختف بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور ، قال :

« وبلغنى أنك أحد اللائمين لى ، ومن أمثالهم « ويل للشجى من الخلى[1] » ، « وهان على الأملس ما لاقى الدبر[2] » ، وعلمت أن العاجز من لا يستبد . فالمرء يعجز لا محالة ، ولم استجز أن أكون ثالث الأذلين : العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق ، من سنن المرسلين ، وقد قال الله تعالى على لسان موسى : « ففررت منكم لما خفتكم » فنظرت فى مفارقة الوطن ، فقديماً ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق فى معدنه ، كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد ... يكون عود الكباء من حطبه[3]

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن ، إلا أن الغى لم يرتفع ، ومادة البغى لم تنقطع » .

= أعزز على تغلب بما لقيت ... أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم فى جنـ ... ـب ، وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبهـا ... ضرج ما أنف خاطب بدم

وذلك لما طالت حرب البسوس هرب ، ونزل فى طريقه على حى من اليمن ، فخطبوا إليه ابنته وأجبروه على تزويجها ، وساقوا المهر جلودا .

(١) الشجى كفرح : المشغول ، وقد شدد فى الشعر ويجوز التشديد فى المثل أيضا للمقابلة بالخلى . الخلى كغنى : الفارغ ، والذى قال هذا المثل ، أكثم بن صيفى لما عاد له ابنه بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجمع قومه ورغبهم فى الإسلام فقال له مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم ! فقال له أكثم « ويل للشجى من الخلى » .

(٢) الأملس : البرىء من القروح . الدبر كفرح : من به قرحة الدبرة بالتحريك : يضرب هذا المثل فى سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه وكذلك المثل قبله

(٣) الكباء ككساء : عود البخور .

ومن نثره الذى ترك فيه طريقته فى رسالتيه :

«لقد كان من محاسن الشيم ، وشروط المروءة والكرم ، أن يهب لى ما أنكر لما عرف ، ويغفر ما سخط لما رضى ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ويؤثر الذى هو أجمل وأرفق ، ويتوقف عندما نص[1] له من سعاية ، وزف إليه من وشاية ، فإن كان باطلا ألقاه ، وفضح المتقرب به وأقصاه ، وإن كان حقاً صبر صبر الحليم ، وأغضى إغضاء الكريم ، وقبل إنابة المعتب ، واقتصد فى مؤاخذة المذنب ، فقدم التوقيف قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ، فإن الرفق بالجانى عتاب . والحر يلحى ، والعصا للعبد[2] » .

ولا نكون مبعدين إذا قلنا ما قاله ابن نباتة فى الحكم على نثر ابن زيدون ، قال :

« أما نثره ، فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب ، وحل أشعار المتقدمين والمتأخرين ، إلى أن قيل : إن رسائله أشبه بالمنظوم منها بالمنثور ، وعلى ذلك فقد دل على اطلاع معجب ، واستحضار معجز »

---

(١) نص الرجل الحديث : رفعه .

(٢) العتاب : التأنيب على الذنب . لحاه يلحوه : شتمه .

عبد الملك بن أبي الخصال

المتوفى عام ٥٣٩ هـ

عبد الملك بن أبي الخصال الغافقي كاتب من كتاب الأندلس البلغاء وأدبائها الكبار. سكن قرطبة، ثم اتصل بولاة لمتونة بمراكش وفارس، وكان كاتبا لهم. وقد اشتهر برسائله التي كانت من نماذج الكتابة في ذلك الوقت، توفي في سنة ٥٣٩ هـ.

كتب إلى بعض أصدقائه: «الحذر أعزك الله يؤتى من الثقة، والحبيب يؤذى من المقة(١). وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة، واقتنع من ثنائك وهو المسك بنفحة. فمازلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان وتأخذني بالبيان، وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم، والمعيدي يسمع به لا أن يرى(٢)».

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته: «مثلك - ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهل المكارم ما أوهى بك وآدك(٣) - يلقى دهره غير مكترث، وينازله بصبر غير منتكث(٤)، ويبسم عند قطوبه، ويفل(٥) شباة خطوبه، فما هي إلا غمرة(٦) ثم تنجلي، وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلي. لاجرم ان الحر حيث كان حر، وأن الدر برغم من جهله در. وهل كنت إلا حساما انتضاه(٧) قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده فقد قضى ما عليه، وإن جرده فذلك إليه».

---

(١) المقة: المحبة.

(٢) يشير إلى المثل المشهور: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه».

(٣) آداه الأمر أودا وأوودا: بلغ منه المجهود. والأوادي: الدواهي.

(٤) منقوض.

(٥) فل السيف: ثلمه. وفل القوم: هزمهم، يريد أنه يتغلب على الخطوب

(٦) الغمرة: الشدة.

(٧) انتضى السيف: استله من غمده.

لسان الدين بن الخطيب

٧١٣ — ٧٧٦ هـ

— ١ —

هو ذو الوزارتين ، محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على ابن أحمد السلمانى . ولد بلوشة على عشرة فراسخ من غرناطة فى ٢٥ رجب عام ٧١٣ ، وينسب بيته إلى سلمان ، وهو حى من مراد من عرب اليمن ، انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس فسكن قرطبة أولا ثم طليطلة ثم لوشة . . وأخيراً استقر فى غرناطة(١) .

ولا يعلم بالضبط الوقت الذى هاجرت فيه هذه الأسرة من اليمن إلى الشام ، ثم من الشام إلى الأندلس ، لكن الظاهر أن الهجرتين كانتا تبعاً للهجرتين الكبيرتين : الهجرة إلى الشام فى مدة حكم الأمويين أيام كانت دمشق حاضرة للعرب والإسلام ، وحيث كان فيها لليمنيين خاصة مقام محمود ومنزلة كبرى عند ملوكها . والهجرة إلى الأندلس بعد أن فتحها العرب وأشاعوا فى البلاد حديث رغدها فأسرع الناس إليها من كل حدب ، وخاصة من الشام ، بدليل تسميتهم بعض بقاع الأندلس بأسماء البقاع الشامية . ومهما كان فقد كان بيت لسان الدين بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ ، وكان يعرف ببيت الوزير ، حتى نشأ سعيد الجد الأعلى للسان الدين ، وكان من أهل العلم والدين ، بلوشة ، وهو أول من استوطنها منهم ، وكان خطيباً بها ؛ فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم ببيت الخطيب .

وكان جده سعيد الأدنى على خلال حميدة : من خط ، وتلاوة ، وفقه ،

---

(١) راجع نفح الطيب (٣ : ٣) نقلا عن ترجمة للسان الدين بقلمه فى آخر الاحاطة .

وحساب ، وأدب ، توفى عام ٦٨٣ ؛ وأبوه عبد الله أول من انتقل إلى غرناطة وخدم ملوك بنى الأحمر واستعمل على مخازن الطعام ، وكان من العلماء بالأدب والطب : قرأ على أبى الحسن البلوطى وأبى جعفر بن الوزير وغيرهما وأجاز طائفة من أهل المشرق ، وتوفى بطريف شهيداً عام ٧٤١ .

وكان لوراثاته أثر كبير فى انصراف لسان الدين إلى العلم والأدب ، وتبريزه فيهما .

— ٢ —

وكان لمحمد كذلك ـ من محيطه المنزلى والاجتماعى ، ومن تراث أسرته وانصرافهم للعلم وعناية أهل زمانه به ، مع كثرة العلماء حوله وسهولة التحصيل ؛ ـ أكبر عون على بلوغه تلك المنزلة الرفيعة التى نالها بعد .

وكان أول من قرأ عليه القرآن أبو عبد الله بن عبد المولى العواد ، فأتقنه كتابة وحفظاً وتجويداً ؛ وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى ، وأخذ عنه العربية ، وهو أول من انتفع به ؛ وقرأ على الخطيب أبى القاسم ، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الإمام أبى عبد الله الفخار الالبيرى شيخ النحويين لعهده ؛ وقرأ على قاضى الجماعة أبى عبد الله بن بكر ، وتأدب بالرئيس أبى الحسن ابن الجياب ، وهو سلفه فى الوزارة ؛ وروى عن كثير من الأعيان ، وأخذ الطب وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا بن يحيى ابن هذيل ، ولازمه وألف فيه فى هذين العلمين ..

— ٣ —

وقد خلف لسان الدين مؤلفات جمة . وآثاراً قيمة فى التاريخ والأدب وعلوم الشرع والطب ، من أهمها :

الإحاطة فى أخبار غرناطة .

الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة .

اللمحة البدرية فى الدولة النصرية .

طرفة العصر فى دولة بنى نصر .
رقم الحلل فى نظم الدول .
الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة .
أعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام .
بستان الدول (أتم منه ٣٠ سفراً) .
نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب .
خطرة الصيف ، رحلة الشتاء والصيف .
مفاضلة مالقة وسلا .
معيار الأخبار .
التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى .
الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم (التاج) من الجواهر .
ريحانة الكتاب (عدة مجلدات) .
السحر والشعر .
جيش التوشيح .
الصيب والجهام ، وهو ديوان شعره .
النثر فى غرض السلطانيات .
عائد الصلة .
النفاية بعد الكفاية .
المختصر فى الطريقة الفقهية .
الألفية فى أصول الفقه ، وله أراجيز أخرى فى العلوم .
روضة التعريف فى التصوف .
اليوسفى فى علم الطب .
المسائل الطبية .
عمل من طب لمن حب .

— ٤ —

ولم يكد لسان الدين يكمل دور الطلب حتى سطع نجمه متلألئاً فى سماء الشعر والنثر ، وبلغ فى المديح مبلغاً جعل أعناق الامراء تتطاول إليه ؛ لكنه لم يلتفت إلى أحد منهم ، وعكف على مدح السلطان أبى الحجاج « سابع ملوك بنى نصر المعروفين ببنى الأحمر » حتى امتلأ حوضه ـ كما يقول ابن خلدون ـ بنظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه . فذاعت فى الدولة مدائحه ، وانتشرت فى الآفاق رسائله . فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكتابة يبابه مرءوساً بأستاذه أبى الحسن بن الجياب شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بغرناطة ... واستقل بن الجياب برياسة الكتابة من يومئذ إلى أن هلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩ .

وخلا الجو للسان الدين بن الخطيب بموت أبى الحسن ، فولاه السلطان رياسة الكتابة ببابه ، وثناها بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبة جيرانهم من ملوك العدوة ، وقربه السلطان وبلغ به من المخالطة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله ، حتى سفر عنه إلى السلطان أبى عنان ملك بنى مرين بالعدوة ... فجلى فى أغراض سفارته ، وبقى أثيراً عند السلطان حتى توفى سنة ٧٥٥ ، فتولى من بعده ابنه محمد ، فكان له ابن الخطيب كما كان لأبيه من حيث الوزارة ، ولكنه اتخذ للكتابة غيره ، وجعله رديفاً له ، فأدارا دفة الأمور معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة . ثم أرسل ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبى عنان ليمدهم على عدوهم الطاغية ملك إسبانيا ، فقام بهذه المهمة على أحسن ما يرام .

ودامت هذه الحال خمس سنين . ثم بدأ دور أفول نجم لسان الدين بسقوط سلطانه ، وتضييق المتغلب عليه فى محبسه وهو يرسل الرقى إلى ولاة الأمور من قصائد منمقة ورسائل بليغة ، فلا تلين لهم قناة ولا ترق لهم قلباً ، حتى سعى له أحد أصدقائه عند ملك المغرب فشفع فيه . وفى أواخر اللحة

البدرية قصيدة له فى مدح ملك المغرب والإشارة إلى هذا الدور من حياة لسان الدين .

ويقول لسان الدين يحدثنا عن نفسه بأسلوبه البديع المسجوع ، واصفاً حياته عند ملك المغرب ، حيث يقول فى (الإحاطة) :

« وصلت الشفاعة فى مكتتبه بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصى شرطاً فى العقدة ومسالمة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطانى المكفور الحق إلى المغرب . وبالغ ملكه فى برى : منزلا رحباً ، وعيشاً خفضاً ، وأقطاعاً جمة ، وجراية ما وراءها مرمى . وجعلنى بمجلسه صدراً ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلا ، منوه الصكوك مهناً القرار ، متفقداً باللها والخلع ، مخول العقار ، موفور الحاشية ، مخلى بينى وبين إصلاح معادى ؛ إلى أن رد الله على السلطان أمير المؤمنين أبى عبد الله بن الحجاج ملكه » .

عاد لسان الدين إلى الأندلس وحظى عند ملكه ، فولاه الوزارة وأعاده إلى منزلته ، فهنأ عيشه هناك إلا ما كان من بعض وجهاء البلاد ممن ساءهم نفوذ لسان الدين ، فراحوا يكيدون له عند الملك الذى سخط عليهم ونكبهم ، فخلا الجو لابن الخطيب ورفعه الملك إلى أسمى منزلة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وأفرده بتدبير المملكة فأصبح بيده الحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية به . وقد أصم السلطان أذنه عن قبولها ، ولكن الخبر نما إلى ابن الخطيب فعزم على الرحيل .

— ٥ —

برم ابن الخطيب بدسائس القوم فاستأذن سلطانه فى تفقد الثغور الغربية ، فسار إليها فى لمة من فرسانه وانحدر منها إلى المغرب حيث وجد فيه كل إكرام ، ثم قدم على ملكه عبد العزيز عام ٧٧٣ فى تلمسان فاهتزت له الدولة ، واستقبل استقبالا باهراً ، وأحل من الدولة فى أسمى محل . وأخرج السلطان

لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين إلى الأندلس فى طلب اهله وولده ، وقدم بهم على أحسن حال ... ثم وشوابه إلى السلطان ، وأحصوا خطيآته ، واتهموه بالزندقة ، وكان من أكبر العاملين على ذلك ملك الأندلس ، لكن عبد العزيز أبت عليه عربيته ووفاؤه أن يخفر جواره ، فزاد فى إكرامه وإكرام ولده حتى أتته منيته .

فقد لسان الدين بموت عبد العزيز أكبر رجل قادر على حمايته ، فأصبح غرضاً للمصائب والبلايا التى يسعى ليوقعه بها أعداؤه الكثيرون .

ووقعت الحرب بين ملك الأندلس وأحد المتغلبين على المغرب ، فظفر فيها الأول واشترط على خصمه تسلم ابن الخطيب ، فقبض عليه عدوه الألد سليمان بن داود وحبسه ، ثم حاكموه على كلمات من الزندقة وجدت فى كتبه ، ورغماً عن دفاعه عن نفسه وظهور براءته أرسل إليه سليمان فى محبسه بعض حاشيته من السفلة فقتلوه خنقاً ، ثم أخرجوه لليوم الثانى وأضرموا حوله النار حتى احترق شعره واسودت بشرته ، ثم وضع فى حفرته .

— ٦ —

ويقول عنه ابن خلدون فى تاريخه : نشأ لسان الدين بغرناطة ، وقرأ وتأدب على مشيختها ؛ واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز فى الطب وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وكثر نظمه ونثره ؛ ونبغ فى الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكتاب ببابه ، مرءوساً بأبى الحسن بن الجياب شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبيـة ، وكاتب السلطان بغرناطة ، فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب ، مثناة بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصـــدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ... إلى آخر ما ذكره ابن خلدون من حياته ونشأته الأدبية .

— ٧ —

وقد ساعد ابن الخطيب اطلاعه الواسع فى اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتباً من كبار الكتاب ، فألف فى كثير من أنواع العلوم والآداب ، وكتب كثيراً من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية ، وكتب فى التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها ، ورسائله طافحة بمعلوماته فى الأدب والتاريخ والعلوم .

ويفترق أسلوبه العلمى عن أسلوبه الأدبى : فهو فى أسلوبه العلمى لا يلتزم طريقة السجع ، بل يسرد العبارات سرداً ، وأحيانا يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية ، وتغلب عليه الصبغة الأدبية فى كتبه العلمية ، فهو من أكبر الكتاب ، وأوسعهم علماً وأكثرهم تأليفاً .

وكانت عنايته فى كتابته الأدبية وفى خصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية . إذ كان يعنى باللفظ عناية عظيمة ويقصد إلى التنميق وتعمل السجع ، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء ، وعبارات التبجيل والتعظيم . ولقد يطيل فى ذلك إطالة تدعو إلى الملل ، وتدل على التكلف ؛ وأسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيث تعمل السجع وزاد عليه ميله إلى الإطناب ؛ فكثيراً ماكانت معانيه قليلة وألفاظه وجمله كثيرة . فكانت الإجادة فى الكتابة عنده فى الإحاطة والإطناب .

ولسان الدين بن الخطيب له فى الأدب منزلة عالية ، ومكانة مرموقة ، ومقام معروف ، وله فى الشعر والنثر إجادة ، وأكثر شره فى السياسة وما يتصل بها ، وفى الرسائل السلطانية والإخوانية ، وتراجم الوزراء والعلماء والأدباء ، ممن اتصل منهم بسبب : كأساتذته وتلاميذه ومعاصريه ، وأكثر شعره فى الملوك والسلاطين ، ومقدمات السفارات ، والاستنجاد ورثاء العظماء من السلاطين وغيرهم ، وله مدائح نبوية .

ومنزلة ابن الخطيب ترجع إلى أنه كاتب من أكبر الكتاب ، وأوسعهم

علماً ، وأكثرهم تأليفا ؛ فقد ترك من المؤلفات فى أنواع العلوم والاداب ما يناهز الستين مؤلفاً . عقد لها المقرى الباب السادس من النفح ، ناقلا تعريف المؤلف بها عن (الإحاطة) ، وله كثير من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانيـــة وغيرها ؛ وكلها تدل على اطلاع واسع ، وفكر خصيب .

ويمتاز أسلوبه فى الكتابة بالسجع والإطالة ، والعناية بالصناعة اللفظية والقصد إلى التنميق واستخدام المحسنات البديعية ، وقد يترك السجع فى كتاباته العلمية أحياناً ، وقد تتغلب عليه النزعة الأدبية ، فيسجع فيها كما يسجع فى غيرها .

وللنقاد آراء كثيرة فى نثر ابن الخطيب . يقول عنه الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : « هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض . . آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضى . وإلا فانظر كلام الكتاب الأول من العصبة . كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة للبراعة باليراعة ، وبه أسكت صائلهم . وما حمدت بكرهم وأصائلهم . للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية والامتاع بالفهوم النقلية » . . ويقول فيه بعض النقاد من الشرق : « هو شاعر مفلق ، وخطيب مصقع . وكاتب مترسل بليغ . لولا مافى إنشائه من الإكثار الذى لايكاد يخلو من عثار . والاطناب الذى يقضى إلى الاجتناب والإسهاب الذى يقد الإهاب ويورث الالتهاب . . ! »

ويبواعث المنافسات السياسية عرض ابن خلدون بذمه ، فقال فى مقدمته : « والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف

له . . وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به مانقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ؛ ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم ، كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد . حتى إنهم ليخلون بالاعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو فى مطابقة . لايجتمعان معها . فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة ، عساها تصادف التجنيس .

وقال المقرى فيه : « أما نثره فهو البحر الزخار بل الدر الذى به الافتخار . . . » .

وحدث هو عن نثره قال : « وأما النثر فبحر زاخر ، ومدى طوله مستاخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر .

— ٨ —

صور من نثره :

قال لسان الدين فى الحض على الجهاد :

« أيها الناس الناس رحمكم الله تعالى . إخوانكم المسلمون بالأندلس ، قد دهم العدو — قصمه الله تعالى — ساحتهم ، ورام الكفر — خذله الله تعالى — استباحتهم . وزحفت أحزاب الطواغيت اليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجوارکم الغريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد ، فقد تعين ، الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبين ،

الله الله فى الاسلام . الله الله فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله . الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله . قد استغاث بكم الدين فأغيثوه . قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه . أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة . كتاب الله بين أيديكم ، والسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : يا أيها الذى آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم ، ومما صح عنه قوله : من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرمها الله على النار ، لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم ، من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت . احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده . جاهدوا فى الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم ... وطريق هـذا العذر غير ممهد ؟
إن قال : لم فرطتمو فى أمتى ... وتركتموهم للعدو المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية فى البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد . اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ياخير الناصرين ، اللهم افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما كتبه لسان الدين إلى على بن بدر الدين الطوسى :

سيدى الذى هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه . فإن افتخر الدين من أبيك ببدره ، افتخر منك بشمسه . رحلت عن المنشأ والقرارة[1]، ومحل

---

(١) يريد المكان الذى نشأ واستقر به

الصبوة[١] والغرارة[٢] فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة، كتعلقها بتلك الذات التى لطفت لطافة الراح . واشتملت بالمجد الصراح . شفقة أن يصيبها معرة . والله تعالى يقيها ، ويحفظها ويبقيها . إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل . والضد عن ضده منحرف بالطبع ومائل . فلما تعرفت خلاص سيدى من ذلك الوطن ، وإلقاءه وراء الفرضة بالعطن[٣] ، لم تبق لى تعلة[٤] ، ولا أحرضتنى[٥] له علة ، ولا أتى جمعى من قلة . فكتبت أهنىء نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطولى[٦] ، الحمد لله الذى جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته . سبحانه لا مبدل لكلماته . وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أن يصيبه .. وأما حالى فكما علمتم : ملازم كن[٧] ومهبط تجربة وسن ، أزجى[٨] الأيام، وأروم بعد التفرقة الالتئام . خالى اليد ، ملىء القلب والخلد[٩] بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التى أختارها لكم ولنفسى ، وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى .

وقال لسان الدين بن الخطيب فى ترجمة بعض مشايخه :

صدر[١٠] الصدور الجلة[١١] ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبانيها وهاصر أفنان[١٢] البدائع وجانيها . اعتمدته الرياسة فناء بها[١٣] على حبل ذراعه

---

(١) نشوة الشباب

(٢) يريد بالغرارة اللهو واللعب (٣) يريد موطنه

(٤) التعلة : مايتعلل به (٥) أحرضه الحزن أو المرض : أفسد بدنه

(٦) يريد بنعمته العظيمة (٧) الكن : البيت

(٨) أزجاه وزجاه : ساقه ودفعه برفق (٩) الخلد : البال والقلب

(١٠) الصدر : مقدم كل شىء يريد أنه أول المقدمين

(١١) يقال قوم جلة أى سادة

(١٢) هصر الغصن : عطفه وجذبه ، والأفنان مفرده فنن : وهو الغصن المستقيم

(١٣) نهض بها

واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه[١]، فتفيأ[٢] للعناية ظلا ظليلا، وتعاقبت الدول فلم تر به بديلا . . لا تمر مذاكرة فى فن، إلا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام على محاك الأفهام إلا وكلامه الإبريز[٣]. حتى أصبح الدهر راويا لإحسانه، وناطقا بلسانه. وغرب ذكره وشرق، وأشأم وأعرق، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق[٤].

إلى نفس هذبت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة خمائلها[٥]، ومراقبة لربه، واستنشاق لروح الله من مهبه، ودين لا يعجم عوده[٦]، ولا تخلف وعوده. وكل ماظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين، أو إشارة كما سبك اللجين[٧]، فهى اليه منسوبة، وفى حسناته محسوبة، فإنما هى أنفس راضها[٨] بآدابه وأعلقها بأهدابه، وهذب طباعها، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصقيلة انطباعها. وما عسى أن أقول فى إمام الأئمة، ونور الدياجى[٩] المدلهمة، والمثل السائر فى بعد الصيت وعلو الهمة.

وقال من مقامة له تسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناسة.

«مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن وفضيلة. فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. فجنابها مريع وخيرها سريع، اعتدل فيها الزمان وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها الاختزان ولطفت فيها الأوانى والكيزان. ودنا من الحضرة جوارها فكثر قصادها من الوزراء

---

(١) الشباة: حد كل شىء. والمراد باليراع القلم

(٢) استظل وتتبع ظلال الشجر (٣) الذهب الخالص

(٤) يريد أن ذكره طبق الآفاق

(٥) جمع خميلة: وهى الشجر الكثيف الملتف

(٦) عجم العود: عضه ليعلم صلابته من رخاوته. يريد أنه شديد الإيمان.

(٧) الفضة (٨) ذللها (٩) الدياجى: الظلمات

وزوارها . وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء ... »

وهذه رسالة للسان الدين بن الخطيب وجهها إلى السيد الشريف عبد الله ابن نفيس ، قال :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما جزى الإله شريف البيت يوم جزى
إن أعجز الشكر منى منـــة ضعفت عن بعض حقك شكر الله ما عجزا

سيدى ، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع ، وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جحدت عارضها الإجماع ... بأى لسان أثنى ؟ أم أى الأفنان أهصر وأجنى ، أم أى المقاصد الكريمة أعنى؟ أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبى اصطبارك ، وهضمت حقك ، وبوأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف فى تعدادها عند جد ، إلى غير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاة ، وإن ترفع كرمك عن موازاة ، فحاجة نفسى قضيت ، وأحكام آمالى أمضيت ، وإن اتصل العجز ، فعين على القذى أغضيت ، ومناصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال ؛ فالثناء ذائع ، والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشترما أنت بائع ، وقد وجهت من يحاول لسيده ثمن ما اكتسبه مجده وسفر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضى وكمال التقاضى ، وحميد الصبر وسعة التغاضى ، وكونه الخصم والقاضى ، إنه هبة سوغها إنعامه ، وأكلة هناها بطعامه ، نسأل الله تعالى أن يعلى ذكره ، ويتولى شكره وينمى ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذى برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة ، قد جعلته وديعة فى كرم جواره ، ووضعته فى حجر إيثاره ، فإن زاغ فيده العليا فى تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومن نبه مثله نام ، ومن استنام إليه بمهمه أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوف سيدى لحال محبه ، فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض ، بخدمة الله تعالى وانتقال .

— ٩ —

وللسان الدين شعر لا يبلغ منزلة نثره وكتاباته ، فقد كان كاتباً أبلغ منه شاعراً ، وشعره كثير ، وله موشحات أعلى فى البلاغة طبقة من سائر أشعاره .

ومن صور شعره هذه القصيدة التى يرثى بها أحد ملوك بنى الأحمر :

يا قبر جاد ثراك صوب غمام ... يهمى عليك برحمة وسلام
بوركت لحداً فيه أى وديعة ... ملك كريم من نجار كرام
ما شئت من حلم ومن خلق رضى ... وذكاء أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الأملاك من ... أبناء نصر ناصرى الإسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم ... فى نصر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤسس بيته ... فى معدن الأحساب والأحلام
ما للمنية والشباب مساعد ... قد أقصدتك بصائبات سهام
عجلت على ذاك الجمال فغادرت ... ربع المحاسن طامس الأعلام
فمحا الردى من حسن وجهك آية ... محو النهار لسدفة الإظلام
ما كنت إلا بدر تم باهراً ... أخنى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبى الجيوش تحية ... كالمسك عرفاً عند فض ختام
وتغمدته رحمة الله التى ... ترضيه من عدن بدار مقام

ومن شعره هذه القصيدة التى أنشدها لسلطان المغرب عام ٧٦٣ هـ :

تألق نجدى — ، فأذكرنى نجدا ... وهاج بى الشوق المبرح والوجدا
وميض رأى برد الغمامة مغفلا ... فمد يداً بالتبر أعلت البردا
تبسم فى بحرية قد تهجمت ... فما بذلت وصلا ، ولا ضربت وعدا
وراود منها فاركا قد تنعمت ... فأهوى لها نصلا ، وهددها رعدا
وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت ... ذلولا ولم تسطع لإمرته ردا
إذا أنت شافهت الديار بطيبة ... وجئت بها القبر المقدس واللحدا
وآنست نوراً من جناب محمد ... يجلى القلوب الغلف والأعين الرمدا

فنب عن بعيد الدار فى ذلك الحما ... وأذر به دمعاً ، وعفر به خدا
وقل : يارسول الله عبد تقاصرت ... خطاه ، وأضحى من أحبته فردا
ولم يستطع من بعد ما بعد المدى ... سوى لوعة تعتاد أو مدحة تهدى
تداركه ياغوث العباد برحمة ... فجودك ما أجدى ، وكفك ما أندى
أجار بك الله العباد من الردى ... وبوأهم ظلا من الأمن ممتدا
حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضا ... وتوجك العليا ، وألبسك الحمدا
وطهر منك القلب لما استخصه ... فجلله نوراً وأوسعه رشدا
دعاه فما ولى ، هداه فما غوى ... سقاه فما يظما ، جلاه فما يصدى
تقدمت مختاراً تأخرت مبعثاً ... فقد شملت علياؤك القبل والبعدا
وعلة هذا الكون أنت ، وكل ما ... أعاد ، فأنت القصد منه وما أبدا
وهل هو إلا مظهر أنت سره ... ليمتاز فى الخلق المكب من الأهدى
ففى عالم الأسرار ذاتك تجتلى ... ملاح نور لاح للطور فانهدا
وفى عالم الحس اغتديت مبوأ ... لتشفى من استشفى ، وتهدى من استهدى
فما كنت لولا أن ثبت هداية ... من الله مثل الخلق رسماً ولا حدا
فماذا عسى يثنى عليك مقصر ... ولم يأل فيك الذكر مدحاً ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاو على شفا ... من الغار قد اوردته بعدها الخلدا
عليك صلاة الله ياكاشف العمى ... ومذهب ليل الروع وهو قد اربدا

وقال يخاطب السلطان أبا عنان ، وقد مزج الغزل فيها بالحكم :

أبدى لداعى الفوز وجه منيب ... وأفاق من عذل ومن تأنيب
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحما ... والبان حن له حنين النيب
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى ... والشيب يلحظها بعين رقيب
رحل الصبا فطرحت فى أعقابه ... ماكان من غزل ومن تشبيب
أترى التغزل بعد أن ظعن الصبا ... شأنى الغداة أو النسيب نسيبى
أنى لمثلى بالهوى من بعد ما ... للوخط فى الفودين أى دبيب؟
لبس البياض ، وحل ذروة منبر ... منى ، ووالى الوعظ فعل خطيب

قد كان يسترنى ظلام شبيبتى ... والآن يفضحنى صباح مشيبى
وإذا الجديدان استجدا أبليا ... من لبسة الأعمار كل قشيب
سلنى عن الدهر الخئون وأهله ... تسل المهلب عن حروب شبيب
متقلب الحالات ، فاخبر تقله ... مهما أعدت يداً إلى تقليب
فكل الأمور إذا اعترتك لربها ... ماضاق لطف الرب عن مربوب
قد يخبأ المحبوب فى مكروهها ... من يخبأ المكروه فى المحبوب
واصبر على مضض الليالى إنها ... لحوامل سيلدن كل عجيب
واقنع بحظ لم تنله بحيلة ... ما كل رام سهمه بمصيب
يقع الحريص على الردى ولكم غدا ... ترك التسبب أنفع التسبيب
من رام نيل الشئ قبل أوانه ... رام انتقال يلم وعسيب
فإذا جعلت الصبر مفزع معضل ... عاجلت علته بطب طبيب
وإذا استعنت على الزمان بفارس ... لبى نداءك منه خير مجيب
بخليفة الله الذى فى كفه ... غيث يروض ساح كل جديب
المنتقى من طينة المجد الذى ... ما كان يوماً صرفه بمشوب
يرمى الصعاب بصعبه فيقودها ... ذللا على حسب الهوى المرغوب
ويرى الحقائق من وراء حجابها ... لا فرق بين شهادة ومغيب
من آل عبد الحق حيث توشحت ... شعب العلا وربت بأى كثيب

ومن أبلغ ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى وأبدعه كما يقول المقرى فى « نفح الطيب[1] » لاميته المشهورة ، التى خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه ، الذى كان خلع منه ، ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذه القصيدة على قصوره بالحمراء ، إعجاباً بها وأنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها الاسبان ، وأول هذه القصيدة :

---

(١) ١٧٤ : ٤ نفح الطيب

الحق يعلو ، والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان أسعده الله تعالى ، وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس ، وكان صنع الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح . وفاء بنذرى ؛ وسميتها : « المنح الغريب ، فى الفتح القريب » ، قال منها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر وكفاك شاهد : قيدوا وتوكلوا
أمحمد والحمد منك سجية بجليلها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجل
تاب الزمان إليك مما قد جنى والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى ياساءة ، قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجانى الذى أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده لما ارتضاك ولاية لا تعزل
وإذا تغمدك الإله بنصره وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل ؟
صحبتهم غرر الجياد كأنما سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل يرمى الجلاد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية وإذا تغنى للصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه أذن كمشقة وطرف أكحل
فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه ، وكأنما هو هيكل

وللسان الدين هذه الموشحة التى عارض بها موشحة ابن سهل :

جادك الغيث ، إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى ، أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ينقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا ... مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكاس فيها وهوى ... مستقيم السير ، سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر . . .
حين لذ الأنس شيئاً ، أو كما ... هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا ، أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس
أى شىء لامرىء قد خلصا ... فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الأزهار منه الفرصا ... أمنت من مكره ماتتقيه
فإذا الماء تناجى والحصى ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً برماً ... يكتسى من غيظه مايكتسى
وترى الآس لبيباً فهما ... يسرق السمع بأذنى فرسى
يا أهيل الحى من وادى الغضى ... وبقلبى سكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ... لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله ، وأحيوا مغرما ... يتلاشى نفساً فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ... أفترضون عفاء الحبس ؟
وبقلبى منكم مقترب ... بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب ... شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب ... فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى ... جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ... ففؤادى نهبة المفترس

إن يكن جار ، وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهـو للنفس حبيب أول ... ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
امره معتمـل ممثـل ... فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بهـا فاحتكما ... لم يراقب فى ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلمـا ... ومجازى البر منهـا والمسى
مالقلبى كلما هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا ... قوله : إن عذابى لشديد
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما ... فهو نار فى هشيم اليبس
لم يدع فى مهجتى إلا ذما ... كبقاء الصبح بعد الغلس
سلمى يانفس فى حكم القضا ... واعمرى الوقت برجعى ومتاب
دعك من ذكرى زمان قد مضى ... بين عتبى قد تفضت وعتاب
واصرفى القول إلى المولى الرضا ... ملهم التوفيق فى أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى ... أسد السرج ، وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثلما ... ينزل الوحى بروح القدس
مصطفى الله ، سمى المصطفى ... الغنى بالله عن كل أحد
من إذا ماعقد العهد وفى ... وإذا ماعظم الخطب عقد
من بنى قيس بن سعد وكفى ... حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيت النصر محمى الحما ... وجنى الفضل زكى المغرس
والهوى ظل ظليل خيما ... والندى هب إلى المغترس
هاكها ياسبط أنصار العلا ... والذى إن عثر الدهر أقال
غادة ألبسها الحسن ملا ... تبهر العين جلاء وصقال

وبعث ملك غرناطة الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان ، لينالوا العون منه على عدوهم الطاغية ، على عاداتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها ،

واستأذنه فى إنشاد شعر قدمه بين يدى نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ، ساعد القدر علاك ، مالاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى لنا ، وفى المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض اندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن فى غير علياك ماله وطر
ومن به مذ وصلت حبلهم — ماجحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم فأرسلونى إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له فى الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس : ماترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان ، وردهم بجميع ماطلبوه .

وعلى الجملة فيعد ابن الخطيب من كبار شعراء الأندلس ، كما يحسب من الكتاب والأدباء . وقد طرق فى شعره جميع الأغراض المعروفة . وله كثير من القصائد فى التوسل والشكوى إلى الله ورسوله . وقد جرى فى شعره مجرى القدماء فى ذكر المعانى البدوية وبدء قصائده بها . والصبغة الغالبة على شعره هى صبغة العلماء والفقهاء الذين يميلون إلى ذكر الحقائق صريحة جافة ؛ فليس ابن الخطيب ممن يعتمدون فى شعرهم على الخيال أو الافتنان فى القول . ومع هذا فله أحيانا شعر رقيق فى الغزل والوصف ، الغالب عليه مسحة الصناعة . كما فى موشحته .

وأسلوبه فى شعره جزل متين ، ولكن به كثيرا من الألفاظ والعبارات الجافة ، مما كانت تقتضيه المعانى والموضوعات التى يعالجها فى شعره .

الخطابة فى الأندلس

نبغ فى الأندلس خطباء كثيرون منهم : عبدالرحمن الداخل ، وأبو عثمان عبد الله ، ومنذر بن سعيد البلوطى ، وابن أبى الخصال المتوفى عام ٥٣٩ هـ ، وسهل بن مالك من أهل القرن السادس ، وأحمد بن الحسن الزيات المتوفى عام ٧٢٨ هـ ، وابن أبى رندقة الطرطوشى المتوفى بالاسكندرية عام ٥٢٠ هـ . وقد جمع فى القرن السابع كثيرا من الخطب الأندلسية فى مجموعة واحدة أبو الربيع الحافظ الكلاعى .

صور من الخطابة الأندلسية

خطبة طارق بن زياد[١] :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، ورغب فى الشهادة قال : أيها الناس ! أين المفر[٢] ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم[٣] ، وليس لكم والله إلا الصدق[٤] والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة ، أضيع من الأيتام فى مأدبة[٥] اللئام[٦] .

---

(١) عن رواية نفح الطيب ومن رواية ابن خلكان فى ترجمة موسى بن نصير

(٢) يجوز أن تكون بكسر الفاء اسم مكان ، كذا قرىء قوله تعالى «أين المفر» ، وقيل إن اسم الموضع بالفتح وعليه الجمهور .

(٣) ذكروا أن السفن التى نقلت العرب من سبتة إلى الجزيرة كانت أربعا ، وأنها ظلت ذاهبة آئبة تنقل الجنود حتى تم حصولهم جميعا ببر الأندلس ، وأنها كانت ليليان ، وليست للعرب ؛ فاتخذ طارق من انصرافها وانحصارهم فى الجزيرة بين العدوين : البحر والقوط ، سببا لحملهم على الاستبسال .

(٤) الصدق هنا الصبر فى الشدة .

(٥) رواية ابن خلكان مآدب ، وهى جمع مأدبة ، والمأدبة بفتح الدال وضمها ، وكذلك الأدبة كحجرة : طعام صنع لدعوة ، أو عرس ، والفعل أدب كضرب كأدب .

(٦) اللئام : جمع لئيم ، وهو ضد الكريم .

وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة(١) ، وأنتم لا وزر(٢) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم(٣) ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة(٤) عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة(٥) هذا الطاغية(٦) ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة(٧) ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة(٨) ، ولا حملتكم على خطة — أرخص

---

(١) شىء وافر وموفور ومستوفر (اسم مفعول) بمعنى كثير ووفر كندم ووعد صار كثيراً ووفره كثره .

(٢) الوزر : بالتحريك الجبل المنيع ، وكل معقل ، والملجأ ، ويطلق على السلاح لأنه يعصم أصحابه ، والوزير من الوزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل لأنه يحمل ثقل الأمر ويعين الملك برأيه ، أو من الوزر (بالتحريك) لأن الملجأ إليه فى التدبير .

(٣) من معانى الريح : الغلبة والقوة والدولة ، وكل هذه المعانى صالحة هنا ، والريح تذكر وتؤنث ، لذلك وردت رواية ابن خلكان : « ذهبت ريحكم » .

(٤) يقال جرؤ ككرم بمعنى شجع فهو جرىء ، والمصدر جرأة كجرعة ، وجرة كثبة ، وجراءة ككراهة ، وجرائية ككراهية .

(٥) المناجزة : المقاتلة كالتناجز ، ونجز كفرح ونصر : انقضى وفنى ، ونجز (كنصر) الحاجة قضاها كأنجزها ، وأنت على نجز من حاجتك : أى على شرف من قضائها ، وقولهم المحاجزة قبل المناجزة : أى المسالمة قبل التعجيل بالقتال ، يضرب فى حزم من عجل الفرار ، قبل قتال من لاقبل له به ، ولمن يطلب الصلح بعد القتال . والمعنى : قد فات أوان ذلك . كما يقال : الصيف ضيعت اللبن .

(٦) الطاغية : ملك النصارى كأن العرب فرضوا الظلم لازمة هؤلاء الملوك ، فألزموهم هذا الوصف ، ثم غلبت عليه الاسمية ، وفى رواية ابن خلكان : « هذه الطاغية » وهى خطأ .

(٧) رواية ابن خلكان : المحصنة » .

(٨) النجوة : المكان المرتفع .

متاع فيها النفوس — أربأ عنها بنفسى(١) ؛ واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه(٢) الألذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فيما حظكم فيه أوفر من حظى(٣) ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات الرومان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان(٤) ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عزباناً(٥) ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً(٦) ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم(٧) بمجالدة(٨) الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله

---

(١) فى الأصل بدل أربأ عنها بنفسى : أبدأ بنفسى ، والكلام عليه لا يتصل ، ربأ : كمنع ارتفع .

(٢) رفه عيش الرجل : ككرم ، لان ، فالرجل رفيه ورافه ورفهان ومترفه : مستريح متنعم ، ورفه الرجل كمنع رفها بالفتح والكسر ورفوها ، لان عيشه .

(٣) فى رواية النفح : « فما حظكم فيه بأوفى من حظى » والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم إن حظكم من الفتح أعظم من حظى ، فأنا وال قابل للثقلة ، أما أنتم فقد صارت لكم البلاد ولأعقابكم ، لذلك تؤثر رواية ابن خلكان .

(٤) العقيان : الذهب .

(٥) العزب : بالتحريك كالمعزابة ، والعزيب من لا أهل له (غير المتزوج) وعزبانا جمع عزيب ، كشجيع وشجعان ، وعزب كجذع وجذعان ، أو عازب كصاحب وصحبان ، أو أعزب — على القول بوروده — فيكون كأعمى وعميان .

(٦) الصهر : بالكسر القرابة ، وزوج بنت الرجل أو أخته . والختن : بالتحريك : الصهر ، أو كل ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

(٧) فى نفح الطيب وابن خلكان : « استماحكم » وليس فى كتب اللغة افتعل من هذه المادة ، فلا بد أن تكون محرفة عن : إسماحكم ، يقال سمح كمنع وأسمح بمعنى جاد وكرم ، أما سمح ككرم ، فمعناها : صار من أهل السماحة ، والوصف منه سمح ككتف ويخفف .

(٨) المجالدة من جالدوهم بالسيوف : أى ضاربوهم بها ، وتجالدوا واجتلدوا : تضاربوا بها .

على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم(١) من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله إن شاء الله تعالى . فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم(٢) بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكشفوا الهم(٣) من فتح الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون .

ويقول باحث معاصر(٤) :

---

(١) هذه رواية ابن خلكان ، ورواية نفح الطيب بإثبات التاء : (خالصة) ، وتخريجها على جعل يكون تامة بمعنى يحصل ، وتكون خالصة حالا من الهاء فى مغنمها .

(٢) رواية ابن خلكان : « ولن يعوزكم » ، وهى كما تعرف أبلغ وأدخل فى النفى من رواية النفح .

(٣) فى رواية النفح : « واكتفوا الهم » ، وفى رواية ابن خلكان : « واكتفوا المهم » ، وأرى أن الروايتين غير صالحتين لأن صيغة اكتفى لم ترد إلا لازمة تقول اكتفيت بكذا بمعنى قنعت به واستغنيت ، ولكن المعنى المراد هنا هو معنى رد ومنع ، وكانت تؤديه كلمة كفى كما فى قولنا : كفاك الله السوء ، وكان يصح أن نجعل الكلمة فى الخطبة محرفة عن هذا الفعل ، فيكون الأصل اكفوا المهم ، أى ردوه وامنعوه ، ويكون المفعول الأول للفعل محذوفا ، والأصل اكفوا أنفسكم المهم ، ولكنى أستحسن أن يكون التحريف عن اكشفوا كما أثبتناه فى نص الخطبة ، ويكون المعنى : أزيحوا الهم عن أنفسكم بقتل هذا الطاغية .

ولهذه الخطبة نص فى كتاب الإمامة والسياسة ، ولكنه بعيد عن النصين اللذين رجعنا إليهما .

(٤) مجلة الثقافة ١٢ - ١ - ١٩٤٣

« تحيط الرواية الإسلامية ظفر طارق فى سهل شريش بطائفة من التفاصيل الشائقة ، فتقول لنا أولا إن طارقا خطب جنده قبل الموقعة ، وألقى فيهم خطبته الشهيرة التى مازال يحفظها الطلاب كنموذج من نماذج النثر المختار والتى يفتتحها بقوله : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » . ثم يحث فيها جنده على القتال والاستشهاد فى سبيل الله ، ويرغبهم فى ثمار النصر ، ويحذرهم من عواقب التخاذل والتفرق . وتنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر قوى فى إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر ؛ على أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية المتقدمة ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤلف لم يذكر اسمه ، وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ، ولكن فى لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها مايحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقا فى الإسلام والعروبة ، والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان » .

ومهما كان ، فهذه الخطبة تعد من الأدب الأندلسى تجوزا ، لأن طارقا لم يكن بعد قد عاش فى الأندلس ، أو تأثر ببيئتها ، وإنما كان لأول مرة يضع قدميه على أرضها ، فهى من الأدب العربى عامة لا الأندلسى خاصة ، أو هى صورة للخطابة فى المشرق وحده .

خطب للداخل :

١ - يروى أن عبد الرحمن الداخل كان يبعض مجالسه ، فمثل بين يديه رجل

من جند قنسرين يستجديه قائلا له : يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عذت ، من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نداك المآل ، وأنت ولى الحمد والمجد ، المرجو للرفد . . . فأجابه عبد الرحمن على الفور :

قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقالك . فلا تعودن — ولا ســـواك — لمثله من إراقة ماء وجهك ، بتصريح المسألة ، والإلحاح فى الطلبة ، وإذا ألم بك خطب ، أوحزبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما تستر عليك خلتك ، وتكف شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا ، عز وجهه بإخلاص الدعاء ، وصدق النية .

٢ ـ وحدث بعض مواليه الخاصين به ، قال : دخلت عليه على إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد ، وهو مطرق شديد الغم ، فرفع رأسه إلى ، وقال :

« ماعجبى إلا من هؤلاء القوم ! سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا ، ويسر الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمام السيوف ، ولما أويناهم ، وشاركناهم فيما أفردنا الله به ، حتى أمنوا ، ودرت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله ، فخذلهم بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا بالبرىء منهم ، وأساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وإن أشد ماعلى فى ذلك أخى ، والد هذا المخذول ، كيف تطيب لى نفس بمجاورته بعد أن قتل ولده ، وقطع رحمه ، أم كيف يجتمع بصرى مع بصره ، اخرج إليه الساعة ، فاعتذر إليه ، وخذ خمسة آلاف دينار فادفعها إليه ، واعزم عليه فى الخروج عنى ، من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدوة .

٣ ـ وحكوا عنه أنه لما فتح سرقسطة ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه

أقبل بعض خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه له من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال له الأمير : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ على فيه النعمة من هو فوقى ، فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى ، لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال . من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ، ولا متهيب لمكان الإمارة ، ولا عارف بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ ! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة . فقال الجندى : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيها الله . فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها . . . ورفع مرتبته ، وزاد فى عطائه .

خطبة المنذر بن سعيد :

قالو[1]: رحل الناصر[2] لدين الله من قصر الزهراء[3] إلى قصر قرطبة[4] لدخول وقود الروم عليه ، وقعد لهم فى بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلا ، وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه ، وقعد عن يساره منذر بن سعيد ، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط ،

---

(١) نفح الطيب ص ١٧٢ ج ١

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس ، وأول من تلقب بالخلافة منهم . وكانت أيامه أيام جهاد ، وكان عادلا محسنا محبا للعلم ، شغوفا بالعمارة ، توفى سنة ٣٥٠ هـ

(٣) هى المدينة التى بناها الناصر .

(٤) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس ، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة ، وفيها المسجد الجامع الذى بناه عبد الرحمن الأموى سنة ٧٩٢ م ، وهو الآن الكنيسة الكتدرائية .

وكرائم الدرانك[١]، وظللت أبواب الدار وحناياها بغالى الديباج ورفيع الستور .

فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى ، وهو فى رق[٢] مصبوغ بلون سماوى ، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة[٣] مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقى ايضا ، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على وجه منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك وصورة ولده .

وكان الكتاب بداخل درج(٤) فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب ، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج .

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده ، وعظيم سلطانه ، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته .

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولى عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم الفقيه محمد بن عبد البر الكيسانى بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيره . وحضر المجلس السلطانى ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظة ، بل غشى عليه وسقط إلى الأرض .

---

(١) الدرانك : الطنافس

(٢) الرق : مايكتب فيه ، وهو جلد رقيق .

(٣) أدرجت الكتاب طويته .

(٤) أصل الدرج : السفيط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها .

فقيل لأبى على القالى — وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وامير الكلام ، وبحر اللغة — قم فارقع هذا الوهى ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم انقطع القول بالقالى ، فوقف ساكتاً مفكراً فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر[1] بن سعيد ، قام ، فوصل افتتاح أبى على لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الإحسان فى ذلك المقام كل مجيب ، يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذى انتهى اليه أبو على فقال[2] :

« أما بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه — فإن لكل حادثة مقاما ، ولكل مقام مقالا ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا إلى — معشر الملأ — بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم ، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى فى فى سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وإنى أذكركم بأيام الله عندكم وتلا فيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدة .

---

(١) كان إماما فقيها خطيباً شاعراً فصيحا ، ولى القضاء بقرطبة أيام عبدالرحمن (٢٦٥ - ٣٥٥ هـ)

(٢) الخطبة فى نفح الطيب ١٧٢ - ١٧٣ - ١ طبع المطبعة الأزهرية .

بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء ، أنشدكم بالله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسبل مخوفة فأمنها ؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟

فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم ، فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزال النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة ، وهى محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة ، وهى مطلوبة ، بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر وجد ظاهر ، وسيف منصور تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب إلا جبه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه ، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا ، وبلم امير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات . ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية . وليس فى تصديق ماوعد الله ارتياب . ولكل نبأ مستقر . ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله - أيها الناس - على آلائه . واسألوه المزيد

من نعائه . فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ـ أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ـ أحسن الناس حالا . وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً . وأمنعهم داراً وأكثفهم جمعاً . وأجلهم صنعاً . لاتهاجون ولا تذادون . وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون . فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحـــة لإمامكم . والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال ، وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء . وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام . وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف . وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به . فإنه ـ تبارك وتعالى ـ يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » الآية . وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم . الآخذين مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولى هذا وأختتم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين » .

قال ابن سعيد : فصلب العلج ، وغلب على قلبه . وقال : هذا كبير القوم ، أوليس القوم ، وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجبا منه ، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته ، فسأله عنه فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطى ، فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرنى بعد لأرفعن من ذكره ، فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه ، وذكرنى بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه ، ثم ولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى محمد بن عيسى القاضى فولاه

قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء . ومن شعره فى هـذه الواقعة قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتمى جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلى ، ولا زل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه ... وكلهمو ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس ، أو رجاء لنائل
فعش سالما . أقصى حياة ، مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

وقال الناصر لابنه الحكم بعد أن سأله عن منذر بن سعيد : لقد أحسن ما شاء . فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار . فيتلافى الوهى . فإنه لبديع من قدرته واحتياطه . ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب ، ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هـذا المقام الذى ما عابه فند ... لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا ... لكننى منهم فاغتالنى النكد

ويروى بدل هذا الشطر : ولا دهانى لهم بغى ولاحسد .

لولا الخلافة ـ أبقى الله حرمتها ـ ... ما كنت أرضى بأرض مابها أحد

خطبة لابن الفخار :

ولما تألب بنو حسون على القاضى أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصد إلى حضرة الإمامة (مراكش) وقام فى مجلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وقد غص بأربابه فقال : « إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو

منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم ؛ أما بعد ، فإنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيف نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا فى حماك ، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك ، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المسلمين ، ويصاب بضيم من إدرع بحصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريرته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل جاريا على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرضت بنو حسون للطعن فى أحكامه ، والهد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع على المقدم ، بل جمحوا فى لجاجهم ، فعموا وصموا ، وفعلوا وأمضوا مابه هموا ، وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين أو نهر ، فملأ سمعه بلاغة أعقبت نصره ، ونصر صاحبه ! .

خطبة مأثورة لابن تومرت :

يروى أن ابن تومرت قبل موته بأيام بسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة من المصامدة ، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم والعزيمة فى أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه فى الخمر وتصميمه على الحق فى اشباه لهذه الفصول ، ثم قال : فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها ، وحبطت الناس فتنة تركت الحليم خيرانا والعالم

متجاهلا مداهنا ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم فى أشباه لهذا القول إلى هلم جرا ، ثم إن الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيض لكم من ألفاكم ضلالا لاتهتدون ، وعميا لاتبصرون ، لاتعرفون معروفا ولا تنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبته أيديهم ، وأضمرته قلوبهم ، وماربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولا وفعلا مايزكى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة ، وعليكم فى جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه فى ذلك كله ثبتا فى دينه متبصراً فى أمره ، وإنى لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمره فنى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله ، الله يقلده من شاء من عباده ، فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم ، وتوفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

خصائص الخطابة الأندلسية

كثرت الدواعي للخطابة فى الأندلس منذ دخلها العرب فاتحين : فالعروبة والموهبة وفصاحة اللسان والذكاء وكثرة الحفظ والحرية التى كانوا يعيشون فيها ، وحاجتهم إلى الخطابة فى تحميس الجند والحض على الجهاد حين الفتح ، ثم فى النضال والمباهاة والفخر والانتصار حين اشتدت العصبية فى عهد الولاة ، ثم فى أمور الاجتماع والسياسة فى عصر الأمويين ، ثم فى المحاضرة والمناظرة وما إليها فى عصر الطوائف ، ثم فى الدعوة إلى قتال الإسبانيين والمسيحيين الذين كانوا يعملون على طرد العرب من الأندلس فى عصر بنى الأحمر . كل ذلك ضاعف الحاجة إلى الخطابة ، ونهضتها ، وازدهارها ، وقوتها ، ونوع فى أغراضها وموضوعاتها ، فشملت أغراضا شتى من شئون الحياة ؛ فكان منها الخطابة السياسية التى تلقى فى تفصيل خطة يسير عليها الخليفة أو الأمير ، أو تحريض على قتال وتنفير من فرار ؛ وكان منها الخطابة الاجتماعية ، التى تقال فى مختلف المناسبات العامة ، والمحافل الجامعة ، كخطب الاستقبال والتهنئة والاستشفاع والاعتذار ، وتأييد الفضائل الخلقية ، ونشر المبادىء السامية ؛ وكان منها الخطب الدينية ، التى تحث على التمسك بأهداب الدين ، والتحلى بتعاليمه ، واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والتى يكثر ورودها فى المناسبات الدينية كالجمع والأعياد والمواسم ؛ وكان منها « الوصايا » التى ترتبط مع الخطب بأقوى رابطة ، وتشابهها فى أكثر الأمور . ثم ذاعت بعد ذلك المحاورات والمحاضرات والمناظرات وهى من فنون الخطابة وألوانها ، وشملت كذلك الانتصار لرأى ، أو لإنسان ، أو لمذهب ، أو لعصبية ، كما شملت الدفاع عن النفس بالبليغ من الكلام .

ولقد كان للخطابة فى الأندلس منزلة كبيرة ، واحترام شديد ، وكانت ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب وأسمى المراتب ، ولذلك كان لقب الخطيب

من ألقاب التشريف والتعظيم ، وأضيف القضاء إلى الخطابة . فنبه شأنها ، وعظم أمرها ، وزادت الحفاوة بها .

وكانت الخطابة زمن الولاة الفاتحين ، سهلة التراكيب قليلة الاستعارة ، بعيدة عن الصنعة والابتذال والتكلف ، فأما معانيها فكانت واضحة بعيدة عن تعمق الفلاسفة والخيال الشعرى ، وكان الغرض فيها يدور حول أغراض الدين ، من الحض على الجهاد والصبر على منازلة الخطوب وملاقاة الحوادث بصدر رحب ، وجنان مطمئن . وكان من أغراضها : التناصر بالعصبية لما حدثت الفتنة بين اليمنيين والمضريين آخر ذلك العهد .

وفى دولة بنى أمية وملوك الطوائف دخلها الوشى والصنعة ، حتى غلب عليها السجع ، على أنه كان قليل التكلف ، وغلب عليها الاستعارة الرقيقة ، وكثر فيها الاقتباس ، وما إليه من مظاهر الكتابة . ولم يكن فى معانيها تعمق ولا صعوبة ، لأنهم كانوا إلى أدب العرب أقرب منهم إلى علم الفلسفة والمنطق . فأما الأغراض : فقد اتسعت حين كثرت العلوم ، وعنى الناس بدرسها ، والمناظرة فيها ، وزخرت بحور الحضارة ، وكثرت مناحيها ، فلا بدع إذا تعددت أغراض الخطابة فقيلت فى كل ما كان فى المشرق من الدين والسياسة ومواقف المناظرة ، ومدارس العلم ، ولم تفارقها الدعوة إلى العصبية ، فقد بقى الخلاف بين أهل تلك البلاد فى كل عهد وكل جيل .

وأما فى زمن المرابطين والموحدين : فقد ساءت حالها ، وضعف شأنها ، فدخلتها العبارات الممقوتة الضعيفة والتكلف المبتذل ، من سجع غث واستعارة باردة مع الاستغناء عنها بالكتابة فى بعض الأمر والاقتصار بها على ما يتصل بالدين من الجمعة والإملاك وما إلى ذلك ، واستعيض عنها بالمنشورات والأوامر والمراسيم .

لذلك كانت الخطابة عندهم شائعة[1] ، دوت بها ميادين قتالهم ، واهتزت

---

(١) ٣/ ٥٢ الأدب العربى وتاريخه — محمود مصطفى

منابر محافلهم ، ومجالس ملوكهم ، وسفرت بها سفراؤهم ، فى إعلان حرب ، أو عرض مهادنة أو صلح ، وقد عرفوا لها قيمتها ، فقدموها على الشعر فى المحفل الجامع ، والمقام المشهود ، فقد تقدم الناصر إلى ابنه الحكم فى إعداد الخطباء والشعراء ، ليوم ملاقاة رسول ملك القسطنطينية ، وأن يقدم الخطباء على الشعراء فى الكلام ، لذلك كان للخطابة شأن عند هؤلاء القوم ، وبلغ من اهتمامهم بها أن تلقب علماؤهم بالخطيب ، كما تلقبوا بالفقيه .

وكان للخطابة مظهر آخر غير الحرب والصلح ، وهو الوعظ الذى حرص عليه ملوكهم ، لإصلاح شؤون رعيتهم ، وكان عندهم بمنزلة سامية ، كما كان عند أسلافهم من ملوك بنى أمية بالمشرق ، يحتفلون به ويكلونه إلى أعاظم قضاتهم ، وكبار علمائهم . ولم يكن وعظهم فاترآ ضيق المجال ، موزعا على المناسبات التى تمر فى أيام العام ، من حج وفطر وأضحى ، بل كان منبر المسجد مجتلى الحوادث العظام ، من استبشار بنصر ، أو حث على جهاد ، أو ردع عن منكر حدث ، وبدعة ظهرت ، بل لقد أدت الخطابة ما تؤديه اليوم الصحافة الجريئة المطلقة من كل قيد ، فإن منذر بن سعيد ، قاضى قضاة عبد الرحمن الناصر ، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، لما رأى انهماك الخليفة فى العناية بالزهراء ، وزخرفة قصورها ، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد ، خطب الناس فى هذا المعنى ، وعمد إلى تذكير الخليفة ، ووعظه وتقريعه ، على ما فرط فى جنب الله ، فابتدأ خطبته بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[1] » ، ووصل ذلك

---

(١) الريع : المكان المرتفع أو الطريق أو المنعرج منه فى الجبل . الآية هنا : برج الحمام ، أو أى بناء مرتفع . المصانع : مآخذ الماء ، أو القصور المشيدة ، أو الحصون . النعم (بالتحريك ويسكن) : الإبل والشاء ، أو خاص ، بالإبل =

بكلام جزل ، وقول فصل ، جاش به صدره ، وقذف به على لسانه بحره ، وأفضى فى ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق فى زخرفته ، والسرف فى الإنفاق عليه ، فجرى فى ذلك طلقا(١) وتلا قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف(٢) هار فانهار به فى نار جهنم ؟ ! والله لايهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » ، وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير منه ، والدعاء إلى الله عز وجل فى الزهد من هذه الدنيا ، والحض على اعتزالها ، حتى بكى الناس ، وخشعوا وضجوا وتضرعوا ، فعلم الخليفة أنه المقصود ، فاستخذى ، وبكى ، وندم على ما كان منه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلا أنه وجد على المنذر ، وشكا ذلك إلى ابنه الحكم ، فقال له الحكم : وما يمنعك من عزله ؟ فزجره ، وانتهره ، وقال : بل يصلى بالناس حياته وحياتنا .

ومن أذيع الخطب الأندلسية شهرة خطبة منذر بن سعيد البلوطى(٤)

= والجمع أنعام ، وجمع الجمع أناعيم . شيد البناء : رفعه ، وكذلك شاده فى بعض كلام العرب .

(١) جرى طلقا (بسكون اللام) : غير مقيد . أما جرى الفرس طلقا أو طلقين (بالتحريك) فمعناه شوطا أو شوطين .

(٢) الجرف : بضمتين ويسكن ما جرفه السيل من الوادى ، وهار من هار البناء : أى هدمه فهار فهو هائر ، وهار مقلوب هائر .

(٣) كان كما يقول ياقوت فى معجم الأدباء : كان نحويا فاضلا وخطيبا مصقعا ، وشاعراً بليغاً ، ولد سنة خمس وستين ومائتين ، ورحل فلقى جماعة من العلماء والأدباء ، وجلب فى رحلته كتاب : الأشراف فى اختلاف العلماء رواية عن مؤلفه ابن المنذر النيسابورى ، وكتاب العين للخليل رواية أبى العباس ولاد ، واتصل بعبد الرحمن الناصر فحظى عنده ، ولما توفى الناصر وولى ابنه الحكم أقره على القضاء ، واستعفى غير مرة فما أعفاه ، وكان وقوراً صليباً فى الحكم مقداما فى =

. . . . . .

= إقامة العدل والحق ، وإزهاق الجور والباطل ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر له كتب فى السنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، ومن مصنفاته المتداولة : أحكام القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وله رسائل وخطب مجموعة وأشعار متفرقة مطبوعة . وتوفى منذر بن سعيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة .

وكان كما يذكر الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » : آية حركة فى سكون ، وبركة لم تكن معدة ولا تكون ، وآية سفاهة فى تحلم ، وجهامة ورع فى طى تبسم إذا جد تجرد ، وإذا هزل نزل ، وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا اكتسب إثما ولا احتقب . . وناهيك من عدل أظهر ، ومن فضل اشتهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض ، وكان مهيبا طيبا صارما غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحد من خلق الله فى استخراج حق ودفع ظلم . وكان كذلك شاعراً ، ومن شعره يخاطب الغافل عن طاعة الله :

كم تصابى ، وقد علاك المشيب ... وتعامى عمدا وأنت اللبيب ؟
كيف تلهو ، وقد أتاك نذير ... إن يوم الحمام منك قريب ؟
يا سفيها قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة ، فارتقبها ... لا يداويك - إن أتتك - طبيب !
بأمور المعاد أنت عليم ... فاعملن جاهداً لها يا رقيب
وتذكر يوما تحاسب فيه ... إن من يذكر فسوف ينيب !
ليس من ساعة من الدهر إلا ... للمنايا عليك فيها رقيب

ويقول فى الزهد :

ثلاث وستون قد حزتها ... فماذا تؤمل ، أو تنتظر ؟ !
وحل عليك نذير المشيب ... فما ترعوى ، بل وما تزدجر !
تمر لياليك مرا حثيثا ... وأنت على ما أرى مستمر !
فلو كنت تعقل ما ينقضى ... من العمر ما اعتضت خيرا بشر
فما لك لا تستعد إذن ... لدار المقام ، ودار المقر ؟
أترغب عن مفاجأة المنو ... ن ، وتعلم أن ليس منها وزر ؟
فإما إلى جنة أزلفت ... وإما إلى سقر تستعر ؟ !

أمام وفد الروم ، وقد ذكرناها آنفا .

ويغض بعض الباحثين من شأن هذه الخطبة ، ويجعلونها قريبة من الخطب الدينية .

ولمنذر خطبة أخرى مأثورة ، يروى أنه أصاب الأندلس فى عهد الناصر لدين الله أمير المؤمنين قحط شديد ، فرأى القاضى الفقيه ، الخطيب الواعظ الزاهد ، منذر بن سعيد البلوطى ، أن يفزع الناس إلى ربهم طلباً للرحمة والسقيا ، وأن يصلوا صلاة الاستسقاء ، فدعاهم إلى أن يخرجوا حفاة عراة أذلة إلى العراء ، يبالغون فى الرجاء ، ويلحون فى الدعاء ، ويسألون الله من رحمته وفضله ؛ وتأهب البلوطى لذلك فصام بين يديه ثلاثة أيام تنفلا وتطهيرا وإنابة واستجداء ورهبة ، واجتمع خلق كثير من الأندلسيين بالمصلى الجامع فى قرطبة ، واعتلى الخليفة سطح قصره ليشارك الناس فى الدعاء إلى الله تعالى ، ووقف البلوطى الخطيب بين هذه الجموع المتراصة وقد شخصوا إليه بأبصارهم ، فقال :

« أيها الناس ! سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم . أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز . . فما أتم الخطبة حتى ظهر الغيث .

ولما انتشر العلم فى بلاد الأندلس ، وتعلق الناس بأهدابه ، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات فى مجلس الخلفاء وغيرها مدة بنى أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة ، وتغيرت أساليبها ، وتطرقت إليها الصناعة ، وامتلأت بالسجع على أثر انتشار ذلك فى الكتابة النثرية . وبقيت على هذه الحال إلى قيام ملوك البربر . ثم انطفأت شعلة الحماسة فى النفوس ، وخمدت قوة التفكير على أثر تعصب البرابرة وجهلهم . فانحطت منزلة الخطابة ، واقتصر فيها على الوعظ فى المساجد . . .

وقد كان هناك جماعة من مشهوري الخطباء مثل: الوليد بن عبد الرحمن ابن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموى ، وعبد الله الفخار زمن المرابطين ، وغيرهم من الأمراء .

ولكن شأن الخطابة لم يصل إلى ما كان عليه فى بلاد المشرق ، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثل : زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، أو الخليفة المنصور ، ممن كان يحسب كلامهم من الكلام الجيد المنثور البليغ .

تراجم لبعض الأعلام الأندلسية

— ١ —

أحمد عبد ربه الأندلسى

٢٤٦ — ٣٢٨ هـ

حياته وأدبه :

أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه . ينتهى نسبه إلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل .

كانت ولادته فى العاشر من رمضان سنة ٢٤٦ هـ . ونشأ بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس فى عهد بنى مروان العصر الذهبى لتلك البلاد ، وكان فى شبابه لاهيا ولوعا بالغناء . ولكن ذلك لم يمنعه الدرس والتحصيل ، فقد درس علوم العربية وروى الشعر ، وحفظ أيام العرب وأخبارها ونوادرها ، ونظر فى اللغة والنحو . فنبغ فى جميع ذلك ، على أنه درس علوم الدين كما كان الشأن فى علماء الأندلس وأدبائها ، فهم لم يكونوا يقتصرون على باب واحد من العلم . ولكن امتاز فى علوم الشريعة حتى عد فقيه الأندلس فى زمانه ، إلى جانب امتيازه الأدبى الذى قل أن يشارك فيه ، مما خلده له كتابه العظيم : « العقد الفريد » .

وقد قال الشعر فى حداثته يغذى به عاطفة اللهو التى حدثتك فى شأنها . وقد برع فى نظمه لأشعار الصبا واللهو ما بين قصائد ومقطعات فى رقة وإمتاع كان يحمل المتنبى ـ على اعتداده وكبره ـ أن يقول فى وصفه : « مليح الأندلس » ، ولكن أحمد أقلع فى كبره عن ذلك وعارضه بزهديات سماها الممحصات ، تفاؤلا بأن الله سبحانه يمحص بها ذنوبه .

وله فى مديح بنى مروان الكثير ، لقد عاصر أربعة منهم ومدحهم جميعا . وقد بقى بقرطبة رئيسا سيدا حتى أصيب بالفالج . ثم مات بعد أن رزح تحت أعبائه عدة سنين ، وقد خلف ديوان شعر مفقود ، وكتاب اللباب ، والكتاب الخالد الذى رفع رأس الأندلس : « العقد الفريد » .

وهذا الكتاب مشهور متداول ، ولولا ما خلفه عبث النساخ والمطابع لم يكن كتاب من كتب الأدب أحق منه بالاطلاع وكثرة الرد والنظر ، ومهما يكن فإنه مصدر من أهم مصادر كتب الأدب قل أن تجد له نظيراً فى ترتيبه وتبويبه وحسن تخير مافيه من درر الأدب وروائعه ـ يرجع إليه الأديب واللغوى والنحوى ، والعروضى ، والمؤرخ والقصاص ، والجاد والهازل .

فالكتاب موسوعة أدبية لا تكاد تغادر شيئاً مما يهم الباحث فى الأدب وفى لغة العرب[1] . وإن تعجب فإن مؤلفه أندلسى يدون أدب الشرق بمالا يقل عن أفذاذ المشرق إن لم يزد عليهم — جمع فيه أخبار المشرق وكتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه ، إلا أن اشتهاره وجزالة فائدته ، جعلاه مرجع أهل المشرق ، حتى عدوه من أركان الأدب عندهم ، فأقبلوا على دراسته بشغف ، وهو يعد فى عصرنا أستاذ الكثير من أدبائه هو ومقدمة ابن خلدون . . وفى الكتاب بعض مآخذ على نقله لبعض أخبار المشرق ، وعدوه أنه أديب راوية يستطرف ويتخير ، وليس من موضوعه التحريات العلمية ، ولا التمحيصات المنطقية ، فهى غير مهمة الأديب ، ولا سيما بين السابقين .

---

(١) وقد دل البحث على أن كثيرا مما اجتمع فى هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى وبقى العقد خلفا منها ، لاغناء عنه ولا كفاء له . فها هى ذى مشاورة المهدى لأهل بيته مثلا وخطب الوفود وغير ذلك لاتجدها فى كتاب قبل ذلك .

وكان ابن عبد ربه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار الناس ، وكتابه «العقد الفريد» من الكتب الممتعة ، حوى من كل شيء ، وجزأه إلى خمسة وعشرين كتاباً كل منها جزآن فهو خمسون جزءا ، وقد سمى كل كتاب منها باسم جوهرة من الجواهر ، وذكر فيه أخباراً عديدة عن تاريخ العرب السياسى والأدبى وكثيراً من الشعر والحكايات والنوادر وغير ذلك ، ونذكر هنا عنوان كل كتاب :

الكتاب الأول : اللؤلؤة ، فى السلطان

الكتاب الثانى : الفريدة ، فى الحروب

الكتاب الثالث : الزبرجدة ، فى الأجواد والأصفاد

الكتاب الرابع : الجمانة ، فى الوفود

الكتاب الخامس : المرجانة ، فى مخاطبة الملوك

الكتاب السادس : الياقوتة ، فى العلم والأدب

الكتاب السابع : الجوهرة ، فى الأمثال

الكتاب الثامن : الزمردة ، فى المواعظ والزهد

الكتاب التاسع : الدرة ، فى التعازى والمراثى

الكتاب العاشر : اليتيمة ، فى النسب وفضل العرب

الكتاب الحادى عشر : العسجدة ، فى أعلام الأعراب

الكتاب الثانى عشر : المجنبة ، فى الأجوبة

الكتاب الثالث عشر الواسطة ، فى الخطب

الكتاب الرابع عشر : المجنبة الثانية ، فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة

الكتاب الخامس عشر : العسجدة الثانية ، فى الخلفاء وتاريخهم وأيامهم

الكتاب السادس عشر : اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والبرامكة والطالبين

الكتاب السابع عشر : الدرة الثانية ، فى أيام العرب ووقائعها

الكتاب الثامن عشر : الزمردة الثانية ، فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه

الكتاب التاسع عشر : الجوهرة الثانية ، فى أعاريض الشعر وعلل القوافى

الكتاب العشرون : الياقوتة الثانية ، فى الألحان واختلاف الناس فيها

الكتاب الحادى والعشرون : المرجانة الثانية ، فى النساء وصفاتهن

الكتاب الثانى والعشرون : الجمانة الثانية ، فى المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين

الكتاب الثالث والعشرون : الزبرجدة الثانية ، فى طباع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان

الكتاب الرابع والعشرون : الفريدة الثانية ، فى الهيئات واللبـــاس والطعام والشراب

الكتاب الخامس والعشرون : اللؤلؤة الثانية ، فى النتف والهدايا والتحف والفكاهات والملح .

ويقول ابن عبد ربه فى مقـــدمة كتابه : « وبعد فإن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب ، وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ومع كل زمان ، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايتـــه وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والمتخير إلى اختيار ، ثم رأيت آخر كل طبقة وواضعى كل حكمة ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهباً وأوضح طريقة من الأول ، لأنه ناقض متعقب ، والأول باد متقدم ، فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكما عادلا قاطعاً ، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت زكية التربة يانعة الثمرة ، فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة ، لايستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به .. وقد الفت

هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لى فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وماسواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء .

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفوقة فى فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا كافياً جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور ، وسميته كتاب العقد الفريد ، لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة المسلك وحسن النظام ، وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً ، كل كتاب منها جزآن ، فذلك خمسون جزءا فى خمسة وعشرين كتابا ، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد ، فأولها كتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها ، ثم كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد ، ثم كتاب الجمانة فى الوفود ، ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة فى العلم والأدب ، ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال ثم كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ، ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى ، ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ثم كتاب العجسدة فى كلام الإعراب ، ثم كتاب المجتبة فى الأجوبة ثم كتاب الواسطة فى الخطب ، ثم كتاب المجتبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة ، ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، ثم الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى ثم كتاب الياقوتة الثانية فى الألحان واختلاف الناس فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ، ثم

كتاب الجمانة الثانية فى المتنبئين والموسومين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح .

منزلته فى الأدب الأندلسى :

يقول عنه ياقوت فى معجم الأدباء : « كان لأبى عمرو بالعلم جلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة ، مع ديانة وصيانة ، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق ، فساد بعد الخمول ، وأثرى بعد الفقر ، وأشير إليه بالتفضيل ، إلا أنه غلب عليه الشعر .

وأكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله فى الوصف والغزل ، وهو يجمع بين جزالة المشرقيين وعذوبة الأندلسيين ، ويكبر شعره وأدبه أدباء المشارقة ، يروى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسى لما حج عرج فى منصرفه على مصر ، فلقى بها أبا الطيب المتنبى فى جامع عمرو ، فأفاضا فى الحديث ، ثم قال المتنبى : ألا تنشدنى لمليح الأندلس ؟ يريد صاحبنا ابن عبد ربه ، فأنشده الوليد شيئاً من شعره ، فاستجاده واستعاده ، ثم قال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً » .

ولابن عبد ربه فضيلة السبق إلى اختراع الموشحات ، هو ومقدم بن معافر ، وله طبع فى الشعر القصصى ، الذى كان من أروع ما نظم فيه بالعربية أرجوزته فى تاريخ الخليفة الناصر الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، وإن كانت تخلو من خيال القصص وعذوبة الملحمة وفن التصوير ، وقد ذكرها ابن عبد ربه فى الجزء الثانى من كتابه « العقد الفريد » ، وله أشعار سماها « المحمصات » ، وهى فى الزهد والتوبة ، وقد نقض فيها كل قطعة قالها فى الغزل واللهو بقطعة من بحرها ورويها فى الزهد والتوبة والموعظة ، وكان ابن عبد ربه شاعراً مكثراً ، وشاهد الحميدى من ديوانه عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر وأكثرها بخطه ، وفى كتابه « العقد » كثير من نماذج شعره ،

ويقول فى مقدمة هذا الكتاب : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها ، وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت منها غرائب من شعرى ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور » . . وكتابه العقد صورة لأدب المشرق ، وليس فيه عن الأندلس وأدبها شىء ، ولما سمع الصاحب بن عباد بهذا الكتاب وطالعه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، فإذا به مشتمل على أخبار بلادنا » .

وفى ابن عبد ربه يقول الثعالبى فى كتابه « اليتيمة » : « ابن عبد ربه أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلا ، وشعره فى غاية الجزالة والحلاوة ، وعليه رونق البلاغة والطلاوة » .

وقد ترجم لابن عبد ربه كثيرون منهم : ابن خلكان فى الجزء الأول من كتابه « وفيات الأعيان » ، وياقوت الحموى فى الجزء الثانى من كتابه « معجم الأدباء » ، والضبى فى كتابه « بغية الملتمس » — ص ١٣٧ — والثعالبى فى الجزء الأول من يتيمة الدهر ، ولقى كتابه العقد الفريد عناية العلماء والأدباء فى كل جيل .

ألوان من أدبه :

١ — من نثر ابن عبدربه ما ذكره عن كتابه ونهجه فيه ، فقال : « ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ، ولب اللباب ، وإنما لى فيه الاختيار ، ومأثور عن الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه . . وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متفوقة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها

وقرنت بها غرائب من شعرى » .

٢ — ومن شعره قوله :

اشرب على المنظـــر الأنيق ... وامزج بريق الحبيب ريق
واحلل وشاح الكعاب رفقا ... خوفا على خصرها الرقيـــق
وقل لمن لام فى التصابى ... خـــــل قليلا عن الطريق

وله فى الغزل :

بذمام الهوى أمت إليه ... وبحكم العقار أقضى عليه
بأبى من زهـا على بوجه ... كاد يدمى لما نظرت إليه
كلما علنى من الراح صرفا ... علنى بالرضاب من شفتيه
ناول الكأس واستحال بلحظ ... فسقتنى عيناه قبـــل يديه

ومن شعره أيضاً قوله :

ودعتنى بزورة واعتنـــاق ... ثم نادت : متى يكون التلاقى ؟
وبدت لى فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتنى مت قبل يوم الفراق

وقال فى وصف رمح وسيف :

بكل ردينى كأن سنانه ... شهاب بدا فى ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال فى طول متنه ... وعادت به الآمال وهى فجائع
وذى شطب تقضى المنايا لحكمه ... وليس لما تقضى المنية دافع
يسلل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع

وقال فى الغزل :

ياالؤلؤا يسبى العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وآخر شعر نظمه قوله :

بليت وأبلتنى الليالى بكرها وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالى من تباريح علتى إذا كان عقلى باقيا ولسانى

وتوفى ابن عبد ربه بالفالج عام ٣٢٨ هـ ، عن ٨٢ عاما ، ودفن فى قرطبة

وقد ترجم الثعالبي فى الجزء الأول من العقد لأحمد بن عبد ربه الأندلس ، ولأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ، ولسعيد بن أحمد بن عبد ربه الأندلسى ولعباس بن فرناس ، ولمحمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى النحوى اللغوى ولابن دراج الأندلسى[1] :

— ٢ —

التجيبى القرطبى :

هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى القرطبى ، (٤٥٨ - ٥٢٩ هـ) ، الشهير بابن الحاج ، قاضى الجماعة بقرطبة . روى عن أبى جعفر أحمد بن زرق الفقيه ، وتفقه عنده ، وقيد الغريب واللغة والأدب عن أبى مروان عبد الملك بن سراج ، وسمع عن أبى عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، وعن أبى على الغسانى وغيرهم . وكان من جلة الفقهاء ، وكبار العلماء ، معدودا

(١) يقول فيه الثعالبى : كان بالأندلس كالمتنبى بالشام ، وهو أحد الفحول وكان يجيد ما ينظم — ٢/٩٠ اليتيمة .

فى المحدثين والأدباء ، بصيراً بالفتيا ، رأساً فى الشورى ، وكانت الفتيا فى وقته تدور عليه ، لمعرفته وثقته وديانته ، وكان معتنيا بالحديث والآثار ، جامعاً لها ، مقيداً لما أشكل من معانيها ، ضابطاً لأسماء رجالها ورواتها ، ذاكراً للغريب والأنساب ، واللغة والإعراب ، وعالما بمعانى الأشعار ، والسير والأخبار . قال ابن بشكوال : قيدالعلم عمره كله ، وعنى به عناية كاملة ما أعلم أحداً فى وقته عنى كعنايته ، قرأت عليه وسمعت ، وأجازنى بخطه ؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة ، يسمع الناس فيه ، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين ، وكان فى ذاته ليناً صابراً ، طاهراً حليما متواضعا ، لم يحفظ له جور فى قضية ، ولا ميل بهوى ، ولا إصغاء إلى عناية ، وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى ، ولم يزل آخر عمره يتولى القضاء بقرطبة ، إلى أن قتل ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة ، يوم الجمعة وهو ساجد ، لأربع بقين من صفر ، من سنة تسع وعشرين وخمسمائة . وكتابه فى نوازل الأحكام من الدلائل على تقدمه فى المعارف وبراعته .

— ٣ —

أبو بكر بن العربى :

هو القاضى الشهير الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن أحمد بن العربى المعافرى الإشبيلى ، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) ، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد ، مستهل شهر ربيع الأول ، سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فدخل الشام ، ولقى بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشى ، وتفقه عنده ، ورحل إلى الحجاز فى موسم سنة تسع وثمانين ، ودخل بغداد مرتين ، وصحب أبا بكر الشاشى ، وأبا حامد الطوسى الغزالى ، وغيرهما من العلماء والأدباء ، فأخذ عنهم ، ثم صدر عن بغداد ، ولقى بمصر والإسكندرية جماعة ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين ، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير ، لم يدخل به أحد

قبله ، ممن كان له رحلة إلى المشرق ، ولذا نقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضى أبو الوليد الباجى ، ولم يرحل غيري وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب .

وكان من أهل التفنن فى العلوم ، متقدما فى المعارف كلها ، متكلما فى أنواعها ، حريصا على نشرها . واستقضى بمدينة إشبيلية ، فقام بما قلد أحمد قيام ، وكان من أهل الصرامة فى الحق ، والشدة والقوة على الظالمين ، والرفق بالمساكين ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه .

وتوفى رحمه الله بالعدوة ، ودفن بمدينة فاس فى ربيع الآخر ، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

ومن بديع نظمه ، رحمه الله :

أتتنى تؤنبنى بالبكا فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت جفونى بتعذيبها

وقد وصفه ابن خاقان فى « المطمح » فقال : علم الأعلام ، الطاهر الأثواب الباهر الألباب ، الذى أنسى ذكاء إياس[1] ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرع من الأصل ، وغدا فى يد الإسلام أمضى من النصل ، سقى الله به الأندلس ، بعد ما أجدبت من المعارف ، ومد عليها منه الظل الوارف ، فكساها رونق نبله ، وسقاها ريق وبله ، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدراً فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عباد ، اصطفاه المأمون لابن أبى داود ، ولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ،

---

(١) هو إياس بن معاوية قاضى البصرة لعمر بن عبد العزيز ، المعروف بالزكانة والفقه . وتوفى عام ١٢٩ هـ

فلما أقفرت حمص[1] من ملكهم وخلت ، وألقتهم منها وتخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلا واهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وما استفاد من إجالة تلك الأطماع ، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوح ، وفى روض الشباب زهر ما صوح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً إليها وحاديا ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقاييسه ، فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه منخرق أربه ، ثم أدركه حمامه ، ووارته (هناك) رجامه ، وبقى أبو بكر منفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه الرياسة محيداً ، فكر إلى الأندلس ، فخلها والنفوس إليه متطلعه ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما إليها ورقى ، وحسبك من مفاخر قلدها ، ومن محاسن (أنس) أثبتها فيها وخلدها . وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافا ، وترده الأوهام نطافا ، فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب أهل الوداد :

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر ... خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره ... ولم يخبط الظلماء بالأنجم الزهر
ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا ... فسار على الجوزا إلى فلك يجرى
وحث مطايا قد مطاها بعزه ... فأوطأها قسرا على قنة النسر
فصارت ثقالا بالجلالة فوقها ... وسارت عجالا تتقى ألم الزجر
وجرت على ذيل المجرة ذيلها ... فمن ثم يبدو ما هناك لمن يسرى
ومرت على الجرباء توضع فوقها ... فآثار ما مرت به كلف البدر

---

(١) المراد بها : إشبيلية من مدن الأندلس . سكن بها أهل حمص الشام عند الفتح ، فسموها بها .

وسافت أريج الخلد من جنة العلى ... فدع عنك رملا بالأنيعم يستذرى
فما حذرت قيساً ولا خيل عامر ... ولا أضمرت خوفاً لقاء بنى ضمر
سقى الله مصراً والعراق وأهلها ... وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن تآليف الإمام أبى بكر بن العربى المذكور : كتاب « القبس ، فى شرح موطأ مالك بن أنس » ، وكتاب « ترتيب المسالك ، فى شرح موطأ مالك » ، وكتاب « أنوار الفجر » (فى تسعين سفرا) ، وكتاب « أحكام القرآن » ، وكتاب « مراقى الزلف » ، وكتاب « الخلافيات » ، وكتاب « نواهى الدواهى » ، وكتاب « سراج المريدين » ، وكتاب « المشكلين » : مشكل القرآن والسنة ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ فى القرآن » ، وكتاب « قانون التأويل وكتاب « النيرين ، فى الصحيحين » وكتاب « سراج المهتدين» وكتاب «الأمد الأقصى، بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا» وكتاب فى الكلام على « مشكل حديث السبحات والحجاب » ، وكتاب « العقد الأكبر،للقلب الأصغر » ، و « تبيين الصحيح ، فى تعيين الذبيح » ، و « تفصيل التفضيل »

— ٤ —

البطليوسى :

من أعلام الأندلس ابن السيد البطليوسى وهو الفقيه الحافظ ، الإمام ، أبو محمد : هو عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى ، وشلب بيضته ، ومنها كانت حركة أبيه ونهضته ؛ وفيها كان قرارهم ، ومنها نم آسهم وعرارهم ؛ ونسب إلى بطليوس ، لمولده بها ؛ ومن حيث كان فقد طبق الأرض علما ، وملأها ذكاء وفهما . قال فيه الفتح بن خاقان « فى المطمح » : لو أن للأيام ألسنا ناطقة ، وأوصافا متناسقة ؛ تردد فنون بيانها ، كالطير ترجع على أفنانها ما جرت إلى إنصافه ، ولا درت بعض أوصافه ؛ ولو أنى أمددت ببيان

سحبان وأيدت تأييد لسان حسان ، وأعارنى ابن صوحان[١] الفصاحة ، وعلمنى خالد بن صفوان[٢] إيضاحه ، لما أعربت عن مقداره الرفيع ، ولا أغربت بما أنحوه له من التعظيم والترفيع ؛ فكيف بلسان (قد) فل غراره ، وبنان قد ذوى زنده وعراره ؛ وخاطر قد ارتمى فى لجج الأخطار ، ووخز بأطراف القنا الخطار ؛ فما تذل له عصى إحسانه ، ولا تحل النوائب عقدة من لسانه ، فحسبى أن أقتصر من وصفه على لمحه ، وأعطر من عرفه بنفحه ، فأقول : إنه ضارب قداح العلوم ومجيلها ، وغرة آيامنا البهيمة وتحجيلها ، لو أدركه قيس لما قضى للحلم وترا ولا شفعا ، ولو عاصره ابن العاص لما ادعى ضرآ ولا نفعآ ، حلب الدهر أشطره ، وتلا حروفه وأسطره ، وخدم الرياسات ، وعلم طرق السياسات ، ونفق وكسد ، ووقف وتوسد ، وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها ، ومن فى يديه مقودها وزمامها ، لديه تنشد ضوال الأعراب ، وتوجد شوارد اللغات والإعراب ، إلى مقطع دمث ، ومنزع فى النفاسة غير منتكث ، وندى خرق به العوائد ، وأورق عوده فى يد الرائد ، وعفاف كف ، حتى عن الطيف ، وحكى المحرمين بالخيف ، ولقد نزلت منه بالتق الطاهر ، ولقيت منه ما لقى عوف بن محلم من ابن طاهر[٣] ، ورأيت نار مكارمه تتألق ، وبت كأنما على النار الندى والمحلق ، وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة ، وتصرف فى طرقها المستقيمة ، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع ، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع . وتواليفه

---

(١) يريد صعصعة بن صوحان من أصحاب على بن أبى طالب ، وكان من أخطب الناس . (أنظر المعارف لابن قتيبة) .

(٢) خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم المنقرى التميمى البصرى كان لسنا بينا خطيبا ، عاش إلى قيام دولة بنى العباس . (أنظر المعارف) .

(٣) يشير إلى منزلة عوف بن محلم الشيبانى عند عبد الله بن طاهر بن الحسين والى خراسان للمأمون ، وكان من المختصين به ، المقربين إليه .

فى الشروحات وغيرها صنوف ، وهى اليوم فى آذان الأيام شنوف . فمنها « المقتبس ، فى شرح موطأ مالك بن أنس » . و « الاقتضاب ، فى شرح أدب الكتاب » . وكتاب « التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء ، فى اعتقاداتهم وآرائهم ، وسائر أغراضهم وأنحائهم » ، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع ويخفيه ، ويوقف على تفسيره فيه . وقد أثبت من محاسنه التى تدور جريالا ، ما ينشى ويسكر ، ويحمده الوسمى المبكر .

فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطليطلة فى المنية المتناهية البهاء والإشراق ، المباهية لزوراء العراق ؛ التى ينفح شذاها العطر ، ويكاد من الغضارة يمطر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه ، وحكم العقار فى جوده ونداه ؛ والمجلس يشرق كالشمس فى الحمل ، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل ؛ والزهر عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ؛ والدولاب يئن كناقة إثر حوار ، أو كثكلى من حر الأوار ؛ والجو قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد بللته أنداؤه ؛ والأسد قد فغرت أفواهها ، وبجت أمواهها ؛ فقال — يصف الحال :

يا منظراً إن رمقت بهجته ... أذكرنى حسن جنة الخلد
تربه مسك وجو عنبرة ... وغيم ند وطش ماورد
والماء كاللازورد قد نظمت ... فيه اللآلى فواغر الأسد
كأنما جائل الحباب به ... يلعب فى حافتيه بالنرد
تراه يزهى إذا يحيل به الـ ... ـقادر زهو الكعاب بالعقد
تخاله إن بدا به قمرا ... تما بدا فى مطالع السعد
كأنما ألبست حدائقه ... ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها ... بوابل من يمينه رغد
لا زال فى عزة مضاعفة ... ميمم الرفد وارى الزند

وله يصف فرسا ، وهو مما أبدع فى التمثيل له والتشبيه ، ونبه خاطره فيه احسن تنبيه ، وخلع عليه شيات لاحق والوجيه ، وعمه بالمحاسن وتوج ، ونسبه إلى الخطار وأعوج[1] :

وأقب من آل الوجيه ولاحق ... قيد العيون وغاية المتمثل
ملك النواظر والقلوب بحسنه ... فمستى ترق العين فيه تسهل
ذو منخر رحب وزور ضيق ... وسماوة خصب وأرض ممحل
قصرت له تسع وطالت أربع ... وصفت ثلاث منه للمتأمل
وتراه أحياناً لعزة نفسه ... يرنو - بلا قبل - بعين الأقبل
وكأنما سال الظلام بمتنه ... وبدا الصباح بوجهه المتهلل
وكأن راكبه على ظهر الصبا ... من سرعة أو فوق ظهر الشمأل

ودعى ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب ، وقرع السرور نبعه بالغرب ؛ ولاحت نجوم أكواسه ، وفاح نسيم رنده وآسه ؛ وأبدت صدور أباريقه اسرارها ، وضمت عليه المجالس أزرارها ؛ والراح يديرها أهيف وأوطف ، والأمانى تجنى وتقطف ، فقال :

يا رب ليل قد هتكت حجابه ... بمدامة وقادة كالكوكب
يسعى بها أحوى الجفون كأنها ... من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران : بدر قد أمنت غروبه ... يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعمت برشف بدر غارب ... فانعم برشفة طالع لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها ... حول المجرة ربرب فى مشرب
والليل منحفز يطير غرابه ... والصبح يطرده بباز أشهب

---

(١) لاحق ، والوجيه ، والخطار ، وأعوج : أفراس مشهورة عند العرب بالعتق والكرم .

وقال يمدح بعض الأعيان ، وهى قصيدة اشتملت على البلاغة :

أما إنه لولا الدموع الهوامع لما بان منى ما تجن الأضالع
وكم هتكت ستر الهوى أعين المها
وهاجت لى الشوق الديار البلاقع

خليلى مالى كلما لاح بارق تلظى الحشا وارفض منى المدامع
هل الأفق فى جنبى بالبرق لامع أم المزن فى جفنى بالودق هامع
ففى القلب من نار الشجون مصايف
وفى الخد من ماء الشئون مرابع

وما هاج هذا الشوق إلا مهفف هو البدر أو بدر الدجى منه طالع
إذا غاب يوماً فالقلوب مغارب وإن لاح يوماً فالجيوب مطالع
يضرج خديه الحياء كأنما بخديه من فتك الجفون وقائع
رمانى عن قوس المحاجر لحظه بسهم غدا من مهجتى وهو وادع
وما زلت من ألحاظه متوقيا ولكنه ما حم لابد واقع
يرق فتور اللحظ منه كأنه إلى قلبه من قسوة الهجر شافع
كما رق بالآداب طبع محمد فحاكت لمى الأحباب منه الطبائع
رخيم حواشى الطرف حلو كأنما سجاياه أيام السرور الرواجع
أبا بكر استوفيت زهر محاسن تنافسها زهر النجوم الطوالع
قدحت زناداً من ذكائك لم يزل ينير فتعشى البارقات اللوامع
وما ذاك عن نيل لديك رجوته فيصدق ظن أو يكذب طامع
ولا أنا ممن يرتضى الشعر خطة فتجذبه نحو الملوك المطامع
ولكن قلباً بين جنبى قد غدا يجاذبنى فيك الهوى وينازع
طوى لك من محض الوداد كمائنا تبددت لها فوق اللسان طلائع

أأزعم[1] فى نظم البديع ولم يزل ... لك السبق فيه والورى لك تابع
وأى مقال لى وقولك سائر ... وأى بديع لى ومنك البدائع

وقال يتغزل ، وتصرف فيه تصرف غيلان مى ، ووصف كل حواء وحى ، وذكر العشق ، وارتاد الإبداع ، حتى عدا به مصره ، فأجاد معانيه :

تأوبه من همـــه ما تأوبا ... فبات على جمر الأسى متقلبا
مرت مزن عينيه غداة تحملوا ... عواصف ريح الشوق حتى تصيبا
دموع هتـكن الستر عن مضمر الجوى
وأبدين من سر الهـــوى ما تغيبا
خليلى مالى كلما لاح بارق ... تذكرت برقا بالعقيق وزينبا
أؤنس بالنائين نوماً مشرداً ... وأطمع بالثاوين قلباً معذباً
ومن لى برد الخل إذ جدت النوى ... به وبوصل الحبل أن يتقضبا
أفى كل حين أمترى غرب مقلة ... أبى الوجد إلا أن تجود فتغربا[2]
إذا عن لى ظبى بوجرة شادن ... تذكرت من عنى الفؤاد وعذباً
وأرتاح للأرواح من نحو أرضها ... وتثنى عنانى للصبا نفحة الصبا
ولولا التهاب الشوق بين جوانحى ... لأمرع خـدى بالدموع وأعشبا
ألا قاتل الله الهوى كيف قادنى
إلى مصرعى طوعاً وقد كنت مصعبا[3]

---

(١) يقال زعم يزعم (من باب شرف) : بمعنى ساد ورأس .

(٢) يقال : أغرب الساقى : إذ أكثر الغرب ، أى الملء ، وأغرب الحوض والإناء : ملأهما .

(٣) المعصب من الإبل : الفحل الذى لا ينقاد .

وما كنت أخشى أن أبيت معذبا ... بعذب رضاب من حمى الثغر أشنبا
وخد ألاقى دون شم رياضه ... من اللحظ هنديا وللصدع عقربا
أجدك لم تبصر تألق بارق ... يجد نشاطاً فى ذرى الأفق أهدبا
إذا ما بدا فى الجو أحمر ساطعا ... حسبت الظلام آبنوسا مذهبا
كأن الرياض الحو غب سمائه ... تردين وشى العبقرى المخلبا[1]
كأن الشقيق الغض والفجر ساطع ... خدود زهاها الحسن أن تتنقبا
تمتع بريعان الشباب وظله ... فلا بد يوما أن يبينا ويذهبا
فما العيش إلا أن تروح وتغتدى ... محبا براه سقمه أو محبـــا

وكتب إلى الكاتب أبى الحسن راشد يستدعيه إلى مجلس قد لاحت شموس مدامه ، وارتاحت نفوس ندامه :

عندى مشكود[2] من الخمر عبق
فيه منى مصطبح ومغتبق
يحكى شذا المسك إذا المسك فتق
كأنه من خلقك الحلو خلق
كأنما كئوسه تحت الغسق
فى راحة الساقى نجوم تأتلق
تخالها وهى تلظى كالحرق
أحشاء صب ملئت من الحرق

---

(١) المخلب (كمعظم) : الكثير الوشى .
(٢) فى الأصول : « مسكود » ، ولا معنى له . ونظنه محرفاً عما أثبتناه . والمشكود : الممنوح .

ترى لدى المزج إذا الماء اندفق
فيها حباباً لاح كالدر النسق
وأنت أنسى والمفدى بالحدق
فاطلع طلوع القمر التم اتسق
فى يومنا هذا إذا الظهر نطق
يا راشداً إذا دجى الغى غسق
وماجداً قد حاز فى السبق السبق
لله معنى طابق اسماً لك حق
توافقا فيك إذا الإسم اتفق

وقال فى الزهد ، وهو غرض قد أكثر القول فيه ، وذلك مما يدل على ورعه ، وصفاء منهله فى التقى ومشرعه :

إلهى إنى شاكر لك حامد ... وإنى لساع فى رضاك وجاهد
وإنك مهما زلت النعل بالفتى ... على العائد التواب بالعفو عائد
تباعدت مجداً وادنيت تعطفاً ... وحلما فأنت المدنى المتباعد
ومالى على شىء سواك معول ... إذا دهمتنى المعضلات الشدائد
أغيرك أدعو لى إلهاً وخالقاً ... وقد أوضح البرهان أنك واحد
وقدماً دعا قوم سواك فلم يقم ... على ذاك برهان ولا لاح شاهد
وبالفلك الدوار قد ضل معشر ... وللنيرات السبع داع وساجد
وللعقل عباد وللنفس شيعة ... وكلهم عن منهج الحق حائد

وقال يمدح الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذى النون :

لعلكم بعد التجنب والهجر ... تديلون من بعد وتشفون من ضر
فإن الذى غادرتم بين أضلعى ... يزيد على مر الزمان ويستشرى
ولم تنبكم عنى النوى غير أنكم ... رحلتم من الجفن القريح إلى الفكر
ومن عجب أنى أسائل عنكم ... ومنزلكم بين الجوانح والصدر

كأن ضياء الصبح فى الليل إذ سرى ... بصيرة إيمان سرت فى عمى كفر
كأن مها فى الأفق ريعت وقد بدا ... لها ذنب السرحان من وضح الفجر
كأن سنى الشمس المنيرة إذ بدا ... كساورق الإصباح ذوبا[1] من التبر
وإلا فوجه الظافر الملك انجلى ... فجلى ظلام النقع فى الجحفل المجر
عجبت لأيام تداعت خطوبها ... لتثلم من غربى وتقدح فى وفرى
ولم تدر أنى فى حمى الظافر الرضا ... أرد العدى عنى بصمصامتى عمرو
حللت جنابا منـــه مد ظلاله ... على وأعطانى أماناً من الدهر
جناب بكت فيه غمائم جوده ... فأضحكن روض المجد عن زهر الشكر
وكم نلت مذ أصبحت ألثم كفه ... بيمناه من يمن ويسراه من يسر
لدى ملك ما لاح ضوء جبينه ... بجنح الدجى إلا كفى مطلع البدر

وكتب مراجعا إلى الوزير أبى محمد بن سفيان رحمه الله :

ياسيدى الأعلى ، وعمادى الأسنى ، ومشربى الأصفى ، ومن أدام الله عزته ، وحمى من النوائب حوزته ؛ وافانى لك كتاب سرى الموضع ، سنى الموقع ، أطال على إيجازه ، وأطمع بعد إعجازه ، وقابلت الرغبة التى ضمنتها فيه ، بما تقتضيه جلالة مهديه ؛ ولئن تراخى الكتاب ، عن حسن فى ذلك العتاب ؛ فإن المودة لم يقدح فيها من الملل قادح ، ولم يسنح لها من الخلل سانح ، بل كانت كالبرد طوى على غره ، إلى أوان جلائه ونشره ؛ وقد علم علام الضمائر ، والذى يظن غائباً وهو حاضر ، أنى أعتقدك القدح المعلى ، وأضرب بك المثل الأعلى ، وأرى أنك تحجيل واضح فى دهمة الزمان ، وعلق راجح فى كفة الامتحان ، وبقية سنخ كريم ، ماعهدهم عنا بذميم :

عليهم سلام الله ما ذر شارق ... ورحمته ما شاء أن يترحما

---

(١) فى م : « ثوبا » .

وما أدعى لك جانبا من السيادة ، إلا ولك عليه أعدل الشهاده ؛ ولكن قديما سفل ذو الرجحان ، وعاد الكمال على أهله بالنقصان ، وكبت الأعالى بارتفاع الأسافل ، حتى اقتضى ذلك قول القائل :

فواعجبا كم يدعى الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

وقال المذمر للناتجين متى ذمرت قبلى الأرجل[1]

وقد جاريتك - أعزك الله - فى ميدان من البلاغة أنا فيه كمن كاثر البحر والمطر ، وجلب التمر إلى هجر ؛ والذى حدانى إليه ، أنه مربى زمن ، ألهى خاطرى عنك فيه وسن ، فقلت قد كان من العقوق ، ترك رعاية الحقوق ؛ فلأستمطرن مزن القول ، فقد كنت عهدتها تسجم فتغدق ، ولأستسقين جابية الشيخ العراق ، فقد كانت تطم فتفهق[2] ، أيام كنت أسحب ذيل الشباب ، وأسلك مسلك الكتاب ، ويعجبنى سلوك سهل الكلام وحزونه ، والتصرف بين أبكاره وعونه ، أستن استنان الطرف (الجامح ، ولا أثنى عنان الطرف[3]) الطامح ، وأروى هامتى ، وأقول بما صبت على غمامتى ، إلى أن تعمم مفرقى بالقتير[4] ، وعلتنى أبهة الكبير ؛ وودعت زمنى الزائل ، وعادت سهامى بين رث وناصل[5] ؛ وعريت أفراس الصبا ورواحله[6] ،

---

(١) هذا البيت للكميت . والمذمر : الذى يدخل يده فى حياء الناقة لينظر أذكر جنينها أم أنثى . يقول : إن التذمير إنما هو فى الأعناق لا فى الأرجل .

(٢) الجابية : الحوض ، والعراق إذا تمكن من الماء ملأ جابيته لأنه حضرى فلا يعرف مواقع الماء ولا محاله . وفى العبارة إشارة إلى قول الأعشى :

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراق تفهق

(٣) التكملة عن القلائد .

(٤) القتير : رءوس مسامير حلق الدروع ، شبه بها الشيب إذا نقب فى سواد الشعر . (عن اللسان) . (٥) الناصل من السهام : مالا نصل له .

(٦) يشير إلى بيت زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وسددت على سوى قصد السبيل معادله[1] ؛ فلئن هريق ماء الشباب ، واستشن الأديم[2]، وأقشع السحاب ، وتجلت الغيوم ، فلعل فى الأنق ربابه وفى الحوض صبابه ، وعسى أن يكون فى أخلاف المقالة در يرضع ، وفى حقاق البلاغة در يرصع ؛ ولأزفنها عذراء ، لا ترتضى إلا الأكفاء ، فليس يبين النجد إلا فى مآزق الهيجاء ، ولا يحسن العقد إلا فى عنق الحسناء ؛ ولأجعلن الشعر لها شعاراً ، وفقر النثر لها دثارا .

وقال يخاطب مكة أعزها الله :

أمكة تفديك النفوس الكرائم ... ولا برحت تنهل فيك الغمائم
وكفت أكف السوء عنك وبلغت
منـــاها قلوب كى تراك حوائم
فإنك بيت الله والحرم الذى ... لعزته ذل الملوك الأعاظم
وقد رفعت منك القواعد بالتقى ... وشادتك أيد برة ومعاصم
وساويت فى الفضل المقام كلاكما ... تنال به الزلفى وتحمى المآثم
ومن أين تعدوك الفضائل كلها ... وفيك مقامان : الهدى والمعالم
نبى حوى فضل النبيين واغتدى ... لهم أولا فى فضله وهو خاتم
وفيك يمين الله يلثمها الورى ... كما يلثم اليمنى من الملك لائم
وفيك لإبراهيم إذ وطىء الثرى ... ضحى قدم برهانها متقادم
دعا دعوة فوق الصفا فأجابه ... قطوف من الفج العميق وراسم

---

(١) معادل الطريق : مذاهبه ومسالكه . وهو من قول زهير :
وأقصرت عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

(٢) استشن الأديم : يبس وتشنج . وجلد الإنسان : تغضن عند الهرم . وهو من قول أبى حية النميرى : هريق شبابى واستشن أديمى .

فأعجب بدعوى لم تلج مسمعى فتى ... ولم يعهـا إلا ذكى وعالم
ألهنى لأقدار عدت عنك همتى ... فلم تنتهض منى إليك العزائم
فياليت شعرى هل أرى فيك داعياً ... إذا ما دعت لله فيك الغمائم
وهل تمحون عنى خطايا اقترافها ... خطى فيك لى أو يعملات رواسم
وهل لى من سقيا حجيجك شربة ... ومن زمزم يروى بها النفس حائم
وهل لى فى أجر المنيبين مقسم ... إذا بذلت للناس فيك المقاسم
وكم زار مغناك المعظم مجرم ... فحطت به عنه الخطايا العظائم
ومن أين لايضحى مرجيك آمنا ... وقد أمنت فيك المها والحمائم
لئن فاتنى منك الذى أنا رائم ... فإن هوى نفسى عليك لدائم
وإن يحمنى حامى المقادير مقدماً ... عليك فإنى بالفؤاد لقادم
عليك سلام الله ماطاف طائف ... بكعبتك العليا وما قام قائم
إذا نسم لم تهد عنى تحيـة ... إليك فمهديها الرياح النواسم
أعوذ بمن أسناك من شر خلقه ... ونفسى فما منها سوى الله عاصم
وأهدى صلاتى والسلام لأحمد ... لعلى به من كبة النار سالم

— ٥ —

ابن الأبار :

ومن أعلام الأندلسيين أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية ، وكان علامة فى الحديث ولسان العرب ، وبليغا فى الترسيل والشعر ، وكتب عن السيد أبى عبد الله بن حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبى زيد ، ثم دخل معه الحرب حين نزع إلى دين النصرانية ، ورجع عنه قبل

ان يأخذ به ، ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها ، بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم ، إلى الأمير أبي زكرياء ، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان ، وأنشد قصيدته على روى السين يستصرخه ، فبادر السلطان بإغاثتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكسا ، فوجدوهم فى عسرة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته فى صدور رسائله ومكتوباته ، فكتبها مدة ، ثم إن السلطان أراد صرفها لأبى العباس الغسانى ، لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقى ، وكان آثر عنده من الخط المغربى ؛ فسخط بن الأبار ، أنفة من إيثار غيره عليه ، وافتات على السلطان فى وضعها فى كتاب أمر بإنشائه ، لقصور الترسيل يومئذ فى الحضرة عليه ، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها . فجاهر بالرد ، ووضعها استبدادا وأنفة ، وعوتب على ذلك ، فاستشاط غضبا ، ورمى بالقلم ، وأنشد متمثلا :

أطلب العز فى لظى وذر الذ ل ولو كان فى جنان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان ، فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه ، عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتب ، وسماه إعتاب الكتاب ، واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله ، فغفر السلطان له ، وأقال عثرته ، وأعاده إلى الكتابة . ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه ، مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس (وأهل تونس) . وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو[1] وضيق خلق ، وكان يزرى على المستنصر فى مباحثه ، ويستقصر مداركه ، فخشن له صدره ، مع ما كان يسخط به السلطان ، من تفضيل الأندلس وولاتها عليه .

وكانت لابن أبى الحسين فيه سعاية ، لحقد قديم ، سببه أن ابن الأبار لما

---

(١) البأو : الكبر .

قدم فى الأسطول من بلنسية ، نزل ببنزرت وخاطب ابن أبى الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه فى عنوان مكتوبه بالمرحـــوم ، ونبه على ذلك فاستضحك ، وقال : إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل ، ونميت إلى ابن أبى الحسين ، فأسرها فى نفسه ، ونصب له ، إلى أن حمل السلطان على إشخاصه إلى بجاية ، ثم رضى عنه واستقدمه ، ورجعه إلى مكانه من المجلس ، وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته ، إلى أن جرى فى بعض الأيام ذكر مولد الواثق ، وساءل عنه السلطان بعض من حضره فاستبهم ، فغدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها ، كما كان أعداؤه يشيعون عنه ، بما كان ينظر فى النجوم ، فتقبض عليه ، وبعث السلطان إلى داره ، فرفعت إليه كتبه أجمع ، وألفى فى أثنائها — فيما زعموا — رقعة بأبيات أولها :

طغا بتونس خلف سموه ظلما خليفه

فاستشاط لها السلطان ، وأمر بامتحانه ثم بقتله ، فقتل قعصا بالرماح وسط محرم من ســـنة ثمان وخمسين ، يعنى وستمائة . ثم أحرق شلوه ، وسيقت مجلدات كتبه ، وأوراق سماعه ودواوينه ، فأحرقت معه .

وله يستصرخ أبا زكريا الحفصى لنجدة الأندلس :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجلتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبـــة تثنى الأمان حذارا والسرور أسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منهـــا وقرطبة ما ينسف النفس أو ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العـــوادى العابثات بهـــا
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرما ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غـــدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها مدارساً للمثانى أصبحت درساً
وأربعا نمنمت أيدى الربيع لها ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة فصوح النضر من أدواحها وكسا
وحال ما حولهـــا من منظر عجب
يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا
عيث الدبا فى مغانيها التى كبسا
وانتز بزتها ممـــا تحيفها تحيف الأسد الصارى لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً وأين[1] غصن جنيناه بها ولا انعسا
حمى محاسنها طاغ أتيح لهـــا ما نام عن هضمها حينا ولا انعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلاله الجو فامتدت يداه إلى إدراك مالم تطأ رجلاه ما مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحى ما طمست منها العداة كما أحييت من دعوة المهدى مقتبسا
أيام سرت لنصر الحق مستبقا وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذى كتب التجسيم من ظلم والصبح ماحية أنواره الغلسا

---

(١) فى ط : « فأى عيش ... وأى » .

وتقتضى الملك الجبار مهجته ... يوم الوغى جهرة لاترقب الخلسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبابه فتعانى اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شده الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل عاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجماً لأثبته ... ولو دعا أفقا لبى وما احتبسا
تالله إن الذى ترجى السعود له ... ما جال فى خلد يوماً ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدى النهار بها من ضوئه شنباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
ماضى العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قدعبسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود مارمسا
مبارك هديه باد سكينته ... ما قام إلا إلى حسنى ولا جلسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالى طروق الخطب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقل ... فى الليث مفترساً والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حيا لقاحاً[1] إذا وفيته بخسا
فرب أصيد لا تلقى به صيداً ... ورب أشوس لا تلقى له شوسا

---

(١) حيا لقاحا : لم يدينوا للملوك ، ولم يملكوا ، ولم يصبهم سباء .

إلى الملائك ينمى والملوك معـا ... فى نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره
وصان صيغته أن تقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فـلا ... أعز من خطتيه ماسما ورسا
حسب الذى باع فى الأخطار يركبها
إليـــه محيـــاه أن البيع ماوكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزما بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرما ... وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطى واليمـــن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضـاحا أسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
(وقبل الجود طفاحا غواربه من ... راحة غاض فيها البحر وانغمسا)
يأيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة مالم نغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأسا كل من رأسا
وانصر عبيـــدا بأقصى شرقها شرقت
عيونهم أدمعـــا تهمى زكا وخسا[1]
هم شيعة الأمر وهى الدار قد نهكت
داء ومالم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتهـا ... جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى

---

(١) الزكا : الزوج . الخسا : الفرد .

ومن بديع نثره رحمه الله رسالته الحافلة، التى كتب بها للمستنصر، وهى الرسالة الغريبة مساقا، المتلألئة نظما واتساقا، التى لم ينسج على منوالها، ولم يأت أحـــد بمثالها؛ بصف وصول الماء إلى تونس، ويشير فى ذلك إلى إشارات عجيبة، تدل على أن قريحته الوقادة لداعى الإجابة مجيبة؛ وهى:

الحمد لله حمداً لا نقلله. هذا الزمان الذى كنا نؤمله، « بلدة طيبة ورب غفور »، ودولة مباركة لمحاسنها سفور. إلى أبى حفص آلوا، فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا، ملك يشتمل الإقبال، وعز يقلقل الأجبال، وكرم صريح الانتماء، فى النماء، وشرف سمت ذوائبه على السماء، إلى عدل وإحسان، هما قوام نوع الإنسان، مع رفق وإسجاح، ضمنا كل فوز ونجاح، فقد آضت الظلماء أنوارا، وفاضت البركات أنجاداً وأغوارا، أليس العام ربيعا، والعالم جميعاً، والسعود طالعه، والعصور طائعه، مصالح الأعمال تحليها، وعلى منصات الكمال تجليها؟ فمن ذا أيها المولى يجاريك إلى مدى، أو يباريك فى إقدام صادق وندى، وآياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى، بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولولا نور غرتك ما آنار، لقد حسنت بك الأوقاف، حتى كأنك فى فم الزمن ابتسام أعرقت فى المجد والعليا، وعنيت بالدين فعنت لك الدنيا، أى عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى فى اليوم عاقبة الغد، إصفاقا على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشفاقا من التعرض لصفاحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناءك، وتتبع فى القربات آباءك، بانيا كما بنوا، بل زائدا على ماأتوا، وباديا من حيث انتهوا:

أناس من التوحيد صيغت نفوسهم ... فزرهم تر التوحيد شخصاً مركبا
ومن ساكبات المزن فيض أكفهم ... فردهم ترى ماء الغمام وأعذبا

أمجاد أجواد، فى الحباء بحار وفى الحبا أطواد، تقيل أبو زكرياء نهج أبى محمد، وأيدا جميعا بأبى حفص المؤيد:

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

أولئك صفوة الأئمة ، وحفظة الأذمة ، والقائمون دون الأمة ، فى الحوادث المدلهمة ، وهذه الدولة المحمدية ، الخالدة بمكانها الدعوة المهدية ؛ إليها انتهت المراشد ، وعليها التفت المحامد ، وبها اعتزت حين اعتزت العناصر والمحاتد ، ومن خصائصها انفعال الوجود ، ومن مراسمها الإيثار بالموجود ، والبدار إلى إغاثة الملهوف وإعانة المنجود ، مابرحت للخيرات إيضاعها وخبها ، وبالصالحات غرامها وحبها . حتى لقد فهمت أسرارها ، وأودعت أنوارها ، وكلفت أو كفلت إفشاءها وإظهارها ، يمينا أن يمين الحق به طولى ، وللآخرة خير لها من الأولى ، بمولانا أيده الله عز مكانها ، وخلدت سديدة آثارها ، شديدة أركانها ، لاجرم أنه الطاهر كالماء الذى جلبه للطهارة ، والظاهر ولاء ولواء فى مصعد الخلافة ومقعد الإمارة ، بالسعادة الأبدية وجده وكلفه ، وما همه إلا تجاوز ماأسلفه سلفه ، فجر من الأرض ينبوعا ، وجدد للجدوى رسوماً عافية وربوعا ، ساحته الحرم وهو زمزم قصاده وحجاجه ، وراحته البحر الخضم ، غير طعمه وارتجاجه ، ما أظهره خلالا ، وأبهره جلالا ، هكذا هكذا وإلا فلا لا ، غابت كماة المعارك وشهد ، ونامت ولاة الممالك وسهد ، فمتى قسطوا أقسط ، وإذا غوروا أنبط ، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط ، غلبهم على صفتى الندى والباس ، وسلبهم منقبتى حمزة والعباس .

فلا غرو أن من أمن ووقى ، ثم لما كسا وأطعم سقى ، آية نعمى وفت بالميعاد ، وحسنى مثلها يعود للمعاد ، وأتت بماء معين قد أصبح غورا ، وملأت مابين لابتيها جناناترف ظلا وترق نورا ، فيا بشرى لتونس أخصب جديبها ، وأحسن وصف الروض والغدير أديبها ، وطالما أطلعت صحراء بل بغضاء ، فكم للإمارة قبلها من يد بيضاء ، غشيت حبر الحبور والسرور ، وعوضت برد الظل من وهج الحرور ، خمائل وجداول ، تزاول منها العين ما تزاول ، تلك يضل من أحصاها ، وهذه يصل بها حصاها ، ويالقصرها

السعيد! نعمت أدواحه ، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه ، هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه ، والجود الفضفاض ينقع فؤاده ويشفيه ، وهنيئاً للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصاديه ، وجمعت فى شرعته السارية والغاديه ، فها هو بحره بادى الغرر والأوضاح ؛ وصخره منبجس بالزلال القراح ، وللجمهور بصفوه المنساب ، لهج الغياب بالإياب ، وطرب الشيب لذكر الشباب ، أمسوا قد سوغوا مآربهم ، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم ، فهم يردون على العذب النمير ، ويجدون بركة رأى الأمير ، مكرمة ذخرها لسلطانه الزمان ، وكرامة هنأها به الإيمان ، وقضية إن حجبت عن داود فما حجب عنها سليمان :

جمعت للناس بين الرى والشبع ... فهم بأخصب مصطاف ومرتبع
ولم تدع كرماً إلا أتيت به ... تضيف مبتدعاً منها لمبتدع
لما وليت خلعت الخير أجمعه ... عليهم فبدوا فى أجمل الخلع
لله أيامك استوفت محاسنها ... فلا فضيلة للأعياد الجمع
دامت مساعيك والأقدار تسعدها ... تولى المساجد إنصافا من البيع

اللهم إن الإيالة الحفصية قد أعليت مظاهرها ، ونصرت معاشرها ، وقصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردها ومصادرها ، ثم اصطفيت من شرف بيتها الصراح ، ومعدن سؤددها الوضاح ، مولانا الأمير الأجل ، المؤيد المبارك ، أبا عبد الله ، فانتضيته حساماً فى يدك قائمه ؛ وارتضيته إماماً لاتلين فى ذاتك صرائمه ، ولا يلحق شأوه فى النيل من عداتك رائمه ، يمضى بأساحين لامضاء للحسام العضب ، ويهمى جوداً والسماء فى أزر من نجيع الجدب ، وينتدب سعيا لكل حسنى أعيت على القريع الندب .

وله يشكو الزمان :

تحيف حالتى حيف الزمان ... وصدق اليأس من كذب الأمانى
وبرت فى أليتها الليالى ... بترويعى فإنى بالأمان
أما قنعت وقد كلفت بهضمى ... وضيمى دون أبناء البيان

أحاول أن أقوم لما يوانى فتقعدنى الخطوب بلا توانى
وأطباق الثرى بالحر أحرى إذا ألفى الثراء من الهوان
فهل من آخذ بيدى أخيذ بعين الله شدة ما يعانى
أيا ما أشتكيه من أيامى عوار فى يد البلوى عوانى
وما أبغى على تلفى دليلا كفانى أننى حى كفانى

وله فى معنى التسليم للمقدور :

أما إنه قد خط فى اللوح ماخطا فلا تعتقد للدهر جوراً ولا قسطا
ولا تسخط المقدور وارض بما جرى
عليك به إن الرضا يفضل السخطا

— ٦ —

محيى الدين بن عربى :

هو محمد بن على بن محمد الطائى بن عربى الصوفى ، من أهل إشبيلية ، وأصله من سبتة ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن عربى ، وبالحاتمى أيضا .

أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الأدب ، وكتب لبعض الولاة بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق حاجا ، فأدى الفريضة ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس ، وسمع الحديث من أبى القاسم الخرستانى وغيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبى الحسن ابن أبى نصر ، فى شوال سنة ست وستمائة ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبى طاهر السلفى ، ويقول بها ، وبرع فى علم التصوف ، وله فى ذلك تواليف كثيرة ، منها : « ملاك التأويل ، فى حقائق التنزيل » و « الجذوة المقتبسة ، والحظوة المختلسة » ، و « كتاب المعارف الإلهية » ، و « كتاب الإسرا ، إلى المقام الأسرى » ، و « كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم » ، و « كتاب عنقاء مغرب ، فى صفة ختم الأولياء

وشمس المغرب » ، وكتاب فى فضائل شيخه عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى ، والرسالة الملقبة « بمشاهد الأسرار القدسية ، ومطالع الأنوار الإلهية » ، فى كتب أخرى عديدة .

وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وبها ألف كتابه الموسوم ، بمواقع النجوم .

قال ابن الأبار : وقد لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين ، وأخذوا عنه ، وتوفى بعد الأربعين وستمائة .

— ٧ —

ابن القصير :

هو عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن القصير الأزدى ، من اهل غرناطة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن القصير ، من بيت شورى وجلالة ، روى عن أبيه القاضى أبى الحسن أحمد بن أحمد ، وعن عمه أبى مروان عبد الملك بن أحمد وعن أبوى الحسن بن درى وابن الباذش ، وأبى الوليد بن رشد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن رشيق الطليطلى ، نزيل وادى آش ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى الحسن بن موهب ، وأبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأبى الحسن يونس بن مغيث ، وأبى القاسم بن ورد وأبى بكر بن مسعود الخشنى ، وأبى القاسم بن بق ، وأبى الفضل عياض بن موسى وغيرهم . وكان فقيها مشاورا ، رفيع القدر ، جليلا بارع الأدب ، عارفا بالوثيقة ، نقادا لها ، صاحب رواية ودراية ، تقلب ببلاد الأندلس ، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها ، ورحل إلى مدينة فاس ، فأخذ الناس عنه بها ، ثم رحل إلى إفريقية ، وولى قضاء تقيوس ، ببلاد الجريد ، بمقربة من توزر ، ثم ركب البحر قاصداً الحج ، فتوفى شهيداً فى البحر ، قتلته الروم

بمرسى تونس ، مع جماعة من المسلمين ، صبح يوم الأحد ، فى العشر الوسط من شهر ربيع الآخر ، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وله تآليف وخطب ورسائل ومقامات ، وجمع مناقب من أدركه من أهل عصره ، واختصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصبهانى ، وغير ذلك ، وألف برنامجاً يضم رواياته .

— ٨ —

القاضى عياض :

قال فيه القاضى أبو عبد الله بن عياض[1] يصف والده القاضى عياضا (٤٧٦ — ٥٤٤ هـ حيث توفى بمراكش) :

نشأ أبى على عفة وصيانة ، مرضى الحال ، محمود الأقوال والأفعال ، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق ، طالباً للعلم ، حريصاً عليه ، مجتهداً فيه ، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم ، كثير المجالسة لهم ، والاختلاف إليهم ، إلى أن برع أهل زمانه ، وساد جملة أقرانه ، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى ، مع القراءة الحسنة ، والنغمة العذبة ، والصوت الجهير ، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه ؛ وكان من أئمة الحديث فى وقته ، أصوليا متكلما ، فقيها ، حافظا للمسائل ، عاقداً للشروط ، بصيراً بالأحكام ، نحويا ، حجة فى الأدب ، شاعراً مجيداً ، كاتباً بليغاً ، خطيباً حافظاً للغة والأخبار والتواريخ ، حسن المجلس ، نبيل النادرة حلو الدعابة ، صبوراً حليما ، جميل العشرة ، جواداً سمحاً ، كثير الصدقة ، دءوبا على العمل ، صلباً فى الحق ، وبلغ فى التفنن فى العلوم ما هو مشهور .

أخذ عن أشياخ بلده سبتة ، كالقاضى أبى عبد الله بن عيسى ، والخطيب

---

(١) ص ٧ وما بعدها ج ٣ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ط مصر ١٩٤٢ .

أبى القاسم ، والفقيه أبى إسحاق الفاسى ، وغيرهم . ثم رحل إلى الأندلس ، وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة بعدها ، فأخذ بها عن ابن عتاب ، وابن حمدين ، وابن الحاج ، وابن رشد ، وأبى الحسين بن سراج ، وأبى الحسن بن مغيث ، وأبى القاسم بن النحاس ، وأبى بحر الأسدى ، وأبى القاسم بن بقى ، وأبى الوليد هشام بن أحمد بن العواد ، وغيرهم من أعلام قرطبة . ثم خرج منها إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم ، سنة ثمان من التاريخ ، فوصل مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده .

ولقى فى رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس ، وأجازه أبو على الجيانى[1] وشريح وابن شبرين ، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس ، وأجازه أيضا أبو جعفر بن بشتغير ، وابن الأدقر ، وأبو زيد بن منتال ، وغيره من اعلام شرق الأندلس .

ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسمائة ، وأجلسه أهل بلده للمناظرة فى المدونة ، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما ، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى ، ثم ولى القضاء عام خمسة عشر وخمسمائة ، لثلاث بقين من صفر ، فسار فيها أحسن سيرة ، محمود الطريقة ، مشكور الحالة ، أقام جميع الحدود على ضروبها ، واختلاف أنواعها ، وبنى الزيادة الغربية فى جامع سبتة ، التى كمل بها جماله ، وبنى فى جبل المينا الرابطة المشهورة ، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة ، والمساعى المرضية ، فعظم جاهه ، وبعد صيته .

ثم نقل إلى غرناطة ، ووصل إليه الكتاب بذلك فى أول يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمسمائة ، فنهض إليها ، وتقلد خطة قضائها ، على المعتاد من شيمته السنية ، وأخلاقه المرضية ، مشكوراً عند جميع الناس ، لكن

---

(١) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى المعروف بالجيانى توفى سنة ٤٩٨هـ .

ابن تاشفين ضاق به ذرعه ، وغص بمراقبته ، وصد أصحابه عن الباطل ، وخدمته عن الظلم ، وصرفهم عن الأعمال ، فسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة ، فصرف بعد انفصاله عنها زائرا أهله ، وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله رحمه الله ، على الأحكام ؛ وذلك فى رمضان المعظم ، عام اثنين وثلاثين وخمسمائة .

ثم ولى قضاء سبتة ثانية ، فى آخر عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، فابتهج أهل بلده بذلك ، فسار فيهم السيرة التى عهدوا منه ، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين ، والاعتصام بحبلهم المتين ؛ فأقره أمير المؤمنين ، على ما كان عليه ، وصرف أمور بلده إليه ؛ وخاطبه بالتنويه ، وحظى عنده وشكر بداره وسبقه . ثم رحل إليه ، فاجتمع به بمدينة سلا ، عند توجهه إلى محاصرة مراكش ، فأوسع له ، وأجزل صلته ، ولقى منه براً تاماً ، وإكراماً عاما ، وانصرف على أحسن حال ، إلى أن ثارت الفتنة .

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطى ، المعروف بابن القصير ، رحمه الله : لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة ، خرج الناس للقائه ، وبرزوا تبريزاً مارأيت لأمير مؤمر مثله ، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا ، نيفاً على مئتى راكب ، ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة ، وخرجت مع أبى فى جملة من خرج ، فلقينا شخصا بادى السيادة منبئاً عن اكتساب المعالى والإفادة .

ولما استقر عندنا كان مثل التمرة : كلما لبكت زادت حلاوة ، ولفظه عذب فى كل ما صرف من الكلام ، للنفس إليه توق وله طلاوة ، وكان براً بلسانه ، جوادا ببنانه ، كثير التخشع فى صلاته ، مواصلا لصلاته ، وقد جمعنا من سيره جملا فى الكتاب الذى جمعنا فيه مناقب من أدركنا ، من

أعيان عصرنا ونبهائه ، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه ؛ وكان مع براعته فى علوم الشريعة خطيبا ، فى تحبيره للخطب وفى لفظه ، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفى لحظه ، سريع العبرة ، مديما للتفكر والعبرة ، كاتبا إذا نثر ، ناظما إذا شعر .

— ٩ —

أمير أديب :

كان من أمراء البيت الأموى فى الأندلس الأمير الأديب الشاعر ابو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الأموى (٣٥٢ — ٤٠٠ هـ) ، وكان يلقب « ابن معتز الأندلس » ، ويعرف بالطليق . كان أديباً شاعراً مكثرا ، وأكثر شعره نظمه وهو فى السجن ، قال أبو محمد بن حزم فيه : « هو فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس : ملاحة شعر ، وحسن تشبيه » .

وقد سجن الأمير وهو ابن ست عشرة سنة ، لأنه كان فيما ذكر يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها ، فاشتدت غيرة الشاعر لذلك ، فانتضى سيفا ، وانتهز فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتله ، فسجن فى أيام المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، ومكث فى السجن ستة عشر عاما ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فلقب « الطليق » ، وقد عاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة ، وتوفى نحو عام ٤٠٠ هـ ومن شعره قوله :

غصن يهتز فى دعص نقا ... يجتنى منه فؤادى حرقاً
أطلع الحسن لنا من وجهه ... قمراً ليس يرى ممتحقا
ورنا عن طرف ريم أحور ... لحظه سهم لقلبى فوقاً

ومن هذه القطعة :

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ... ويد الساقى المحيى مشرقاً

فإذا ما غربت فى فمـــه تركت فى الخد منه شفقا[1]

وعلى أبيات الأمير الأندلسى صبغة من الجمال الفنى ، والترف فى الأسلوب والصنعة ، وحب التشبيه ، وعذوبة اللفظ ، وسلامة التركيب ، وكثرة الصور الفنية فى شعره ، مما يشبه فى ذلك ابن المعتز إلى حد كبير ، ومما استوجب من غير شك أن يلقبه النقاد « ابن معتز الأندلس » ، ومن الطريف أنه أشبهه فى النشأة والتكوين الأدبى ، وفى الترف .

— ١٠ —

ولادة بنت المستكفى :

ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله . . وكانت واحدة زمانها ، المشار إليها فى أوانها ، حسنة المحاضرة ، مشكورة المذاكرة . وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف ؛ وفيها خلع ابن زيدون عذاره . . وكانت أديبة شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البلغاء ، وعمرت عمرا طويلا ، ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ٤٨٠ هـ ، وقيل سنة ٤٨٤ هـ . وكان أبوها المستكفى قد بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، وكان جاهلا ساقطا ، وقد خرجت ابنته « ولادة » على نهاية فى الأدب والظرف ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤه ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد

---

(١) راجع ترجمته فى ص ٤٤٧ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى ، وهو الجزء الثانى من المكتبة الأندلسية ، وتحمل ترجمته رقم ١٣٤٣ ؛ ونجد بعض هذه الترجمة فى هامش ص ٣/١٨٦ نفح الطيب للمقرى نشر فريد رفاعى بتحقيق أحمد يوسف نجاتى ، وراجع كتاب ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ص ٣٢٢ - للمؤلف .

الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها . . على أنها وجدت للقول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ، وهى فى المغرب كعلية فى المشرق ، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق ، وكان لها صنعة فى الغناء ، وكان مجلسها يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك .

وقد قال عنها ابن بشكوال فى الصلة : « كانت أديبة شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء ، عمرت طويلا ولم تتزوج قط ، وكان مجلسها منتدى لأهل المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وهى على سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، ولقد تناقل الناس نادرة بدرت منها ، دلت على بارع أدبها ، وحسن فهمها ، وبديع ظرفها فقد مرت بابن عبدوس ، وهو جالس بباب داره ، وأمامه بركة تتولد من كثرة الأمطار ، وربما استمدت مما هنالك من الأقذار ، فقالت تخاطبه :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما نهر

فلم يحر الوزير جوابا ، وحفظت هذه النادرة ، وشغل بها الناس حيناً ، والبيت لأبى نواس ، فى مدح الخصيب والى مصر ، فتمثلت به ولادة ، ونقلته هذا النقل الحسن ، من المدح إلى الهجاء ! وتركت ابن عبدوس لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا .

ولولادة مكانة عالية بين شعراء الأندلس وشاعراتها ، وهى ذات شخصية فذة ، جمعت بين عراقة النسب الأموى ، والذكاء العربى المفرط ، والجمال الساحر ، والصبا الأخاذ ، هذا إلى لباقة ، وظرف فى الحديث ، وسعة فى الاطلاع ، وحلاوة فى البيان ، كل هذا فى جو القصور البهيج ، وبين الجوارى والحواشى .

وتلقت ولادة بعلية المغرب ، نسبة لعلية بنت المهدى ، التى نبغت فى المشرق وعاشت خمسين عاما فى بغداد (١٦٠ — ٢١٠ هـ) .

وكانت أديبة بالفطرة ، وشاعرة مجلية بين أقرانها ولداتها ، وشعرها قوى السبك ، سهل الألفاظ ، سلس العبارات ، أقرب إلى شعر الرجال منه إلى شعر المرأة ، نظمته فى الحب والفخر والفكاهة والدعابة والاجتماع .

وما أروع ما تقول ولادة :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها
أمكن عاشقى من لثم ثغرى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وكان ابن زيدون من المعجبين بأدبها وجمالها ، والمتوددين لها ، وينسب إليها شعر نسب لابن زيدون ، وهو :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر ضياء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وفى هذه الأبيات وحدها من جمال السبك ، ورقة الشاعرية وحلاوة اللفظ المعبر عن مضطرم الشوق ولاعج العاطفة ، ما يكفى لجعل ولادة شاعرة متفوقة بين كبار شعراء عصرها . وتبرز شاعرية ولادة فياضة بمستعر الحب فى هذين البيتين الذين قالتهما لابن زيدون ، مبينة عظم الهوى الذى ملأ قلبها وسيطر على كيانها ، فانطلقت بصراحة جريئة تقول :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح ، وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

ومما يروى عن ذلك : أن عتبة غنت مرة - وهى جارية لولادة - فى حضرة ابن زيدون . فسألها الإعادة بغير أمر ولادة وكان قد بدا عليه الإعجاب الشديد . فاضطربت شاعرتنا عند ذلك وامتقع لونها ، وسرت فى كيانها نفحة نار أحرقتها ، ولم تستطع أن تخفى تجهمها وتأثرها ، فعاتبت جاريتها ولامتها ، ثم مالت إلى ابن زيدون تقول :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا لم تهو جاريتى ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما لكن ولعت لشقوة بالمشترى

ولابن زيدون فيها قصائد تذوب وجدا وحنيناً وهياما ، ومنها قصيدته المشهورة :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ويقول فيها مستديماً عهدها :

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

وكذلك بقيت ولادة على حبها له ووفائها ، فبعثت إليه تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل حب بما لقى ؟
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتق
وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا أبيت على حجر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت فى حال قطعة لقد عجل المقدور ما كنت أتقى

وقد عاشت ولادة بعد ذلك محرومة ، وبقيت على عهدها لم تتزوج مدى حياتها . ومما يؤسف له أن تكون أشعارها مفقودة ، مع ما فقد من مصادر التراث الأندلسى الذى أباده الاسبانيون بعد إجلاء العرب من الأندلس — وتوفيت ولادة بقرطبة عام ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م ، وكان والدها قد توفى عام ٤١٤ هـ ، وتولى الخلافة شهوراً قليلة فى العام نفسه .

اديبات من الأندلس

— ١ —

من الأديبات الأندلسيات حفصة الركونية ، قال ابن سعيد فى الطالع السعيد : كتبت حفصة إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور ؟ فإن قلبى إلى ما تشتهى أبدا يميل
فثغرى مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بى المقيل
فعجل بالجواب ، فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل !

وهى تشبه أبيات سلمى بنت القراطيسى من أهل بغداد وكانت مشهورة بالجمال :

عيون مها الصريم فداء عينى وأجياد الظباء فداء جيدى
أزين بالعقود ، وإن نحرى لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الأوصاب ثقلا وتشكو قامتى ثقل النهود

وبلغت أبياتها أمير المؤمنين المقتفى بالله ، فقال : اسألوا : هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها ، فقال: اسألوا عن عفافها ، فقالوا هى أعف الناس . فأرسل إليها مالا جزيلا ، وقال تستعين به على صيانة جمالها ورونق بهجتها .

وقال الحجارى فى المسهب : إن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، أهدى إلى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة ، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس ، وجاء بها إلى إشبيلية ، وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر فى ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزهراء ، على نهر إشبيلية وقعد على الراح ، فخطر بفكرها

أن غنت عند ما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسدبين ضلوعهم ... ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية ... أمضى إذا انتضيت من الأقدار
إن خوفوك لقيت كل كريهة ... أو أمنوك حللت دار قرار

فوقع فى قلبه أنها عرضت بساداتها ، فلم يملك غضبه ، ورمى بها فى النهر فهلكت .

— ٢ —

ومن شاعرات الأندلس ، أمة العزيز الشريفة الحسنية ، التى تقول :

لحاظكم تجرحنا فى الحشا ... ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح ، فاجعلوا ذا بذا ... فما الذى أوجب جرح الصدود؟

— ٣ —

ومنهن حفصة الركونية ، وكانت تجمع إلى نصاب الأدب ، نصاب الجمال والمال والنسب . وهى القائلة :

ثنائى على تلك الثنايا لأننى ... أقول على علم وانطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله إننى ... رشفت بها ريقا أرق من الخمر

وتولع بها السيد أبو سعيد ملك غرناطة ، ويغير بسببها على أبى جعفر ابن سعيد حتى قتله[1] .

— ٤ —

ومنهن اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده ، وتشتهر بالرميكية ، وهى التى أغرت المعتمد بابن عمار فقتله ، لما هجا ابن عمار المعتمد بقصيدة ذكر فيها الرميكية ، فقال :

(١) راجع أخبارها فى النفح ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها .

تخيرتها من بنات الهجان رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين : عما وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قرونا طوالا

ويقال إن ابن عباد حقد على ابن عمار قوله[٢] :

بما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وفهم أنه يعنيه ، فكان هذا إلى ما سبق سبب قتله ، بعد أن استوزره وأحسن إليه .

— ٥ —

ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر انه أراد الفصد ، فقعد بالبهو فى المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر ، فبينما هو إذ أطل زرزور ، فصعد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقا فيه محيا المسلمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرف الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسر به غاية السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم

---

(١) ينسب الأكثرون هذين البيتين إلى ابن رشيق القيروانى .

الزرزور ، فذكروا له أن السيدة أم ولده ولى عهده الحكم المنتصر بالله صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار .

— ٦ —

ومن شاعرات الأندلس أيضا غاية المنى ، وهى جارية أندلسية متأدبة قدمت إلى المعتصم بن صمادح ، فأراد اختبارها ، فقال لها . ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى ، فقال لها : أجيزى : اسألوا غاية المنى ، فقالت :

. . . . . من كسا جسمى الضنا
وأرانى مولهـــا سيقول الهوى : أنا

— ٧ —

ومنهن حمدة ، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادى آش ، وهى خنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس .

قال المقرى : خرجت حمدة مرة للوادى مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت ، قالت :

أباح الدمع أسرارى بواد له للحسن آثار بوادى
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة إنس سبت لبى ، وقد ملكت فؤادى
لها لحظ ترقده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحـــداد

ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبى عامر ، وبين يديه ولد له فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما ... تؤمله ، وطالعه السعود
تشوقت الجياد له ، وهز ال ... حسام هوى ، وأشرفت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته ... إلى العليا ضراغمة أسود
فسوف تراه بدرا فى سماء ... من العليا ، كواكبه الجنود
فأنتم - آل عامر - خير آل ... زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأى كشيخ ... وشيخكم لدى حرب وليد

— ٨ —

ومنهن نزهون الغرناطية ، قال فى المغرب : هى من أهل المائة الخامسة ، ذكرها الحجارى فى المسهب ، ووصفها بخفة الروح والانطباع الزائد ، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق ، وحسن رائق ، ولها مع الوزراء والشعراء مساجلات فكهة ، نروى منها لترويح النفس بعض دعاباتها مع أبى بكر المخزومى الشاعر الأعمى ، فمن ذلك أنه قال فيها :

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا
قواصد نزهون ، توارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته :

إن كان ما قلت حقا ... من بعض عهد كريم
فصار ذكرى ذميما ... يعزى إلى كل لوم
وصرت أقبح شىء ... فى صورة المخزومى[1]

---

(١) راجع ١/٨٩ نفح الطيب .

ودخل بعض الشعراء وهى تقرأ على المخزومى ، فقال يخاطبه :

لو كنت تبصر من تجالسه . فأفحم وأطال الفكر ، فما وجد شيئا ، فقالت تزهون :

لغدوت أحرس من خلاخله ... البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح فى غلائله

ولها :

لله در الليالى ، ما أحيسنها ... وما أحيسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت ... عين الرقيب ، فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر ... بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

خاتمة هذا الجزء

— ١ —

هذه فصول من قصة الأدب فى الأندلس ، وهى فصول مشرقة بالبلاغة والروعة ، وهى صفحة من الصفحات البيض التى كتبها العرب فى الأندلس .

— ٢ —

ولا ننسى ان نقول إن مصادر التاريخ العربى فى بلاد الأندلس والمغرب عديدة ، فقد نبغ فيها كثير من المؤرخين ودونوا معالم هذا التاريخ كاملا ، وإن كانت آثارهم كلها أوجلها تعد مفقودة ، ومن هؤلاء :

١ — أبو مروان بن حيان القرطبي المعروف بابن حزم المتوفى سنة ١٠٧٦م ، وكان رئيس الشرطة فى قرطبة وله كتاب : « المقتبس فى تاريخ الأندلس » فى عشر مجلدات . ثم كتاب المتين أوالمبين كما جاء فى كشف الظنون ، وهوفى تاريخ الاندلس أيضا فى ستين مجلداً . ولم يصل الينا من مؤلفيه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين ، ويتضح منها حسب رأى دوزى أن وصف الحوادث التاريخية ونقدها كان فى مؤلفى ابن حزم مستوفياً .

٢ — أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى الأندلسى المتوفى سنة ١٠٩٥ م ، أصله من قرطبة ، روى عن أبى محمد على بن حزم الظاهرى ، واكثر من الاخذ عنه وشهر بصحبته وحج إلى مكة سنه ١٠٥٦ م ، وطاف بافريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد . وله عدة مؤلفات منها تاريخ علماء الأندلس سماه «جذوة المقتبس» فى مجلد واحد ، يقول فى مقدمته : إنه كتبه من

حفظه ولذلك لا يعتمد عليه[1] .

٣ — لسان الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م كان وزيراً لابى الحجاج يوسف سلطان غرناطة ، وصنف له كتاب : « الاحاطة فى تاريخ غرناطة » الذى أخذ عنه المقرى .

٤ — أبو العباس أحمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١هـ — ١٦٣١ م أصله من الغرب ، واستوطن القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب ، اشتهر منهم ابن عذارى المراكشى فى الجيل الثالث عشر ، وله مصنف يسمى « البيان المغرب فى أخبار المغرب ».

واشتهر فى الجيل الرابع عشر أبو الحسن على بن ابى زرع صاحب كتاب « أنيس المطرب فى أخبار المغرب » و « روض القرطاس فى تاريخ مدينة فاس » . وسماه أيضاً « القرطاس الكبير » ألفه للسلطان أبى سعيد عثمان ابن المظفر ثامن سلطان من دولة بنى مرين ، وذكر به أخبار المغرب من أيام ادريس الأول سنة ٧٢٥ أيام السلطان أبى سعيد ، ويظهر أن التاريخ المسمى بكتاب القرطاس ليس إلا مختصرا من القرطاس الكبير بقلم ابن ابى زرع نفسه . ونذكر أخيراً تاريخ (عبد الواحد المراكشى) .

— ٣ —

ولعرب الأندلس مفاخر كثيرة فى شتى شئون الحياة ، فقد كان الذى اخترع المدفع هو أندلسى من العلماء العرب فى غرناطة ، فى عهد السلطان أبى الحسن الأحمر ، واسمه « إبراهيم الصانتو »

وهو رجل زاهد عابد فقيه أديب ، له مشاركة فى العلوم ، وتخصص فى الكيمياء ، وذو بصر نافذ ، وقريحة وقادة وخيال خصب ، وهو مجنون بحب

(١) وفيات الأعيان حـ ١ ص ٤٨٥ .

بلاده ، ناقم على الأوغاد الذين أخذوا يبيعونها للعدو وآثروا العاجلة على الآجلة ، فجاهر بنقده للسلطان على ما فرط فى شأنها وشأن عرشه ، وذلك بالرغم من أنه كانت له مكانة فى قلب السلطان لما اشتهر به من زهد وتقوى ، حتى لقد أطلق عليه لقب « الصانتو » أى الولى أو القديس .

قرأ الصانتو فى كتب التاريخ والأدب والرحلات أن المصريين استعملوا النار اليونانية فى حربهم مع لويس التاسع أمام دمياط وتغلبوا عليه بها ، فجعل ينقب ويبحث ويقدح زناد الفكر إلى أن توصل إلى لون من النار يمكن استعماله فى الحرب مع فرديناند . وقرأ فى كتاب « حسن الرماح » عن البارود أنه « بيضة تخرج وتحرق » فجعل غايته أن يعثر على المواد التى يركب منها البارود وأن يصنع منها الألغام والقنابل ، فلما توصل إلى ذلك جعل هدفه أن يصنع المدفع الذى يطلق القنابل على العدو . فعل ذلك كله فى الجبل تحت ستار من التكتم ، إذ كان يعلم أن البلاد موبوءة بجواسيس العدو ، وأن الحكومة ذاتها ملوثة بفعل التجسس ، فهو يخشى أن يؤول اختراعه إلى العدو فتنقلب الآية ويستخدمه العدو ضد بلاده . فلما انتهى من وضع اختراعه وتجاريبه ، صنع له رسوما منفصلة وجاء إلى العاصمة يقصد أن يضعه بين يدى السلطان بالذات فلا يأتمن عليه أحدا سواه ، وكان يعلم أنه يكفيه أن يذكر اسمه فتفتح أبواب السلطان فى وجهه . فلما جاء العاصمة علم أن السلطان لا يقابل أحدا لكثرة مشاغله ، فرأى أن يستعين بالحريم ، وكان يمقت السلطانة عائشة ومن ينتمون إليها لعلمه بأن حزبها على صلة بايزابيللا وفرديناند ، ولم يجد بدا من أن يلجأ إلى السلطانة ثريا فلجأ إليها ، فأوصت أهل القصر بأن يوصلوه إلى باب السلطان ويساعدوه على ولوجه . وما أكثر ما صرف فى ذلك من جهود ووقت ومال وصحة حتى أصيب بالشلل ولم يظفر بأكثر من الجلوس قريبا من باب السلطان فى انتظار الإذن له طويلا ، وقد اتهمه الخونة الاسبان فى غرناطة بأنه يريد قتل الملك ، وحوكم وفتش منزله وأخذت

أوراق اختراعه فسلمت إلى سفير فرديناند وإيزابيلا فى غرناطة ، وفوجىء العرب فى « ايلورة » بأصوات كالرعد القاصف ، وإذا هى القنابل يطلقها عليهم فرديناند فتدك القلعة ، وتهدمها على رؤوس من فيها ، وكذلك حدث فى « مالقة » ، واستطاع هذا المدفع أن ينهى فى بضعة أشهر ملكا استمر ثمانمائة عام .

— ٤ —

وكان أول من أنشأ الحدائق العامة لراحة الشعب هم العرب وخاصة أهل قرطبة ، الذين أنشأوا الحدائق العامة ، وجعلوا فيها المقاعد المظللة وغير المظللة ، وجعلوا فى داخل المقاعد المظللة رفوفا للكتب توضع عليها ، وكان يوجد فى كل حديقة مكتبة عامة يستعير منها القارىء كتبا ، ويضعها عند الفراغ منها أو عند الاستراحة على تلك الرفوف ، وكان الكتاب يساوى مبلغاً عظيما ربما بلغ الألوف ، وإنما هو نه على المكتبة وعلى مستعير الكتاب الأمانة التى كانت متغلغلة بين الناس ، ورقابة أحكام الشريعة النافذ أمرها ، يقول المستر « ب . ج ترند » فى الجزء الأول من كتابه « تراث الإسلام » : « كان يستعمل فى الحدائق العامة القاشانى بالنماذج الهندسية والرسوم الملونة ، كمقاعد ورفوف للكتب فى قرطبة .

وأول من استعمل البارود هم العرب عام ١٧٩ هـ — ٩٠٦ م ، وهم الذين نقلوه إلى الأندلس ، وعنهم أخذته أوربا .

وأول من صنع الدبابة هو موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما فتح الأندلس ، ولما أراد فتح مدينة ماردة ، وكانت محصنة ، وأهلها ذوو بأس شديد ، اخترع موسى لهم دبابة ، دب فيها المسلمون تحتها إلى برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونه .

وقد سبق عرب الأندلس المصريين إلى الطباعة بزمن يسير ، فكانت

السجلات تطبع فى دار وزير الناصر أمير المؤمنين ، وأشاد بذلك كوندى الاسبانى ، وقال : وهم سبقوا جوتنبرج إلى الطباعة ببضعة قرون .

— ٥ —

وهؤلاء العرب من أهل الأندلس هم سلالة عرب المشرق الذين أثلوا الملك ، وشادوا الحضارة ، وأقاموا الجامعات ، ونشروا الثقافة ، ورفعوا من شأن الفكر الإنسانى ، وهم الذين اخترعوا كل جلائل المخترعات ودقائقها ، ووصلوا حتى إلى أقل الكشوف ، من مثل « قلم الحبر » فقد ذكر القاضى النعمانى فى « الخصائص والمسامرات » قال : « حدثنا الإمام المعز عن اختراع هذا القلم[1] ، وقد وصف صنعه ، ثم مرت بضعة أيام ، حتى جاء الصانع يحمل قلما من ذهب ، فأودعه المداد وكتب به ، وزاد شىء من المداد عن مقدار الحاجة ، فأمر بإصلاحه ، فإذا هو قلم يقلب باليد ، ويميل إلى كل ناحية ، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد ، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أنى أرى مثلها .

— ٦ —

ونحن نتابع نشر سلسلة هـــذا الكتاب « قصة الأدب فى الأندلس » لنكشف عن صفحة مجيدة من أروع صفحات الجهاد فى سبيل الحضارة والإنسانية ، سجلها عرب الأندلس فى شتى فروع الحياة بحروف من نور ؟

المؤلف

---

(١) يريد قلم الحبر الذى يكتب من حبر مخزون فى جوفه .

فهرس

ص	الموضوع
٣	تعريف بالكتاب الأندلسيين
٣	أحمد بن شهيد
٧	ابن زيدون ونثره الفنى
٢١	عبد الملك بن أبى الخصال
٢٢	لسان الدين بن الخطيب
٤٢	الخطابة الأندلسية
٤٢	صور من الخطابة
٥٦	خصائص الخطابة الأندلسية
٦٣	تراجم لبعض الأعلام الأندلسية
٦٣	أحمد بن عبد ربه
٧١	التجيبى القرطبى
٧٢	أبو بكر بن العربى
٧٥	البطليوسى
٨٦	ابن الأبار
٩٥	محيى الدين بن عربى
٩٦	ابن القصير

ص	الموضوع
٩٧	القاضي عياض
١٠٠	أمير أديب
١٠١	ولادة بنت المستكفي
١٠٥	أديبات من الأندلس
١١١	خاتمة هذا الجزء
١١٦	فهرست

ظهر قريباً للمؤلف ...

قصة الأدب فى مصر

٦ أجزاء - ٢٢٠٠ صفحة

فصول فى الدين والأدب

نداء الحياة

فصول فى الأدب - بالإشتراك مع الأستاذ عبد الغنى اسماعيل

هذا الكتاب

قصة الأدب فى الأندلس

٥ أجزاء — ١٢٠٠ صفحة

دائرة معارف واسعة فى تاريخ العرب فى الأندلس ، وفى قصة الحضارة العربية والحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية فيها ، فى قصة الأدب العربى كامله : بألوانه وخصائصه وأعلامه ، وفى الكتاب عشرة آلاف ترجمة موجزة ، ونحو مائتى دراسة تحليلية واسعة لأشهر الأدباء والكتاب والشعراء ؟

تأليف محمد عبد المنعم خفاجى

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الغفران

تصنيف ٠٠٠ — ٠٠٠ هـ

قصة رائعة ، رسالة الغفران تعتبر من أعظم ما كتب في الأدب العربي ، وهي قصة خيالية تتضمن رحلة خيالية قام بها الشاعر المعري إلى الجنة والنار ، وقد أراد بهذه القصة أن يرد على رسالة كتبها إليه ابن القارح ، وهو شاعر من أهل حلب ، وقد كان ابن القارح يسأل المعري عن أشياء كثيرة ، فأجابه المعري في هذه الرسالة بأسلوب ساخر ، وقد استغرقت كتابتها تسعة أشهر ، وهي تقع في نحو مائة صفحة من القطع الصغير .

محمد عبد المنعم خفاجي

قصة الأدب في الأندلس

١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة الأدب فى الأندلس — الجزء الرابع

مطبعة العهد الجديد
لصاحبها : كامل مصباح

صور من الشعر الأندلسى

١ – قال ابن زيدون متغزلا فى ولادة بنت المستكفى :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا (١)

وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنما رق لى فاعتل إشفاقا (٢)
والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا (٣)
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها – حين نام الدهر – سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حين مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابته
فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سرى يناغمه نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لا أسكن الله قلبا عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الريح حين هفا ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقا

---

(١) طلق الوجه : ضاحكه مشرقه ، واليوم الطلق الوجه : هو الذى ليس بحار ولا بارد .

(٢) اعتل النسيم : هدأ ولم يشتد ، والأصائل : جمع أصيل وهو الوقت قرب الغروب .

(٣) اللبة : موضع القلادة من العنق .

كان التجازى بمحض الود من زمن
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
فالان أحمد ماكنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

٢ — وقال أبو زيد عبد الرحمن بن مقاتاة الأشبونى يمدح إدريس بن يحيى أمير غرناطة بعد سنة ٤٣٤ هـ وكان إدريس من ملوك الطوائف :

ألبرق لائح من اندرين ذرفت عيناك بالدمع المعين ؟
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبى زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتنى بسقام وضنى إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين
واسقنيها مزة مشمولة لبثت فى دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب يتهادين رياحين المجون
شربوا الراح على خد رشا نور الورد به والياسمين
وجلت آياته عامدة سبج الشعر على عاج الجبين
يتساقون إذا ما شربوا بأباريق وكأس من معين
وكأن الشمس لما أشرقت فاثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علـ ـى بن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو شيبة لكنه خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه ادخلوها بسلام آمنين
فاذا ما رفعت راياته خفقت بين جناحى جبرائين
وإذا أشكل خطب معضل صدع الشك بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين وبيمناه لواء السابقين
يابنى أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المعتفين

نزل الوحى عليه فاختبى ... فى الدجى فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى ... وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين

٣ — وقال الداخل من أبيات بعث بها إلى أخته بالشام :

أيها الراكب الميمم أرضى ... اقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى وساكنيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى !

٤ — وقال عبد الرحمن الداخل يخاطب نخلة :

يانخل ! أنت فريدة مثلى ... فى الأرض ، نائية عن الأهل
تبكى ، وهل تبكى مكممة ... عجماء ، لم تجبل على جبلى !
ولو انها عقلت ، إذن لبكت ... ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت ، وأخرجنى ... بغضى بنى العباس عن أهلى

٥ — وقال كذلك :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: « شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى »
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى ... يسح ويستمرى السماكين بالوبل

٦ — وقال الداخل أيضا :

لا يلف ممتن علينا ، قائل : ... لولاى ما ملك الأنام الداخل
سعدى، وحزمى ، والمهند، والقنا ... ومقادر بلغت ، وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل ؟

ويقول قوم : « سعده لا عقله » خير السعادة ما حماه العاقل !
أبنى أمية : قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما ، والسعود قبائل
ما دام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

٧ — وقال أيضا :

شتان من قام ذا امتعاض منتضى الشفرتين نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً مسامياً لجة ومحلا
دبر منكا ، وشاد عزا ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أخلى
ثم دعا أهله إليه حيث انتأوا : أن هلم أهلا !
فجاء هذا طريد جوع شديد روع ، يخاف قتلا
فنال أمنا ، ونال شبعاً ونال مالا ، ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومولى

٨ — وكان عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨هـ) ، كثير الولد أعقب مائة وخمسين من الذكور وخمسين من الأناث ، فقيهاً فيلسوفا شاعراً ، كتب مرة إلى طروب وهو فى جليقية يغزو :

عدانى عنك مزار العدا وقودى إليهم سهاما مصيبا
فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى فأحييته وأمت الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفل ملأت الحزون به والسهوبا

٩ — وقال عبد الله بن محمد الحاكم الأموى (٢٧٥ — ٣٠٠) :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك

تذهب بالسر فتأتى به ... فى مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت إبرازها ... تبارك الرحمن ما أطوعك

١٠ — وقال فى صباه :

ويحى على شادن كحيل ... فى مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد ... خالطه النور والبهار
قضيب بان إذا تثنى ... يدير طرفا به احورار
فصفو ودى عليه وقف ... ما اطرد الليل والنهار

١١ — قال :

يا من يراوعه الأجل ... حتام يلهيك الأمل !
حتام لا تخشى الردى ... وكأنه بك قد نزل !
أغفلت عن طلب النجا ... ة ولا نجاة لمن غفل !
هيهات تشغلك المنى ... عمن ليومك يشتغل

١٢ — وقال :

أرى الدنيا تصير إلى فناء ... وما فيها لشىء من بقاء
فبادر بالإنابة غير وان ... على شىء يصير إلى عفاء
كأنك قد حملت على سرير ... وغيب حسن وجهك فى الهباء
فنافس فى التقى واجنح إليه ... لعلك ترضين رب السماء

١٣ — ويقول صاحب نفح الطيب : « لما استوزر باديس ، صاحب غرناطة اليهودى الشهير بابن نغذلة ، وأعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد ألبيرة وغرناطة : أبو إسحق الألبيرى ، قصيدته النونية المشهورة التى منها فى إغراء صنهاجة باليهود . . . . . الخ . »

« وهى قصيدة طويلة ، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا الوزير المذكور ، فأراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيخ ، الذى نور الحق على كلامه باد ، وهذا بعض من القصيدة :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مقة مشفق ... يعد النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيدكم زلة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به ، وانتخوا ... وتاهوا .وكانوا من الأرذلين

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب ... لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ... ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالأولى ... من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون ... وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ... ولم يستطيلوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان :

أباديس(١) أنت امرؤ حاذق ... تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفى عنك ما يعبثون ... وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك إلى العالمين
وكيف بتم لك المرتقى ... إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين

ومنها :

وإنى حللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين

---

(١) وباديس هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة .

قال ابن خلدون : « ولى (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه ، واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغذلة الذمى ، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين واربعمائة ، وقتل معه خلقاً من اليهود ، وتوفى باديس سنة سبع وستين وأربعمائة .

ومنها :

وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أميناً خؤون ؟
ويأكل غيرهم درهما فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهضوكم إلى ربكم فما يمنعون وما ينكرون ؟

ومنها :

ورخم قردهم داره وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون

١٤ — وقال ابن هانئ الأندلسى من قصيدة يمدح بها القائد جوهراً ، ويصف الجيش الذى غزا به مصر ، ويودعه عند خروجه من القيروان :

رأيت بعينى فوق ماكنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع (١)
غداة كأن الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع (٢)

---

(١) راعنى : هالنى وأدهشنى . يوم الحشر : يوم القيامة . أروع : أكثر هولا ودهشة وفزعا .

المعنى : كنت أسمع عن عظمة جيش المعز لدين الله الذى يقوده القائد جوهر وقوته ، ولقد رأيته اليوم بعينى رأسى فعجبت لقوته وعظمته ، وخيل إلى لكثرة عدده وازدحام الخلق فيه أن اليوم الذى رأيته مجتمعاً فيه أشد هولا وفزعاً من يوم القيامة ، وكان ماسمعته عنه أقل مما رأيته عليه .

(٢) الغداة والغدوة : أول النهار المبكر .

المعنى : رأيت الجيش فى الصباح المبكر وقد أحدث بسيره طبقة من الغبار فى الجو أخفت الجو الطبعى ، وحجبت الشمس عن الناس فخيل إلينا أن الشمس غربت من مكان طلوعها :

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع (١)

وكيف أخوض الجيش والجيش لجة

وإنى بمن قاد الجيوش لمولع (٢)

وأين ؟ ومالى بين ذا الجمع مسلك ولا لجوادى فى البسيطة موضع (٣)

ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع (٤)

نصيحته للملك سدت مذاهبى فما بين قيد الرمح والرمح إصبع (٥)

فقد ضرعت حتى الرواسى لما رأت

فكيف قلوب الإنس والإنس أضرع (٦)

---

(١) المعنى : قد حير عقلى هول الموقف وروعة المنظر ، فلم أدر كيف أسلم ولا كيف أشيع من أردت تشييعهم وتوديعهم .

(٢ ، ٣) المعنى : وكيف أصل إلى من أريد توديعه فى وسط هذا الجيش العظيم وكيف اجتاز تلك الكتل البشرية إلى القائد العظيم لأودعه ؟ وأين أذهب ولا طريق لى فى هذا الجمع الحافل ، ولا يستطيع جوادى أن يشق طريقه فى هذا الزحام الهائل .

(٤) الغرار : القليل . الكرى : النوم . يهجع : ينام .

المعنى : ولقد جمع هذا الجيش العظيم شخص لم يذق طعم الراحة ، لأن هذا الاستعداد الهائل يتطلب مجهوداً مضنياً وعملا متواصلا ، وهذا ما فعله جوهر .

(٥) مذاهبى : طرقى . القيد : القدر . وقيد الرمح والرمح : أى بين الرمحين .

المعنى : المقصود بالنصيحة هنا المشورة بغزو مصر وإخلاصه لدولة المعز ، فمشورة جوهر على المعز وإخلاصه لدولة المعز كانا سبباً فى حشد هذا الجيش الكبير الذى سد على طرقى فى السير ، فلا يستطيع المرء أن يشق لنفسه طريقاً وسط هذا الجمع الذى بلغ من شدة زحامه أن المسافة التى بين الرمحين لا تتسع لأكثر من إصبع ، وهذا كناية عن شدة الزحام .

(٦) ضرع : خضع وذل واستكان . الرواسى : الجبال الراسيات .

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر تخب المطايا فيه عشرا وتوضع (١)
تسير الجبال الجامدات لسيره وتسجد من أدنى الحفيف وتركع (٢)
إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار فى أرض ثوت وهى بلقع (٣)

١٥ — وقال ابن هانى الأندلسى فى الرثاء :

إنا ، وفى آمال أنفسنا طول وفى أعمارنا قصر (٤)
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر (٥)

= المعنى : ليس لدينا من مظاهر ذلة الجبال وخضوعها لهذا الجيش العظيم إلا انهيارها وعدم ثباتها أمام قوته . فكأن الشاعر يقول : إن الجبال الرواسى لا تقوى على الثبات أمام هذه القوة الكبيرة فكيف بالإنس وهم أقل احتمالا من الجبال ؟ وكأنه أيضاً يقول : لقد فزعت الجبال مما رأت من قوة الجيش ، ومن الطبعى أن فزع الإنسان الذى له قلب وعاطفة يكون أعظم من فزع الجماد الذى لا عاطفة له . وفى هذا كله مبالغة فى قوة جيش جوهر .

(١) الخبب : ضرب من العدو . والإيضاع : الاسراع فى السير .

المعنى : لقد بلغ من كبر المسافة التى يشغلها الجيش على الأرض أن الدواب تقطع هذه المسافة وهى مسرعة فى عشر ليال ، وفى هذا مبالغة فى تقدير الكثرة .

(٢) الحفيف : الصوت . وأدنى الحفيف : أقل الصوت .

المعنى : أن الجبال تسير لسيره وتسجد وترجع لأقل صوت منه ، وأقل صوت وأقل حركة من الجيش تكون كبيرة لكثرة عدد الجيش وضخامته ، وفى هذا كناية عن عظمة الجيش وشدبد هيبته .

(٣) ثوت . أقامت . البلقع : الأرض التى لا شىء بها . المعنى : لا يزال الشاعر يعطينا صورة عن كثره عدد المحاربين وضخامة الجيش ، فهو يقول إن الجيش إذا قام فى جهة احتاج إلى مساكن كثيرة ، وثكنات للأجناد ، فبنى مدائن تؤوى هذا الجيش الضخم ، وإذا لم يحل فى جهة بل سار عنها ولم يقم فيها تركها قفرا لا أثر فيها للعمران ولا للنبات .

(٤) ، (٥) المصارع : جمع مصرع وهو الهلاك . الألباب : جمع لب ، وهو =

وليس بأعلى شاهق وهو كوكب ... وليس من الصفاح وهو صلود (١)
من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وربود (٢)
من الطير إلا أنهن جوارح ... فليس لها إلا النفوس مصيد (٣)
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود (٤)
إذا زفرت غيظا ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود (٥)
فأفواههن الحاميات صواعق ... وأنفاسهن الزافرات حديد (٦)

---

(١) اللغة : الصفاح : كرمان : الحجارة العراض ، والصلود : الصلب .

(٢) اللغة : الراسيات : الجبال ، والشم : العالية ، وقنان : جمع قنة وهى العالية ، وشمخ : عالية ، وربود : جمع ربد وهو الحرف البارز فى الجبل .

يقول : وما أشبهها فى ضخامتها بالجبال الراسيات لولا تنقلها وحركاتها .

(٣) اللغة : من الطير : مما كاد يطير ، وجوارح : جمع جارحة وهى ذات الصيد من السباع والطير ، والمراد تجرح خصومنا ، ومصيد : صيد . يقول : وما أشبهها فى سرعتها بالطيور لولا انها تفترس أعداءنا ولا تصطاد إلا نفوسهم .

(٤) اللغة : تضرم : تسعى ، للصلى : لتشوى خصومنا .

المعنى : سفن هذا الأسطول من السفن الجبارة التى توجج نيرانها لتأديب الأعداء وإحراقهم إذا مادعا الأمر ، التى لايجرؤ أحد أن يخمدها إذا حمى الوطيس

(٥-٦) اللغة : زفرت : أخرجت زفيرها أى نفسها والمراد به بخارها الحبيس ، والمارج : النار بلا دخان ، وصواعق : جمع صاعقة وهى الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب ، ونار تسقط من السماء وصعقتهم السماء : أصابتهم بالصاعقة .

يقول : وإذا ما أرسلت بدخانها وقذائفها إلى السماء خلت أنها ترسلها لشدة غيظها أو أنها قطع من جهنم تسعرت نيرانها وكأن قذائفها صواعق تريد أن تنقض عليهم .

يشب لآل الجائليق سعيرها وما هى من آل الطريد بعيد (١)

لها شعل فوق الغمار كأنها دماء تلقتها ملاحف سود (٢)

تعانق موج البحر حتى كأنه سليط لها فيه الذبال عتيد (٣)

ترى الماء فيها وهو قان عبابه كما باشرت ردع الخلوق جلود (٤)

فليس لها إلا الرياح أعنة وليس لها إلا الحباب كديد (٥)

---

(١) اللغة : يشب : يوقد ويسعر ، والجائليق : كلمة أعجمية والمراد به الرئيس الدينى للمسيحيين فى بغداد ، وهو أكبر من المطران ، والطريد : المطارد الهارب ولا يراد به شخص بعينه بل كل خصم للفاطميين يستحق أن يطارد .

يقول : وما كان اشتعالها إلا لأعداء الدين كالجائليق وشيعته وسائر الهاربين منا بعد أن آمنوا بقوتنا .

(٢) اللغة : الغمار بضم الغين وفتحها : الزحمة والمراد به هنا البحر . يقول : وما أرهب كراتها النارية ، التى إذا ما سقطت فوق لجة الماء ، كأنها الدماء حمرة استقبلتها ملاحف سود .

(٣) اللغة : السليط : الزيت ، والذبال : جمع ذبالة وهى الفتيل يتدلى طرف منه فى الزيت ويشعل الآخر ، وهذا كان من مصابيح القدماء قبل إشعال زيت البترول وقبل الكهرباء . وعتيد : حاضر مهيأ معد لهذا الغرض . يقول : ألا تظن وهى تعانق موج البحر الأبيض أن الموج زيت وأن هذه القذائف المتتابعة لسرعة البرق هى فتائل المصابيح المشتعلة .

(٤) اللغة : قان : أحمر شديد الحمرة والعباب : الموج ، والردع : الزعفران . والخلوق : نوع من الطيب . يقول : وإن لون مائه وقد امتزج بدماء الصرعى من خصومنا أشبه بلون الزعفران .

(٥) اللغة : الحباب بفتح الحاء : الموج ، والكديد : الأرض الصلبة الوعرة ، يقول : ومن عجب أن لا أعنة لها سوى الرياح ، وليس لها سوى الموج تسلكه إلى غاياتها .

وغير المذاكى نجرها غير أنها مسومة تحت الفوارس قود (١)

ترى كل قوداء التليل إذا انثنت سوالف غيد بالمها وقدود (٢)

رحيبة مد الباع وهى نضيحة بغير شوى ، عذراء وهى ولود (٣)

تكبرن عن نقع يثار كأنها موال ، وجرد الصافنات عبيد (٤)

لها من شفوف العبقرى ملامس مفوفة منها النضار جسيد (٥)

---

(١) اللغة : المذاكى : الخيل ، والنجر كالنجار : الأصل ، والقود : جمع أقود وهو الذلول المنقاد ، أى تنسب لغير الخيل مع أن ركابها فرسان ، ومسومة : معلمة يقول : إنها ليست خيلا ، ولكنها مسومة ذلول منقادة للفوارس وإن كانت غير خيل .

(٢) اللغة : قوداء التليل : طويلة العنق ، والسوالف : جمع سالفة وهى ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط ومن الفرس هاديته أى ماتقدم من عنقه . يقول : إذا انثنت شعور سوالف الغيد الحسان الشبيهات بالمها على أعناقهن . أو تمايلت قدودهن كانت السفينة من هذه السفن تشبهها بانثناء عنقها على صدرها وكانوا يجعلون فى مقدم السفينة صورة رأس ثور أو كبش أو نعامة .

(٣) اللغة : الباع ، يراد بها هنا : المجاديف فهى تمد باعها ، والشوى : الأطراف ، وقوله وهى ولود أى أنه يتبعها أو يكون لها زوارق صغار . يقول : وأن مجاديفها عريضة طويلة ليس لها أرجل تسير عليها أو أيد تبطش بها ، وأنها لم يفترعها عدو فهى لا تزال عذراء وزوارقها التى أعدت للنجاة تحملها فوقها كما تحمل الأم أولادها .

(٤) اللغة : النقع : الغبار ، وموال : سادة وموال : عبيد والصافنات : الخيل يقول : وأنها تأنف أن يكون البر وما فيه من غبار موضعا لنشاطها ، اكتفاء بالخيول الأصيلة الفتية القوية ، فالعلاقة بين سفن الأسطول وخيولها فى البر أشبه بالعلاقة بين السادة وعبيدهم

(٥) اللغة : الشفوف : الأصل فيها الثياب الشفافة الرفيعة التى تكاد تشف عما تحتها ، والمراد بها النقوش الجميلة الألوان التى زينت بها سفن الأسطول=

كما اشتملت فوق الأرائك خرد أو التفعت فوق المنابر صيد (١)
ليوث تكنف الموج وهو غطامط وتدرأ بأس اليم وهو شديد (٢)
فمنه دروع فوقها وجواشن ومنه خفاتين لها وبرود (٣)
ألا فى سبيل الله تبذل كنه ما تضن به الأنواء وهى جمود (٤)
فلا غرو إن أعززت دين محمد فانت له دون المليك عقيد (٥)

=والعبقرى : نسبة إلى عبقر وهى أرض تسكنه الجن ، والمراد هنا الفنان الذى نقش هذه النقوش ، والجسيد : الملتصق ، والنضار : الذهب . يقول : ومما يمتلك القلوب روعة نقوشها البديعة على جوانبها فهى تحاكى مارق من الثياب المزدانة بتصاويرها وألوانها المتنوعة المنسجمة .

(١) اللغة : الخرد : جمع خريدة وهى البكر لم تمس أو الخفرة المتسترة الخافضة الصوت ، وصوت خريد : لين عليه أثر الحياء ، والصيد : جمع أصيد وهو الأسد والملك . يقول : إنها تشتمل بهذه النقوش كما تشتمل الجوارى الخرد بالثياب ، وهن جالسات على الأرائك أو كما يلتفع الخطباء الصيد وهم فوق المنابر .

(٢) اللغة : ليوث : جمع ليث وهو الأسد ، وغطامط : عظيم هائج ، وبأس اليم : شدته .

يقول : إن هذه السفن جنودا بواسل وكماة كواسر قد اتخذوا الأهبة يدرأون عن السفينة الأمواج الطامية الهائجة والأثباج المتلاطمة ويدفعون كل خطر يدنو شبحه من سفنهم .

(٣) اللغة : الدروع : جمع درع وهو مايتدرع به الإنسان ويتوقى ، والجواشن : جمع جوشن وهو الدرع والصدر ، والخفاتين : جمع خفتان وهو نوع من الثياب والبرود : جمع برد وهو ثوب مخطط ، وأكسية يلتحف بها . يقول : إن اليم ترتفع أمواجه الزاخرة فوق السفن كالدروع وتلتف بها كأنما هى خفاتين وبرود مخططة وأكسية التحفت بها ، فلم تقتصر على دروعها الحديدية ، بل تنوعت دروعها .

(٤-٥) اللغة : كنه الشىء : جوهره وغايته وقدره ووجهه ، وكنهه إذا بلغ كنهه=

١٦ — ويقول الحكم بن عبد الرحمن أمير الأندلس (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) :

لأمت صدوع الأرض بالسيف رافعا
وقدما لأمت الشعب منذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها الآن ثغرة
أبادرها مستنضى العزم دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجما
كأقحاف شريان الحبيد لوامعا
تنبئك أنى لم أكن عن قراعهم بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنى إذا حادوا جزاعا عن الردى
فلم أك ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذمارى وانتهكت ذمارهم
ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا سقيتهمو سما من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم
فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى إننى قد جعلتها مهادا ولم أترك عليها منازعا

١٧ — وقال ابن برد الأصغر من شعراء الأندلس يصف السحب والبرق(١):

وما زلت أحسب فيه السحاب ونار بوارقها تلتهب

= والأنواء : جمع نوء وهو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوماً ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، ولا غرو : لا عجب ، وعقيد : معاقد من العقد بمعنى العهد والميثاق .

(١) هو كاتب بليغ ، وشاعر ممتاز ، توفى فى النصف الأخير من القرن الخامس الهجرى .

بخاتى توضع فى سيرها وقد قرعت بسياط الذهب

١٨ — وقال أحمد بن عبد ربه الأندلسى(١) يصف حماما :

ونائح فى غصون الدوح أرقنى وما عنيت بشىء ظل يعنيه
مطوق بعقود ما تزايله حتى تزايله إحدى تراقيه (٢)
قد بات يبكى بشجو ما دريت به وبت أبكى بشجو ليس يدريه

١٩ — وقال فى المدح :

كريم على العلات جزل عطاؤه منيل وان لم يعتمد لنوال
وما الجود من يعطى إذا ما سألته ولكن من يعطى بغير سؤال

٢٠ — وقال يصف سيفا :

وذى شطب تقضى المنايا بحكمه وليس لما تقضى المنية دافع (٣)
فرند إذا ما اعتن للعين راكد وبرق إذا ما اهتز بالكف لامع (٤)
يسلل أرواح الكماة انسلاله ويرتاع منه الموت والموت رائع
إذا ما التقت أمثاله فى وقيعة هنالك ظن النفس بالنفس واقع (٥)

٢١ — وقال أيضا :

بكل مأثور على متنه مثل مدب النمل فى القاع (٦)
يرتد طرف العين عن حده عن كوكب للموت لماع

---

(١) هو الأديب الكاتب الشاعر الوشاح المؤلف أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد الذى يعد من أركان الأدب العربى توفى سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) يريد بالعقود مايرى من الألوان فى عنقه .

(٣) الشطب : الحزوز فى جانبى السيف طولا .

(٤) اعتن : ظهر وبدا .

(٥) أى ماتظنه النفس من الهلاك واقع لا محالة .

(٦) أى يلوح ويتوارى لمن ينظر إليه أمثال مداب النمل من انعكاس الضوء وانكساره على صفحته . وذلك يبين فى السلاح المجلو من الفولاذ الذكر .

٢٢ — وقال ابن زيدون فى ولادة(١) :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ، ولا جفت مآقينا (٢)
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا (٣)
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا (٤)
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية ... قطوفها ، فجنينا منه ماشينا (٥)
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا (٦)
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد ... بنا ، ولا أن تسروا كاشحا فينا (٧)
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص ، فقال الدهر : آمينا !
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولا بأيدينا

---

(١) مرت ترجمته عند الكلام على نثره .

(٢) الجوانح . جمع جانحة : وهى الضلع ، والمراد بالجوانح : ماتجنه من القلب والحشا الملتهب بالحب وقوله : ولا جفت مآقينا ، أى ماجفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم .

(٣) التأسى : التصبر .

(٤) حالت : استحالت من بيض إلى سود .

(٥) هصرنا : أملنا إلى ناحيتنا .

(٦) الانتزاح : الافتراق .

(٧) أقر الله عينه بالسلامة : ضد أسخنها بالوجع ، والمراد أن تسروا الحاسد . والكاشح : المضمر العداوة . والواشى : المبغض .

وقد نكون ، وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن ، وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ، ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلا عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا
يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً جلاه الصبا غضا ونسرينا (١)
ويا حيـــاة تملينا بزهرتها منى ضروبا ولذات أفانينا (٢)
ويا نعيما خطرنا من غضارته فى وشى نعمى سحبنا ذيلها حينا (٣)
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوما وغسلينا (٤)

---

(١) النسرين : نوع من الورود أكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة .

(٢) تملينا ، استمتعنا . والمنى جمع منية . والضروب هنا : الأنواع . والأفانين هنا جمع أفنون ، وهو النوع والضرب أى لذات مختلفة الشكول .

(٣) خطر الرجل فى مشيته رفع يديه ووضعها عجبا وتيها . والغضارة : النعمة والسعة والخصب والوشى نوع من الثياب الحريرية المنقوشة .

(٤) السلسل : الماء العذب البارد . والكوثر : الكثير من كل شىء . والنهر . ونهر فى الجنة . والزقوم المذكور فى القرآن الكريم ، يراد به ضرب من العذاب فى النار ، جاء تمثيله بأنه طعام شجرة تكون فى أصل الجحيم هذا اسمها . والغسلين : ما ينغسل من الثياب ونحوها . وغسلين النار : ما ينغسل من جلود الكفار فيها .

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا
أما سواك فلم نعدل بمنهله شرباً وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ، ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناك عن كثب لكن عدتنا على كره عوادينا (١)
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنانا مغنينا (٢)
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ، ولا الأوتار تلهينا
دومى على العهد مادمنا محافظة فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما ابتغينا خليلا منك يحبسنا ولا استفدنا حبيبا عنك يغنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه بدر الدجى ميكن حاشاك يصبينا
أولى وفاء . وإن لم تبذلى صلة فالذكر يقنعنا ، والطيف يكفينا
وفى الجواب اقتناع لو شفعت به بيض الأيادى التى مازلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقيت صبابة منك نخفيها فتخفينا

---

(١) عن كثب : عن قرب . وعدتنا العوادى : صرفتنا الصوارف . وهى شواغل الدهر وصروفه .

(٢) الشمول : من أسماء الخمر والمشعشعة الممزوجة بالماء .

٢٣ — وقال فى الذكرى متوجعا :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

٢٤ — وقال أبو بكر محمد بن عمار (١) :

وهويته يسقى المدام كأنه قمر يطوف بكوكب فى حندس
متأرج الحركات تندى ريحه كالغصن هزته الصبا بتنفس
تسعى بكأس فى أنامل سوسن ويدير أخرى فى محاجر نرجس (٢)

٢٥ — ومن قوله فى الاستعطاف :

سجاياك إن عاقبت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع عداتى ، وإن أثنوا على وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب ! غير أن لحلمكم صفاة يزل الذنب عنها فيسفح (٣)
وان رجائى أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا؟ وقد أسلفت ودآ وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عمار وزير المعتضد بن عباد ملك اشبيلية ، ثم وزير ابنه المعتمد ، وبيد المعتمد قتل بعد خيانة له فى الملك والسياسة سنة ٤٧٧ هـ . وكان شاعرا بليغا يتشبه بالمتنبى فى مطامعه فى الملك والدولة .

(٢) السوسن والنرجس : زهران أبيضان من الفصيلة البصلية .

(٣) أى أن حلمه كالصخرة الملساء يزل وينزل عنها الذنب .

وهبنى قد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح (١)

أقلنى بما بينى وبينك من رضا ... له نحو روح الله باب مفتح !

وعف على آثار جرم جنيته ... بهية رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم، ... فكل إناء بالذى فيه يرشح (٢)

سيأتيك فى أمرى حديث، وقد أتى ... بزور بنى عبد العزيز موشح (٣)

وما ذاك إلا ما علمت ، فإننى ... إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح (٤)

نخيلتهم ، لا در لله درهم ، ... أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا (٥)

وقالوا : سيجزيه فلان بفعله ! ... فقلت: وقد يعفو فلان ، ويصفح!

ألا إن بطشا للمؤيد يتقى ... ولكن حلما للمؤيد أرجح

وبين ضلوعى من هواه تميمة ... ستنفع لو أن الحمام مجلح (٦)

---

(١) ثمت : هى (ثم) العاطفة لحقتها تاء التأنيث كما تلحق (رب) فيقال : (ربت) وأصلها أن تكون ساكنة ، ولكنها تفتح معهما كثيرا .

(٢) تلتفت مضمن معنى فعل متعد ، تقديره : (تعتبر أو تقبل) .

(٣) كانوا من موالى المنصور بن أبى عامر ، ورثوا أبناءه وأحفاده فى شرقى الأندلس . وكانت لهم به دويلة دامت ردحا من الزمان .

(٤) إذا ثبت : إذا رجعت الى ما كنت عليه من وزارتك . وآسو : من أسا الجرح أى داواه وعالجه . والمراد لا أنفك أنفع وأضر ، فينالهم منى شر .

(٥) نخيلتهم : أى هذه نخيلتهم . والنخيلة : الطبيعة والنصيحة . وكلا المعنيين لائق . ودر هنا فعل ماض من در اللبن ، ودرهم فاعله على نحو جد جده وجل جلاله ، والجملة : دعاء عليهم ، أى لا كان درهم لله بمعنى لا وفقهم الله للخير .

(٦) التميمة : خرزة رقطاء كان الأعراب يعلقونها فى أعناق أطفالهم لتقيهم شر العين والشياطين . المجلح : الأكول . والمعنى فى قلبى له حب سينفعنى ويشفع عنده إذا أراد الموت أكلى .

سلام عليه كيف دار به الهوى: الى فيدنو ، أو على فينزح (١)
ويهنيه ان مت السلو ، فإننى أموت ، ولى شوق اليه مبرح

٢٦ — وقال الأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى الاندلسى من شعراء شرق الأندلس ، وكان خدم المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف بعلمه وشعره ، يصف النيلوفر :

وبركة تزهو بنيلوفر نسيمه يشبه روح الحبيب (٢)
حتى اذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لعين المغيب
أطبق جفنيه على إلفه وغاص فى الماء حذار الرقيب

٢٧ — وقال ابن خفاجة الأندلسى :

ربما استضحك الحباب حبيب نفضت ثوبها عليه المدام
كلما مر قاصرا من خطاه يتهادى كما يمر الغمام
سلم الغصن والكثيب علينا فعلى الغصن والكثيب السلام

٢٨ — وقال فى طول الليل :

ياليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى
وما معى طليقاً وأنجم الجو أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير المجرة جسرا

٢٩ وقال ابن سهل الأندلسى (١) :

سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى
تدرى النجوم كما يدرى الورى خبرى

---

(١) ينزح : يبعد .
(٢) النيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة .
(١) هو الشاعر الرقيق الوشاح ابراهيم بن سهل الأشبيلى الأندلسى وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلى . كان يهوديا وأسلم ، ومات غرقا سنة ٦٤٩ هـ .

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أني شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس والوتر
من لي به ؟ اختلفت فيه الملاحة إذ أومت إلى غيره إيماء محتضر (١)
معطل فالحلى منه محلأة تغني الدراري عن التقليد بالدرر (٢)
بخده لفؤادي نسبة عجب كلاهما أبدا يدمي من النظر (٣)

٣٠ — وقال ابن سهل في توشيح له :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أشرقت يوم النوى غررا تسلك بي نهج الغرر (٤)
ما لنفسي في الهوى ذنب سوى منكم الحسنى ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكر (٥)
كلما أشكوه وجدي بسما كالربا بالعارض المنبجس (٦)
إذ يقيم القطر فيها مأتما وهي من بهجتها في عرس (٧)
أيها السائل عن جرمي لديه لي جزاء الذنب وهو المذنب

---

(١) أي تفاوتت فيه الملاحة عن نفسها عند الناس فهي فيه كاملة وفي غيره بمنزلة إشارة خفيفة كاشارة المحتضر عند الموت .

(٢) محلأة ، ممنوعة

(٣) أي أي فؤادي يدمى من نظرات المحبوب الرامية بسهام التأثير ، وخده كأنه يدمى من حمرة الخجل عند نظري إليه .

(٤) الغور ، التغرير والخطر .

(٥) أي وإنما التذاذي من حبيب بالتفكر فيه .

(٦) أي كابتسام الربا المشرقة بالأزهار بعد أن سقاها العارض المنبجس : أي السحاب الهاطل .

(٧) أي أن نزول القطر الشبيه بقطرات الدمع يقيم في الربا مأتما ومناحة ببكائه على حين أن الربا في أعراس من بهجتها .

أخذت شمس الضحا من وجنتيه مشرقا للشمس فيه مغرب (١)
ذهب الدمع بأشواقى إليه وله خد بلحظى مذهب (٢)
ينبت الورد بغرسى كلما لاحظته مقلتى فى الخلس
ليت شعرى أى شىء حرما ذلك الورد على المغترس
كلما أشكو إليه حرقى غادرتنى مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقى أثر النمل على صم الصفا (٣)
وأنا أشكره فيما بقى لست ألحاه على ما أتلفا
فهو عندى عادل إن ظلما وعذولى نطقه كالخرس
ليس لى فى الأمر حكم بعد ما حل من نفسى محل النفس
منه للنار بأحشائى ضرام تتلظى كل حين ما تشا
هى فى خديه برد وسلام وهى حر وحريق فى الحشا
أتقى منه على حكم الغرام أسداً ورداً ، وأهواه رشا
قلت — لما أن تبدى معلما وهو من ألحاظه فى حرس
أيها الآخذ قلبى مغنما اجعل الوصل مكان الخمس (٤)

وقد عارض هذه الموشحة كثيرون منهم لسان الدين بن الخطيب (٥) .

---

(١) أى أن حمرة المشرق قبيل ظهور الشمس على الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب مستعارة من وجنتيه الحمراوين .

(٢) أى مذهب من الخجل . وهذا المعنى مكرر جره إليه جناس الاشتقاق بين (ذهب) فى أول البيت و (مذهب) فى آخره .

(٣) أى أثرا ضعيفا لأن النمل لا يؤثر مشيه فى الصخرة الملساء .

(٤) أى أن الجيش الفاتح لا يأخذ كل الغنيمة بل يكون خمسها للدولة تنفقه فى مصالح الناس وصدقاتهم .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطى الأندلسى المعروف بلسان الدين بن الخطيب وزير بنى الأحمر ملوك غرناطة . وكان وزيرا لأبى الحجاج =

٣٢ — وقال ابن دراج القسطلى يصف وداعه لزوجه وابنه الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبرى منه أنة وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى ... وفى العهد مبغوم النداء صغير
عنى بمرجوع الجواب ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ... له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفداة الترائب مرضع ... وكل مخباة المحاسن ظير
وطار جناح البين بى وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورا فاننى ... على عزمتى فى شجوها لغيور
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى ... على ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهى لوافح ... واستوطئ الرمضاء وهى تفور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كئوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها ... على مفرق الليل البهيم قتير
وقد أيقنت أن المنى طوع همتى ... وأنى بعطف العامرى جدير
وللموت فى عين الجبان تلون ... وللذعر فى سمع الجرىء صغير
لبان لها أنى من البين جازع ... وأنى على مض الخطوب صبور
وأعتسف الموماة فى غسق الدجى ... وللأسد من غيل الضباب زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها ... كواكب فى خضر الحدائق حور

= يوسف من عظماء ملوكهم ، ثم لابنه ، فاتهم بالخيانة فى السياسة والزندقة ، ففر إلى المغرب ، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فقتل سنة ٧٧٦ هـ . وكان شاعرا كاتبا مؤرخا مؤلفا فقيها متفلسفا . وله عدة كتب وشعر رقيق وكتابة ، يروى صاحب نفح الطيب وصاحب صبح الأعشى منها كثيرا .

٣٢ — وقال ابن زيدون :

١ — ما على ظنى باس ... يجرح الدهر وياسو
٢ — ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال باس
٣ — ولقد ينجيك إغفا ... ل ويؤذيك احتراس
٤ — ولكم أجدى قعود ... ولكم أكدى النماس
٥ — وكذا الحكم إذا ما ... عز ناس ذل ناس
٦ — وبنو الأيام أخيا ... ف سراة وخساس
٧ — نلبس الدنيا ولكن ... متعة ذاك اللباس
٨ — ياأبا حفص وماسا ... واك فى فهم إياس
٩ — من سنى رأيك لى فى ... غسق الخطب اقتباس

(١ - ٢) اللغة : ياسو بالتخفيف : يأسو أى يداوى ، الآسى ، الطبيب والجمع أساة ، وباس : بأس : أى شدة . المعنى، لاتثريب على أن طاش سهمى وخاب رجائى وكذب حدسى ، فقد يستهدف المرء للأخطار وتحدق به الشدائد حين يشرئب منه الأمل ويستشرف الرجاء .

(٣ - ٥) اللغة: احتراس : تحفظ ،وأكدى : بخل وقل خيره والمراد لم يفد . المعنى : قد يتخذ المرء الحيطة ويحترس فيحيق به البلاء ويصميه العناء على حين يسلم من النوائب من لم يتحصن من المصائب ، وليس ثمة معيار لسنة الحياة ، فقد يجدى الكسل والتواكل ، ولا يغنى الجد والنشاط .

(٦ — ٧) اللغة : أخياف : مختلفون ، وأخوة أخياف ، أمهم واحدة وآباؤهم شتى ، وسراة : المراد بها هنا الإشراف والسادة وأصحاب المروءة ، ونلبس الدنيا: يراد بها الإقبال عليها ومداراتها والسير فى ركابها .

المعنى : الناس يتباينون فمنهم الرفيع ومنهم الوضيع وهم جميعا يتهافتون على عرض الدنيا الحائل وظلها الزائل ، ولا تثريب عليهم فى ذلك فرفاهة الحياة وآلاؤها فى التمتع بنعمائها ومباهجها ومداراتها والاحتطاب فى حبلها .

(٨ - ٩) اللغة : أبو حفص : هو الوزير ابن برد الذى استنجد به الشاعر، وإياس يضرب به المثل كثيرا فى الذكاء ، فيقال : هو إياس ذكاء أوهو أذكى من إياس ، والسنى بالقصر : الضوء ، والغسق . ظلمة أول الليل ، والخطب : الشأن=

١٠ — ووداد لك نص لم يخالفه القياس
١١ — أنا حيران واللا ر وضوح والتباس
١٢ — لا يكن عهدك وردا إن عهدى لك آس
١٣ — وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
١٤ — فعسى أن يسمح الده ر فقد طال الشماس
١٥ — واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس

= والأمر صغر أو عظم والجمع خطوب، واقتباس : أخذ .

المعنى أيها الصديق العبقرى إنى لجأت إليك مستضيئا بسنا رأيك مهتديا بتفكيرك معلنا وطيد الأمل أن أجد لى مخرجا من هذا المأزق .

(١٠) اللغة : نص : شاهد .

المعنى : إن مودتى لك تشهد بصدق ما أقول وتحفزك لإغاثتى وإقالتى من كبوتى .

(١١ - ١٢) اللغة : حيران : حار يحار كتحير واستحارا إذا نظر إلى الشئ ففشى عليه ، ولم يهتد لسبيله فهو حيران وخائر، وهى حيراء ، وآس : شجر معروف والواحدة آسة .

المعنى: إننى - وقد غشيت السجن - أخبط خبط عشواء فى ليلة طخياء ، ولكن لى وطيد الأمل أن تنقشع عنى الغمة وتنحسر الكربة ، فكل أمر ينجلى بعد التباسه.

(١٣ - ١٤) اللغة : امتطت : اتخذتها مطية والمراد ما استقرت بكفك كأس والشماس : المنع وأصله من شمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره فهو شامس وشموس .

المعنى : واذكرنى أيها الصديق كلما قبلت ابنة الكرم وثملت رضابها وحملت كأسها ، فاننى مغرم بها صب ، تبلت فؤادى وملكت على أقطار نفسى، وقد حيل بينى وبينها وانحسر عنى رداء البهجة والسرور فهل يجمع الدهر بيننا ونحتسى السلاف وننسى أوصاب الحياة ونوائبها .

(١٥) اللغة : اغتنم : انتهز ، وصفو الليالى . يراد بها عهود السعادة ، والاختلاس السلب على غرة ، والاختلاس أيضاً : انتهاز الفرصة .

المعنى : واهتبل الفرصة حين تسنح ومتع نفسك بانتهاز ما يتسنى لك الظفر به من أطايب الحياة ولذائذها .

١٦ — ما ترى فى معشر حا لوا عن العهد وخاسوا ؟

١٧ — ورآنى سامريا يتقى منه المساس

١٨ — أذؤب هامت بلحمى فانتهاب وانتهاس

١٩ — كلهم يسأل عن حا لى وللذئب اعتساس

٢٠ — إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس

٢١ — ولئن أمسيت محبو سا فللغيث احتباس

٢٢ — ويفت المسك فى التر ب فيوطا ويداس

(١٦ - ١٧) اللغة : معشر كمسكن : الجماعة وأهل الرجل، وحالوا : مالوا وتغيروا ، وخاسوا : نقضوا ، والسامرى : الذى عبد العجل من بنى إسرائيل ، ويتقى : يتجنب.

المعنى : يستنكر ابن زيدون على ابن جهور وحاشيته تنكرهم له وتغيرهم عليه ونقضهم العهد ونكرانهم المعروف فقد نبذوه نبذ النواة فى كثيب الصحارى، وفروا منه فرار الطاهر من الأرجاس والأنجاس ، كأنما هو سامرى دنسته عبادة العجل.

(١٨ - ١٩) اللغة : الانتهاس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان ، والاعتساس : الطواف بالليل .

المعنى : إن ابن جهور وبطانته إن هم إلا كالذئاب التى ولعت بنهش لحمى والفتك بى ، يتساءلون عن حالى ويظهرون لى المحبة والإخاء مع أنهم يتسقطون أنبائى ويتحسسون أمورى ليهدموا صرحى ويشوهوا سيرتى .

(٢٠ - ٢٢) اللغة : الانبجاس : التفجر والنبوع .

المعنى : إن اغطشت لى الليالى وساء حالى فعما قريب تنحسر الغمة والماء قد يتفجر من الصخر ، ولئن كنت أرسف اليوم فى أغلال السجن فغدا أغدو حرا طليقا ، فالغيث — وهو أعم الأشياء نفعا — يحتبس ويتخلف، وإذا انتهكت كرامتى ونكست هامتى فإن المسك كثيرا ما يفت فى الثرى فتطؤه النعال وتدوسه الأقدام .

٣٣ — وقال ابن خفاجة فى وصف جبل :

١ — بعيشك هل تدرى أهوج الجنائب
تخب برحلى أم ظهور النجائب ؟

٢ — فما لحت فى أولى المشارق كوكبا
فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب

٣ — وحيداتهادى فى الفيافى فأجتلى وجوه المنايا فى قناع الغياهب

٤ — ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا فى قتود الركائب

٥ — ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأمانى فى وجوه المطالب

٦ — وليل إذا ما قلت : قد باد فانقضى
تكشف عن وعد من الظن كاذب

---

(١) اللغة : هوج الجنائب . الرياح الجنوبية الهوجاء ، والنجائب : جمع نجيبة وهى الناقة الكريمة . يقول لست أدرى : أهى الرياح الهوج التى تحمل رحلى وتقلنى أم النوق الكريمة (وهو كناية عن نشاطها وسرعتها) .

(٢ - ٤) اللغة : لحت : نظرت ، والفيافى : جمع فيفاء وهى الصحراء ، وأجتلى : أتبين ، والقتود : أخشاب الرحال . المعنى : يصف رحلة عنيفة فى الصحراء قد لفه فيها الليل بشملة ، وشعر بالخطر يدنو منه وأنه يوشك أن يفقد حياته ، فليس له من جار يستجير به سوى سيفه المصمم ، وليس له دار يعتصم بها ويلتجىء إليها سوى أخشاب الرحال .

(٥) اللغة : وجوه المطالب : شتى المطالب . يقول إنه غدا فريدا وحيدا لا يجد من يؤنس وحدته ويذهب وحشته سوى آماله التى تجيش بخاطره فتملأ نفسه قوة وتغمر فؤاده رجاء وتربط على قلبه فينفض من مخاوفه وأوهامه .

(٦ - ٨) اللغة : تكشف : ظهر . والذوائب : جمع ذؤابة وهى الخصلة من الشعر المتدلى ، والترائب : عظام الصدر أو ماولى الترقوتين منه أو ما بين الثديين =

٧ — صحبت الدياجى فيه سود ذوائب
لاعتنـــق الآمال بيض ترائب

٨ — فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس
تطلع وضـــاح المضاحك قاطب

٩ — رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا تأمل عن نجم توقد ثاقب

١٠ — وأرعن طاح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب

١١ — يسد مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلا سهبه بالمناكب

١٢ — وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالى مفكر فى العواقب

١٣ — يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب

=غبرة إلى سواد ، ووضاح المضاحك : أى تتراءى فى خلاله أشعة الفجر ، وقاطب: أى أنه لا يزال عليه من غبش الليل بقية .

والترقوتين: عظمان فى موضع الكتف أو موضع القلادة ، وأطلس : شخص أطلس، والأطلس الذى فى لونه غبر (٩) اللغة : ثاقب : لامع .

المعنى : رأيت به قطعا أغبش من الفجر لا يزال يبدو فيه نجم متوقد ثاقب ، وهو الزهرة أو عطارد ، لأنهما من كواكب الصباح يكونان بالتبادل على الأفق عند طلوع الفجر .

(١٠ - ١١) اللغة : وأرعن : ورب جبل أرعن مرتفع القمة ، وباذخ :عال ، والغارب : الكاهل ، والمناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكتف والعضد يقول : ورب جبل عالى القمة يطاول السماء بكاهله ، يحول دون سير الريح وهبوبها ، ويزحم الكواكب بالمناكب .

(١٢ - ١٣) اللغة : الفلاة : القفر أو المفازة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة ، يلوث : يلف ويعمم على رأسه من الغيم عمائم سوداء لها بروق حمر .

١٤ - أصخت إليه ، وهو أخرس صامت
فحدثنى ليل السرى بالعجائب

١٥ - وقال: إلى كم كنت ملجأ قاتل وموطن أواه تبتل تائب

١٦ - وكم مربى من مدلج ومؤوب وقال بظلى من مطى وراكب

١٧ - ولاطم من نكب الرياح معاطفى
وزاحم من خضر البحار غواربى

١٨ - فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى والنوائب

١٩ - فما خفق أيكى غير رجعة أضلع
ولا نوح ورقى غير صرخة نادب

٢٠ - وما غيض السلوان دمعى ، وإنما
نزفت دموعى فى فراق الصواحب

---

(١٤) اللغة : أصخت : استمعت ، والسرى : السير ليلا .

(١٥) اللغة : الأواه : التائب وتبتل إلى الله : انقطع إليه للعبادة .
المعنى : كثيرا ما التجأ إلى القاتلون وأوى إلى العابدون من الرهبان الذين يبنون صوامعهم فى رؤوس الجبال .

(١٦) اللغة : المدلج : من الدلج وهو السير من أول الليل ، والمؤوب : من الأوب والإياب هو الرجوع ، وقال : أى نام وقت القيلولة وهى نصف النهار .

(١٧) اللغة : النكب بضم النون وإسكان الكاف . جمع نكباء ، وهى الريح تهب بين مهبى ريحين ، ومعاطفى وغواربى : يريد بهما جوانبى وأظهرى .

(١٨) اللغة : طوتهم : أخفتهم والمراد أماتتهم ، والنوى : الفراق والبعد .

(١٩) اللغة : خفق أيكى : أى خفق غصون أيكى ، والأيك : اسم جمع لأيكة ، والأيك : الأشجار المتكاثفة ، والورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .

(٢٠) اللغة : غيض الدمع : نقصه وحبسه ، ويقال : غاض الكرام أى قلوا ، والسلوان : النسيان والتسلى ، ونزفت : سكبت واستنفدت .

٢١ — فحتى متى أبقى ؟ ويظعن صاحب
أودع منه راحلا غير آئب

٢٢ — وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا
فمن طالع أخرى الليالى وغارب

٢٣ — فرحماك يا مولاى دعوة ضارع
يمد إلى نعماك راحة راغب

٢٤ — فأسمعنى من وعظه كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب

٢٥ — فسلى بما أبكى وسرى بما شجى
وكان على عهد السرى غير صاحب

٢٦ — وقلت ومن نكبت عنه لطية سلام فانا من مقيم وذاهب

٣٤ — وقال أبو الحسن بن الحباب يرثى ثانى ملوك بنى الأحمر أبا عبد الله (٦٧١ — ٧٠١ هـ) ويمدح ولده بتقلد أمره بعده :

مصاب جليل وصنع جميل وملك سعيد وأجر جزيل
فذاك يهيج برح الاسى وهذا يسكن فرط الغليل
وكل الانام له باهت وكل فؤاد صحيح عليل
فذ غاض بحر الندى لم تزل بحار الدموع عليه تسيل

(٢١-٢٢) اللغة : ويظعن : يرحل . وأرعى الكواكب: أراعيها وأساهرها .

(٢٣ - ٢٤) اللغة : الضارع : الخاشع ، والراحة : كف السيد ، والعبرة : العظة

(٢٥) اللغة : فسلى : فأنسى ، وسرى : أزال ، وشجى : أطرب .

(٢٦) اللغة : نكبت عنه : ملت عنه ، وانصرفت ، والطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، ومن فى « ومن مقيم » زائدة أو بيانية . أى فأنا من بين مقيم وهو أنت وذاهب وهو نحن .

وحق لأجفاننا أن تصو ب وحق لأجسادنا أن تحول
لئن ساءنا خطب ذاك المصا ب لقد سره وشك ذاك الرحيل
فمن قصره وإلى قصره فطاب معرسه والمقيل
تبدل من نعمة تنقضى نعيما مقيما ونعم البديل
وعوض من زائل باقياً فها هو فى نعمة لا تزول
فقل للمعادين : موتوا أسى وقل للموالين : كفوا العويل
فقد حل حيث اشتهى ، وارتقى بأعلى محل وأسنى مقيل
وأولاه مولاه ما اختاره وقابل أعماله بالقبول
فما زال حزب الهدى فى اعتزا ز لديه ، وحزب الضلال الذليل
فطوراً يسير إلى حربهم ففى كل فج دماء تسيل
وطوراً يجهز جيشاً لهم ففى كل حزن وسهل رعيل
وخلف فينا الرضا العادل ال إمام السعيد الهمام الجليل
به ألف الله شمل الهدا ة وجدد ربع المعالى المحيل
ضللنا لفقد إمام الهدى فكان لنا منه أهدى دليل
فقام لإعزاز دين الإلا ه فكان له الله نعم الوكيل
فصبراً لخطب يهد القوى وبشرى بهذا الفعال الجميل
فلولاك يا محيي المكرما ت لما غادر الحزن منا العقول
ولولاك من للعلى بعده وللصفح عن مذنب مستقيل ؟
ومن للكفاح وسمر الرما ح ، ومن للحسام اليمان الصقيل ؟
ومن للعباد ومن للبلاد ومن للسماح وبذل الجزيل ؟
ومن للايادى وقتل الاعادى ويوم الجلاد الطويل العريض
وقد جبر الله صدع القلوب بجار على نهج تلك السبيل

بغيث العفاة وسم العدا ة ، وأسعد كاف ، وأسنى كفيل
فأشرقت الأرض من بعد ما تردت بغيهب ذاك الأفول
وألبس أندلساً عدله جمالا فليس لها من عديل
فدم للأنام كما تبتغى عليك من النصر ظل ظليل
وقابل جميع جيوش الأسى بصبر يرد شباها فليل
ولا زلت فى ملكك المعتلى وفى نعم ضافيات الذيول

٣٥ — وكان ثالث ملوك بنى الأحمر محمد بن محمد بن يوسف (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) شاعرا بليغا ، وكان شعره مستطرفاً من مثله . لا ، بل يفضل به الكثير ممن ينتحل من الملوك الشعر . وكان له مجموع منه ألفه بعض خدامه . فمن بعض المطولات :

واعدنى وعداً وقد أخلفا أقل شىء فى الملاح الوفا
وحال عن عهدى ولم يرعه ما ضره لو أنه أنصفا
ما بالها لم تتعطف على صب لها ما زال مستعطفا
يستطلع الأنباء من نحوها ويرقب البرق إذا ما هفا
خفقت سقماً عن عيان الورى وبان حبى بعد ما قد خفا
لله كم من ليلة بتها أدير من ذاك اللمى قرقفا
متعتنى بالوصل منها وما أخلفت عهدا خفت أن يخلفا

ومنها :

ملكتك القلب وإنى امرؤ على ملك الأرض قد وقفا
أوامرى فى الناس مسموعة وليس منى فى الورى أشرفا
يرهف سيفى فى الوغى مصلتا ويتقى عزمى إذا أرهفا
وترتجى يمناى يوم الندى تخالها السحب غدت وكفا
نحن ملوك الأرض من مثلنا ؟ حزنا تليد الفخر والمطرفا

نخاف إقداما ونرجى ندى لله ما أرجى وما أخوفا
لى راية فى الحرب قد غادرت ربع العدى قاعاً بها صفصفا
يا ليت شعرى والمنى جمة والدهر يوماً قد يرى منصفا
هل نرتجى اليوم تدانيكم أو يصبح الدهر به مسعفا

٣٦ — وقال الشيخ القاضى أبو بكر بن شبرين يرثى السلطان اسماعيل أحد ملوك بنى الأحمر (٧٢٥ — ٧٣٤هـ) ، ويعرض ببعض من حمل عليه من خدمه :

استقلا ودعانى طائفاً بين المغانى
وانعما بالصبر إنى لا أرى ما تريان
قضى الأمر الذى فى شأنه تستفتيان
ومضى حكم إله ما له فى الملك ثان
مات يوم السلم قعصاً(١) مدره الحرب العوان
واستبيح الملك ابن الملك الحر الهجان
يا خليلى أعينا نى على شجو عنانى
واذكرا سابغة النعـ ـمة فيما تذكران
وإذا صليتما يو ماً عليه أذنان
ما علمنا غير خير فاقضيا ما تقضيان
لا نبالى ما سمعنا من فلان وفلان
غير ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان
وغدا يجمعنا المو قف : من قاص ودان
ورضى الله هو المط لوب فى كل أوان

---

(١) القعص : الموت المعجل

وأخو الصدق لعمرى ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء حائل دون المغانى
وعلى البغضاء يطوى ود اخوان الخوان
بأبى والله أشلا ء على الرمل حوانى
بفتى ما كان بالوا نى ولا بالمتوانى
يمزج الماء نجيعا وينادى : عللانى
ليس بالهيابة النكس ، ولا الغمر الهدان
أبيض الوجه تراه والردى أحمر قان
أى سيف لضراب أى رمح لطعان
ذو نجار خزرجى ا منتمى سامى المكان
ذكره قد شاع فى الأر ض إلى أقصى عمان
لا تراه الدهر إلا خلف سرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يل هيه تعزاف القيان
إن ألمت هيعة طا ر إليها غير وان
يصدع الليل بقلب ليس بالقلب الجبان
يا لها من نصبة لو لا نحوس فى القران
وشباب عاجلوه بالردى فى العنفوان
لم يجاوز من سنيه ا عشر الا بثمان
دوخ الأقطار غزواً من هضاب ومحانى
حكموا فيه الظبى أسـ رع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه فى الثرى ملقى الجران
تشرب الأرض دماً منـ ه تهاداه الغوانى

وتحييه بتسليم ثغور الأقحوان
فالمعالى أودعته بين سحر وليان
وغوادى المزن يرضعن ثراه بلبان
ضاع صرح الثغر لما أغمد السيف اليمانى
وأعير الأسد الور د القميص الأرجوانى
عاطيانى أكؤس الحز ن عليه عاطيانى
حمله دون صلاة للثرى مما شجانى
أو ما كانوا له يد عون أعقاب الأذان؟
لا تهينوه فما كا ن بأهل للهوان
عجبى والله من لم طان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسا لى فؤاداً ما أرانى
وبحسبى دعوات أنا فيها ذو افتتان
بت أهديها إليه بعد ترتيل المثانى
ذاك جهدى إن احسا ن أبيه قد غذانى
فأنا الشيعة حقاً بفؤادى ولسانى
أفأنسى ذلك العهـ د وليس الغدر شانى؟
ويقال الرشح موجو د قديماً فى الأوانى
وعهود الناس شتى من عجاف وسمان
وهى النعمة حقا شكرها فى كل آن
اتئد يافارس الخيـ ـل فغير الله فان
والمعالى تطلب الثا ر وتأتى بالأمانى
وهى الأرحام لا تنسـ ى ولو بعد زمان

أنت من رحمة غفا ر الخطايا فى ضمان
وهو يوفى الخصم إن شا ء : وزاناً بوزان
والذى أفشى قبيحاً حظه عض البنان
سلم الله على من فيه ذو جهل لحانى
وجزاه بجهاد جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير بخفيات الجنان
ويداك الدهر فينا بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحب والرضى غض المجانى
فتغمدنا برحمى وقبول وأمان
واجمع الشمل على أفـ ضل حال فى الجنان

٣٧ — وقال ابن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠هـ ، فى رثاء بنى الأفطس من ملوك الطوائف :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور (١)
أنهاك أنهاك لا أنهاك واحدة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة والبيض والسمر مثل البيض والسمر (٢)

(١) فجعه كمنع : أصابه بمصيبة : عين الشىء : نفسه . الأثر : بقيته . الأشباح جمع شبح : وهو الشخص أى سواد الإنسان وغيره . الصور جمع صورة : وهى شكل الشىء . وقد جعل الشاعر الأشباح فى مقابلة العين والصور فى مقابلة الأثر ، والمعنى أن الدهر لا يبقى شيئاً ، فان بقيت منه صورة أتى عليها ، فاذا كان هذا فعل الدهر فلا معنى للبكاء على شىء .

(٢) رجل حرب : أى عدو ، للذكر والأنثى والجمع والواحد ، لأنه فى الأصل مصدر فلما وصف به بقى على إفراده . البيض والسمر الأولان ، يصح أن يراد بهما النساء البيض والسمر . ويكون قد ضربهما مثلا لغدر الزمان ، يريد أن النساء ، وإن كان شأنها اللين والضعف ، ومرة الإنسان ، يجىء من ناحيتها الشر ، فيكن كالسيوف والرماح .

ولا هوادة بين الرأس تأخذه يد الضراب وبين الصارم الذكر(١)

فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر

هوت بدارا ، وفلت غرب قاتله وكان عضباً على الأملاك ذا أثر (٢)

واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت

ولم تدع لبنى يونان من أثر (٣)

وما أقالت ذوى الهيئات من يمن ولا أجارت ذوى الغايات من مضر (٤)

ومزقت سبأ فى كل قاصية فما التقى رائح منهم بمبتكر(٥)

---

(١) الهوادة : الرفق واللين . الذكر : القوى . يشير إلى أن الدهر لا تهدأ حوادثه ، فلا يمر منه يوم ، إلا والحرب فيه مستعرة .

(٢) دارا : آخر ملك من ملوك الفرس الأولى ، وقاتله هو الإسكندر . العضب : السيف . الأثر والأثر . والأثر معناها فرند السيف .

بنو ساسان : هم الفرس الأواخر . وأبوهم الذى ينسبون إليه هو ساسان الأصغر وهو أردشير بن بابك .

(٤) الهيئة : الشارة والعلامة . الغاية : من معانيها الراية . يقال أقال الله عثرتك وأقالكها . وأجاره : قبله فى جواره وحماه ، والمعنى أن الأيام والليالى لم تمنع ضررها عن ملوك اليمن ومضر .

(٥) سبأ : هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وسمى بذلك لأنه أول من أدخل السبى فى بلاد اليمن ، وقد ذكر الله تمزيق أولاد سبأ بقوله تعالى : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) إلى قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) ، وقد وصفوا عمارة هذه الأرض فقالوا : إن المرأة كانت إذا أرادت أن تجتنى من ثمارها شيئا وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشى تحت الأشجار وهى تغزل ، أو تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتلىء مكتلها . ولما تمزق أولاد سبأ كانوا عشرة . سكن الشام منهم أربعة : وهم لخم ، وجذام ،

وأنفذت فى كليب حكمها ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

٣٨ — ومن شعر الوصف :

شجرية ذهبية نزعت إلى سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
وكأنما تأبى لوقع طيرها أن تستقل بهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدمن الفصاح فإن شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا

٣٩ — ومن نظم الفنون — وقد كثر عندهم، فنظموا قواعد العلوم والفنون كالتاريخ، والعروض، والنحو، والصرف، والبديع، والفقه، ولابن عبدربه أرجوزتان، إحداهما فى العروض، والأخرى فى تاريخ المنذر بن محمد، (٢٧٣ — ٢٧٥) من خلفاء بنى أمية — قول ابن عبدربه فى أرجوزته الأخيرة وهى طويلة، منها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

٤٠ — وقال أبو البقاء صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٩٨ هـ، يرثى الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور، كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

= وغسان وعاملة . وسكن اليمن ستة هم كندة ومذحج وحمير والأزد وأنمار والأشعريون . والرواح الوقت من الزوال إلى الليل، والسير فيه، وراح إلى أهله أى رجع فى هذا الوقت، والابتكار أو البكور : الخروج وقت البكرة، وهى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

يمزق لدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان(١)

وينتضى كل سيف للفناء ولو كان ابن ذى يزن والغمد غمدان(٢)

ومنها :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهد ثهلان(٣)

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت

حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

٤١ — وقال ابن الأبار القضاعى المتوفى ٦٥٨ هـ وكان قد أرسله زيان صاحب صاحب بلنسية إلى أبى زكريا صاحب افريقيا يستنجده :

---

(١) السابغة : الدرع التامة الطويلة . نبا السيف : أخطأ الضريبة . المشرفيات : جمع مشرفى ، وهو السيف وإنما سميت كذلك ، نسبة إلى المشارف وهى قرى من أرض العرب ، تدنو من الريف فى بلاد الفرس ، كانت العرب تجلب منها السيوف فنسبت إليها ، والنسبة كما تعلم للواحد . الخرصان . بضم الخاء وكسرها ، جمع خرص بالضم ، وهو القناة أو السنان .

(٢) انتضى السيف : جرده من غمده كنضاه . . . ذو يزن : من ملوك اليمن . غمدان : قصر بصنعاء باليمن ، بناه يشرخ بأربعة وجوه : أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ، وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف ، بين كل سقفين أربعون ذراعاً . أو قبة سيف ابن ذى يزن ، أو حصن فى رأس جبل بصنعاء .

(٣) أحد : جبل أحمر قرب المدينة يقع شمالها ، وعنده كانت الوقعة الفظيعة ، التى قتل فيها حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وثلاثة وسبعون صحابياً ، وكسرت رباعية الرسول ، وشج وجهه الشريف وكلمت شفته : ثهلان : جبل من جبال نجد .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا (١)
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا (٢)
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأمسى جدها تعسا (٣)
فى كل شارقة إلمام بارقة يعود مأتمها عند العدا عرساً
وكل غاربة إخجال شارقة تثنى الأمان حذارا والسرور أسى (٤)
وفى بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا (٥)
مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

---

(١) درس الطريق ودرسته الريح كلاهما من باب قعد : بمعنى خفيت معالمه .

(٢) يقال حاشى فلانا من القوم أى استثناه ، والمعنى : أنقذ حشاشة الأندلس (بقية روحها) مما تعانيه وتقاسيه من العذاب

(٣) اللام فى للجزيرة ، داخلة على المستغاث له ، فهى لذلك مكسورة ، والمستغاث به مقدر والأصل يا لك أيها الملك للجزيرة ، الجزر : بالتحريك الشاء السمينة . ومعنى كون أهل الجزيرة صاروا شياها سمانا ، أنهم أعدوا للذبح ، كما تعد هذه الشياه له .

(٤) الشارق : الجانب الشرقى فتكون الشارقة الشرقية ، وكذلك الغاربة الناحية الغربية ، البارقة : السيوف . الشائبة : واحدة الشوائب وهى الأدناس والأقذار ، يقول : فى كل ناحية شرقية من هذه البلاد تدنو سيوف يكون من آثار فعلها مأتم عند أهل البلاد وعرس عند المغيرين المعتدين كما قال المتنبى (مصائب قوم عند قوم فوائد) . وكذلك فى كل جهة غربية تحدث أمور دنسة مخجلة من فعل الأعداء ، تقلب الأمن للأهلين خوفا ، والسرور حزنا .

(٥) نسف الشىء : اقتلعه من أصله . نزف البئر : نزح ماءها . النفس : من معانيها الجسد والدم . وظاهر أنه يجب ارادة المعنى الأول فى قوله ينسف النفس ، والمعنى الثانى فى ينزف النفس ، ومع ملاحظة أن الأخيرة وردت فى البيت محركة ، والأصل تسكينها .

٤٢ — ومما كتب به آخر ملوك الأندلس ، أبو عبد الله محمد ، إلى سلطان فارس يتوسل إليه ، وهى من إنشاء كاتبه البليغ ، أبى عبد الله محمد العقيلى :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
هى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمى

٤٣ — ولابن هانىء فى الرثاء :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ... ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاحة ... بيد شيئا تلقه بيد
كاذب جاء جهاما زبرجا ... بعد ما أومض برق ورعد
خاب من يرجو زمانا دائما ... تعرف البأساء منه والنكد
فإذا ما كدر العيش نما ... وإذا ما طيب الزاد نفد
فلقد أذكر من كان سها ... ولقد نبه من كان رقد
أبدا يعجم منى نبعة ... وقناة ليس فيها من أود

٤٤ — ولسان الدين بن الخطيب من موشح له :

يا أهيل الحى من وادى الغضا ... وبقلبى سكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا
لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تعتقوا عانيكم من كربه

واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفساً فى نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون عفاء الحبس

٤٥ — وكانت الأندلس — كما يقول باحث معاصر — مباءة الخيال ومسرحه ، بما ركب الله فى طبيعتها من فنون السحر والجمال ، لذلك أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجاب فى أشعارهم ، فلهم التشبيهات البديعة ، والتوليدات العجيبة ، والأخيلة الرائعة . وكان ابن هانىء يطرق المعانى المعروفة . ولكنه بما يولد ويفلسف ويغرب ، ويبدع فى الصناعة ، يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر ، وإنما المبتكر التوليد والخيال ، والمعانى الجزئية . هذا مع ما لابن هانىء من المعانى الجديدة ، التى تسلكه فى عداد الشعراء المبتكرين . انظر إلى قوله يتغزل :

قمن فى مأتم على العشاق ولبسن السواد فى الأحداق
وبكين الدماء ، بالعنم الرطب المقنى ، وبالخدود الرقاق (١)
ومنحن الفراق رقة شكوا هن ، حتى عشقت يوم الفراق

ومن روائع التشبيهات قول حمدة بنت زياد :

ولما أبى الوشون إلا فراقنا وليس لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ، ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وقول ابن خفاجة يصف السرى فى فلاة :

ومفازة ، لا نجم فى ظلمائها يسرى ، ولا فلك بها دوار (٢)
تتلهب الشعرى بها ، وكأنها فى كف زنجى الدجى دينار (٣)

---

(١) العنم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب . المقنى : الشديد الحمرة
(٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها (٣) الشعرى : كوكب يظهر فى شدة الحر

قد لفنى فيها الظلام وطاف بى ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالى الركب وهى قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه ، ومن خط الهلال عذار (١)

ومن إمعانهم فى الخيال فشافى كلامهم هذا النوع البديعى المعروف بحسن التعليل ، فقل أن تجد شاعرا لم يستعمله . ومن أمثلته قول أبى بكر بن زهر :

وموسدين على الأكف خدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالنى
مازلت أسقيهم ، وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم مانالنى
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها إنى أملت إنامها فأمالنى

وقول ابن هانىء :

أثمرت محك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كأنهم لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وقول ابن حمديس يصف نهرا صافيا :

ومطرد الأمواج يصقل متنه صبا أعلنت للعين مافى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليه ، شكا أوجاعه بخريره

وقول محمد بن البين البطليوسى يصف سرب نساء :

غصبوا الصباح ، فقسموه خدودا واستنهبوا قضب الأراك قدودا
وراوا حصا الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حدق المها أجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا حتى استعاروا أعينا ونهودا

---

(١) المجرة : منطقة فى السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء

وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ماء الحياة لو اغتدى مورودا

وقالت حمدة بنت زياد تصف واديا :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه ، فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

٤٦ — وقال بعضهم يصف ناعورة :

وذات حنين ماتغيض جفونها من اللجج الخضر الصوافى على الشط
وتبكى فتحيي من دموع جفونها رياضا تبدت بالأزاهر فى بسط
فمن أحمر قان ، وأصفر فاقع وأزهر مبيض ، وأدكن مشمط
كأن ظروف الماء من فوق متنها لآلى جمان قد نظمن على قرط

وقال أبو عبد الله الشبلى القائد يصف موقعة بينه وبين أعدائه :

ولما تلاقينا ، جرى الطعن بيننا فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غرار الهند فينا وفيهمو فمنا ومنهم قائم وحصيد
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حر الجلاد جليد
ولكن شددنا شدة فتبلدوا ومن يتبلد لايزال يحيد
فولوا وللسمر الطوال بهامهم ركوع وللبيض الرقاق سجود

٤٧ — وقال ابن سهل الاسرائيلى يصف جمال الطبيعة :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ... والطل ينثر فى رباها جوهرا
هاجت نخلت الزهر كافورا بها ... وحسبت فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ... ثغر يقبل منـــه خداً أحمرا
والنهر مابين الرياض تخاله ... سيفا تعلق فى نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها ... كفا ينمق فى الصحيفة أسطرا
وكأنه - إذ لاح - ناصع فضة ... جعلته كف الشمس تبرا أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه ... لم تتخذ إلا الأراكة منبرا

٤٨ — وقال ابو عبد الله بن الأزرق قاضى الجماعة بقرطبة :

عم باتصال الزمن ... ولا تبـــــالى بمن
وهو يواسى بالرضا ... من سمج أو حسن
أو من عجوز تحتظى ... والظهر منها منحنى
أو من مليح مسعد ... مواتق فى الزمن
مهما تبدى خده ... يبدو لك الورد الجنى
والغصن فى أثوابه ... اذا تمشى يثنى
لا أم لى ، لا أم لى ... إن لم أبرد شجنى
وأخلعن فى المجـو ... ن والتصابى رسنى
وأجمل الصبر على ... هجر الملاح ديدنى

ومنها

فإننى لنـا صح ... وإننى ، وانتى
فلا تكن لى لاحيا ... وفى الأمور استفتنى
فلم أزل أعرب عن ... نصحى لمن لم يلحنى

وان تسفه نظرى ومذهبى وتنهى

فالصفع تستوجبه نعم وتتف الذقن

وبعد هذا أشتفى منك ، ويبرا شجنى

وأضرب الكف أما م ذلك الوجه الدنى

قد كان أولى بك عن هذى المخازى تنثنى

النفى تستوجبه لواسط أو عدن

عرضت بالنفس كذا الى ارتكاب المحن

أفدى صديقا كان لى بنفسه يسعدنى

فتارة أنصحه وتارة ينصحنى

وتارة ألعنه وتارة يلعننى

وربما أصفعه وربما يصفعنى

أستغفر الله ، فهـــذا القول لايعجبنى

ياليت هذا كله فيما مضى لم يكن

أضحكت والله بذاا حديث من يسمعنى

دهر تولى وانقضى عنى كطيف الوسن

ياليتنى لم أره وليته لم يرنى

دنست فيه جانبى وملبسى بالدرن

وبعت فيه عيشتى لكن ببخس الثمن

كأننى ولست أد رى اليوم . ما كأننى

والله ماالتشبيه عنـــــد شاعر بهين

لكنه أنطقنى بالقول ضيق العطن
واحسرتى ، واأسفى! زلت وضاعت فطنى
لو أنصف الدهر لما أخرجنى من وطنى
وليس لى من جنة وليس لى من مسكن
أسرح الطرف وما لى دمنة فى الدمن
وايس لى من فرس وليس لى من سكن
يا ليت شعرى وعسى يا ليت أن تنفعنى
هل أمتطى بوما الى الـ شرق ظهور السفن
وأجتلى ماشئته فى المنزل المؤتمن
حينئذ أخلع فى هدى القوافى رسنى
من منقذى أفديه من ذا الجوع والتمسكن
وعلة قد استوى فيها الفقير والغنى
هل للثريد عودة إلى ، قد شوقنى
تغوص فيه أنملى غوص الأكول المحسن
لا تنسبوا لى سفها فالجوع قد أرشدنى

وبعد أن مضى يعدد ألوان الطعام التى يتشهاها قال :

إيه خليلى هذه مطاعم لكننى
أعجب من ريقك اذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا فذكرها أشبعنى
وان تكن جوعان يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر غير كلام الألسن

يصور الاشياء وهى أبدا لم تكن
فقوله يريك ما ليس يرى بالممكن
ولتنصرف ، فقصدنا أطراف هذا الموطن

٤٩ — وقال ابن عبد ربه :

يقول لى العاذل: تب عن هوى من ليس يدنيك إل مطلب
وكيف لى ، والدين دين الهوى فلا أرى أرجح من مذهبى ؟
أليس باب التوب قد سده طلوعه شمس من المغرب ؟

٥٠ — وقال ابن شهيد ، وقد عرضت له جارية :

أصباح لاح ، أم بدر بدا أم سنا المحبوب أورى زندا؟
هب من نعسته منكسرا مسبل للكم ، مرخ للردا
يمسح النعسة من عينى رشا صائد فى كل يوم أسدا
قلت : هب لى يا حبيبى قبلة تشف من حبك تبريح الصدى
فانثنى يهتز من منكبه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليدا
كلما كلمنى قبلته فهو ما قال كلاما رددا
قال لى يلعب : صد لى طائرا فترانى الدهر أجرى بالكدا(١)
وإذا استنجزت يوما وعده قال لى يمطل : ذكرنى غدا
شربت أعضاؤه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ ، بل غادة ممكورة عممت صبحا بليل أسودا(٢)

---

(١) الكدا بضم الكاف : الصحراء .

(٢) الممكورة من النساء : المستديرة الساقين ، أو المطوية الخلق ، يقال : امرأة ممكورة الساقين أى جدلاء ـ اللسان .

٥١ — ولشاعر اندلسى لما استولى المسيحيون على بلنسية يخاطب صاحب إفريقية ابا زكريا عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية ، فاحبها ... من عاطفاتك ما بقى حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تردد على أعقابها أرزاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ... ترجو بيحي المرتضى إحياءها
واستشرفت أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يا حسرتى لعقائل معقولة ... سئم الهوى نحو الضلال هداءها
إيه بلنسية ، وفى ذكراك ما ... يمرى الشئون : دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شب الأعاجم دونها هيجاءها
وإلى ربا وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع ، مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كشف الضلال صياحها ... فيخاله الرائى اليه مساءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجع نوحها وبكاءها
عجبا لأهل النار حلوا جنة ... منها تمد عليهم أفياءها
صفحا جميلا أيها المولى الرضى ... عن محكمات لم نطق إحصاءها
تقف القوافى دونهن حسيرة ... لا عيبها تخفى . ولا إعياءها

فلعل عليا كم تسامح راجيا إصفاءها ، ومؤملا إغضاءها

٥٢ — وقال بعضهم يندب طليطلة :

أما وأبى مصاب هد منه ثبير الدين ، فاتصل الثبور
القد قصمت ظهور حين قالوا أمير الكافرين له ظهور
ترى فى الدهر مسرورا بعيش ، مضى عنا لطيته السرور ؟
أليس بها أبى النفس شهم يدير على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقاب كن غلبا وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل وسامح فى الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها حماها ، إن ذا نبأ كبير

وصف الشعر الأندلسى

— ١ —

عندما دخل العرب الأندلس واستراحوا من الغزو ، رجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم وهى قرض الشعر ، فالشعر هو متعتهم النفسية وغذاؤهم الروحى ، ومرآة لحياة العربى الاجتماعية والنفسية يتغنى به فى حله وترحاله . ويذكر فيه مايمر بخلده من حب وبغض ، ويرسم مايحيط به من جمال الطبيعة وماتلهمه روحه من خيال بديع ، فأخذوا يقولونه فى أغراضه التى فشت فى الشرق وفى أغراض أخرى جديدة ، وكان من الأسباب التى دعت إلى نهضة الشعر فى الأندلس :

١ ـ طبيعة بلاد الأندلس ومافيها من المناظر المختلفة ، والأمطار المتصلة والأدواح الظليلة ، والأنهار الجارية ، والسهولة الخصبة ، والجبال المكسوة والمروج الموشاة بألوان الزهر ، والقصور الشاهقة ، والرياض الغناء . والغوانى الحسان . كل ذلك أكسب الوجدان لطفاً ، والمعانى دقة ، والألفاظ جمالا وروعة .

٢ ـ عناية الملوك والأمراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه ، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب ، وجمالا لكل عالم . أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة ، والرياضيون ، والأطباء ، والمؤرخون . كما أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه ، وبارين الرجال وقلن الجيد الممتع منه : كقول حمدونة الأندلسية تصف وادياً :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه ، فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

٣ ـ كثرة جمهرة العرب فى الأندلس . وتمكن السلطان فى أيديهم ، وشدة محافظتهم على تقويم لسانهم .

— ٢ —

مميزات الشعر الأندلسى وخصائصه :

أما مميزاته من حيث الأغراض : فإنه لما طاب للعرب العيش فى الأندلس

بتمكن سلطان بنى أمية ، ونقلت دواوين المشرق أخذوا يعنون بالشعر فى أغراض شتى شملت فنونه كل مرافق الحياة، فنظموا فى كل ما نظم فيه شعراء المشرق : من مدح وهجاء وفخر وحماسة ، وتهنئة ورثاء ، ووصف ، وغزل وخمر وندمان ونساء وغلمان وعبث ومجون ، وزهد وتصوف ، غير أنهم فاقوا المشارقة فى بعض أغراضه ، ونقصوا عنهم فى أغراض أخرى ، لأسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم ، ونظام معيشتهم ، وطريقة تثقيفهم .

ومن الأغراض التى فاقوا فيها المشارقة : الوصف ، ولاسيما وصف مناظر الطبيعة وجمال الكون : فوصفوا الرياض والبساتين والأشجار والثمار والأزهار والطيور ، ووصفوا السحاب والرعد والبرق وقوس قزح والبرك والأنهار والبحار ، وتوسعوا فى ذلك حتى أحلوه محل النسيب فى صدور القصائد ، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو ، وسير الجيوش ونشوب المعارك ، والقصور والتماثيل والفوارات ومجالس اللهو وآلاته والطرب والسمر .

ومن الأغراض الجديدة التى نظموا فيها :

١ ـ رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم : كقول صالح بن شريف الرندى م ٨٩٨ هـ يرثى الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

٢ ـ الاستغاثة والاستنجاد بالنبى صلى الله عليه وسلم وكبار الصالحين ، وترغيب ملوك الإسلام فى انقاذ البلاد ، وقد كثر ذلك فى القرنين : الثامن والتاسع ، حين توالت عليها غارات الإسبان ، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

٣ ـ نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها .

ومن الأغراض التى قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة ولم يجاروهم فيها :

١ ـ الشعر المشتمل على الحكم التى تسير مسير الأمثال .

٢ ـ الشعر المتضمن الآراء الفلسفية من نقد الشرائع ونظام الحكم وأخلاق الناس

وأما مميزاته فى ألفاظه وأساليبه : فإننا نرى فى الشعر الأندلسى سهولة فى الألفاظ وسلاسة فى التراكيب. ويرجع ذلك إلى أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ مالا تطيق من المعانى المزدحمة ، فالسر فى هذه السلاسة والعذوبة : سهولة طباعهم ولين أخلاقهم وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع ، فجاء أكثره جاريا مع الطبع ، ولم يبالغوا فى الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها ، وما كان يقع لهم منه فى عباراتهم جميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير تعمل ولا إجهاد خاطر .

وأما مميزاته فى معانيه : فإننا نجد معانى الشعر الأندلسى واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء ، لقلة المشتغلين منهم بالحكمة . وبغض العامة لها .. وغلب على الشعر الأندلسى الخيال البديع الذى نشأ فيهم من ضروب الجمال المنتشرة فى شبه جزيرتهم ، وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه ، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية فى شعرهم .

— ٣ —

وعندما أقام العربى فى الأندلس ظهر الشعر العربى فى هذه البيئة ، لما رآه العربى من جمال تلك البلاد . فكان عقله وخياله يمثلان حياتين : حياة البدو وحياة الحضر . وكان شعره منبعثا من هذين الأثرين، فظهر فيه جمال الفطرة، ونضارة الحضارة ، وجزالة البداوة، ورقة الخيال، والافتنان فى الجد والهزل والمجون ، ووصف العواطف والأهواء . وكان لحضارة تلك البلاد وجمال الطبيعة أعظم أثر فى نفوس الشعراء ، فجالوا فى كل شىء وقع عليه نظرهم ومر بخاطرهم حتى كان ذلك من مميزات الشعر فى الأندلس ومن أظهر خصائصه .

وقد ذاع الشعر فى كل طبقات الناس ، فكان من الشعراء : الخلفاء والأمراء والوزراء والنساء والفقهاء والحكماء الذين كانوا ينظمونه فى جميع المعانى .

ولما قام ملك بنى أمية هناك فسح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء فى مجالس

الأدب والغناء ، وأفاضوا عليهم بالأموال ، فاتخذ الشعراء ذلك وسيلة للتقرب إلى الحكام وكبار القوم بمدحهم والتملق إليهم ، ووصف مجالسهم وقصورهم ، ومعالم الحضارة فى بلادهم حتى كان الشعر صناعة ووسيلة إلى كسب المال ، وبالغوا فى مدح هؤلاء الخلفاء والأمراء استدراراً لعطاياهم. وقد ظهر فى هذا العصر جماعة من كبار الشعراء ، منهم : محمد بن هانىء ، وابن دراج القسطلى ، وأحمد بن شهيد.

وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب ، ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن سهل ، وعبد الجليل بن وهبون ، والوزير ابن عمار ، وملك قرطبة واشبيلية المعتمد بن عباد . وظهر فى دولة بنى الأحمر لسان الدين بن الخطيب وغيره من كبار الشعراء . وقد بقى الشعر زاهيا إلى خروج العرب من هذه البلاد وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهوراً ، لأنه مظهر الثقافة العربية ، ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية ، يشدو به العربى حيثما نزل وأينما ارتحل ، فيذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض ، ويصف فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها ، فكان لجمال بلاد الأندلس أثر فى عقله . ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه ، وعزته القومية وذكريات بلاده وأهله ما فتئت تلازمه . فكان عقله يمثل حياتين ، حياة البدو وحياة الحضر . ولقد احتفظ الشعر فى الأندلس بطابعه العربى كما انحدر من الجاهلية ، اقتصر فى مصادر إلهامه على المدح والرثاء والغزل والفخر . ذلك أن العرب بأسبانيا عاشوا فى حنين دائم إلى البلاد التى أنبتتهم واعتبروا أنفسهم مهاجرين. وكان الملوك منهم يزدحم الشعراء على أبوابهم كما كانوا يفعلون فى الشرق ، وكثر عددهم بين رجال الحاشية والبطانة ، وكانوا ينظمون فى المدح والفخر ، لأنهم نقلوا معهم أيضاً إلى بلاد الغرب العصبية .

على أن العرب امتزجوا بسكان البلاد ، واعتنق الإسلام فريق من الأسبانيين المسيحيين ، فنشأ جيل جديد من المولدين خفت لديه العصبية ، ولكنها لم تترك الفخر ، فظل يحتل مكانة بارزة فى الشعر ؛ وظلت قلوب العرب تضطرم حنيناً إلى بلادهم الأصيلة ، وظل القوم يحتفظون بالتراث العربى . وصاروا يتبادلون

مع المسلمين بالشرق آثار القرائح من شعر وتأليف . فنى عهد عبد الرحمن الثانى سافرت بعثة علمية من الأندلس إلى العراق وعادت منه بكتب العلم والفلسفة المنقولة إلى العربية . ورحل المغنى زرياب من بغداد إلى أسبانيا فعلم الطبقة الارستقراطية فيها الموسيقى والغناء . وظهر حينئذ فن الموشحات ، ومخترعه مقدم بن معافر الفريرى فانشطر الشعر بالأندلس إلى شطرين : اتباعى ، وجديد ، وانحرف الشطر الثانى عن تقاليد القصيدة ، ولكنه احتفظ بالفصحى .

نشأت فى أواخر خلافة الأمويين مدنية جديدة تقوم على العرب والمولدين والأسبانيين الذين تعلموا العربية ، وكان مركزها قرطبة ، وكانت مزيجاً من الحضارتين العربية والرومانية ، فشاعت فى قرطبة ألوان من اللهو والمرح تشبه ما كان فى بغداد مما يمثله كتاب ألف ليلة وليلة ، ولكن هذه الحياة الجديدة كانت تنقصها أبهة الشرق وفخامته ، ولكنه يضاف إليها تبسط فى المعائش ، وترهف فى إحساس العامة .

وكان عبد الرحمن الناصر قد أنشأ قصر الزهراء ومدينته . ولم يجد العرب فى الأندلس عهداً كذا العهد . عم فيه الرخاء وسادته الرفاهية والغبطة ، حتى صح فيه المثل العامى : مثل أيام العروس » .

فلا عجب إذا ازدهر الشعر على أنواعه وأخذت ترق حاشية الشعراء ويترهف إحساسهم . فهذا ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » يجمع تراث العرب فى كتابه : العقد الفريد . وظل الملوك والخلفاء على عادتهم من نظم الشعر وقرضه ، فمن ذلك قول المستظهر :

طال عمر الليل عندى منذ تولعت بصدى
ياغزالا نقض العهـ ـد ولم يعرف بوعد
أنسيت العهد إذا بتـ ـنا على مفروش ورد
واعتنقنا فى وشاح وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليـل تحكى ذهباً فى لازورد

وانصرف الغزل عن المادة، وصار يتجرد من المحسوسات متساميا إلى العاطفة المنزهة. ووضع ابن حزم، فقيه الأندلس وعالمها، كتابه «طوق الحمامة»، وضمنه تحليلا نفسيا للحب مازجاً بين النظريات المجردة والأقاصيص المروية، وأكثرها من مشاهداته وتجاربه الشخصية. وأسماه ابن حزم «الحب المهذب» أو «حب المروءة».

على أن ألوان الحياة بالأندلس وجو البلاد والإطار الذى كان يحيط بحياة الناس كل هذا كان أقوى شاعرية وأبرع جمالا وأعظم أثرا فى النفس من الشعر الذى ألهمه، وليس معنى هذا أن ذلك الشعر كان ضعيفاً، ولكنه ظل فى أغلبه اتباعيا لا يستطيع أن يسمو إلى جمال الأشياء التى تفيض الإلهام على الشاعر

وفى القرن الخامس الهجرى صار الشعر يجرى على كل لسان حتى قال ابن حيان: إنه كان باستطاعة الفلاح الذى يحرث الأرض أن يرتجل الشعر فى أى موضوع يعن له، وظل المدح النوع البارز فى الشعر. لأنه ما كادت الخلافة الأموية بأسبانيا تنهار حتى انقسمت الدولة إلى دويلات صغيرة على رأس كل واحدة منها ملك أو أمير، وقد عرفوا فى التاريخ باسم ملوك الطوائف، وكان كل واحد منهم يحتفى بالشعراء ويضمهم إلى بطانته فينظمون له المديح ويسطرون محامده. فلا بدع إذا كثر شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح.. وكان الكثيرون من أولئك الملوك والأمراء يتذوقون الشعر أو ينظمونه، وكان أبرزهم أبو القاسم بن عباد المعتمد على الله صاحب اشبيلية، فقد كان شاعرا، وعاش فى حياة فيها ألوان الشعر ومظاهره، وقرب الشعراء. بل لم يستوزر إلا من كان أديبا.

وكان أبرز شعراء ذلك العصر ابن زيدون، الذى استوزر لابن عباد، ولولادة بنت المستكفى، وكانت بينهما صلات ومطارحات شعرية. وإذ زخر شعرهما بالمحسنات اللفظية امتاز أيضا بجودة الألهام وبراعته. ويجدر التنويه باسم ابن عمار، صديق ابن عباد أيضاً. وهو من الشعراء فى ذلك العهد

وقد نظم فى سائر أبواب الشعر وفنونه ، وكان شعره قوى الالهام .

وفى عهد المرابطين ظهر ابن قزمان . واستحدث فى الشعر فن الزجل ولكن القصيدة التقليدية ظلت فى ذلك العصر ، وفى عهد الموحدين ، محتفظة بمكانها الأول فى الشعر الاتباعى الذى ظل آخذا مجراه . وكان من أشهر رجاله: ابن خفاجة وابن زمرك .

وأخذت دولة العرب بأسبانيا تنهار شيئا فشيئا . وتقع المدن بأيدى المسيحيين واحدة بعد الاخرى. حتى لم يبق إلا غرناطة التى انحصر فيها النشاط الادبى وتكاثر الشعراء فى بلاطها، وكان أشهرهم لسان الدين بن الخطيب.. على أن هذا المعقل الاخير للعرب لم يلبث أن استسلم للاسبانيين فى عام ٨٩٧ هـ — (١٤٩٢) م .. فانتهت العربية وآدابها من الاندلس .

— ٤ —

وقد حافظ العرب فى الاندلس على تقاليد الشعر العربى وأوزانه وقيود القافية فيه . ويقول البعض إن شعراء الاندلس تأثروا بطبيعة البلاد ، فاختلف شعرهم عن شعراء المشرق من حيث الإلهام والصور ، ويقول الآخرون: إن هذا التأثر قليل لم يبرز فيه إلا نفر من الشعراء من أمثال ابن حزم. ولكن الاكثرية الغالبة نسجت على غرار شعراء المشرق فلم تخرج على الشعر الاتباعى. وثابرت على النظم فى موضوعاته المختلفة كالغزل والنسيب والمدح والرثاء والفخر . وقد كان عدد شعراء الأندلس كثيرا ، وكان شعرهم طيباً ناضجاً يعبر عن الإسلام فى ذلك العهد، ولكنهم على كثرة عددهم لم ينبغ فيهم شاعر عبقرى يعادل أبا الطيب المتنبى أو أبا العلاء المعرى .

ولم يستطع الشعر العربى الاتباعى أن يخلق جوا خاصا بالأندلس لأنه ظل خاضعا لتقاليد الشعر فى الشرق العربى ، كما ظلت قرطبة محافظة على تقاليد دمشق وبغداد فى الحكم والحياة العامة .. أما ذلك الجو الخاص الذى يتأثر بطبيعة البلاد الجديدة التى امتلكها العرب ، فهو موجود فى الموشحات والزجل . وهذان الفنان — فضلا عن مميزاتهما — يثيران مشاكل لغوية وأدبية عديدة

وكان جديراً بعرب الأندلس أن يوفقوا إلى خلق أنماط من الشعر خاصة بهم ، وقد وفقوا إلى ذلك فى الموشحات التى كانت تنظم باللغة الفصحى ، والأزجال التى كانت تنظم بالعامية ، وهما بمثابة دم جديد يلقح به الشعر العربى ؛ ويستمد منه حياة نابضة قوية لأن فيهما انفكاكا من قيود القصيدة . .

وتتألف القصيدة عادة ، سواء الموشح منها أم الزجل ، من بيت أو أكثر إلى ثلاثة أبيات فى مستهلها تسمى «المركز» وتأتى بعدها المقطوعات من خمسة إلى ثمانية أبيات من الشعر تتألف من « الأغصان » ، وهى ذات قافية أو قواف مستقلة . وتنتهى ببيت من الشعر يقال له « السمط » توافق قافيته قافية «المركز» . وكانت هذه الموشحات والأزجال ، وخاصة الأزجال . تنظم للغناء ، وكانت آلات الطرب تتألف من المزمار والقيثارة والصاجات . وكان المغنى يفتتح الغناء بالمركز ثم بالمقطوعة ثم يعيد المركز . ويشترك معه فى غناء هذا الاخير جمهور من الحاضرين . وكانت قافية « السمط » إيذاناً للجمهور بأن يشتركوا مع المغنى فى إنشاد «المركز» .

أما الموشح الذى كان المستشرق الالمانى « هارتمن » ممن توفر على دراسته فى بحث ظهر له سنة ١٨٩٧ ، فقد استنبطه مقدم بن معافر الفريرى . وكان أعمى . وسيرة مقدم هذا فكاد تكون مجهولة . فلم يصلنا من أخباره إلا النزر القليل . ولم يلبث الموشح أن ذاع واشتهر وتناوله كثيرون من الشعراء فنظموا فيه ، ومن هؤلاء : ابن عبدربه ، صاحب «العقد الفريد» . وعبادة القزاز والاعمى الطليطلى وابن شهيد . وابن بقى . وأبو بكر الابيض . وأبو بكر بن باجة . وابن سهل . وابن الخطيب . وابن زمرك . وانتقل فى أوائل عهده إلى الشرق ، فكان من أوائل المبرزين فيه : ابن سناء الملك : ويعتبر الموشح وسطا بين الشعر الاتباعى

العربى ـ أى القصيدة ـ وبين الزجل . لان الشاعر يلتزم فيه اللغة الفصحى ، أما الزجل فينظم بالعامية . وقد استحدثه أبو بكر بن قزمان . ولم يلبث الزجل أيضاً أن اشتهر وذاع فى سائر البلاد العربية حتى قال ابن سعيد : إن أزجال ابن قزمان رويت ببغداد أكثر مما رويت فى حواضر المغرب وكان محيي الدين ابن عربى — وهو أندلسى ولد بأشبيلية وتوفى بدمشق حيث دفن فيها وقبره هناك معروف — أول من استخدم الزجل فى نظم الأوراد والاناشيد الصوفية . وكذلك نجد فى الشعر العبرى فى ذلك العهد نوعاً ينظم على طريقة الزجل العربى وأخذ غليوم التاسع «دوق أكيتانيا» الزجل ونظم على غراره باللغة البروفنسية .

ولا نعرف كثيراً عن سيرة ابن قزمان صاحب فن الزجل . ويجب أن نعتمد على ديوانه فى ذلك . وهو لم يكن عربيا خالصا بل من طبقة المولدين وله عم عرف باسمه ، وكان مثله شاعراً . وكثيرون خلطوا بين الاثنين فقالوا إنه ولد فى أوائل القرن الخامس الهجرى فإذا صح ذلك كانت حياة ابن قزمان قد طالت مائة وأربعين سنة . أما الحقيقة فانه ولد بعد معركة « الزلاقة » بقليل أى فى نحو سنة ١٠٨٦ م ٤٨٠ هـ بمدينة قرطبة ، وطاف بأشهر مدن الأندلس فزار اشبيلية وغرناطة واتصل بأمرائها وتوفى فى سنة ١١٥٩ - ٥٥٣ هـ ، وكان يعرف اللغتين العربية والرومانية . وقد نظم فى صباه الشعر العربى على الطريقة الاتباعية ، ثم لم يلبث أن صدف عنه الى الزجل الذى استنبط طريقة نظمه ، وقد أشار إلى ذلك ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما ، وقيل فيه انه عمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد من شعراء عصره .

أما ديوانه فوصلت منه إلينا نسخة واحدة كتبت بمدينة صفد بفلسطين فى القرن الثامن الهجرى ، وهى محفوظة بمكتبة ليننجراد . وقد توفر على نشرها فى سنة ١٩٣٣ تشكى ضليع باللغة الرومانية يدعى « نيكل » ولكنه نقل الأزجال كما وجدها فى النسخة الخطية ، وهى رديئة الخط كثيرة الأخطاء ، دون أن يعنى بتصحيحها فجاءت فيها مقطوعات مبهمة غير واضحة المعانى .

فانبرى لها المستشرق « كولان » فاصلح أخطاءها وقوم ألفاظها حتى وضحت معانيها إلا فيما ندر ، وبذلك سهلت دارسة الديوان من ناحية اللغة على الباحثين ، وهم حفيون بأزجال ابن قزمان ، حريصون على تمحيصها ودرسها ، هذا من حيث اللغة ، أما من ناحية قيمة الديوان الشعرية فتظهر واضحة قوية من أشعاره نفسها ، وقد تناول فيها ابن قزمان موضوعات كثيرة ، وصور نفسه تارة حسن المعاشرة يشرب الخمر ويغازل النساء ، وطوراً أفاقا فقيراً كثير الأسفار للتكسب وطلب الرزق . ويبلغ عدد قصائد الديوان ١٤٩ قصيدة تختلف فى شكلها ، أكثرها منظوم على طريقة الزجل المعروفة ، أى أن المركز يدل على موضوع القصيدة ، ثم يتناول الشاعر هذا الموضوع فى المقطوعات التالية .

أما موضوعاته فمختلفة أيضاً . وثلثا قصائد الديوان فى المدح ؛ جرى فيها الشاعر الزجال على طريقة الشعر العربى من حيث استهلالها بالغزل والنسيب ، ثم ينتقل إلى المدح . فكان بين الذين أكثر من مدحهم ابن قزمان أبو القاسم أحمد بن حمدين ، وأخوه حمد بن حمدين القاضيان بقرطبة . وله تعريض بالمرابطين الذين كانوا يحكمون الأندلس .

وله ثلاثون زجلا فى الغزل وعشرة فى الخمر وربما مزج بين الخمر والنسيب ، فأطلعنا على أنماط من هزله ونزقه وإدمانه الخمر وبؤسه وفقره . ولكن هذا الشعر أقرب منالا ، وأبرع تصويراً وأكثر دلالة على شخصية صاحبه من غيره من أزجال الديوان ، وقد جرى ابن قزمان فى خمرياته على طريقة أبى نواس ، ولكنه طبع شعره بطابعه الشخصى القوى . وهكذا استطاع هذا الأديب المسلم أن يزيد فى ثروة بلاده الفنية ، وأن يستحدث فيها فنا جميلا جديداً لم يلبث أن اجتاز حدود تلك البلاد إلى الغرب وانتشر فيها كلها . وقد أخذ شيوخ الصوفية وأهل الذكر ينظمون أورادهم

وأناشيدهم أزجالا يضمنونها ألوان الوجدالتى اشتهروا بها ، وهى لاتقل جمالا وروعة عن شعر التصوف الذى جرى به بعد ذلك لسان بعض القديسين بأوربا وقدكان ابن عربى أول من نظم الأزجال الصوفية . ثم جرى مجراه كثيرون نذكر منهم الششترى .

ولما استحدث شعراء الأندلس الموشح والزجل فى القرن الثالث الهجرى كان ذلك تخفيفا لبناء القصيدة الاتباعى وقيودها فى الوزن والقافية . إذ خرجوا به على قيود القافية الواحدة والوزن الواحد ، وصاروا يتصرفون فى الوزن والقافية معاً . والموشح لايختلف فى أساليب نظمه عن الزجل ، إلا أن الشاعر فى الأول يستخدم اللغة الفصحى ، وفى الثانية ينظم بالعامية ، أما فى تأليف القصيدة فكلا الفنين يدرجان على نمط واحد من حيث « المركز » و « الأغصان » و « السمط » ، وقد وضع الزجل فى أصله للغناء وقد أرادوا بنظمه وغنائه إخضاع الشعر للنغم .

— ٥ —

وقد تأثر الاسبانيون بطريقة الموشحات العربية الاندلسية وبالزجل وذلك فى القرن الثامن الهجرى فى حين لم يكد يبزغ فجر القرن السادس الهجرى حتى أصبح منتشرا بين شعراء « لانجدوك » و « بروفانس » بفرنسا وقد عنى « جوليان ريبيراء الأسبانى بدراسة هذا الموضوع ونشر فى سنة ١٩١٢ بحثا قال فيه : إن ظهور هذا النوع من نظم الشعر بفرنسا لم يكن وليد المصادفة ، بل علينا أن نبحث عن أصله فى الموشح وشعر الزجل العربى ، من حيث الإلهام والوزن وتنويع القافية ، بعد أن انقضى العهد الذى كان الشعراء فيه ينسجون على منوال الشعر اليونانى اللاتينى . ولاشك فى أن الشعر طاف شواطىء البحر المتوسط حتى انتهى إلى أوربا سالكا طريقه من بلاد اليونان إلى أوربا فأسبانيا ، ومنها — بواسطة العرب — إلى فرنسا .

ومن مؤيدى رأى قيام الصلة بين الزجل العربى بأسبانيا وشعر التروبادور بفرنسا : « نيكل » و « تالجرين » و « روبير بريفو » ، وقد نشر هذا الأخير

كتابا فى هذا الموضوع ومن معارضيه المستشرق البرتغالى « رودريجيز لابا » الذى قال إن هذا النوع من نظم الشعر كان موجودا باللغة الرومانية فى شبه جزيرة اسبانيا قبل ابن قزمان ، ولكنه لم يقدم دليلا واضحا على نظريته ؛ وكذلك قال بعض المستشرقين الألمان (١) والبحاثة الفرنسى «جابروا» الذى يدعى أن البراهين التى يقدمها مؤيدو الرأى ليست قاطعة الدلالة عليه ، ويقول : إن شعر «التروبادور» قد يكون فى أوزانه وقوافيه مأخوذا عن بعض الشعر اللاتينى المستحدث .

ولايخفى « منيندز بيدال » عقيدته بأن طريقة نظم الزجل انتشرت فى مقاطعة البروفانس وفى أوربا منذ أخذها غليوم التاسع أمير أكيتانيا عن الأندلسيين . ولكن يلاحظ أن شعراء التروبادور - فى أول عهدهم بالنظم على هذه الطريقة - لم يعنوا بنظم « المركز فى مستهل القصيد ، وهو اعتراض لايعترف « منيندز بيدال » بأصالته ، لأن المركز وضع فى الزجل العربى ليردده الجمهور مع المغنى بعد انتهائه من كل مقطوعة . وكان الجمهور كبير العدد بأسبانيا ؛ أما فى مقاطعات فرنسا فقد كان الشاعر (التروبادور) يغنى بشعره عادة فى القصر أمام الأمير وزوجته وبعض بطانته من نساء ورجال ، وهذا جمهور قليل العدد لايكفى لترديد المركز مع الشاعر بعد كل مقطوعة . على أنه لم يلبث شعراء التروبادور أن استهلوا قصائدهم بالمركز فى القرنين السادس والسابع الهجرى .

واذا كان تجانس الأوزان فى الزجل العربى وشعر التروبادور الفرنسى وتنظيم القوافى على نمط واحد فيهما لايقيمان الدليل القاطع فى نظر البعض على صلة التجانس بينهما ، فإن بعض المستشرقين يرى فى الأدلة التاريخية والموضوعية شهادة حاسمة على ذلك .

---

(١) ينكر الألمان تلك الصلة بين الزجل وشعر «التروبادور» ، لأنهم يدعون أن القوط أخذوا طريقة نظمهم للشعر عن قدماء الألمان وأنهم جاءوا بها من ألمانيا .

أما من حيث الموضوع فإن شعراء الزجل العربى وشعراء التروبادور لم يكتفوا بنظم ذلك النوع من الغزل الرقيق الحاشية الذى كانوا يستلهمونه مما أسموه بالعربية «حب المروءة» ذلك الحب الذى أخذه شعراء البروفانس الفرنسية عن اسبانيا الإسلامية، وبسط أصوله ومميزاته ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة»، بل إن الفريقين تعديا هذا الحب المجرد إلى الحب الشهوانى، وقد خلق شعراء التروبادور حول المرأة نفس الجو الذى خلقه شعراء العرب، وأحاطوها بالأشخاص الذين أحاطها بهم هؤلاء الشعراء، فعندهم أسماء خاصة كالتى عندنا للدلالة على الرقيب والواشى والعذول والحسود. وعند شعراء العربية أن الطاعة من شروط الهوى، ولهم فى ذلك الشىء الكثير. وعند ابن حزم أن من أحب أطاع، وهذا ما نجده عند غليوم التاسع وزمرته ممن أتوا بعده، فهم يخاطبون المعشوقة بقولهم: مولاى و (سيدى) كما كان يفعل شعراء العرب؛ ويحذون حذوهم فى مخاطبة المرأة أو التحدث عنها فى شعرهم بضمير المذكر، ويصفون مثلهم تباريح الجوى وآلام الحب واللوعة .. ويرى بعض المستشرقين أن كلمة (تروبادور) — التى أطلقت على أولئك الشعراء، والتى لا يعرف مصدرها فى الفرنسية — مأخوذة من كلمة «الطرب» العربية لأنهم كانوا يتغنون بشعرهم فكيف نفسر كل هذا الذى أخذه شعراء التروبادور عن العرب، إلا أنهم اتصلوا بهم فى أسبانيا فى أثناء رحلاتهم إليها فسمعوا أزجالهم وحفظوها وتأثروا بها فنظموا على منوالها ؟!

وعلى أى حال فان غليوم التاسع هو أول شعراء التروبادور وأول من قلد الأزجال العربية فى الشعر البروفانسى؛ وكان يعرف العربية وكان غليوم هذا فى عنفوان الشباب عندما رحل إلى الاندلس سنة ١١٠١م — ٤٩٤ ورحل إليها مرة أخرى عام ١١٢٠ م ٥١١ هـ.

ومن أوائل شعراء «التروبادور»: الكونت «دى بواتيه» الفرنسى وكان معاصرا لابن قزمان، وقد اشترك فى حملات كثيرة قام بها الفرنج ضد

المسلمين فى اسبانيا ، وكان قبل اشتراكه فى هذه الحروب ينظم أشعارا لاقافية لها تختلف كل الاختلاف عن الأشعار التى نظمها على نسق الأزجال الأندلسية عقب اتصاله بالعرب فى الحروب التى اشترك فيها ضدهم . وشعراء « التروبادور » هم الذين وضعوا أسس الشعر الفرنسى وأدخلوا فيه تلك الألوان الغزلية التى نقلوها من زجل ابن قزمان وغيره ومن أشعار العرب فى الاندلس . ويقول المؤرخ الانكليزى «جورج كولان» : «إن للاندلسيين موشحات وأزجالا هى أقرب إلى أن تكون أصل أغانى « التروبادور » التى انتشرت حتى عمت أوربا » . ويقول نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب العرب » : « إن الشعر الأوربى كان قبل اتصال الأوربيين بالعرب شعرا ساذجا لا قافية له ، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية ، وسائر الأشعار الأوربية على العموم كانت خالية من القافية ، حتى الشعر اليونانى الذى لم تعهد فيه القافية على الرغم من ازدهاره ورقيه منذ القدم » . ويقول المستشرق « ماكيل » : « إن أوزان الشعر الشعبى القديم فى إيطاليا — كما فى أناشيد جاكوبونى وفى أغانى المرافع — لا تختلف عن أوزان الشعر العربى الأندلسى » ، ويقول الكاتب الايطالى « كيتانى » فى كتابه « نصيب الاسلام فى تدرج المدنية » : « إن الذى كان لدانتى الشاعر الايطالى من واسع الخيال وجمال التصوير فى شعره ليس إلا أثرا لما كان فى قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيام كانت أوربا تخبط فى جهالتها » .

— ٦ —

وقد تأثر الشعراء فى اسبانيا وفرنسا وجنوب إيطاليا بالشعر العربى فى الأندلس تأثرا كبيرا ، وأثر الشعر الأندلسى فى الشعر الغنائى ، وكان له الفضل فى ظهور المقطوعات الشعرية المقفاة التى تحاكى الشعر العربى فى أفكاره وأخيلته ، والطابع الذى اتسم به الشعر الفرنجى من وصف مناظر الطبيعة وتصوير جمال الحياة لايختلف عن طابع الشعر الأندلسى مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسى . يقول « لويس قيارد و » فى كتابه « تاريخ العرب والبربر فى اسبانيا » : كان الشعر الفرنسى على مثال الشعر الاسبانى

المأخوذ عن الشعر العربى لا عن اليونانى ولا عن الرومانى ، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الثامن الهجرى حتى يقلدوه . . ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب ، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسبان الذين كانوا يفدون اليهما » . ويقول « ريبرا » الذى عنى بدراسة التراث الإسلامى فى أوربا : إن الملاحم الفشتالية احتوت ألفاظا عربية كالغارة والدليل والقاضى والمغفر والطلائع وغيرها مما يثبت أثر الأدب الأندلسى وشعره فى صميم هذه الملاحم . وجاء فى خطبة للسيو « لاجير » بمؤتمر المستشرقين فى مرسيليا عام ١٨٧٦ : إن العرب تركوا فى الأندلس أثرا لايزالون يذكرون به إلى الآن فى العلوم والآداب والفنون ، ولقد أخذت عنهم فرنسا كثيرا من ذلك . وقال المؤرخ الأسبانى « كوند » : إن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به ، ولا شك أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ، ويقول باحث(١) : إن معظم ما جاء به دانتى الشاعر الإيطالى كان قد ألفه قبله محيى الدين العربى ، وهذا الشبه لم يقف هنا بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية .

صور فنية من الشعر الاندلسى

— ١ —

كان بسوسة بإفريقية رجل يسمى سليمان بن محمد المهدى الصقلى من أهل العلم والأدب والشعر ، وكان يهوى غلاماً ، وكان كلفا به ، والغلام يتجنى عليه ، ويعرض عنه ، فبينا هو ذات ليلة يشرب وحده ، وقد غلب عليه السكر ، إذ خطر بباله أن يحرق على الغلام داره ، فأخذ قبساً فجعله عند باب الغلام وأشعل ناراً ، فاتفق أن رآه بعض الجيران ، وبادروا النار بالإطفاء ، فلما أصبحوا أعلموا القاضى ، فأحضره وقال له : لأى شىء أحرقت باب الغلام ؟ فأنشأ يقول :

---

(١) ١٢٣ التصوف الإسلامى ـ للطيباوى

لما تمادى على بعادى وأضرم النار فى فؤادى
ولم أجد من هواه بداً ولا معيناً على السهاد
حملت نفسى على وقوفى ببابه حملة الجواد (١)
فطار من بعض نار قلبى أقل فى الوصف من وقاد (٢)
فأحرق الباب دون علمى ولم يكن ذاك من مرادى

فاستظرفه القاضى ، وتحمل عنه ما أفسده ، وأخذ عليه ألا يعود ، وخلى سبيله ! ! .

— ٢ —

وقفل مير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) من غزوة الأراكة سنة ٥٩١ هـ ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل قصيدته ، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين ، أو الثلاثة المختارة ، فأنشده أحدهم :

ما أنت فى أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين فى الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمى كما أحياه جدك عبد المؤمن بن على

فأمر له بألفى دينار ولم يصل غيره من الشعراء عملا بقولهم : « منع الجميع أرضى للجميع » ، وانتهت إليه رقاع الشعراء وغيرها ، وتراكمت حتى حالت بينه وبين ما أمامه .

— ٣ —

ذكر الفتح بن خاقان أن ذا الوزارتين القائد عيسى بن لبون ، كان بمجلس مشرف على بطحاء قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مطرفها ، وفيها حدائق

---

(١) هو بالضم : العطش أو شدته
(٢) الوقاد ككتاب والوقود كصبور : الحطب

ترنو عن مقل نرجسها ، وتبث طيب تنفسها ، والجلنار قد لبس أردية الدماء ، والراح قد ملك أفئدة الندماء ، فقال :

قم يانديم أدر على القرقفا أو ما ترى زهر الرياض مفوفا (١)
فتخال محبوباً مدلا وردها وتظن نرجسها محبا مدنفا (٢)
والجلنار دماء قتلى معرك والياسمين حباب ماء قد طفا

— ٤ —

كان ذو الوزارتين أبو بكر بن رحيم ، قد مال مع أصحابه إلى إحدى جنات مرسية ، فخلوا منها فى قبة فوق جدول مطرد ، وتحت أدواح طيرها غرد ، وإذا بالجنان وقف عليهم ، وقال كان بموضعكم هذا بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة ، وخدود غير مستورة . فاستدعى الوزير فحما ، وكتب على إحدى زوايا القبة :

قادنا ودنا إليك فجئنا بنفوس فدتك من كل بوس
فنزلنا منازلا لبدور وحللنا مطالعاً لشموس

— ٥ —

قال أصحاب القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى : ركبنا لبعض الأمر فى موكب حافل من وجوه الناس ، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل ، فلما رأى القاضى هابه ، وأراد الانصراف فخانته

---

(١) القرقف : كجعفر اسم الخمر ، يرعد منها صاحبها ، قيل سميت قرقفا لأنها تقرقف صاحبها أى ترعده ، وأنكر بعضهم أنها تقرقف الناس ، وقال الليث : هى اسم للخمر . المفوف : كمعظم ، برد رقيق ، أوفيه خطوط بيض .

(٢) دنف المريض ثقل ، وأدنفه المرض ، فالمريض مدنف ومدنف ، بصيغتى الفاعل والمفعول .

رجلاه واستند إلى الحائط وأطرق ، فلما قرب منه القاضى رفع رأسه ، وأنشأ يقول :

ألا أيها القاضى الذى عم عدله ... فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة ... فلم أر فيه للشراب حدوداً
فان شئت أن تجلد فدونك منكباً ... صبور على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة ... تروح بها فى العالمين حميداً
وإن أنت تختار الحديد فإن لى ... لساناً على مر الزمان حديدا

فلما سمع القاضى شعره ، وميز أدبه ، أعرض عنه ، وترك الإنكار عليه .

— ٦ —

غنى الوزير أبو بكر بن رحيم فى بعض الليالى بهذا الشعر :

بدا فكأنما قمر على أزراره طلعا
وقد خلعت عليه الرا ح من أثوابها خلعاً

وكان من الحاضرين من استحسن الشعر ، فرغب إليه فى تذييله ، فقال :

فأهدى من محاسنه إلى أبصارنا بدعا
فلما فت أكبدنا وحاز قلوبنا رجعا
ففاضت أعين أسفاً وفاضت أنفس جزعا (١)

— ٧ —

استدعى المتوكل الأديب الحكيم أبا الفضل بن شرف ، فى يوم ماطر ، ونسيم روض عاطر ، فصحبته فى ممشاه إليه سحابه ، بلت عليه ثيابه ، فلما دخل على المتوكل أدناه ، وأكرم مثواه ، وهزه إلى القول فى ذلك فاهتز ، وقال :

---

(١) يقال فاض الماء فيضا وفيضوضة وفيضانا : بمعنى كثر حتى سال ، وفاضت =

صاحبنا الغيث الى الغيث لكنه غيث بلا غيث
سحابة تهمى حياها سرى لا تخلط الإعجال بالريث
ياليث غاب حسنه باهر والحسن لا يعرف لليث
أحلنى قربك فى موضع يجل عن أين ، وعن حيث (١)

—٨—

رأى الشنترينى نجما جرى فى السماء ، وترك وراءه مستطيل ضياء ، فقال :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا للسمع فانقض يذكى إثره لهبه
كفارس حل إحضار(٢) عمامته فجرها كلها من خلفه عذبه !!

—٩—

ركب المعتمد بن عباد المتوفى عام ٤٨٧ هـ للتنزه بظاهر إشبيلية ، فى جماعة من ندمائه ، وحشد من شعرائه ، فلما بعد أخذ فى المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقا ، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت ، وبرزت فيها ثمرة ، فسدد اليها عصا كانت فى يده فأصابها ، وثبتت فى أعلاها فأطرب ذلك ، والتفت ليخبر من لحقه من أصحابه ، فرأى ابن حاج الصباغ أول لاحق به ، فقال أجز :

كانها فوق العصا . . . . . .

فأجابه مسرعاً :

. . . . . هامة زنجى عصا

وابن حاج هذا كان صباغا عاميا ، ولكنه قال الشعر فاشتهر أمره حتى جالس الملوك ، وقد مر عليه الوزير أبو بكر بن عمار المتوفى عام ٤٧٩ هـ فرأى مافعلت الصباغة بيده ، فأخرج زنده وأشار اليه ، وقال :

= نفس الرجل . وفاض الرجل فيوضا وفيضا : مات . (١) اى المكان
(٢) الاحضار : العدو

كم بين زند وزند . . . . . .

فقال ابن حاج : مابين وصل وصد

— ١٠ —

ذكر ابن بسام فى الذخيرة ، قال : اجتمع ابن عبادة وعبد الله بن القابلة البستى بالمرية فنظر إلى غلام وسيم يسبح فى البحر ، وقد تعلق بسكان (١) بعض المراكب فقال ابن عبادة أجز (٢) : انظر إلى البدر الذى لاح لك — فقال ابن القابلة : فى وسط اللجة تحت الحلك .

قد جعل الماء سماء له وصير الفلك مكان الفلك

— ١١ —

جلس المعتمد بن عباد يوما للشرب ، وبين يديه ساقية جميلة ، قد تقابل بدر وجهها بشهاب الكاس ، واتفق أن لمع البرق فارتاعت ، فقال بديها :

روعها البرق وفى كفها برق من القهوة لماع

عجبت منها وهى شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع ؟ !

فلما أعجبه البيتان ، استدعى فى الحال عبد الجليل بن وهبون المرسى ، وأنشده البيت الأول ، وقال أجز ، فقال :

---

(١) السكان : الدفة

(٢) الاجازة فى الشعر أن تكمل مصراع غيرك ، وقيل هى أن ينظم الشاعر على شعر غيره فى معناه مايكون به تمامه وكماله ، وهى مشتقة من الإجازة فى السقى ، يقال : أجاز فلان فلانا إذا سقاه وسقى له ، فكأنهم شبهوا قول الشاعر المجيز بعمل الشاعر ، والمجاز شعره بسقى الشخص للشخص ، قال ابن السكيت يقال للذى يرد الماء مستجيز ، قال ابن رشيق ويجوز أن يكون من أجزت عن فلان الكأس إذا صرفتها عنه دون ان يشربها الى من يليه وكأنهم شبهوا الشاعر لما تعدى باتمام شعره بمجيز الكأس ، قال أبو نواس : وقلت لساقيها أجزها فلم تكن لينهى أمير المؤمنين وأشربا

ولن ترى أعجب من آنس من مثل ما يمسك يرتاع (١)

— ١٢ —

قال الفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩ هـ ، فى كتاب القلائد : خرجت من اشبيلية لوداع كبير من المرابطين ، فوجدت معه الوزير أبا محمد بن مالك ، فلما انصرفنا عدنا متسامرين فمررنا بمرج حسن النبات ، بديع النوار ، فبادر مملوك من مماليكه ، وضيء الوجه إلى زهرة بديعة فاقتطفها وأتاه بها ، لتعجبه من حسنها ، فاقترح على أن أصفه ، فقلت :

وبدر بدا والطرف مطلع حسنه وفى كفه من رائق النور كوكب

فقال مجيزا :

يروح لتعذيب النفوس ويغتدى ويطلع فى أفق الجمال ويغرب
ويحسد منه الغصن أى مهفهف يجيء على مثل الكثيب ويذهب

— ١٣ —

ولم يقف تناول الشعر ومعاناته على طائفة دون أخرى ؛ فقد قاله الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد ، ونبغ فيه كثير من العوام مثل : ابن حاج الصباغ ، ويحيى القصاب ، كما برزت فيه النساء ، مثل : حسانة التميمية — وكانت على أيام الحكم (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) وابنه عبد الرحمن (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ومثل حفصة الركونية ، المشهورة بالجمال والمال والحسب ، ومثل ولادة بنت المستكفى ، صاحبة ابن زيدون ، ومثل اعتماد جارية المعتمد بن عباد ، وأم أولاده ، وقد كان أدبها

---

(١) يرى صاحب البدائع أن هذا البيت أحسن من بيت المعتمد .

سبب تقريبها ، فقد كان مع ابن عمار وزيره ، وقد ركبا النهر فمرت الريح ، فزردت صفحة الماء ، فقال ابن عباد لابن عمار ، أجز

صنع الريح من الماء زرد . . . . . .

فلم يستطع الوزير ، فقالت غسالة كانت على مقربة منهما ، هى (اعتماد) هذه :

. . . . . أى درع لقتال لو جمد

فطار بها المعتمد إعجاباً ، وشفع لها عنده أيضاً قسامة وجهها ، فضمها إلى جواريه .

— ١٤ —

وحدث لأبى عبد الله محمد بن عيسى أن خرج إلى حضور جنازة بمقابر القرشيين بقرطبة ، فمال إلى منزل صديق له ، فأحضر له طعاما ، وأمر جاريته فغنت :

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بحمرة خدك التفاح (١)

وإذا الربيع تنسمت أرواحه طابت بطيب نسيمك الأرواح (٢)

وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى على يده ، وخرج من عنده ، ثم رؤى يكبر لصلاة الجنازة والأبيات مكتوبة على كفه !!

— ١٥ —

ذكروا أن يوسف بن تاشفين لما حضر إلى الأندلس رغب الشعراء عن مدحه ، ولم يرضوا بالتقدم إليه ، لعلمهم بمكان الأدب من نفسه ، حتى رجاهم المعتمد فمدحوه ، وفيما كان الشعراء ينشدون ، قال له المعتمد : هل يعلم أمير المسلمين

---

(١) اللثة كعدة : اللحم الأحمر : تنبت عليه الأسنان .

(٢) أرواح الأولى : جمع ريح وياء ريح واو ، ومعنى تنسم الأرواح : انبعاثها نسيما لينا . وأرواح الثانية : جمع روح ، بمعنى النفس ، والجناس ظاهر الحسن ، حسن الموقع .

مايقولون ؟ قال لاأعلم ، ولكنهم يطلبون الخير . ولما انصرف يوسف إلى حاضرة ملكه ، كتب لمعتمد راله سالة فيها :

بتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولاجفت مآقينا
حالت لفقدكمو أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضا لياليا

فلما قرىء عليه هذان البيتان ، قال للقارىء : يطلب منا جوارى سوداً وبيضا ؟ فقال القارىء : لا يامولانا ، ماأراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن ليالى الحزن سود ، فقال : والله جيد ! اكتب له فى جوابه : « إن دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده » .

— ١٦ —

ذكروا أن الناصر ، كانت له جارية تسمى الزهراء ، وكان يحبها حبا شديداً فقالت له : اشتهيت أن تبنى لى مدينة تسميها باسمى ، فبناها تحت جبل العروس ، فى شمالى قرطبة ، وأتقن بناءها ، وجعلها متنزها ، ومسكنا للزهراء ، ونقش صورتها على الباب ، فلما قعدت الزهراء فى مجلسها ، ونظرت إلى بياض المدينة ، فى حجر ذلك الجبل الأسود ، قالت ياسيدى ! ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء ، فى حجر ذلك الزنجى الأسود ! ؟ فأمر بإزالة ذلك الجبل ، فقال له بعض جلسائه : أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له مايشين ! لو اجتمع الخلق على هذا الجبل ماأزالوه ، ولا يزيله إلا خالقه . فأمر بقطع شجره ، وغرسه تيناً ولوزاً ، فلم يكن منظر أحسن منه ، ولاسيما فى زمان إيراق الأشجار وإزهارها .

آراء فى الشعر الأندلسى

إن الشعر الأندلسى الذى تعوزنا عنه مئات الدراسات لازال فى حاجة ماسة إلى جهد الباحثين وجهادهم للكشف عن جوانبه ونواحيه الغامضة حتى اليوم .

والشعر الأندلسى كان يحفل بأعلام خالدة فيه ، من أمثال ابن هانىء متنبى المغرب ، وابن زيدون بحترى المغرب ، والأعمى التطيلى معرى المغرب ، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب ، وسواهم .

ويقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى من حديث له عن الشعر الأندلسى:

الدكتور نيكل(١) من ثقات العالم فى اللغة البروفنسية وفى شعر التروبادور الذى يعده مديناً للشعر العربى فى نشأته ، وله ذوق أدبى ناضج ، وشاعرية مرهفة ، وتضلع من اللغة العربية التى درسها كما درس القرآن الكريم والشعر العربى على شيوخ الأزهر ، إلى جانب تبحره فى لغات أوروبية متعددة بله سياحاته التى تعد وحدها ثقافة إنسانية ، ولا غرو إذا تتابعت بعد ذلك دراساته وكتبه مثل ترجمته الانجليزية لكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسى ، ومثل نشره كتاب « الزهرة » لأبى داود الأصفهانى بالاشتراك مع فقيد الشعر ابراهيم طوقان ، وديوان ابن قزمان القرطبى الذى ترجم بعضه إلى الاسبانية ، ناهيك بمحاضراته الجامعية الممتازة فى أمريكا وخارجها ، وله فضل أدبى على الشعر الأندلسى ، وإن أمامنا خمسة عصور للشعر الاندلسى تستحق

---

(١) له : كتاب المختارات من الشعر الأندلسى.

الدرس ، ألا وهى عصر بنى أمية ، فعصر ملوك الطوائف ، فعصر المرابطين، فعصر الموحدين ، وأخيراً عصر بنى نصر فى غرناطة وهو آخر أيام العرب فى الأندلس .

فاذا نظرنا فى نماذج العصر الأول : عصر الإمارة والخلافة الممتد ما بين سنة ست وخمسين وسبعمائة إلى سنة عشرين بعد الألف للميلاد . نجد لعبد الرحمن الداخل من الشعر الوجدانى التأملى البليغ الكثير ، وشعره جامع بين نصاعة الألفاظ وإشراق البيان وصدق العاطفة مع ملاءمة الموسيقى لما فيه من نزعة تأملية، وهذا أبو المخشى شاعره فى أيامه هو الذى مدح سليمان بن عبد الرحمن بشعر ؛ وتوهم عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه ، وكانت بينهما مباعدة ومنافسة ، فتعصب متعصب لهشام فسمل عينيه ، فقال فى العمى شعراً حسناً ، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية فأنشده إياه ، فرق له واستعبر ، ودعا بألفى دينار فأعطاه وضاعف له دية العينين . وهو الشعر الذى أوله :

خضعت أم بناتى للعدى ... أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً ، إنما ... مشيه فى الأرض لمس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قوله ... وهى حرى بلغت منى المدى
ففؤادى قرح من قولة ... « ما من الأدواء داء كالعمى »

وفى موسيقى هذه المقصورة صوت فجيعته وأنين لوعته وهى على غرار الشعر الأندلسى فى صدر الفتح الاسلامى من تماسك الألفاظ ومتانة التركيب وصدق العاطفة وروعة المعانى ... فاذا بلغنا ابن هانى الأندلسى الذى لقب بمتنبى الغرب، وجدنا الشاعرية المفتنة ، وان لبث تقليد المدح للحكام والمغالاة فى ذلك سنة فى الأندلس ، وهناك أشعار لشعراء كانت بهجة المجالس ؛ كما هى زينة المصنفات الأندلسية الأدبية، وكان بين أولئك الشعراء الحكام أنفسهم مثل الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذى اشتهر من غزله قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أوشكا الهوى زيد ظلماً ... وبعادا أدنى حماماً وشيكا

تركته جآذر القصر صباً مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد راضعاً فوق ترب للذى يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل للحـــر إذا كان فى الهوى مملوكا

وإن نفس لاننس بين أولئك السابقين ابن عبد ربه الشاعر الناثر القرطبى الذى كان يعجب به أبو الطيب المتنبى حتى وصفه « بمليح الأندلس » ، فقد كان شاعراً مفلقاً فى معظم شعره ، ولو أنه كان مكثراً . وهو من الرائدين فى الشعر القصصى كما يرى من أرجوزته فى تاريخ عبد الرحمن الناصر . وماعاب شعره إلا تطرق الجانب التعليمى إليه حينما تقدمت به السن وإيثار الموعظة والزهد على العاطفة التى هى روح الشعر . ويقول بروكلمان فى عرضه لمراحل التطور فى الشعر العربى بمجلة « الأدب الإسلامى » الصادرة عن مدينة لاهور فى يونية سنة ١٩٥٢ : إن شعراء العربية فى الأندلس تشربوا حب الطبيعة وجمالها ، فتألق شعرهم واشتهر فى الشرق وقلده كثيرون من الأدباء فى مصر وسورية ، وانتشر هذا الشعر الجديد فى القرون الوسطى بأنحاء العالم العربى جميعه ؛ حين لم يكن ثمة فارق كبير ما بين إنتاج شعراء البلاط فى فاس والقاهرة وجنوبى بلاد العرب . ونظرة مستقلة منصفة فى شعر ابن عبد ربه ترينا الشاعر المجدد كما ترينا الشاعر الكلاسيكى فى آن . وكثير من هذا الشعر يتضمنه كتاب « يتيمة الدهر » وكتاب « تاريخ علماء الأندلس » فضلا عن كتابه « العقد الفريد » وفى الجزء الثانى منه أرجوزته التاريخية الشهيرة فى عبد الرحمن الناصر ، وإن قيل إن له ديواناً كبيراً لانعرف أنه اهتدى إليه بعد . وهو على الإجمال محافظ ، حتى إنه انتقد بشدة فى إحدى قصائده مسلما أبا عبيدة القائل بكروية الأرض ! وعمر فوق الثمانين فشاخ شعره معه ، وراح ينقض شعره الغزلى السابق فى صباه بقصائد فقهية زهدية ، ومع ذلك لم يخل من الحكمة الآسرة

كما نرى فى هذا الشعر ، وهو آخر نظمه :

بليت وأبلتنى الليالى بكرها ... وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالى من تباريح علتى ... إذا كان عقلى باقياً ولسانى !

وهذا مثال من شعره الوجدانى المأثور :

أنت دائى وفى يديك دوائى ... ياشقائى من الجوى وبلائى !
إن قلبى بحب من لا أسمى ... فى عناء ، أعظم به من عناء !
كيف لا ؟ كيف أن ألذ بعيش ... مات صبرى به ومات عزائى
أيها اللائمون ! ماذا عليكم ... أن تعيشوا وأن أموت بدائى؟
«ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الاحياء»

وهذا مثال آخر لغزله :

بحب طوى كشحاً على الزفرات ... وإنسان عينى خاض فى غمرات
فيا من بعينيه سقامى وصحتى ... ومن فى يديه ميتتى وحياتى
بحبك عاشرت الهموم صبابة ... كأنى لها ترب وهن لداتى
فخدى أرض للدموع ومقلتى ... سماء لها تنهل بالعبرات !

وذلك مثال آخر فى «يوم الفراق» :

ودعتنى بزفرة واعتناق ... ثم نادت : متى يكون التلاقى
وتصدت فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب(١) والأطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتنى مت قبل يوم الفراق !

---

(١) الجيب : مكان العنق من الثوب .

ومثال آخر فى وصف رمح وسيف :

بكل ردينى (١) كأن سنانه ... شهاب بدا فى ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال فى طول متنه ... وعادت به الآمال وهى فجائع
وذى شطب تقضى المنايا لحكمه ... وليس لما تقضى المنية دافع
ويستل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه والموت رائع

وليس لابن عبد ربه ابتداع يضارع تفنن ابن هانى ولا عبد الملك بن شهيد ولا جرأة ابراهيم بن إدريس من شعراء العصر الأول ، ولكنه مع ذلك صاحب ألمعية انعكست على مرآتها موحيات زمنه فراح يجدد بالتوشيح والشعر القصصى ، كما انعكست على مرآتها ثقافته الدينية فصار المتزمت فى أواخر عمره ، وكان المحافظ فى معظم سنيه حتى إنه فى تأليفه (العقد الفريد) لم يعن بأدباء الأندلس وشعرائها ، وإنما عنى بأدباء المشرق وشعرائه فحسب ، عدا نماذج من شعره أتى بها ، حتى قال فيه الصاحب بن عباد : « هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، فاذا به يشتمل على أخبار بلادنا . لا حاجة لنا به ! »

ومهما يكن من شىء فابن عبد ربه ، ناظماً وناثراً ، كان حلقة اتصال متينة بين القديم والجديد فى عصره . وشعره فى الغالب شعر الذكاء والفكر ، وطاقته غير قليلة ، حتى قال فيه أبو الطيب المتنبى — على جلالة قدره — « يابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا ! »

ويستوقف نظرنا بين شعراء العصر الأندلسى الأول : منذر بن سعيد البلوطى الذى برز فى عهد الأمير المنذر وقد كان هذا الشاعر بربرى الأصل وقد أتم دراسته فى قرطبة التى ولد بحيرتها ، وبعد إتمام دراسته حج وبقى خارج الأندلس أربعين شهرا ، وقد تلقى فى القاهرة علوم اللغة عن الشيخ أبى جعفر

---

(١) الردينى : الرمح نسبة إلى ردينة وهى امرأة اشتهرت بتقويم الرماح .

أحمد بن محمد بن النحاس . وكان شيعى المذهب فلما عاد الى الاندلس عين فى منصب قاضى قضاة قرطبة وذلك فى عهد الناصر تقديرا لتصرفه البارع فى استقبال سفير امبراطور القسطنطينية ، إذ كان المقرر أن يستقبله الأديب أبو على القالى بخطاب الترحيب ، ولكن القالى روعه الموقف فلم ينبس ببنت شفة ، وفى هذه اللحظة الحرجة تقدم الشاعر منذر وارتجل خطابا سر منه الجميع ،وفى المقدمة ذلك السفير الذى أطرى الشاعر ونوه به كسياسى ممتاز . وقد ذكر أبو عامر بن شهيد فى كتابه (حانوت العطار) نماذج ثلاثة من شعره . وقد عمر الى الثانية والثمانين ، فلا بدع إذا أملى عليه طول اختباره هذا الشعر فى الموت والحياة :

الموت حوض وكلنا يرد ... لم ينج مما نخافه أحد
فلا تكن مغرما برزق غد ... فلست تدرى بما يجىء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به ... ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما ... فى الناس إلا التشنيع والحسد!

وسأله شاعر يوماً :

مسألة جئتك مستفتياً ... عنها ، وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا ... وأوجه العشاق فيها اصفرار !

فأجابه :

احمر وجه الظبى ، إذ لحظه ... سيف على العشاق ، فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى ... والشمس تبقى للمغيب اصفرار

وهذا من شعر الذكاء ، كما أن المثال السابق من شعر التأمل والتفلسف ؛ وقد اشتهر بدقة أحكامه وطهارة ذمته وحسن تصرفه ، وكل هذا يتلاءم مع مسلكه ، فى مستهل حياته . ولكنه مع ذلك لم يكن راضياً عن الوسط الذى يعيش فيه ،ولو أنه عاصر الناصر والحكم المستنصر فى عهديهما الذهبيين —

ذلك لأنه تعرض بنبوغه للحسد وللدسائس ولصنوف من الكيد نغصت عليه أيامه ، فقال فيما قال مثل هذا الشعر العاطفى القوى :

هذا المقال الذى ما عابه قند لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكننى منهمو فاغتالنى النكد
لولا الخلافة ، أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

ومما يؤسف له أن بيئة هذا الشاعر التى جنت عليه ونغصته رغم نباهة شأنه ونقاء ضميره وعفة يده وجنت كذلك على شعره الوجدانى الرائع كالمثل السابق . فأهمل شعره وضاع أو أضيع ، يقول استيفن سبندر الشاعر الناقد الأمريكى : إن الشعراء يستطيعون أن يوحوا إلى الأحزاب السياسية ، ولكن الشعراء أنفسهم يعانون عند ما تنجح القضايا الاجتماعية أو الدينية التى يدعون إليها وينافحون عنها ، وان هذا ما حدث حتى فى عصرنا الحاضر شرقاً وغرباً . وهكذا كان حظ الشاعر المثقف النزيه منذر بن سعيد البلوطى . ولا ريب أن الاهتداء إلى شعره الوجدانى الضائع الذى يصور فى الوقت ذاته زمنه وملابساته لمما يعد غنما للأدب ، ولعل هذا يتحقق يوما ما . وإن من الجناية على الأدب أن يحارب ويتلف من الإنتاج ما يخالف بيئة معينة أو عصرا من العصور ويستبقى ما يرضيها ويلائمها ولو كان الأول أسمى قدراً من الوجهة الفنية . فالفكر الإنسانى يجب تسجيله على علاته ، فان ماقد نظنه صالحاً فى وقت ما قد يحكم عليه التاريخ بالعكس فى عصر آخر . .

إن الشعر الأندلسى هو نتيجة التفاعل بين شعر القوطيين والإيبريين من ناحية والشعر العربى الكلاسيكى من ناحية أخرى ، فكلاهما أثر فى الآخر وكل من العرب والمستعربين أسهم فى إبداع الشعر العربى الجديد الذى تألق فى سماء الأندلس ، وإن لم يتميز تميزاً واضحاً فى بداية العصر الأول . ولكن أمراً واحداً كان جلياً من البداية فى ذلك الشعر وهو الحرص على الإيقاع

فى أدق صورة دون أى تساهل فى ذلك قد لا نراه فى بعض الشعر المعاصر ، كبعض الشعر اللبنانى وبعض شعر الزهاوى وفى الشعر الجاهلى ، وهذا موضوع تناوله بعض الكتاب فى مجلة (المقطف) تناولا فلسفياً بديعاً ، كما تناوله كتاب « بدائع العروض » . ولكن جمال الإيقاع — على أى حال — ليس إلا عنصراً من عناصر الشعر وليس روح الشعر ولا الشعر كله .

ومن بين شعراء العصر الأندلسى الأول الظرفاء المجيدين : عبد الملك ابن شهيد . وهو الآخر شاعر قرطبى صار فيما بعد حاجباً أو وزيراً للناصر وبقى فى بلاط الحكم المستنصر ثم نال أكبر حظوة فى بلاط المنصور إذ كان أقرب المقربين إليه من الوزراء . ومن أظرف شعر ابن شهيد الأبيات التالية التى ارتجلها فى مجلس المنصور ، وقد استغرق المجلس فى الشراب والمرح ورقص الوزراء دون تحفظ ، فنهض ابن شهيد على الرغم من تقدم سنه وإصابته بالنقرس ، نهض من محفته متكئاً على ذراع الوزير أبى عبد الله ابن عباس ، وحاول هو أيضاً أن يرقص منشداً ومخاطباً المنصور :

هاك شيخاً قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتاً فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهمو رقاصة قام للسكر يناغى ملكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا ورأى رعشة رجلى فبكى !

وهذا من أنفس الشعر الوصفى المطبوع فى الأدب العربى . وقد كان أحد الظرفاء بمجلس المنصور فبهت مما رأى وقال لابن شهيد ممازحاً : بالله ياسيدى الوزير إنك لترقص واقفا بينما تصلى لله جالسا ! فأغرب المنصور فى الضحك ومن شعره الارتجالى الذى ينم عن ذكائه الوقاد بيتاه اللذان وجههما إلى الوزير عبد الملك بن جوهر الذى كان يلقب بالحمار (لأن جده ابن هشام كان

بيطارا فى سورية) وكانت بينهما منافسة شديدة ، فاتفق يوماً أن مر ابن شهيد بدار ابن جوهر فاستأذن فى رؤيته ، ولكن ابن جوهر ادعى بلسان خادمه أنه غائب عن داره ، فكتب إليه ابن شهيد :

أتيناك ، لا عن حاجة عرضت لنا ... إليك ، ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا ... حماراً تولى برنا بعقوق !

ولكن ابن جوهر لم يكن أقل ذكاء منه فرد عليه قائلا :

حجبناك لما زرتنا غير تائق ... بقلب عدو فى ثياب صديق
وما كان بيطار الشآم بموضع ... يباشر فيه برنا بخليق

وثمة شاعر موهوب : هو أبو هارون بن عبدالملك بن حبيب ، الذى كان إمام المذهب المالكى فى زمنه كما كان مؤرخا عظيما ومعلما جليلا ، يتسابق الى حلقات دروسه ، ويبلغ من إجلاله العلم والتعليم أنه كان يلبس أفخر الملابس خلال التدريس . لقد كان أبو هارون شاعرا أصيلا موهوبا ولذلك كان شعره ذا نفحة تختلف جد الاختلاف عن طابع شعر الفقهاء بل نظمهم المحصور غالبا فى أساليب خبرية تعليمية بعيدة كل البعد عن روح الشعر . فأبو هرون مثل باهر لتجلى الشاعرية على الرغم من أية مهنة يحترفها الشاعر معينة على توسيع أفق تأملاته وتجاريبه وقد زار أبو هرون الشرق حيث تبحر فى دراسة المذهب المالكى قبل أن يصبح داعيته الاكبر فى الاندلس ، وثمة فى أحد المجالس حاول أحدهم انتقاصه لصغر جسمه فرد عليه بقوله :

لا تنظرن الى جسمى وقلته ... وانظر لصدرى وما يحوى من السنن
فرب ذى منظر من غير معرفة ... ورب من تزدريه العين ذو فطن
ورب لؤلؤة فى قعر مذبلة ... لم يلق بال لها إلا إلى زمن !

ونادى أبو هرون برعاية الأدباء حتى يتفرغوا لإنتاجهم النافع ، إذ كثيرا ما جنى الفقر عليهم فشغلتهم أهون شؤون المعاش عن الابداع الفنى الذى يكسب أمتهم ولغتهم ثروة .

وقد عرض هذا الشاعر بالمغنى الموسيقى الشهير (زرياب) صاحب الفضل الكبير فى إنهاض الموسيقى الأندلسية ، فقال أبو هرون من قصيدة وجهها إلى عبدالرحمن الثانى يهنئه بيوم عاشوراء :

قد طاح أمرى والذى أبتغى ... هين على الرحمن فى قدرته
ألف من الحمر (١) ، وأقلل بها ... لعالم أربى على بغيته
(زرياب) قد أعطيها جملة ... وحرفتى أشرف من حرفته !

وهذه حماسة المحامى المدافع عن قضية عامة وعن حق خاص ، إذ لا ينكر أن الموسيقى والغناء من أشرف الفنون الجميلة وإنما وجه الاعتراض المغالاة فى تكريم فن من الفنون على حساب غيره . كما يغالى عصرنا الحاضر فى تكريم الرياضة البدنية على حساب النبوغ الذهنى ! ولهذه الروح كتب أبو هرون إلى الزجالى :

كيف يطيق الشعر من أصبحت ... حالته اليوم كحال الغرق !
والشعر لا يسلس إلا على ... فراغ قلب واتساع الخلق
فاقنع بهذا القول من شاعر ... يرضى من الحظ بأدنى العنق (١)
أما ذمام الود منى لكم ... فهو من المحتوم فيما سبق !

وهكذ على رغم طاقته الشعرية الرفيعة حالت بيئة هذا الشاعر الموهوب دون العناية الكبرى التى كان يود أن يمنحها الشعر ، والقليل الذى تركه لنا على الرغم من شواغله الجمة عميق المعانى جميل الترسل ، شاهد بألمعيته الفنية .

ويذكر ابن خلدون فى ختام مقدمته نبذة شائقة عن الموشحات والأزجال للأندلس قال فيها : اعلم أن الاذواق كلها فى معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة . وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلنا فى اللغة العربية ، فلا يمترى الأندلسى بالبلاغة التى فى شعر

---

(١) هى الدنانير

أهل المغرب ، ولا المغربى بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمشرق ، ولا المشرقى بالبلاغة التى فى شعر الأندلس والمغرب لأن اللسان الحضرى وتراكيبه مختلفة فيهم ، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته ، وذائق لمحاسن الشعر من أهل جلدته ، وفى خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات . ونحن - ورثة العربية فى جميع عصورها - علينا إذا ما أقدمنا على النقد الأدبى ، وعلى الأخص نقد الشعر أن نكون متزودين أولا باطلاع كاف على نماذجه الرفيعة فى عصوره المختلفة ، وثانيا بقدرة على الاندماج فى شخصية الشاعر المنقود وفى بيئته ، وثالثاً بالقدرة على الموازنة التى يساندها الذوق الأدبى المكتسب والطبع الشعرى وروح الإنصاف . فاذا قدرنا الشعر الأندلسى فانما يعتمد تقديرنا على أسس تتفق وتختلف مع ملاحظات ابن خلدون - تتفق معه فى الفكرة العامة ، وتختلف من ناحية الشمول والأدب المقارن وعدم الاعتراف بتحديد الفن . فعندنا أن الشعر الفنى الصحيح الذى يعتمد على روحه الأصيلة لا على عكاز من توابعه قابل للتقدير - كيفما كانت لغته - وأهل للتنويه به فى كل زمان ومكان . وكلما كانت روح الشعر الفنية عالية جبارة استقلت أو كادت عن جميع العناصر المؤازرة لها كالإيقاع الموسيقى والانتقاء اللفظى ، وهذا ما نجده فى شعر الفحول ، ولو كان نثرا مترجما مثل شعر تاجور وشعر إقبال أو نثرا شعريا عربى الأصل كالكثير من النثر الفنى لمصطفى صادق الرافعى ، فانه تحفة ومتعة روحية فى ذاتها لا يعوزها النظم ليتألق جمالها ، وعلى ضوء هذا المذهب الذى ندين به ننقد الشعر الأندلسى نقد المتذوق المقدر .

وبين الشعراء الممتازين فى الإمارة والخلافة بالأندلس الذين يغفل مدرسو الأدب العربى ذكرهم : الشاعر البليغ ابن دراج القسطلى الذى عده ابن حزم قريناً لأبى تمام والمتنبى ، وهو بربرى الأصل سكنت أسرته الموسرة فى قسطلة وتعلم فى قرطبة وبلغ بفضل مكانته الاجتماعية وعلمه وفطنته منزلة كاتب الإنشاء فى أواخر عهد الحكم المستنصر . وكان ابن دراج مشهورا ببلاغته وامتلاكه ناصية العربية ، وباشراق أسلوبه نثرا ونظماً : وله شعر متين فى مدح المنصور ،

بعضه مرتجل . وبلغ منزلة الاعتراف به كأحد شعراء البلاط المعدودين المخصصة لهم الرواتب . وقد تعرض لحسد كثير ، مما جنى على إنتاجه الوفير ، فضاع معظم شعره . وقد عد ابن حزم قصيدته فى فتح سانتياغو (الذى وقع فى العاشر من أغسطس سنة سبع وتسعين وتسعمائة للميلاد) من روائع الشعر العربى . وبعد وفاة المنصور صار ابن دراج شاعر البلاط فى عهد المظفر . وفى أواخر أيامه كان متصلا ببلاط المنذر بن يحيى فى سرقسطة .

وهناك نماذج من شعره البديع فى (يتيمة الدهر) . وأقل ما تتصف به هذه النماذج السلاسة البيانية والموسيقى العذبة وسلامة اللغة ، ولكنها ليست قوية العاطفة ، ولذلك لم نضعها نحن فى منزلة شعر ابن خفاجة أو شعر ابن زيدون مثلا ، ومع ذلك فليس من الإنصاف الحكم الوافى الصادق على شاعر مكثر ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلا القليل الذى حرص عليه بعض الحكام كهذه الأبيات التى يمدح بها المنصور والتى تذكرنا برائية أبى نواس فى مدح الخصيب :

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى (١) وأن بيوت العاجزين قبور ؟
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزاء خطير ؟
يخوفنى طول السفار وإنه بتقبيل كف العامرى جدير
بحير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلاقى فى العلا وبدور
همو يستقلون الحياة لراغب ويستصغرون الخطب وهو كبير
ولما توافوا للسلام ورفعت عن الشمس فى أفق الشروق ستور
وقد قام من زرق الأسنة دونها صفوف ، ومن بيض السيوف سطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها وآيات صنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس وقام بعبء الراسيات سرير
فجاءوا عجالا والقلوب خوافق وولو بطاء والنواظر صور

(١) التوى : الهلاك

يقولون والإجلال يخرس ألسناً وحارت عيون ملأها وصدور:
« لقد حاط أعلام الهدى بك حائط وقدر فيك المكرمات قدير »

وليس فى هذا الشعر كما يرى كبير ابتداع ولا قليله، وأنما جماله فى السلاسة وحسن التناول البيانى، ومثله هذه الأبيات فى الوداع لولا وميض من العاطفة يلمح فيها:

قالت، وقد مزج الفراق مدامعا بمدامع، وترائب بترائب:
« أتفرق حتى بمنزل غربة أم نحن للأيام نهبة ناهب ؟
ولئن جنيت عليك نزحة راحل فأنا الزعيم لها بفرحة آيب
هل أبصرت عيناك بدراً طالعا فى الأفق إلا من هلال غارب ؟»

فكيف يمكن التوفيق بين مستوى هذا الشعر وبين المدح الذى أسبغه عليه ابن حزم وابن خلدون والمراكشى والمعرى وأمثالهم من الأدباء النقاد المؤرخين؟ إذا قام هذا المدح على الشعر الباقى لابن دراج القسطلى فهو مدح توحى به بلاغته البيانية فحسب، لا طاقته الفنية، واذا قام على مجمل شعره المعروف فى زمنه، فلا بد لنا من الاستنتاج أن خير شعره — أى ما تناول وجدانياته ومشاهداته وتأملاته وحياة الناس — قد فقده الأدب العربى.

من أعلام الشعراء الأندلسيين

نبغ فى الأندلس من الشعراء كثيرون، منهم: ابن عبدربه الأندلسى (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ)، وابن هانىء (٣٢٦ — ٣٦٣ هـ) والغزال (١٥٦ — ٢٥٠ هـ) (١) وابن زيدون (٣٩٤ — ٤٦٣ هـ)، وابن خفاجة (٤٥٠ — ٥٣٣ هـ) (٢)، وابن وهبون المتوفى قبل عام ٥٣٣ هـ. والأعمى التطيلى المتوفى

---

(١) بغية الملتمس — واسم الغزال يحى بن حكيم وهو شاعر مطبوع
(٢) راجع ١٩٠ — ٢١٢ بلاغة العرب فى الأندلس.

قبل عام ٥٤٢ هـ ، وابن برد الأصغر الذى قتل عام ٤٣١ هـ ، وابو حفص الأكبر المتوفى عام ٤٢٨ هـ ، وابن دراج القسطلى (٣٤٧ — ٤٢١ هـ) ، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) . وابن الحداد المتوفى عام ٤٨٠ هـ ، والفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩ هـ ؛ وسواهم كثيرون .. أمامن نبغ من الأدباء المشهورين فقليل منهم : ابن شهيد (٣٨٢ — ٤٢٦ هـ) ، وابن سهل (٦٠٩ — ٦٤٩ هـ) ، وابن بسام المتوفى عام ٥٤٢ هـ ، وسواهم .

الموشحات فى الأدب الأندلسى

صور من الموشحات

الموشحة المنسوبة لابن المعتز :

أيها الساقى ، إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وندیم همت فى غرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع

مالعينى عشيت بالنظر ؟

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

غصن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر فى البين بكى ماله يبكى لما لم يقع ؟

ليس لى صبر ، ولا لى جلد

يالقومى عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواى مما أجد

مثل حالى حقه أن يشتكى كمد اليأس وذل الطمع

كبدى حرى ودمعى يكف
يذرف الدمع ولا ينذرف
أيها المعرض عما أصف

قد نما حبى بقلبى وزكا لانقل فى الحب: إنى مدعى

موشحة ابن سهل :

وهى على وزن الرمل المحذوف ، قال ابن سهل الإسرائيلى :

هل درى ظبى الحما، أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
يابدورا أطلعت يوم النوى غررا تسلك بى نهج الغرر
مالقلبى فى الهوى ذنب سوى منكم الحسن، ومن عينى النظر
أجتنى اللذات مكلوم الجوى والتذاذى من حبيبى بالفكر
كلما أشكوه وجدا بسما كالربا بالعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مأتما وهى من بهجتها فى عرس
غالب لى ، غالب بالتؤده بأبى أفديه من جاف رقيق
مارأينا مثل ثغر نضده أقحوان عصرت منه رحيق
أخذت عيناى منه العربدة وفؤادى سكره ما إن يفيق
فاحم اللمة ، معسول اللمى أكحل اللحظ ، شهى اللمس
وجهه يتلو الضحى مبتسما وهو من إعراضه فى عبس
أيها السائل عن ذلى لديه لى جزاء الذنب . وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقا للصب فيه مغرب
ذهب الدمع بأشواقى إليه وله خد بلحظى مذهب
يطلع البدر عليه كلما لاحظته مقلتى فى الخلس
ليت شعرى ، أى شىء حرما ذلك الورد على المغترس

كلما أشكو إليه حرقى ... غادرتنى مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقى ... أثر النمل على صم الصفا
وأنا أشكره فيما بقى ... لست ألحاه على ما أتلفا
فهو عندى عادل إن ظلما ... وعذولى نطقه كالخرس
ليس لى فى الحب حكم بعد ما ... حل فى النفس محل النفس
منه للنار بأحشائى اضطرام ... تتلظى كل حين ما تشا
وهى فى خديه برد وسلام ... وهى ضر وحريق فى الحشا
أتقى منه على حكم الغرام ... أسد الغاب وأهواه رشا
قلت لما أن تبدى معلما ... وهو من ألحاظه فى حرس
أيها الآخذ قلبى مغنما ... اجعل الوصل مكان الخمس

موشحة أبى الحسن المرينى (١)

فى نغمة العود والسلافه ... والنهر والروض لى نديم
أطال من لامنى خلافه ... فظل فى نصحه مليم (٢)
دعنى على منهج التصابى ... ماقام لى العذر بالشباب
ولا تطل فى الهوى عتابى ... فلست أصغى إلى عتاب
لاترج ردى إلى صواب ... والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه ... إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه ... واختال فى برده الرقيم
ياحبذا عهدى القديم ... ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لا يريم ... مولـــــــع بالتودد

---

(١) تولى عرش فاس أكثر من عشرين عاما (٧٣١ - ٧٥٢هـ) بعد والده ابن سعيد المرينى ، وتولى بعده ابنه أبو عنان العرش .

(٢) ألام : أتى مايلام عليه !

ماتم إلا به النعيم طوعا على رغم حسدى
معتدل القد ذو نحافه أسقمنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه فخد فى خده الكليم
غض الصبا عاطر المقبل أحلى من الأمن والأمل
ظامى الحشا مفعم المخلخل حلو اللمى ساحر المقل
لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو، فيبدى لى اعترافه إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر منه رافه فحق لى فيه أن أهيم
لله عصر لنا تقضى بالسد (١) والمنبر البهيج
أرى ادكارى اليه فرضا وشوقه دائما بهيج
فكم خلعنا عليه غمضا وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم
يامن يحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك
وانثر بها إن سفحت غربا (٢) من مدمع عاطل سلوك
واسمع إلى من أقام صبا واحك صداه، لا نض فوك
بلغ سلامى قصر الرصافه واذكر له عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافه وقفة بها وقفة العريم

موشحة ابن باجة :

روى ابن خلدون أن الحكيم أبا بكر بن باجة حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة ، فألقى على بعض قيناته موشحته :

---

(١) من منتزهات قرطبة .
(٢) الغرب : الدلو الكبيرة.

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر
خضب الزند منك باللهب
من لجين قد حف بالذهب
تحت سلك كجوهر الحبب
مع أحوى أعذب الشنب
أودعت كفه من السحر جامد الماء ، وذائب التبر
هاك نور الصباح قد لاحا
ونسيم الرياض قد فاحا
فتأهب وشعشع الراحا
لا تقد فى الظلام مصباحا
حين تنهل أدمع القطر فقل الروض ناسم عطرى
فهموم راحت بأفراح
فى مساء وعند إصباح
والغوادى تجود بالراح
وهى تسقى الربا بأقداح
وقدود الأغصان بالسكر تنثنى فى غلائل خضر

واستمر فيها إلى أن ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، صاح : واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت ، وماختمت ، وحلف بالايمان المغلظة ، لا يمشى ابن باجة إلى داره ، إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه .

موشحة لابن زهر :

قال ابن زهر الفيلسوف المتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

ما للموله من سكره لا يفيق يا له سكران
هل تستعاد أيامنا بالخليج ولياليـنا
إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظله روح عليه أسبق مونق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

موشحة ابن اللبانة :

قال ابن اللبانة الأندلسى المتوفى سنة ٥١٧هـ :

أذابت الأشواق روحى على أجساد . أعارها الطاووس . من ريشه أبراد

كواعب أتراب تشابهت قدا
عضت على العناب بالبرد الأندى
أوصت بى الأوصاب وأعرت الوجدا
وأكثر الأحباب أعدى من الأعدا(١)

موشحة لأبى حيان :

ولأثير الدين أبى حيـــان النحوى الأندلسى الغرناطى المتوفى بمصر سنة ٦٥٤ هـ :

عاذلى فى الأهيف الآنس لو رآه الأسد قد عذرا(٢)

---

(١) الكواعب جمع كاعب : البنت حين تدييها . العناب : ثمر أحمر تشبه به أطراف الأنامل : البرد : الثلج وعنى به الأسنان .

(٢) الأهيف : الضامر البطن الرقيق الخاصرة .

رشأ قد زانه الحور
غصن من فوقه قمر
قمر من سحبه الشعر
تفر فيه أم درر
جال بين الدر واللعس (١) خمرة من ذاقها سكرا
رجة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحل
يا لها من أعين نعس جلبت لناظرى سهرا
مذ نأى عن مقلتى حسن
ما أذيقا لذة الوسن
طال ما ألقاه من شجن
عجبا ضدان فى بدن (٢)
بفؤادى جذوة القبس وبعينى الماء منفجرا

موشحة لسان الدين بن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أسباب المنى تنقل الخطو على ما نرسم
زمرا بين فرادى وثنى مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى فسنا الأزهار فيه يبسم

(١) اللعس : سمرة مستحبة فى الشفه .
(٢) لوسن : النعاس . الشجن : الحزن

وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى ، لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب ، سوى ... انه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما ... هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا ، أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس
أى شىء لامرىء قد خلصا ... فيكون الروض قد كنن(١) فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا ندما ... يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيبا لبيافهما ... يسرق السمع بأذنى فرس
يا أهيل الحى من وادى الغضى ... وبقلبى سكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ... لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تنقذوا عانكم من كربه
واتقوا الله ، وأحيوا مغرما ... يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ... أفترضون عفاء الحبس
وبقلبى فيكم مقترب ... بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب ... شقوة المغرى به ، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب ... فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة ، معسول اللمى ... جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ... بفؤادى نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق ندوب

---

(١) استتر

فهو للنفس حبيب أول ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب فى ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما ويجازى البر منها والمسى

موشحة الوشاح :

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح فى قوله من موشحة له :

ما لذلى شرب راح على رياض الأقاح
لولا هضيم الوشاح إذا أسى فى الصباح
أو فى الأصيل أضحى يقول
ما للشمول ؟ لطمت خدى
وللشمال هبت فمال
غصن اعتدال ضمه بردى
ربما أباد القلوب يمشى لنا مستريبا
يا لحظه رد ثوبا ويا لماه الشنيبا
برد غليل صب عليل
لا يستحيل فيه عن عهد
ولا يزال فى كل حال
يرجو الوصال وهو فى الصد

ومن أبدع موشحات عبادة القزاز موشحته التى فيها قوله :

لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم

من موشحة التلمسانى :

قال التلمسانى من موشحة له :

يا مذيبا مهجتى كمدا ... فقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا ... عجبا أن تبرىء الرمدا
وبسقم الناظرين كسى ... جفنك السحار وانكسرا

من موشحة لأبى حيان :

قال الشيخ أثير الدين ابو حيان ، من موشحة له :

إن كان ليل داج ... وخاننا الإصباح
فنورها الوهاج ... يغنى عن المصباح
سلافة تبدو ... كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد ... وعرفها عنبر
وحبذا الورد ... منها وإن أسكر

وفيها يقول فى وصف حبيبه .

بلحظه المرهف ... يسطو على الأسد
كسطوة الحجاج ... فى الناس والسفاح
فما ترى من ناج ... من لحظه السفاح

من موشحة :

هل يصح الأمان ... من شبيه البدر ؟
وهو مثل الزمان ... منتم للغدر ؟

وهى معارضة للموشحة التى أولها :

ضاحك عن جمان ... سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان ... وحواه صدرى

موشحة لابن بقى :

من موشحات ابن بقى قوله :

ماردنى لابس ثوب الضنا الدارس
الأقمر
فى غصن مائس شعاعه عاكس
ضوء البصر

وقوله أيضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسى
وعن الدمع الذى همعا
ما ترى شوقى قد وقدا
وهما دمعى واطردا
واغتدى قلبى عليك سدى ؟
اه من ماء ومن قبس بين طرفى والحشا جمعا !
بأبى ريم إذا سفرا
أطلعت أزراره قمراً
فاحذروه كلما نظرا
فبألحاظ الجفون قسى
أنا منها بعض من صرعا

موشحة لابن بقى :

وقد قلد ابن بقى ابن المعتز فى موشحته فقال :

غلب الشوق بقلبى فاشتكرى ألم الوجد فلبت أدمعى
أيها الناس فؤادى شغف
وهو من بغى الهوى لا ينصف
كم أداريه ودمعى يكف

أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السبع

بدر تم تحت ليل أغطش
طالع فى غصن بان منتشى
أهيف القد بخد أرقش

ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع

أى ريم رمته فاجتنبا
وانثنى يهتز من سكر الصبا
كقضيب هزه ريح الصبا

قلت هب لى ياحبيبى وصلكا واطرح أسباب هجرى ودع

قال : خدى زهرة مذ فوفا
جردت عيناى سيفاً مرهفا
حذراً منه بأن لا يقطفا

إن من رام جناه هلكا فأزل عنك أغلال الطمع

ذاب قلبى فى هوى ظبى غرير
وجهه فى الدجن صبح مستنير
وفؤادى بين كفيه أسير

لم أجد للصبر عنه مسلكا فانتصارى بانسكاب الأدمع

فن الموشحات الأندلسية

الموشحات(١) بين المشرق والمغرب :

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربى يمتاز بجماله الفنى ، وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها فى صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره ، وبأوزانه الكثيرة التى تلائم الذوق ، وتوائم الموسيقى والغناء ، وتتمشى مع الترف وجمال الفن ، والموشح جار على طريقة أهل الروم ، جاء من بلادهم خاليا من الكلام ، ليس فيه سوى النغمات المخصوصة ، ثم تأمل العرب أدواره ونظموا الموشحات على مقتضاه ، ويقال أن أول التواشيح هو المنسوب إلى أولاد النجار عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاستقبلوه والجوارى ينشدن :

أشرقت أنوار محمد واختفت منه البدور
يا محمد يا محمد أنت نور فوق نور(٢)

---

(١) الموشحة من الظباء والشاء والطير : التى لها طرتان من جانبيها ، قال الشاعر :

أو الأدم الموشحة العواطى بأيديهن من سلم النعاف

والطرتان من الحمار وغيره بينين ، وديك موشح إذا كان له خطتان كالوشاح والخطة كالخط ، وثوب موشح ذا كان فيه وشى .. وسمى الموشح موشحا لان خرجاته وأغصانه كالوشاح له ، والوشاح والإشاح كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر تتوشح به المرأة . والكرس : القلائد المضموم بعضها إلى بعض .

(٢) ١٣٤ وما بعدها الموشحات لعلام خليل — مخطوط بكلية اللغة — وهذا النص عن كتاب « القصيدة الدرويشية فى تحرير السبع الفنون الأدبية » للشيخ أحمد الدرويش — وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

على أن هذا هو صورة بدائية للموشحات ، والصلة بينه وبين الموشحات كما عرفها المتأخرون بعيدة أو منقطعة . . وقد جدد الشعراء العباسيون فى القصيدة العربية تخلصا من قيود القافية . ولكى يلائم الشعر الغناء ، فاخترعوا المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة والمخمسات ، نظم عليها بشار ومحمد بن أبى بدر السلمى (١) ومحمد بن عيسى التميمى (٢) ، وسواهم من الشعراء العباسيين ، ويراها ابن رشيق هى والمسمطات دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه (٣) ، ونسب لامرىء القيس مسمط ، وينفى كثير من النقاد نسبته إليه (٤) .

والسبب الأول فى اختراع الموشحات هو الغناء (٥) ، لأن أوزانها أحفل بالغناء والتلحين ، الذى كان ضروريا عند شعراء الأندلس من أوزان الشعر (٦) ، واتخذ فى أول الأمر أداة للهو والمجون . ثم استعمل بعد ذلك فى أغراض الشعر الأخرى (٧) .

وتنسب لابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) أول موشحة من الموشحات الفنية المعروفة ، وقد سبقت ، وهى موجودة فى ديوانه المخطوط والمطبوع و ذ كانت صحيحة النسبة لابن المعتز تكون أول موشحة عرفت فى الأدب العربى ، والباحثون يختلفون فى ذلك :

فيتردد بعض الباحثين فيمن سبق إلى اختراع الموشحات : أهو ابن المعتز

---

(١) ٤٤٩ معجم الشعراء .
(٢) ٤٥٢ المرجع .
(٣) ١٥٧ : ١ العمدة .
(٤) ١٥٧ : ١ العمدة ، ٦٣ — ٩٠ رسالة الغفران .
(٥) ١٦٣ : ٣ تاريخ آداب لغة العرب للرافعى .
(٦) ٣١٢ : ٣ المرجع .
(٧) ١٥٣ الموشحات .

أم مقدم بن معاقر الفريرى الأندلسى(١) . ويرى آخر أنه مع ذلك لا يستبعد أن تكون روح ذلك العصر التى أوحت إلى أحدهما بهذه الفكرة هى التى أوحت إلى الآخر بها دون تقييد(٢) ، ويرى آخرون أن الموشحات فن أندلسى خالص سبق إلى اختراعه الأندلسيون(٣) . وهناك من يزعم أن ابن المعتز هو مبتدع الموشحات .

وفى رأيى أن هذه الموشحة ليست لابن المعتز ، بل هى بعيدة عن روح الشاعر وعواطفه وفنه الأدبى ولا تمثل شيئاً من نظراته فى الحياة ، وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التى عرف بها ابن المعتز .. إنها بعيدة عن جو ابن المعتز وسمائه الفنية ، وجو الأندلس أغلب عليها .. وقد كنت أظن أنها لابن معتز الأندلس مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور (٢٥٢ — ٤٠٠) ٤ ، ولكن وجدت فى بعض المصادر نسبتها لأبى بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسى الأشبيلى (٥٠٧ — ٥٩٥ هـ) (٥) . وإذا كان صحيح النسبة لابن زهر فانه من المشكوك فيه حينئذ : من هو السابق إلى ابتكار نمط هذه الموشحة ، أهو ابن زهر أم ابن بقى الأندلسى المتوفى عام ٥٤٠ هـ ، والذى تروى له موشحه عارض بها الموشحة المنسوبة لابن المعتز ولشاعر آخر موشحة ، على نمط الموشحة

---

(١) ٢٧٨ تاريخ لادب العربى للزيات .

(٢) ٢٧٢ نظرات فى الادب الاندلسى لكامل كيلانى .

(٣) ٣٩ و ٤٢ و ٢٢٣ بلاغة العرب فى الاندلس لضيف ، ٢٢٥ و ١٩٥ : ٤ نفح الطيب ط ١٣٠٢ هـ ، ٢٤٣ سلافة العصر ، ٥٨٣ مقدمة ابن خلدون ١٦١ : ٣ الرافعى ، ٩٨ و ٩٩ : ٣ الادب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ، ١٠٣ - ٢ المرجع نفسه ، و١ و ٢ و ٣ الذخيرة لابن بسام ، ٤٩ الفن ومذاهبه فى الشعر لشوقى ضيف

(٤) راجع ترجمته فى ص ٤٤٧ بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس للضبى وهو الجزء الثانى من المكتبة الاندلسية ، وترجمته برقم ١٣٤٣ ، وهى نفسها فى هامش ١٨٦ : ٣ نفح الطيب للمقرى — نشر فريد رفاعى ، وقد ترجمنا لهذا الامير وذكرنا بعض شعره فى كتابنا (ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان ص ٣٢٢ و ٢٣

(٥) ٢٢ : ١ معجم الادباء ، وابن زهر نشأ بالاندلس وبرع فى العربية والشعر =

المنسوبة لابن المعتز ، وأولها :

هلك الصب المعنى هل لكا فى تلافيه بوعد مطمع(١)

ويذكر ابن معصوم كذلك فى كتابه السلافة أن الموشحات من ابتداع مقدم بن معافر(١) .

ابن خلدون ورأيه فى الموشحات :

يقول ابن خلدون : « أما أهل الأندلس ، فلما كثر الشعر فى ديارهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه ، سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحدا ويلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدحون ، كما يفعل فى القصائد . وتجاروا فى ذلك الغاية؟ واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه ، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر . وكسدت موشحاتهما فكان

= وكان يحفظ أشعر ذى الرمة وانفرد بالاجادة فى نظم الموشحات (٧١ : ٢ معجم الادباء ، ١٠ : ٢ وفيات الاعيان ط ١٣١٠ هـ ٣١٣ : ٣ الرافعى ، ١١٧ : ٤ نفح الطيب ٥ و ٥٨ مقدمة ابن خلدون

(١) ٩٦ و ٩٧ الموشحات لعلام خليل .

(٢) ٢٤٣ سلافة العصر لابن معصوم من أعيان القرن الحادى العشر ، وقد ألفها عام ١٠٨٢ هـ .

أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأعلم البطليوسى ، أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لحظا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمن الطوائف، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع رأسه ، شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، قالوا : وقد أحسن فى ابتدائه فى موشحته التى طارت له ، حيث يقول :

العود قد ترنم بأبدع تلحين
وسقت المذانب رياض البساتين (١)

وفى انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المأمون
مروع الكتائب يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى دولة الملثمين ، فظهرت لهم البدائع، وسابق حلبتهم الأعمى التطيلى ، ثم يحيى بن بقى » .

شعراء الموشحات فى الأندلس :

إن أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يروى هو مقدم ابن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى(٢) فى القرن الثالث الهجرى وهو الذى نوع أوزانها وأدوارها ، وعنه أخذ أحمد بن عبد ربه صاحب

---

(١) المذانب جمع مذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض والجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها

(٢) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ)

العقد الفريد المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى ، وعن هذين أخذ الناس ، ثم سال سيل الموشحات فى المغرب والمشرق فبرع بعدهما عباقرة الوشاحين فى الأندلس ، ومقدمهم : عبادة القزاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية من ملوك الطوائف ، وجاء بعده « ابن رافع رأسه » شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة من ملوك الطوائف أيضاً ، وقد حكم بنو ذى النون طليطلة فى القرن الخامس (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) . ثم جاءت الحلبة التى كانت فى زمن الملثمين وعلى رأسها فارسها الأعمى التطيلى المتوفى عام ٥٢٠ هـ ، ووراءه يحيى بن بقى ، وأبو بكر الابيض ، وابن باجة الفيلسوف الطبيب الملحن المتوفى عام ٥٣٣ هـ وابن اللبانة المتوفى عام ٥١٧ هـ ، واشتهر بعدهؤلاء فى عهد دولة الموحدين : ابن شرف ، وابن هردوس ، وابن مؤهل وابن زهر الفيلسوف .

وبعد هذه الطبقة طبقات جاءت بالغرائب ، ومنهم : ابن سهل الإسرائيلى الاشبيلى المتوفى عام ٦٤٩ هـ وأبو حيان النحوى ، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦ هـ وابن زمرك تلميذه .

وبرع فى العدوة نفر منهم : ابن خلف الجزائرى ، وفى المشرق كثيرون منهم : ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ . صاحب كتاب « دار الطراز فى الموشحات وأنواعها .

الفن الشعرى للموشحة :

ذكر ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » عدة مناهج فنية فى نظم الموشحات ، وترتيب أبياتها ، وأظهر طريقة فى نظمها هى كما ذكرها ابن سناء وابن خلدون وسواهما أن تتألف الموشحة من أقفال وأبيات فالأقفال هى ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية ، والأبيات هى ما اتفقت وزناً وأجزاء واختلفت قافية غالبا ، وينقسم الموشح باعتبار جزأيه إلى : ١ — تام : وهو ما تألف

من ستة أقفال وخمسة أبيات وابتدىء فيه بالاقفال .

٢ - وإلى أقرع ، وهو ماتركب من خمسة أقفال ، وخمسة أبيات ، وابتدىء فيه بالأبيات ، فمثال الأول ، قول ابن التلمسانى :

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
عذت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى إلى تلفى
بركاب الدل والصلف

فالقفل « قمر الخ » ، والبيت من « آمن » إلى « الصلف » ، والموشح تام لأنه مبتدأ بالقفل . ومثال الثانى قول الآخر :

سطوة الحبيب أحلى من جنى النحل
وعلى الكثيب أن يخضع للذل
أنا فى حروب مع الحدق النجل
ليس لى يدان بأحور فتان من رأى جفونه فقد أفسد دينه

فمن قوله : « سطوة » إلى قوله « النجل » بيت . ومن « ليس لى » إلى « دينه » قفل ، والموشح أقرع ، لأنه بدىء ببيت .

وأقل ما يتركب منه القفل جزءان ، وقد يصل إلى أحد عشر جزءا وتنقسم الأبيات إلى : مفردة ، ومركبة ، والأولى ماتركبت من أجزاء فقط ، والأخرى ما تألفت من أجزاء وفقر .

ومثال الأولى :

شمس قارنت بدرا راح ونديم
أدر كؤوس الخمر
عنبرية النشر

إن الروض ذو بشر

ومثال الأخرى

عقارب الأصداغ فى السوسن الغض تسبى تقى من لاذ بالنسك والوعظ

من قبل أن يعدو على لم أحسب
أن تخضع الأسد لجؤذر ربرب
ظبى له خد مفضض مذهب
وشادن يبدو فى صدغه عقرب

فالبيت فى المثال الأول مركب من أجزاء فحسب ، أما فى الثانى فمركب من أجزاء وفقر ، كما ترى (١) .

والقفل كما ذكرنا آنفا يتركب من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله ابن سناء الملك الى أحد عشر .

فمثال المكون من جزأين ، قول الشاب الظريف :

قمر يجلو دجا الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

ومثال المكون من ثلاثة أجزاء :

حلت به الأمطار أزرة النوار ، فيا خدنى

وهكذا . . .

ومثال المركب من أحد عشر قول ابن سناء الملك :

مظلوم ، المسواك ، ثغرهداك ، بالابتسام ، الى الغرام ، فياخلى ، لاتعذلى ، دعنى فلن ، أصبر عن ، سحار ، وفتاك .

---

(١) القفل الاخير من الموشح يسمى خرجة ، وهى أساس الموشحة ، وعليها تنبنى ، كما أنها جماع سر جمالها وبلاغتها عند الادباء ، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الخروج اليها وثبا واستطرادا ، وأن تكون قولا مستعارا على بعض ألسنة الناطق أو الصامت ، ويكثر أن تكون على السنة النساء والصبيان ، والسكرى والسكران ، ويجب حينئذ أن يكون فى البيت الذى قبلها قال : أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت أو نحو ذلك .

والبيت قلنا إنه بسيط ومركب ، فالبسيط يكون من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة ، ومثاله فيما تركب من ثلاثة :

أرى لك مهند أحاط به الإثمد فجرده ماجرد

فياساحر الجفن حسامك قطاع

فالأجزاء الثلاثة الأولى بيت ، والأخيران قفلة مركبة من فقرتين .

والمركب من الأبيات ، ما كان كل منه مركباً من فقرتين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، وبملاحظة أن البيت نفسه يكون مكونا من ثلاثة أجزاء أو أكثر ، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة ، ولنضرب لها أمثلة توضحها . فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء :

أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف(١)

كما تدرى هضيم الحشى مخطف

إذا ما ماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ويلاحظ فى هذا المثال ، أن قفلته مكونة من أربعة أجزاء .

ومثال ماتركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء :

من لى به يرنو بمقلتى ساحر إلى العباد

ينأى به الحسن فينثنى نافر صعب القياد

وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد

فجيده أغيد ، والخد بالخال ، منمق ، تكتمه الحجب ، فلى إلى الكلة تشوق .

ويلاحظ فى هذ المثال أن قفلته مكونة من ستة أجزاء .

ومن أمثلة التام قول الأعمى التطيلى :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

---

(١) الوطف كثرة شعر الحاجبين أو العينين .

آه مما أجد شفنى ما أجد
قام بى وقعد باطشر متـــــــد
كلما قلت قـــد قال لى : أين قد ؟

فمن « ضاحك » إلى « صدرى » قفلة ؛ ومن « آه » إلى « قد » الثانية بيت .

وهناك طريقة ثانية آتية فى نظم الموشح ، هى أن تجعل الموشح أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا ، وتلتزم عدد الأغصان التى فى كل سمط وأحرف قوافيها إلى آخر الموشح، ومن أمثلة ذلك قول عبادة القزاز :

١	٢	٣	٤
بدر تم	شمس ضحا	غصن نقا	مسك شم : سمط
ما أنم !	ما أوضحا !	ماأورقا !	ما أنسم : «
لاجرم	من لحما	قد عشقا	قد حرم : «

فكل سطر من هذا الموشح يسمى سمطا ، وهو يشتمل على أربعة أغصان والأغصان التى تحت كل رقم متحدة القافية فى جميع الأسماط .

ومن طرق نظم الموشح : كذلك أن تأتى ببيتين تسميهما اللازمة ؛ يتفق الحرفان اللذان فى صدريهما « عروضيهما » كما يتفق الحرفان اللذان فى عجزيهما « ضربيهما » ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات ، ثلاثة منها تتفق الحروف التى فى صدورها كما تتفق الحروف التى فى أعجازها ، أما البيتان الأخيران فيكونان مثل بيتى اللازمة ، ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سهل الإسرائيلى المتوفى سنة ٦٤٩هـ ومنها :

أيها السائل عن جرمى لديه لى جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه مشرقا للشمس فيه مغرب (١)

---

(١) حمرة المشرق قبـــل طلوع الشمس فى الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب، مستعارة من وجنتيه الحمراوين ..

ذهب الدمع بأشواقى إليه ... وله خد بلحظى مذهب(١)

ومنها :

لازمة :

فهو عندى عادل إن ظلما ... وعذولى نطقه كالخرس

ليس لى فى الأمر حكم بعدما ... حل من نفسى محل النفس

دور :

منه للنار بأحشائى ضرام ... تتلظى كل حين ما تشا(٢)

هى فى خديه برد وسلام ... وهى حر وحريق فى الحشا

أتقى منه على حكم الغرام ... أسدا وردا وأهواه رشا(٣)

قلت لما أن تبدى معلماً ... وهو من ألحاظه فى حرس(٤)

أيها الآخذ قلبى مغنما ... اجعل الوصل مكان الخمس(٥)

ومن أمثلة ذلك أيضاً موشحة لسان الدين بن الخطيب وزير بنى الأحمر المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، وقد عارض بها ابن سهل ، ومنها :

وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس(٦)

فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبس

فى ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر

---

(١) لونه كلون الذهب من الخجل : (٢) ضرام اشتعال . وتتلظى : تلتهب .

(٣) أسد ورد : لونه بين الكميت والأشقر ، والرشأ : الظبى إذا قوى ومشى

(٤) لا بسا الثوب المخطط (٥) يأخذ الجيش الفاتح أربعة أخماس الغنيمة ويترك الخمس للدولة تنفقه فى المصالح ، وهو يطالب محبوبه بالعدل (٦) فى النعمان وماء السماء تورية إذ النعمان إما الشائق وهى زهر أحمر ، وماء السماء : ماء المطر ، وإما النعمان وماء السماء من ملوك الحيرة ، والثانى جد الأول . ومالك هو الامام مالك ابن أنس صاحب المذهب ، والمراد أن بين شقائق النعمان والمطر من الشبه ما بين مالك وأبيه أنس من أن الأول فى كلا الجانبين ناشىء عن الثانى وأثر منه .

قال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حبن لذ الأنس شيئاً أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

ومن الطرق كذلك أن تأتى بموشحة تجعل أولها بيتا تلتزم فيه التقفية فى صدر الشطر الأول وعروضه ، وصدر الشطر الثانى وضربه ، وتسمى هذا البيت مذهبا ، ثم تأتى بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيها التقفية أيضاً لكن على حرف آخر ، وتسمى هذه الأشطر دورا ثم تعود وتأتى ببيت مقفى كالأول ومتحد معه فى حرف التقفية ويسمى قفلة ، ثم تأتى بدور وقفلة أخرى ، وهكذا إلى سبعة أدوار فى الأكثر . ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سناء الملك ، ومنها :

قفلة

واحل لى : حتى ترانى عنك فى معزل

قلل : فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور

من ظلم : فى دولة الحسن إذا ماحكم فالسدم يجول فى باطنه والندم(١)
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

قفلة

من ولى : فى دولة الحسن ولم يعدل يعزل إلا لحاظ الرشأ الأكحل

دور

لا أريم : عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم : عيش جديد ومدام قديم(٢)
لا أهيم : إلا بهذين فقم يا نديم

---

(١) السدم : الهم .
(٢) لا أريم : لا أعدل ، والريم : الظبى

وهذه المناهج الأربع هى أسهل الكيفيات وأقربها اتصالا بالأذهان ، وهناك طرق أخرى لا يأتى عليها العد ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

أوزان الموشحات :

لم يلتزم الأندلسيون فى الموشح قافية واحدة أو وزنا واحدا ، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن ، ومن أجل ذلك كان الموشح تابعا لما تقتضيه الأنغام ، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التى ابتكرها الخليل ، وتارة يخالفها ، ويقول ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ فى كتابه «دار الطراز» المخطوط بدار الكتب المصرية : الموشات تنقسم إلى قسمين :

١ — ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان : أحدهما مالا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التى جاءت فيها عن الوزن الشعرى ، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء ، وذلك كقول القائل :

ياشقيق الروح من جسدى أهوى بى منك أم لمم ؟

فهذ من المديد ، وكقول الآخر (وهو ابن المعتز) :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل . والثانى ما تخللته كلمة أخرجته من الوزن مثل قول ابن بقى :

صبرت والصبر شيمة العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذبى كفانى

٢ — والثانى وهو مالا مدخل فيه لشىء من أوزان الشعر ، هو القسم الكثير ، والجم الغفير ، والقدر الذى لا ينحصر ، وأوزانه كثيرة منها : «مستفعلن فاعلن فعيل» مرتين ، ومنها : «فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن» مرتين .

أسلوب الموشح وأغراضه :

أما أسلوبه فعربى ، فى ألفاظه وتراكيبه ، وقد تكون بعض ألفاظه غير

معربة ، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه (١) ، وإن كان لايخرج فى جملته عن الأسلوب العربى ، وذلك عدا الخرجة وهى آخر قفل من الموشح ، وهى غالبا تكون فكاهة عذبة ونادرة حارة ، ملحونة اللفظ ، جارية على لسان ناطق أو صامت . يقول ابن خلدون : ولما شاع الموشح وأخذ به الجمهور لسلاسته نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها الإعراب وهو الزجل . ويرى بعض النقاد اشتراط خلو الموشح ، من اللحن وأنه كالشعر فى إعرابه ، قال ابن سناء : اللحن لا يجوز استعماله فى شىء من ألفاظ الموشح إلا فى الخرجه خاصة ، ويقول أحمد ضيف فى كتابه .. بلاغة العرب فى الأندلس نقلا عن بعض المتأخرين : إن الموشحة كالشعر فى إعرابه ، وإن كانت تخالفه فى أوزانه .

وأما أغراض الموشحات فقد كانت تنظم أولا للغناء ، والمعانى الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف ، ولما شاع الموشح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه فى شتى أغراض الشعر ، من الفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر ، وسواها .

ألوان من الموشحات : لابن زمرك موشحة منها :

والحب ذو عدوان يجهد فى ظلم البرى
وصارم الأجفان مؤيد بالحور
رحماك فى صب أذكرته عهد الصبا
بواعث الحب قادت إليه الوصبا
لم تهف بالقلب ريح الصبا إلا هبا (٢)

وقد انتقل التوشيح ـ بعد شيوعه بالأندلس ـ إلى بلاد المغرب والشرق ، فنبغ

(١) راجع ٢٤٣ سلافة العصر لابن معصوم .
(٢) هبا يهبو : مات .

فيه كثير ، على راسهم ابن سناء الملك ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، وقد فتح فيه فتحاً جديداً ، وأحدث أنواعا وأوزانا لم يسبق إليها ، ومن موشحاته موشحته المشهورة :

كلى ، ياسحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى ، سوارك منعطف الجدول
ياسما ، فيك وفى الأرض نجوم وما(١)
كلما ، أغربت نجما أشرقت أنجما (٢)
وهى ما ، تهطل إلا بالطلى والدما (٣)
فاهطلى ، على قطوف الكرم كى تمثلى
وانقلى للدن طعم الشهد والقوقل (٤)
تتقد كالكوكب الدرى للمرتصد
يعتقد بها المجوسى مما يعتقد
فاتئد ياساق الراح بها واعتمد

ونظم كثير من الشعراء فى المشرق الموشحات ؛ ولايزال بعض الشعراء إلى اليوم ينظمون الموشح ، ومنهم أبو الوفا رمزى نظيم الشاعر المصرى المعاصر ، والرصافى الشاعر العراقى المشهور المتوفى عام ١٩٤٥ .

ولا شك أن الموشحات نمط جديد ولون مبتدع فى الأدب ، وأنها طوعت الشعر للغناء إلى حد كبير ، وقربت أسلوب الشعر للجماهير ، وقصرت المسافة

---

(١) ماء السماء فى سحابها وماء الارض فى غدرانها وأنهارها .
(٢) يقول : إن غياب نجوم السماء ينشأ عنه ظهور نجوم الأرض وهى نباتها .
(٣) يقول : إن الارض لاتهطل إلا بأعناق القتلى ودمائهم .
(٤) ثمر نخلة : وهوصلب كأنه الخشب .

بين العربية والعامية ، وارتقت بأذواق الجماهير ، وكانت ذات أثر كبير فى الشعر العربى القديم والحديث .

الزجل فى الأدب الأندلسى

الزجل فى اللغة : التطريب ورفع الصوت ، زجل فهو زاجل وزجل . والزجل كذلك فى اللغة : الصوت ، وسمى هذا اللون من ألوان الأدب زجلا لرفع الصوت فيه وترجيعه به فى الإنشاد ، ويسمى الشعر العامى ، والأندلس بيئة الزجل الأولى كالموشح ، وإن كان تأخر عن الموشحات فى النشـــأة الأدبية قليلا ... وهكذا تولد الزجل عن الموشحات وهو نوع من الشعر العامى ، وقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التى نشأ بها ، واشتمل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف ، وكثيرا ما كان الزجل أصدق فى التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة ، واشتماله على عباراتهم المألوفة ، وعدم احتياجه للتكلف فى الصناعة واختيار الألفاظ .

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه . نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها إعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل . والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد . فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية ، أبو بكر بن قزمان . فلم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها ، إلا فى زمانه ، وكان لعهد المائتين ، وتوفى عام ٥٥٥هـ وهو إمام الزجالين على الإطلاق .

ويقال: إن أول من اخترعه رجل يقال له راشد، وكان لابن قزمان فضل الشهرة والتجويد، وعاصره محلف الأسود، وجاءت بعدهم حابة: مدغليس، وبعدها ظهر ابن جحدر باشبيلية، ثم أبو الحسن سهل بن مالك، ثم ابن الخطيب، والألوسى، قال ابن سعيد:

«ورأيت أزجاله مروية ببغداد، أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب» قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الاشبيلى: إمام الزجالين فى عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام، يصب الماء من فيه، على صفائح من الحجر مدرجة، فقال:

وعريش قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان فيه غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان فيه الفواق
وانطاق يجرى على الصفاح ولق الصباح

وكان ابن قزمان نسيج وحده أدبا وظرفا ولوذعية وشهرة، حلو الكلام، مبرزا فى نظم الزجل، وهذه الطريقة، الزجلية، بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر؛ وبلغ فيها ابن قزمان مبلغا كبيرا، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها العلم، والمبتدى فيها والمتمم، أحرز السبق عند تسابق الأعيان، واشتمل عليه المتوكل على الله المتوفى عام ٤٨٤ هـ فرقاه إلى مجالس الملك، وخلفه فى مذهبه ابن حاج، وقد كان أبو عبد الله بن حاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء ظراف، فى جنة بهجة، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب فى الإذن، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس:

سيدى: هذا مكان . لا يرى فيه بلحية غير تيس مصفعانى . له بالصفع كدية
أوله ابن شافع فيه . فيلق بالتحية

أيها القائل بادر سائقا تلك المطية

وكان مدغليس هذا مشهورا بالانطباع والصنعة فى الأزجال ، خليفة ابن قزمان فى زمانه ، وأهل الأندلس يقولون . ابن قزمان من الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبى تمام . بالنظر إلى الانطباع والصناعة فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ ، وكان أديبا معربا لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب اقتصر عليه .

صور من الزجل

١ — يقال: إن أبا بكر بن قزمان القرطبى حين كان صغيرا فى المكتب ، دخل عليه صبى صغير مثله ، فناداه وأجلسه بجانبه ، وصار يحييه ، فرآه الفقيه على ذلك فضربه . فكتب فى أعلى اللوح هذا المطلع :

الملاح أولاد إماره والوحاش أولاد نصاره

وابن قزمان جا يغفر ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح ، فرأى هذا المطلع ، فقال : هجوتنا بكلام مزجول - يعنى مقطعاً يترنم به - فسمى زجلا .

٢ — ومن أمثلة الزجل قول ابن قزمان هذا ، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه . فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه ، على صفائح من الحجر مدرجة :

وعريش قام على دكان بحال رواق

إلى آخر الأبيات وقد مضت . .

٣ — وقد جاء بعده عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس فأجاد أيضا ، ومن أزجاله :

ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تيجى إلينا ثم تستحيى وتهرب

٤ — وقال قاسم بن عبود الرياحى فى ختام زجل له :

ما أعجب حديثى إش هذا الجنون ؟
نطلب وندبر أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهون أمراً لا يهون ؟
واش مقدار ما نصبر لبعد الحبيب ؟

٥ — وقال بعضهم :

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر وقف على منزل أحبابى قبيل الفجر

وصيح فى حيهم : « يا من يريد الأجر !
ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر ! »

٦ — وقال آخر :

عينى التى كنت أرعاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهيد افتاتت
وأسهم البين صابتنى ولا فاتت وسلوتى — عظم الله أجركم — ماتت

٧ — وقال آخر :

لى دهر يعشق جفونك وسنين وأنت لا شفقة ولا قلب يابين

إلى أن يقول فى ختام زجله :

خلق الله النصارى للغزو وأنت تغزو قلوب العاشقين

٨ — ومما اختاره ابن خلدون ، من زجل أهل مصر القاهرة ، وأحسن فى اختياره كل الإحسان ، قول بعضهم فى ذلك العصر :

هذى جراحى طريا والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا فى الفلا يمرح !
قالوا : «وناخد بتارك» قلت : « ذا أقبح ! »

وقد عم فن الزجل فى الأندلس ، حتى كان العامة ينظمون فيه بطريقتهم العامية فى سائر البحور الخمسة عشر .

٩ — ولقاسم بن عبود زجل مضى منه بعض أبيات :

بالله أى نصيب ليس لى فيه نصيب
محبوبا مخالف ومعو رقيب
حين قصد مكانو يقيم فى المقام
ويبخل علينا برد السلام
أدخلت يا قلبى روحك فى زحام
سلامتك عندى هى شىء عجيب
وكيف بالله يسلم من هو فى لهيب
بالله يا حبيبى أترك هذا النفار
واعمد أن نطيب فى هذا النهار
واخرج معى للوادى لشرب العقار
نتمم نهارنا فى لذة وطيب
فى الأرض والا فى المرج الخصيب
وفى حبك أمسيت فى أهلى غريب
وما الموت عندى إلا حين تغيب
اتكل على الله وكن فظ جسور
وإن رأيت فضولى فقل أى تمور
كمش عنى وجهك فان رآك نفور

يهرب عنك خائف ويبقى مريب
وامش إنت موقر كأنك خطيب
ما أعجب حديثي إيش هذا الجنون
نطلب وندبر أمراً لا يكون
وكم ذا نهون شيئاً لا يهون
وإيش مقدار ما نصبر لبعد الحبيب
رب اجمعني معو عاجلا قريب

تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين

ابن هانىء الأندلسى - ٣٢٠ - ٣٦٢ هـ

نشأته وثقافته :

١ - ولد أبو قاسم محمد بن هانىء بن محمد الأزدى فى قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٣٢٠ هـ ، من أسرة ذات حسب ومجد ، وأدب وعلم ، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبى صفرة الأزدى القائد الاسلامى المشهور فى دولة بنى أمية ، وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذى وطد للمنصور ثانى خلفاء بنى العباس دعائم ملكه فى شمال إفريقية إلى أن توفى عام ١٧٠ هـ ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذى ولى فلسطين ثم شمال إفريقية بعد موت أخيه يزيد ، وسواء كان هذا أو ذاك ، فان ابن هانىء على أى حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية ، لها ماضيها الحافل ، وتاريخها المجيد ، ولها أثرها فى نفس الشاعر وفى أدبه .

٢ - وقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضى ، وفخراً به ، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذى أعيا على الأيام أن يتبدد ، وكان يقرنه الشاعر بمجده الذى شاده بكفاحه فى الحياة :

ذرنى أجدد ذلك العهد الذى ... أعيا على الأيام أن يتقشبا

ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على الماضى فى مستقبل حياته ، أو يحيا عيالا عليه ، بل سعى وناضل فى الحياة :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا ... فمن كان أرقى همة كان أظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدماً ... ولم يتقدم من يريد تأخرا

كان أبو الشاعر هانى. من قرية من قرى «المهدية» عاصمة ملك الفاطميين الأولى ، وكان شاعراً أديباً، كما يقول الذهبى(١) وابن خلكان(١)، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس ، وعاش فى إشبيلية ، وانتقل منها بعد ذلك إلى البيرة ، وفى إشبيلية ولد ابنه محمد بن هانى. ، فنشأ وترعرع فى بيئتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب، وبأسباب المجد السياسى الذى كسبه الأمويون فى الأندلس . وخاصة فى عهد ملكهم العظيم الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) .

٣ — واختلف ابن هانى. إلى مجامع العلم والأدب فى إشبيلية ، يثقف نفسه ، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكوينا يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل .

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بنى أمية، والتى كانت تزخر بالجامعات والعلماء، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة، فعكف على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة ، والظاهر أن رحيله إليها فى بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه .

كانت الثقافة الأندلسية فى هذا العهد وفى ظلال الناصر تنال من عناية الدولة والشعب ، ورعاية الحكومة والملك ، كل ما كان يطمح إليه محب للعلم والمعرفة ، وكان الناصر وولى عهده الحكم يبذلان جهودا جبارة لنشر العلم ، وتشجيع العلماء ، فأقيمت كثير من الجامعات ، وفتحت كثير من دور الكتب التى تؤنق فى اختيار مجموعاتها من شتى بلاد الشرق ، وساعدت الدولة العلماء فى رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية فى الشرق الإسلامى، واستقبل الناصر كثيرا من الوافدين على بلاطه من العلماء والأدباء ،

---

(١) ٨١ (٢) ٢/٥

كالقالى وسواه(١)، فشعت فى آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة، وامتلأت مدنها وعواصمها بأسباب الحضارة والمدنية والعمران، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها القوية الجبارة، فتقضى ظلمات الحياة فى الغرب، وتزيد اشتعال النور وتألق الضوء فى الشرق، وتملأ الحياة قوة ونشاطا ومدنية وترفا.

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هى الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها، وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها، فرأوها عبثا لاخير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر، ولكن الحرية الفكرية التى غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلى وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين، الذين أحصاهم صاعد الاندلسى فى كتابه طبقات الأمم.

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التى تلقاها ابن هانى فى دراسته، وتفرغ لتحصيلها، فهى ثقافة دينية واسعة، ألم بها الشاب الناشىء حين درس القرآن وعلومه، وأجاده حفظا، مما نفعه فى مستقبله الأدبى وصبغ أسلوبه بصبغة القرآن القوية المطبوعة، حتى كان ابن هانى فيما بعد المجيد فى الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله:

ألا أيها الوادى المقدس بالطوى ... وأهل الندى إنى إليك مشوق

ونجده يقول:

كانت جنانا أرضهم معروشة ... فأصابها من جيشه إعصار

ويقول لأمير «الزاب»:

لعمرى لقد أيدت يوم الوغى به ... كما أيدت كفاك بالأنمل العشر

---

(١) ولد القالى عام ١٨٨ هـ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية فى بغداد، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨ هـ، فاستقبله ولى العهد ورحب به، وتلقى عليه كثيرا من المحاضرات، ودعاه إلى ألقاء محاضراته فى مسجد قرطبة العظيم، والتى دونها فى كتابه «الأمالى»، وظل كذلك حتى توفى عام ٣٥٦ هـ.

كذلك ناجى الله موسى نبيه فنادى أن اشرح مايضيق به صدرى

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارىء فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم. وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة، تراها فى كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة؛ ولعل ابن هانىء كان ممن جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية فى مسجد قرطبة، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها، ومما نمى فيه هذه الثقافة اللغوية أيضا إدمان قراءته للشعر الجاهلى فى عهد دراسته الأدبية واحتذاؤه حذوه فى نظم القريض وصياغته. فوق مخالطته للقبائل العربية التى كانت نازلة فى مدن الأندلس؛ ومحتفظة بروحها العربية الأولى. ولا يكاد يضارع ابن هانىء فى هذا المحصول اللغوى الواسع شاعر سواه غير أبى الطيب المتنبى الشاعر الحكيم. وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مكملة لجوانب هذه الثقافات فى شخصية شاعرنا ابن هانىء. فقد ورث عن والده حب الأدب والميل اليه، والشغف بالشعر والظهور فى ميدانه وفى شتى أغراضه ونواحيه، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأدبهم وشعرهم. واتصاله بالبيئات الأدبية فى الأندلس. وساعد على ظهور ملكة الشعر فى نفسه: روحه الأدبى الموهوب؛ وفطرته الشعرية الموروثة، وعناية والد الأديب الشاعر به؛ وتوجيهه إياه الى كل مايفيده فى مستقبله الأدبى. وإلى كل ماينمى ملكاته. ويفجر فى قلبه ينابيع الشاعرية والإلهام، هذا كله فضلا عن حياة الشاعر فى بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء، والتى لقى الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعا أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج، وكما قرأ ابن هانىء الشعر الجاهلى وتأثر به فقد اطلع على شعر كثير من المحدثين، وعلى شعر المتنبى، الذى عاصره وتأثر به، وقرأ ديوانه، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذى نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد على.

وفى قصيدة ابن هانىء الفائية التى مطلعها :

أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وهى القصيدة الحادية والثلاثون فى ديوانه ، وصف دقيق للنجوم وهيآتها وحركاتها فى إشراقها وغروبها ، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانىء ببعض فنون من الفلسفة ، ويروى لنا التاريخ الأدبى أن ابن هانىء كان متهما فى الأندلس بمذاهب الفلاسفة (١) وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل ، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب ، ونحن نستبعد إلمام ابن هانىء ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعرى بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها فى التفكير ، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئاً من ذلك إلا أنه على أى حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة ، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة . وهجرته سنبين أسبابها الصحيحة فيما يلى من هذه البحوث .

وإذا فثقافة ابن هانىء تستمد عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر ، ومن أثر الوراثة الذى كان له مظاهر فى نفس الشاعر وعقله ، ومن أثر البيئة التى كان يعيش فيها ، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر ، والرحلة الدائمة ، التى تركت آثارها الكبيرة فى عقلية الشاعر وتفكيره وفى أدبه وشعره.

حياة الشاعر فى الأندلس :

أخذ ابن هانىء الشاب يسير فى غمار الحياة . ويخطو خطوات وئيدة فى ميدان الطموح والمجد ، وكان قد نضجت روح الشاعرية فى نفسه ، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه فى الحياة .

ثم دفعته همته وماضى أسرته الحافل إلى السعى فى طلب الشهرة والمجد ، ورأى الحياة العامة فى الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة. بعد ما حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين فى بيئته .

---

(١) الذهبى ١٨ .

فبدأ يتصل برجالات الدولة ، وخاصة أمير إشبيلية ، بعد أن عاد اليها من رحلته الثقافية فى قرطبة ، وأعزه الأمير واصطفاه ، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه ، واتخذه شاعره ونديمه ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الأدبى اضطراراً ، لفقر جامح ألم به ، أو لموت والده صغيرا وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال .

وقدر ابن هانىء يد الأمير عليه ، فشكره ونوه به ونظم قصائده فى الثناء عليه والإعجاب به ، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك ، وليس فيه بيت أو قصيدة فى أمير إشبيلية ، بل ولا فى تصوير حياته فى الأندلس ، ولعل شعره الذى نظمه فيها ضاع فى أثناء هجرته ، أو أنه لم يعن الرواة الشيعيون الذين رووا شعره بجمعه مع ما جمعوه من شعره الذى نظمه وهو مقيم فى دولة الفاطميين ، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذى أيد به هذه الدولة ورجالاتها .

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حينا من الزمان . ولكن ابن هانىء كان برماً بالحياة فى الأندلس ، مبغضا لملك الأمويين وملوكها ، منكرا لحقهم فى الخلافة الإسلامية ، كان شيعياً يتشيع للفاطميين آل بيت رسول الله ، ويشيد بدعوتهم ، ويذيع محامدهم ، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه .

ولا شك عندى فى أن ابن هانىء ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث ، فقد كان هانىء من قرية من قرى « المهدية » موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولتها الناشئة ، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاهرة لم يروها لنا التاريخ ، فلا بدع إذا أن يكون هانىء والد الشاعر شيعيا يهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين فى جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم . ووضعه فى موضعه ، فى البيت العلوى الطاهر . ولا بدع أن يغرس ذلك كله فى صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله . وإذا فقد عاش ابن هانىء فى حياة والده وبعد وفاته شعيا ، يستمع وهو فى الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة فى المغرب . ويتلقف أنباء مقاومتها لشتى ألوان الضغط

السياسى الذى كان محيطا بها ، وأخبار ظفرها وتوفيقها فى تأسيس مثابة صالحة حرة ، وملاذ آمن مستقل ، يلجأ اليه كل مضطهد من آل البيت العلوى ، فيجد الأمن والطمأنينة والسلام ، فى ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدية وما يتبعها من بلاد . والتى تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الأسود المرفوع فى بغداد ، وللراية الخضراء التى تظلل بنى أمية فى قرطبة والأندلس .

وعلى كل فقد تشيع ابن هانىء . ورأى المجتمع الأندلسى فى إشبيلية خطره على نظامه الإجتماعى والسياسى . فاضطهده وقاومه ، وكاد يفتك به أهل إشبيلية ، لولا مكانه من أميرها ، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم إليه أمثال هذا الشاب الثائر ، ورأوا أن يتهموا ابن هانىء بالفلسفة التى كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيراً . وعاد فهجره وملّه . ولم يستسغه عقله ، وكانوا يريدون أن ينالوا منه تحت ستار هذا الاتهام الجائر ما يريدون وأكثر مما يريدون . لأن الوطن الأندلسى لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً . فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإما أن يتوب .

هجرة الشاعر إلى المغرب :

علم أمير إشبيلية بالأمر ، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره الشاب ، فأشار على ابن هانىء أن يغيب عن المدينة مدة ، حتى ينسى فى خلالها أمره ، وتسكن فيها ثورة الناس عليه ، فامتثل الأمر ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب .

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس ، وإلى أى بلد يسير ؟ والناس إلب عليه ، والدهر يتجهم فى وجهه ، والأحداث تتآمر عليه مع المتآمرين ، وهو لا يأوى بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد .

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها، وإلا ناحية واحدة لا مناص من أن يقصدها ، ورأى نفسه تحدثه : هيا إلى بلاد المغرب بلاد الفاطميين ، ومقر العقيدة التى أوذى فى سبيلها لما آمن بها . وإلى المهدية من بلاد المغرب خاصة ، فهى بلاد الآباء والأجداد التى تتلاقى فيها ذكريات الماضى الطويل .

وصمم الشاعر على الهجرة ، ولم يجد سبيلا إلى الحياة الآمنة سواها ، فهاجر إلى عدوة المغرب ، وهو فى سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون .

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧ هـ ، أو عام ٣٤٦ ، وبذلك انتهت حياته الأولى التى قضاها فى الأندلس ، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين .

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه فى هجرته مالا ولا نشبا ، ولكنه كان يحمل فى صدره عقيدة قوية ، وعاطفة ملتهبة ، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ويسعى بهما قدماً إلى أبعد غايات الطموح ومجد الحياة .

ويصور لنا ابن هانىء هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لاقى خلالها من اضطهاد كاد يودى بحياته ، فى قصيدة من قصائده فى المعز الخليفة ، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه ... أبى بأبكار المهاول فاتك
ولو علقته من أمية أحبل ... لجب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها ... شراعا وقد سدت على المسالك
أجزت عليها عابراً وتركتها ... كأن المنايا تحت جنبى أرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعى ... فنجى هزبرا شده المتدارك

والشاعر فى هذه القصيدة قوى العاطفة ، متأجج الشعور ، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفنى ، ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع .

ويندفع ابن هانى. فى تيار عواطفه ، فيحمل على بنى أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة ، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل ، يقول فيما يقول :

ولم تدم فى حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أخجل مادح وأظلم إدبجور من الكفر حالك

إلى آخر مايقول .

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعز:

استقر الشاعر أخيرا فى المغرب ، أو على الأرجح فى المهدية وطن والده الأول، من بين بلاد المغرب كافة ، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره ، ويظهر شاعريته ، فساعدته الظروف على مايريد .

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧ هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية فى سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب ، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين فى أطراف هذه البلاد . ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً .

ونظم ابن هانى. قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره ، وجوهراً وبطولته وحزمه ، ومجده الحربى ، وولاءه للخليفة المعز ، واصطفاء الخليفة له ، ويقول فيها:

وأبيض من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس فى رونق الضحى
أريك به نهج الخلافة مهيعا يبين، وأعلام الخلافة وضحا

إلى آخر مايقول ، من قضائه على ثورات الثائرين ، وفتن الخارجين على المعز . وذهب الشاعر القائد فأنشد قصيدته وسط جيشه ومعسكره ، فسر بها القائد ، ثم أمر للشاعر بهدية استقلها ابن هانىء ، ولكنه أخذها إجابة لداعى الحاجة الملحة ، وأنى تبلغ المائتا درهم من نفس ابن هانىء مايريد ؛ لقد كان يسمع أنباء الجوائز الطائلة التى كان ينفحها العظماء الشعراء . والتى تقلب حياتهم

رأساً على عقب ، وتدعهم يعيشون فى ظلال الترف والخفض والنعيم، ثم لم يجد ابن هانى عند جوهر شيئا مما كان ينشده من آمال كبار ، فعلم انه لا يمت إلى أريحية العرب وسخائهم بصلة ، وفكر فى عظيم آخر يعيش فى ظلاله ، ويستقر فى المغرب فى رعايته .

ولكنه مع ذلك لم يقطع صلته بجوهر ، ولم يسكت عن الإشادة والتنويه به فى قصائده ، وكيف وجوهر بطل العقيدة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة ، وقائده المظفر ، ويده على الأعداء .

وفى ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد ، فقصيدته فى وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، وقصيدته فى فتح مصر وتهنئة المعز بهذا الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر ، فيهما أثر لبقاء هذه الصلات .

وفى الديوان أيضا قصيدة نظمها ابن هانى عام ٣٤٨ هـ مدح بها المعز ووصف هدية قائده جوهر اليه ، بعد تسخيره بلاد المغرب جميعا ، وتوطيد الملك الفاطمى فيها ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر ، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه ، وفى حاشيته ابن هانى ، لمقابلة المعز ، وقدم إليه هديته ، فنظم ابن هانى هذه القصيدة فى مدح المعز وقائده ، ووصف هدية قائده إليه .

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر فى أواخر عام ٣٤٧ ، وظل فى حاشيته عدة شهور ، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨ هـ ، ولكن صلات جوهر القليلة ، دعته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش فى ظلاله ، وفعلا سار الشاعر ميمما وجهه اميرا عرف بالبذل

والسخاء، وبالاغداق على الأدباء والشعراء، فألفى رحاله فى فنائه، وعاش أثيرا لديه، مقربا عنده، وذلك هو أمير «الزاب» و«المسيلة»: جعفر بن على.

الشاعر فى الزاب:

عهد الخليفة المنصور الفاطمى فى بدء توليه العرش عام ٣٢٤ هـ إلى جعفر ابن على القائد الفاطمى بولاية الزاب والمسيلة، وأنزل معه أخاه يحيى بن على يساعده فى ولايته، وعنى جعفر بأمور إقليمه، فبنى القصور والمتنزهات، وأقام له فيه سلطانا ومجداً، وقصده العلماء والشعراء، وظل فى ولاية هذا الإقليم حتى توفى الخليفة المنصور عام ٣٤١ هـ، فأقره المعز على ولايته لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه.

وسمع ابن هانىء بأمر الأمير وجوده وأريحيته، فهرع إليه عام ٣٤٨، يمدحه ويشيد بذكره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون فى ديوان الشاعر، التى أفاض فيها فى الثناء عليه، والإعجاب به، ووصف جهاده وبطولته، وآدابه السامية النبيلة، ومما يقول فيها:

خلقت شهابا تضىء الخطوب ... ولست شهابا يضىء الظلم
وإنك من معشر طفلهم ... يتوج قبل بلوغ الحلم
تشيع فيكم لسانى ومن ... تشيع فى قوله لم يلم
ولست أبالى بأى بدأت ... بفخرى بكم أو بمدحى لكم
فشملى لشملكم جامع ... وشعبى بشعبكم ملتئم

وابن هانىء فى هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التى تجمع قومه الأزديين بقوم الأمير، ثم يقول:

حمدت لقاءك حمد الربيع ... وشمت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عسف الزمان به ، وتحالف الخطوب عليه ، ويصور عفافه وبعد همته ، الذين كانا من أسباب محنته كما يقول ، فيقول :

أذم إليك اعتوار الخطوب ... وصرف الحوادث فيما أذم
ومما أعان على الزمان ... عفاف يدى وعلو الهمم
لسانى من العرب الأكرمين ... وفى أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف ، ودعاه إلى الإقامة فى كنفه ورعايته ، فامتثل ابن هانىء فى نشوة من البشر والفرح ، وأقام فى ظلاله يمدحه ويشيد بذكره ، أو يمدح أخاه يحيى ، أو ابنه إبراهيم .

وفى ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر ، فقد كفى شر الحاجة ، وأمن غائلة الأحداث ، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها وهدوئها وطمأنينتها ، وفرغ الشاعر لفنه وشعره ، بعد أن كان قلبه نهبا موزعا لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها . لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجى لآماله السحاب ، فلا ينجلى إلا عن سراب خادع ، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نداك أزجى عارضا ... فأشيم منه البرج المنجابا
لم تدننى أرض إليك وإنما ... جئت السماء ففتحت أبوابا

وصارت الزاب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها ... من نداه غضارة التفويف

ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه ، وأنقذه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعر إلا إليكم ... وفيكم فانى ما استطعت له صرفا
أبا أحمد قد كان فى الأرض موئل ... فلم أبغ لى ركنا سواك ولا كهفا
وما الشمس تكسو كل شىء شعاعها ... بأسبغ عندى من نداك ولا أضفى
أخذت بضبعى والخطوب رواغم ... فسمت زمانى كله خطة خسفا

أمنت بك الأيام وهى مخوفة ولو بيديك الخلد أمنتنى الحتفا

ويتحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيى معه :

وما زلت ترمينى الليالى بنبلها وأرمى الليالى بالتجلد والصبر
وأنجدنى يحيى على كل حادث وتوجنى تاجا من العز والفخر
فلا تسألانى عن زمانى الذى خلا فوالعصر إنى قبل يحيى لفى خسر
ولما حططت الرحل دون عراصه أخذت أمان الدهر من نوب الدهر
فداؤك حتى البدر فى غسق الدجى منيرا وحتى الشمس فضلا عن البدر

إلى أن يقول :

أأدعو إلهى بالسعادة عندكم وأنتم درارى السعود التى تسرى؟
أأبغى لديه طالبا ما كفيته وأسأله السقيا ودجلة لى تجرى ؟
أسرت بما أسديتمو من صنيعة وما خلتكم ترضون للجار بالأسر
فهلا بنى عمى وأعيان معشرى وأملاك قومى والخضارم من نجرى
فلا ترهقونى بالمزيد فحسبكم وحسبى لديكم ما ترون من الوفر

ويقول فيه :

أطفأت عنى زمنى بعد ما أوقفت من جمر على حرق
فاليوم بدلت سنا من دجى واعتضت صفو العيش بالرنق
واليوم يرقى أملى صاعدا وماله غيرك من مرقى
وما وفى شكرى ببعض الذى كسوتنى من مفخر الصدق

وهكذا كانت مدائح ابن هانىء فى جعفر وأسرته ، وكانت كذلك مراثيه البليغة فى أمه وفى حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن على ، والتى تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة ، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحا ، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادى هذه الأسرة الكريمة عليه ، وتقدير بعيد،

لحدبها به ، ومعونتها الصادقة له فى الحياة؛ولعل فى هذه الأبيات التى نظمها من قصيدة طويلة فى جعفر ، ماينم عن روح ابن هانى. وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلى أين الزاب عنا وجعفر ... وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلى نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه فى ساحة الأرض منظر
خليلى ما الأيام إلا بجعفر ... وما الناس إلا جعفر ، دام جعفر

لقد كان ابن هانى. قبل اتصاله بجعفر باتسا محروما ، لا يجد له نصيرا يخفف عنه عبء الحياة ، وكان كثير الشكوى من زمنه والأحداث التى كان يصبها عليه ؛ فبدل بالشقاء نعيما ، ومحى برأسرة جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه ، فابدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء ، وطمأنينة وصفاء ، ونعمة ورخاء .

وكانت شاعريته فى هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة ، يثيرها فى نفسه إلهام الشباب وحوافز الأمل ، والعزم على الظهور فى هذا المجتمع الجديد ، وكثرة أيادى جعفر عليه . لقد كان فى نضرة الشباب . ومتعة الحياة ، وبهجة الأمل وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه ، ولا بقصى منه . فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم ، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية ، أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أخل ذكرهم ابن هانى. ونظمه الجيد الممتاز ، كانت كل هذه البواعث حافزاً له على تجويد فنه ، وصقل شعره ، والإبداع فى ما يسحر به من قريض ، فكان يخرج قصائده إخراجا فنيا خلابا . فتخرج وهى مستوية الأطراف ، جميلة السبك ، جزلة اللفظ فى عزوبة ، يشيع فيها أثر التأنق والتهذيب . على أن الشاعر لم يكن مدفوعا إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة ، بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة . كان جعفر من أشد الذائدين عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسى ، وهى العقيدة التى أخلص لها الشاعر منتهى ما فى وسعه من إخلاص . فمدحه وكأنه كان يمدح العقيدة التى آمن بها ، وكافح من أجلها طول الحياة .

ومهما كانت الأسباب فإن إنتاج الشاعر فى هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيدا عن سمات التكلف ، مصبوغا بصبغة الشاعرية المطبوعة ، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجلاء ، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التى خضعت لألوان الحياة الجديدة المترفة فى ظل جعفر وأسرته .

وعاش ابن هانىء فى الزاب نحو عامين ، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة ، والمتعة بنعيم الحياة وجمالها . وتصوير جوانب هذه الحياة كلها فى شعره ومدائحه التى كان ينشدها الأمير وقومه .

ولم يكن ابن هانىء يشعر بأنه غريب فى البيئة ، ولا كانت أيادى جعفر عليه توقفه مواقف الهوان أو الذلة ، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب ، بل كان يرى فى صلات النسب بينه وبين جعفر حافزا له على التنويه به ، والإشادة بمآثره ، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه ، ويرفع مقامه عنده ، أليست أسرة جعفر يمانية قحطانية يعربية ، وأليست هى من بكر أحلاف قومه الأولين ؟ :

إنا لتجمعنا وهذا الحى من بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فكأننا من نسبة ولداتنا فكأننا من عنصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير تمد ابن هانىء بروح ملؤها الشعور بالكرامة والعزة فى ظل جعفر ، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة فى تلك البيئة ، وبين خصومه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء ، كالوهرانى كاتب الأمير الذى أخمله ابن هانىء ، وصور الخصومات الأدبية التى نشأت بينهما فى قصيدته التاسعة والعشرين التى هجا فيها الوهرانى شر هجاء .

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشىء ، مادام قوم الأمير هم بنو عمه ، وأعيان معشره ، وأملاك قومه ، والخضارم من نجره كما يقول .

وبعد فكنت أود أن أعرض آثار الشاعر الفنية فى هذه الفترة القصيرة الزاهية فى حياة الشاعر وفنه ، وأحلل فى إيجاز تراثه الفنى فى العهد الذى قضاه مع جعفر وأسرته ، وآياته الحسان الرائعة فى الإشادة به وبهم ، ولكن كثرتها وضيق هذا الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب ، يحولان بينى وبين ما أريد ، فاذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفنى موضعه فى تراث الشاعر الأدبى ، فان حكمنا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية فى حياة ابن هانىء الفنية .

ونحن لانعلم بعد ، هل استقرت حياة الشاعر استقراراً قائما على أساس الحياة العائلية فتزوج فى هذه الفترة التى قضاها فى الزاب أم لا ؟

وعلى أى حال فقد سارت قصائد ابن هانىء فى جعفر وأسرته . وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة ، وأنشدت فى مجلس المعز وهو فى القيروان ، فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هانىء ، وامتثل الأمير الأمر ، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه ، وكان فيها ابن هانىء الشاعر . بل كان هو أغلى مافيها من نفائس .

الشاعر فى عاصمة المعز :

وفى عام ٣٥٠ هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية ، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه ، وأنشده شعره ومدائحه فى الخليفة والخلافة وجلال الدولة وعظمة أيامها ، وتصوير عزها الشامخ ، ومجدها المكين .

والتاريخ الأدبى والسياسى لايرشدنا بالتحديد إلى العام الذى اتصل فيه الشاعر بالمعز ، ولكن دراسة تراث ابن هانىء الشعرى ومدائحه للمعز ، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة فى ثنايا تاريخ ابن هانىء الأدبى المجهول .

وكذلك لانرشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانىء فى مجلس المعز الفاطمى لأول عهده بالمثول بين يديه ، وسأذكر رأيى الذى أرجحه فى ذلك .

لابن هانىء فى المعز إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد الفنية وأبلغها، وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبى ، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة وتفهمها تفهما تاريخيا ، وتذوقها تذوقا أدبيا يهدينا إلى كل مانريد .

من بين قصائد الشاعر فى الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل وتعطيه الدليل الملموس على رأيه فى هذه المشكلات الأدبية .

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ هـ فى وصف هدية جوهر للمعز ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه ، وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانىء بالمعز كان عام ٣٤٨ ، لا عام ٣٥٠ كما نقول ، ورأيى فى ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان فى حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربى الذى ظفر به ، فقدم إليه هديته النفيسة التى وصفها ابن هانىء فى هذه القصيدة . وهذا رأى وجيه مقبول ، فضلا عن أنه يترك لابن هانىء عامين يقضيهما فى الذاب وفى نظم قصائده المأثورة فى جعفر بن على وأسرته .

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانىء الخليفة المعز ، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكلكل فأذل صعباً فى القياد جموحا

ويحذر أعداءه سطوته ويشيد بانتصارات جيوشه فيقول :

ونصرت بالجيش اللهام وإنما أعددته قبل الفتوح فتوحا
يزجيه أروع لو يدافع باسمه علوى أفلاك السماء أزيحا
فكأنما ملك القضاء مقدرا فى كل أوب ، والحمام متيحا

ويصف الأسرى وبؤسهم، وأسطول المعز وقوته ، وتتبع بنى أمية لحركاته

البحرية ، ويذكر مأتمهم الذى تجاوبت به الدنيا ، ورزء فقيدهم الذى فقدوه ، ويدعو إلى القضاء على دولتهم فى الأندلس ، فيقول :

وأمية تحفى السؤال وما لمن ... أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تتجاوب الدنيا عليهم مأتما ... فكأنما صبحتهم تصبيحا
لبسوا معايبهم ورزء فقيدهم ... كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله فى أعدائه ... لتراح من أوتارها وتريحا

إلى أن يقول :

أعليك تختلف المنابر بعدما ... جنحت إليك المشرقان جنوحا ؟
أم فيك تختلج الخلائق مرية ... كلا وقد وضح الصباح وضوحا
صورت من ملكوت ربك صورة ... وأمدها علما فكنت الروحا

والقصيدة قوية رائعة . ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربى لجيوش المعز ، ولكن لا ندرى فى أى عام كان هذا الانتصار ، ونتساءل : من هو هذا الفقيد الذى لبست أمية رزءه فى الأندلس ، وتجاوبت بمأتمه الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشىء ، ولا يبعد عندى أن يكون هو الملك الناصر الذى توفى عام ٣٥٠ هـ ، وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هانىء أمام الخليفة . فيكون إذاً بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠ هـ .

والقصيدة الثالثة هى الكافية التى ذكر فيها هجرته وبواعثها ، والتى حللنا جانبا منها فى هجرة الشاعر ، وفيها يقول :

سقى الكوثر الخلدى دوحة هاشم ... وحيت معز الدين عنا الملائك
وماسار فى الأرض العريضة ذكره ... ولكنه فى مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور نور جبينه ... ولكن نور الله فيه مشارك

ويذكر فيها ولاءه للفاطميين وهجرته فى سبيل عقيدته الشيعية ، ويدعو

المعز إلى القضاء على دولة بنى أمية فى الأندلس ، ثم يذكر نفسه وشعره ، والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتى يصورها فى قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبى ... وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبق بطاؤها ... وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسيء قوافيها ، وجودك محسن ... وتنشد إرنانا ومجدك ضاحك
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة ... طموح ونفس للدنية فارك
وما سرنى تأميل غير خليفة ... وأنى للأرض العريضة مالك
خمول وإقتار وفى يدك الغنى ... فحيا فإننى بين هاتين هالك

والقصيدة ليس فيها أى إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبى ، ولكنى أرى أنها من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز ، بل لا يبعد عندى أن تكون اولها كلها ، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته ، ودعا الخليفة إلى العطف عليه والعناية به ، وبيان إخلاصه لعقيدته ، وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته فى الأندلس ، كل هذا دليل على ما أقول ، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التى نشبت بينه وبين شعراء الدولة ، مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر فى بلاط المعز .

أما القصيدة الرابعة فهى نونيته الساحرة . التى نالت إعجاب الخليفة ، وكوفىء عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار . وذكر الديوان أنه قد قيل فيها إنها أول ما أنشده الشاعر بالقيروان من شعر فى المعز ومطلعها :

هل من أعقة عالج يبرين ... أم منهما بقر الحدوج العين ؟

ويقول فيها :

هذا معد والخلائق كلها ... هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التى ... بدأ الإله ، وسرها المكنون

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بنى أمية فيها . والقصيدة رائعة ، قوية فى نظمها وفى روحها وفى العقيدة التى تملأ جوانبها

بالحياة الفنية المشبوبة : وهى على أى حال من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز . إن لم نجزم بأنها أولها .

ونحن نرى أن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين ، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠ هـ ، وهو العام الذى اتصل فيه ابن هانىء بالمعز ، وأول قصيدة أنشدها فى مجلسه هى الكافية ثم تلتها الحائية ثم النونية ؛ وهذا رأيى وإن كان لكل اختيار مايريد بعد أن بسطنا البحث وفصلنا الكلام فيه .

وعلى أى حال فقد أقام ابن هانىء فى فناء الخليفة ، واستظل بظله ، وعاش فى القيروان عاصمة دولته ، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة ، ينشر أمامه الثناء المحبر والشعر الساحر ، والقوافى البليغة ، التى يشيد فيها بالدولة والخليفة ، ويدعم حقها فى تراث الرسول ، ويذود عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين ، ويشدو بأيامها وانتصاراتها ؛ كل هذا والخليفة يزيده عطفا ورعاية وتمكينا .

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة فى حياة الشاعر ، فعاش فى مجد العرش وظله ، وبين سمع الزمان وبصره . .

عصر المعز الفاطمى :

لاقى العلويون كثيرا من الاضطهاد فى عهد الأمويين والعباسيين ، وفر لفيف منهم إلى المغرب ، فنشر دعاتهم الدعوة الشيعية فى ربوعه ، ودعوا الناس إلى بيعة المهدى المنتظر منهم ، وأعلن أبو عبدالله الشيعى فى آخر القرن الثالث الهجرى عام ٢٩٦ هـ ابتداء قيام الدولة الفاطمية ، وأخرج عبدالله المهدى من الحبس وأقامه على ملك الفاطميين .

والدولة الفاطمية تنتهى فى نسبها إلى فاطمة الزهراء ، وكانت عاصمتها الأولى هى « المهدية » التى تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدى .

حكم المهدى هذه الدولة الجديدة نحو ربع قرن (٢٩٦ - ٣٢٢) هـ . ولما توفى خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ).

وكان ملك الفاطميين فى أول أمره يشمل كثيرا من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس ، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض ، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسع والفتح ، فضموا إلى دولتهم كثيرا من البلاد ، ولقب المنصور نفسه بألقاب الخلافة لما رأى ضعف دولة بنى العباس ، وفى عام ٣٤١ هـ توفى المنصور فخلفه على عرشه المعز لدين الله الفاطمى .. ولد المعز بالمهدية عام ٣١٨ هـ ، وبويع له بولاية العهد فى آخر حياة أبيه ، ثم سلم عليه بالخلافة فى ٧ ذى الحجة عام ٣٤١ هـ ، ولقب نفسه أمير المؤمنين ، وبابتداء حكمه ابتدأ عهد جديد للفاطميين ، وأخذوا يتوسعون فى بسط نفوذهم السياسى والروحى فى شتى الأقطار ، على حساب الدولة العباسية فى الشرق ودولة بنى أمية للغرب ، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التى كان العباسيون والأمويون يدأبون على إحاطة الدولة الفاطمية بها ، وبرغم الجهود الحربية التى قام بها العباسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسى والحربى والقضاء عليهم كما كانوا يتمنون .

وجه المعز عنايته فى أول عهده الى تقوية جيشه وأسطوله فبلغ بهما ما أراد ، وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين فى ثغور الأندلس ، والروم فى جزر البحر الأبيض ، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواه من القواد ، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوعها راية الفاطميين البيضاء ، ووصلت إلى البحر المحيط ظافرة منصورة عام ٣٥١ ، وفى عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعز وأسطوله وبين جيوش الروم وأساطيلهم البحرية ، فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وانتهت هذه المعارك بظفر

كبير للمسلمين ، وفى عام ٣٥٦ هـ مات كافور الأخشيدى وسيف الدولة الحمدانى ، وبدأت الدولة الأخشيدية فى مصر والحمدانية فى الشام تسيران إلى الاضمحلال والفناء ، مما مهد السبيل للتوسع الفاطمى صوب الشرق ، وفعلا خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨ ، بقيادة جوهر لفتح مصر ، فبلغ مصر ودخلها فى منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ واختط جوهر القاهرة ، وبنى الأزهر ، وأرسل الجيوش إلى الشام ، ودخل المعز القاهرة فى منتصف رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذى يسير من المحيط الأطلسى إلى الفرات ، وبذلك صار المعز أكبر حاكم لأعظم امبراطورية إسلامية عرفها القرن الرابع وظل فى مصر حتى توفى عام ٣٦٥ هـ ، وخلفه على العرش ابنه العزيز .

هذا خلاصة التاريخ السياسى لعصر المعز الفاطمى ، الذى كان كله عصر كفاح وجلاد ، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأمجد الانتصارات ، وقد شاهد ابن هانىء كثيرا من هذه الأحداث التاريخية العظيمة ، واتصل بالمعز خلالها اتصالا وثيقا ، ونظم فيها كثيرا من أروع قصائده وأعظم آياته ، وتغنى بمجد الدولة ، وناضل عنها خصومها السياسيين ، فلنتحدث إذاً عن التاريخ الأدبى لابن هانىء فى هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز ، ولأحداثه التاريخية الحافلة .

ابن هانىء شاعر المعز :

لم يكن ابن هانىء فى بلاط المعز شاعر الترف والنعيم الذى يستغرق فى ملذاته وشهواته ، ولا شاعر الفن الخالص الذى ينظم الفن للفن ، دون أن يلقى نظره على الحياة العامة حوله ، ودون أن يستمع لضجيجها ، ودون أن تحدثه نفسه بأن يكون صورة للحياة التى يعيش فيها وللأحياء الذين يقومون بأداء رسالتهم فى الحياة وفى تاريخ الإنسانية عامة .

إنما كان شاعر الحياة بأوسع معانيها . كان شاعر الخليفة ، والشاعر السياسى لدولة الخلافة الفاطمية، ينطق بمجدها ، ويتحدث عن عظمتها الروحية والسياسية والحربية ، وكان يجد فى عظمة المعز وعصره مجالا فسيحا ينظم الشعر فيه .

نعم إن قصائده كانت فى أول اتصاله ببلاط المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته فى الدولة ، وتصوير آلامه والخطوب التى احتملها ، وشكر أيادى الخليفة التى تغدق عليه المال والعطاء ، ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم . وفى انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١ هـ إلى ٣٥٤ هـ ، نظم ابن هانىء كثيرا من القصائد الرائعة التى صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير ، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ فأمم الشاعر بآيات ساحرة من القريض ، ونظم ابن هانىء بعد ذلك قصائد هى صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢ هـ .

وأصبح ابن هانىء فى هذه الحقبة ، أى من عام ٣٥٠ هـ إلى عام ٣٦٢ هـ ، شاعر الخليفة ، بما كان ينظمه فى مدحه من آيات الشعر الخالد ، وشاعر الدولة الذى وقف نفسه وفنه وشاعريته على الذياد عنها ، والاشادة بمجدها وأيامها وبطولة جيشها ، وانتصارات أسطولها الباهرة ، واحتل فى دولة المعز مكانا لم يحتله سواه من الشعراء ، وصار حديث الناس فى المحافل العامة والخاصة ، كما صار شعره أنشودة فى كل فم ، وأغنية فى كل لسان ، وحفل به الشيعة الفاطميون ، وأولوه عنايتهم وإعجابهم البالغ ، وكان لقصائده فى المعز وأهل بيته العلوى منزلة خاصة فى الأدب والتاريخ ، لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال فى حياة الدولة الفاطمية ، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين ، وتقديسهم للخلافة وعاهلها ، فوق مكانتها الأدبية الممتازة ، وما امتازت به من الروعة

والقوة ولدد الخصومة ، وقوة العقيدة وحرارة الايمان واشتعال العاطفة ، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها ، فضلا عن أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية والأدبية فى عصر المعز .

وبعد فقد كان ابن هانىء فى هذه الفترة العظيمة التى قضاها فى بلاط المعز شاعر الخليفة ، والشاعر السياسى ، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وآرائها السياسية ومعتقداتها الدينية ، وصارت شخصيته فى هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة ، وأغدق عليه المعز المال إغداقا ، وحسبك أن نونيته وحدها قد كافأه المعز عليها بخمسة عشر ألف دينار ، ولننتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبى لبعض قصائد الشاعر فى هذه الفترة الحافلة .

لابن هانىء كثير من القصائد التى نظمها فى المعز وتسمى « المعزيات » ، « ومعزيات » ابن هانىء هى قصائده التى أنشدها المعز ، والتى بينا مكانتها فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وهى ثروة أدبية ضخمة ، ومجد أدبى كبير لابن هانىء وفنه .

ومن هذه القصائد همزيته التى هى أول قصيدة فى ديوان الشاعر ، مدح بها المعز وهنأه بشهر رمضان ، وقد بدأها بغزل ظهر فى مطلعه بمظهر البداوة التقليدى فى الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبته ، وغلوهم فى الغيرة عليها ، وأشار إلى ذكريات التلاقى ومآسى الفراق ، وإلى بعض مظاهر الجمال فى خلقها ، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه .

ثم وصف أسطوله وقوته ، وسطوته على الأعـــداء ، ويقول فى هذه القصيدة .

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعـــلة ما كانت الأشياء
من شعلة القبس التى عرضت على موسى وقد حارت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سلالة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يقتبس النهار لمبصر ... وتشق عن مكنونها الأنباء
ليست سماء الله ما ترونها ... لكن أرضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره ... وأطاعه الإصباح والإمساء

ويستمر فى الإشادة به ، مدفوعا بعقيدته الفاطمية ، مسايرا لإيمانه الاسماعيلى ، الذى يرى أن الأمام ، أوقل الخليفة ، سبب وجود المخلوقات ، وأنه من أكملها جسدا وروحا ، وأنه متصف بكل صفات النبى ، صلوات الله عليه، وهو معصوم عصمة الأنبياء ،وأنه مظهر نور الله، ويصح اتصافه بصفات الله ويشرق نورها عليه وفيه ، وأن معرفته وطاعته واجبة على جميع الناس ، وأنه من معدن الرسالة التى خلقت قبل الخلق ، وانتقلت خلال القرون حتى ظهرت فى مظهرها العظيم فى شخصية محمد صلوات الله عليه ، إلى غير ذلك من مظاهر تقديس الشيعيين لآل البيت ولأئمتهم العلويين ، هذا التقديس الذى ارتفع إلى مستواه الروحى العظيم . والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة . ومن الجدير بالذكر أن شعر ابن هانىء فى المعز خاصة هو السجل الناطق بعقيدة الفاطميين ، وبآرائهم فى الخلافة وتراثها ، وشخصية الخليفة ونفوذه الروحى والدينى ، فتراه يقول فى هذه القصيدة :

هذا الشفيع لأمة يأتى بها ... وجدوده لجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده ... وبلاده إن عدت الأمناء
هذا الذى عطفت عليه مكة ... وشعابها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق ... المتدفق المتبلج الوضاء
فعليه من سيما النبى دلالة ... وعليه من نور الإله بهاء

ويقول فى المعز من قصيدة أخرى :

هذا ضمير النشأة الأولى التى ... بدأ الإله وسرها المكنون

من أجل هذا قدر المقدور فى أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه عفواً وفاء ليونس اليقطين

ويقول :

هذا الذى ترجى النجاة بحبه وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذى تجدى شفاعته غدا حقا وتخمد أن تراه النار
من آل أحمد ، كل فخر لم يكن ينمى اليهم ليس فيه فخار

ويقول :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الأحبار والأخبار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأرزاق والآجال والأعمار

ويقول فيه :

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل
فافخر فمن إنشائك الفردوس إن عدت ومن إحسانك التنزيل
وأرى الورى لغوا وأنت حقيقة ما يستوى المعلوم والمجهول

إلى غير ذلك مما تراه واضحاً فى كل قصيدة من معزياته التى صور فيها عقيدته الفاطمية أبلغ تصوير ، وأظهر مبادئها بكل وضوح وجلاء ، وقد كانت أبياته هذه وما شابهها مجالا كبيرا لخصوم الفاطميين ، الذين غضوا من شعر ابن هانىء وأزروا به ورموه بالكفر والبهتان .

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر فى المعز ، يضمنه عواطفه نحوه ونحو دولته ، وآماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الإسلامى ، وقصائده فى هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظافرة ،

لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة ، ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر ، ووصف موكبه إلى المصلى ، وجلالة هذا الموكب ، والمظلة التى كانت تظلله ، والخيل التى امتطاها ، إلى آخر ما ألم به الشاعر فى هذه القصيدة من معانى وأغراض ، ومطلعها :

قمن فى مأتم على العشاق ... ولبسن الحداد فى الأحداق
ومشحن الفراق رقة شكوا ... هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع ... طليق ومهجة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقى

ويقول فيها فى المعز :

جلا فطر منه عن نبوى ... أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة فى ظلال الخليفة بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله ، ووطدت مكانته فى الدولة ، وهى تصور عهد الاستقرار السياسى الذى انتهت إليه دولة المعز ، بعد توطيد دعائمها فى المغرب ، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم فى صقلية والبحر الأبيض ، أى عام ٣٥٤ هـ .

ثم يدخل عام ٣٥٨ هـ ، فتبتدىء مرحلة جديدة فى حياة الفاطميين ، وكيانهم السياسى ، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر ؛ فيودعه ابن هانىء متمنيا له التوفيق فى أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة ، فإذا ما عاد من تشييع جوهر وجيشه العظيم دخل على المعز ينشده آية من آياته ، ينشده قصيدته التى مطلعها :

سقتنى بما مجت شفاه الأراقم ... وعاتبنى فيها شفار الصوارم

بدأها بالغزل التقليدى ، ثم خلص منه إلى أناشيده فى المعز فيقول :

فشيعت جيش النصر تشييع مزمع ووددته توديع غير مصارم

ثم يذكر الجيش وينوه بقائده تنويها بالغا .

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر فيصور ابن هانىء الفتح وأنباءه ونتائجه السياسية تصويراً باهرا فى قصيدة بالغة نهاية الروعة والسحر والبلاغة ، وهى المثل الأول لقوة العقيدة فى نفس الشاعر ، ولأثر هذه العقيده فى فنه الشعرى الموهوب ، ومطلعها :

يقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟ فقل لبنى العباس: قد قضى الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :

تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ماوعد الدهر

تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسى أبعد غايات الطموح ، ويسترسل ابن هانىء فى قصيدته استرسالا جميلا ، فيصور الفتح وأثره ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويقرر حق الفاطميين فى تراث الرسول، ويذود عنهم خصومهم السياسيين ، ويصف الجيش الفاتح ، ودخوله الإسكندرية ، ورسول القاهرة الى جوهر ، ثم سيره إليها ، وقضاءه على الدولة الإخشيدية ، ويدعو الشاعر العالم الإسلامى إلى أن يستظل بلواء الفاطميين، وأن يدخل فى نطاقهم السياسى وإلا فالويل لمن يقف فى طريق السيل المنهمر، ويتهكم ببنى العباس إلى أن يقول :

ألا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبنى العباس فى عرضها فتر

فقد ذالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر

ويشيد بالمعز ويده على العلويين :

من انتاشهم فى كل شرق ومغرب فبدل أمنا ذلك الخوف والذعر

فكل إمامى يجىء كأنما على خده الشعرى وفى وجهه البدر

ويبشر بهذا الفتح العالم الإسلامى ، لا سيما قلبه الخافق ، البيت المحرم ، الذى يراه عما قريب سيكون فى قبضة المعز وسلطانه ، إلى أن يقول :

حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحي ، معدا ، فيه مكة والحجر

ويصور آثار الفتح ، ويشيد بالخليفة ، ويهنئه به ، فى حرارة وقوة إيمان ويصف الأمن والعدل الذين سادا مصر على يد جوهر ، وينوه بجوهر وأعماله ومجده وولائه إلى أن يقول :

رضينا لكم ياأهل مصر بدولة أطاع لكم فى ظلها الأمن والوفر

لكم أسوة فينا قديما فلم يكن بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

إلى أن يقول :

ألا إنما الأيام أيامك التى لك الشطر من نعمائها ولى الشطر

والقصيدة من أروع شعر ابن هانىء ، ومعجزة من معجزات فنه الخالد .

ولما وطد الفاطميون مكانتهم فى مصر عزموا على التوغل فى الفتح لأخذ الحجاز والشام والعراق ، ويصور ابن هانىء ذلك فى قصيدة له ، أشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطمى ، وسيره فى طريقه دون هوادة ، وبشر الشرق بالمستقبل المرتقب على يد الفاطميين ، وحفز عزيمة المعز لفتح العراق والسير إليها ، وأخذ الحجاز من أيدى العباسيين ، ويقول فيها :

فتربصوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفا

هذا المعز ابن النبى المصطفى سيذب عن قبر النبى المصطفى

وكأننى بلواء نصرك خافقا قد حام بين المروتين ورفرفا

والقصيدة طويلة جميلة ، وتاريخها الأدبى يمكننا أن نحدد له عام ٣٥٩ هـ .

وفى عام ٣٦٠هـ قضى المعز على ابن الخزر الثائر فى المغرب ، والذى نقض عهد الطاعة للخلافة ، وعاث فى الأرض فسادا نحو عامين ، ولما قتل جلس المعز يستقبل تهانىء رجال دولته ثلاثة أيام ، وكان من بين هذه التهانى قصيدة

ابن هانىء التى مطلعها :

كدأبك ابن نبى الله لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول

ذكر فيها مصرع الثائر ، وصور الاستقرار السياسى للدولة فى المغرب بعد القضاء على ثورته ، وأشاد بالمعز وولى عهده ، إلى أن يقول :

ليعقد التاج هذا اليوم مفتخرا إن كان توج يوم سائر المثل

فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن وقائع النصر تشفى من جوى الغلل

والقصيدة طويلة ، تقارب المائة مع جودة وسحر ، وهى كسابقاتها دعاية قوية للدولة ومبادئها .

وفى عام ٣٦١ هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة فى الشام ، وبلغ هذا النصر المعز ، فنظم ابن هانىء فيه قصيدته :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار

وهى قصيدة قوية مشرقة الديباجة وصف فيها الشاعر جيش المعز وانتصاره فى « قرافس » بالشام على القرامطة ، ووصف المعركة والخيل التى اقتحمتها ، والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها ، وأشاد بالمعز إشادة ساحرة ، ونافح عن حق الدولة ، وذاد عنها أعداءها من العباسيين ، وهى على أى حال من عيون الشعر ، وتحتل مكانها الممتاز فى فن ابن هانىء ، وقد نقم كثير من الناس على مطلعها ، ولكن الشاعر كان كما تمليه عقيدته عليه ، وفى آخرها يقول للمعز : إن مصر صارت محسودة منذ أن صرت قطينها :

ها إن مصر غداة صرت قطينها أحرى لتحسدها بك الأقطار

ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانىء قتل والمعز سائر فى طريقه إليها عام ٣٦٢ هـ ولما يبلغها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت مليكها

أوحاكما مثلا ، وليس هذا ببعيد ، بل هو أقرب من أن نذهب إلى أن البيت منتحل على الشاعر وعلى الشعر ، أو إلى أن القصيدة نظمت والمعز سائر فى الطريق.

بقيت من « معزيات » ابن هانىء قصيدة طويلة جدا ، تبلغ مائتى بيت ، وهى أطول قصائد الشاعر ، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى المعز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب ، وأنها آخر قصائده . . ومطلعها :

أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع فى عمدته (١) ، والقصيدة يبدؤها الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه ، ووصف جيشه وسيادته وبطولته ومحتده العريق ، إلى أن يقول :

ألا إنما الأقدار طوع بنانه ... فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم
وما التمع التاج المفصل نظمه ... على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كنت بالبطحاء خير متو ... ج فجدك بالبطحاء خير مممم
واشهد أن الدين أنت مناره ... وعروته الوثقى التى لم تفصم
فصاراك ملك الأرض لا مايرونه ... من الحظ فيها والنصيب المقسم

ويستمر فى تفاؤله لدولة المعز بسيادة العالم الإسلامى ، ويصور حالة الشرق وضعفه ، واستبداد بنى بويه بأمر الخلافة العباسية ، إلى أن يقول :

سوام رتاع بين جهل وحيرة ... وملك مضاع بين ترك وديلم

ويهدد بنى أمية بانتقام الفاطميين ، ويطلب من الخليفة أن يحسم داءهم ، ويستمر فى تهكمه بهم ، وفى الإشادة بآل البيت ، إلى أن يقول :

لئن كان لى عن ودكم متأخر ... فما لى عن التوحيد من متقدم
ولولا قطين فى قصى من النوى ... لما كان لى فى الزاب من متلوم

---

(١) ١ — ٨١

يقول : لولا أهلى بالزاب لما كان لى دائما مستقر سوى مستقركم . .

وعندى على بعد المزار ونأيه قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشأمت كانت لبانة معرق وإن أعرقت كانت لبانة مشئم
تطاول عن أقدار قوم جلالة وتصغر عن قدر الامام المعظم

ثم يقول :

ولما تلقتك المواسم آنفا تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أننى بنفسى لا بالوافد كان تقدمى

والقصيدة قوية جميلة مبدعة ، وأستبعد أنها أرسلت للمعز فى مصر ، لأن المعز وصل الأسكندرية فى شعبان ، والقاهرة فى رمضان عام ٣٦٢ ، والشاعر كان مصرعه فى رجب من هذه السنة ، فإما أن يكون ابن هانىء أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر ، وإما أن يكون قد أرسلها إليه والمعز فى برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة ، وقد دخل المعز برقة فى شوال عام ٥٦١ هـ ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد ، واعتذر الشاعر للمعز فى القصيدة عن عدم مصاحبته له فى رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم فى الزاب ، ولولا ذلك لما كان له فى الزاب أمل ولا حاجة ، وذلك غير بعيد ، ولا يبعد أيضا أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه ، وأرسلها إلى المعز فى عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل الى مصر ، وذلك أيضا غير بعيد .

وأخيرا فهذا أهم معزيات ابن هانىء الساحرة ، التى نظمها فى الإشادة بالمعز ودولته وفى الدفاع عن حق الفاطميين فى الخلافة ، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم ، وهى قصائد تحتل فى الأدب العربى مكانها الرفيع .

شاعرية ابن هانىء وشعره :

١ — كان لبيئة الأندلس المترفة ، وحضارتها الزاهية فى عهد الناصر ، وللمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية ، كان لذلك أثر فى ازدهار الأدب والشعر فى الأندلس الوطن الأول للشاعر ، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة فى الأندلس أثر فى تلوين الشعر بلون خاص ، شاع فيه الوصف ، ودقة التصوير ، وتنقل الخيال ، وسلاسة الأسلوب ، والتأنق فى الأداء ، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فنا يتحدث عن البيئة ومشاهدها ، والعواطف وأسرارها ، والمجتمع وحياته ، والشعراء وحياتهم الخاصة التى كانوا يحيونها ، والآمال واللذات والمشاعر التى كانت تجيش بها نفوسهم ، وتختلج بها صدورهم . وأصبح هذا الشعر يمثل جانبين واضحين فى الشعر الأندلسى : أحدهما طبيعة البادية التى كانت ماتزال نفوس العرب فى الأندلس تحن إليها ، وتؤمن بها ، وتسير على نهجها فى التفكير والمعرفة والأخلاق ، والثانى طبيعة الحضارة التى كانوا يعيشون فيها ، والترف الذى يملأ حياتهم ، والجمال الذى كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم فى كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغـــارقة فى الشعر والسحر والجمال .

ويمثل هذا الاتجاه الفنى فى الشعر الأندلسى قبل ابن هانىء بقليل ، ابن عبدربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها ، والمتوفى عام ٣٢٨ هـ فى عهد الناصر ، أى بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانىء . وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبدربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية ، التى نظمها ، والتى صور فيها ألوان الجمال فى بيئة الأندلس الساحرة ، والتى صيغت فى أسلوب عذب جميل ، يكاد يسيل رقة وجمالا وخصبا .

وفى هذا الوسط الأدبى نشأ ابن هانىء ، واستمد ثقافته الأدبية ، ونظم

القريض ، واتصل بالحياة فى إشبيلية وفى قصر أميرها ، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التى نشأ فيها وعاش فى ظلالها ؟

لايستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال ، لأن شعر الشاعر فى الفترة التى قضاها فى وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو فى سن السابعة والعشرين ، قد ضاع كله ولم يبق منه أثر قليل أو كثير .

ومع هذا فنستطيع أن نقيس فن ابن هانىء قبل هجرته بفنه الذى نظمه بعد هجرته مباشرة ، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبى للشاعر فى الأندلس لم يكن يصور بيئته ، ولا يجارى فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ولا يساير روح الترف الأدبى والحضارة الفنية فى الأندلس وطن الشاعر ، فما السر فى ذلك وما السبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد فى إنتاجه الفنى ، إنما كان مقلدا لسواه من الشعراء ، لم يقلد المحدثين منهم ، الذى يجارى أدبهم وفنهم روح الحياة والحضارة فى القرن الرابع الهجرى ، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذين عكف على حفظ أشعارهم ، وتأثر بها فى إنتاجه ونزعاته فى فهم الفن ؛ وفى نظم القريض ، طول هذه الفترة .

٢ — وهاجر الشاعر إلى المغرب فقضى فى ربوعه خمسة عشر عاما ، كل ثروته الشعرية هى من إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة الصغيرة فى حياة الشاعر ، وليس من المعقول أن يكون ابن هانىء قد تأثر فى شعره وشاعريته بشىء ما فى حياته بالمغرب ، نعم ، لم يتأثر بأى مؤثر أدبى فيه ؛ وإنما تأثر بأشياء أخرى لاتمت إلى طبيعة الفن بصلة ما ، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية فى المغرب ، وظهر هذا الأثر فى شعره واضحا جليا ، أما فنه وروحه الشعرى واتجاهه فى نظم القريض فلم يتغير بأى حال ، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن الى ذلك الحين بيئة أدب وفن ، يقومان على اتجاهات أدبية مستمدة من عوامل البيئة وأثرها ،

وإنما كانت بيئة كفاح وجلاد بين شتى القوى السياسية فى العالم الإسلامى إبان ذاك . وكان الأدب والفن فيها يسيران على نهج الأدب والفن فى قرطبة وبغداد. ولقد وفد الشاعر على هذه البيئة وهو تام الأداة ، موفور الملكات ، ناضج الاستعداد ، فشدا بالشعر فى المغرب كما كان يشدو به فى الأندلس فنا وبيانا وأسلوبا وخيالا ومعانى ونزعات ، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأت شخصيته الفنية تأخذ مكانها الأدبى الواضح فى إنتاجه وشعره ، وأخذت سمات التكلف الفنى تتلاشى من قصائده بتلاشى روح التقليد الأدبى من نفسه ، وبعد قليل من هجرة الشاعر إلى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفنى ، فظهر ذلك واضحا ملموسا فى شعره وقصائده ، فليس إذاً بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الأدبية فى المغرب ومبلغ أثرها فى نفس ابن هانىء ، وإنما سنبحث عن مدى أثر ابن هانىء فيها . فذلك هو الملائم لاتجاه البحث فى تراث ابن هانىء ونزعاته الأدبية .

إن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الأدبية فى الأندلس ، لأنه كان مشغولا عن بيئته بروح التقليد المتأصلة فى ثقافته الأدبية فى شبابه ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية فى المغرب ، لأنه كان قد ترك عصر التأثر الأدبى فى حياته . ولأن هذه البيئة التى هاجر إليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلة التى تمثل مذهبا أدبيا خاصا .

٣ — ووفد ابن هانىء على المغرب ، فوجد فيه شعراء ، اتخذهم أندادا لا أساتذة كان من شعرائه على التونسى الشاعر ، الذى قال فيه ابن هانىء لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحدا إلا أن يهجونى على التونسى فأجيبه » (١) . وكان منهم عبدالله بن الحسن الجعفرى ، ومقداد ابن الحسن الكتامى وسواهم من الشعراء . فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟

---

(١) ١ : ٧١ عمدة

لقد بذ ابن هانىء بفنه جميع هؤلاء الشعراء، فحسدوه ونقموا عليه، ثم أخذوا فى هجائه والزراية به وبفنه. ولكن ابن هانىء عصف بهؤلاء الشعراء جميعا. وأخمل مكانتهم، فصاروا بعد قليل من يقائه فى المغرب رعاعا فى دولة القريض، من حيث صار ابن هانىء أمير الشعر فى المغرب كافة، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجادة وإبداعا؛ وفتن الأمراء والخليفة بفنه، ورآه الشاعر مؤلفا من نظام كواكب:

صنع يؤلف من نظام كواكب ... طلعت لغير كثير والأحوص

ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواه من الشعراء فيقول:

أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة ... طموح ونفس للدنيـة فارك

ويقول للمعز:

فإن أك محسودا على حر مدحكم ... فغير نكير فى الزمان الأعاجيب

أفى كل عصر قلت فيه قصيدة ... على لأهل الجهل لوم وتثريب

أبن موضعى فيهم ليفخر غالب ... يبين بسيماه، ويدحر مغلوب

وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ... ليعرف رب فى القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة. وملك القريض فى دولة الفاطميين. وجميع نقاد الأدب يسلمون لابن هانىء زعامة الشعر فى المغرب كافة، ويقولون إنه لم يبذه أحد من الشعراء فى المغرب أو الأندلس، ممن سبقوه أوجاءوا بعده، ويرون أن فنه ارتفع بميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء فى المغرب والأندلس، وأنه كان طبقة وحده فى البلاغة الأدبية وفى الانتاج الشعرى فى شتى عصور المغرب الأدبية، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك إجحاف بأمثال ابن زيدون.. ورأيى فى ذلك

أن ابن زيدون كان صورة من صور بيئته الأدبية ، أما ابن هانى. فقد كان وحده بيئة أدبية خاصة، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون ، كما كان المتنبى شخصية فنية مستقلة ، ولذلك قال النقاد : « ابن هانى. متنبى المغرب ، وأبو الطيب متنبى المشرق » .

٤ — وقد وضع الشعراء فى المغرب والأندلس فن ابن هانى. - بعد عصره - موضع الإكبار والتقدير ، ونهجوا نهجه فى مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته وأساليبه ، وجعلوه مذهبا أدبيا لهم على مر العصور الأدبية ، ونبغ شعراء فى الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له فى فن الشعر ونظمه ، مما تراه مفصلا فى الذخيرة ونفح الطيب ، وذلك مظهر لمكانته الرفيعة فى الشعر فى بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية .

مذهبه الشعرى :

١ — الاتجاه الفنى عند ابن هانى. ينزع إلى روح البداوة ، التى تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والإسلاميين ، وهو كما يقول فى أبى الفرج الشيبانى كان ولا شك ممن لا يحتذى حذو المحدثين فى اتجاههم الفنى فى نظم القريض ، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلى يأنس به وينزع منزعه ويحاكيه ، ويقول من قصيدته فى الشيبانى ، وقوله فى ممدوحه صوره لنفس نزعاته الأدبية التى سار عليها ، يقول :

من لا يفاخر بالطائى(١) فى زمن ... ولا الخزاعى(٢) فى عصر الخزاعى

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١ هـ

(٢) هو دعبل الشاعر م ٢٤٩ هـ

ولا الفرزدق أيضا، والفخارله ولا جرير ولا الراعى النميرى
لكن بعلقمة الفحل الذى زعموا فى الشعر أو بامرىء القيس المرارى

فهو لا يفاخر بالمحدثين كأبى تمام ودعبل، ولا بالإسلاميين كالفرزدق وجرير والراعى، ولكن يجعل فخره فى الفن بعلقمة وبامرىء القيس، وإن كان الفتح بن خاقان يذكر فى مطمح الأنفس (١) أنه كان يتبع فى أغراضه الفرزدق وجرير.

وبعد فشعر الشاعر صورة لهذا الروح، وذلك الاتجاه والنزعة الفنية، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفنى وإغرافهم فى التصوير، وتهويلهم فى التمثيل والخيال، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة والقوة والصدق فى التصوير والتعبير. ومذهبته التى مطلعها:

أصاخت فقالت: وقع أجرد شيظم وشامت فقالت: لمع أبيض مخذم

التى حاكى بها معلقه عنترة فى روحها وأسلوبها واتجاهها الفنى، هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه. كما أن خلو شعره من آثار الإمعان فى المعانى والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعرى الذى نزع إليه الشاعر، وكذلك هو فى أسلوبه ينهج منهج الجاهليين فى قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة، وفى كثرة الأساليب المختارة التى تمثل روح البداوة فى التعبير والأداء، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه.

٢ — ومعانى الشعر عند ابن هانىء قريبة واضحة تشبه معانى الإسلاميين، وإن كان الشاعر يحاول فى أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعته فى مظهر جديد مبتكر.

وفى شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد. وقد يحيد الشاعر أحيانا عن نهج الفن الواضح، فيمدح ممدوحه بالجمال، كما يقول فى جعفر بن على:

(١) ٨٤ المطمح

وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه، سكران من خمر الصبا

يقول فى أبى الفرج الشيبانى وكأنه يغازله :

أهواه والصعدة السمراء تعذلنى والقلب يدلى بعذر فيه عذرى

وقد يقبح أحيانا فى صوغ معانيه وتصويرها ، كما يقول :

وأحمل أيامى على ظهر غارة وتحملنى منها على مركب وعر

ويأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته ، وإسرافه فى معزياته ، وقد سبق أن أبنا أن هذه المبالغة لاترجع إلا إلى شىء واحد هو نفس العقيدة الفاطمية التى اتخذها الشاعر مذهبا له فى الدين والسياسة والاجتماع .

٣ — وأسلوب ابن هانىء له ميزاته الخاصة التى تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء .

هو فيه بدوى جزل ، يرق حينا ، ويبلغ فى الجزالة والقوة والوحشية مبلغا كبيرا أحيانا أخرى .

وكان فى طبع ابن هانىء ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف ، حتى حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم ، ومن هؤلاء النقاد المعرى وابن رشيق وابن خلكان .

وكثيرا ماترى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتفخيم ، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع فى شعره ، فيجيد وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف فى صناعته الفنية أحيانا ، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته فى أحيان أخرى

وظاهرة واضحة فى أسلوب ابن هانىء هى كثرة إطنابه وتفصيله ، مما كان يؤدى به فى بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعرى ، فتراه يكرر كثيرا من الصفات التى لا طائل تحتها والتى لاحظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية . وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه فى شعره ، الذى امتاز به ابن هانىء ، ويشاركه فيه ابن الرومى ، إلا أن منشأه عند ابن الرومى المعنى

وبسط الحديث فيه ، وعند ابن هانىء الأغراض والبواعث الفنية التى نظم فيها وجانب اللفظ الذى كان يؤثره .

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع ، لايشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جدا من أبياته ، مثل قوله :

« لوكنت قبل تكون جامع شملنا » ، مما تلحظ فيه أثر التعقيد ، ومثل قوله :

ماكنت أحسب أن أرى بشرا كذا ليثـــا ولا درعا يسمى غابا

فكلمة « كذا » هنا نازلة مردودة فى حكم الذوق الأدبى .

وهذا القليل النادر من الأبيات التى خان فيها ابن هانىء طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم ، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبى فى فنه ، ولا بشذوذ غير المتنبى من الشعراء الممتازين .

وجودة ابتداءات القصائد ، وحسن انتهاءاته فيها ، سمة لابن هانىء فى شعره ، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وقرن بمطلع معلقة امرىء القيس « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » فى الجودة والجمال ، وابن هانىء فوق ذلك مجيد فى اقتباسه من أساليب القرآن الكريم ، ومجيد فى حسن تخلصه إلى المدح فى كثير من قصائده ، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان ، وحسن السبك والتأليف ، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعرى ، وتلاحم أجزاء القصيدة فى شعره ، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معا ، وتشيع فى إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية ، وفى أسلوبه كثير من الجمال فى صوره البيانية من الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة ، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدر الدجى ، كالشمس ، كالفجر ، كالضحى

كصرف الردى ، كالليث ، كالغيث ، كالبحر

وفى شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة، تساير الطبع وتستدعى الإعجاب .

٤ — وموضوعات شعره ، وأغراض القصيد عنده ، كثيرة متنوعة :

فمن مدح سياسى يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ونفوذها الروحى ومستقبلها الباسم ، مما كان يصدر عن عقيدة قوية ، وعاطفة ممتلئة إيمانا بمبادىء الفاطميين ، ولقد امتاز هذا « الشعر السياسى » بكثير من المعانى الخصبة ، كما امتاز بالقوة والروعة وسعة خيال الشاعر فيه . وهو فى هذا الجانب الفنى يضارع المتنبى .

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها ، ولأيامها وانتصاراتها ، والمعارك العظيمة التى خاضتها ، وللخيول التى كانت تقتحمها ، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدولة من مجد إلى مجد ، ويكللون هامتها فخاراً على فخار . نعم لم يكن ابن هانىء وصافة للطبيعة ، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة ، ولم يكن وصافاً للعواطف الإنسانية كما كان المتنبى وأبى العلاء ، إنما كان وصافاً مجيداً لحياة النضال السياسى والحربى الذى شغل الدولة والناس فى عصره وفى بيئته ، أما أوصاف الشاعر التى لا تتصل بهذه الناحية ، فهى كلها من الأوصاف القليدية التى لا تمت إلى نفس ابن هانىء بصلة ، وهو فى كثير منها ناب عن الذوق والإجادة . كما فى وصفه لرجل أكول ، وكما فى وصفه للراح ومجالسها وآلات الغناء التى تكون فيها ، فهذه الأوصاف وسواها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حدا كبيرا من الجمال والسحر ، عندما يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة . والشاعر فى هذا يضارع أبا الطيب ، فهما فى هذه الناحية صنوان . ووصف ابن هانىء مفعم بألوان الخيال وصوره التى كان يستعين بها فى تصوير المعنى الذى يريده .

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف ، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته النبيلة فى الحياة ، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجوه بالنفاق والكيد

للدولة ومبادئها كما فعل مع الوهرانى كاتب أمير الزاب ، فهو هجاء سياسى لاغير ، أما الهجاء الفنى الذى نراه عند ابن الرومى مثلا فليس للشاعر فيه نصيب .

ولابن هانىء غزل يبدأ به قصائده ، ولكنه فى جملته غزل تقليدى متكلف مألوف المعانى والأساليب ، يكرر فيه ماسبق إليه من : تصوير موقف الوداع وهول الجفاء ، والشكوى والرجاء ، والأرق والبكاء ، وبؤس المحب فى حبه ، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذى يزوره أحيانا ، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون ، وذكر الحاظها وأثر فتكها ، وغيرة أهلها عليها ، إلى غير ذلك من المعانى المألوفة التى للشاعر فيها حسن الصوغ ، ونظمها فى أسلوب خلاب وعبارات بليغة . وفى الحق أن حياة ابن هانىء وجهاده فيها وشغله بعقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين الإجادة فى النسيب ، شأنه فى ذلك شأن المتنبى ، ومع بداوة ابن هانىء فى غزله التقليدى ، فقد يرق حتى يأتى بالجديد الساحر ، كما فى قصيدته :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

أو قصيدته :

قمن فى مأتم على العشاق ولبسن الحداد فى الأحداق

أو قصيدته :

هل من أعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أفقها ذاك السنا وتألقه يؤرقنا لو أن وجدا يؤرقه

وقد يتفلسف فى حبه ، فيذكر الشمل المبدد ، والسعادة الذاهبة ، كما فى قصيدته : هل آجل نما أؤمل عاجل ؟ .

فليس ابن هانىء من رجال الهوى العذرى ، ولا من شعراء الحسن واللذة المترفين ، وإنما هو فى غزله مقلد كغيره من الشعراء المقلدين ، الذين قد يجيدون فيه وقد لايجيدون .

ولابن هانى ثلاث قصائد جيدة فى الرثاء . منها مرثيتان فى والدة جعفر ابن على أمير الزاب ، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ النذر
ألا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى

والمرثية الثالثة رثى بها طفلا صغيراً من أحفاد جعفر بن على ، ومطلعها :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربمـــا جاد لئيم فحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة ، وفيها حكمة ، وقد حاول بها ابن هانى أن يصل إلى منزلة المتنبى فى حكمته الخالدة ، ولكن المتنبى فى ذلك ، لا يضارعه شاعر من الشعراء .

والحكمة على أى حال فى شعر ابن هانى قليلة متفرقة ، وتكثر فى مراثيه ، وهى حكم إجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر التجارب العامة فى الحياة .

وقصارى الحديث أن ابن هانى أجاد فى شعره السياسى ، وفى مدحه ، وفى وصفه الحربى ، وفى رثائه ، ووقف متخلفاً فى غزله وهجائه ، وفى خمرياته ، وهو فى حكمته لايصل إلى منزلة حكمة أبى الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التى سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من بحوث .

٥ — وفى ابن هانى يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ فى كتابه مطمح الأنفس : له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به ، وبدائع يتحير فيها ويحار ، ويخال لرقتها أنها أسحار ، اعتمد فيها التهذيب والتحرير ، واتبع فى أغراضه الفرزدق وجرير ، وتشبيهاته خرق فيها المعتاد » (١) .

ويقول فيه المعرى م ٤٤٩ هـ فى رسالة الغفران : « كان من شعراء المغرب المجيدين وكان يغلو فى مدح المعز غلوا عظيما » (٢) :

---

(١) ٨٤ مطمح الأنفس (٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر اليازجى

ويقول ابن خلكان م ٦٨١ هـ : ليس فى المغرب من هو فى طبقته ، لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، ثم نوه بنونيته « هل من أعقة عالج يبرين » ، وأخذ عليه إفراطه فى المدح (١) ، ويفتخر الشقندى أديب الأندلس به فى مناظرة أدبية رواها نفح الطيب (٢) ،

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة (٣) ، وابن شرف فى مقامته : « أعلام الكلام » (٤) .

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسى نظيرين للمتنبى وأبى تمام (٥) ونوه الحميدى بشعره ، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه (٦) ، وذلك رأى المعرى فيه ، وإن حمله ابن خلكان على فرط تعصبه للمتنبى (٧) .

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم أكثر مما يبهرون بمعانيهم (٨) . ونوه به الذهبى فى تاريخ الإسلام (٩) .

ويعجب ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب (١٠) بقصيدته :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله فى المغرب نظير المتنبى فى المشرق (١١)

---

(١) ٢ : ٥ ابن خلكان (٢) ٢ : ١٤٠ النفح
(٣) ٢ : ٢١٢ الاحاطة (٤) ص ٢٦
(٥) ١٠٣ تكملة الصلة (٦) ٤١ جذوة المقتبس
(٧) ٢ : ٥ ابن خلكان (٨) ١ : ٨٠ العمدة
(٩) ٨١ (١٠) راجع باب تجاهل العارف فى الخزانة
(١١) ٧ : ١٢٦ ومابعدها معجم الأدباء

وذكره ابن أبي الحديد فى نهج البلاغة ، والعاملى فى الكشكول والمقرى فى نفح الطيب (١) ، وكثير من مؤرخى الأدب فى العصر الحديث .

وترجم فان كريمر شعره إلى الألمانية ، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره ؛ وذكره أيضاً هامر ، وهوارت ، وسواهما من المستشرقين .

وقد عنى بشرح ديوانه شرحاً لغوياً واسعاً الدكتور زاهد على الهندى ، وطبع هذا الشرح فى مطبعة المعارف عام ١٣٥٢ هـ فى نحو تسعمائة صفحة ، قدمها بمقدمة فى حياته وتاريخه (٢) .

هذا هو كل ما كتب عن ابن هانىء فى الأدب العربى على مر القرون .

مختارات من شعر ابن هانىء الأندلسى

قال فى الحكم :

إنا — وفى آمال أنفسنا طول ، وفى أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن ماعدمنها السمع والبصر
أى الحياة ألذ عيشتها من بعد على أننى بشر؟

---

(١) ٤٤٣ — ٤٥٠ : ٢ نفح الطيب

(٢) ومن ديوان ابن هانىء نسخة خطية فى مجلد بقلم نسخ فى ١١٧ ورقة فى مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أباظة — ٧٠٩٦) ، راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥ .

خرست لعمر الله ألسننا لما تكلم فوقنا القدر
هل ينفعنى عز ذى يمن وحجولها ، واليمن والغرر
ومقالى المحمود شاردة ولسانى الصمصامة الذكر
ها إنها كأس بشمت بها لا ملجأ منها ولا وزر
أفتترك الأيام تفعل ما شاءت ولا تسطو فتنصر ؟
هلا بأيدينا أسنتنا فى حين نقذفها فتشتجر ؟
فانبذ وشيجا وارم ذا شطب لا البيض نافعة ولا السمر
دنيا تجمعنا ، وأنفسنا شذر على أحكامها مذر
لو لم تربنا ناب حادثها انا نراها كيف تأتمر
ما الدهر إلا ما نحاذره هفواته وهناته الكبر

وفيها يقول :

أقسمت لا يبقى صباح غد متبلج وأحم معتكر
تفنى النجوم الزهر طالعة والنيران : الشمس والقمر
ولئن تبدت من مطالعها منظومة فلسوف تنتثر
ولئن سرى الفلك المدار بها فلسوف يسلمها وتنفطر

وفيها يقول :

وإذا صحبت العيش أوله صفو ، فهين بعده الكدر
وإذا انتهيت إلى مدى أمل دركا ، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابسه عيش جنى ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد ولكل نهلة وارد صدر
وجدود تعمير المعمر أن يسمو صعودا ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة وتنال منه الهام و القصر

والمرء كالظل المديد ضحى والفيء يحسره فينحسر

ثم يقول فى ختامها :

غرض ترامى فى الخطوب ، فذا
قوس ، وذا سهم ، وذا وتر

فجزعت ، حتى ليس بى جزع
وحذرت ، حتى ليس بى حذر

٢ — وقال فى النسيب :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

أو خذوا منى ما أعطيتم لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محبا من هوى أو تفكون أسيرا من صفاد؟
أسلوا عنكم من هجركم قلبا يسلو عن الماء الصوادى
إنما كانت خطوب قبضت فعدتنا عنكم احدى العوادى
فعلى الأيام من بعدكم ماعلى الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد

ومنها :

قل تنويل خيال منكم يطرق بين جفون وسهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينا بالتنائى والبعاد
وإذا شاء زمان رابنا برقيب أو حسود أو معاد

٣ — وقال يصف أكول :

ياليت شعرى ، إذا أومى إلى فمه
أحلقه لهوات أم ميادين؟

كأنها - وخبيث الزاد يضرمها -
جهنم ، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته كأنما كل فلك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
أين الحناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوى فى يده ذوالنون فى الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة كأنما اختطفتهن الشواهين
يخفض الرز من قرن الى قدم
وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه نار ، وفى كل عضو منه كانون
كأنما فى الحشا من حمل معدته قرنفل وجواريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا
وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم ، فخذوا من شدقه وزرا
أولا ، فأنتم سويق فيه مطحون

٤ - وقال فى وصف الخيل :
وصواهل ، لا المضب يوم مغارها
مضب ، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها ، لا أنها
علفت بها يوم الرهان عيون

وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهى ظنون

٥ — وقال يمدح المعز :

تقول بنو العباس : « هل فتحت مصر »

فقل لبنى العباس : « قد قضى الأمر »

وقد جاوز الإسكندرية جوهر تطالعه البشرى، ويقدمه النصر

ومنها :

إمام رأيت الدين مرتبطا به فطاعته فوز، وعصيانه خسر

أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يحط به الوزر

وفيها يقول :

وماضر مصرا حين ألقت قيادها إليك، أمد النيل أم غاله جزر؟

غدا جوهر فيها غمامة رحمة يقى جانبيها كل جانبة تعرو

كأنى به قد سار فى القوم سيرة تود لها بغداد لو أنها مصر

ستحسدها فيها المشارق، إنه سواء إذا ماحل فى الأرض والقطر

انتهى الجزء الرابع من كتاب قصة الأدب فى الأندلس

ويليه الجزء الخامس بحمد الله وعونه

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	صور من الشعر الأندلسى
٥٦	وصف الشعر الأندلسى
٥٦	مميزات الشعر الأندلسى وخصائصه
٧٠	صور فنية من الشعر الأندلسى
٧٨	آراء فى الشعر الأندلسى
٩١	من أعلام الشعراء الأندلسيين
٩٣	الموشحات فى الأدب الأندلسى
٩٣	صور من الموشحـــات
١٠٥	فن الموشحات الأندلسية
١٠٥	الموشحات بين الشرق والغرب
١٠٨	ابن خلدون ورأيه فى الموشحات
١٠٩	شعراء الموشحات فى الأندلس
١١٠	الفن الشعرى للموشحة
١١٧	أوزان الموشحـــات
١٢٠	الزجل فى الأدب الأندلسى
١٢٦	تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين
١٢٦	ابن هانىء الأندلسى
١٧٥	الفهرست

[illegible]	[illegible]
[illegible]	٢٥
[illegible]	٣٥
[illegible]	٥٧
[illegible]	٨٧
[illegible]	١٩
[illegible]	٦٩
[illegible]	٣٠١
[illegible]	٥٠١
[illegible]	٨٠١
[illegible]	٢٠١
[illegible]	١١٠
[illegible]	٧١١
[illegible]	٠٢١
[illegible]	٢٢١
[illegible]	٢٧١
[illegible]	٥٧١

محمد عبد المنعم خفاجي

قصة

الأدب في الأندلس

١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة الأدب فى الأندلس — الجزء الخامس

مطبعة العهد الجديد
لصاحبها : كامل مصباح

٢٥٤١

من أعلام شعراء الأندلس :

ابن زيدون الشاعر

٣٩٤٥٤ — ١٥ رجب ٤٦٣ هـ : ١٠٠٣ — أبريل ١٠٧١ م

— ١ —

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي القرطبي(١)، ولد بقرطبة ونشأ بها ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ،وكانت قرطبة فى ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم ومسائل اللغة ومباحثها ، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برع فيها ، فنم فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته . واتصل بابن جهور أحد ملوك الطوائف ، فاتخذه كاتباً ومشيراً ، ثم أخذ يترقى فى دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه فى السفارات بينه وبين ملوك الأندلس فلقب بذى الوزارتين ، وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه ، إلى أن دبت عقارب السعاية بينهما ، فنقم عليه ابن جهور وسجنه ، فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها عفوه ، فلم يلن له قلبه ، ففر من سجنه ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨ هـ ، فاستخلصه لنفسه، وعول فى أموره عليه، ثم وزر لابنه المعتمد ، وقضى فى إشبيلية بقية عمره . وقد ابتلى ابن زيدون وهو فى قرطبة بحب ولادة بنت المستكفى أحد خلفاء بنى أمية ، وكانت مشهورة بالجمال والأدب ، شاعرة سافرة ؛ تساجل الشعراء ، وتجادل العلماء ، وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة ، يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء.

---

(١) راجع : ابن زيدون للأستاذ حسن جاد ، وابن زيدون للدكتور شوقى ضيف، وابن زيدون الأستاذ على عبد العظيم، وديوان ابن زيدون ـ نشر كامل كيلانى

والقادة ،ومن هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله ، وبادلته هى هذا الحب ، فأذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه ومزاحميه . فسعوا فى إفساد ذات بينهما ، واشتهر منهم الوزير ابن عبدوس فتزلف إلى ولادة فى ساعة من ساعات ملله من ابن زيدون، وظفر برضاها ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إليه ، فكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية ، ضمنها كثيراً من الملح فى الأدب والتاريخ .

ولابن زيدون طريقة فى الكتابة متميزة جعلته فى صدر الكتاب ، وقد سبق ذكرها فى الجزء الثالث ، حين ذكرنا نثره والأدباء وقوامها :

١ — تضمين كتابته الأمثال والحكم والأشعار مع التآلف والتناسق .

٢ — الإشارة الى الحوادث التاريخية وأسماء الرجال المشهورين من الحكماء والأدباء والعلماء خلال كتابته .

٣ — استخدام الصناعة اللفظية فى كتابته محاكاة لابن العميد زعيم هذه الطريقة فى الشرق .

— ٢ —

أما شعر ابن زيدون فيتميز بما يلى :

١ — شعره أنيق الوشى رقيق النسج قليل التكلف ينزع عن قوس الملكة السليمة ، مشرق الديباجة ، معسول الألفاظ متجاوب العبارة ، خلعت عليه الملاحة أثوابها ، وأعارته البراعة أبرادها ، فجاء رشيقا طليا ، وأنيقاً بهيا ، يخلب العقول ويعجز الفحول ، قد عرى من الغرابة والحوشية ، وارتدى مطارف الإبانة السنية .

٢ — معانيه سنية دانية القطوف قريبة المورد لا يكد الذهن فى فهمها ، ولا يعتاص على العقل أمرها ؛ لأنها معان منبعثة من أعماق الوجدان ، قبض بها أوتار المشاعر الملتهبة والأحاسيس الفياضة ، وإذا أجلت فى رياض شعره

تفحك عبير شاعريته . وفتن فؤادك جمال عبقريته ، تقرأ فى شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف وخيال وتصوير دقيق وعرض أنيق.

٣ — يتجلى فى شعر ابن زيدون خفة الروح والوزن الراقص المتجاوب ، مع المعانى العاطفية والأفكار الوجدانية ، فهو يتلطف باختيار الأوزان العذبة الجرس العالية الموسيقى ، مما يجعل لشعره وقع الزلال من ذى الغلة الصادى .

٤ — سهولة قوله وعذبة أسلوبه ورقة كلماته التى تجىء مساوقة للطبع متجاوبة مع السليقة . وقد تلاءمت عباراته مع أفكاره ومعانيه ، من شكوى وأنين ولوعة واحتراق وبعد وفراق وجفوة وشقاق .

٥ — ومن ثم فقد شبهوا ابن زيدون بالبحترى ، كما شبهوا ابن هانىء بالمتنبى ، فقالوا : بحترى الغرب ، كما قالوا متنبى المغرب ، ومرد ذلك إلى تلك المنازع المشتركة بينهما من رقة الأسلوب واختيار الأوزان القصيرة الراقصة وصدق العاطفة والتزاوج بين المعانى والعبارات .

ولم يكن شعر ابن زيدون ضربا من التقليد والمحاكاة ، بل كان من نمو ملكة الشعر فى نفسه ، ومن رغبته فى التعبير عن كل مايشعر به ، وعما له صلة بحياته الخاصة . ولم تلبث الحوادث التى نزلت به ، والأيام التى قضاها فى السجن أن هاجت من نفسه ، وولدت فيها تلك المعانى التى ذكرها . فكان شعره صحيفة من حياته النفسية ، وصورة لما كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام . وكثيرا ماتقرأ شعره فترى فكره المضطرب ، ونفسه الوثابة الحائرة ، وتكاد تلمس كبره وخيلاءه وسخطه على أعدائه ، وتجلده وصبره وهو يشكو ويئن من بلواه . كما فى قصيدته التى يقول فيها :

ما على ظنى باس ... يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال ياس

وكثيرا ما كان يفخر بفضله ، ويربأ بنفسه عن أن يكون ألعوبة فى يد

الحوادث ، ويرى أن سبب تعسه حقد أعدائه عليه ، لما اتصف به من فضل وعلم وكثير من شعره فى هذا المعنى ، كقوله :

لايهنى الشامت المرتاح خاطره ... أنى معنى (١) الأمانى ضائع الخطر (٢)
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ... أم الكسوف لغير الشمس والقمر ؟
إن طال فى السجن إبداعى فلا عجب ... قد يودع الجفن حد الصارم (٣) الذكر
قد كنت أحسبنى والنجم فى قرن (٤) ... ففيم أصبحت منحطاً إلى العفر ؟ (٥)

ويمدح فيمزج مدحه بالاستعطاف والعتب ، وكثير من قصائده فى استعطاف ابن جهور وهو فى السجن صورة من صور البؤس الذى فتق من لسانه ، وأثار فى نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة ، التى هبت عليه فملأته هما وغما ، إذ يقول وكأنك تسمع أنينه :

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ... ويطلب ثارى البرق منصلت منصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ... لتندب فى الآفاق ماضاع من نبلى
ولو أنصفتنى وهى أشكال همتى ... لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى
ولو أننى أستطيع أن أرضى العدا ... شربت ببعض الحلم حظاً من الجهل

أما غزله فكثير ، وكله يدل على سعة خياله وإخلاصه فى حبه ، وبث عواطفه وما يجول فى نفسه ، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :

ياليت شعرى وعندى ... فى الحب ماليس عندك
هل طال ليلك بعدى ... كطول ليلى بعدك

---

(١) متعب بأمانيه . (٢) الخطر قدر الرجل ومنزلته . (٣) الصارم : القاطع . وسيف ذكر : ذو ماء وبريق . (٤) أى فى منزلة واحدة . (٥) التراب .

سانى حياتى أهبها فلست أملك ردك
الدهر عبدى لما أصبحت فى الحب عبدك

وقوله :

متى أبثك مابى ياراحتى وعذابى؟
متى ينوب لسانى فى شرحه عن عتابى
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

— ٣ —

وديوان ابن زيدون ضخم الحجم ، متناول لجميع أغراض الشعر من مدح ورثاء ، وهجاء واستعطاف ، ووصف وغزل ، والغزل فيه قد ظفر بنصيب كبير ، حتى لم يخل مطلع قصيدة منه ، وقد يطول نفس الشاعر فيه ، حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة ، وقد تكون القصيدة فى الاستعطاف ، وهو إلى البكاء وندب الحظ أقرب منه إلى السرور واللهو اللذين يبعثان الغزل ، ويعيدان ذكرى الوصال ، فيستهلها بالغزل ويطيل فيه على عادته ، هذا إلى غزل مستقل لم يقله تابعا لغرض آخر ، وذلك كثير فى شعره . وأشهر مثل له قصيدته النونية .

ونستخلص من ذلك ، غلبة هذا النوع من الشعر عليه ، وكثرة دواعيه عنده ، فهذه ناحية شارك فيها أبو الوليد بن زيدون ، أبا عبادة البحترى ، إذ أن البحترى — كما تعلم — مكثر من الغزل ، يصدر به أغلب قصائده .

وخاصية أخرى يشتركان فيها. وهى أن كليهما أغرم بمحبوبة، فذكرها فى شعره وأطال ترداد اسمها فى قوافيه، فابن زيدون أغرم بولادة التى ملكت عليه مشاعره، وكان صدها عنه وحرمانه من مجلسها، إحدى نكباته التى أطال منها الشكوى، وأكثر فيها الأنين، كما أغرم أبو عبادة بعلوة حبيبته بالشام . وليس يهمنا أن يكون حب البحترى صادقا أو متصنعا، وإنما يعنينا ، أن يصدر الشاعر عن صورة ماثلة يرى فيها ضروب الجمال ، وأفانين الفتنة ، فيحسن تصوير ذلك ، فأما أن يكون خياله جامحاً شارداً غير صادر عن حقيقة ، فذلك جدير ألا يكون فيه صورة للغرام الجاد : ومامثل الشاعرين فى ذلك الا كمثل المصورين ، يصور أحدهما من خياله فيكون حائداً فى كل ما يأتى ، وقد يخلط من الألوان مالا تناسب فيه ، ويصور الآخر من جمال ملموس له ظل فى الوجود . فيحاكى فى صورته الطبيعة ويعكس ظلها ، وما أعظم الفرق بين الطبع والتكلف (١) .

وجهة أخرى قد توافى عليها الشاعران، وهى أنهما اشتركا فى خفة الروح المناسبة للغزل ، فكانا يتلطفان باختيار الأوزان المرقصة لقصرها ، كما فى قول أبى الوليد :

أنى أضيع عهدك أم كيف أخلف وعدك
وقد رأتك الأمانى رضا فلم تتعدك
يا ليت مالك عندى من الهوى لى عندك
فطال ليلك بعدى كطول ليلى بعدك
سلنى حياتى أهبها . فلست أملك ردك
الدهر عبدى لما أصبحت فى الحب عبدك

ومن قول أبى عبادة فى مثل هذا :

(١) راجع الجزء الثالث من الأدب العربى وتاريخه ـ محمود مصطفى .

عـذيرى من تثنيه إذا أدبر أو أقبل
ومن ورد بخـديه إذا جمشـته يخجل

وما تفقا كذلك فيه ، أن سهولة قولهما ، وعذوبة لفظهما ، قد وافقتا مقام الغزل ، فجاء شعرهما مساوقا للسليقة ، متمشياً مع الطبع ، ولم تحل قساوة اللفظ وخشونته بينهما وبين مايريدان ، من إظهار اللوعة وذل الغرام والاحتراق بنار الجفوة .

— ٤ —

ومن مدح ابن زيدون لبنى جهور ، قوله فى أبى الوليد ، وهو نظم سرى اللفظ ، سنى المعنى ، دل فى جملته على أنفة القائل واعترافه بالجميل ، فى عزة لم يطأطئ معها رأسه ، ولم يتدل ذلك التدلى ، الذى يكون عند أكثر الشعراء ، قال:

يا بنى جهور الدنيا بكم حليت أيامها بعد العطل
إنما دولتكم واسطة أهدت الحسن إلى عقد الدول
نحن من نعمائكم فى زهرة جددت عهد الربيع المقتبل(١)
طاب كانون لنا أثناءها فكان الشمس حلت بالحمل
زهرت أخلاقكم فابتسمت كابتسام الورد عن لؤلؤ طل
أيها البحر الذى مهما تفض بالندى يمناه فالبحر وشل
من لنا فيك بعيب واحد تحذر العين إذا الفضل كمل (٢)

---

(١) اقتبل المرء أمره : استأنفه ، والربيع المقتبل (بصيغة اسم المفعول): المستأنف أى المنتظر .

(٢) المعنى أن العين تخشى على المرء إذا كمل ، فنحن نطلب فيك عيبا ، لنأمن عليك العين

شرف تغنى عن المدح به ... مثل ما يغنى عن الكحل الكحل
أنا غرس فى ثرى العلياء لو ... أبطأت سقياك عنه لذبل
لى ذكر بالذى أسديته ... نابه ود حسود لو خمل
فليمت بالداء من حال فتى ... أدبته سير الناس الأول
فوعى الحكمة عن قائلهم : ... « ألزم الصحة يلزمك العمل »
أقبلت نعماك تهدى نفسها ... لم أرع حظى منها بالحيل
فقبلت اليد من بطن يد ... ظهرها الدهر محل للقبل
كلنا بلغ ماأمـــله ... فابلغ الغاية من كل أمل
وإذا مارامك الدهر فقت ... وإذا رمت الأمانى فنل

وقال يستعطف ابن جهور

أبا الحزم ! إنى فى عتابك مائل ... إلى جانب تأوى إليه العلا سهل
حمائم شكوى صبحتك هوادلا ... تناديك من آداب أفنانى الهدل (١)
جواد إذا استن الجياد إلى مدى ... تمطر فاستولى على أمد الخصل (٢)
ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى ... بتصهاله ما ناله من أذى الشكل (٣)
أفى العدل أن وافتك تترى رسائلى ... فلم تتركن وضعا لها فى يدى عدل

---

(١) هوادل : جمع هادلة أى حمامة ذات هديل . هدل : جمع أهدل أى غصن متدل ، يشبه شكاويه إليه بحمائم تهدل على أغصان شجرة متهدلة .

(٢) استن الجواد : أسرع . تمطرت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضا . يقال. أحرز خصله وأصاب خصله أى غلب ، وأصل الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس .

(٣) الصافن من الجياد : الذى يقوم على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة وهو علامة العتق . الشكل : شديد قوائم الدابة . وفى معنى البيت يقول أبو الطيب :

وإن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال

أعدك للجلى وآمل أن أرى ... بنعماك موسوما وما أنا بالغفل
وماذاك وعد النفس لى منك بالمنى ... كانى به قد شمت بارقة المحل
أئن زعم الواشون ماليس مزعما ... تعذر فى نصرى وتعذر فى خذلى (١)
وأصدى إلى اسمع لجنى ... وأضحى إلى انصر انك السابغ الظل (٢)
ولو أننى واقعت عمدا حطيئة ... لما كان بدعا من سجاياك أن تملى
فلم أستثر حرب الفجار ولم أطع ... «مسيلمة» إذ قال إنى من الرسل (٣)
ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ... ومثلك قد يعفو ومالك من مثل
وإنى لتنهانى نهاى عن التى ... أشار بها الواشى ويعقلنى عقلى

ويقول :

بينى وبينك مالو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يابائعا حظه منى ولو بذلت ... لى الحياة بحظى منه لم أبع
يكفيك أنك لو حملت قلبى ما ... لاتستطيع قلوب الناس يستطع
تهأحتمل واستطل أصبر وعز أهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

---

(١) عذر كقدم : لم يثبت له عذر ، والمعنى تقصر فلا يكون لك عذر تبديه ، وأعذر من الأضداد بمعنى ثبت له عذر أو قصر ، والمراد هنا هو الثانى .

(٢) يقول : هل يكون جزائى أن أعطش ، ولك إسعاف سائغ وأبرز للشمس ، أو أتعرض للضرر ولك ظل سابغ وارف ؟

(٣) الفجار : أربعة أيام كانت بين كنانة وهوازن . وإنما سميت فجارا لأن العرب فجروا فيها فأحلوا القتال فى الأشهر الحرم . وأشهر أيام الفجار الرابع ، وكان سببه قتل البراض الكنانى لعروة الرحال الذى فضله كسرى عليه وأسند إليه إجارة عير اللطيمة ، وهى تجارة من القطف والطيب كان يبعث بها كسرى إلى بلاد العرب ويستبدل بها حاصلات تلك البلاد . وقد حضر النبى حرب يوم الفجار الرابع وكانت سنه أربع عشرة سنة ، وقال فيها : « كنت أنبل على عمومتى يوم الفجار ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

وقد أبدع فى الغزل حيث يقول :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا (١)

وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنما رق لى فاعتل اشفاقا (٢)

والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما حلت عن اللبات أطواقا (٣)

يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال اعناقا

كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك لم يعدعنها الصدر أن ضاقا

لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم ... لكان من اكرم الأيام اخلاقا

لا أسكر الله قلبا عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

ويقول : يصف موقف الوداع لولادة ، وما فى صدره من ألم ، على رضاه بالفراق حين ودع ، ولم يتبع :

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطا اذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنى ... حفظ الله زمانا أطلعك (٤)

ان يطل بعدك ليلى فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

---

(١) الرجل الطلق الوجه : الضاحك المشرق ، واليوم الطلق الذى ليس بحار ولا بارد ، والمعنيان صالحان هنا

(٢) اعتل النسيم : هدأ ولم يشتد . الأصائل أصيل وهو الوقت قرب الغروب.

(٣) اللبة : موضع القلادة من العنق .

(٤) السناء : الشرف والرفعة ، والسنى : الضوء .

وانظر إليه ، وقد تلاعب باللفظ ، وأتى بالقياس المحال ليرضى محبوبه ، فجعل نفسه مذنبا وهو مجنى عليه ، وطالب الجانى بالصفح ، مجاهرا باتهامه . وذلك فى قوله :

يا قمرا مطلعه المغرب ... قد ضاق بى فى حبك المذهب
ألزمتنى الذنب الذى جئته ... صدقت فاصفح أيها المذنب

وإن من أغرب مامر بى ... أن عذابى فيك مستعذب

أما قصيدته الحاوية لمعانى حبه ، المسجلة لشتى آلامه ، الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه ، التى هى فى شعر الأندلس كله نجم يتألق ، وعلم يخفق ، فهى قوله يخاطب ولادة ، ومطلعها:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ويقول فى آخرها :

أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة ... فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
وفى الجواب ، متاع ، لو شفعت به ... بيض الأيادى التى مازلت تولينا (١)
عليك منى سلام الله ما بقيت ... صبابة منك نخفيها وتخفينا (٢)

---

(١) هذه رواية الديوان ، الذى نشره الأستاذان : عبد الرحمن خليفة وكامل كيلانى . أما رواية قلائد العقيان فهى «قناع» ولا معنى لها ، إذ يكون أصلها قناعة فحذفت التاء ، ولكن ذلك غير مألوف ، لذلك نرجح الرواية الأولى .

(٢) نخفيها وتخفينا : الفعل الأول رباعى أو ثلاثى بمعنى ستر ، والثانى ثلاثى بمعنى أظهر ، والمعنى إننا نحاول كتم ماعندنا من عشق وصبابة ، ولكنهما يدلان علينا ، بما ينتابنا من اضطراب وسقم ولوعة ، فنحن نخفى الحب وهو يعلن أمرنا للناس .. ويكون أقرب إلى الفهم ، وأجرى على طريقة الشعراء فى القول ، أن يكون رباعيين بمعنى يستر ، والمراد من إخفاء الصبابة لهم أنها تحيل عليهم الهزال والسقم حتى لاتبين أشخاصهم !! وقد تناول الشعراء هذا المعنى كثيرا ، فقال المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ومن مختارات شعره قوله :

كما تشاء فقل لى لست منتقلا ... لا تخش منى نسيانا ولا بدلا
وكيف ينساك من لم يدر بعدك ما ... طعم الحياة ولا بالبعد عنك سلا
أتلفتنى كلفاً ، أبليتنى أسفاً ... قطعتنى شغفاً أورثتنى عللا
إن كنت خنت وأضمرت السلو فلا ... بلغت يا أملى من قربك الأملا
والله لا علقت نفسى بغيركم ... ولا اتخذت سواكم منكم بدلا

وقوله فى بعض مجالس الأنس :

يأيها الملك الجليـ ... ـل بكل ألسنا جلالك
انظر إلى محتلنا ... قد زان ساحته احتلالك
نهر وروض نحن بيـ ... ـنهما تفيأنا ظلالك

وقوله :

أدرها فقد حسن المجلس ... وقد آن أن تترع الأكؤس
ولا بأس إن كان ولى الربيع ... إذا لم تجد فقده الأنفس
فان خلال أبى عامر ... بها يحضر الورد والنرجس

وقوله :

جازيتنى عن تمادى الوصل هجرانا ... وعن تمادى الأسى والشوق سلوانا
بالله هل كان قتلى فى الهوى خطأ ... أم جئته عامداً ظلماً وعدوانا
ما صح ودى إلا اعتل ودك لى ... ولا أطعتك الا زدت عصيانا
يا ألين الناس أعطافاً وأفتنهم ... لحظاً وأعطر أنفاساً وأردانا
حسنت خلقاً فاحسن لا تسوء خلقاً ... ما خير ذى الحسن إن لم يول إحسانا

وقوله:

ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت فى ساحة القصر رايات
وقرنت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت للفراق علامات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الحمر فيها جراحات
وكنا نرجى الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات

وقوله:

وضح الحق المبين ونفى الشك اليقين
ورأى الأعداء ما غ رتهم منه الظنون
أملوا ما ليس يمنى ورجوا ما لا يكون
وتمنوا أن يخون ا عهد مولى لا يخون
فاذا الغيب سليم ا الحب مصون

وقوله:

يا ظبية لطفت منى منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد
حبى لك الناس طراً يشهدون به وانت شاهدة إن يشتهم حسد
لم يعزب الوصل فيما بيننا ابداً لو كنت واجدة مثل الذى اجد

وقوله:

ألا ليت شعرى هل أصادف خلوة لديك فأشكو بعض ما أنا واجد
رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتى وأجفان عينى بالدموع شواهد

وقوله:

يا غزالا أصارنى موثقاً فى يد المحن
إننى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى إشارة منك أو لحظة عنن

شافعى يا معذبى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خلواً من الهوى فأنا اليوم مرتهن
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن
ليس لى عنك مذهب فكما شئت لى فكن

وقوله :

خنت عهدى ولم أخن بعت ودى بلا ثمن
قائلا هل مزايد رابحاً ؟ ثم من يزن ؟
عدتى كنت للزما ن فقد حلت والزمن
أرخص البيع كيف شئـ ـت وذرنى لتندمن
سوف تبلى بغيرنا جرب الناس وامتحن

وقوله :

وليل أدمنا فيه شرب مدامة إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجا
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا من اللذات أطيب طيبها ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
فحلا أنه لو طال دامت مسرتى ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير

وقوله :

كم ذا أريد ولا أراد ؟ ياسوء مالقى الفؤاد
أصفى الوداد مدللا لم يصف لى منه الوداد
يقضى على دلاله فى كل حين أو يكاد
كيف السلو عن الذى مثواه من قلبى السواد ؟

وقوله :

أنا كالصدر فى الاحاطة بالرا ح إذ الراح كالضمير اللطيف
سل عن الطيبات فهى فنون ألفت فى أحسن التآليف
أى حسن يفى بحسنى محمولا بكفى وصيفة أو وصيف

وقوله فى عتاب :

يا مستخفا بعاشقيه ومستغشا لناصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا حتى أطعنا السلو فيه
الحمد لله اذ أرانى تكذيب ما كنت تدعيه

ابن خفاجة الاندلسى (١)

٤٥٠ — ٥٣٣ هـ

أسرته :

لما فتحت الاندلس عام ٩٢ هـ واستقربها المسلمون أقبلت القبائل العربية على الهجرة إليها أفرادا وجماعات ، وكان ممن هاجر الى الاندلس

---

(١) راجع : له ترجمة طويلة فى قلائد العقيان للفتح بن خاقان الأندلسى (٢٤١ — ٢٥٣) ، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣ ر ٢٤ ج ١ ، ١٩٠ - ٢٠١ بلاغة العرب فى الأندلس .

وقد ولد ابن خفاجة بجزيرة شقر من أعمال بلنسية : عام ٤٥٠ هـ وتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، وهو كما يقول المقرى ، : أديب الأندلس وشاعرها ، وأوحد الناس فى وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين ، ويلقب بصنوبرى الأندلس (٣٧٨ : ٥ وما بعدها نفح الطيب — نشر فريد رفاعى)

جماعة من القيسيين والعامريين والعقيليين والخفاجيين ، منهم : محمد بن عبد الملك العبسى(١) وكان يعيش فى القرن الخامس الهجرى ، ومحمد بن غريب العبسى وكان يعيش فى القرن السادس (٢) ، وابو بكر محمد بن عمر العقيلى المتوفى عام ٥٣٠ هـ (٣) ،ويقول ابن حزم : وخفاجة بطن ضخم منهم النحوى محمد بن معارك المعروف بالعقيلى بقرطبة (٤)

ورأيت نصا آخر عثرت عليه فى المكتبة الأدلسية يؤيد نسبة ابن خفاجة الأندلسى الى بنى خفاجة ، قال صاحب بغية الملتمس مانصه :ابراهيم بن الفتح ابن عبدالله بن خفاجة ، ابو اسحاق الخفاجى ، شاعر مشهور متقدم ، مبرز ، حسن الشعر جدا ، خبيث الهجاء ، وشعره كثير مجموع ، وكانت له همة رفيعة (٥) وتوفى سنة ٥٣٣ لأربع بقين من شوال (٦) . وله ترجمة فى المعجم لابن الأبار (٧) .

حياته وشاعريتـــه :

ابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب ، المجددين ، وهو بحق شاعر الأندلس ووصافها ، وابن طبيعتها الساحرة .

---

(١) ١٢٣ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار م٥٦٩ هـ .
(٢) ٢٣٢ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار
(٣) ١٢١ المعجم لابن الأبار ، ١٦٦ التكملة لابن الأبار
(٤) ١٧٤ أنساب العرب لابن حزم
(٥) ٢٠٢ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى
(٦) ٢٠٣ المرجع
(٧) ٥٩ — ٦١ المعجم لابن الأبار من أجزاء المكتبة الأندلسية . وفى هامش الترجمة أنه توفى عصر يوم الأحد السادس والعشرين من شوال سنة ٥٣٣ هـ

ولد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٥٤٠ هـ ببلدة شقر وتوفى بها سنة ٥٣٣ هـ ، فعاش زمن ملوك الطوائف وإبان دولة المرابطين . وهذه العصور أزهى عصور الأندلس : فيها قامت دولة الأدب والشعر ، وغصت مجالس الأمراء بالشعراء . فكانت بيوتهم أسواقا للعلماء ، وأندية للأدباء ، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء . وتبع هذا الترف الميل إلى اللهو والمجون وأنواع السرور ، وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء ، فكان الشعر ضربا من التفكه ، وملهاة للأمراء ، وزينة العقول ، وحلية العلماء . وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان فى النفس حب الجمال ، وسعة الخيال ، وقد كان لابن خفاجة حظ فى مناجاة الطبيعة وجمالها ، لأن بلدته التى عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء .

ولقد انقطع ابن خفاجة للنظر فى جمال الطبيعة ، فكان كثير التأمل فى المشاهدات ، وكانت نظراته تقود عقله ، وترسم له طرق التفكير وأنواع الخيال . فكانت كل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل فى جمال الألوان وتناسق الأشياء ، فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات . وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير . وكان لا يحب إلا الجمال ، ولم يميز من الأشياء التى يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية . فكان دائما فرحا مسرورا ، لا تكاد تجده يصف منظرا محزنا ، أو شيئا قبيحا ، أو يصف نفسا منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها ؛ فشعره صورة لحياته النفسية المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال . وكانت نفسه مطمئنة هادئة ، ميالة إلى اللهو والمجون ، فكان شعره أيضا به هذا الاطمئنان النفسى والهدوء الفكرى ، والمجانة الخلقية ، فلا ترى فى كلامه شيئا يدل على الشك أو الحيرة ، أو الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة ، أو مايدل على تفكيره فى الحياة وأهوالها ، والناس وأخلاقهم والوجود وما فيه من خير وشر ، ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة ، أو رأى يدل على كد فهمه . ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدل على نفسه

وشعوره الخفى ، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة . وليس ذلك لأنه يشعر بشىء ، أو لأن نفسه خالية مما يعلق بالنفوس عادة كالحب والبغض ، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها. ولكنه لم يكن يعنى بذلك، لأن هذا يدعو إلى الهموم والأكدار ، ولم يكن هو يميل إلى ذلك ، لأنه كان يريد أن يعيش فى نوع من الأحلام اللذيذة . لذلك كان أثر هذه الحياة عظيما فى نفسه ، فولدت فيها كثيرا من المعانى الشعرية ، واندفع إلى تصويرها وإلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك ، شأن جميع الشعراء المفتنين ، الذين تتسرب نفوسهم فى خفايا الجمال وأسراره . فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه ، يتتبع روائعه . فإذا امتلأت به نفسه ، أخذ فى وصفها ورسمها . وكان يتتبع مظاهر جمال الطبيعة ، ويخرج إلى البساتين ليسمع خرير الماء ، ولينعم بمشاهدة جريانه ، ويصف ذلك فى شعره ، ويجارى الشعراء أحيانا فى أوصافهم .

ويشمل شعر ابن خفاجة على المدح ، والعتاب والرثاء والشكوى والوصف والمداعبات . ولكن أجود شعره فى الوصف فإن الخيال هو كل شىء فى شعره ولكنه خيال يدعو الى حب الجمال ورقة الشعور ، ويهذب الذوق ، ويملأ القلب بهجة وسرورا ، لأن ابن خفاجة مصور ماهر ، ووصاف مبدع للمشاهدات ، وأكثر معانيه مأخوذة من مشاهداته . وقد امتلأت نفسه بذلك حتى فى المدح والرثاء . فنجده اذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب ، وأن الصباح ضحك فكشف عن ثناياه البيض ، وأن ممدوحه وضاح المحيا ، وأنك حين تنظر إلى بهائه : تشيم(١) بصفحتيه بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد

ويقول :

وقد ضحك الصباح بمجتلاه وراء الليل عن ثغر شنيب(٢)

---

(١) شام البرق نظر إليه .

(٢) أى ذى أسنان بيض .

أشيم به سنا برق يمان يحفزنى إلى المرعى الخصيب

فإذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملى عنها ذكرياته، ويتغنى بها وبأوصافها، كما قال يذكر أيام شبابه . وقد نيف على الستين :

فأذكرنا ليلة باللوى وعهداً لعصر الصبا أطربا

وماء بوادى الغضى سلسلا ومرتبعاً بالحمى معشبا

وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا

وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللمى (١) مشربا

فإذا رثى لا يغيب عنه الوصف حتى فى موقف البكاء ، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل ، وبما فى نفسه من المعانى التى ملكت منه كل شىء ، فيقول :

فى كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء

ولكل شخص هزة الغصن الندى غب البكاء (٢) ورنة المكاء (٣)

وهو فى ذلك الوصف يشبه الدموع السائلة على الخدود بجداول الماء . ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الغصن الذى غمرته السماء بالماء ، ويشبه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قيرة تصفر وتنوح .

وإذا أقسم أقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر ، وإشراق جيد الغصن فى حلية الزهر ، ويقول وهو سائر فى جوف الليل :

وخضت ظلام الليل يسود فحمه

ودست عرين (٤) الليث ينظر عن جمر

---

(١) اللمى : سمرة فى باطن .

(٢) غب البكاء بعد البكاء .

(٣) طائر أبيض اللون له صفير حسن .

(٤) العرين : بيت الأسد .

أو يقول : « والصبح يمسح عن جبين نهار »

ويذكر المعانى المستملحة ، فيشبه أوراق الشجر بالعذارى ، والنضارة بالضحك ، واهتزاز الغصون فى مهب الريح بمغازلة النسيم لها ، وأن الريح يلثم خدها الخجل . وهو القائل هذه الأبيات الشهيرة يصف نهرا :

لله نهر سال فى بطحاء ... أشهى ورودا من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء (١)

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة فى بردة خضراء

وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء

ويصف السرى فى ظلمة الليل الحالك المنبعثة فى كل ركن من أركان الفضاء ، وما يوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة ، وما يلاقيه السائر من حيوان مفترس ، فيخيل إلى القارىء أنه فى جوف الفلاة يلفه الليل بمخاطره ، أو كأنه أمام لوح مصور يرى فيه تلك المعانى مصورة بالألوان البديعة ، إذ يقول :

ومفازة (٢) لانجم فى ظلمائها ... يسرى ولا فلك بها دوار

تتلهب الشعرى (٣) بها وكأنها ... فى كف زنجى الدجا دينار

قد لفنى فيها الظلام وطاف بى ... ذئب يلم مع الدجى زوار

والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالى الركب وهى قصار

---

(١) المجرة : منطقة فى السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء .

(٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

(٣) كوكب يظهر فى شدة الحر .

قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه ومن خط الهلال عذار

أو يقول :

وليل كما مد الغراب جناحه وسال على وجه السجل مداد
كأنى وأحشاء الفلا تجنني سربرة حب والظلام فؤاد

وأسلوب ابن خفاجة يتجمع فيه قوة الخيال وسعته ، وحضور الذهن ، وسلاسة العبارة ، وسهولتها ، مع ميله أحيانا إلى الألفاظ الغريبة ، وإلى المعانى الخفية ، وإلى شيء من التكلف والتعمل فى ذكر أنواع البديع . بل قد يتغلب عليه ذلك ، فتمتلىء بذلك عباراته ، وأكثر وصفه فى الليل وسواده ، والصباح وبياضه ، والرياض والبساتين ، والأزهار والأشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ، ولونها الفضى وأشعة الشمس عليها ، والنسيم وسريانه ، وغير ذلك من مثل هذه المعانى . وقد خالف أكثر الشعراء فى نظم القصيدة من حيث البدء بالغزل والنسيب . إذ أكثر قصائده مبدوء بالوصف ، ولولا استسلامه إلى الصناعة لعد من الشعراء المفطورين . ولكنه بإمعانه فى تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف فى معانيه وألفاظه ، حتى لا تكاد تجد شيئا من كلامه إلا استعارة أو مجازا أو تشبيها . وقد يدعو ذلك أحيانا إلى استغلاق المعنى على القارىء . ولكن شعره فى جملته يعتبر معجما لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، وتشبيهات بديعة ، ومعرضا يجد فيه القارىء خير أنواع المجاز ، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية المختارة . . ومعانيه تشبه أسلوبه لأنها لا تعدو أن تكون تشبيهات أو استعارات .

يقول الفتح بن خاقان عنه فى كتابه « قلائد العقبان » : تصرف فى فنون الإبداع كيف شاء . فجاء نظامه أرق من النسيم العليل ، وأنق من الروض البليل ، يكاد يمتزج بالروح وترتاح إليه النفس ملك أعنة المحاسن ، وناهج طريقها ، العارف

بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها ، الراقم لبرودها ، المجيد لارهافها ، العالم بجلائها وزفافها . . تصرف فى فنون الإبداع كيف شاء ، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء ! . فشعشع القول وروقه ، ومد فى ميدان الإعجاز طلقه ! . فجاء نظاما أرق من النسيم العليل ، وآنق من الروض البليل ! . إن شبب فغمزات الجفون ، وإن وصف فناهيك من غرض انفرد بمضماره ، وإن مدح فلا مدح الأعشى للمحلق ، ولا حسان لاهل جلق ! . وإن تصرف فى فنون الأوصاف ، فهو فيها كفارس خصاف .

وذكره القاضى ابن خلكان فقال : « ذكره ابن بسام فى الذخيرة وأثنى عليه . وذكره المقرى فى نفح الطيب فقال فيه : أديب الأندلس وشاعرها ، أبو اسحق بن خفاجة ، وشهرته تغنى عن الاطناب فيه . مغرى بوصف الانهار ، والازهار ! وأهل الأندلس يسمونه « الجنان » ، وأورد له نثرا كالدر المنثور » .

وذكره مؤلفو كتاب « المجمل فى تاريخ الأدب العربى » فقالوا عنه : « من أشهر وصاف الطبيعة . . تكثر فى كلماته الاستعارات ، وتزاحم المعانى ، وقلما تكسب بالشعر » . ومن شعره :

سقيا لها من بطاح أنس ودوح حسن بها مطل
فما ترى غير وجه شمس أطل فيه عذار ظل

وقال عنه صاحب كتاب « المنهل فى تاريخ الأدب العربى » جزء ثان : « كان أبى النفس ، لايتعرض للتكسب بأدبه . . برز فى وصف الطبيعة أيما تبريز . وبلغ فى الرثاء والغزل الغاية . ومن جيد شعره :

ومائسة تزدهى وقد خلع الحيا عليها حلى حمرا وأردية خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة ويجمد فى أعطافها ذهبا نضرا

وقراءة شعره تحتاج إلى التأمل . لأن الرجل عميق الفكرة : يمتاز بوصف

الطبيعة . وبأنه ممن انطقوا الجماد بالحكمة والموعظة والعبرة ، وبأنه جميل التخيلات بديعها وبأنه بارع فى الرثاء ، والمدح . مع نفوره من الاستجداء والتكسب . ويمتاز فى النثر بأنه يجيد الإخوانيات من الرسائل » ، وكتب الأستاذ عبدالرحمن جبر عدة مقالات فى مجلة الرسالة السنة الأولى ، عنوانها: « الطبيعة فى شعر ابن خفاجة » .

ألوان من حياته :

نشأ الشاعر فى زمن تبلبت فيه الأفكار فى الأندلس ، وتعددت فيه الدول وكثرت العداوة والحروب بين ملوكها العرب حينا ، وبينهم وبين الأسبان حينا آخر . فانثلث عروش وتقلبت دول ، وضاعت بهذا السبب من أيدى ملوك العرب ، بلاد إثر بلاد ! .

وقد مدح(١) الشاعر أمراء ووزراء . فلم يتعرض فى مدحه ، لنصح أو زجر أو تحذير ! . حتى قصيدته التى قالها فى استرداد بلنسية من العدو لم يتعرض فيها لشىء مما أشرنا إليه ! . وهى التى يقول فيها :

الآن سح غمام النصر فانهملا ... وقام غصن عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى ... وكر للنصر عصر قد مضى فجلا
وبات يطلع نقع الجيش معتكرا ... بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا
من عسكر رجفت أرض العدو به ... حتى كأن به من وطئه وهلا
ما بين ريح طراد سميت فرسا ... جوراً وليث شرى يدعونه بطلا
من أدهم أخضر الجلباب تحسبه ... قد استعار رداء الليل واشتملا
وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق ... كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
ترى به ماء نصل السيف منسكبا ... يجرى ، وجاحم نار البأس مشتعلا

(١) بنو خفاجة ص ١٤ ج ٦ من كلمة للأستاذ محمد رضوان .

فكم هناك من ضرغامة سفرت ... سمر العوالى إلى أحشائه رسلا
قد كر فى لأمة حصداء تحسبها ... بحراً يلاطم من أعطافه جبلا
وللقنا أعين قد حدقت حنقا ... وللظبا ألسن قد انصحت جدلا
فزاحم النقع حتى شق بردته ... وناطح الموت حتى خر منجدلا

وكأنما كان ابن خفاجة متفرغا لوصف طبيعة الأندلس دون ماعدا ذلك ، وكأنه كان يسير على قول : أبى بكر محمد بن عيسى راثيا بنى عباد - بعد أن دالت دولتهم ، وعظمت نكبتهم - :

لكل شىء من الأشياء ميقات ... وللنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده ... وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فضلا عن ضياع أكثر شعره . وروى القاضى ابن خلكان فى ترجمته قال : قال ابن خفاجة :

« خرجت يوما بشاطبه إلى باب السمارين ، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية ، فى سنة ٤٨٠ هـ ، وإذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله تعالى قد سبقنى إلى ذلك . فالفيته جالسا على دكان كانت هناك ، مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست إليه ، مستأنسا به ، فجرى أثناء ما تناشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يامن يمر ولا تمر ... به القلوب من الفرق
بعمامة من خيره ... أو خده منها استرق
فكأنه وكأنها ... فمر تعمم بالشفق
فإذا بدا وإذا انثنى ... وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا ... نح والمسامع والحدق

فقلت : وقد أعجب بها جداً ، وأثنى عليها كثيراً . أحسن ما فى القطعة ، سياق الأعداد ، وإلا فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير

والبيت الذى قبله ، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها .

وهل ينزل بإزاء قوله : وإذا نطق ، قوله : شغل الحدق ، وكأنه نازعنى القول فى هذا غاية الجهد ، فقلت بديها :

ومهفهف طاوى الحشا خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة تليت محاسنها سور
فاذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر

وكان شديد الحب لوطنه ، وتعلقه به وحنينه إليه يدلنا عليه قوله :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتختشوا بعدذا أن تدخلوا سقرا فليس يدخل بعد الجنة النار

ولهذه الأبيات حكاية طريفة ، تروى ترويحا للنفس ، ومثلا على الإحسان فى الجواب ، وهى : حكى أن الخليل قدم رسولا ، إلى سلطان المغرب ، فأنشد بحضرة السلطان أبيات ابن خفاجة هذه ، فقال السلطان : كذب هذا الشاعر يشير الى قوله : جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها - فقال الخليل : يامولانا ، بل صدق الشاعر ، لأنها موطن جهاد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : الجنة تحت ظلال السيوف . فاستحسن السلطان قوله ، ورفع عن الشاعر لومه ، وأجزل صلته » .

ونظر فى المرآة فبدت له أول شعرة بيضاء فى شعر عذاره ، فشمله شعور غريب هو مزيج بين الأسف على ذهاب الشباب والحزن على الحرمان من عطف الحسان ، فصور ذلك تصوير مصور ماهر فقال :

أرقت على الصبا لطلوع نحم أسميه مسامحة مشيبا
كفانى رزء نفسى أن تبدى وأعظم منه رزءاً أن يغيبا

ولو لا أن يشق على الغوانى للاقيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدك هناك به شفيعاً إلى أمل ولم أبرح حبيبا

واستمر فى تعداد بواعث شعوره ، حتى جعل ذلك نذيرا دنو أجله ، إلى أن قال :

فأحسن من حمام الشيب عندى غراب شبيبة ألف النعيبا
يطيب بنفسه عند الغوانى فيغنى عن فتيت المسك طيبا

نماذج من شعره :

قال ابن خفاجة فى مدح القائد أبى الطاهر تميم بن أمير المؤمنين :

ولا كف إلا للأمير كريمة تبسم فيها النصل عن مبسم النصر
وهب بها يمضى فيفرى كأنما شهاب بها ينقض أو قدر يجرى
تلوذ المنى منه بأصيد أمجد صقيل فرند الحمد والمجد والبشر
عليه يمين أن تفيض يمينه وألا يغض السيف ضغنا على وتر
يعب عباب البحر فى السلم والوغى ببذل اليد الغراء والفتكة البكر
له راية لو زاحم الدهر تحتها لعدت به دهم الليالى من الشقر
وعزم يذل الطود هدا ونجدة تهز قدود السمر فى الحلل الحمر
ووجه وضىء شف عنه لثامه كما شف رقراق الغمام عن البدر
إذا كتمته بالمفاضة درعه تراءى هلال منه يطلع من بحر
سرى بين نوار لزرق أسنة حداد وأوراق لراياته خضر

وقال فى الوزير الحسن بن رحيم :

وصرخت : يالبنى رحيم صرخة فالتفت الأنجاد حولى عسكرا
من كل طلق الوجه شاه جواده زهوا بعزة ربه فتبخترا
طلق المحيا باليدين كأنه قمر تطلع فى غمام أمطرا
لبس الرداء من الثناء مطرزا فوق القميص من الحياء مصفرا

ومن شعره قوله فى وصف متنزه :

وبجر ذيل غمامة قد نمقت ... وشى الربيع به يد الأنواء
القيت أرحلنا هناك بقية ... مضروبة من سرحة غناء
وقسمت طرف العين بين رباوة ... مخضرة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنها ... معصورة من وجنتى عذراء

ومن شعره فى الزهد قوله :

ألا قصر كل بقاء ذهاب ... وعمران كل حياة خراب
ولا خطة غير إحدى اثنتين ... فإما نعيم وإما عذاب
فرحماك يامن عليه الحساب ... وزلفاك يامن إليه المآب

وقوله فى وصف الفرس :

ومطهم شرف الأديم كأنما ... ألفت معاطفه النجيع خضابا
طرب إذا غنى العجاج بمزق ... ثوب العجاجة جيئة وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقا ... متلهبا يزجى القتام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا ... فانقض فى ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلى تحسب أنه ... كأس أثار بها المزاج حبابا

وقوله يصف ظلمة الليل ومخافة الشكوى فيه :

ومفازة لانجم فى ظلمائها ... يسرى ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها ... فى كف زنجى الدجا زوار
والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالى الركب وهى قصار

وقوله فى صفه قوس : آلة رمى النبل :

عوجاء تعطف ثم ترسل تارة ... فكأنما هى حية تنساب
وإذا انحنت والسهم منها خارج ... فهى الهلال انقض منه شهاب

والقوس عند جذبها لرمى السهم ، تكون نصف دائرة ، فشبهها عند ذلك بالحية عند انطوائها ، والهلال قبل استكمال استدارته ، فانظر كيف أحسن

التشبيه بالحية عند الانطواء ، والهلال قبل الاستكمال ، ثم كيف أحسن تشبيه النبل عند خروجه من القوس حال انطوائها بالشهاب انقض من الهلال

وقوله فى وصف سفينة :

وجارية ركبت بها ظلاما ... يطير من الرياح بها جناح
إذا الماء اطمأن فرق خصرا ... علا من موجه ردف رداح
وقد فغر الحمام هناك فاه ... وأتلع جيده الأجل المتاح
فما أدرى أموج أم قلوب ... وأنفاس تصعد أم رياح

فمن ذا الذى يقرأ هذه الأبيات ولا يقشعر بدنه من هول الموقف ، بل من هذا الذى لا يخيل إليه أنه راكب فى بحر لجى ، عظم اضطرابه ، وتلاطمت أمواجه ، فى ليل اشتد ظلامه ، وتراكم غمامه ، فحبس عن العيون مسالك الأمان ، فبدا شبح الموت فاستسلم العقلاء ، لفصل القضاء ، إما بالنجاة أو الفناء .

وقوله يصف معركة حربية :

ركضو الجياد إلى الجلاد صباحا ... واستشعروا النصر العزيز سلاحا
واستقبلوا أفق السماء بجحفل ... نشر القتام على السماك جناحا
قد ماس فى أرجائه شجر القنا ... وجرى به ماء الحديد فساحا
مطر الأعاجم منه عارض سطوة ... برق الحديد بجانبيه فلاحا
حتى إذا قضم المهند نبوة ... واندق صدر السمهرى فطاحا
زحمت مناكبه الأعادى زحمة ... بسطتهم فوق البطاح بطاحا
فحمت حريم المسلمين مصارع ... تركت حريم المشركين مباحا

إلى أن قال :

وأقام فوقهم العجاجة كلة ... وادار بينهم الردى أقداحا
فانجاب ليل الخطب عن أفق الهدى ... وتطلع الفتح المبين صباحا

وقوله يصف شجرة على نهر :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا ... أوفت عليه ولم تنقص ولم تزد

كما تدانيت من ثغر لمرتشف ثم انثنيت ولم تصدر ولم ترد
كأن افنانها طيبا حمى ملك أعطى وأعطى فلم يوعد ولم يعد

وهذا تصويرا آخر لسيل جارف ، دهم البيوت ، فاجتاح بعضها وهدم بعضها، فبدت بدو الوفود استقبلت ملكا ، بعضها راكع وبعضها ساجد ! وذلك قوله :

وأهوت تخر هناك البنى كما تتلقى الملوك الوفود
وبانت كأن عليها صلاة فبعض ركوع وبعض سجود

فمن ذا الذى يقرأ هذا ولا يتصور سيلا عظيما دهم الديار فجعلها خاوية على عروشها ، بين زائل لم يبق سوى آثاره ، ومنهدم امتزج عاليه بأسفله :

ومن الرثاء فى شعره قوله فى الوزير أبى محمد بن ربيعة :

شراب الأمانى لو علمت سراب وعقبى الليالى لو فهمت عتاب
إذا ارتجعت أيدى الليالى هباتها فغاية هاتيك الهبات ذهاب
وهل مهجة الإنسان إلا طريدة تحوم عليها للحمام عقاب
يحب بها فى كل يوم وليلة مطايا إلى دار البلى وركاب
وكيف يفيض الدمح أو يبرد الحشا وقد باد أقران وفات شباب
فما ناب عن خل الصبا خل شيبة ولا عاض عن شرخ الشباب خضاب

ويسير بك فى طريق سرد هذه الحكم الغالية إلى أن يقول :

فيالهم من ركب صحب تتابعوا فرادى وهم ملد الغصون شباب
دعا بهم داعى الردى فكانما تبارت بهم خيل هناك عراب
فهاهم وسلم الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب
هجود ولا غير التراب حشية لجنب ولا غير القبور قباب

ولا يزال يأخذك بهذا الكلم الحق إلى أن يقول فى المتوفى :

فيا عجبا للدهر كيف سطا به وقد كان يزجى تارة ويهاب
وكيف استلانت صولة الموت عوده فلم ينب عنه للمنية ناب

ولو ان غير الله كان أصابه لجاشت نفوس لانقاد صعاب

وتستمر مأخوذا بروعة ماتسمع حتى تصل إلى قوله :

تولى حميد الذكر لم يأت وصمة فتبقى ولم تدنس عليه ثياب
أغر طليق الصفحتين كأنما وراء تراب القبر منه شهاب
ألا إن جسما يستحيل لتربة وإن حياة تنتهى لخراب
فلا سعى إلا أن يكون لآجل ولا ذخر إلا أن يكون ثواب

فهل رأيت سهولة لفظ ، وسمو معنى ، وجمال تعبير ، واشراق وضوح ، فى موسيقية وتوقيع — حتى فى أوقات تضارب موجات الحزن ، وتلاطم بحار الآلام ، أحسن وأجود من هذا .

وهذ هو رثاؤه للوزير أبى محمد عبد الله بن ربيعة ، وتأمل كيف غلب عليه حب الطبيعة فأبى الا أن يمزجها برثائه مزجا غريبا ، كامتزاج دموع الحزن بالفرح فجمع بين جمال الطبيعة ، ولوعة الفراق . فلم يترك شيئاً من الروض ولا الجدول ولا الغصن ولا الطير المغرد ولا مطلع الأنوار ، ولا الأنواء ، ولا معهد الشيبة ولا الرسم الدائر ، ولا السماء ولا الأرض ولا القمر ولا الظلماء ولا الآرام ، ولا الفرقدين ولا الجوزاء ، إلا ذكره ، وذلك حيث يقول :

فى كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندى غب البكاء ورنة المكاء
يامطلع الأنوار إن بمقلتى أسفاً عليك كمنشأ الأنواء
وكفى أسا ألا سفير بيننا يمشى وأن لاموعد للقاء
فيم التجمل فى زمان بزنى ثوب الشباب وحلية النبلاء
فعريت الا من قناع كآبة وعطلت الا من حلى بكاء
فاذا مررت بمعهد لشبيبة أو رسم دار للصديق خلاء
جالت بطرقى للصبابة عبرة كالغيم رق فخال دون سماء

ورفعت كفى بين طرف خاشع تندى مآقيه وبين دعاء
وبسطت فى الغبراء خدى ذلة أستنزل الرحمى من الخضراء
متململا ألما لمصرع سيد قد كان سابق حلبه النجباء
لا والذى أعلقت من تقديسه كفى بحبلى عصمة ورجاء
وخررت بين يديه أعلم أنه ذخرى ليومى شدة ورخاء
لاهزنى أمل وقد حل الردى بأبى محمد المحل النائى
فى حيث يذكر ور ذاك المجتلى وفرند تلك العزة الغراء
وكفى اكتئابا أن تعيث يد البلى فى محو تلك الصورة الحسناء
فلطالما كنا نريح بظله فنريح منه بسرحة غناء
فتقت على حكم البشاشة نورها وتنفست فى أوجه الجلساء
تتفرج الغماء عنه كأنه قمر يمزق شملة الظلماء
قاسمت فيه الرزء أكرم صاحب فمضى ينوء بأثقل الأعباء
يهفو كما هفت الأراكة لوعة ويرن طورا رنة الورقاء
عجبا لها وقدت بصدرى جمرة وتفجرت فى وجنة عن ماء
ولئن تراءى الفرقدان بنا معا فكفاك شهرة سؤدد وعلاء
فلطالما كنا نروق المجتلى حسنا ونملأ ناظر العلياء
يزهى بنا صدر الندى كأننا نسقى هناك قلادة الجوزاء

أما الغزل فى شعره فكثير ، ومنه يخاطب محبوبة له :

يارب ليل بته وكأنه من وصف شعرك
تنهل مزنة دمعتى فيه ويندى نور ذكرك
أنسيت فيه وقد بكيت عقيق خدك در ثغرك
وشرقت فيك بعبرة قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفض عن حبب لها رمان صدرك
ولرب ليل قد صدع ت ظلامه بجبين بدرك

ولهوت فيه بدرة مكنونة فى حق خدرك
تندى شقائق وجنتيـ ـك به وتنفح ريح نشرك
وقد استدار بصفحتى سوسان جيدك طل درك
حيث الحبابة دمعة تجرى بوجنة كاس خمرك
وتهز منك فتنثنى بقضيب قدك ريح سكرك
وتعب من رجراج رد فك موجة فى شط خصرك

وقد تناول ابن خفاجة فى شعره الأغراض التى كانت تدور فى محيط الناس، وعرض إلى ماعرض له شعراء عصره ، ولكن الميدان الذى جال فيه ، فنال قصب السبق وغدا فارس الحلبة لايشق له فيه غبار ولا يزاحم فى مضمار، هو ميدان الوصف الذى انقاد له زمامه ودانته شوارده وأوابده ، وهو ينزع عن قوس الطبيعة فى سائر أغراضه الشعرية، فاذا مدح يصف الثناء بأنه رطب وأن الصباح ضحك فكشف عن ثنايا البيض وأن ممدوحه وضاح المحيا ، وإذا رثى لا ينسى الوصف حتى فى موقف البكاء فيقول :

فى كل ناد منك روض ثناء وبكل حد فيك جدول ماء

وهو فى أسلوبه كثير التصنع ، لغرامه بالصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وألوان بديعية ، فقد كان مولعا بذلك حتى جاء أكثر شعره يختال فى مطارف التشبيه والمجاز، وربما جره الإمعان فى هذا إلى غموض المعنى واستغلاق الفكرة ، وكان يعنى باصطفاء الألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة والتركيب الرصين ، ويتفيأ المعنى العميق البعيد الغور ويجنح إلى المبالغة فى أكثر صوره الشعرية .

وقد فتن ابن خفاجة بحب الطبيعة وكان لمشاهدها أثر عظيم فى نفسه ، فوصفها

وأبدع فى الوصف وعرض صورا رائعة حافلة بالمثانى الأنيقة والأفكار الرشيقة ، بل إننا نراه يغوص إلى الأعماق ويستخرج درر المعانى ولآلئها ، ويبتكر من الأوصاف مايعد به شاعر الطبيعة غير منازع ووصاف معالمها غير مدافع .

تجاوب مع الطبيعة فى رقتها وجمالها ، فجاء أسلوبه عذبا رائعا واختار الألفاظ الناعمة الملمس والأساليب السهلة الرشيقة والعبارات المشرقة الأنيقة ، وعزف عن الغريب عزوفا تاما ، فلسنا نجد فى قصيدته كلمة يكدى لها الذهن ويستغلق معناها على الفهم .

وهو كثير التصنيع فى أسلوبه يتبع ألوان البيان من تشبيه واستعارة حتى لا يكاد يخلو بيت من شعره من هذه الصور البيانية الرائعة التى تسترعى الأنظار وتستلفت الخواطر بأناقتها وجمالها ، فليس لديه سوى الشريف من التشبيهات والطريف من الاستعارات .

نثر ابن خفاجة :

لابن خفاجة قطع نثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال ، وسار فى أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذانى ، من حيث اتباع السجع والتعمل ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع ، وكأن نثره شعر منثور .

يقول وهو من الكتابة المنمقة المملوءة بالألفاظ المختارة والتشبيهات الكبيرة : « ذهبت فى لمة من الأخوان ، نستبق إلى الراحة ركضا ، ونطوى للتفرج أرضا ، فلا ندفع إلا إلى غدير نمير ، قد استدارت منه فى كل قرارة سماء سحائبها غماء ، وانساب فى كل تلعة حباب ، جلده حباب ، فتر ددنا بتلك الأباطح تتهادى تهادى أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها . وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشى ، على بساط وشى ، فإذا مر بغدير نسجه درعا ، وأحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا ،

فلا ترى إلا بطاحا ملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هناك كتائب ، فالقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول ، فاحتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية رواق الأوراق . وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ونتمل عليه برداء نسيم عليل ، ونجيل النظر فى نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كأنه مجرة سماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب . وقد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها ويغنى لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان النقر .

ومن ذلك قوله لمن كانت بينه وبينه مقاطعة : « أطال الله بقاء سيدى ، النبيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته ، الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرى للجزم ، واعتلت واو يغزو بموضع الضم . . كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال . وعهد كريم ، هو الفعل ، لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة . ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وإنما استنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل ، وتعدية فعل الفصل . وعدولك عن باب الف القطع ، إلى باب الوصل والجمع . حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت . .

ابن سهل الأندلسى

٦٠٩ — ٦٤٩ هـ

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى الأشبيلى الشاعر المشهور ، ولد سنة ٦٠٩ هـ ، وتوفى غريقاً مع حاكم مدينة سبتة سنة ٦٤٩ هـ . وكان يهوديا ثم أسلم ، سكن آباؤه الأندلس منذ زمن بعيد ؛ ثم صاروا من ذوى الجاه والشأن ، وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتبا لصاحب سبتة ، وتعلم اللغة والأدب على اشهر علماء زمانه ، ومنهم أبو على الشلوبين ـ ولد بإشبيلية سنة

٥٦٢ هـ وتوفى بها سنة ٦٤٥ هـ وهو من أكبر علماء النحو واللغة ـ ثم أخذ فى معالجة الشعر حتى برع فيه ، فسموه شاعر إشبيلية ووشاحها ، وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائده : وقد عاش ابن سهل فى أواخر أيام العرب فى الأندلس ، أيام بنى هود والمرابطين والدولة آخذة فى الزوال ، ولكن العلوم والأدب والترف قد دب فى كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية وتمكنت الأهواء من النفوس . وهذه البيئة أصلح ماتكون لشاعر مثل ابن سهل ؛ لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجنا امتلأت نفسه بمعانى الغزل .

وأغلب الأغراض فى شعر ابن سهل الغزل والرثاء والمدح والوصف وله أبيات فى التهانى وأبيات فى الزهد ، ولكن أكثر شعره فى الغزل . ولقد حام حول كل ما قيل فى ذلك ، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بنفسه وأملاه عليه خياله ، أو مما عرف فى شعر غيره وجادت به أخيلة الشعراء فى ذلك إلا ذكره فى شعره ، وكساه لفظا من عنده ، ونظمه فى كلامه حتى لقد يجد العاشق فى شعره كل معنى يدب فى نفسه ، أو شعور يحسه ، أو صورة لمن يحبه .

أما معانيه فأكثرها مأخوذة من كلام غيره . وهى أجمع للأوصاف الظاهرة منها للمعانى النفسية ، كتشبيه حبيبه بالغزال ، أو بالغصن النضير ، وعيونه بالسيوف ، واحمرار خدوده بالجمر . وقوله : إن الحب علمه السهد ، وجعله يألف السقام ، كما قال :

أهواه حتى العين تألف سهدها فيه وتطرب بالسقام جوارحى

ويقول :

وعذب بالى نعم الله باله وأسهدنى لا ذاق طعم التسهد

ويرق فى كلامه فيخيل إليك أنه يتكلم بقلبه ، وأن ملاقاة حبيبه هى كل أمنية له ، ويلتمس له ذنبا كى يجد وسيلة لعتابه . فيقول :

تدنيك زور الأمانى منى وتنأى طلابا

كأنى حين أبغى رضاك أبغى الشبابا
وأشتهى منك ذنبا أبى عليه العتابا
حتى إذا كان ذنب فتحت للعذر بابا
ظمئت منك لوعد فكان وردى الشرابا
لا خاب سؤلك أما سؤلى لديك فخابا

ولقد يمعن فى الخيال فتغلبه الألوان بهائها ، وتملأ نفسه المناظر الجميلة . كقوله فى وصف الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لاشك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت (١) خدا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة كالخمر خرت من أنامل ساق

ومن بكائه فى شعره قوله :

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من دمعى وأنسق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس والوتر

ومن معانيه وأخيلته قوله :

بخده لفؤادى نسبة عجب كلاهما أبدا يدمى من النظر

أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتنع ، ولا يؤخذ عليه إلا بعض عبارات ، ذهب فيها مذهب التكلف فى الاستعارة وصورها ، محاكيا بذلك بعض كبار الشعراء كقوله فى الرثاء :

لئن سود الافاق يوم حمامه لقد بيضت صحف الحساب فضائله

---

(١) خمش الوجه : خدشه ولطمه .

وهكذ تجده يمزج السهولة بالتصنع . ولكنه بعد كل هذا شاعر مفطور على سلاسة الأسلوب ورقة الألفاظ ، كما تجد ذلك فى موشحته الشهيرة التى تعتبر من أجمل الموشحات . وربما أغرب فى الخيال ، كما شبه ابتسام حبيبه له وهو يبكى بالروض المنور نمطره السماء ، وكأن القطر بكاء فى مأتم ، وكأن الروض فى جماله عرس جمع أنواع السرور إذ يقول فى موشحته :

كلما أشكوه وجدى بسما كالربا بالعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مأتما وهى من بهجتها فى عرس

من أعلام الشعراء الأندلسيين

— ١ —

ابن حزم الشاعر :

قد سبق أن تحدثنا عن ابن حزم الفيلسوف المتكلم ، ولا يعرف الأدباء عنه أنه كان شاعرا مجيدا ، قال عنه التيمى المراكشى أبو محمد محيى الدين عبدالواحد بن على فى كتابه « تاريخ الأندلس المسمى « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » :

سكن ابن حزم هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبى عامر ومن وزراء ابنه المظفر بعده ، وكان هو المدبر لدولتهما ، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيرا لعبد الرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخى المهتدى ، ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختيارا وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك مالم ينل أحد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام الشافعى أقام على ذلك زمنا ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط فى ذلك حتى أربى على أبى سليمان داود الظاهرى وغيره من أهل الظاهر ، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد فى أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذى يسلكه ومذهبه الذى يتقلده ، ومذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل ومبلغ تصانيفه فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، ولا يقاربه فى ذلك إلا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفا . فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصلة وهو الذى وصل به تاريخ

أبى جعفر الطبرى الكبير أن قوما من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى فى سنة ٣١٠هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشر ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بفضل الله .

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة ، فمن شعره :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات فى المعاد وموقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذى كنا نقربه عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ... وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كان الذى كنا نسر بكونه ... اذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجد على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة ... ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلى بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ماعنه تجىء به الكتب
هنالك يدرى أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب

ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لى فى يوسف خير أسوة ... وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
يقول وقال الحق والصدق إننى ... حفيظ عليهم ماعلى صادق عتب

ومن المختار له قوله :

لايشمتن حاسدى إن نكبة عرضت ... فالدهر ليس على حالين يترك

ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميقعة وتارة فى ذرى تاج على ملك

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتجلا بشخصى فروحى عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمام :

أنم من المرآة فى كل مادرى وأقطع بين الناس من قضب الهند
كأن المنايا والزمان تعلما تحيله فى القطع بين ذوى الود

وقد ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ وتوفى فى شعبان سنة ٤٥٦ ، وحسبه أنه أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله أحد . .

— ٢ —

ابن عبدون الشاعر :

كان من ملوك الطوائف (١) ابن الافطس الملقب بالمظفر ، وكان له ابن اسمه عمر يكنى أبا محمد لقب بالمتوكل على الله كان يملك بطليوس وأعمالها ويابره وشنترين والاشبونه ، وكان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات وعيون الاخبار لابن قتيبة ، وجاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة ، وكان للمتوكل قدم راسخة فى صناعة المنطق والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته الى أن قتله المرابطون

(١) راجع ٤١ المعجب للمراكشى

أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه : الفضل والعباس صبراً ، ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ هـ وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ،وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم قصائد شادت بمآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ، وفيهم يقول الوزير الكاتب ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من أهل مدينة يابرة قصيدته العراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلت عن أن تسامى وأنفقت من أن تضاهى فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير ، فلله هى من عقيلة خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت ، وبعدت حتى عزت فامتنعت ، وهى مشهورة لصحة مبانيها ، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها . وسلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق اليها ، وورد شرعة لم يزاحم عليها فلذلك قل مثلها لا بل عدم ، وعز نظيرها فاتوهم ولا علم ، وهى :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى اقال الله عثرتنا ... من الليالى وخانتها يد الغير
نسر بالشىء لكن كى نغربه ... كالايم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله ... وكان عضباً على الاملاك ذا أثر
واسترجعت من بنى ساسان ماوهبت
ولم تدع لبنى يونان من أثر

وألحفت أختها طسما وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوى الهيآت من يمن ... ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
بنى المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقا ليومكم يوما ولا حملت ... بمثله ليـــلة فى غابر العمر
من للاسرة أو للاعنة أو ... من للاسنة يهديها الى الثغر
من للظبى وعوالى الحظ قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعى والحصر
وطوقت بالمنـايا السود بيضهم ... فاعجب بذاك وما منها سوى الذكر
من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة ... أو قمع حادثة تعيى على القدر
ويب السماح وويب الباس لو سلما ... وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية ... تعزى إليهم سماحا لا إلى المطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا ... عنى مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شئ فيـه أطيبه ... حتى التمتع بالآصـال والبكر
أين الجـلال الذى غضت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذى أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحـد منهـا على كـدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ... هذى الخليقة يا أله فى سـدر
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع ... منه بأحلام عاد فى خطى الحضر
ويل امه من طلوب الثأر مدركه ... منهم بأسد شراة فى الوغى صبر

من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب ولم يكن ليلها يفضى إلى سحر
من لى ولا من بهم ان عطلت سنن وأخفيت ألسن الآثار والسير
من لى ولا من بهم ان طبقت محن ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
على الفضائل إلا الصبر بعدهم سلام مرتقب للاجر منتظر
يرجو عسى وله فى أختها أمل والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحة على الحسان حصى الياقوت والدرر
مطاعة الأمر فى الباب قاضية من المسامع ما لم يقض من وطر

وكان ابن عبدون يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه ، وهو أحد كتاب المغرب ، وممن جمع منهم فضيلة الكتابة والشعر على أنه مقل من النظم لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره ، وحكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدى مؤدبه وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعن للمؤدب أن قال (الشعر خطة خسف) وجعل يردد هذا القول ؛ قال الوزير ابن عبدون فكتبت فى لوحى مجيزاً له : لكل طالب عرف ، ثم خطر لى بيت ثان وهو :

للشيخ عيبة عيب وللفتى ظرف ظرف

قال : فنظر إلى المؤدب وقال : يا عبد المجيد ما الذى تكتب فأريته اللوح . فلما رآه لطمنى وعرك أذنى وقال لا تشتغل بهذا ، وكتب البيتين عنده ، ومن غزارة حفظ ابن عبدون ما حدث الوزير أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن زهر قال : بينما أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : أين الأصل لأقابل معك به ؟ قال : ما أتيت به معى فبينا أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم

وقعد وقال لى : يابنى استأذن لى على الوزير أبى مروان ، فقلت له : هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبى وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة وقال ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له ما سؤالك عنه ؟ فقال أحب أن أعرف اسمه فانى كنت أعرف أسماء الكتب ، فقلت هو كتاب الأغانى فقال إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على ماقاله فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارضه به هذه الأوراق فقال لم أجىء به معى فقال : يا بنى خذ ريشتك وعارض قلت بماذا وأين الأصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال يا بنى أمسك على . قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراستين ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء ، فاشتد عجبى وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل . فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوما حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاى اعذرنى فوالله ما أعلمنى هذا الخلف إلا الساعة وجعل يسبنى والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفنى وأبى يقول هبه ماعرفك فما عذره فى حسن الأدب ، ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلا ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبدا . فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم قال لى اسكت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته .

— ٣ —

أبو بكر بن زهر الشاعر :

أديب الأندلس وشاعرها وعالمها ، روى له شعر كثير ، منه :

لاح المشيب على رأسى فقلت له ... الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا

يا ساقى الكأس لا تعدل إلى بها ... فقد هجرت الحميا والحميم معا

ومن شعره :

إنى نظرت إلى المرآة إذ جليت ... فانكرت مقلتاى كلما رأتا

رأيت فيها شيخا لست أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

وله شعر كثير أجاد فى أكثره . وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده اليها ، وهو آخر المجيدين فى صناعتها .

— ٤ —

بنو عباد فى إشبيلية ونهضة الشعر فى دولتهم :

١ — عاشت إشبيلية فى عهد ملوك الطوائف تحت حكم بنى عباد ، وأول من تولاها منهم بعد بنى جهور هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمى وقد أجمع أهل أشبيلية على اختياره لما يعلمونه من حصافة عقله وعلو همته وحسن تدبيره ، يقول المراكشى فى كتابه « المعجب (١) » : تهيب أبو القاسم الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد ، وأبى ذلك (اى الإمارة) إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم لهم ، يكونون له أعوانا ووزراء . وشركاء لايقطع أمرا دونهم ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم (٢) ، ومنهم : الوزير

(١) ص ٤٩

(٢) هذه هى مجالس الوزراء فى الدول العريقة فى الديمقراطية .

أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن بريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى ابن حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبدالله بن على الهوازنى وسواهم ، ففعلوا ذلك ، وأجابوه إلى ماأراد ، وظل يدبر الأمور إلى أن مات سنة ٤٣٩ هـ .

٢ — فتولى بعده ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد المعتضد بالله ، فسار على نهج أبيه فى إيثار الاصلاح ، وحسن التدبير ، وبسط العدل ، ثم استبد بالأمور وحده ، وكان شهما صارما حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزراء واحدا واحدا فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولا وفقرا ، إلى أن تم له ما اراده من الاستبداد بالامر ولقب بالمعتضد بالله .

ولم يزل المعتضد يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وبلغ من قسوته أن قتل ابنه وولى عهده « اسماعيل » صبرا ، وظل كذلك حتى توفى عام ٤٦٤ هـ .

٣ — وقام بالأمر بعده على إشبيلية ونواحيها ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد الملقب بالمعتمد على الله .

حكم المعتمد :

وكان المعتمد هذا يشبه بهرون الواثق بالله من ملوك بنى العباس : ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ، وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم ، واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى أيامه فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها .

ولى أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه فى شهر رجب الكائن فى سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له فى أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها فى مائة سنة وأكثر منها .

وكانت له همة فى تخليد الثناء وابقاء الحمد وكان من جملة شعرائه شاعر من أهل مدينة مرسية اسمه عبدالجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعانى ،أنشد يوما بين يدى المعتمد بعض الحاضرين بيتين لعمد الجليل بن وهبون قالهما قديما قبل وصوله إلى المعتمد وهما .

قل الوفاء فما تلقاه فى أحد ... ولا يمر لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة ... أومثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل ابن وهبون . فقال المعتمد عند ذلك :هذا والله اللؤم البحت ، رجل من خدامنا والمنقطعين الينا يقول : أو مثل ما حدثوا عن الف مثقال ، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة وأمر له بالف مثقال ، فلما دخل عليه يشكره ، قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبر عيانا ؟ قال : اى والله يامولاى ، ودعا له بطول البقاء ، فلما هم بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها .

ولابن عباد شعر كثير برز فى أكثره وأجاد . ومنه قوله :

علل فؤادك قد ابل عليل ... واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك الف عام كامل ... ما كان حقا أن يقال طويل
أكذا يقودبك الأسى نحوالردى ... والعود عود والشمول شمول
لا يستبيك الهم نفسك عنوة ... والكأس سيف فى يديك صقيل
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندى أن تزول عقول

ومن شعره قوله فى مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهداه له صاحب طليطلة وكان اسم المملوك (سيفا) :

سموه سيفا وفى عينيه سيفان هذا لقتلى مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى أتيح من الأجفان ثنتان
أسرته وثنانى غنج مقلته أسيره فكلانا آسر عانى
يا سيف أمسك بمعروف أسير هوى
لا يبتغى منك تسريحا باحسان

ومن شعره الرشيق الخفيف الروح الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة قوله فى هذا المملوك :

تم له الحسن بالعذار واقترن الليل بالنهار
اخضر فى أبيض تبدى ذلك آسى وذا بهارى
فقد حوى مجلسى تماما ان كان من ريقه عقارى

وبينا هو يوما فى قبة له يكتب شيئاً أو يطالع وعنده بعض كرائمه ، دخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت جارية دونه تستره من الشمس فقال :

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها عن ناظرى حجبت عن ناظر الغير
علما لعمرك منها أنها قمر هل تكسف الشمس إلا صورة القمر

وكانت جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكاس فى يدها إذ لمع البرق فارتاعت فقال :

ريعت من البرق وفى كفها برق من القهوة لماع ؟
عجبت منها وهى شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

وله مقاطيع حسان كان يرتجلها فى مجالس أنسه ، وله شعر قاله فى أيام محنته .

وزراء المعتمد :

كان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله :

١ — فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيرا ، وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أناف على امرىء القيس . ومن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع واتقان الصنعة قوله :

بينى وبينك ما لو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه منى ولو بذلت ... لى الحياة بحظى منه لم أبع
يكفيك أنك إن حملت قلبى ما ... لا تستطيع قلوب الناس يستطع
تهأحتمل واستطل أصبر وعز أهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

وهو القائل يخاطب بنى جهور ، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد ، لأن أصله من مدينة قرطبة فنالته منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى اشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده ، فكان يبلغه عن بنى جهور مايسوؤه فى نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جهور أحرقتمو بجفائكم ... فؤادى فما بال المدائح تعبق
تعدونى كالعنبر الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسه حين يحرق

ومن نسيبه الذى يخناط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة : قصيدته التى قالها يتشوق ابنة المهدى : ولادة ، وهى بقرطبة وهو باشبيلية :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا لياليا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

٢ — ومن وزراء ابن عباد كذلك الوزير أبو بكر محمد بن عمار ، ذو النفس العصامية والآداب الرفيعة ، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي ، وربما كان أحلى منزعا منه في كثير من شعره ، وله ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ، ولا نرى شاعراً أندلسياً عاصره إلا وكان مقدماً له مؤثراً لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات ، فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد : قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي :

على وإلا ما بكاء الغمائم وفي وإلا ما نوح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب لثار وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

أبى أن يراه الله إلا مقلدا خميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

لا تطلبوا في الحب عزا إنما عبدانه في حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زياً فخلوه وما يختاره
عيرتموني بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
ووشيتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعي إذا أنصاره

من قد قلبي إذ تثنى قده وأقام عذرى إذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره
غصن ولكن النفوس رياضه رشأ ولكن القلوب عراره
سخرت ببدر التم غرته كما أزرت على آفاقه أزراره
مازال ليل الوصل من فتكاته تسرى إلى بعرفه أسحاره
حتى سقانى الدهر كاس فراقه فسكرت سكرا لا يفيق خماره
ووقفت فى مثل المحصب موقفا للبين من حب القلوب جماره
حيران أعمى الطرف وهو سماؤه وأذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو مثواه فكم قد أحرقت عود الثقائب ناره
إن يهنه أنى أضعت لحبه قلبي وذاعت عنده أسراره
فليهن قلبي ان شكاه وشاحه لسواره فاقتص منه سواره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا أن حمصا داره
بلد رمتنى بالمنى أغصانه وتفجرت لى بالندى أنهاره

ولابن عمار مع المعتمد أخبار عنى بجمعها أهل الأندلس . وابن عمار هو محمد بن عمار . . . ويكنى أبا بكر ، أصله من شلب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، وكان مولده ومولد آبائه بها كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر منهم بها أحد ، ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر فى صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول فى الأندلس مسترفدا ، لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة

وله فى ذلك خبر ظريف وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها إليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز . ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به الحظ وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها ، وأول ما أفضى الامر إليه فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجملة عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شىء سأل عنه صاحبه صاحب الشعير ، فقال ما صنع فلان أهو حى قالوا نعم ، فارسل إليه بمخلاته بعينها بعد ان ملاها دراهم وقال لرسوله قل له : لو ملأتها برا لملأناها تبرا ، ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها من التقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

قداح زند المجد لا ينفك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا ... والطرف أجرد والحسام مجوهرا

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد ... إلا اليهود وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم ... لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

من أبيات هذه القصيدة :

السيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب ان كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وأمره بمال وثياب ومركب، وأمر أن تكتب فى ديوان الشعراء ، فكان كذلك ، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب فلم تزل حاله معه تزيد ،وأسباب خدمته له تقوى وتتأكد إلى أن صار ابن عمار ألصق بالمعتمد من كل شىء ، وأدنى إليه من حبل وريده ، كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار. ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار ، فرأى المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده ،فلم يزل ابن عمار مغتربآ فى أقاصى بلاد الأندلس إلى ان توفى المعتضد بالله ،فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه ، وله معه أيام كونهما بشلب أخبار طريفة ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به ، الا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبره على المعتاد ،فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معى على وساد واحد ، فكان ذلك . قال ابن عمار فهتف بى هاتف فى النوم يقول: لا تغترأيها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ، قال : فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ثم عدت فهتف بى الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابى والتففت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به وقد أزمعت على انى إذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتى البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ،فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى فأمر بطلبى فطلبت له فى نواحى القصر ،وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه فكانت منى حركة فاحس بى وقال ماهذا الذى يتحرك فى هذا الحصير ،ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ،

ليس على إلا السراويل، فلما رآنى فاضت عيناه دموعا، وقال : يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا، فلم أر بدا من أن صدقته فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها فضحك ، وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه ، وهل أنت عندى إلا كنفسى ، فشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء . وتناسى الأمر فنسيه ومرت على ذلك الأيام والليالى .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد الى ذلك ، وولاه اياها أنبه ولاية، وجعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ، ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر الا اضطلع به ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم اذ ذكر عنده ابن عمار قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبا منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج فى غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وجلاها بالذهب وجعل أرضها فى غاية الاتقان ، فخرج من عند المعتمد رسولا إلى ملك الروم فلقيه فى فى أول بلاد المسلمين ، فأعظم الملك قدومه وبالغ فى اكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه ، فاظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الملك فنقل خبرها إليه ، وكان الملك مولعا بالشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فاخبره بمكانه منه فقال له : بلغنى ان عندك سفرة فى غاية الاتقان ، قال ابن عمار

نعم، فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي، فقال له الملك: هلم لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي الملك تعجب وقال: ماظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار: كيف قلت، فاعاد عليه الكلام الأول، فقال له الملك لاألعب معك على حكم مجهول لا أدري ماهو ولعله شيء لايمكنني، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه، وأمر بالسفرة فطويت، وكشف ابن عمار سرما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الملك وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يؤازروه على أمره ففعلوا، فتعلقت نفس الملك بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار، فهونوا عليه وقالوا له: ان غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم، وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له: ان طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك نرده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة فقال له: قد قبلت مارسمته فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهودا سماهم له، فأمر الملك بهم فحضروا وأخذا يلعبان، وكان ابن عمار طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الملك غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين. فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لي حكمي قال نعم، فماهو؟ قال: أن ترجع من هنا إلى بلادك، فاسود وجه الملك وقام وقعد وقال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي، وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يحمل لك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك، فلم يزالوا به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع، وكف الله بأسه، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سرورا به.

وأخيرا تغيرت نفس المعتمد من ابن عمار فقبض عليه أعوانه ، ودخلوا به قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لا يصل إلا الى تقبيل ركابه أوطرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا ستطيع الوصول إليه .

ودخل ابن عمار قرطبة ـ بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ـ ذليلا خائفا فقيرا لايملك إلا ثوبه الذى عليه ، واخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتما ازال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال : الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه فعلمنا انه ارسل ليزيل عمامته ، فادخل على المعتمد على الله يوسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار فى ذلك كله مطرق لاينبس ، إلى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار ان قال : ما أنكر شيئا مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت على به الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكنى عثرت فأقل ، وزللت فاصفح ، فقال المعتمد هيهات انها عثرة لا تقال ، وأمر به فاحدر فى النهر الى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبة وجعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، فطال سجنه هناك ، وكتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جواره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، ونمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

سجاياك ان عافيت أندى وأسجح ... وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح

وان كان بين الخطتين م ... فانت الى الادنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع ... عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فان رجائى ان عندك غيرما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة ... يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمى منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل اناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك فى أمرى حديث وقد أتى ... بزور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك الا ماعلمت فاننى ... اذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم لادر لله درهم ... أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعله ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا أن بطشا للمؤيد يرتجى ... ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشوون أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف داربه الهوى ... إلى فيدنو أو على فينزح
ويهنئه ان مت السلو فاننى ... أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين صلوعى من هواه تميمة ... ستنفع لو أن الحمام يجلح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين فجعل يزرى على البيت « وبين ضلوعى » ويقول ما أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله ان قال أما اثن سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلى من طرف خفى وهو :

واذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً فى شهور سنة ٤٧٩

من تاريخ المعتمد : ظل المعتمد والدهر يوازره ويعاضـــده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله من المتغلبين ، ودخلت فى طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغ مدينة مرسية ، وبينها وبين اشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة ، وكان تغلبه على قرطبة واخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١ ، ثم رجع إلى اشبيلية واستخلف عليها ولده عبادا ولقبه بالمأمون وهو أكبر ولد له فى حياة أبيه المعتضد وسماه عبادا ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول ياعباد ياليت شعرى من المقتول بقرطبة أنا أو أنت؟ فكان المقتول بها عباد هذا فى حياة أبيه المعتمد .

وفى سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف ابن تاشفين مستنصراً به على الروم ، فلقيه يوسف أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد امداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم فى حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور الى إجابته إلى ما دعاه إليه وقال له : أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد الا أنا بنفسى ، فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً باسعاف أمير المسلمين اياه فى طلبه ولم يدر أن تدميره فى تدبيره ، وسل سيفاً يحسبه له ، ولم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس :

إذا كان غير الله للمرء عدة ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

كما جرت الحنفاء حتف حذيفة ... وكان يراها عـدة للشدائد

فأخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين فى أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس وذلك فى شهر جمادى الأولى من عام ٤٧٩ هـ فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف

فارس وعدد كثير ، فعبر البحر بعسكر ضخم وكان عبوره من مدينة سبتة ، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد فى وجوه أهل دولته وأظهر من بره واكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ، فكان هذا أول ما ألفته إلى ملك جزيرة الأندلس. ثم فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً اشبيلية دار ملك المعتمد ليستريح فيها أياما حتى تزول عنه وعثاء السفر ، ثم يقصد قصده ولكنه عادو قال إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت وجهته ، وكان ملك الاسبان محاصراً الحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفرا عساكره ليلقى بهم البربر ، وتوجه يوسف إلى شرقى الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والاصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق ، فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالا جعله له ، ويوليه فى جهة اشبيلية أضخم ولاية ، فاجابه ابن رشيق إلى ذلك ، وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها ، ولقى يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ، ثم إن يوسف استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله : هلم ماجئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الاقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش ويصغر قدر الأندلس ، ويقول فى أكثر أوقاته : كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف ، وهو فى ذلك كله يظهر الدهاء ، فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعين

والمحاربين زهاء عشرين الفا والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم وكان ملك الاسبان لم يدع فى أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء بجيش ضخم يرهب به ملك البربر . فاما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدى إليه الأتاوة ، وهم كانوا أحقر فى عينه وأقل من أن يحتفل لهم ، ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيما هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة ، فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الملك يبلغ هذا الحد، وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم ، فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون ، وكانت المعركة يوم الخميس الثانى عشر من شهر رمضان ٤٨٠ هـ .

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر ، فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكى السلاح وقال لأمير المسلمين : صل فى أصحابك فهذا يوم ما نطيب نفسى فيه وها أنا من ورائكم وما أظن العدو إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين ، فأخذ يوسف وأصحابه فى الصلاة . فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل العدو فى أصحابه يظن أنه قد انتهزوا الفرصة وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله ، وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان فاظهر يوسف ابن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد ، وهزم الله الأعداء واتبعهم المسلمون يقتلونهم فى كل وجه ، ونجا ملك الاسبان فى تسعة من أصحابه ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة ، وكان لقاء المسلمين عدوهم فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر من رمضان سنة ٤٨٠ ، ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين فسرهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له

من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعا فيها .

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظى عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له : أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية ، وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه ، لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناوئه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعيبه فى مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته وقد كان المعتصم قبل عبور أمير المسلمين يسير توجه إلى شرقى الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال أعماله ورعيته ، فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه فى وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبيلا وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطلحا فى الظاهر ، واحتفل المعتصم فى إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيرا لغمه ، وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه ، وعصمه بفضله منه ، ثم افترقا بعد ان أقام المعتمد عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد الى بلاده ، وبعد ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معمورا الى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف فى خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب لثناء المعتمد عليه عند ووصفه اياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيدا من أكثر ماوصفه به ، ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له ان يسعى فى تغيير قلبه على المعتمد وافساد ما بينهما ، وعبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغر صدره ، وتغيرت نفسه .

هذا مع طمعه فى الجزيرة وتشوقه إلى ملكها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها انه غير عليه ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، حتى قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه :

كنت أظن أنى قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى بملكتى، فكيف الحيلة فى تحصيلها ، فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يرسلوا إلى المعتمد يستأذنونه فى رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك فاذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الافطس المتوكل صاحب الثغور ،وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة وبلادها فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لمملكتهم وجدوا فى كل بلد لهم أعوانا ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد اشربت حب يوسف واصحابه فجهز يوسف من خيار اصحابه رجالا انتخبهم وامر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجين واسر إليه ما اراد ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة .فقال له اين تأمرنى بالإقامة فوجه معه المعتمد من اصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم فنزل حيث انزلوه هو واصحابه واقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد .

ولما اخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة امير المسلمين انتشر ذلك فى الأندلس وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون فى الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون، وهو من اكبر ولده فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد ان ابلى عذرا واظهر فى الدفاع عن نفسه جلدا وصبرا ، وذلك فى اول صفر سنة ٤٨٤ ، وظهرت المحنة فى إشبيلية .

وفى ذلك يقول المعتمد بعد مانزل بالعدوة أسيراً :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع
ان تستلب عنى الدنى ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

لم استلب شرف الطبا ع ، أيسلب الشرف الرفيع؟
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الجثى شيء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع

ولم يزل أعوان ملك البربر يعبثون ، حتى نهبوا قصور المعتمد ، وقتلوا أسرته ، وقبضوا على المعتمد ونفوه إلى مراكش ، ولما نزل المعتمد من العدوة بطنجة أقام بها أياما ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على عادته فرفع إليه اشعاراً قديمة ، قد كان مدحه بها وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ، ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ، ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحى الناس ماصنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى ، تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق . فقال فى ذلك :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم حق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لحمية طى الحشا ساواهم فى المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان نادى الصريخ بابه اركب يركب

وله كذلك :

قبح الدهر فإذا صنعا كلما أعطى نفيسا نزعا

قد هوى ظلما بمن عادته ... أن ينادى كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمرا ... أخجلتها كفه فانقطعا
من غمام الجود، من راحته ... عصفت ريح به فانتعشا
من إذا قيل الخناصم وان ... نطق العافون همسا سمعا
قل لمن يطمع فى نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة ... جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة أياما، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات فاقاموا بها إلى أن توفى المعتمد رحمه الله ودفن بها، وقبره معروف هناك، وكانت وفاته سنة ٤٨٧هـ، وقيل سنة ٤٨٨ هـ وسنه يوم توفى إحدى وخمسون سنة، ومما رثى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها:

لكل شىء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده ... وربما فمرت بالبيذق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الارضى قد كتمت ... سريرة العالم العلوى أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والباس أنصله ... هندية وعطاياه هنيدات
أنكرت الالتواء للقيود به ... وكيف تنكر فى الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً فخافوا منه عادية ... عذرتهم فلعدوى الليث عادات

ولهذا الشاعر قصيدة يرثيه بها وهى جيدة، وأولها:

تبكى السماء بدمع رائح غادى ... على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التى هدت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرايات عليها اليانعات ذوت ... أنوارها فغدت فى خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
تلك الرماح رماح الحظ ثقفها ... خطب الزمان ثقافا غير معتاد
والبيض بيض الظبا فلت مضاربها ... أيدى الردى وثنتها دون أعماد
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شىء لميقات وميعاد
كم من درارى سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجد أفراد
نور ونور فهذا بعد نعمته ... ذوى وذاك خبى من بعد إيقاد
ياضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل واديهم ليسكنهم ... خف القطين وجف الزرع بالوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر ... لغير قصد فما يهديك من هادى

وفيها يقول :

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... فى المنشئات كأموات بألحاد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق أبراد
تفرقوا جيرة من بعد مانشئوا ... أهلا بأهل وأولادا بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد
من لى بكم يابنى ماء السماء إذا ... ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى

وابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية ، وهى على ساحل البحر الرومى، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه على الموفق على ماتقدم،

ولابن اللبانة أخ اسمه عبدالعزيز ، وكانا شاعرين إلا أن عبد العزيز لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبا ، وإنما كان من جملة التجار ، وأما أبوبكر فرضيه بضاعة وتخيره مكسبا وأكثر منه وقصد به الملوك ،فاخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ، وشعره نبيل المأخذوهوفيه حسن المهيع ،جمع بين سهولة الألفاظورشاقتها . وجودة المعانى ولطافتها ، وكان منقطعا إلى المعتمد معدودا فى جملة شعرائه، لم يفدعليه إلا آخرمدته فلهذا قل شعره الذى يمدحه به . وكان مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليل المعرفة بعلله لم يجد الخوض فى علومه وانما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ،يدل على ذلك قوله فى قصيدة له :

من كان ينفق من سواد كتابه ... فانا الذى من نور قلبى أنفق

ولما خلع المعتمد على الله واخرج من إشبيلية لم يزل أبوبكر هذا يتقلب فى البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامرى الملقب بالناصر ، فحظى عنده وعلت حاله معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء :

فمنها قصيدة ركب فيها طريقة غريبة ، وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها صدر كل بيت فيها غزل وعجزه مدح ، وأول القصيدة :

وضحت وقد فضحت ضياء النير ... فكانما التحفت ببشر مبشر

وتبسمت عن جوهر فحسبته ... ماقلدته محامدى من جوهر

وتكلمت فكأن طيب حديثها ... متعت منه بطيب مسك أذفر

هزت بنغمة لفظها نفسى كما ... هزت بذكراه أعالى المنبر

اذنبت واستغفرتها فجرت على ... عاداته فى المذنب المستغفر

جادت على بوصلها فكأنه ... جدوى يديه على المقل المقتر

سمحت بتعنيق فقلت صنيعة ... سمحت علاه بها فلم تتعذر

ند كقسوة قلبه فى معرك ... وحشا كلين طباعه فى محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلتها ... تحت الخوافق ماله من سمهرى
حسنت أمامى فى خمار مثل ما ... حسن الكمى امامه فى مغفر
وتوحشت فكأنه فى جوشن ... قد قام عنبره مقام العثير
غمرت ببعض قسيه من حاجب ... ورنت ببعض سهامه من محجر
اومت بمفصول اللحاظ فخلته ... يومى بمصقول الصحيفة مشهر
وضعت حشاياها فويق ارائك ... وضع السروج، على الجياد الضمر
من رامة او رومة لا علم لى ... أأتت عن النعمان أم عن قيسر
بنت الملوك فقل لكسرى فارس ... تعزى وإلا فقل لتبع حمير
عاديت فيها غر قومى فاعتدوا ... لا أرضهم أرضى ولاهم معشرى
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها ... يتعاقرون على الثريد الاعفر
طافت على بجمرة من خمرة ... فرأيت مريخا براحة مشترى
فكأن أنملها سيوف مبشر ... وقد اكتست علق النجيع الاحمر
ملك ازرة برده ضمت على ... باس الوصى وعزمة الاسكندر

ومن نسيبه قوله يتغزل ويمدح مبشرا هذا :

هلا ثناك على قلب مشفق ... فترى فراشا فى فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذى لا يرتجى ... ورجعت كالنفس الذى لا يلحق
وغرقت فى دمعى عليك وغمنى ... طرفى فهل سبب به أتعلق
هل خدعة بتحية مخفية ... فى جنب موعدك الذى لا يصدق
أنت المنية والمنى فيك استوى ... ظل الغمامة والهجير المحرق
لك قد ذابلة الوشيح ولونها ... لكن سنانك أكحل لا أزرق
ويقال إنك ايكة حتى إذا ... غنيت قيل هو الحمام الاورق

يامن رشقت إلى السلو فردنى ... سبقت جفونك كل سهم يرشق
لو فى يدى سحر وعندى أخذه ... لجعلت قلبك بعض حين يعشق
لتذوق ماقد ذقت من ألم الجوى ... ورق لى عما تراه وتشفق
جسدى من الأعداء فيك لأنه ... لا يستبين لطرف طيف يرمق
لم يدر طيفك موضعى من مضجعى ... فعذرته فى أنه لا يطرق
جفت عليك مدامعى ومنابعى ... فالدمع ينشع والصبابة تورق
وكأن أعلام الامير مبشر ... نشرت على قلبى فاصبح يخفق

وله فيها احسان كثير ، وله من قصيدة يتغزل :

فؤادى معنى بالحسان معنت ... وكل موقى فى التصابى موقت
ولى نفس يخفى ويخفت رقة ... ولكن جسمى منه أخفى وأخفت
وبى ميت الاعضاء حى دلاله ... غرامى به حى وصبرى ميت
جعلت فؤادى جفن صارم جفنه ... فياحر مايصلى به حين يصلت
أذل له فى هجره وهو ينتمى ... وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
وما انبت حبل منه كان فى يدى ... لريحان ريعان الشبيبة منبت

ومن جيد ماله من قصيدة يمدح بها مبشرا ناصر الدولة أولها :

رق الربيع ورق طبع هوائه ... فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة ... يحكى مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه ... خد الحبيب عليه صبغ حيائه
هيهات أين الورد من خد الذى ... لايستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته ... والطير ليس غناؤها كغنائه
يتنفس الاصباح والريحان من ... حركات معطفه وحسن رواته
ويجول فى الارواح روح ماسرت ... رياه من تلقائه بلقائه

صرف الهوى جسمى شبيه خياله من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن مايستجادله بيتان يصف بهما خالا ، وهما :

بدا على خده خال يزينه فزادنى شغفا فيه الى شغفه

كأن حبة قلبى عند رؤيته طارت فقال لها فى الخد منه قف

ولابن اللبانة هذا احسان كثير

وبلغ من حال المعتمد على الله غمات أن آثر حظياته وأكرم بناته ألجئت الى ان تستدعى غزلا من الناس تسد باجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها :

فقد نظرت اليه عيون نحس مضت منه بمعدوم النضير

نحوس كن فى عقبى سعود كذاك تدور أقدار القدير

وكم أحظى رضاه من حظى وكم شهرت علاه من شهير

زمان تنافست فى الحظ منه ملوك قد تجور على الدهور

بحيث يطير بالابطال ذعر ويلفى ثم أرجح من ثبير

وقد امتنع ابن اللبانة من قبول هدايا المعتمد ، وكتب مجيبا له عن شعره :

انا أدرى بفضلك منك انى لبست الظل منه فى الحرور

غنى النفس أنت وإن ألحت على كفيك حالات الفقير

تصرف فى الندى حيل المعالى فتسمح من قليل بالكثير

أحدث منك عن نبع غريب تفتح عن جنى زهر نضير

وأعجب منك أنك فى ظلام وترفع للعفاة منار نور

رويدك سوف توسعنى سرورا إذا عاد ارتقاؤك للسرير

وسوف تحلنى رتب المعالى غداة تحل فى تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء بها وأنيف ثم على جرير

تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الابيات :

رد برى بغيا على وبرا وجفا فاستحق لوما وشكرا

ومن شعر المعتمد فى أسره :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب فان هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه اذا أبدوا النداء
وطرد الناس بين يدى عمرى وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء اذا اختل الامام أو الوراء
ولكن الدعاء اذا دعاه ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن مافات عمى بأن الكل يدركه الفناء

وورد عليه اغمات ابوبكر بن اللبانة ملتزما عهد الوفاء ، قاضيا مايجب عليه من شكر النعمى . فسر المعتمد بوروده فلما ازمع ابن اللبانة على السفر استنفد المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالا وثوبين وكتب اليه معها :

اليك النذر من كف الاسير فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل مايذوب له حياء وان عذرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور
ورج لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أمير

وكم من منبر حنت اليه أعالى مرتقاه ومن سرير
زمان تزاحفت عن جانبيه جياد الخيل بالموت المبير

وكتب إليه كذلك :

وإذا ماطويت فى البعض حمدا عاد لومى فى البعض سراوجهرا
يا أبا بكر الغريب وفاء لا عدمناك فى المغارب ذخراً
أى نفع يجدى احتياط شفيق مت ضرا فكيف أرهب ضراً

فاجابه ابن اللبانة :

أيها الماجد السميدع عذرا صرفتى البر انما كان برا
حاش لله ان أجيع كريما يتشكى فقرا وكم سد فقرا
لا أزيد الخفاء فيه شقوقا غدر الدهر بى لئن رمت غدرا
ليت لى قوة أوآوى لركن فترى للوفاء منى سرا
أنت علمتنى السيادة حتى ناهضت همتى الكواكب قدراً
ربحت صفقة أزيل برودا عن أديمى بها والبس فخراً
وكفانى كلامك الرطب نيلا كيف ألقى درا واطلب تبراً
لم تمت إنما المكارم ماتت لاسقى الله بعدك الارض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر ان يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى حقا ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب ان أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا قتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ان الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكى أخاه الذى غيبت وابله ... تحت الصفيح بدمع رائح غادى
حتى بجودك دمع الطل منهمر ... من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولاتزل صلوات الله دائمة ... على دفينك لاتحصى بتعداد

وكان للمعتمد على الله ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من بعده وجعله ولى عهده ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن مراده . وحالت الاقدار بينه وبين إصداره وايراده ، فما برح بفخر الدولة تغير الايام بعد الفتنة الى ان أسلم نفسه فى السوق ، وتعلم من الصنائع صنعة ، فمر به محمد بن اللبانة شاعر أبيه فقال فى ذلك :

اذكى القلوب أسى أبكى العيون دما ... خطب وجدناك فيه يشبه العدما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت ... وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما
شكاتنا فيك يافخر الهدى عظمت ... والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد كونك فى دكان قارعة ... من بعد ما كان فى قصر حكى إرما
صرفت فى آلة الصراع أنملة ... لم تدر الا الندى والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها ... فتستقل الثريا أن تكون فما
ياصائغا كانت العليا تصاغ له ... حليا ، وكان عليه الحلى منتظما
للنفخ فى الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
وددت اذ نظرت عينى اليك به ... لو ان عينى تشكو قبل ذاك عما
ماحطك الدهر لما حط من شرف ... ولاتحيف من أخلاقك الكرما
لح فى العلى كوكبا ان لم تلح قمرا ... وقم بها ربوة ان لم تقم علما
واصبر له ابما أحمدت عاقبة ... من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما

والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ... ولو وفى لك دمع المزن لانسجما
بكى حديثك حتى الدرحين غدا ... يحكيك رهطا وألفاظاً ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت ... حزنا عليك لأن أشبهتها شيما
بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى ... ريحانك الغض بذرى بعد ما نعما
لم يرحم الدهر فضلا أنت حامله ... من ليس يرحم ذاك الفضل لارحم
شقيقك الصبح إن أضحى بشارقه ... وانت فى ظلمة فالصبح قد ظلما

الأدباء فى عصر بنى عباد :

وقد نبغ فى الأدب كثيرون فى عصر بنى عباد وخاصة فى عهد المعتمد ، ومنهم :

ابو القاسم ابن الجد المعروف بالاحدب أحد رجال البلاغة ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبوعبد الله بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وجماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبههم وأكبرهم مكانة أبو عبد الله محمد بن ابى الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى اليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الارحب واليد الطولى ، ومن رسائله رسالة كتبها الى صديقه ابى الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة . وصل من السيد المسترق والمالك المستحق ، وصل الله انعامه لديه ، كما قصر الفضل عليه : كتابه البليغ ، واستدراجه المريغ ، فلولا ان يصلد زند اقتداحه ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتتقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ، للزمت معه مركز قدرى ، وصنت سريرة صدرى ، لكنه بنفثات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم ، ويقتاد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب . ولما فجأنى ابتداؤه وقرع سمعى نداؤه ، فرغت الى الفكر ، وخفق القلب بين الامن

والحذر ، فطاردت من الفقر أوابد فقر ، وشوارد عفر ، تغبر فى وجه سائقها ولا يتوجه اللحاق لوجيها ولا حقها ، فعلمت انها الاهابة والمهابة . والاصابة والاسترابة ، حتى ايأستنى الخواطر ، وأخافتنى المواطر ، الا زيرجا يعقب جوادا ، وبهرجا لا يحتمل انتقادا ، وأنى لمثلى والقريحة مزجاة . والبضاعة مرجاة ، ببراعة الخطاب ، وبراعة الكتاب ، ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قدح ، ولا تحصل لى فى شوقه ربح ، لكنه جوخال ، ومضمار جهال ، وهى حكمة الله فى الخلق وقسمته للرزق ، وانا اعزك الله اربأ بقدر الذخيرة عن هذه النتف الاخيرة ، وارى انها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وانا اخشى القدح فى اختيارك والاخلال بمختارك . وعلى ذلك فوالله مامن عادتى ان انبت ما أكتب فى رسم ينقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطب يحتفزله ويحتفل ، وانما هو عفو فكر ، ويسير ذكر ، وعذرا أعزك الله فانى خططت ماخططته والنوم مغازل والقرمنازل والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطورا تسدده سنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة تطويه حبابة واخرى تنشره ذؤابة وتقيمه إبرة لهب وتعطفه برة ذهب ، او حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات وتسلطه على سليطه وتزيله عن خليطه وتخلعه نجما وتمده رجما وتسل روحه من ذباله وتعده الى حاله وربما نصبته اذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروف برق ، فلاحظ منه للعين ، ولا هداية فى الطرس لليدين ، والليل زنجى الاديم تبرى النجوم ، قدحللنا ساحه وأغرقتنا أمواجه . فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصلت والكلب قد صافح خيشومه ذنبه وأنكر البيت وطنبه والتوى التواء الحباب ، واستدار استدارة الحباب ، وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد فحماه مباح ولا هرير ولا نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عنقاء مغرب ، أو نجم مغرب ، استوى الفصل ، ولك فى الاغضاء الفضل ،

وكان لأبي عبد الله محمد بن ابي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الاندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه اماما يقتفونه، وكان أبو عبد الله وأخوه كاتبين لأمير المسلمين يوسف إلى ان أخر أمير بالمسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله ان يكتب عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم العدو هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك ، وهي رساله كاد أهل الاندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ماشاء ، وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أنحى فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله : أي بني اللئيمة واعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ضأنالها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقابا وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وان نعيدكم الى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم ، الخ » .

فاحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبد الله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فاعفاه ورجع إلى قرطبة بعد مامات أخوه ابو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره في أول الفتنة الكائنة على المرابطين .

— ٥ —

قال الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي وكان مستوطنا مدينة مالقة ، يمدح عبد المؤمن بن علي :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... فبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لســـار ولم تشبب لمقمور
فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلو ظلمة النور
ما زال يقضمها التقوى بمرقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور
حتى أضاءت من الايمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور

نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدى مذخور
وآية كآيات الشمس بين يدى ... غزو على الملك القيسى منذور
يا دار دار أمير المؤمنين بسفـ ... ـح الطود طود الهدى بوركت فى الدور
ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قدس وتطهير
ما كان يأتيك بالوانى الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور
مواطئ من نبى طال ما وصلت ... فيها الخطى بين تسبيح وتكبير
حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطيب كل موطوء ومعبور
وحيث قامت قناة الدين ترفل فى ... لواء نصر على البرين منشور
فى كف منشمر البردين ذى ورع ... على التقى وصفاء النفس مفطور
يلفاك فى حال غيب من سريرته ... بعالم القدس مشهود ومحضور
تسنم الفلك من سخط المرار وقد ... نودين يا خير أفلاك العلا سيرى
فسرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله مستنصر فى الله منصور
يومى له بسجود كل تحركة ... منها ويوليه حمداً كل تصرير
لما تسابقن فى بحر الزقاق به ... تركن شطيه فى شك وتحيير
أهز من موجه أثناء مسرور ... أم خاض من لجه أحشاء مذعور
كأنه سالك منه على وشل ... فى الأرض من مهج الأسياف مقطور
من السيوف التى ذابت لسطوته ... وقد رمى نار هيجاها بتسعير
ذو المنشئات الجوارى فى أجرتها ... شكل الغدائر فى سدل وتضفير
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ... ما فى سجاياه من لين وتعطير
من كل عذراء حبلى فى ترائبها ... ردعان : من عنبر ورد وكافور
نخالها بين أيد من مجاذفها ... يغرقن فى مثل ماء الورد من جور
وربما خاضت النيار طائرة ... بمثل أجنحة الفتخ الكواسير

كأنما عبرت تختال عائمة ... فى زاخر من يدى يمناه معصور
حتى رمت جبل الفتحين من كثب ... بساطع من سناه غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر فى الأجبال مذكور
من شامخ الأنف فى سحنائه طلس ... له من الغيم جيب غير مزرور
معبرا بذراه عن ذرى ملك ... مستمطر الكف والاكناف مطور
تمسى النجوم على اكليل مفرقه ... فى الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها ... بكل فضل على فوديه مجرور
محنك حلب الأيام أشطرها ... وسافها سوق حادى العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر فى ... عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والإطراق مفتكرا ... بادى السكينة مغفر الأسارير
كأنه مكمد مما تعبده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخاق به وجبال الأرض راجفة ... ان يطمئن غدا من كل محذور
كفاه فضلا ان انتابت مواطنه ... نعلا مليك كريم السعى مشكور
مستنشئا بهما ريح الشفاعة من ... ثرى امام بأقصى الغرب مقبور
ما أنفك آمل أمر منه بين يدى ... يوم القيامة محتوم ومقدور
حتى تصدى من الدنيا على رمق ... يستنجز الوعد قبل النفخ فى الصور
مستقبل الجانب الغربى مرتقبا ... كأنه باهت فى جو اسمير
لبارق من حسام سله قدرا ... بالغرب من أفق البيض المشاهير
إذا تألق قيسيا أهاب به ... إلى شفى من مضاع الدين موتور
ملك أتى عظما فوق الزمان فما ... يمر فيه بشىء غير محقور
ما عن فى الدين والدنيا له أرب ... إلا تأتى له من غير تعذير

ولا رمى من أمانيه إلى غرض ... إلا هدى سهمه نجح المقادير
حتى كأن له فى كل آونة ... سلطان رق على الدنيا وتسخير
يميز الجيش ملتفاً مواكبه ... من كل مثلول عرش الملك مقهور
من الأولى خضعوا قسرا له وعنوا ... لأمره بين منهى ومأمور
من بعد ما عاندوا أمرا فما تركوا ... إذا أمكن العفو ميسورا لمعسور
بقية الحرب فاتوها وما بهم ... فى الضرب والطعن سيماء لتقصير
لا ينكر القوم مما فى أكفهم ... بيض مفاليل أو سمر مكاسير
إذا صدعت بأمر الله مجتهدا ... ضربت وحدك أعناق الجماهير
لا يذهلن لتقليل أخو سبب ... من الأمور ولا يركن لتكثير
فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبسا ... والأرض قد غرقت من فور تنور
وإنما هو سيف الله قلده ... أقوى الهداة يدا فى دفع محذور
فان يكن بيد المهدى قائمه ... فموضع الحد منه حد مشهور
والشمس ان ذكرت موسى فما نسيت ... فتاه يوشع قاع الجبابير

وكان الرصافى يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة وهو من مجيدى شعراء عصره لا سيما فى المقاطيع، كالخمسة الأبيات فما دونها، ومن شعره، يصف نهر اشبيلية الأعظم:

ومهول الشطين تحسب أنه ... متسايل من درة لصفائه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة ... صدئت لفيأتها صفيحه مائه
فتراه أزرق فى غلالة سمرة ... كالدارع استلق بظل لوائه

واجتمع مع اخوان له فى بعض الامسيات الجميلة فى بستان لهم فقال:

ما مثل موضعك ابن رزق موضع ... روض يرق وجدول يتدفع
فكأنما هو من محاجر غادة ... فالحسن ينبت فى ثراه وينبع

وعشية لبست رداء شحوبها ... والجو بالغيم الدقيق مقنع
بلغت بنا أمد السرور تآلفا ... والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها رمق الغبوق فقد أتى ... من دون قرص الشمس مايتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها ... فوددت يا موسى لوانك يوشع

وله يصف عشية :

محل ابن رزق جر فيه ذيوله ... من المزن ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشيا فيك لاذم عهده ... وإن نحن لم نمتع ببهجته لقيا
ولم يعتلق بى منك عند افتراقنا ... سوى عبق من مسك قينتك اللميا
وكنت أرانى فى الكرى وكأننى ... أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه ... على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف صوانا :

وذى حنين يكاد شوقا ... يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا ... قال له المحل لامساسا
يبتسم الروض حين يبكى ... بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفا ... صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبيا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكى بذلك الدموع :

عذيرى من جذلان يبدى كآبة ... وأضلعه مما يحاوله صفر
أميلد مياس إذا قاده الصبى ... إلى ملح الإدلال أيده السحر
يبل مآقى زهر تيه بريقه ... ويحكى البكا عمدا كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه ... وهل عصرت يوما من النرجس الخمر

وقال يصف نائما قد تحبب العرق على خده :

ومهفهف كالغصن إلا أنه سلب التثنى النوم عن أثنائه
أضحى يغام وقد تحجب خده عرقا فقلت الورد رش بمائه

— ٦ —

ابن طفيل الشاعر

وألف ابن طفيل فى الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ، فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة حى بن يقطان ، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنسانى على مذهبهم وهى رسالة لطيفة الحرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ، ومن تصانيفه الإلهيات رسالة فى النفس . وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الالهى ونبذ ماسواه ، وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة معظما لامر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع العلوم الاسلامية ، وكان يأخذ العطاء مع عدة أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف . وكان يقول : لو نفق عندهم علم الموسيقا لانفقته عندهم . وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له ، بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياما ليلا ونهارا لا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ، وأنشد ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه :

ألمت وقد نام المشيح وهدوما وأسرت إلى وادى العقيق من الحما
وجرت على ترب المحصب ذيلها فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناوله أيدى التجار لطيمة ويحمله الدارى أيان يمما
ولما رأت ألا ظلام يجنها وأن سراها فيه لن يتكتما
نضت عذبات الريط عن حر وجهها فأبدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجاب جمالها كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جعلت عن ثناياها وأومض بارق فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساءنى جفن الغمام على البكا فلم أدر دمعا أينا كان أسجما

فقالت وقد رق الحديث وأبصرت قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا يهون صعبا أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره فى الزهد :

يا با كيا فرقة الأحباب عن شحط هل لا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين إلى أجل فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
ياشدما افترقا من بعدما اعتلقا أظها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضى الله اجتماعهما فيالها صفقة تمت على غبن

وانشدنى بعض الكتاب له :

ما كل من شم نال رائحة للناس فى ذا نباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم بين المعانى ، أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا وليس يدرون اب ماطلبوا
لا غاية تنجلى لناظرهم منه ، ولا ينقضى لهم ارب
لا يتعدى امرؤ جبلته قد قسمت فى الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبه عليهم ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نبه على ابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم ، قال ابن رشد :

لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى على ويذكر بيتى وسلفى ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى . فكان أول مافاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : مارأيهم فى السماء - يعنى الفلاسفة - أقديمة هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأتنكر اشتغالى بعلم الفلسفة . ولم أكن أدرى مافر رمعه ابن طفيل ، ففهم أمير المؤمنين منى الروع

والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت فعرف ما عندى من ذلك ، فلما انصرفت أمر لى بمال وخلعة سنية ومركب ، وقال ابن رشد :

واستدعانى أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لى : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيداً لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى إلى ما هو أهم عندى منه ، قال أبو الوليد ابن رشد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس فى جزء واحد فى نحو من مائة وخمسين ورقة .

الأدب العربى فى المغرب وجزائر البحر

تمهيد :

ا — تنتظم بلاد المغرب البلاد التى بين برقة والمحيط الإنلانتى من شمال إفريقية وهى :

١ — المغرب الأدنى أو إفريقية — بلاد طرابلس وتونس .

٢ — المغرب الأوسط — بلاد الجزائر .

٣ — المغرب الأقصى أو مراكش .

وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر لعجمتهم . وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم ، ويزعم كثير من نسابيهم أنهم كلهم أو بعضهم من سلائل عربية حميرية ومضرية وليس بصحيح .

ب — وأمم البربر صنوف كثيرة لهم لغات لاتحصى ، وهم أهل بدو فى معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعا تاما لشدة شجاعتهم وعصبيتهم ، ولم يلاق المسلمون فى تاريخهم للبلاد التى افتتحوها ما لاقوه فى هذه البلاد ، فقد أسلموا وارتدوا بضع عشرة مرة وغدروا فى كل مرة منها بالعرب وفتكوا بهم إلى أن دانوا للإسلام : زمن ولاية موسى بن نصير ثم زمن الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى والأغالبة بافريقية ، ولما أسلموا اتخذوا الاسلام سيفا بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك ، باسم الشيعة مرة والأباضية أخرى والسنية حينا . ويؤسسون لبعض بيوتاتهم ، أو بيوتات الأشراف العلويين ، بينهم دولا بربرية أو عربية فى حمايتهم ، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن بالمغرب ، وخاصة البلاد المنيعة منه ، غير أن هذه اللغة لم تكن لغة قراءة وكتابة وعلم وأدب ، بل كانت اللغة العربية فى جميع أطوارهم هى اللغة الرسمية فى السياسة والعلم والأدب . وحكم البلاد ولاة العرب زمن

الأمويين ثم دولة الأدارسة (١٧٢ — ٣٧٠ هـ) مستقلة بالمغرب الأقصى ، والأغالبة من قبل العباسيين بافريقية (١٨٤ — ٢٨٩ هـ) ، ثم دولة الفواطم وولاة بنى أمية بالأندلس ، ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين فبنى مرين بالمغرب الأقصى والأوسط ، ومن الصنهاجيين بافريقية . ونشأ من هذه الدول دول صغيرة بافريقية والمغرب الأوسط حتى ولى الأشراف السعديون ثم السجلماسيون بالمغرب الأقصى ، واستولى الترك العثمانيون على المغرب الأوسط والأدنى ، فمن ذلك ترى أن العصر الأول وهو عصر الولاة لبنى أمية فى دولتهم والأغالبة من قبل بنى العباس ، كان للعرب فيه النفوذ الأعلى ، فارتقت اللغة وآدابها وعلومها زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم من الصنهاجيين ارتقاء لم يحظ العرب بعده بمثله وكانت مدينة القيروان هى كعبة علوم الدين واللغة والأدب ، ونبغ فيها من العلماء والكتاب والشعراء فريق كادوا يلحقون فحول المشرق خطابة وكتابة وشعراً وعلماً . ثم أدخل الفواطم بمصر كثيراً من العرب الضاربين بشرقى مصر من بنى هلال وسليم وجشم ورياح وغيرهم بلاد المغرب ، تأديباً للصنهاجيين الخارجين عليهم ، فانتشروا فى المغرب كله وكانوا بداة جهلة ، فخربوا كثيراً من مدنه ونشروا فيه اللسان العربى البدوى بلا علم ولا أدب مدون .

وبقى العلم والأدب يخمدان تارة وينتعشان أخرى زمن دول البربر حتى استولى الترك ثم الفرنسيون على المغرب الأدنى والأوسط ، فاضمحلا بهما وبقى منهما ذماء بالمغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة جديدة متأثراً بالنهضة العامة فى مصر والشرق . وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب فى هذه الأطوار رجالا من الأندلسيين أو المشرقيين استوطنوا المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بافريقية زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم .

جـ — أما جزائر البحر فنقصد بها صقلية وعدداً من الجزائر الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط حكمها المسلمون مدة طويلة ، ونشروا فيها العلم . والإمام

أبو حفص عمر بن شعيب القرطبي الأندلسي القائد الزاهد هو فاتح (جزيرة كريت) . والإمام القائد أسد بن الفرات الفقيه العابد هو فاتح (جزيرة صقلية).

وقد أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء منهم : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع (٤٣٣ — ٥١٥ هـ) ، وله كتاب أبنية الأسماء ، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة — صقلية — . وقد ولد بالجزيرة ، ورحل عنها إلى مصر عام ٥٠٠ هـ لما أشرف الافرنج على تملكها . . . ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي حجة الدين ، وقد ولد بصقلية وسكن آخر الوقت في حماة وتوفي بها سنة ٥٦٥ هـ ، ومنهم أبو بكر محمد بن سابق الصقلي المتوفى بمصر سنة ٤٩٣ هـ وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم الصقلي وكان كاتبا شاعرا مهندسا منجما

ومن أدبائها : ابن حمديس ، وكان قد دخل الأندلس سنة ٤٧١ هـ ومدح المعتمد وتوفي سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية .

ومن الأدباء : كذلك أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي ، ولد سنة ٤٢٣ هـ وخرج عنها لما تغلب عليها الروم سنة ٤٦٤ هـ قاصداً المعتمد بن عباد .

د — وأهم منطقة في بلاد المغرب العربية كلها تونس ، التي انبعثت منها شتى النهضات الدينية والعلمية والأدبية في مختلف العصور ، ولا ضير في أن نتحدث عن تاريخ تونس بشيء من التفصيل ، ففي الحديث عنها إيضاح لحال الأدب فيها خاصة وفي خلاد المغرب عامة :

١ — لما استولى العرب على مصر سنة ١٧ هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب اتجهوا بفتوحاتهم نحو الشمال ، فانتزعوا برقة وطرابلس من يد الروم ، ثم حولوا أنظارهم إلى بلاد المغرب ، وغزوا إفريقية لأول مرة سنة ٢٧ هـ ، ثم رجعوا إليها سنة ٤٥ هـ ، ولكنهم لم يستقروا بها ولم يتركوا وراءهم أثراً

يذكر . فكانت هاتان الحملتان تمهيداً للفتح النهائى الذى تم على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ . وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقية لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا أنشأوا لهم مركزاً قاراً بها ومعسكراً يخرجون منه لفتح بقية المغرب ، فصرف عنايته لبناء مدينة القيروان (١) ، ومنذ اليوم الذى أصبح فيه للعرب عاصمة فى إفريقية اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً ، وصاروا يعتبرون إفريقية ولاية مستقلة الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر .

وقد وقف كل من الروم والبربر فى وجه استيلاء العرب على إفريقية وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب . ولكن عقبة عرف كيف يقضى على هذه المقاومة فى بادىء الأمر ، واستطاعت جيوشه أن تستولى على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسى . غير أن جيوشه انهزمت فى طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التى كان يقودها « كسيلة » فخرجت إفريقية من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القيروان وأقاموا دولة بربرية فى جنوب إفريقية ، بينما كان الروم محتفظين بشمالها ، ومتحصنين فى قرطاجنة وبقية المراكز المحصنة . أن غير انهزام الجيوش العربية لم يمح أثر العرب فى إفريقية إذ بقى الكثير منهم مقيما بالقيروان تحت حكم كسيلة ، وكانت تناصرهم قبائل بربر الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزوة الأولى . وفى عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر ، وكسر شوكة قبائل بربر الشمال المعتصمين فى الجبال . فاستطاع زهير بن قيس البلوى القضاء على المقاومة البربرية سنة ٦٤ هـ . وجاء بعده حسان بن النعمان إلى إفريقية سنة ٧٦ هـ ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم ، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردهم من عاصمتهم قرطاجنة . ولكن إفريقية خرجت من يد العرب مرة ثانية ، إذ انتظمت مقاومة البربر بزعامة امرأة منهم تلقب « بالكاهنة » بينما جاءت النجدات إلى الروم من بيزنطة نفسها . وعاد حسان إلى افريقية سنة ٨١ هـ ،

(١) توفى عقبة عام ٦٢ هـ — ٩٢ ج ١ حسن المحاضرة .

وبقضائه على جيوش الكاهنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد ، ثم اتجهت عنايته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها براً وبحراً ، هكذا تم الفتح العربى فى إفريقية ، وبقى على العرب أن ينظموا شئون ولايتهم الجديدة وأن يستقروا فيها ، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أمر البلاد كلها .

وكانت إدارة البلاد موكلة إلى الوالى الذى يعين من قبل الخليفة . واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً ، وأنشأوا بها الدواوين المختلفة ، وعينوا العمال للاشراف على شئون الولاية . وبادر حسان بإنشاء ميناء جديد يحل محل قرطاجنة ، فبنى مدينة تونس التى مالبثت أن أصبحت المنفذ الذى خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا .

وكانت المعاملة الحسنة التى كان العرب يعاملون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى ، إذ بمجرد ما دخل البربر فى الاسلام واعتبروا متساوين فى الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب ، أصبحوا يشاركونهم فى الفتوحات ومناصب الادارة وغيرها . وقد أدت هذه السياسة فى بلاد إفريقية إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة العربية وتعلقهم بلغة العرب ودينهم ، واندماجهم شيئاً فشيئاً فى العنصر العربى ، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة مميزة فى تاريخ الحضارة الاسلامية .

٢ — وقد كان للخلافات السياسية التى حدثت فى المشرق أواخر القرن الأول الهجرى والتى أدت إلى ظهور « الخوارج » صداها فى بلاد المغرب فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى فى بلاد الأندلس التى كانت فى ذلك الحين تابعة لإمارة القيروان . وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية . فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بنى المهلب ، إلى ظهرت الدولة الأغلبية فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

وكان لدعاية الخوارج أثر عظيم فى انتشار الاسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية . وفى هذا العهد أيضا وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنايته إلى نشر الاسلام فى المغرب . فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة ، وبناء صرح المغرب الاسلامى ، فأسسوا المساجد فى سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين الاسلامى ، وأنشأوا الكتاتيب لتعليم اللغة العربية . ويرجع تاريخ بناء جامع الزيتونة إلى هذا العهد (سنة ١١٤ هـ) . وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر فى إفريقية بوادر ازدهار الحضارة العربية ، وشرعت إفريقية فى ظل الاسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعقلية الخاصة بها ، إلى أن تكونت فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها ، وأولى هذه الدول هى الدولة الأغلبية .

٣ — ولم تستقر الأحوال فى إفريقية إلا فى عهد الخلافة العباسية عندما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ ابراهيم بن الأغلب والياً عليها ، جاعلا الامارة وراثية فى بيته ، وهكذا نشأت فى تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخليا عن الخلافة ، وتعاقب أمراؤها على الحكم أكثر من قرن بلا انقطاع . وقد اتخذ الأغالبة القيروان عاصمة لمملكتهم التى كانت تشمل مقاطعة قسطنطينة (بالجزائر) وطرابلس الغرب . وفى ظل الأمن الذى استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمت ثروتها الطبيعية ، فانتشرت الزراعة كما كانت فى عهد الرومان ، وانتظمت وسائل الرى فى البوادى ، وأنشئت المدن ، وظهرت فيها الصناعات وبخاصة صناعة نسج الصوف والحرير . وعنيت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن ، وقويت الحركة التجارية فى الموانىء مع العواصم الأوروبية . وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمرانية ، فجددت مسجد القيروان وأنشأت المساجد فى سوسة وصفاقس ، وأقامت الأسوار حول المدن والحصون على السواحل ، وبنت السدود والأحواض فى أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهر

والأمطار ، وأشهر هذه الأحواض ، صهريج الأغالبه ، فى القيروان الذى ما يزال موجوداً حتى الآن .

وكانت مدينة القيروان فى هذا العصر معقلا من معاقل الحضارة الاسلامية ومنبعاً من منابع إنتاج الفكر العربى ، فانتظم التعليم فى الكتاتيب والمساجد والجوامع . وتكونت المكاتب العامة لجمع الكتب الأدبية والعلمية ، وأنشىء بالقيروان معهد لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة ولترجمة الكتب اللاتينية ، وسمى هذا المعهد « بيت الحكمة » . وقد ظهر فى ذلك العصر من مشاهير الرجال القاضى أسد بن الفرات (المتوفى سنة ٢١٣ هـ) والقاضى سحنون المتوفى (سنة ٢٤٠ هـ) من أئمة المذهب المالكى ، ومن الأطباء أحمد بن الجزار . واعتنى الأغالبة بالفن المعمارى الذى امتاز فى عهدهم بطابع خاص . واشتهر بلاط الأغالبة فى القيروان بعظمته وأبهته ، وكانت لهذه الدولة صلات ودية بالامبراطور شرلمان . واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما . وقد احتلوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩ هـ ، وهكذا أوصلوا الثقافة العربية إلى أوربا وصار الأساتذة العرب فى صقلية ينشرون العلوم ممهدين السبيل للنهضة الأوربية التى ظهرت فيما بعد فى إيطاليا . وبالجملة فإن عصر الأغالبة كان عصر نهضة اقتصادية وعمرانية وفكرية تركت أثراً عميقا فى بلاد إفريقية .

٤ — وكان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية القائمة فى الشرق العربى أثرها فى الدولة التى نشأت فى المغرب ، وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط القرن الثالث الهجرى يسودها المذهب المالكى الذى وطد أركانه بها كل من الفقيهين المالكيين أسد بن الفرات وسحنون ، ولكن شيئا فشيئا بدأ البربر يتصلون برجالات المذاهب الأخرى ، ووجدوا فى فرقة الخوارج وصلابتها فى الدين تلاؤما مع طبيعتهم ، وسرعان ما أقبلوا على اعتناق مذهبها ، وما كاد القرن الثالث يوفى على نهايته حتى كان مذهب الاباضية — وهى فرقة

من فرق الخوارج - قد انتشر انتشارا كبيرا فى القبائل التى تسكن جنوب المغرب . أما قبائل الشمال : كتامة وصنهاجة ومايتبعهما فقد اعتنقت المذهب الشيعى الذى قام بالدعوة إليه فى المشرق عبيد الله المهدى ، وأوفد فى ذلك الحين الداعى أباعبد الله ليتولى نشر مذهبه ببلاد المغرب، وكانت دولة الأغالبة قد أشرفت على نهايتها . فنظم أبو عبد الله الدعوة ضدها ، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعى وخلع طاعة الأغالبة . والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب . وعندما رأى عبيدالله المهدى أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب ، وأن جيوش داعيته قد أصبحت قاب قوسين من النصر ، انتقل من دمشق إلى سجلماسة ، وظل مختفيا بها إلى أن انتهى الأمر بانهزام جيوش الأغالبة ، وفر آخر أمير منهم وهو زيادة الله الأغلبى بعد أن يئس من وصول نجدة العباسيين إليه . فدخل عبيد الله إلى القيروان حيث بويع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمير المؤمنين . وهكذا تكونت بافريقية خلافة الفاطميين ، بينما كانت الخلافة العباسية ما تزال قائمة ببغداد . والخلافة الأموية بالأندلس . وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب . فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسموها المهدية . واستطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم كافة بلاد المغرب بعد أن قضوا على الدولة الأباضيه فى تيهرت (الجزائر) والصفرية فى سجلماسة (المغرب الأقصى) والأدريسية فى فاس ، وبعد ذلك اتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعها الأول فى الشرق العربى ، وأرادوا أن يبسطوا سلطانهم عليه ، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولاهم جوهر الصقلى الذى مالبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط ، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التى صبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب ، وعلى الرغم من الثورات التى انتابت تونس فى هذا العهد فان الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد ، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس فى تونس فقط بل حتى فى مدن صقلية التى كانت خاضعة

لسلطانهم . وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط ، فكان أسطولهم يجوب البحار ويشن الغارات على المدن الإفرنجية وعلى جزر اليونان. واستطاعوا أن ينضموا إلى خلافتهم كلا من جزيرتى أقريطش (كريت) وسردينيا وقسما من جزيرة كورسيكا .

٥ — ولما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر ، يدير شؤونها أمير من أصل بربرى اسمه بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى . وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية ، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطا صوريا فحسب . واستطاع ملوكها الاحتفاظ بمملكتهم الواسعة التى ورثوها عن الفاطميين . ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط ، حيث تكونت به دولة بنى حماد فى فجر القرن الخامس هـ ، وبقيت مملكة بنى زيرى محصورة فى إفريقية وعاصمتها القيروان . وتعتبر الدولة الصنهاجية أول دولة بربرية فى إفريقية بعد الفتح الإسلامى ، وبعد عصرها من أزهر عصور الحضارة التونسية . وقد مهد لهم السبيل الأغالبة والفاطميون فى نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمرانية والثقافية . فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط فى بناء صرح الحضارة العربية ، وبلغت تونس فى عهدهم الذروة العليا فى الرقى والتمدن . فانتشرت الزراعة فى أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الرى ، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج ، أما النهضة الأدبية والفكرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبلغها تونس من قبل . فامتلأ بلاط ملوكها برجال العلم والأدب ، وعنى أغلبهم بالفن المعمارى فأنشأوا القصور الفخمة والمتنزهات الجميلة ، وتنافسوا فى تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحصون والأسوار

٦ — وحوالى سنة ٤٣٥ هـ ، أظهر الملك المعز بن باديس الصنهاجى انحيازه إلى أهل السنة فى القيروان ، وأصبح يناصر الخلافة العباسية فى بغداد معلنا خروجه عن طاعة الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٣٩ هـ فرأى المستنصر أن

ينتقم من المعز ، وأرسل إلى إفريقية قبائل بنى هلال وبنى سليم ورياح التى كانت تقيم فى الصعيد المصرى ، فوصلوا إفريقية سنة ٤٤٠ هـ ، وقد أحدث هذا الزحف العربى العظيم انقلابا عميقاً فى مختلف نواحى الحياة بإفريقية ، إذ تم بفضله استعراب البلاد بصورة نهائية ، إلا أنه كان من نتائجه أن عمت البلاد الاضطرابات ، وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية ، ونشأت دويلات صغيرة فى أنحاء البلاد كانت أشبه بملوك الطوائف بالأندلس ، كما وقع فى سائر البلاد التى كان يحكمها العرب شرقا وغربا وقتذاك ، وبقى بنو زيرى محتفظين بالمهدية والمناطق المجاورة لها . وفى تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت تابعة لتونس مدة تقرب من ثلاثة قرون ، وصاروا يغزون المهدية بين الحين والآخر حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣ هـ ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية ، بينما كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية . وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجية فى تونس .

٧ — وقد استنجد الملك الحسن بن على الصنهاجى بعبد المؤمن بن على مؤسس الدولة الموحدية فى المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدى الإفرنج ، وكان عبد المؤمن فى ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس ، فاستجاب عبد المؤمن لاستنجاد الصنهاجيين ، وسار إلى إفريقية مختلفا فى طريقه المغرب الأوسط ، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقية ، وبعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها النورمان . فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥ هـ وهكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطار المغرب العربى الثلاثة ، ودامت أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخمدوا الثورات العديدة التى كانت تقوم ضدهم بين الحين والآخر .

٨ — وعمل ملوك بنى حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذى مر على إفريقية ، وساروا على منوال الموحدين فى تنظيم دواوين الدولة

واستطاع أبو زكرياء مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذى خلفه توطيد دعائم الأمن فى تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التى نشبت فى مختلف أنحاء البلاد، وقد اتسعت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراكش التى انضم ملوكها بنو مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨ هـ. وفى عهد المستنصر أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس فى الحملة الصليبية الثامنة، ونزل الطاعون بجيشه فأفنى معظمه ولقى الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩هـ. (١٢٧٠م) ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطرباً دام حوالى مائة سنة، وكان التنافس بين أمراء البيت الحفصى وتطلعهم إلى الخلافة من جهة، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثا لكثير من الفتن التى أضعفت سلطة الخلافة المركزية، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة، واستقل بالحكم بنو يملول فى توزر وبنو خلف فى نفطة، وبنو مكى فى قابس، وبنو ثابت فى طرابلس. وقد شجع التدهور الذى لحق الخلافة الحفصية فى ذلك العهد ملوك بنى مرين فى المغرب الأقصى على الاستيلاء على إفريقية مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمنا طويلا. وفى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبى العباس والخليفة أبى فارس، فتدعمت أركان الدولة من جديد، وامتد نفوذ بنى حفص إلى المغرب الأوسط بعد أن سقطت تلمسان فى أيديهم ثم إلى المغرب الأقصى والأندلس. وقد عنى كل من هذين الخليفتين باقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التى ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بعدهما لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة فساروا بالبلاد إلى الفوضى، وخرج عن سيادتها كثير من الأنحاء حتى لم يبق تابعا لهم فى أواخر القرن التاسع الهجرى غير مدينة تونس، وما جاورها من المناطق، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها، وأخذت كل واحدة منها

تلعب دورا هاما فى البحر الأبيض المتوسط .

وفى عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصورا زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركزية ، وقد عقدت الدولة الحفصية عدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتوثيق العلاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوربية ، كبرشلونه وجنوة وبيزة وصقلية والبندقية ومرسيليا واشتهرت بين التجار الأوربيين أسواق تونس والمهدية وقابس وعنابة وأصبحت قبلة تجار البحر الأبيض المتوسط . وأينعت الحياة الأدبية والعلمية فى هذا العصر ، وكان نزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التى كان لها أكبر الأثر فى انتشار العلوم والفنون ، فظهر أثر الفن الأندلسى فيما أنشىء من المبانى : كجامع القصاء بعاصمة تونس وصومعته المشهورة وأسواق المدينة وأبوابها التى مانزال موجودة إلى الآن . كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع العلم والأدب فى البلاد ، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيتونة ، ومن مشاهير رجال هذا العصر ابن خلدون وابن عرفه والأبلى من آل الصقلى .

٩ — وشهد القرن العاشر الهجرى ذلك النزاع الكبير الذى كان قائما بين الأسبان والأتراك للتحكم فى البحر المتوسط والسيطرة عليه ، وقد ابتدأ نفوذ الأسبان يمتد إلى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس ، بينما ظهر فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل بابا عروج وأخيه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثمانى . وهكذا أصبح العثمانيون والأسبان يتسابقون للاستيلاء على سواحل تونس بعد أن عجز أمراء بنى حفص على رد هجماتهم . واستطاع أمراء الإفرنج احتلال أهم مراكز السواحل التونسية ، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٥٠ هـ ، فى أيدى الاتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر . ثم انتزعها منهم الأمير الحفصى الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الأسبانية

سنة ٩٤٢هـ . وفى النهاية استطاع الأتراك طرد الأسبان من مدن السواحل ، بفضل الحملات التى شنها عليهم القائد التركى الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية . وبقيت الحرب بين الأسبان والأتراك قائمة مدة طويلة ، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة على باشا أمير الجزائر عاد اليها الحكم الأسبانى الحفصى سنة ٩٨٠ ، ثم غزاها أسطول تركى جاء من الأستانه بقيادة سنان باشا ، بينما زحفت اليها قوات أخرى من من طرابلس والقيروان سنة ٩٨١ هـ . وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءا من ممتلكاتها فى شمال أفريقية الممتدة من الجزائر إلى القطر المصرى .

وعمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به فى سائر البلاد التركية ، وكان يحكم ولاية تونس نيابة عن السلطان العثمانى وال يحمل لقب « الباشا » ويساعده ديوان يتألف من ضباط الجيش ، وكانت قيادة الجيش بيد « آغا » ، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد « داى » ، وعين لجباية المال موظف يسمى « باى » ، وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠ م) كانت نتيجتها إعطاء مقاليد الأمور إلى أحد « الدايات » ، ثم أخذ نفوذ الداى يتسع شيئاً فشيئاً ، بينما كان يتضاءل نفوذ « الباشا » الممثل الرسمى للدولة العثمانية فى تونس ، وقد نظمت شؤون هذه الولاية فى عهد عثمان داى الذى عمل على تقوية الجيش وإعطاء قيادته إلى « باى » ، وسار على منواله يوسف داى الذى تولى الحكم سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) ، فاستتب الأمن فى عهدهما ونهضت البلاد من جديد .

ثم ساءت الأحوال فى تونس بعد ذلك ، لأن الدايات الذين تعاقبوا على الحكم من سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧ م) إلى سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ م) لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ ، وقد تضاءلت سلطتهم أمام سلطة

« البايات » التى أخذت تتسع يوما بعد يوم طول القرن الحادى عشر الهجرى . ومن العوامل التى قوت نفوذ البايات ما عمد إليه الباب العالى من إعطائهم لقب « باشا » ، وجعل منصب الباى وراثياً وقد امتاز الثلث الأخير من القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناتجة عن التنافس على العرش . فنشبت الفتن الداخلية ، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس ، فعمت بذلك الفوضى ، وتمزقت أوصال الدولة وضعفت السلطة المركزية ، مما شجع أساطيل الدول الأوربية على ضرب سواحل تونس بالقنابل مرات عديدة ، وعلى أثر غزوة قام بها والى الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة ، وتمكن آغا الجيش حسين بن على من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركى وموافقة الأهالى سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ م) . وهكذا تأسست الدولة الحسينية التى توارثت الحكم فى تونس إلى يومنا هذا . فعاد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة . وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدها على الثورات التى كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم ، وجعلت الولاية وراثية فى العائلة الحسينية ، واستطاع حسين بن على مؤسس الدولة الذى دام عهده خمساً وثلاثين سنة إصلاح شؤون البلاد ، فانتشر العمران فى تونس ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة ، وتأسست المنشآت العلمية . ومن بين ملوك البيت الحسينى الذين اشتهروا بأعمالهم ومآثرهم يجب أن نذكر على باى (١١٤٨ هـ - ١١٦٩ هـ : ١٧٢٦ م - ١٧٣٥ م) الذى استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة . أما حمودة (١١٩٦ هـ - ١٢٢٩ هـ ١٧٨٢ م - ١٨١٤ م) فقد اشتهر فى التاريخ بتمتين علاقاته مع أوروبا وخاصة مع نابليون سنة ١٨٠٢ م ، وبحربه مع البندقية التى دامت ثمانى سنوات (١٧٨٤ - ١٧٩٢) م .

وقد امتاز الحكم التركى فى تونس - شأنه فى ذلك كشأنه فى كل الممالك التى كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية - بأنه كان يقوم على القوة وعلى

الجيش . وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم فى ممتلكاتها مستندة فى ذلك على الجيش . ولم يكن لها اتجاه معين فى سياستها . ولا مبادىء تسير عليها فى تنفيذ هذه السياسة ، وبقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية ، وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والعلوم والفنون . وكان يتحكم فى البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة ، ويعتمد عليه الوالى فى حفظ الأمن وجباية الأموال ، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى ، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة ، وهى نوع من العمليات الحربية التى كان يقوم بها الجانبان المتحاربان من الدول الأوروبية والشرقية وقد رأت تونس تحت الحكم التركى عهوداً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بعض الأمراء الصالحين من مجهود جبار للنهوض بالبلاد فى سائر نواحى حياتها . وفى أوائل هذا العهد كان نزوح عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٩ م) من العوامل التى نشطت التجارة والفلاحة والصناعة ، وقد استوطن عرب الأندلس فى سهول بنزرت ومجردة والدخلة ، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبربة ومجاز الباب وتستور والعالية وقلعة الأندلس وقرنبالية وزغوان وسليمان والجديدة وأنشأوا المزارع والبساتين ، حتى عادت إلى البلاد رفاهيتها القديمة ، وكانت الغنائم التى يغنمها القرصان فى البحر الأبيض المتوسط من عوامل إثراء السكان ، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجعلت أسواق المدن مزدهرة . على أن أعمال القرصنة لم تكن حائلا دون ربط الصلات بين تونس وأوروبا ، واستئناف علاقاتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة ، فبمجرد أن انتظمت أحوال الدولة ، نشطت تجارتها مع مرسيليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية ، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧ م وأرسل ملك فرنسا هنرى الثالث قنصلا إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التى أعطت لفرنسا امتيازات

كبيرة فى سائر ممتلكاتها . وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر ، وبخاصة منذ تولى حسن بن على الحكم وجعله وراثيا فى بيته . وكانت الروابط التى تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على مر الأيام ، وضعف سلطان تركيا فى تونس حتى كاد يكون عديم الوجود . وهكذا ابتدأت تنمو فى تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوربية بكيانها وعقدت معها المعاهدات ، والحقيقة أن العنصر التركى الذى نزل بأرض تونس وأقام الحكم فيها قرونا عديدة لم يدخل تغيراً جوهرياً فى أحوال البلاد ، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجانب عنهم إذ كانوا يحكمون البلاد نيابة عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً على أن العنصر التركى لم يحتفظ بشخصيته بل اندمج بمرور الزمن فى العنصر العربى واستمرت النهضة التونسية التى ابتدأت فى عهد الدولة الحفصية . وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثمانى ، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور العصرى بعد أن طلع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادى .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة فى طريق النهضة العصرية ، وكان يربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية ، فبادرت بالتحرر من هذه القيود الصورية ، واعترفت الدول الأوربية كفرنسا وانكلترا والنمسا باستقلالها ، وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات . ثم اتجهت همة أمرائها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية ، وفى مقدمتها إصلاح نظام الحكم بما يتفق والنظام الدستورى السائد فى الامم المتمدينة ، وقبل فرض الحماية الفرنسية بنحو أربعين سنة نجد على عرش تونس الباى المصلح الشهير أحمد باشا (١٨٢٧ م — ١٨٥٥ م) ، ثم محمد باشا (١٨٥٥ — ١٨٦٠) وقد أصدر عام ١٨٥٨ دسورا لبلاده هو أول دستور فى العالم العربى ثم الصادق باى (١٨٦٠ - ١٨٨١) وفى عهده فرضت فرنسا حمايتها على تونس فى ١٢ مايو ١٨٨١

الحالة الفكرية فى بلاد المغرب

تمهيد :

منذ فتح المغرب العربى ، وأسست القيروان عام ٥٠ هـ ، وأنشىء جامع الزيتونة فى تونس ، والثقافة العربية الإسلامية آخذة فى الظهور والوضوح والغلبة ، وكانت الصبغة الغالبة على العلماء هى الصبغة الدينية والثقافة الذائعة فى المغرب هى ثقافة الشريعة وعلومها ، وكان لمذهب مالك السيادة الروحية على هذه البلاد ، التى لم ينبغ منها فيلسوف أو عالم كبيرا فى ذلك الحين ، وكان أنبغ علمائها إنما ينبغ فى علوم الدين أو اللغة أو الأدب .

وكان القرن الرابع أول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها ، إذ أن الفاطميين قد نقلوها مع دعوتهم ، ومزجوا بمسائلها عقيدتهم ، فأخذت الفلسفة تظهر فى ربوع المغرب ، مكروهة مضطهدة ، يحرمها العامة والفقهاء ، وقامت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ، فاضطهد ملوكها كل من يشتغل بها ، أو يجمع كتبها ، وحرموا جميع فروعها ما عدا الرياضة والميقات والطب .

ثم قامت دولة الموحدين ، فمزج ابن تومرت دعوته بمذهب الأشاعرة من المتكلمين ، وخاض هو وخلفاؤه فى مسائل من الفلسفة ، وجمعوا كتبها ، وقدموا رجالها ، وبعد انتهاء دولتهم أخذت الفلسفة تنشط حينا وتخمد حينا آخر ، وكان أظهر من نبغ فيها من المؤرخين والفلاسفة ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) ، وسنخص ابن خلدون بعد ذلك بحديث طويل مستفيض ، نتحدث عن حياته ، ونسلم بتراثه الفكرى ، ومذهبه فى التاريخ ونقده ، ونعرج على كثير من أمهات المسائل التى ابتكرها ابن خلدون وأشار إليها فى مقدمته الخصبة الرائعة .

الحياة العلمية

١ — كان المسلمون فى أول أمرهم بالمغرب لا يعنون إلا بعلوم القرءان والحديث والفقه . فأخذوا فقههم عن صاحب مالك ابن قاسم المصرى ، وأولهم أسد بن

الفرات مفتى الجماعة بالقيروان زمن الأغالبة ، وتلميذه سحنون الذى نقل مدونة الفقه التى رواها ابن قاسم عن مالك ، ولخصها ابن أبى زيد القيروانى . وعنهم انتشر مذهب مالك فى المغرب إلى وقتنا هذا ، إلافى فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والفاطميين وفقه الخوارج ، وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعاملين على إبادة فقه الشيعة وغيرهم المعز بن باديس عند ما خلع طاعة خلفاء مصر من الفاطميين .

أما علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل . وكان لهم فيه حفاظ ثقات ، إلا أن بعد الشقة عليهم جعل أكثرهم لا يرحلون فى طلبه إلا إذا خرجوا . للحج ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التى صحت عند المشارقة ككتب السنة الستة المشهورة ، واشتهر عندهم من بينها صحيح مسلم ، وفضلوه على صحيح البخارى وشرحه كثير منهم ، ومن أشهر شروحه شرح المازرى الصقلى . وتعصب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أى مطاردة .

أما علم الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث فى الجدليات المستمدة من غير الكتاب والسنة ، إلا أن الفواطم أدخلوا معهم فى المغرب عقائدهم فى الدين ممزوجة بالفلسفة ، فاشتغل بها فى زمنهم بعض أهل قرية أفريقية وبعض من دخل فى طاعتهم من دولة الأدارسة . ولما نقلوا حاضرة ملكهم إلى القاهرة نسخ مذهب الشيعة فى المغرب أو كاد ، ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلا ريثما ظهر مهدى الموحدين ابن تومرت ناقلا مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالى ، وجعل علم التوحيد غايته من دعوته ، وألف كتباً ، وجاء خلفاؤه من بنى عبد المؤمن فحفلوا به وشجعوا المؤلفين فيه والمشتغلين بعلوم الاوائل .

٢ — وكانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيرا عن عنايتهم بعلوم الدين ، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين ، و يكن لهم فى النحو رواية عن الاعراب ولا مذهب خاص كما صار الأندلسيين فيه.

ولكن اهتمام المعز بن باديس بالأدب وأهله أنبت فى القيروان نابتة من أئمة النحو والأدب واللغة ، كالإمام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع فى اللغة ، ويعتبر من أمهات كتبها ، رتبه على حروف المعجم

سنة ٤١٢ ، وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أدباء القيروان ، والعلامة فى كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاشعى القيروانى ، صاحب التصانيف الممتعة فى اللغة والادب والحديث والتفسير ، مات ببغداد سنة ٤٧٩ ، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصقلية على بن القطاع الصقلى صاحب كتاب الاسماء وكتاب الافعال وغيرهما من المؤلفات الضخام ، توفى بالقاهرة سنة ٥١٤ ، وعثمان ابن على السرقسوسى الصقلى المقرىء النحوى اللغوى وغيرهما .

ومن علماء المغاربة الذين برزوا فى هذه العلوم ، وخاصة الفلك والجغرافية ، الشريف الإدريسى الذى ألف لرجار نرماندى ملك صقلية كتبا فى الفلك والجغرافية ، ورسم له الأرض فى مصور جغرافى اتخذه من الفضة ، فكان أصح من رسم بطليموس .

وممن رحل إلى الغرب من الاندلسيين ، أبو عبدالله محمد بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون ، وقد تخرج عليهم من أبناء البلاد كثير مثل : ابن الميمون وابن محشوة . وقد مر بك أن ابن هانىء لما ضاقت به بلاد الاندلس لم يجد ملجأ إلا بلاد المغرب ، فنزل على الفاطميين بها ، فلاقى منهم الإكرام والحفاوة البالغين . والأثر الواضح لاستفادة هذه البلاد من رحلة العلماء والادباء إليها ، بل أهل الصناعات وأرباب الفنون عامة ، إنما كان حين انقضاء مدة العرب بالاندلس وإجلائهم عنها ، فإنهم انساحوا فى بلاد المغرب ، فكان لهم عليهم اليد الطولى فى الادب والعلم والصناعة والزراعة حتى أخملوا أهل البلاد . وقطعوا أرزاقهم . وكان لا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى . ويقول ابن خلدون فى هذا : « وألقت الاندلس بأفلاذ كبدها من أهل تلك المملكة - يريد المملكة العربية - بالجلاء إلى إفريقية ، ولم يلبثوا أن انقرضوا ، وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة ، لعسر قبول أهل العدوة لها ، وصعوبتها عليهم ، وعوج ألسنتهم ، ورسوخهم فى العجمة البربرية » .

٣ - ومن أهم مراكز الثقافة فى القديم والحديث (جامع الزيتونة) ، وهناك اليوم أكثر من ستة ملايين مسلم من سكان شمالى أفريقية يتطلعون إلى (جامع الزيتونة) بتونس ، ويرون فيه ملجأهم وملاذهم ، ويعدونه ركن الإسلام ومعهد الثقافة العربية ، وهذا المسجد من أقدم المعاهد الإسلامية الباقية ، فهو أقدم عهدا من الجامع الازهر ، إذ بنى فى العام التاسع والسبعين للهجرة (٦٩٨ م) فى عهد حسان بن النعمان الغسانى

والى أفريقية ، الذى توجه إلى تونس بأمر الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان لمقاتلة البيزنطيين سنة ٦٩٣ م فى جيش عدته أربعون ألف مقاتل ، فهزمه البيزنطيون بدء الامر، ثم عاد فثبت أمامهم وانتصر عليهم ، ودخل قرطاجنة ، عاصمة البلاد وحصنها المنيع، سنة ٦٩٥م، ولكنه فقدها . ثم عاد إليها ثانية فى العام التالى براو بحرا فاستولى عليها ، وصالحه الرومان على الخراج ، غير أنهم ما لبثوا أن ركبوا مراكبهم وهربوا ، ثم الامر لحسان ، فأخذ يبذل الجهد ليكون دولة إسلامية قوية فى جميع نواحيها . فشيد مدينة تونس ، وبنى بها دارا لصناعة السفن ، وأنشأ أسطولا عظيما جعل ممالك البحر الابيض تهاب هذه الدولة العربية الناشئة ، وتخشى بأس جيوشها . ولم يمض إلا أعوام قلائل حتى دانت البلاد كلها لحسان ، واستتب الامن بها ، واستظلت براية الإسلام ، فأخذ يوجه عنايته إلى العلم ، فاختار نشزا تظلله أشجار الزيتون ، وأمر بتشييد جامع يؤمه المؤمنون للصلاة ، ويتلقون فيه أصول دينهم الجديد ، فسمى (جامع الزيتونة) نسبة إلى موقعه . وقد بنى هذا الجامع على طراز مسجد القيروان ، ونقلت أعمدته الرخامية المنتشرة فى ساحته من خرائب قرطاجنة ، وصنعت أبوابه ومنبره من خشب الصندل . وفى سنة خمسين ومائتين للهجرة شيدت به قبة كقبة مسجد القيروان ، مما يدل على أن هذه القبة كانت حينئذ أنموذجا بارزا يتبع فى بناء القباب . وفى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة توج المنصور جامع الزيتونة بقبة ثانية ، اشتق أصولها من نظام مسجد القيروان أيضا ، وأسماها قبة باب البهو ، وبذلك صارت القبتان فى هيئة واحدة ، وإن كان بينهما مائة وستون سنة ، فعناصرهما واحدة ، وعدد ما بهما من الاعمدة والعقود والأقواس والضلوع واحد ، وكانت مئذنة (جامع الزيتونة) مساوية لسطحه أول ما بنى ، فهدمت فى أواخر القرن الماضى ، وحلت محلها أخرى يربو ارتفاعها إلى الأربعين مترا ، وتعتبر آية من آيات فن البناء ، فهى تمتاز عن مآذن المساجد فى البلاد الإسلامية الاخرى بتربيع ضخم سامق يكاد يفردها به فى عمارة المآذن ، وأحر بمن يهتم بذلك الفن أن لا يغفل زيارتها إن حرص على أن لا يفوته أثر خالد فى ذلك الباب .

وتعاقبت الدول ، وتوالى الملوك والولاة على تونس ، فلم تصرفهم مشاكل السياسة وشئون الحرب عن العناية بالآداب والعلوم ، لاسيما العلوم الإسلامية واللغوية ،

ممثلة فى (جامع الزيتونة) ،الذى ما لبث أن صار بعد خمس وثلاثين سنة من إنشائه معهداً عليا تدرس فيه الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والطب ، بالاسلوب الذى كان معروفا فى ذلك العهد البعيد ، فأقبل عليه الطلاب من كل فج ، وتخرج فيه الأدباء والعلماء فى كل فن ، وارتقى إلى مصاف الجامعات الدينية ، حتى لقد نافس — فى القرن الثالث الهجرى — معاهد قرطبة والقيروان ودمشق وبغداد ، وفيه تخرج ، المؤرخ الفيلسوف (ابن خلدون) والفقيه المجتهد (ابن عرفة) الذى ما برحت آراؤه وفتاويه مرجعا فى الأقطار الإسلامية ، وخاصة فى أفريقية الشمالية .

ولما ارتقى العرش التونسى (الباى أحمد باشا الاول) وضع نصب عينيه أن ينهض بهذا المعهد نهضة تتفق ومكانته الدينية والعلمية . فأصدر فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٥٨ هجرية قانونا نظم به الدراسة فى الجامع الاعظم . وقد كتب هذا القانون بماء الذهب ، وسمى (المعلقة) ، لانه علق على باب الشفا من أبواب الجامع . ولا يزال معلقا إلى اليوم ذكرى طيبة لهذا العاهل العظيم ، الذى لم يقف به همه عند هذا الحد ، بل أعاد تنظيم مكتبة الجامع . وأهداها آلاف المجلدات النفيسة ، ومن بينها مخطوط أثرى فريد . هو تفسير القرآن بالخط الكوفى ، كتب فى القرن الثالث الهجرى .

ومنذ صدور هذا القانون أخذت الحكومات المتعاقبة تؤلف بين الحين والحين لجانا لوضع برامج التعليم وتنقيحها ، ومن بين هذه اللجان لجنة شكلت فى سنة ١٣١٥ هجرية ، اقترحت وجوب امتحان الطلبة فى بعض العلوم الحديثة ، غير أنها لم تخصص لهذه العلوم دروسا معينة بالجامع ، اعتمادا منها على دروس يتلقاها الطلبة خارج المعهد ، فنظمت المدرسة الخلدونية دروسا ليلية لهذه العلوم ، لان روح المحافظة الجامدة والطرق التربوية العتيقة المتبعة فى الجامع قد ناهضت كل محاولة للنهوض به ، ووقفت فى سبيل كل اجتهاد فى العلوم الدينية ، أو تقدم فى العلوم الدنيوية .

وكان من أثر التطور العلمى الحديث أن ضيق الدائرة أمام خريجى هذا المعهد ، فقصر عملهم على المناصب الشرعية والتعليمية ، كالإمامة والوعظ والقضاء والتدريس . فسبقهم خريجو المعاهد الاخرى . وتبوءوا دونهم أسمى مناصب الحكومة . فكان لا بد من ترقية هذا المعهد ليتمشى مع روح العصر . وليخرج طبقة من المثقفين

يصلحون لتولى مختلف الوظائف . فشكلت لجنة ثانية فى سنة ١٣٣٠ هجرية (١٩١٢ م) صدر عنها قانون من إحدى وثمانين مادة ، أدخلت بمقتضاه اصلاحات كثيرة على نظام التعليم . فصارت بعض العلوم العصرية تدرس إجباريا داخل المعهد ، وأضحت الامتحانات شفوية وتحريرية منظمة . وقد نص فى المادة الاولى من هذا القانون على المواد التى تدرس فى (الجامع الاعظم) هى : القرآن والقراءات والتجويد والتفسير والحديث ومصطلح الحديث والتوحيد والفقه والاصول والسيرة والنحو والصرف والبلاغة والعروض والإنشاء وأدب اللغة والخط والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والرسم والهيئة والمنطق والتصوف . وبعض هذه العلوم يدرس فى توسع وإفاضة ، فالحديث مثلا يدرس فى الموطأ مع شرح الزرقانى ، وصحيح البخارى بشرح القسطلانى ، وصحيح مسلم بشرح الأبى . والتوحيد يدرس فى شرح الجرجانى على مواقف عضد الدين الايجى ، والكبرى للسنوسى ، وشرح التفتازانى على العقائد للنسفى ، وعلم الاصول يدرس فى التوضيح لصدر الشريعة عبيد الله المحبوبى ، وشرح الايجى على المختصر لابن الحاجب ، وشرح المحلى على جمع الجوامع للسبكى . والنحو يدرس فى المغنى لابن هشام . والتصوف فى الإحياء للغزالى . والبلاغة فى المفتاح للسكاكى مع شرح الجرجانى . واللغة والادب فى المثل السائر لابن الاثير ، والمزهر للسيوطى ، وفقه اللغة للثعالبى . وشرح المرزوقى على ديوان الحماسة .

وفى سنة ١٣٤٤ هجرية ظهرت الحاجة إلى إصلاح جديد ، فتكونت لجنة أخرى لوضع برنامج حديث يتفق وتطور الفكر ونهضة العلم فى هذا العصر ، غير أن مقترحاتها اصطدمت مرة أخرى بمعارضة المحافظين من الشيوخ والعلماء ، فلم يقدر لها أن تبرز إلى الوجود ؛ فقد أبى المحافظون إلا صيانة الاثر القديم ، وإبقاءه كما تسلموه من السلف . ولكن جهود المجددين القائمين على إدارة هذا المعهد - وعلى رأسهم أحد شيخى الجامع ، العالم التونسى الكبير فضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - تغلبت أخيرا على معارضة المعارضين ، فاستطاعت أن تعدل المنهاج ، وتضيف إلى مواد الدراسة علوم التاريخ والجغرافيا والرياضة والفلك والتربية وعلم النفس والفلسفة ، وجعلت تدريسها فى الكتب الحديثة .

أعلام من المغرب

كان أغلب يسود تآليف (١) المشارقة الإيجاز ، لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثل كتاب ابن الحاجب . فى فروعه وفى أصوله ، والخونجى فى المنطق ، وغيرهما ، وإن كان الغالب على جل أئمة المشارقة الإطناب ، مثل الغزالى والإمام الفخر وغيرهما . وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة ، فى حسن رصف الكلام وانتقائه ، مثل عبارة القاضى عياض فى تأليفه ، التى لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها ، والنسج على منوالها . وقد انتهت صناعة التأليف فى علماء المغرب ، على صناعة أهل المشرق ، لشيخ شيوخ العلماء فى وقته : ابن البناء الأزدى المراكشى (٢) فى جميع تصانيفه ، أوجب ذلك براعة نسبه من البداوة ، وملكته فى التصرف ، التى هى نتيجة تحصيله . ولم يظهر من علماء فاس شىء من التآليف المرتجلة ولا الملخصة إلا ما كان سبيله النسج بها على ما هى عليه فقط ، كما فى تأليف المدونة المنسوبة للشيخ (أبى الحسن (٣) ، وهى التى اعتنى بها طلبته ، وبنوها على ما قيدوا عنه من فوائد المجلس . وذلك كله فى العشرة الرابعة من المئة الثامنة . ثم تلاهم طلبة الشيخ الجزولى (٤) ، على الرسالة ، وتعددت تلك التقاييد أيضاً ، ونسبت للشيخ ،

---

(١) راجع ص ٢٣ - ٣ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض .

(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى ، أبو العباس المراكشى ، المشهور بابن البناء ، ولد سنة ٦٥٤ هـ ، وتوفى ببلده سنة ٧٢١ هـ . (عن الديباج لابن فرحون) .

(٣) هو على بن محمد بن عبد الحق الزريلى المعروف بالصغير (بصيغة التصغير) توفى عام ٧١٩ هـ (عن الديباج) .

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى ، صاحب تقاييد الرسالة المشهورة الفقيه الحافظ : توفى سنة ٧٤١ هـ (عن الابتهاج لأحمد بابا) .

وإنما له فيها ماقيد عنه فى المجلس . واختلف نظر الشيخين بحسب تعدد السلكات(١). فقيد كل طالب ماسمع . فلا يقال فى هذه تآليف ، لكونها منسوخة من أماكن معزوة . والعلة فى ذلك كون صناعة التعليم ، وملكة التلقى ، لم تبلغ فاسا كما هى بمدينة تونس ، اتصلت إليهم من الامام المازرى (٢) ، كما تلقاها عن الشيخ اللخمى ، عن حذاق القرويين ، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام (٣) ، مفتى البلاد الافريقية وأصقاعها . المشهود له برتب التبريز والإمامة ، واستقرت تلك الملكة فى تلميذه ابن عرفة (٤) رحمه الله ، وفى الشيخ ابن الامام التلمسانى (٥)، ونجب طلبه ابن الامام تلميذه الامام أبو عبد الله الشريف (٦) ، شارح الجمل ، وانتهت طريقته لولده أبى يحيى المفسر العالم . واستقرت أيضاً طريقة ابن الإمام ، فى تلميذه سعيد بن محمد العقبانى (٧) ، وانتهى ذلك إلى ولده أبى الفضل قاسم

---

(١) يراد بالسلكات عنـــد المغاربة : المرات التى يقرئ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب ، المرة : سلكة .

(٢) هو محمد بن على بن عمر التميمى المازرى الصقلى . توفى (سنة ٥٣٦) عن ثلاث وثمانين سنة .

(٣) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضى الجماعة بتونس ، له تقاييد ، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحا حسنا . ولد سنة ٦٧٦ هـ وتوفى سنة ٧٤٩ هـ . (عن الديباج لابن فرحون) .

(٤) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمى : ولد سنة ٧١٦ . وتوفى سنة ٨٠٣ هـ وله تقييده الكبير فى مذهب مالك فى نحو عشرة أسفار .

(٥) للامام أبى زيد محمد بن عبد الله التلمسانى ابنان ، هما أبو زيد عبد الرحمن توفى سنة ٧٤٣ ، وأبو موسى عيسى ، توفى سنة ٧٤٩ هـ ، وهو المراد هنا .

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمسانى . ولد سنة ٧١٠ وتوفى سنة ٧٧١ هـ .

(٧) هو سعيد بن محمد بن محمد العقبانى التلمسانى . ولد سنة ٧٢٠ وتوفى سنة ٨١١ هـ

العقبانى (١) : رحمهم الله جميعاً .

قال ابن خلدون ، ولمن ذكرنا من أهل المئة الثامنة انتهت طريقة التعليم ، ومنكة التلقى . يعنى بذلك الشريف والعقبانى رحمهما الله . . لكونهما ألفا التصانيف البعيدة ، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع .

وكذلك بلغ رتبة التبريز فى تحصيل العلم ، كل واحد من ولديهما ، الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد ، والفقيه الأوحد السيد أبو يحيى الشريف (٢) ، إذ بلغا درجة الأمامية والفتيا . وأما الامام بن عرفة ، فانتفع به جماعة ، فكان أصحابه كأصحاب سحنون (٣) ، أئمة فى كل بلد . فمنهم أيضا من بلغ درجة التأليف ، ووقع الاتفاق على إمامته ، وتقدمه وسمو رتبته ، كشيخنا الامام الحافظ المحصل أبى القاسم ابن أحمد البرزلى ، مفتى البلاد الافريقية ، ومؤلف كتاب الاسئلة الحاوى للنوازل والفتاوى . ومنهم شيخنا الإمام الحافظ المجتهد ، صاحب التصانيف المفيدة ، أبو عبدالله محمد بن مرزوق ، وله «المنزع النبيل ، فى شرح مختصر خليل» ، وشرح التهذيب (٤) ، وغير ذلك من المسائل العلمية .

وإنما اقتصرت على ذكر هـــذين الشيخين الامامين ، لما لهما من

---

(١) هـ قاسم بن سعيد بن محمد توفى سنة ٨٥٤ هـ . يكنى أبا الفضل وأبا القاسم

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمسانى . ولد سنة ٧٥٧ ، وتوفى سنة ٨٢٦ هـ .

(٣) هو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، الفقيه المالكى المشهور . ولد سنة ١٦٠ وتوفى سنة ٢٤٠ هـ .

(٤) كتاب (التهذيب) لابى سعيد البراذعى ، من علماء القيروان ، لخص فيه مختصر المدونة والمختلطة لابن أبى زيد القيروانى ، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية ، وأخذوا به ، وتركوا ما سواه . (عن مقدمة ابن خلدون) .

لمشيخة على الكثيرين، ولشهرتهما بالتآلف، التى تقوم مقام الشاهد لما قلناه، حتى نبعد عن شبهة التعصب.

وأما من نجب من تلامذة شيخ الشيوخ ابن عرفة، وتمكن من ملكة التعليم فخلق يطول عددهم، فمنهم من أدركه ابن خلدون، وأخذه عنه، وأجازنا مروياته، و (منهم) من لم يدركه.

وهنا انتهت ملكة الفقه من علماء القيروان عن المازرى، إلى من ذكرنا.

وأما ملكة العلوم النظرية، فهى قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط. ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون (١) إلى المشرق، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب. ولازمهم زمانا، حتى تمكن من ملكة التعليم. وقدم إلى تونس. فانتفع به أهلها. وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور. واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة. وكذلك أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمسانى المذكور، ولهذا تجد أثر العلوم النظرية بتلمسان.

ولم يشاهد فى المئة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل (فى) جميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة، بل قصرت همهم على طريق تحصيل القرآن، ودرس (التهذيب) فقط، نعم أخذوا شيئا من مبادىء العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من سبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بنى مرين، ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرىء الكتاب (٢) كما هو متداول بين أهل الأندلس، مثل ابن أبى الربيع والشلوبين وغيرهما؛ لوجود ملكة النحو فى قطر الأندلس، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق، كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد فى تحصيل الفقه عن الأبهرى (٣)، وكذا يحى بن يحى عن مالك، وغيره واحد، وكذلك علوم الحديث وغيره، كرحلة الإمام الحافظ أبى بكر بن العربى.

---

(١) هو أبو القاسم القاسم بن أبى بكر الشهير بابن زيتون، الفقيه التونسى ولد سنة ٦٦٦، وتوفى سنة ٧٣٠ هـ. (٢) يريد كتاب سيبويه

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهرى، صاحب التصانيف فى شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه، سكن بغداد وحدث بها عن جماعه، وتوفى بها سنة ٣٩٥ هـ.

ابن حازم القرطاجنى

٦٠٨ — ٦٨٤ هـ

من أعلام المغرب من الأدباء ، وهو الشيخ حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الانصارى القرطاجنى النحوى ، أبو الحسن ، شيخ البلاغة والأدب(٢) ، قال أبو حيان : كان أوحد زمانه فى النظم ، والنثر ، والنحو ، واللغة ، والعروض ، وعلم البيان ، روى عن جماعة يقاربون الالف ، وروى عنه أبو حيان وابن رشيد وذكره فى رحلته ، فقال : حبر البلغاء ، وبحر الادباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لانعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقد علم البيان ماأحكم ، منقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمتفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حماد روايتها ، وحمال أوقارها ، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف ، وبراعة الخط ، ويضرب بسهم فى العقليات ، والدراية أغلب عليه من الرواية . صنف : سراج البلغاء فى البلاغة وكتابا فى القوافى ، وقصيدة فى النحو على روى الميم ، ذكر منها ابن هشام فى المغنى أبياتا فى المسألة الزنبورية .

وكان مولده سنة ثمان وستمائة ، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنه أربع وثمانين وستمائة . ومن شعره :

من قال حسبى من الورى بشر ... فحسبى الله حسبى الله
كم آية للإله شاهدة ... بأنه لا إله إلا هو

---

(١) ص ١٧٢ ج ٣ أزهار الرياض — بغية الوعاة للسيوطى

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية ، عربية المنزع ، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب ، والمشهورين من الفضلاء . عارض بها فى المعنى رائية ابن عمار (١) الوزير . للمعتمد بن عباد . وفضل غير واحد هذه الجيمية الحازمية على تلك الرائية العمارية :

أدر المدامة فالنسيم مؤرج ... والروض مرقوم البرود مدبج
والارض قد لبست برود جمالها ... فكأنما هى كاعب تتبرج
والنهر مما ارتاح معطفه إلى ... لقيا النسيم عبابه متموج
يمشى الأصيل بعسجدى شعاعه ... أبدا يوشى صفحه ويدبج
وتروم أيدى الريح تسلب ما اكتسى ... فتزيده حسنا بما هى تنسج

ولحازم كتاب (المناهج الأدبية) ومنه نسخة خطية بجامع الزيتونة يقوم الاديب التونسى الحبيب الجنحانى بتحقيقها ، ولحازم مخطوطات منها : قصيدة فى المدح تتضمن مسائل نحوية ، وديوان شعر ، وقد نشر الدكتور محمد مهدى علام دارسة لمقصورة حازم بعنوان ابو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الادب العربى . وذلك فى حوليات جامعة ابراهيم عام ١٩٥١

---

(١) مطلع رائية ابن عمار :
أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

ابن خلدون

٧٣٢ — ٨٠٨ هـ

هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد ، ينتهى نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون ، وأسرته من بنى وائل ، وقيل إنها هاجرت إلى الأندلس فى القرن الثالث .

ولد فى أول رمضان عام ٧٣٢ هـ بتونس ، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والرياسة ، وكان نزوحها من الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى من إشبيلية ونشأ عبد الرحمن فى تونس فى ظلال دولة الحفصيين ودولة بنى مرين بالمغرب وكان منهم السلطان أبو الحسن المرينى (٧٣١ — ٧٥٢ هـ) ، وابنه أبو عنان (٧٥٢-٧٥٨ هـ) ، ثم أبو سالم بن أبى الحسن المرينى (٧٥٨-٧٦٢ هـ) . وأكمل دراسته الاولى على والده ، وعلى بعض الاساتذة المشهورين ، ولكن أو باء الكبير الذى اجتاح البلاد قضى على أسرته فى المغرب ، فحزن لذلك حزناً شديداً ، واشتغل بالكتابة ، فدعاه السلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١ هـ ليتولى له كتابة « العلامة (١) » ، وقربه إليه ، ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبى عنان المرينى ملك المغرب الاقصى عام ٧٥٥ هـ . فتولى له الكتابة والتوقيع حينا ، ثم اتهم بالتآمر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبى عثمان ، ورد إلى وظائفه ، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطة المظالم للسلطان لأبى سالم ابن أبى الحسن المرينى ، فأظهر كفاية وإخلاصا ، ولاذ بالسلطان أبى سالم فى هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، بعد أن اغتصب العرش منه ، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين ، ثم توفى السلطان أبى سالم سنة ٧٦٢ هـ ، ولم يلبث ملك الأندلس أن استرد عرشه . فرحل ابن خلدون إلى الاندلس عام ٧٦٤ هـ ، وأقام فى العاصمة غرناطة

---

(١) هى التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان .

مشمولا بعطف ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب ، وأرسله فى سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية ، فقام بها خير قيام ، بيد أن فتور العلاقة بينه وبين ابن الخطيب كان باعثا له على الخروج من الاندلس عام ٧٦٦ هـ ، حيث تولى الحجابة لأمير « بجاية » ولكن عرش هذا الامير لم يلبث أن اغتصبه مغتصب ، فظل ابن خلدون يتنقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير ، حتى حيكت حوله المؤامرات ففر إلى الاندلس مهاجراً إليها مرة أخرى عام ٧٧٦ هـ ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الاقصى كان مثارا لمشكلات سياسية بين ملك بنى الاحمر فى غرناطة وبنى مرين فى فاس بالمغرب الاقصى ، وقد انتهت الاحداث بقتل ابن الخطيب فى فاس وبطرد ابن خلدون من الاندلس .

عاد ابن خلدون إلى المغرب الاقصى ، ملتجئا إلى أحياء شريف بتلمسان ، حيث أقام يؤلف كتابه التاريخى الكبير ، وهو كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠ هـ ، فأتم كتابه ، ورفعه إلى سلطان تونس أبى العباس الحفصى عام ٧٨٣ هـ ، وقربه السلطان إليه ، ولكن الوشايات عادت تحوك حوله الدسائس من جديد ، فعزم على الرحلة إلى المشرق ، مستأذنا من السلطان فى السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أقلته إلى الاسكندرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة ، فوصلها عام ٧٨٤ هـ ، وأخذ ابن خلدون يلقى دروسه فى مذهب مالك فى الازهر الشريف ، واتصل ببرقوق رأس دولة « المماليك البرجية » ، الذى حكم مصر سبعة عشر عاماً (٧٨٤ — ٨٠١ هـ) وولاه التدريس فى المدرسة القمحية المالكية بجوار جامع عمرو ، وتولى قضاء المالكية أيضاً ، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته ، ولكنها غرقت بها السفينة التى كانت فيها ، ولم ينج أحد ، فعظم حزن ابن خلدون لذلك .

كان وجود ابن خلدون فى مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها . مثار دسائس وأحقاد بينه وبين علمـــاء عصره الذين كانوا يتطلعون لهذا المنصب ، واضطرب الافق حوله ، وعزل عن القضاء ، فاستأذن من برقوق فى الحج فأذن له ، وعاد بعد الحج فعينه برقوق أستاذاً فى المدرسة الصرغتمشية — شمال جامع ابن طولون ، ثم عينه شيخا لخانقاه بيبرس ، وانقطع إلى التدريس والتعليم . يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب . حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء

وظل فيه إلى أن توفى برقوق عام ٨٠١ هـ ، وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء .

فى هذه الاثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق ، ويعيث فى بلاده فسادا ، ودخل الشام ، فخرج فرج للقائه ، وخرج معه ابن خلدون ، ولكن فرج رجع مسرعاً ليقضى على ثورة سياسية قامت فى مصر ، وأقام الجيش حيث هو ، وأقام مع الجيش ابن خلدون ، ثم انتصر جيش تيمورلنك ، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض فى شروط الصلح ، وفى تسليم دمشق بعد أن أنهكها الحصار . . وكما عاد ابن خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة ، ثم عزل عام ٨٠٤ هـ ، واستمر بين ولاية لقضاء المالكية وعزل منه ، حتى تولاه لسادس مرة عام ٨٠٨ هـ ، فلبث فيه ستة أسابيع توفى بعدها فى آخر رمضان عام ٨٠٨ هـ ، ودفن فى مقبرة الصوفية فى العباسية خارج باب النصر .

ولابن خلدون كتابه التاريخى العظيم ، ومقدمته الرائعة ، الخالدة ، وقد انقطع عام ٧٧٧ لتأليف تاريخه فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، وأقام سنين يكتب فى مقدمته التى أتمها عام ٧٧٩ هـ ، وفى بعض فصول الكتاب التاريخية ، ثم كتب فصولا أخرى منه فى تونس وفى القاهرة ، وانتهى أخيراً من الكتاب فى القاهرة عام ٧٩٧ هـ ، وسماه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب . وأشار فى المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، ونقد أخطاء المؤرخين وأغاليطهم ، أما الكتاب الاول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من علل وأسباب ، والكتاب الثانى فى أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره ، مشيراً إلى الدول التى عاصرتهم ، وسرد فى الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وقبائلهم ، وهذا القسم الاخير هو أهم أقسام الكتاب (١) ، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الاقصى أبى فارس المرينى ، الذى تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام (٧٩٦ — ٧٩٩ هـ) ، والكتاب سبعة مجلدات ، والمجلد الاول منها فى

---

(١) وهو ما قصده ابن خلدون كما يذكر فى المقدمة (ص ٣٢ المقدمة طبعة سنة ١٢٢٠ هـ) .

فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة ، والستة الباقية فى تاريخ العرب والعجم والبربر .

وقد خلدت هذه المقدمة النفيسة ابن خلدون . ورفعته إلى مصاف الفلاسفة الملهمين ، وبوأته فى تاريخ التراث الفكرى الإسلامى مكاناً رفيعاً ، ويعجب علماء المغرب وفلاسفته بالمقدمة ، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكر لعلم الاجتماع ، وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعى والسياسى وفلسفة التاريخ والقانون العام ، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون . فترجموا المقدمة إلى لغاتهم ، وطبعت فى القاهرة لأول مرة منذ حوالى تسعين عاما ، وكان لابن خلدون وأسلوبه فى المقدمة أثر واضح فى أساليب الكتاب والأدباء فى مصر منذ ذلك الحين ، وفى عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون ، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الاستاذ محمد عبد الله عنان كتاباً عنه .

ولاشك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التى هى مثل للمفكر والمؤرخ السياسى والرجل السياسى أيضاً ، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب ، وتوليه أعظم المناصب فيها ، وتقلبه شاباً ورجلا وكهلا فى الاحداث السياسية ، كل هذا خلق منه سياسياً داهية ، وهو أيضاً مما عاون الرجل على إخراج مقدمته النفيسة ، والمسائل التى عالجها ابن خلدون فى المقدمة ذات دقة متناهية ، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولها بالتأليف على هذا النمط والأسلوب ، وهو ينبه فى المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « علم مستقل » ابتكره وابتدعه ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف فى معناه ، وإن كان بعض الابحديات التى ذكرها فى المقدمة قد تجرى لأهل العلوم بالعرض فى براهين علومهم ، مثل ما يذكره الحكماء فى إثبات النبوة من أن البشر متفاوتون فى وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم . ومثل مايذكر فى أصول الفقه من أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات ، ومثل ما ورد فى حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو فى السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطرطوشى ، فقد

حوم فيه وبوبه على أبواب تشابه أبواب المقدمة ولكنه لم يستوف المسائل ، بل يبوب الباب للمسألة فيستكثر من الأحاديث والحكم بدون تحقيق ، فهو نقل وترغيب أشبه بالمواعظ ، وكان حوم على الغرض فلم يدركه .. وابن خلدون يؤكد أن المسائل التى ورد ذكرها فى المقدمة قد ألهمه الله إياها إلهاما ، فهو الذى نهج للباحثين فيها السبيل ، ووضح لهم الطريق .

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته التاريخ فيصفه بأنه « خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتحله البشر من صناعات ومعارف ، ويحدده فى موضع آخر بأنه « ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل » فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ ، وإن كان المسعودى وسواه يفرده بالتأليف .

ويشرح ابن خلدون فى مقدمته نظريات عديدة ، منها أن الانسان مدنى بالطبع ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وأن الترف يقضى عندما يستشرى فى جسم الأمة عليها ، ويسير بالدولة إلى الهرم والشيخوخة ، وأن العسف مضر بالملك مفسد له ، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران ، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل أخرى تدعو إلى تجدد الدولة ، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران ومؤذنة بفساده ، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة ، وسوى ذلك من عديد النظريات .

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحى على الرسل والانبياء ، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام ، وكلامه فى ذلك يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد ، ولابن خلدون رأى فى العرب عجيب ، فهو يذهب الى أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب ، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية ، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وهم أبعد الناس عن الصنائع ، وأن مبانيهم يسرع إليها الفساد ، وحملة العلم فى الاسلام عجم ، وهذا الرأى الغريب حير الباحثين فى تراث ابن خلدون الفكرى ؛ فعللوه بأسباب مختلفة متناقضة ، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول أن ابن خلدون يريد بالعرب البدو فى أى مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحيانا (١)

---

(١) ص ١١٥ المقدمة ط ١٣٢٠ هـ

لاعرب الجزيرة العربية خاصة ، وهذا الرأي محتاج الى إثبات السر فى ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للفظة عرب. والثانى أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم ، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب فى جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون ، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين من نفوسهم ، وكأنه يريد التعميم فى أحوالهم ، فان العرب حين تمسكهم باسلامهم وشريعتهم ، كانوا كما نعرف عدلا وسياسة وإصلاحا ونبل حكم ، وفى هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مغلوبون لأهل الامصار . أو يذكر ابن خلدون أحوال الموالى والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته فى نفوذه وألقابه، وآراء ابن خلدون فى الفصل الخامس فى المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة فى الاقتصاد السياسى والاجتماعى ، وقد اقتبس منها كارل ماركس فى كتابه « رأس المال » ومن آراء ابن خلدون فى المقدمة :

١ — أن النقد التاريخى هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه، فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه ، ومالا يجوز فيه رفضناه .

٢ — أصول التوحيد هى عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه ، وهنا يذكر ابن خلدون أن العقل معزول عن الشرع لان مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نظافتها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهى فوقها محيطة بها ، لاستمدادها من الانوار الالهية (١) ، ويأخذ فى ذم الفلسفة وتحللها ، ولاشك ان ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الاسلامى فى عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها وللعنف فى البطش بكل من عرف عنه أنه محب لها ، ولانخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم ، فأفكاره فى المقدمة أفكار فلسفية عميقة ، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارف قدرها ، ويبدو أنه كان يقصد التمويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لايتهم بالإلحاد والكفر ، ويعرض نفسه لمحن لاداعى لها ، بل ان المقدمة نفسها لون من ألوان الفلسفة فى عصرنا الراهن ، ولاشك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والإنسانية جمعاء . وكان يعاصره من أعلام تونس ومفكريها : أبو عبدالله بن مرزوق من أدباء القرن الثامن الهجرى وسواه..

(١) راجع ص ٤٦٩ المقدمة .

ابن بطوطة

— ١ —

عنى العرب فى القرون الوسطى بالأسفار والرحلات وارتياد المناطق البعيدة واكتشاف مجاهل الطرق . وكانت عنايتهم بهذه الناحية شديدة جدا ، بحيث لاتقل عن الهمة التى بذلها رواد العصر الحاضر من الأوربيين ممن وقفوا حياتهم على الأسفار ، ولا سيما إذا راعينا وفرة السبل وتنوع وسائل النقل وقلة ما يتعرض له المسافر اليوم من مصاعب وأخطار . وفى الحقيقة أن تلك العناية وهذه الهمة اللتين لمسنا آثارهما فى ثنايا التاريخ ليستا بالأمر الغريب نظرا إلى طبائع العرب وجبلتهم التى أورثتها إياهم البيئة الصحراوية التى نشأوا فيها ، فالعربى بحكم فطرته الأصلية ميال إلى التنقل شغوف بالرحلة والتجوال . ولعل من الطريف أن نشير هنا إلى ما ذهب إليه أحد علماء فقه اللغة فى اشتقاق كلمة « عرب » ، فقد ذهب هذا الباحث إلى أنها مأخوذة عن كلمة « عبر » ، وذلك للدلالة على العبور والتنقل وعدم الاستقرار فى مكان خاص .

لقد بدأ نشاط العرب فى الرحلات منذ أوائل القرن العاشر للميلاد ولدينا سجل ضخم بأسماء الرجال الذين تركوا أوطانهم وساحوا فى الأرض فى حدود المملكة الإسلامية وفيما وراء حدود المملكة الإسلامية ، مما كانوا يطلقون عليه إذ ذاك اسم « مملكة الكفار » ، وقد ترك لنا أولئك الرجال أسفارا قيمة دونوا ما شاهدوه من العجائب والغرائب مما راق لهم من أحوال الأمم وتقاليدها وعاداتها المختلفة . ومن أقدم أولئك الرحالين : أبو دلف واليعقوبى وقدامة والبلخى وابن حوقل وهؤلاء كلهم من رجال القرن العاشر ، ويلى هؤلاء طبقة أخرى منهم ياقوت الرومى وأبو عبيد البكرى وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة وهذا الأخير من رجال القرن الرابع عشر للميلاد .

لم يكن هذا النشاط الذى بدأ ظهوره فى القرن العاشر نتيجة للمصادفة والاتفاق ، وإنما هو وليد ظروف سياسية خاصة رافقت حياة العرب فى ذلك العصر ، فقد كان العالم العربى الإسلامى فى تلك الفترة بلغ غايته من التوسع ، وامتد حتى شمل

أهم أقطار آسيا والساحل الشمالى لأفريقيا وبعض أقسام أوربا ، وهذا العالم الواسع مع تباعد أطرافه كان يموج بالأجناس والألوان والعصبيات المختلفة ، ولذا كان هم الخلفاء والولاة ومن بيدهم مقاليد الأمور أن يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتباعدة وتصل بعضها ببعض بحيث يمكن القضاء ولو على بعض الفروق ، وتخفيف حدة تلك العصبيات وتوجيه الناس إلى غاية واحدة ، فرأوا فى الأسفار خير واسطة لربط تلك الأجزاء وإنشاء صلات بينها ، ثم إن الأسفار تمكنهم من دراسة المناطق البعيدة دراسة نافعة تهيىء لهم الطريق إلى معالجة المشكلات التى تحدث فيها والتى يتعذر القضاء عليها بدون إلمام بأحوال تلك البلاد . أضف إلى ذلك أن العالم العربى الإسلامى كان يشعر بالرغبة فى التقارب بين أجزائه ، وكان كل فرد من أفراد المملكة الإسلامية يحن إلى الاتصال بالممالك البعيدة ، ويود من صميم القلب لو يعرف ما عليه إخوانه الذين تربطهم وإياه الروابط المتينة ، هذا الشعور الجمعى كان من جملة البواعث التى حركت فى الناس الرغبة فى السفر من حين إلى آخر .

على أن هناك غير واحد من العلماء الذين ساقتهم غريزة حب الاستطلاع ، فطافوا فى العالم لمجرد الوقوف على أحواله ودراسة شعوبه المختلفة : منهم العلامة المسعودى صاحب كتاب « مروج الذهب » الذى ساح فى بلاد فارس والهند والصين ، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين سنة . ومنهم الفيلسوف الفلكى البيرونى الذى توغل فى الهند وترك لنا كتابه القيم « تاريخ الهند » .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك الرحلات التجارية التى قام بها التجار ، وهؤلاء وإن لم يستهدفوا فى رحلاتهم درس البلاد التى وصلوا إليها إلا أنهم أفادوا على التاريخ والجغرافيا ، بتخطيطهم المدن وذكرهم عدد السكان والحاصلات والطرق التجارية . وهذا ما نلاحظه فى رسائل ياقوت صاحب كتاب « معجم الأدباء » .

أما الرحلة لأداء فريضة الحج فهى دين المسلمين فى جميع العصور ، وذلك لأن الرغبة فى زيارة الأماكن المقدسة أمنية كل مسلم يرجو الثواب فى الآخرة ، ولذا كان المسلمون فى كل عام يحجون فرادى وجماعات إلى الكعبة وإلى غيرها من الأماكن المقدسة ، كالقدس وقبور الأئمة فى العراق وغيرها ، وهم فى طريقهم إليها يزورون البلاد ويتعرفون ما عليه الناس وقد يمكث أحدهم مدة طويلة من الزمن

ثم يعود إلى بلاده . والحقيقة أن الشرق الأدنى كان فى العصور الوسطى هدفا لكثير من الزوار الذين كانوا يفدون إليه لا لغرض التبرك بالأماكن المقدسة فحسب ، بل لتلقى العلم والتزود من الثقافة مع ذلك . وكان معظم هؤلاء الوافدين من الأندلس ومن شمالى أفريقيا ، حتى قال ابن خلدون : «أهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالى أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الاولى وأن نفوسهم الناطقه أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع ، فالذى حدا بالناس إلى الرحلة إلى هذه المناطق يرجع إلى تمكن الناس هنا من لغة القرآن ومن الثقافة الإسلامية والثقافة اليونانية القديمة .

وذلك يوم أخذت الكنيسة الشرقية تطارد العلماء وتعتبر فلسفتهم خطرا يتهدد المسيحية على نحو ما فعله جستنيان بمدارس أثينا ، فإن أولئك العلماء الذين وسموهم بالوثنيين والزنادقة والذين اعتبروا كتبهم من نوع الهرطقة والإلحاد ، لجأوا إلى الشرق الأدنى وتوطنوا فى سوريا والعراق وأسسوا فيه عددا كثيرا من المدارس . ولما فتح العرب هذه البلاد حافظوا على تلك المدارس وشجعوها ، لا سيما أيام المأمون الخليفة العباسى .

— ٢ —

ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة عام ٧٠٣ هـ - ١٣٠٤ م من أسرة دينية عريقة فى الاشتغال بالعلوم الشرعية وينتهى نسبها إلى قبيلة لواتة ، إحدى قبائل العرب التى كانت فى وقت ما فى بلاد برقة بين مصر وطرابلس . أما ثقافته فلم تكن تتجاوز العلوم الدينية والأدب وممارسة بعض الشعر واللغة الفارسية ، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أى عام ٧٢٥هـ - ١٣٢٦ م خرج فى وفد من الحاج إلى مكة ، ومنها قطع طريق البادية إلى العراق ، وظل يتنقل فى بلاد العرب وفارس وتركيا والهند والصين زهاء ربع قرن ، حج خلال هذه المدة أربع مرات ، وتزوج كثيراً من النساء . وفى سنة ٧٥٠ م - ١٣٤٩ م ، عاد إلى طنجة وكانت بلاد المغرب فى تلك الفترة تحت سلطان بنى مرين الذين كانوا يعطفون على العلماء والشعراء ويجزلون لهم العطاء ، فلاذ ابن بطوطة بأبى عنان أمير مراكش وصار من جملة حاشيته وكان

يقص فى مجالسه على الناس ما رآه فى أسفاره ، فطلب إليه الأمير أن يدون رحلته فأملاها على كاتب الأمير الفقيه محمد بن جزى الكلبى ، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٣ م وسماها « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار » وعاش ابن بطوطة فى بلاد فاس حتى توفى سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م .

يكاد يجمع المؤرخون على أن الدافع الذى حمل ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلة هو الحج ، وأنه لما وصل إلى مكة والتقى بالحاج حصلت له فكرة الطواف حول العالم ، وهم يستدلون على ذلك بقوله : « وكان خروجى من طنجة معتمداً حج بيت الله الحرام » ثم أنه لم يكن متأهباً للسفر الطويل . بيد أنه يلوح لى ابن بطوطة لم يكن يوم خروجه من طنجة بعيداً عن فكرة الطواف حول العالم ، إن لم تكن هذه الفكرة الهدف الرئيسى الذى كان يرمى إليه أولا . لا ينكر أن الحج كان فى نظره غاية سامية باعتباره مسلماً شديداً الايمان والثقة بالله ، لكن لا مانع من أن يكون هذا الايمان البالغ المتمكن من نفسه بعض ما كان يرومه من تلك الرحلة والدليل على ذلك ما رواه ابن بطوطة نفسه فقد حدث أنه نزل فى مصر ضيفاً عند أحد علماء الاسكندرية المسمى « برهان الدين » ثلاثة أيام ، فتوسم فيه برهان الدين حب التجوال ، وأوصاه بأنه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين أن يزور أفراداً سماهم له ، ثم ما رواه ابن بطوطة نفسه أيضا من أنه زار وهو فى طريقه إلى القاهرة أحد الاولياء الصالحين الذى كان مقيما بقرية « قبالة » بلدة « فوه » على النيل ، فرأى فى منامه وهو عنده أنه زار مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند . وأما أنه لم يتخذ الاهبة الكافية لهذا السفر الطويل ففى الحقيقة أن ابن بطوطة لم يتأهب حتى بالنسبة إلى الحج ، إذ كان جل اعتماده على الهبات والعطايا يوم فارق طنجة . ولعل عدم التأهب هذا يعتبر دليلا على أنه كان ينوى السفر الطويل من أول الامر . إذ يتعذر على مثل ابن بطوطة الذى عرفنا حاله من الفقر والفاقة أن يطوف حول العالم ، ويعد ما يكفيه من المال والزاد لمثل هذا السفر الطويل الشاق .

تعتبر رحلة ابن بطوطة من أهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة إلى حياة الامم الشرقية فى القرون الوسطى ، وهى ليست بأول مشروع من نوعه فى هذا الصدد كما نعلم ، لقد قام « مركو بولو » الايطالى برحلة فى الشرق قبل « ابن بطوطة » بنصف قرن تقريبا ودون مشاهداته إلا أن ابن بطوطة لم يطلع على تلك الرحلة .

والذى يميز رحلة ابن بطوطة هو أنها رسمت لنا صورة واضحة للشعوب التى كانت تتكلم فى ذلك الوقت اللغة الفارسية كايران والهند ، وذلك راجع إلى تمكن ابن بطوطة من هذه اللغة ، فى حين أن رحلة « ماركو بولو » تمتاز بناحية أخرى وهى أنها عرفتنا حالة الدول المغولية التى كانت تبسط نفوذها من شواطىء المحيط الهادى إلى ماوراء نهر الفولغا بشكل أوضح مما ذكره ابن بطوطة . وسبب ذلك راجع إلى معرفة « ماركو بولو » اللغة المغولية ، الأمر الذى ساعده مساعدة كلية على فهم حالة أولئك الأقوام . والحقيقة أن هاتين الرحلتين تعتبر إحداهما مكملة للاخرى .

لقد أيد «فريسكو بالدى» الرحالة الإيطالى الذى ساح فى الشرق بعد ابن بطوطة بأكثر من نصف قرن ماورواه ابن بطوطة فى رحلته ، ومع هذا يقول «ابن خلدون» : ورد بالمغرب لعهد السلطان «أبى عنان» رجل من مشيخة طنجة يعرف «بابن بطوطة» كان رحل منذ عشرين سنة إلى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب ، فتناجى الناس بتكذيبه .

ونلاحظ أن ابن بطوطة فى رحلته الثانية خرج من طنجة عام ٧٢٥هـ - ١٣٢٦م للحج فمر بمصر والشام ومكة ثم العراق واليمن وجدة ، ثم الصومال وأريتريا ، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى آسيا الصغرى والأناضول ثم الهند وسيلان وأطراف من الصين وسيلان ، ثم عاد إلى الشام فالقاهرة فى عهد السلطان حسن قلاوون ودخل مدينة فاس عام ٧٥٠ هـ ، ثم ذهب إلى طنجة وقام من طنجة برحلة إلى الأندلس ، ثم عاد منها ، وقام برحلة أخرى إلى السودان عام ٧٥٣هـ ، وعاد منها إلى سجلماسة عام ٧٥٥ هـ

اللغة العربية فى بلاد المغرب

لم تنتشر اللغة العربية إلا بين العرب فى المدن الكبرى، التى تنتظم المدارس والجامعات والمساجد وعواصم الملك ، أما خارج المدن ، فأكثر السكان من البربر ، وهؤلاء لم يتعود لسانهم العربية ، ولم ينطق بها ، ومن ثم كان البربر بعيدين عن اللسان العربى بعدا كبيرا.

يقول باحث (١) :

ولشدة العجمة فى لسان البربر : لم تحسن استفادتهم ممن عاشرهم ،وقام بتعليمهم من الراحلين إليهم من الأندلس وغيرها ، وقدضرب ابن خلدون المثل بالبربر فى قلة استفادة الأعجمى من اللسان العربى ، إذا كان معرقا فى العجمة ، قال : « وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق فى العجمة وأبعد عن لسان مضر ، قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية ، وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ ، واعتبر ذلك فى أهل الأمصار ، فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق فى العجمة وأبعد عن اللسان الأول ، كان لهم قصور تام فى تحصيل ملكته بالتعليم» . ولقد نقل ابن الرقيق (٢) أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له (٣) : « يا أخى ومن لا عدمت فقده قد أعلمنى أبو سعيد كلاماً ، أنك ذكرت أنك تكون مع الذين تأتى وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين ، فقد كذبوا ، هذا باطل ليس من هذا حرفاً واحداً ، وكتابى إليك ، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله ».(٤) وقد مر ما كان من أمر يوسف بن تاشفين لما قدم الأندلس لمعونة المعتمد بن عباد ، وجعل الشعراء ينشدونه أشعارهم ، قال له ابن عباد : أيعلم أمير المسلمين مايقول هؤلاء ؟ قال لا أعلم ،ولكنهم يطلبون الخير !! وأنه لما عاد يوسف هذا إلى المغرب، كتب إليه المعتمد رسالة ورد فيها البيتان :

---

(١) ١٧٣ / ٣ الأدب العربى وتاريخه ـ محمود مصطفى

(٢) ابن الرقيق شاعر من أهل القيروان كان يتكسب بالكتابة فى دواوين الانشاء ، وله كتب منها (تاريخ إفريقية) مات سنه ٤٠٠ هـ .

(٣) راجع ١٤ / ٢ نفح الطيب (٤) الرسالة غنية بالخطأ والعامية

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضا لياليا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سوداً وبيضاً؟ فقال له : لا يا مولانا ! ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن أيام الحزن سود ، فقال: والله جيداً ! . أكتب له جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده !....

وكان أبو العباس الجزاوى أشعر شعراء المغرب الأقصى فى وقته. وله يمدح ملكا:

إذا كان أملاك الزمان أراقما فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

وقد نبغ من أهل المغرب أنفسهم : علماء وكتاب وشعراء ، سامى بعضهم أمثالهم بالأندلس . ولكنهم قليلون لا يصح أن ينسب فضلهم إلى بيئتهم ، وإنما ينسب إلى امتياز ملكاتهم، بما وهبهم الله من خصائص فى الإدراك، وإلى ظروف أخرى أحاطت بهم ، فابن خلدون منهم ، وهو هذا العالم العالمى ذو النظريات التى مرت عليها السنون، وهى باقية تدل على غور إدراكه ، وبعد تصوره وصدق تقديره ، ولكنك لا تجد من بعده نظيره فى فضله ، أو من يقع قريباً منه من أهل هذه البلاد فى جميع أطوارها.

ومن أدباء أهل المغرب ، أبو إسحق ابراهيم التلسانى الأنصارى، الكاتب الشاعر، الرحالة الذى دخل مصر والشام وغيرهما . ومات بسبته سنة ٦٩٠ هـ .

النثر الأدبى

كانت الكتابة وهى أهم ألوان الادب زمن الولاة مقصورة على الامراء والعلماء حتى تخرج فى الفصاحة الموالى من البربر فشاركوهم فيها ، ولما رسخ سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الاقصى ودولة الاغالبة فى المغربين الاوسط والادنى أصبحت الكتابة صناعة اقتدى الكتاب فيها بكتاب الاندلس غربا وبكتاب المشرق شرقاً ففشا فيها السجع والتأنق فى المجاز والاستعارة . وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيوش وأمراء الاساطيل . ومن أشهر كتاب عصر الصنهاجيين : على بن أبى الرجال ، وابن رشيق ، وابن شرف ، وابن القزاز . ولما قامت دولة المرابطين

جدوا فى استدعاء الكثير من أعيان كتاب الاندلس حتى اجتمع فى بلادهم من العدوة الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف فى الاندلس ، وأشهرهم : أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون فنشروا طريقة الاندلسيين فى الكتابة وتخرج عليهم كثيرون ، ونبغ منهم فى دولة الموحدين ابن عياش ، وابن محشوة ، وابن الميمون ، ثم اضمحل أمر الكتابة بالتدريج حتى أصبحت مجرد سجع قليل البلاغة متكلف التقفية .

وهذا فصل من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله ابراهيم حد خلفاء الموحدين إلى بعض نوابه وقد نقض العهد على بعض المهادنين من النصارى قال بعد الديباجة : وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى والزيادة على ذلك باختطاف الاسارى ، ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلا ونخوة تعقب هوانا وذلا . وقد أخطأتم فى فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه :

أحدها أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد .

الثانى : عصيان الأمر العزيز وفيه التغرير بالمهج ، وترك السعة للحرج .

الثالث : أنكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم - قصمه الله - شرراً يستعرض ضراما يعدم فيه المنتصر ، فليتكم إذ تحليتم بالعصيان ، ورضيتم الغدر المحرم فى سائر الأديان ، ثبتم للعدو إذ دهمكم ، ولقيتموه بالجانب القوى حين زحمكم . فإذا وافاكم كتابنا هـذا بحول الله وقوته فأدوا من أسرتم إلى مأمنه ، وردوا ما انتهبتم إلى مسرحه ، ولا تمسكوا من الأسارى بشعرة ، ولا من الماشية بوبرة ، ومن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم ، وخالف هذا الحكم ، أنفذنا عليه الواجب وحكمنا فيه المهند الغاضب . فلتسرع من نومة الغفلة إفاقتكم ، ولا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم . ونحن متعرفون ما يكون منكم من تأن أو بدار ، ومقابلون لكم بما يصدر عنكم من إقرار وإنكار ، وهو يرشدكم بمنه .

الشعر العربى

ينتقل الشعر مع العرب أينما نزلوا ؛ ولكنه لا يصير صناعة عتيدة يتوافر عليها أناس يكتسبون بها إلا حيثما تكثر جمهرة العرب : بتأثل ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغا أشده فى ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامى، حتى إذا توطدت للعلويين الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى ،وللأغالبة التميميين دولة بافريقية من قبل العباسيين ،جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فهم العلماء والأدباء والشعراء والنحاة فغرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابتة طلبت العلم من معادنه ، ورحلت إلى المشرق فنمت تلك الغراس وأينعت ثمارها زمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلافها من الصنهاجيين ، ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمتونة والموحدين من المصامدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتاب والشعراء من مراكش وفارس وتونس ، فكانت منهم فى المغرب صورة أندلسية فى كل العلوم والآداب والشعر .

ولكن الشعر لم يصل فى جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التى سما إليها فى الأندلس وإن نبغ فيه فى بعض العصور من لا يقل عن الأندلسيين بلاغة قول ، وبداعة تصور ، وروعة وصف ، كعلى الأيادى والحصرى وابن رشيق القيروانى وابن شرف القيروانى وابن حمديس الصقلى وغيرهم ، وقد حاكى شعراء المغرب الأندلسيين فى التوشيح والزجل ،وراج بينهم بعيد اكتساح بدو المشرق من: رياح وجشم وهلال وسليم لإفريقية ، ضرب من الشعر العامى على شكل القصائد العربية الفصيحة من الأوزان والتزام قافية واحدة فى القصيدة ، وربما أتوا بمربعات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب، وتسمى هذه القصائد فى المغرب بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى الراوية الشهير وأكثرما تكون من بحر الطويل ، ويأتى الشاعر فيها أولا على ذكر اسمه ثم يتبعه بالنسيب أو بالدخول على الغرض

ومن شعرائهم ، عبد الجبار بن حمديس الصقلى(١) ، المشهور بوصف المصانع

---

(١) هو عربى الأصل ، يتصل نسبه بالأزد إحدى قبائل كهلان من عرب اليمن.

والحدائق والقصور ، وسيمر بك شئ من شعره ، وقد توفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة . ومنهم ابن شرف القيروانى (١) . الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالجودة والطبع ، الذى كان قرين ابن رشيق فى خدمة المعز بن باديس ومنادمته ، وقد رحل إلى الأندلس بعد موت المعز ، وتوفى سنة ٤٦٠ هـ بالمرية ، ومن شعره ، وكان يشوبه بالبديع وخاصة الجناس :

إن تدعك الغربة فى معشر ... قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت فى دارهم ... وأرضهم ما دمت فى أرضهم

ومنهم ابن رشيق القيروانى ، وهو من موالى الأزد ، كان أبوه رومياً صائغاً ، فتعلم ابنه الأدب ، وألف فيه كتابه « العمدة » الذى لم يؤلف مثله فى نقد الشعر ، وكان من كتاب المعز بن باديس ، وقد توفى بجزيرة صقلية سنة ٤٥٦ هـ ، ومن شعره :

فى الناس من لا يرتجى نفعه ... إلا إذ مس باضرار
كالعود لا تطمع فى طيبه ... إن أنت لم تمسسه بالنار

وقوله :

أحب أخى وإن أعرضت عنه ... وقل على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض ... كما قطبت فى وجه المدام
ورب تجهم من غير بغض ... وضغن كامن تحت ابتسام

ومنهم ابراهيم بن على الحصرى القيروانى ، صاحب « زهر الآداب » وغيره المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ومن شعره قوله :

كتمت هواك حتى عيل صبرى ... وأدتنى مكاتمتى لرمسى
ولم أقدر على إخفاء حال ... يحول بها الأسى دون التأسى
وحبك مالك لحظى ولفظى ... وإظهارى وإضمارى وحسى

---

(١) هو عربى من قبيلة جذام اليمنية .

ومنهم أيضا . أبو الحسن على بن على عبد الغنى الفهرى المقرى الضرير القيروانى ، المعروف بالحصرى ، ذكر ابن بسام فى الذخيرة أنه « بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وقد طرأ على الأندلس فى منتصف المائة الخامسة ، وتوفى سنة ٤٨٨هـ بطنجة من بلاد المغرب ، وهو رقيق الشعر.. أشهر شعره داليته ، التى افتتن الشعراء بها ، وعارضوها فى كل زمن .

ابن رشيق القيروانى

٣٩٠ — ٤٦٣ هـ

كان من أدباء القيروان وشعرائها وأحد البلغاء والنقاد ، واسمه الحسن بن رشيق ولد بالمسيلة وقيل ولد بالمهدية ، وأبوه مملوك رومى من موالى الازد ، كان صائغا فعلمه ابوه صنعته وقرأ الادب وقال الشعر ، وتاقت نفسه الى التزيد منه وملاقاة اهل الادب ؛ فرحل الى القيروان عام ٤٠٦ هـ ، ومدح صاحبها وطارت شهرته بها ، ولما هجم العرب على القيروان وخربوها انتقل الى صقلية وأقام فى مازر إحدى قراها حتى توفى عام ٤٥٦ هـ ، وقيل عام ٤٦٣ هـ

وكان بينه وبين عبد الله بن أبى سعيد بن احمد المعروف بابن شرف القيروانى مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل فى الردعليه منهارسالة سماهاساجور الكلب ورسالة نجح الطلب، ورسالة قطع الانفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الاشكال ودفع المحال . وله كتاب أنموذج الشعراء فى شعراء القيروان ورسالة قراضة الذهب ، والعمدة فى معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو كتاب جيد وغيرذلك . . قال صاحب الوافى: وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره فى الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره فى النقد ، وله كتاب فى شذوذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها . . ومن شعره :

أحب أخى وان أعرضت عنه ... وقل على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض ... كما قطبت فى وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض ... وبغض كامن تحت ابتسام

ومنه :اذا ما خففت لعهد الصبا ... أبت ذلك الخمس والاربعونا
وما ثقلت كبراً وطأتى ... ولكن أجر ورائى السنينا

ومنه وقائلة ماذاالشحوب وذا الضنا ... فقلت لها قول المشوق المتيم

هواك أتانى وهو ضيف أعزه فأطعمته لحمى وأسقيته دمى

ومنه : ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران

ومشت فلا والله ماحقف النقا بما أرتك ولا قضيب البان

وثن الملاحة غير أن ديانتى تأبى على عبادة الأوثان

ومنها فى المديح

يابن الاعزة من أكابر حمير وسلالة الاملاك من قحطان

من كل أبلج آمر بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان

ومن شعره :

فى الناس من لايرتجى نفعه الا اذا مس باضرار

كالعود لا يطمع فى طيبه الا اذا أحرق بالنار

ومنه : أقول كالمأسور فى ليلة ألفت على الآفاق كلكالها

يا ليلة الهجر التى ليلها قطع سيف الهجر أوصالها

ماأحسنت جملا ولا أجملت هذا وليس الحسن الا لها

ومنه : ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا

خلونابها ننفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوة ذهبا سكبا

وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

قال الابيوردى وماهذا بأحسن من قول ابن المعتز :

كم من عناق لنا ومن قبل مختلسات حذار مرتقب

نقر العصافير وهى خائفة من النواطير يانع الرطب

ومقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق لان ابن رشيق ذكر أنه فى ليلة أمن وهى عنده من حسنات الدهر فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع الامن بالتقاط الطير الحب لانه يتوالى دفعة بعد دفعة وأما ابن المعتز فانه كان خائفا يختلس التقبيل ويسرقه كما يفعل العصفور فى نقر الرطب اليانع لانه يتقدم جازعا خائفاً من الناطور فلا يطمئن فيما يلتمسه ، ألا ترى الآخر كيف قال فاحسن :

أقبله على جزعى كشرب الطائر الفزع
رأى ماء فواقعه وخاف عواقب الطمع

ومن شعر ابن رشيق .

قد أحكمت منى النجا رب كل شيء غير جودى
أبداً أقول لئن كسبـ ـت لاقبضن يدى شديد
حتى اذا أثريت عـد ـت الى السماحة من جديد
ان المقام بمثل حا لى لا يتم مع القعود
لابد لى من رحلة تدنى من الامل البعيد

ومنه :

معتقة يعلو الحباب متونها فتحسبه فيها ثغور جمان
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

ومن أساتذة ابن رشيق فى الادب أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيروانى النحوى وغيره من أهل القيروان ..

ابن حمديس الصقلى

٤٤٧ — ٥٣٧ هـ

ميلاده ونشأته :

هو أبو محمد ، عبد الجبار ، بن حمديس ، الأزدى الصقلى . أحد وصافى الطبيعة والمشاهد البديعة .

ولد فى أوسط القرن الخامس الهجرى ، بجزيرة صقلية ، وهى فى يد المسلمين العرب ، إبان حكم ملوك الطوائف فى الأندلس .

ونشأ بصقلية ، فى أسرة عربية محافظة ، تلقى عنها شيئاً من أدب الاسلام ، وحفظ طرفاً من الأدب العربى ، وقرأ القصص والأساطير التى كانت يومئذ حديث الناس ، كما طرق أذنه كثير من أخبار المسلمين وشعر العرب ونثرهم ، فاستعذب الشعر ، وعالج القريض وهو حدث .

ولبيئة صقلية أثرها فى شعره وشاعريته ، وصقلية ربى نضرة ، هواؤها بليل ، وماؤها موفور ، وجناتها مزهرة ، وأشجارها مورقة مثمرة ، وطيرها غرد ، وأهلها مزيج من العرب والرومان والأندلسيين ، وكانت تدين بالطاعة للملوك الطوائف ، الحاكمين البلاد . كما كان العرب فيها يعيشون بين : الرجاء فى الحاكمين ، والخوف من الإفرنجة المغيرين .. وكان الترف واللهو والمجون . وألوان من الحضارة ذائعة بينهم ، وكثرت فيهم مجالس الأنس . . وكان حمديس يرقب هذا عن كثب فيضيق صدره ، ويتحرق على الاسلام ، فى عفة تبين فى شعره ، وتحول بينه وبين الراح وإن شهد مجلسها ، وتربية شب عليها تمنعه أن يغامر مع الماجنين ، كما أن طيب الهواء ، وألوان الزهر وتنوع الثمر . وانتهاج الحاكمين سياسة العسف ، كل أولئك شحذ ذهنه ، وأرهف فكره فشعر ، وهو بعد فتى ، ونبغ فى الشعر وهو فى نضرة الشباب ، وكان طبيعياً أن تؤثر كل هذ المتباينات فى خلقه وذهنه ، غير أنه على مايظهر من شعره لم يدنس ولم يسف ، وعاش على دينه وعفته كريما نبيلا .

وفى عهد الشاعر كانت الدوله العربية فى صقلية فى أخرياتها ، قد نهكتها الفرقة

وأضعفها الترف ، وأمضها مادبرلها الافرنجة من دواعى الشيخوخة ، وأسباب الاضمحلال ، مما اختطه « شارل مانل » إذ قال لقومه فى القرن الثانى الهجرى ، عن العرب : لاتعارضوهم فإنهم كالسيل ، ولكن أمهلوهم ، حتى تمتلىء أيديهم ، ويتخذوا الشهوات لهم إماماً ، وتشبع بطونهم ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم على بعض - فحينئذ تتمكنون منهم -

وكذلك حقت كلمة ربك فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب ، حتى استولى النرمانديون على صقلية وطنه ، وهو فى شرخ الفتوة ، فشهد مصرع قومه ، وهاجر إلى اشبيلية عام ٤٧١ هـ ، وقصد إلى سيدها المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف فغفل عنه ، ولم يكترث له ، فضجر ابن حمديس وهمس (قنطت لخيبتى مع فرط تعبى ، وهممت بالنكوص على عقبى) ، ولكن الله نفس الكربة ، بغلام السلطان ، فركب معه إليه ، وأدخل على المعتمد ، فأجلسه على حشية من فرو ، وقال له : افتح الطاقة التى تليك ، ففتحها . وإذا كور من زجاج والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة ، وتسدها أخرى ، ثم أطال سد أحدها ، فحين تأملهما ابن حمديس.

قال له المعتمد : أجز :

انظرهما فى الظلام قد نجما ... فقال : كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقهما ... فقال : فعل امرئ فى جفونه رمد

فقال المعتمد : فابتزه الدهر نورواحدة ... فقال : وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن المعتمد ذلك ، وأمر له بجائزة سنية ، وألزمه خدمته

ومن هنا لمع كوكب ابن حمديس بهجرته ، واتصاله بالمعتمد ، وقد بقى مبجلا فى خدمته ، حتى أخذت تبين دولة المرابطين ، وأزالت فيما أزالت ملك المعتمد ، إذ عزله ونفاه يوسف بن تاشفين ، الذى أذل اشبيلية ، فتبع ابن حمديس ولى نعمته إلى منفاه ، ثم أقام الشاعر بالمهدية قاعدة افريقية ، ورحل إلى سفاقس ثم انتقل إلى ميورقة

وتصاريف الزمان هذه بابن حمديس ، أذاقته الحلو فرق شعره ، وأطعمته العلقم فانقبض وتشاءم ، وزهد فى الدنيا . ولم يأتمنها . ولم يلن لها عوده . على أن هجرته وإن كانت قد نشرت صيته . إلا أنها أقضت مضجعه . فلقد حن إلى صقلية . وملأ شعره حنينا إلى وطنه الأول .

وبيئة الشاعر والحياة السياسية فى عصره أوجدتا منه رجـــلا مؤمنا رقيق المشاعر يغلب جده مهزله ، يتشاءم فى افراط ، وينقبض نقمة من الناس . وفرارا من شياطين الانس ، لذا سلم منهم وإن خالطهم فلم تمتزج نفسه الا بالخير ، وإن انغمس مجتمعه فى الشر ، على أن البيئة قد فتقت ذهنه ، كما أن السياسة دفعت به إلى المهجر ، فاتصل بالمعتمد الذى حبب إليه الحياة .

شعر وشاعريته :

أخلاق الشعراء ومواهبهم تبين جلية فى أشعارهم ، ومن ثم غلب على شعر ابن حمديس : عفة اللفظ ونبل الفكر ، والزهد والورع . فشعره يبين فيه كل هذا ، إلى تصرف فى التشبيه العذب ، وغوص على درر المعنى ، وميل إلى الحكمة .

وبمطالعة شعره يتضح لنا أنه أغرم بزهد أبى العتاهية ، فنسج على منواله ، كما أعجب بالبحترى ، فغنى على قيثارته ، وافتتن بالمتنبى فقلده فى بعض شعره ـ . كما حاكى ابن المعتز فى شىء من أدبه

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل وجون ورثاء وشكوى ودعابة وعبرة ،وغير ذلك . ومن المعانى التى مرت بخاطره كثيرا وأكثر من ذكرها فى شـــعره حنينه إلى وطنه ، وذكر أيامه الأولى فى جزيرة صقلية . حيث يبكى فيها صباه ، وتملى عليه ذكرياته الماضية ، كثيرا من الآلام . وأحيانا تذكره ما كان هنـــاك من سرور يمرح فى بحبوحته ، وكثيرا ماتجده يبكى وطنه لما حل به من المصائب ، ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب .

ولسنا ممن يقول إن زهده مصنوع ، وأنه كان متهما فيه ، كما اتهم أبو العتاهية فى زهده بأنه أحب المخالفة لشعراء عصره ليظهر

على أن ابن حمديس وإن برع فى الزهد إلا أنه كان فى الوصف أبرع وعلى الرغم من تفوقه حين كان يشكو الزمان ، وخاصة بعد أن كف بصره وأخذ يتبرم بالحياة ، إلا أنه كان له الوصف المشرق ، حتى ليكاد يصل إلى عينك من لفظه الأنيق صورة ملموسة لما وصف ، وان اشتمل أحيانا لفظه على شىء من الغريب

الذي جاء في شعره والذي كان من أسبابه أن اللغة في المغرب لم يسرع بها التغيير مثل ما أسرع بها في المشرق ، تجد شاعرا قبله كالشريف الرضي سهل اللفظ ، لأن المشارقة لانت لغتهم باختلاطهم بالأعاجم ، على حين تجد شعر ابن حمديس ـ الذي تأخر به الزمان عن الرضي نحو نصف قرن ـ أكثر غريبا ، وأغمض لفظا

وخياله متسع يقظ ، يعنى بتمثيل المحسوسات بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات ، في أسلوب عذب ، وبيان ناصع ، وتعبير بليغ

ويعد ابن حمديس من أعلام الشعراء ، وقد سبق شعراء العرب الى «الواقعية» بمعناها العلمي الحديث ، فهو يكثر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس ، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها ، وما كان يعتريه من حيرة وشك . وسخط على الحياة حينا ، ومن أمل وابتسام وتفاؤل وثقة بها حينا آخر. كل ذلك مع الجد في التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعمله وأسلوبه ، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال في قصائده ـ فهو شاعر وجداني نفسي مفكر ، في طليعة الشعراء المفكرين من العرب

نماذج من شعره

١ — قال ابن حمديس ، وهو في المغرب :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموسا لاتذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أنقب في بلاد المغارب
فطمت بها عن كل كاس ولذة
وأنفقت كنز العمر في غير واجب
يبيت رياش العضب في ثنى ساعدى
معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى الا مثلما مضاربه يوم الوغى في الضرائب
فكنت وقدى في الصبا مثل قده عهدت إليه أن إمنه مكاسبي
فان تك لى في المشرفى مآرب فكم في عصا موسى له من مآرب

أتحسبنى أنسى وما زلت ذاكرا ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغذى بأخلاقى صغيرا ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبى
ويا رب نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبى أمورا جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة ... قضى بخلاف الظن عند المشارب

ومن شعره قوله :

ذكرت صقلية والاسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة ... فإنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء ... حسبت دموعى أنهارها

وقوله :

ولو أن أرضى حرة لأتيتها ... بعزم يعد النير ضربة لازب
لكن أرضى كيف لى بفكاكها ... من الاسر فى أيدى العلوج الغواصب
أمثلها فى خاطرى كل ساعة ... وأمرى لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين الثيب للوطن الذى ... مغانى غوانيه إليه جواذب
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل ... تمنى له بالجسم أوبة آئب

ومن قوله فى الوعظ :

غرتك دنياك التى ... لها سراب يخدعك
يضرك الحرص بها ... والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية ... إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذى ... يكون منه مطلعك
وللحساب موقف ... أهواله تروعك
يراك ذو العرش الذى ... ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن ... لغيره تضرعك

وقال يصف البحر :

أراك ركبت فى الأهوال بحراً ... عظيما ليس يؤمن من خطوبه
تسير فلكه شرقاً وغرباً ... وتدفع من صباه إلى جنوبه
وأصعب من ركوب البحر عندى ... أمور ألجأتك إلى ركوبه

وقال فى الشيب والحنين إلى وطنه (صقلية) :

نفى هم شيبى سرور الشباب ... لقد أظلم الشيب لما أضاء
أتعرف لى عن شبابى سلوا ... ومن يجد الداء يبغى الدواء
أأكسو المشيب سواد الخضاب ... فأجعل للصبح ليلا غطاء
وكيف أرجى وفاء الخضاب ... إذا لم أجد لشبابى وفاء

إلى أن قال :

وأراك يا بحر لى جنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحا ... إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا ... تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى ... لكنت أعانق فيها ذكاء

وقال يتغزل :

زارت على الخوف من رقيب ... كظبية روعت بذيب
كافورة فى بياض لون ... ومسكة فى ذكى طيب
كادت تروى غليل صب ... فؤاده منه فى لهيب
كان زمان اللقاء منها ... أقصر من جلسة الخطيب

وقال فى المروءة والوفاء والتدين :

أذم المروءة والوفاء ولا يكن ... حبل الديانة منك غير متين
والعز أبقى ما تراه لمكرم ... إكرامه لمروءة أو دين

وقال فى العصا :

ولى عصا من طريق الذم أحمدها ... بها أقدم فى تأخيرها قدمى

كأننى قوس رام وهى لى وتر ... أرمى عليها رمى الشيب والهرم

وقال فى فرس أدهم :

أدهم كالظلام تشرق فيه ... شعرات منيرة للعيون
كالذى يخضب المشيب ويبقى ... شاهدات بهن نفى الظنون

وقال فى الترفع عن الهجو :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطة ... على أن بعض الناس أصبح يهجونى
أسالم من ألقيت قدرى كقدره ... وأعظم من فوقى وأحقر من دونى
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول ... يجيل على الأعراض حد السكاكين

وقال يرثى جوهرة :

يهدم دار الحياة بانيها ... فأى حى نخلد فيها
وان تردت من قبلنا أمم ... فهى نفوس ردت عواريها
وأوحشتنا من فراق مؤنسة ... يميتنى ذكرها ويحييها
أذكرها والدموع تسعفنى ... كأننى للأسى أجاريها
جوهرة كان خاطرى صدفاً ... لها أقيها به وأحميها
ونفحة الطيب فى ذوائبها ... وصبغة الكحل فى مآقيها
عانقها الموج ثم فارقها ... عن ضمة فاض روحها فيها

وقال فى الشباب :

بكى الناس قبلى فقد الشباب ... بدمع القلوب فما أنصفوه
وإنى عليه لمستدرك ... من البث والحزن ما أهملوه
لعمرك ماالشيب ما بدا ... بفوديك إلا الردى أو أبوه

وقال يرثى أباه :

يد الدهر جارحة آسية ... ودنياك مفنية فانية
وربك وارث أربابها ... ومحى عظامهم البالية
رأيت الحمام يبيد الأنام ... ولدغته ما لها راقية
وأرواحنا ثمرات له ... يمد إليها يداً حانية
وعارية فى الفتى روحه ... ولا بد من رده العارية

سقى الله قبر أبى فسقياه رائحة غادية
وسير عن جسمه روحه إلى الروح والعيشة الراضية

وقال يمدح الأمير أبا الحسن على بن يحيى ويصف فتحه الأجم :

يمضى لك السيف ما تنويه والقلم ويستقل برضوى همك الجمم
لو شئت أغناك جداً عن محجلة شعار فرسانها الإقدام والهمم

إلى أن قال :

حصن بنته لصون الملك كاهنة وأفرغت فيه من تدبيرها الحكم
كأنه من بروج الجو منفرد فقطرة منه فوق الأرض تفتتم
وأعين الخلق منه كلما نظرت على العجائب بالألحاظ تزدحم
كأنما الحصن من خوف أحاط بهم
عليهم وهو المبنى منهدم
إن الصوارم فى فتح الحصون لها ضرب به تجتلى الأجياد والقمم
إن ابن يحيى علياً بدر مملكة لصيد آبائه الأجداد والقدر
قد أشرب الله فى قلبى محبته فشب فى مدحه طبعى وبى هرم
ياواحد الجود والبأس الذى اتفقت
بلا اختلاف على تفضيله الامم
زد زادك الله فى صون الهدى نظراً
إن الصليب ليشقى منك والصنم

ومن معانيه البديعة فى صفة نهر :

ومطرد الأجزاء يصقل متنه صبا أعلنت للعين مافى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى
عليها شكا أوجاعه بخريره

كأن جبانا ريع تحت حبابه فأقبل ينقى نفسه فى غديره

وله من قصيدة :

وأروى غليل الشوق بما لم يكن فى قدرة الماء القراح

ولعله من قول البحترى :

وبى ظمأ لايمكن الماء دفعه إلى نهلة من ريقها البارد العذب

ومن معانيه النادرة :

زادت على كحل العيون تكحلا

وبسم نصل السهم وهو قتول

وقال يواسى المعتمد بن عباد وهو فى معتقله بعد عزله عن ملكه :

أتيأس من يوم يناقض أمسه

وشهب الدرارى فى البروج تدور

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لسانى بالقيامة قد دنت فهذى الجبال الراسيات تسير

ولعل بيته الأخير مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز :

قد استوى الناس الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر : أين الرجال

هذا أبو القاسم فى نعشه

قوموا انظروا كيف تزول الجبال

وقال يتبرم بالزمان ويشكو الصحب :

أتحسبنى أنسى ومازلت ذاكرا خيانة دهرى أو خيانة صاحبى

ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

ولابن حمديس ديوان شعر ، عرف فضله المستشرقون الطليان فطبعوه ، وقد أحيوا بطبعه ذكر شاعر ممن أنبتهم بلادهم ، وإن كان شعره فى غير لغتهم .

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

فهرست الجزء الخامس

٣ - من أعلام شعراء الأندلس
٣ - ابن زيدون الشاعر
١٧ - ابن خفاجة الأندلسى
٣٦ - ابن سهل الأندلسى
٤٠ - ابن حزم الشاعر
٤٢ - ابن عبدون الشاعر
٤٧ - ابن زهر الشاعر
٤٧ - بنو عباد ونهضة الشعر
٤٨ - حكم المعتمد
٤٩ - وزراء المعتمد
٥٠ - ابن عمار الوزير الشاعر
٦٠ - من تاريخ المعتمد
٦٦ - شعر ابن اللبانة فى المعتمد
٦٧ - ابن اللبانة
٧٥ - الأدب فى عصر بنى عباد
٧٧ - الرصافى الشاعر
٨٢ - ابن طفيل الشاعر
٨٥ - الأدب العربى فى المغرب
٨٥ - تمهيد
١٠١ - الحالة الفكرية فى المغرب

١٠١ - تمهيد - الحياة العلمية
١٠٧ - أعلام من المغرب
١١١ - ابن حازم القرطاجنى
١٣١ - ابن خلدون
١١٩ - ابن بطوطة
١٢٤ - اللغة العربية فى المغرب
١٢٥ - النثر الأدبى
١٢٧ - الشعر العربى فى المغرب
١٣٠ - ابن رشيق القيروانى
١٣٣ - ابن حمديس الصقلى

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT